

العلم وأزمته

فهم الدلالة الاجتماعية للاكتشافات العلمية
(2000 ق.م. - 699 م)

المجلد الأول - الجزء الأول

تأليف: نخبة من العلماء
ترجمة وتقديم: أيمن توفيق



يتكون كتاب "العلم وأزمته" من سبعة مجلدات، وهذا المجلد الذي بين يدي القارئ هو المجلد الأول ويغطي الفترة الزمنية من 2000 قبل الميلاد إلى 699 ميلادية.

وعلى الرغم من أن المجلد يختص بفترة زمنية بعينها فإن أقسام الكتاب تسير بنظام المقالات المستقلة، فتتناول كل مقالة موضوعاً تعطيه تغطية شاملة من كافة جوانبه. وبذلك تحرر الكتاب من السرد الزمني الذي قد يكون سبباً لملل القارئ وانصرافه عن الكتاب.

ونظام تقديم العلم على صورة مقالات مستقلة عن بعضها له ميزة أخرى، قد تبدو عيباً في نظر البعض، وهي وجود اختلافات في المعارف، وسببها هو تعدد المؤلفين الذين يتناولون موضوعات متقاربة ولكن من زوايا مختلفة، فكل منهم له وجهة نظره وأفكاره الخاصة كما أن كلا منهم استقى معلوماته من مصادر خاصة به، غير أن ذلك يتفق مع الاتجاه العام الحديث في العلم وهو أنه ليس حكراً على عالم بعينه يملئه على الآخرين، بل العلم والآراء العلمية هي حصيلة أفكار متعددة تتقارع فيها الحججة مع الحججة ويترد الثمين الغث وينحيه جانباً فيبقى على الساحة ما تثبت التجارب صحته، والفائز الوحيد من تلك المعارك الفكرية هو القارئ الذي متاح له فرصة الاطلاع على آراء متباينة فيعمل فيها فكره ويلتقط منها ما يقنعه ويشفي غليله العلمي.



العلم وأزمته

فهم الدلالة الاجتماعية للاكتشافات العلمية

المجلد الأول (٢٠٠٠ ق.م. - ٦٩٩ م)

الجزء الأول

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغوث

- العدد: 1960
- العلم وأزمته: فهم الدلالة الاجتماعية للاكتشافات العلمية
المجلد الأول (٢٠٠٠ ق.م. - ٦٩٩ م) - الجزء الأول
- نخبة
- أيمن توفيق
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Science and Its Times: 2000 B.C. to A.D. 699 Vol. 1

Understanding the Social Significance of Scientific Discovery

by: Neil Schlager (editor)

and Josh Lauer (associate editor)

Published in the English language by Gale, a Cengage Learning
Company (Copyright © 2002)

© 2001 . The Gale Group. 27500 Drake Rd. . Farmington Hills,
MI 48331-3535

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

العلم وأزمته

فهم الدلالة الاجتماعية للاكتشافات العلمية

المجلد الأول

(٢٠٠٠ ق.م - ٦٩٩ م)

الجزء الأول

تأليف : نخبة من العلماء

ترجمة وتقديم : أيمن توفيق



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

العلم وأزمته : هم الدلالة الاجتماعية للاكتشافات العلمية المجلد الأول
(٢٠٠٠ ق.م - ٦٩٩ م) - الجزء الأول
تأليف : نخبة ؛ ترجمة وتقديم : أيمن توفيق .
القاهرة المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥

٦٩٢ ص، ٢٤ سم

١- العلوم - تاريخ

(أ) - توفيق، أيمن (مترجم)

٥٠٩

(ب) - العنوان

رقم الإيداع / ١٧٩٤٩ / ٢٠١١
الترقيم الدولي 2-800 - 704 - 977 - 978 I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

9 تقديم المترجم
15 تمهيد
19 مقدمة (٢٠٠٠ ق.م - ٦٩٩ م)
27 سجل زمنى (٢٠٠٠ ق.م - ٦٩٩ م)
31 الباب الأول - الاستكشافات والمكتشفات
33 سجل زمنى
35 نظرة شاملة
41 بعثة حتشبسوت إلى بلاد بُنت
51 دور شعوب البحر فى تحويل مسار التاريخ
58 الفينيقيون: دروس مبكرة فى الاقتصاد
65 فارس توسع حدود إمبراطوريتها
77 هانوىبىبحر على الساحل الغربى لإفريقيا
84 كتاب التاريخ لهيرودوت
91 زينوفون والعشرة آلاف
99 أطراف الأرض (ألتىما ثول) وبريطانيا ورحلة بيناس من مساليا

107 نيارخوس يكتشف طريقاً بحرياً من الهند إلى شبه الجزيرة العربية
114 الإسكندر الأكبر
128 طريق الحرير يربط بين الشرق والغرب
141 سعى روما إلى تكوين إمبراطورية
152 يوليوس قيصر وبلاد الغال
160 إليوس جاليوس يحاول غزو بلاد العرب
167 التكنولوجيا والحكومة الرومانية وانتشار المسيحية المبكرة
175 ليندسفارن وإيونا
182 سانت برندان ورحلته الملحمية
189 هسوان تسانج ينشئ اتصالاً بين الصين والهند
196 فا-هسين يسافر حول أطراف الصين
203 سير حياة مختصرة
265 شخصيات جديدة بالذكر
281 سجل بالمراجع الأولية
287 الباب الثانى - علوم الحياة والطب
289 سجل زمنى
291 نظرة شاملة
296 الأطباء والعقاقير والموت فى مصر القديمة
310 الوخز بالإبر فى الصين

316	التداوى بالأعشاب
326	القوانين الغذائية العبرية
333	أبقراط وتراثه
341	فلسفة الطب الإغريقي
349	نظرية الأخلاط الأربعة
355	أرسطو ونشأة علم الأحياء
362	نشأة علم النبات
369	الطب الأيورفيدى
377	علم الفسيولوجيا
386	الطب العسكرى فى روما القديمة
394	المستشفيات ومؤسسات العلاج فى العالم القديم
402	سير حياة مختصرة
441	شخصيات تستحق الذكر
452	سجل بالمراجع الرئيسية
457	الباب الثالث - الرياضيات
459	سجل زمنى
461	نظرة شاملة
467	الرياضيات فى بلاد الرافدين
478	رياضيات الهند القديمة

484 رياضيات المايا
490 رياضيات الصين القديمة
497 برديتا موسكو ورايند
504 طرق العد وأدوات الحساب المبكرة
512 فلسفة الفيثاغوريين
519 نشأة نظرية الأرقام
525 نظم الأرقام
531 العلاقة التاريخية بين علم المنطق والرياضيات
536 المسائل الثلاث التي لم تُحل في بلاد اليونان القديمة
551 قواعد الهندسة من طاليس إلى إقليدس
560 تقدم علم الجبر
567 نشأة حساب المتثالثات
575 إيراتوستثيز يقيس محيط الأرض
580 الأرقام الرومانية
586 نشأة الصفر
592 سير حياة مختصرة
650 شخصيات تستحق الذكر
673 سجل بالمراجع الرئيسية

تقديم المترجم

العلم قديم قدم الحياة البشرية نفسها على ظهر الأرض. وتاريخ العلم هو تاريخ البشر، ولعل اكتشاف كيفية إشعال النار واستخداماتها المختلفة كان من بين أقدم وأهم منجزات الإنسان الأول العلمية، وكذلك كان اكتشافه لوسائل صيد الفرائس ونصب الفخاخ وتمويهها. غير أن ما حققه الإنسان الأول يتعذر التعرف عليه على وجه التحقيق ويصعب بالتالي الحديث عن فعل هذا ومن فعل ذلك. ولهذا بدأ الكتاب الذى بين أيدينا بسنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ولم يتطرق إلى أى إنجازات علمية تمت قبل ذلك لعشرات الألاف من السنين.

وقد كتب سان سيمون داعية علم الاجتماع الحديث يستنكر قصر التاريخ على حياة الملوك وأعمالهم، فالتاريخ الحقيقى فى نظره هو تاريخ العلوم. فاكتشاف الكهرباء والبحث فى استخداماتها المختلفة فى القرون الثلاثة الأخيرة كان له أثر على البشر كافة أعمق بكثير من كل ما أنجزه ملوك وحكام العالم فى نفس الفترة الزمنية.

وتاريخ العلم هو بحر واسع وعميق وليس فى الإمكان سرد القصة فى تسلسل تاريخى أو علمى متصل الحلقات إلا بقدر محدود وجهد جهيد، فهى تحوى من الطفرات المثيرة مثل ما بها من النكسات والعثرات الكبيرة. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا ألا ننزلق إلى الحكم على ممارسات الماضى بموازين عصرنا الحاضر.

* * * *

إن ترجمة العلوم هي أساس تقدم الشعوب وسر استنارتها. وقد بدأت النهضة العربية بترجمة الكتب العلمية على يد مترجمي العصر العباسي الأول، وأسس الخليفة المأمون بيت الحكمة وخصصه لترجمة الكتب العلمية اليونانية، وكان يعمل به مترجمون كان أشهرهم حنين بن اسحق الذي ترجم كل كتب الطب الإغريقية تقريباً ونصف كتب أرسطو وتعليقاته، وهو مسئول أكثر من أى مترجم آخر عن تكوين حصيلة لغوية من المصطلحات العلمية والطبية باللغة العربية ابتكرها هو. وقد نتج عن حركة الترجمة التي استمرت ثمانين عاماً أن ظهر أفذاذ وقمم شامخة من أمثال أبو بكر الرازي وابن سينا وأبو القاسم الزهراوى والبيرونى والخوارزمى وجابر بن حيان، وكثيرون غيرهم الذين تبوأ الطب والعلوم العربية على أيديهم مكانة الصدارة وعلو الشأن.

وبالمثل بدأت النهضة الأوربية بترجمة كتب الطب والعلوم العربية إلى اللاتينية. وتُرجمت كتب أبقراط وجالينوس وكتاب المنصورى للرازي والقانون لابن سينا وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبى القاسم الزهراوى. وكلها كتب ظلت أساس التعليم الطبى فى الجامعات الأوربية لمئات السنين.

وبدأت النهضة المصرية الحديثة عند ظهور أول ترجمات علمية فى مصر فى العصر الحديث عندما افتتحت مدرسة الطب فى مصر (١٨٢٥)، وتوقفت عندما تحوات لغة دراسة العلوم إلى الإنجليزية سنة ١٨٩٧.

وقبل عصر الترجمة إلى العربية كانت أعداد الأطباء قليلة ولم يبرز طبيب عربى متميز واحد، بينما زادت أعدادهم زيادة كبيرة وبرز العشرات من فحول الأطباء بعد عصر الترجمة. وحدث نفس الشيء فى أوربا التى بدأت عصر نهضتها بترجمة أمهات الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية لغة العلم السائدة آنذاك.

وقد ترتب على تلك الترجمات التى استمرت ثمانين عاماً انتشار روح الاستنارة العلمية التى عمت أفراد الشعب العربى، بما فى ذلك المواطنون البسطاء وعوام الناس. وقد عثرت على ما يربو على أربعمائة بيت شعري عربى من العصر العباسى وحتى

العصر الحديث تتحدث عن أبقراط وجالينوس وعن طبهم بتبجيل وتوقير شديدين ولم يشذ شوقي أو حافظ ابراهيم عن ذلك. ولعل من أشهر الأبيات الشعرية العربية فى هذا المجال كان بيت المتنبى:

يموت راعى الضأن فى جهله مودة جالينوس فى طبه

ونتوقف هنا لحظة لكى نتأمل مغزى ذلك الاهتمام الشعبى العربى بأبقراط وجالينوس. فأبقراط وجالينوس كانا ينتميان إلى عصور غابرة وإلى حضارة بعيدة كل البعد عن الحضارة العربية وماتت وانمحت منذ زمن بعيد، وكانا يكتبان بلغة لا يعرفها عامة العرب، ويتحدثان فى شئون شديدة الخصوصية وهى الطب والجراحة والفلسفة. وليس لذلك الاهتمام الشعبى بأبقراط وجالينوس من تعليل سوى أن حركة الترجمة وبيت الحكمة وما أنتجه من ترجمات عربية لكاتب هذين الطبيبين المرموقين وغيرهما، لقيت اهتماماً من أفراد الشعب بكافة طوائفه وطبقاته، وفتحت عيون الناس على آفاق جديدة من المعرفة لم يكن لهم بها عهد من قبل، فأقبلوا عليها ينهلون من مناهلها ويتزودون منها. ويدل ذلك دلالة قاطعة على تغلغل الروح العلمية فى عامة الشعب وبين أحاده وعدم اقتصرها على قلة من العلماء والمترجمين. وهى برهان على استنارة الشعب مدفوعاً بتعاقب خلفاء مستنيرين على سدة الحكم فى بغداد، وتواكب ذلك مع نزعة شعبية عامة لاقتناء الكتب والولع بتكوين مكتبات خاصة. ولعل مرد ذلك يعود إلى جدة الموضوع وهو «العلم» الذى لم يكن لهم به عهد من قبل، ممثلاً فى الفلسفة والطب ثم الفلك والكيمياء والجغرافيا، وهى العلوم التى برع فيها العرب وشكلت الركيزة التى قامت عليها النهضة العربية. فقد أصبح طلب العلم مشروعاً قومياً تشارك فيه مختلف طبقات المجتمع. ولو كانت حركة الترجمة قصرت اهتمامها على أشعار هوميروس ومسرحيات سوفوكليس لما قامت النهضة العربية من الأساس.

* * * *

ويتكون كتاب "العلم وأزمته" من سبعة مجلدات، وهذا المجلد الذي بين يدي القارئ هو المجلد الأول ويغطي الفترة الزمنية من ٢٠٠٠ قبل الميلاد إلى ٦٩٩ ميلادية.

وعلى الرغم من أن المجلد يختص بفترة زمنية بعينها فإن أقسام الكتاب تسيير بنظام المقالات المستقلة، فنتناول كل مقالة موضوعاً تغطيه تغطية شاملة من جميع جوانبه. وبذلك تحرر الكتاب من السرد الزمنى الذى قد يكون سبباً للملل القارئ وانصرافه عن الكتاب.

ونظام تقديم العلم على صورة مقالات مستقلة عن بعضها له ميزة أخرى، قد تبدو عيباً فى نظر البعض، وهى وجود اختلافات فى المعارف، وإن كانت لا تتعدى اختلافات فى تواريخ الميلاد والوفاة. وسببها هو تعدد المؤلفين الذين يتناولون موضوعات متقاربة ولكن من زوايا مختلفة، فكل منهم له وجهة نظره وأفكاره الخاصة كما أن كلاً منهم استقى معلوماته من مصادر خاصة به، غير أن ذلك يتفق مع الاتجاه العام الحديث فى العلم وهو أنه ليس احتكاراً لعالم بعينه يمليه على الآخرين فيخرون ساجدين، بل العلم والآراء العلمية هى حصيلة أفكار متعددة تتقارع فيها الحجة مع الحجة ويطرد السمين الغث وينحيه جانباً ويبقى على الساحة ما تثبت التجارب صحته، والفائز الوحيد من تلك المعارك الفكرية هو القارئ الذى تتاح له فرصة الاطلاع على آراء متباينة فيعمل فيها فكره ويلتقط منها ما يقنعه ويشقى غليله العلمى.

ويبرز الكتاب أهمية الملاحظة فى الزمن القديم، حيث لم تكن قد نشأت بعد قواعد للبحث العلمى يسير الباحثون على هديها ويلتزمون بها كما هو الحال اليوم. ونوه الكتاب بأن العلم عادة ما يبدأ بالتجربة لتفسير ملاحظة ما، وبدون الملاحظة الأولية لا يوجد شىء جدير بالتفسير، وبذلك لا يتقدم العلم.

ويستعرض الكتاب نشأة كل ما يمت إلى العلم والمعرفة بصلة، فهو يتناول فى بابه الأول، "الاستكشافات" وأشهر الرحلات والرحالة فى تلك الفترة الزمنية ونشأة

الإمبراطوريات القديمة وتوسعها من فارسية وإغريقية ورومانية، ورحلات الرهبان البوذيين بحثاً عن النصوص الأصلية للديانة البوذية.

وفى الباب الثانى، يناقش علوم الحياة والطب، فيستهل بالحديث عن أطباء مصر القديمة ويردياتهم الطبية وعن تاريخ العلاج بالإبر الصينية والأعشاب. ثم ينتقل إلى مناقشة فلسفات الطب الإغريقى ونظرية الأخلاط وطب أبقراط ونشأة علم الأحياء على يد أرسطو وعلم النبات على يد ثيوفراستوس، والطب الأيورفيدى (الهندوكي) وظهور علم وظائف أعضاء الجسم على يد جالينوس. وينتهى بالحديث عن الطب العسكرى الرومانى وظهور المستشفيات.

وفى الباب الثالث، يناقش الرياضيات ونشأتها ونشأة علوم الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلاثات، ونشأة الرياضيات فى مختلف الحضارات القديمة، ونشأة الصفر. ولا يفوت مؤلفو الكتاب الحديث عن فيثاغورس والفيثاغوريين وإقليدس.

والباب الرابع، يناقش الفيزياء والنظريات الإغريقية عن المادة وأهمية التنجيم ودوره فى نشأة علم الفلك، وأفكار علماء العالم القديم عن الكون والكواكب السيارة، والكسوف والخسوف.

والباب الأخير، التكنولوجيا والاختراعات، يستفيض فى الحديث عن نشأة الزراعة واستئناس الحيوانات وبناء أهرام مصر ونشأة المدن والمعمار القديم وعجائب الدنيا السبع، والسيطرة على المياه وابتكار الصباغة والزجاج والتعدين والتقاويم والطرق الرومانية واختراع الكتابة والطباعة ورسم الخرائط.

كل هذه الموضوعات لم يسبق نشرها فى اللغة العربية بصورة مجمعة بين دفتى مجلد واحد. وأحسب أن غالبيتها لم يسبق أن ظهرت بلغة الضاد من قبل، وبهذا الأسلوب المبسط وبصورة شاملة جامعة.

وفيما يتعلق بسجلات الحياة المختصرة والشخصيات الجديرة بالذكر وقوائم
المراجع الأولية والموجودة فى نهاية كل باب، فقد أعدت ترتيبها وفقاً للأبجدية العربية
بدلاً من الترتيب الأبجدي الإنجليزي؛ وذلك تيسيراً للقارئ كي يجد بسهولة ويسر ما
يبحث عنه.

وأرجو أن تتاح الفرصة مستقبلاً لترجمة باقى مجلدات الكتاب التى تستكمل
الحديث عن تاريخ العلم حتى العصر الحديث.
أرجو أن أكون قد وفقت فى التعبير عن روح الكتاب قبل كلماته.
والله الموفق دائماً ...

دكتور أيمن توفيق

أستاذ غير متفرغ بكلية الطب جامعة الأزهر

aymant1@yahoo.com

مصر الجديدة فى مارس ٢٠١١

تمهيد

تزداد أهمية التفاعل بين العلم والمجتمع كنقطة محورية في دراسات المدارس الثانوية، وذلك لسبب وجيه: أنه باستكشاف الإنجازات العلمية داخل إطارها التاريخي، يتمكن الدارسون من فهم أعمق لحدثٍ أو لحقبةٍ زمنيةٍ أو لحضارةٍ بعينها. وهذا التناول للعلم الذي يزاوج بين فروع المعرفة المتعددة يعتبر القلب لهذا الكتاب.

وسوف يجد قراء «العلم وأزمته» معالجة شاملة لتاريخ العلم، بما فيه من أحداثٍ وقضايا محددة وتوجهات على مر التاريخ، كما سيجدون أيضاً تناولاً للعلماء الذين بدأوا تلك الأحداث أو تأثروا بها. ونجد أن انغماس العلم في التقدم الإنساني - وأحياناً في الوحشية الإنسانية - هو أمر لا يقبل الجدل، بدءاً من اختراع المحراث في العالم القديم ونشأة السفن عابرة البحار؛ إلى الصراع الذي دار في عصر النهضة بين الكنيسة والعلماء الذين نادوا بنظام شمسي يتمركز حول الشمس؛ وإلى نشأة الجراحة الحديثة في القرن التاسع عشر؛ وإلى الهجرة الجماعية للعلماء الأوربيين إلى الولايات المتحدة نتيجة لأفعال أدولف هتلر والنظام النازي في ألمانيا أثناء ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

وعلى الرغم من أن العلم كان له تأثير هائل على المجتمع، فإن ذلك التأثير كثيراً ما سار في الاتجاه المعاكس، نتيجة للتأثير الكبير للقواعد والسنن الاجتماعية على مسار الإنجازات العلمية على مر الزمان. ومثلما لا يمكن النظر إلى التاريخ بوصفه خيطاً لا ينقطع من التقدم المستمر، فإن العلم أيضاً لا يمكن رؤيته كسلسلة مستمرة من الانتصارات المبهرة. ويهدف «العلم وأزمته» إلى تقديم تاريخ العلم داخل إطاره

التاريخى - وهو إطار لا يتسم فقط بالعبقرية والمخترعات المذهلة فحسب، وإنما أيضاً بالحروب والأمراض والتعصب الأعمى والاضطهاد.

تصميم الكتاب

ينقسم «العلم وأزمته» إلى سبعة مجلدات، كل منها يغطى فترة زمنية محددة:

المجلد الأول : من ٢٠٠٠ ق.م. إلى ٦٩٩ م

المجلد الثانى : ٧٠٠-١٤٤٩

المجلد الثالث : ١٤٥٠-١٦٩٩

المجلد الرابع : ١٧٠٠-١٧٩٩

المجلد الخامس : ١٨٠٠-١٨٩٩

المجلد السادس : ١٩٠٠-١٩٤٩

المجلد السابع : ١٩٥٠ إلى الوقت الحالى

وتقسيم تاريخ العلم إلى مثل تلك المجموعات الزمنية الفرعية له مثالبه. فالكثير من الأحداث العلمية - بل العلماء أنفسهم - تتداخل فى فترتين زمنيتين مختلفتين. وكذلك كان الشائع على مر التاريخ أن تأثير أى تقدم علمى معين لا يظهر إلا بعد فترة طويلة من ظهور التقدم نفسه. وعلى القراء الراغبين فى الحصول على معلومات عن موضوع معين أن يبدأوا بالفهرست الموجود فى آخر كل مجلد. فالقراء المتابعون لموضوع ما فى مجلدين، قد يجدون نفس المعلومات العلمية فى مجلدين مختلفين.

كما يجدر بالقراء أن يتنبهوا إلى أن كثيراً من العلماء عملوا فى أكثر من مجال واحد أثناء حياتهم. وفى مثل تلك الحالات، قد نجد علماء يأتى الحديث عنهم فى فصلين

مختلفين من نفس المجلد. ولتسهيل البحث عن أشخاص أو موضوعات معينة كُتبت في الفهرست أرقام الصفحات التي ذُكر فيها الحديث الرئيسي بالحبر الثقيل.

في داخل كل مجلد انقسمت المادة العلمية إلى فصول، وفقاً لمجال الموضوع. وفيما يتعلق بالمجلدات ٥ و٦ و٧ تضمنت تلك المجالات: الاستكشافات والمكتشفات، وعلوم الحياة، والرياضيات، والطب، وعلوم الفيزياء، والتكنولوجيا والاختراعات. أما المجلدات ١ و٢ و٣ و٤ فسوف يجد القارئ أن الفصول الخاصة بعلوم الحياة والطب قد جُمعت سوياً في فصل واحد، إشارةً إلى الوحدة التاريخية بين تلك المجالات قبل سنة ١٨٠٠.

تنظيم المجلد الأول: ٢٠٠٠ ق.م. إلى ٦٩٩ م

بدأ المجلد الأول بقسمين بارزين في صدر الكتاب: مقدمة عامة تتناول العلوم والمجتمع أثناء تلك الفترة الزمنية، ثم سجل زمني يقدم أهم الأحداث العلمية في تلك الفترة مع أهم الأحداث التاريخية.

ثم ينقسم المجلد إلى خمسة فصول، وفقاً للمجالات الخمسة التي ذكرناها في تصميم الكتاب. ويدخل كل فصل سيجد القراء أنواع المداخل الآتية:

سجل زمني لأهم الأحداث. وهي الأحداث المهمة في مجال البحث أثناء تلك الفترة الزمنية.

نظرة شاملة. وفيها نجد تناولاً شاملاً للاتجاهات والقضايا المهمة والعلماء في مجال البحث أثناء تلك الفترة الزمنية.

المقالات الموضوعية: تناقش هذه المقالات، وتتراوح كلماتها بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ كلمة، أحداثاً وقضايا واتجاهات في المجال المحدد. وفي نهاية كل مقال نجد عنواناً لمزيد من القراءة يشير إلى القارئ بمصادر لمعلومات إضافية في الموضوع ما بين كتب ومقالات ومواقع على الإنترنت.

سير حياة فى عجالة: يتناول سير حياة العلماء المتميزين فى المجال فى مقالات تتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠ كلمة.

شخصيات جديرة بالذكر: سير حياة إضافية مختصرة لمزيد من العلماء النابهين فى تلك الفترة.

سجل بالمراجع الأولية: هذه القوائم المرجعية تبين الكتب والمقالات المتعلقة بمجال الحديث.

وبعد الفصل الأخير، نجد باين إضافيين: سجل عام بالمراجع الأولية ذات العلاقة بتاريخ العلم، ثم فهرست عام. وننصح القراء أن يتوسعوا فى استخدام الفهرست العام، لأن كثيراً من العلماء والموضوعات قد تم تناولها فى مواضع عديدة.

ومما هو جدير بالذكر فيما يتعلق بترتيب المقالات البحثية داخل كل فصل: أنه تم ترتيب 'سير الحياة'، المطولة منها والمختصرة، ترتيباً أبجدياً وفقاً لأسماء العلماء، ولم يُطبق هذا الترتيب على المقالات البحثية. وعلى القارئ الذى يود البحث عن موضوع معين أن يلجأ للفهرس فى آخر المجلد أو إلى فهرس المحتويات فى صدر الكتاب. وأخيراً يلزم التنويه بأن المجلد الأول يتناول أحداثاً قليلة حدثت قبل سنة ٢٠٠٠ ق.م. مثل بناء الأهرام فى مصر القديمة.

سمات إضافية

فى كل مجلد سوف يجد القراء موضوعات إضافية، وضعناها داخل مربعات، تناقش موضوعات لم تتطرق إليها الموضوعات البحثية.

وتضيف هذه الموضوعات الإضافية عناصر تشويقية إلى التقديم المباشر للعلم الذى تتسم به سائر الموضوعات. ويضاف إلى ذلك أن كل جزء يضم صوراً ورسوماً وخرائط متناثرة فى الفصول المختلفة.

مقدمة ٢٠٠٠ ق.م. إلى ٦٩٩ م

نظرة شاملة

طوال مسيرة التاريخ الإنسانى تقدم العلم والمجتمع جنباً إلى جنب بصورة تعاونية فعالة. ويصرف النظر عن الجدل الأكاديمى حول التعريف الدقيق للعلم، كان تاريخ العلم فى العالم القديم سجلاً لأول خطى مترددة تجاه معرفةٍ منهجيةٍ لعالم الطبيعة. وأثناء الفترة ما بين ٢٠٠٠ ق.م. و٦٩٩م، وبينما المجتمع يزداد تمركزه فى جماعات زراعية ومدن تجارية ثابتة، كان تطور العلم يحتضن المخترعات العلمية الضرورية، وفى نفس الوقت يستحث نشأة أول تفاسير عقلانية لضخامة وتعقيدات الكون.

ويحفل السجل الأثارى بدلائل وفيرة على أن كفاح أقدم أسلافنا فى سبيل البقاء على قيد الحياة قد حفز حاجة غريزية إلى تشكيل أدوات يتمكنون بواسطتها من اكتساب مزايا جسدية أكبر من القوة المتاحة للجسم البشرى الضعيف نسبياً. وبجانب الفضول الفطرى حول معنى البانوراما السماوية التى ارتسمت على سماوات الليل وكيف تعمل، فإن هذا السعى العميق إلى البقاء على قيد الحياة زاد من أهمية ملكات الملاحظة المنظمة والابتكارات التقنية والفهم العملى للبيئة المحيطة بهم. ومن تلك المهارات الأساسية نشأت الملكات الذهنية اللازمة للتساؤلات العلمية.

وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن الحضارات المتجولة التى سبقت أقدم المستوطنات لم تكن متطورة علمياً أو رياضياتياً بالمفاهيم المعاصرة، فإن جهودها

أسفرت فى النهاية عن قاعدة عظيمة من المعرفة التى تشكلت فى العلم والفلسفة التى كانت تُمارس فى بابل القديمة ومصر والصين والهند.

وفى الوقت الذى لا تزال فيه تفاصيل كثيرة عن الحياة القديمة غامضة، فإن نمط التاريخ الإنسانى يؤكد مبدأً متكرراً: وهو أن الأفكار تنشأ من أفكار أقدم. وفى العالم القديم انصهرت سوياً فى النهاية أعظم نواتج التقدم الذهنى للإنسان القديم، وأنتجت الحضارات الرائعة الكلاسيكية للإغريق والرومان، حيث اندمجت بوضوح مسارات العلم والمجتمع. وتعتبر ملاحظة سقراط بأن "الحياة التى لا تُختبر لا تستحق العيش فيها" عن فلسفة علمية مبكرة تحث المفكرين على فحص وتمحيص واختبار العالم وبحث شئونه. وهذا السعى وراء المعرفة والتفكير العقلانى وضع أساساً عملياً لتطور العلم والمجتمع الحديثين.

وضع صيغة للعلم

فى المجتمعات القديمة كان عالم الطبيعة يُفسَّر بصورة عامة بنزوات الآلهة أو بأحلام البشر. وعلى هذه الخلفية، جاهد العلماء والفلاسفة الأوائل ليصوغوا تفسير لعالم الطبيعة مبنية على الملاحظة والمنطق. فمن ممارسة بدائية للعد نشأ فى نهاية المطاف الجدل الفيثاغورى حول طبيعة الأعداد. ومن محاولات لتفسير المكونات الأساسية لعالم المادة ظهر لوسيبوس (Leucippus) (ح ٤٤٠ ق.م.) وديموكريتوس (Democritus) (ح ٤٢٠ ق.م.) وإبيكوروس (أبيقور) (٢٤٢-٢٧٠ ق.م.) الذين قرروا أن المادة مكونة من جسيمات متناهية الصغر تسمى الذرات.

ولقد كان الحافز الدائم لتقدم العلم هو تزايد الحاجة إلى تقييم العالم والتأثير فيه. ويتضح جلياً من المسائل الرياضياتية المبكرة الموجودة فى كلٍ من برديتى رايند وموسكو أن الرياضيات العملية والاستنتاج الهندسى كانا متطورين

أحسن تطور في مصر القديمة، وبخاصة أنهما مرتبطان بعلوم التشييد والبناء. ومن تلك الجذور العملية نمت وترعرعت نظريات الرياضيات المنهجية في بلاد اليونان القديمة.

ومن سوء الحظ أن العديد من حجج العلم القديم التي كانت في وقت ما مبدجة قد ثبت خطأها في النهاية. وعلى الرغم من عيوبها، فإن تلك المقولات الفلسفية للمنطق والرياضيات كانت خطوات على الطريق إلى الفهم الحديث للعلم. وعلى سبيل المثال، نجد أن النماذج الخاطئة للكون التي صنعها بطليموس (ح ١٠٠-١٧٠م) قد هيمنت على التعاليم الفكرية الغربية لما يربو على ألف عام، حتى أطاحت بها ثورة كوبرنيكوس في القرن السادس عشر. وعلى الرغم من أن فيزياء أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) قد أكدت أن جسماً متحركاً من أى كتلة لا بد له من الاتصال بـ «محرك» وأن كل الأشياء لا بد لها من 'محرك أولى'، فإن ذلك كان خطأً وإن كان قابلاً للتثبيت التجريبي، ولكن ذلك لم يثبت حتى كان الفحص الدقيق التجريبي والرياضياتي للفلكي والفيزيائي الإيطالي جاليليو جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢) والفيزيائي والرياضياتي الإنجليزي إيزاك نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧).

وفي خضم الأفكار المضللة نجد أحياناً أمثلة على علم قوى وبصيرة رائعة بالظواهر الطبيعية. فكتاب إقليدس 'المبادئ'، وهو توليفة من البراهين، كان مرجع الرياضيات الأصيل في تلك الفترة. واقترح أريستارخوس الساموسي (٣١٠-٢٣٠ ق.م.) أن الأرض تدور حول الشمس قبل ما يزيد على ١٧٠٠ سنة من قيام الفلكي البولندي نيكولاس كوبرنيكوس بتحدى تعاليم الكنيسة وتأكيدده على نظرية مركزية الشمس. وثمة مثال آخر على عمق التقدم الفكري في العالم القديم نجدها في أعمال إيراتوستينز السيريني (٢٧٦-١٩٤ ق.م.)، الذي - أثناء ما كان يعمل في مكتبة الإسكندرية العظيمة بمصر، ومستخدماً استنتاجات رائعة وتجارب ذكية - توصل إلى تقدير معقول لمحيط الأرض في زمن لم تتوفر فيه إلا أكثر الخرائط بدائيةً.

بلاد الرافدين ومصر القديمة والعلوم والرياضيات

بعد أن أُعيد تكوين سجل الحضارات الإنسانية من الشظايا المتناثرة للرسم والقدور، وُجد أنه يبدأ بمستوطنات مبكرة نشأت على ضفاف أنهار دجلة والفرات في حوالي ٣٥٠٠ ق.م. وعلى الرغم من أن العلماء لا يعتقدون أن تلك الحضارات المبكرة قد عرفت الكتابة، فإنهم كانت لهم سجلاتهم واستخدموا تقوياً يعتمد على أوجه القمر ومراحله، وقاموا بأول استخدام تقنى للمعادن. واستخدمت الحضارة التالية في بلاد الرافدين الكتابة المسمارية ليسجلوا تفاصيل تدفقات التاريخ المبكر وتراجعاته، بدءاً من جلجامش الملك السومري حتى انهيار سومر وظهور بابل.

وقد تركز التقدم العلمي في بلاد الرافدين في فترتين زمنيتين متباينتين، أقدمهما الفترة البابلية (١٨٠٠-١٥٠٠ ق.م.) وفيما بعد في الفترة السلوقية (٤٠٠-١٠٠ ق.م.). ومن الجلى أن كثيراً من التقنيات والمهارات الرياضياتية التي استخدمتها هذه المجتمعات يعود تاريخها إلى ما هو أقدم من أى من هاتين الفترتين. وتُظهِر أقدم الكتابات على البردي والكتابات المسمارية تنوعاً واسعاً في التطبيقات العملية للرياضيات، وبخاصة فيما له علاقة بالبناء والتشييد. وفي محاولة منهم لصياغة تقاويم زمنية أكثر دقة وجهوا التفاتهم بصورة خاصة إلى التحركات الموسمية للنجوم. وأتاح ابتكار البابليين لنظام الأعداد الستيني (المبنى على ٦٠) حسابات أكثر دقة لتحركات الأجرام السماوية التي يحتاجها تقدم الفلك وممارسة التنجيم. وبحلول القرن السادس ق.م. استخدم الكهنة المصريون أدوات بدائية لدراسة مرور النجوم عبر السماء، وأتاحت لهم مراقبة الشمس أن يتنبأوا بصورة أدق بالفيضان السنوي لنهر النيل.

وقد يَسْرَت الكتابة في العالم القديم للناس أن يجمعوا وينسقوا أشياء عديدة وأن يجرؤا حساباتها. ويجانب قوانين ليبيت - عشتار والملك العموري حمورابي (أول جمع للقوانين في تاريخ العالم) نجد بقايا للمعتقدات الدينية القديمة والممارسات الطبية

البدائية. وتقدم الموميאות والعقاقير والمراهم؛ شهادة مباشرة على الممارسات الطبية البدائية فى مصر القديمة. وفى الصين، كان الوخز بالإبر دليلاً على تكامل منظم وحسن التوثيق بين التشريح ووظائف الأعضاء استمر حتى اليوم. ولا تزال القوانين الغذائية العبرانية تعكس الممارسات الدينية المبكرة والاهتمامات العملية بالصحة.

نجح الرياضياتيون فى بلاد الرافدين فى ابتكار نظام مبنى على ٦٠، واستخدامات أولية غير متطورة للقيمة التقريبية «ط» والمعادلات التربيعية وطرائق بشرت بنظرية فيثاغورس وتركت أثرها على رياضيات بلاد اليونان وروما ومصر والصين. وأحرز التحسن فى الرياضيات تقدماً ملموساً. وأصبح لوح العد والأباكوس (المعداد) من أهم الأدوات اليومية للمساعدة فى نمو التجارة. كما تركزت على اهتمام الكهنة بتطوير تقويم حسابى لأغراض الممارسات الدينية نشأة وسائل دقيقة لتوزيع المواد الغذائية. وأتاح إدخال فكرة الصفر الهندية دعماً لتطور الرياضيات كانت الحاجة إليه قد اشتدت. وكاد الاحتياج إلى هذه الأنظمة الرياضية التى تستخدم فكرة الصفر والقابلة للتنفيذ والهادفة إلى المنفعة أن يكون مضاعفاً فى الحضارات القديمة للصين والمايا.

علوم بلاد اليونان وروما

وصل الاستيعاب البشرى للكون المادى والقوانين الرياضية التى تحكمه فى بلاد اليونان القديمة، وهى مهد الحضارات الكلاسيكية، إلى مستويات فكرية لم يصل إليها بعد ذلك إلا فى أخريات عصر النهضة.

وفى الإمكان تتبع النظرية الذرية الحديثة والتصنيفات المنطقية للمادة إلى ديموكريتوس وفلاسفة ما قبل سقراط. وكان التوكيد على أن المادة لها أساس غير قابل للانقسام من شأنه أن يجعل الكون محدوداً ومعروفاً فى إطار النظم البارزة

للمنطق التي ابتدعها زينو وغيره من فلاسفة الإغريق. وباتت النظريات المبكرة عن طبيعة المادة موضع حديث فكري ومجتمعي. ونشأ المذهب الذري وطبيعة العناصر ونوقشت في «تيمايوس» لأفلاطون وفي كتابات أرسطو وفي تأكيدات الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين.

وساهمت العلاقات التجارية ومسيرة جيوش الإسكندر الأكبر في تقدم المعرفة في بلاد اليونان القديمة بجلبها للمعارف العلمية من مصر القديمة وبابل والهند والصين. ويضاف إلى ذلك أن العالم القديم كان يملك حشداً من الاحتياجات الفكرية التي لم تكن تتطلب اتصالاً مادياً. فمثلاً، كان الاحتياج إلى تطوير تقاويم دقيقة في الصين حافزاً على نشأة واستخدام العديد من نفس التقنيات الفلكية والتنجيمية المتاحة في حضارات البحر الأبيض. ويصرف النظر عن نوع الحضارة، أفرزت المراقبات المستقلة للأجرام السماوية داخل تلك المجتمعات تدريجياً أساساً راسخاً لتقدم الفلك.

كما كان استيعاب العلم والثقافة دافعاً قوياً لنشأة الأنظمة الكونية واللاهوتية، التي ربطت بين تجولات الكواكب ونزوات الآلهة والربات وأهوائها. وعلى الرغم من أن تأويل الأحداث السماوية بوصفها إشارات من قوى ما فوق الطبيعة بقي حياً في أوربا حتى القرن الثامن عشر، فإن الأساطير والخرافات المبكرة مفعمة بإشارات بالتنبؤات الخاصة بمراقبة كل من الكسوف الشمسي والخسوف القمري. وبجانب أهميتها في الاحتفالات الدينية المحلية، تحول استقراء الأحداث السماوية إلى تفسيرات أسطورية، إن لم تكن فعلية، لميلاد الملوك وسقوط الأسرات الملكية. فمثلاً، ترتب على تنبؤ طاليس بالكسوف الشمسي سنة ٥٨٥ ق.م. توقف الحرب بين الميديين والليديين.

أسس العلم الحديث

شجعت نظريات أرسطو الخاصة بالكيمياء والعناصر الأربعة مثل (التراب والهواء والنار والماء) على بدء بحث عقيم ومراوغ عن عنصر خامس (الأثير) أزعج العلماء حتى

ظهرت نظرية النسبية على يد الفيزيائي الألماني - الأمريكي ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥) في القرن العشرين.

استمر بثبات إدخال التحسينات على المفاهيم الفيزيائية للمادة حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية. غير أن علم بلاد اليونان القديمة، على الرغم من بهائه وتآلقه وإنجازاته التكنولوجية، فإنه بقي مجرد فرع من فروع الفلسفة. وكان على العلم أن ينتظر زهاء ألفى عام لحين ظهور المنهج التجريبي الذي أعطى العلم حيويته.

ولقد أعادت الحضارة الرومانية العلم إلى جذوره المصرية والميزوبوتامية بوسائل بالغة الأهمية. فعلى شاكلة تلك الحضارات الأقدم، عمد الرومان إلى استغلال العلم في تقدم العمارة والهندسة. وترتب على ذلك أن الإنجازات الرومانية كانت واقعية وملموسة: قنوات وجسور وطرق ومباني عامة كانت أروع ما بُنى حتى أواخر عصر النهضة وأكثرها صموداً.

وكذلك لم تتقدم كثيراً الأخلاقيات في الإمبراطورية الرومانية، وكانت تركيبة المجتمع الروماني هي ما تسبب في تأخير نمو العلم بسبب استمرار الاعتماد على عمالة العبيد، وهو مورد شكّل حافزاً واهياً لتطوير تقنيات تقتصد من جهد العمل. كما أن قيمة التفكير العلمي كانت موضع تساؤلات إذا أدركنا أنه على الرغم من أن طبيعة المادة كانت موضع بحث فإن الأعراف الاجتماعية القديمة الخاصة بالعبيد ظلت كما هي تقريباً دون مراجعة.

وإذا كان العلم لم يزد إلا قليلاً عن كونه خادماً لفنون التكتيكات العسكرية والأسلحة الرومانية، فقد نُحى جانباً من المسرح الفلسفي أثناء تحلل الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، في بدايات عصور الظلام، وظهور المسيحية. وأصبحت الأدلة الموضوعية الخاصة بالكون تُمحس من خلال مُرَشَّحات لاهوتية أصرت على تقييم الملاحظات والحقائق في إطار قواعد لاهوتية. ومع حلول لاهوت جديد محل اللاهوت القديم، بدأت المجتمعات التي كانت تعول على تركيبات قديمة موحدة سياسية

واجتماعية، بدأت فى التشرذم وصارت منعزلة فكرياً عن بعضها. ولم تكتف هذه التشرذمات بالتسبب فى مزيد من تعويق تقدم العلم فحسب، وإنما نتج عنها ضياع جانب كبير من الثروة الفكرية للعصور الكلاسيكية. وعلى الرغم من أن العلماء العرب تمكنوا من الحفاظ على جزء من المعارف العلمية للعالمين القديم والكلاسيكى ومنطقها، فإن سقوط الإمبراطورية الرومانية هوى بالحضارة الغربية إلى عصور الظلام والعصور الوسطى التى غفا فيها العلم وتعثر لسبعة قرون.

ك. لى ليرنر

سجل زمنى : ٢٠٠٠ ق.م. إلى ٦٩٩ م

- ح ٢٥٠٠ ق.م. بداية الحضارة السومرية والكتابة البكتوجرافية بالصور التى سوف تتطور إلى الكتب السماوية؛ وبعد ذلك بما يقارب ٤٠٠ سنة، تبدأ الكتابة الهيروغليفية فى الظهور لأول مرة فى مصر .
- ح ٢٥٠٠ ق.م. اختراع العجلة فى سومر.
- ح ٢٦٥٠ ق.م. بعد نصف ألفية من توحيد مصر العليا ومصر السفلى على يد الفرعون مينا، تبدأ الدولة القديمة بالأسرة الثالثة، بناء الأهرام.
- ح ١٢٠٠ ق.م. موسى يقود شعب إسرائيل إلى خارج مصر ويدون الوصايا العشر وغيرها من القوانين، مما يضع أساس العقيدة اليهودية-المسيحية.
- ٦١٢-٥٢٨ ق.م. نشأة وسقوط سلسلة من الإمبراطوريات فى الشرق الأدنى، فحلت آشور محل بابل، ثم حل الفرس محل آشور؛ وهى نفس فترة الأسر البابلى لليهود، حين نشأت أفكار رئيسية فى العقيدة اليهودية-المسيحية مثل فكرة المسيح والشيطان.
- أخريات القرن الخامس -
بواكير القرن الرابع ق.م. نشأة الفلسفة الغربية على يد طاليس الميلى وغيره ممن أتوا من بعده؛ ونشأة الفلسفات والعقائد الشرقية

على يد بوذا وكونفوشيوس ولاو-تزو؛ بداية الجمهورية
الرومانية (٥٠٧ ق.م.) والديمقراطية في بلاد اليونان
(٥٠٢ ق.م.).

ح ٥٠٠ ق.م.

فيثاغورس الفيلسوف والرياضياتي الإغريقي يضع
نظريته الشهيرة، ويدرس العلاقة بين المقامات الموسيقية
وأطوال الأوتار على الآلات الموسيقية، ويتوصل إلى
الفكرة ذات التأثير البالغ بأن الكون يمكن تفسيره
رياضياتياً.

٤٧٩ ق.م.

معركة ميكال، آخر معركة في سلسلة الاشتباكات بين
الإغريق والفرس، وتنتهي بانتصار الإغريق. ويعقبها ٧٥
سنة العصر الذهبي الإثيني؛ وفي أثناء تلك الفترة يظهر
سقراط وبركليس وسوفوكليس وهيرودوت وأبقراط
وكثير غيرهم.

ح ٤٠٠ ق.م.

أبقراط وتلاميذه يضعون ميثاق الأخلاقيات الطبية،
ويرجعون الأمراض إلى أسباب طبيعية، ويستخدمون
الغذاء والعقاقير لإعادة الصحة السليمة إلى الجسم.

ح ٣٥٠ ق.م.

أرسطو يؤسس علمي الأحياء (البيولوجيا) والتشريح
المقارن، ويبدأ أول محاولة جادة لتصنيف الحيوانات.

٣٣٤-٣٢٣ ق.م.

الإسكندر الأكبر يُخضع مساحة من الأراضي أكبر وفي
زمن أقل من أي غازٍ آخر قبله أو بعده. وكنتيجة لغزواته
انتشرت الحضارة الهلنستية في غالبية أرجاء العالم
المعروف.

ح ٣١٠ ق.م.

المستكشف الإغريقي بيثياس يبدأ رحلة تأخذه إلى
بريطانيا واسكتدناوه.

ح ٢٠٠ ق.م. إقليدس يكتب كتاباً في الهندسة بعنوان "المبادئ" يقنن فيه كل الأعمال الرياضية حتى زمانه؛ وقُدِّر لهذا الكتاب أن يبقى المرجعية في الرياضيات لما يقارب ٢٢٠٠ سنة.

ح ٢٦٠ ق.م. أريستارخوس الفلكي الإغريقي يقرر أن الشمس وليست الأرض هي مركز الكون، وأن الكواكب تدور حولها؛ ولسوء الحظ، يرفض بطليموس فيما بعد هذا الرأي مفضلاً عليه فكرة مركزية الأرض، وهي فكرة لم يدحضها إلا كوبرنيكوس في القرن السادس عشر.

٢٢١ ق.م. تشين شيه-هوانج-تى يوحد الصين ويؤسس أسرة تشين ويتولى الحكم كأول إمبراطور صيني، ويأمر بتشييد سور الصين العظيم.

ح ٢٢٠ ق.م. أرشميدس يكتشف مبدأ الطفو، ويتوصل إلى أن الأجسام إذا وُضعت في الماء تفقد من وزنها ما يعادل بالضبط وزن الماء الذي تزيغه.

ح ١٢٠ ق.م. تشانج تشين، وهو دبلوماسي في خدمة الإمبراطور الصيني هان وو-تى، يقيم اتصالات مع المناطق ذات التأثير الإغريقي في غربي آسيا؛ وهو أول اتصال بين الشرق الأقصى والغرب، ويؤدي إلى افتتاح طريق الحرير.

٣١ ق.م. بعد ١٢ سنة من اغتيال يوليوس قيصر، ابن أخته أوكتافيان يهزم آخر أعدائه، أنتونى وكليوباترا في معركة أكتيوم؛ وبهذا الحدث تكون البداية الفعلية للإمبراطورية الرومانية، ولما يسمى "السلام الرومانى" الذى امتد قرنين.

- يسوع الناصري يموت على الصليب، وبعدها بست سنوات يرى الفريسي شاول رؤيا وهو فى طريقه إلى دمشق؛ تجعله يعتنق المسيحية ويساهم فى تأسيس الدين وفقاً لتعاليم يسوع. ح ٢٠م
- المخترع الصينى تساي لون يتقن طريقة لصنع الورق من لحاء الأشجار والخرق والقنب. ١٠٥م
- موت ماركوس أوريلوس، آخر الأباطرة الأربعة العظام الذين حكموا منذ سنة ٩٦م، مؤذناً بانتهاء فترة السلام الرومانى، وبداية اضمحلال الإمبراطورية الرومانية. ١٨٠م
- قسطنطين الإمبراطور الرومانى يوقف اضطهاد المسيحيين، مما يؤدى إلى اعتبار المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية؛ وفيما بعد، يقسم الإمبراطورية إلى نصفين شرقى وغربى، يحكمان من القسطنطينية وروما. ٣١٣م
- بعد نصف قرن من دخول الهون إلى أوروبا وبدء تدمير الإمبراطورية الرومانية الغربية، القوط الغربيون بزعامة أларيك يجتاحون روما؛ وبعد ٦٠ سنة أخرى تنتهى الإمبراطورية الغربية رسمياً. ٤١٠م
- الركاب، الذى أتت به إلى الغرب القبائل الرحل الغازية، يظهر فى أوروبا لأول مرة، وهو أحد أهم الاختراعات فى التاريخ لأنه جعل القتال من فوق ظهور الخيل ممكناً، وبهذا يفتح الطريق أمام نشأة الفروسية والإقطاع. ٤٥٠م
- الرسول محمد وأتباعه يهربون من مكة، بادئين بذلك التقويم الهجرى - مع سلسلة من الغزوات الإسلامية نشرت الحكم الإسلامى بحلول سنة ٧٥٠م من مراكش إلى أفغانستان، ومن إسبانيا إلى الهند. ٦٢٢م

الباب الأول

الاستكشافات والمكتشفات

سجل زمنى

- حوالى ١٤٧٢ ق.م. حتشبسوت ملكة مصر ترسل بعثة إلى الجنوب إلى أرض بُنت، فى منطقة الصومال الحديث.
- حوالى ٦٠٠ ق.م. الملاحون القرطاجنيون يدورون حول القارة الإفريقية؛ كما يؤسس القرطاجنيشون حوالى ذلك الوقت أيضاً مستعمرات أوربية مثل: مرسيليا ویرشلونة، وفيما بعد تنشئ مجموعة منهم بقيادة هانو مستعمرات فى غرب إفريقيا.
- حوالى ٤٢٤-٤٢٥ ق.م. هيرودوت يزور كثيراً من مناطق العالم المعروف، ويجمع مواد - تشمل معلومات جغرافية - لكتابه «التاريخ».
- ٣٢٥-٣٢٤ ق.م. فى نهاية فتوحات الإسكندر، التى تزيد كثيراً من معرفة الإغريق بالعالم، يقود قائد إغريقى يدعى نيارخوس أسطولاً ويستكشف الطريق البحرى من مصب نهر السند إلى رأس الخليج الفارسى.
- حوالى ٣١٠ ق.م. بيثياس المستكشف الإغريقى يبدأ رحلة تأخذه إلى بريطانيا وإسكندينايفيا.
- حوالى ١٢٠ ق.م. تشانج تشين، الدبلوماسى الصينى لدى الإمبراطور هان وو-تى يتصل بالمناطق التى تحت النفوذ الإغريقى فى غرب آسيا؛ وكان ذلك هو أول اتصال بين الشرق الأقصى والغرب، ويؤدى إلى افتتاح طريق الحرير.

٥٥-٥٤ ق.م.

يوليوس قيصر يقود الرحلة الأولى من الرحلتين
الاستكشافيةتين الرومانيتين إلى بريطانيا.

حوالى ١٠٠ م

كانيشكا، أعظم حكام الإمبراطورية الكوشانية المتمركزة
فى بيشاور بالهند (الآن فى باكستان)، يبدأ اتصالاً
حيوياً بين الشرق والغرب، مساهماً بذلك فى إدخال
الثقافة الهلينية إلى الهند، والبوذية إلى الصين.

فترة ٢٠٠-٦٠٠ م

موجة من الهجرات غرباً، تبدأ بالهون فى القرن الرابع
م، وبذلك تُغيّرُ إلى الأبد سمات أوروبا ووعيها بالعالم
الخارجى.

م ٢٩٩

فا-هسين، وهو صينى بوذى، يرتحل إلى الهند وسيلان،
وهو أول اتصال مهم بين الصين وشبه القارة الهندية.

م ٥٦٣

القديس كولومبا يؤسس أول دير بارز فى الجزر
البريطانية، فى إيونا قبالة ساحل اسكتلندا؛ وهذا الدير
وغيره فى أماكن أخرى فى اسكتلندا وإيرلندا سيساعد
على المحافظة على الحضارة الغربية أثناء قرون الظلام
من ٥٠٠ إلى ٨٠٠ م.

م ٦٦٤-٦٢٩

الرحالة الصينى والحاج البوذى هسوان-تسانج (زوان
زانج) يقوم برحلتين فى أرجاء الهند، ويجمع معلومات
جغرافية وثقافية مهمة.

نظرة شاملة

الاستكشافات والمكتشفات

٢٠٠٠ ق.م. إلى ٦٩٩ م.

خلفية

ضاعت في خضم الزمن أسماء المستكشفين الأول الذين تجولوا بحثاً عن فرائس الصيد والنباتات الصالحة للأكل في الأرض التي لم يكونوا قد تعلموا بعد أن يستزرعوها. وبعد ذلك بأجيال عديدة تنقّل الناس عبر مساحات شاسعة من الأرض معمرين أوروبا وآسيا وإفريقيا والأمريكتين - واستقر بعضهم في مناخات معتدلة، بينما تحول آخرون إلى بدو مرتحلين إلى الأبد. ولم تبق سجلات مكتوبة لتلك الرحلات المبكرة. وقام الإنسان باستكشافات محدودة- بدافع الفضول أحياناً، ولكن غالباً بسبب الاحتياج الدائم للبحث عن الطعام. أما المستكشفون الأوائل، بالمعنى الحديث للكلمة، أي أولئك الذين تركوا لنا سجلاً مكتوباً لرحلاتهم، فقد اقتصروا على أقوام وأراضى «العالم» الصغير المحدود حول البحر المتوسط. وتلك الإنجازات، التي كثيراً ما غذتها رغبة حضارة ما في الغزو العسكري، هي أول أمثلة للاستكشاف الحق.

وأقدم حضارات مسجلة في العالم كانت حضارات مصر وسومر، وتبعتهما بابل وأشور والحضارة المينوية بجزيرة كريت، والإغريق. وأقدم أمثلة مسجلة للاستكشافات هي ما قام به المصريون الذين قاموا برحلات استكشافية في أعالي نهر النيل،

والآشوريون الذين استكشفوا نهري دجلة والفرات. وفي حوالى ١٤٩٢ ق.م. أرسلت الملكة المصرية حتشبسوت عدداً من السفن فى رحلة تجارية إلى بلاد بَنْت. وشملت الرحلة عبور ١٥٠ ميلاً (٢٤١ كم) عبر الصحراء من النيل إلى سواحل البحر الأحمر، ثم التجديف والإبحار بالشراع حوالى ١٥٠٠ ميل (٢٤١٣ كم) تجاه البحر العريى. ونُحتت مشاهد الرحلة على جدران معبد حتشبسوت الجنائزى فى تسجيل غير مسبوق لمثل ذلك الإنجاز.

الاستكشافات البحرية المبكرة

على الرغم من أن المصريين تركوا بعضاً من أقدم السجلات لرحلاتهم، فإن أول المسكتشفين الحقيقيين كانوا الفينيقيين- الذين اشتهروا بسعيهم وراء التجارة والاستيطان فى منطقة البحر المتوسط وبمنتجاتهم مثل: الأقمشة الصورانية والزجاج المنفوخ- والذين غامروا بالتوغل بعيداً عن السواحل بحثاً عن طرق جديدة لتوسيع نطاق حضارتهم. وكان للفينيقيين تأثير عميق على الحضارة الإنسانية، مشجعين للتجارة بين مجموعات الشعوب، وبهذا عرّفوا الحضارات والثقافات المختلفة فى حوض البحر الأبيض على بعضهم البعض، وناشرين العلم والفلسفة والأفكار الأخرى فى أرجاء العالم القديم. ويعتقد كثير من المؤرخين أن الأسطول الفينيقى للفرعون نخاو الثانى قد يكون قد دار حول قارة إفريقيا، ويعود الفضل فى ذلك إلى رواية حول رحلة استكشافية فينيقية كبيرة استغرقت ثلاث سنوات حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. ذكرها هيروdot المؤرخ الإغريقى فى كتابه «التاريخ».

وأعظم دليل على رحلات الفينيقيين للتجارة والاستكشاف بين الحضارات المختلفة هى الرحلة بعد ذلك الوقت بأكثر من قرن والتي قام بها هانو الملاح القرطاجنى. ويهدف تعزيز المستوطنات القرطاجنية وتأسيس أخرى جديدة، أبحر هانو من خلال مضائق جبل طارق، التى كانت تُعرف آنذاك باسم أعمدة هرقل، بمحاذاة السواحل

الشمالية والغربية إلى إفريقيا لإنشاء مستوطنات لحماية طرق التجارة الجديدة والتوسع فيها. ونصب هانو عموداً حجرياً يُعرف باسم 'بريبولوس' (Periplus) نقش عليه يوميات مفصلة لرحلته ويعتقد أنه أطول نقش كتبه كاتب فينيقي. ولم يتكرر النجاح الذي حققته رحلته إلا في العصر الذهبي للاستكشافات البرتغالية بعد حوالي ٢٠٠٠ سنة.

وباستثناء هانو، لم تُسجَل إلا قلة ضئيلة من مغامرات المستكشفين الفينيقين. ولم يحدث إلا حوالي سنة ٢٢٠ أو ٢٢٥ ق.م. أن مغامراً آخر ترك خلفه سجلاً باستكشافاته- وكانت في اتجاه الشمال هذه المرة. فقد أبحر بيثياس من مساليا (Pytheas of Massalia)، وهو مغامر إغريقي وفلكي وعالم، إلى الشمال إلى ما بعد ما كان الإغريق يطلقون عليه «العالم المسكون». فسار بحذاء ساحل المحيط الأطلنطي حول إسبانيا ثم بريتاني، إلى أن وصل إلى بريطانيا بحثاً عن القصدير وغيره من المواد التي تهتم الإغريق، الذين كانوا منافسين تجاريين أقوى للفينيقين. وكان بيثياس أول من استكشف المناطق القطبية الباردة - وربما وصل شمالاً إلى النرويج وإيسلانده- وهو أول من تحدث عن البحر المتجمد.

البعثات البرية

على شاكلة ما قام به المستكشفون البحريون تمت استكشافات أرضية مهمة في العالم القديم وكانت غالبيتها سعيًا وراء السيطرة العسكرية، بواسطة جنود يقودون جيوشهم في الحروب التي نشبت في ساحة البحر الأبيض، وبخاصة بواسطة الإغريق والفرس. واستخدم عسكريون، مثل زينوفون الضابط الإثيني، معارفهم عن جغرافية المنطقة كي يقودوا جيوشاً جرارة إلى المعارك قبل أن يعودوا إلى أوطانهم. وأحسن مثال مبكر للاستكشافات العسكرية كان ما قام به الإسكندر الأكبر، الذي كانت

استكشافاته لتوسيع إمبراطوريته من الضخامة، بحيث إن ألف سنة مرت قبل أن تتمكن حضارة أخرى، هي الفايكنج، من مجرد الاقتراب من حجم غزواته واكتشافاته.

فبدءاً من ٣٢٤ ق.م. شرعت القوات الإغريقية للإسكندر في عبور البحر إلى آسيا الصغرى، وهزمت الفرس، ثم غزت سوريا وفينيقيها ومصر قبل أن تترك البحر المتوسط متجهةً إلى قلب الإمبراطورية الفارسية. واستولت على بابل، وداومت السير في اتجاه الشمال الشرقي حتى وصلت إلى شواطئ بحر قزوين، واقتحمت أفغانستان، ومن خلال ممر خيبر وعبور نهر السند دخلت الهند بحلول ٣٢٦ ق.م. وفي الهند، أرسى الإسكندر مثلاً للاستكشاف الجماعي ندر وجود شبيه له في التاريخ بتقسيمه قواته العائدة، فأرسل أحسن سفنه بقيادة الأميرال الإغريقي نيارخوس كي تتعرف على المزيد من 'طبيعة البحر' ويعود إلى الوطن عن طريق الخليج الفارسي، بينما سارت بقية قواته براً خلال جنوب بلاد فارس. وقاد الإسكندر بنفسه جزءاً من قواته براً عبر ساحل مقران، حيث فعلت الصحراء فعلها في رجاله، قبل أن يعود منتصراً إلى بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وفي بحر عشر سنوات سارت قواته مسافة ٢٠,٠٠٠ ميل (١٨٠, ٣٢ كم)، وهو إنجاز لم يكن له مثيل في العصور القديمة.

ولم تمض إلا بضعة قرون على اجتياح قوات الإسكندر لآسيا الصغرى إلى الهند، حتى وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى أقصى مدى لها- بمجرد أن غزا يوليوس قيصر بلاد الغال في الحروب الغالية (٥٨-٥٠ ق.م.). وفي أعقاب الحروب البونية (٢٦٤-٢٠١ ق.م.) وسّعت الإمبراطورية الرومانية من حدودها سريعاً، وفي النهاية ضمت ثروات لا مثيل لها وسيطرت على أراضٍ وصلت شمالاً إلى بريطانيا (ألبيون) وجنوباً حتى جبال أطلس في شمال إفريقيا- مع اهتمام أعظم بالاستعمار لا بالاستكشاف. غير أن الرومان جعلوا التجارة والمواصلات والترحال ممكنين بصورة لم يسبق أن عرفتها شعوب العالم المعروف من قبل. كما أن العصر الروماني أفرز أعظم جغرافى في العالم القديم، وهو سترابون من آسيا الصغرى، الذي لم يتفوق عملٌ على كتابه الضخم «الجغرافيا» (Geographica) حتى أخريات العصور الوسطى.

استكشاف آسيا

إضافة إلى الغزوات والاستعمار الذي قامت بها إمبراطوريات العالم القديم، كانت الحضارات الآسيوية تبحث عن فرص جديدة لنشر التعاليم الدينية والدعوة إليها - كما تثبتت مغامرات الرهبان الصينيين الذين ارتحلوا لمسافات شاسعة إلى الغرب كي يزوروا المكان الذي وُلد فيه بوذا، ولكي يدرسوا الكتب المقدسة البوذية. وجاب غيرهم، مثل فا-هسين في أوائل القرن الخامس وهسيانج - تسانج في القرن السابع، لسنوات عديدة في أرجاء الصين والهند وأحدثوا تقبلاً عاماً للديانة البوذية في وطنهم الصين - كما استكشفوا طرقاً جديدة للتجارة وبخاصة للحريز تلك البضاعة الفاخرة، وشرع الصينيون في المجازفة غرباً بتلك البضاعة الرقيقة - التي كانت مطلوبة بلهفة من قبل الإمبراطورية الرومانية الثرية - على طريق الحرير، وهو سلسلة من الطرق البرية تربط الصين بأنطاكية ودمشق وغيرهما من المدن في شرق البحر المتوسط. وفي بادئ الأمر كانت مغامرة طريق الحرير قد قام بتنظيمها الإمبراطور وو-تي من أسرة هان، الذي أرسل تشانج تشين قائد الحرس الإمبراطوري ومعه مئة رجل كمبعوثين إلى الغرب. وأمضى تشين ورجاله عقداً من الزمان باعتبارهم أسرى عند قبائل هسيونج-نو، الذين عرفوا في الغرب باسم الهون، ولكنهم في النهاية تمكنوا من الفرار واكتشفوا بلاد فارس وبلاد العرب، بل حتى روما، واكتسبوا ثروة من المعارف السياسية والدبلوماسية والاقتصادية للصينيين، الذين أنشأوا في النهاية بدورهم طريق الحرير، الذي ربط ما بين حضارتهم والغرب.

نظرة مستقبلية

في العصور الوسطى، وبينما حضارات العالم تتطور وتنتشر، تحول فضول الإنسان عن عالمه إلى رغبة في استكشاف وغزو أراضٍ وشعوب جديدة. وغامر تجار وراهبان وملاحون (وخليط من الثلاثة) في رحلات استكشافية. وكانت القوى العسكرية

البدوية للفايكنج والمغول، كما كانت الحملات العسكرية الثمانية الجرارة للصليبيين،
أمثلة منتقاة للحاجة الجهرية إلى الاكتشاف والغزو. وبنهاية العصور الوسطى كانت
الخريطة السياسية للعالم قد تغيرت تغييراً مثيراً، وترسخ الزخم الدافع لبناء الأمم
واستعمار (واستكشاف) الأنحاء القاصية من العالم.

آن مارسدن (ANN T. MARSDEN)

بعثة حتشبسوت إلى بلاد بُنت

نظرة شاملة

فى العام التاسع من حكمها أرسلت الملكة حتشبسوت فرعون مصر (ح ١٤٧٨-١٤٥٧ ق.م.) عدداً من السفن فى بعثة تجارية إلى بلاد بُنت البعيدة، التى تقع إلى الجنوب من مصر. وانبهر المصريون بالشعب الغريب والنباتات والحيوانات العجيبة التى وجدها فى بُنت، كما تباهاوا بإنجازهم لتلك الرحلة الصعبة إلى ذاك البلد الغامض البعيد. واحتفلت حتشبسوت بالبعثة بسلسلة من النقوش البارزة زينت بها جدران معبدها الجنائزى الفخيم فى الدير البحرى. ويشكل ما كتبه حتشبسوت والنقوش البارزة فى الدير البحرى سجلاً غير مسبوق عن الممارسات التجارية المصرية، وأنواع السفن المستخدمة فى الرحلات التجارية، والحياة النباتية والحيوانية فى الأراضى الأجنبية، وحضارة البنتيين. ولم تكتف بلاد بُنت الغربية بسلب أبواب المصريين فحسب بل زودتهم أيضاً ببضائع كانت أساسية لتطور الاقتصاد المصرى الداخلى وأسواقه العالمية الأخرى.

الخلفية

لم تكن حتشبسوت أول فرعون يتاجر مع بلاد بُنت. فقد كان للمصريين علاقات تجارية مع بُنت منذ زمن مبكر يعود إلى الأسرة الخامسة (ح ٢٤٧٠-٢٣٥٠ ق.م.) واستمرت التجارة بصورة متقطعة لما يربو على ألف عام، حتى توقفت فى الأسرة الثانية عشرة (ح ١١٨٠-١٠٦٠ ق.م.)، وبعدها لا نجد ذكراً لبلاد بُنت فى النصوص

المصرية إلا فيما ندر، ولا يستطيع المؤرخون الجزم باستمرارية الاتصال أو بمداه. والموقع الدقيق لبنت غير مؤكد، ولكنها ربما كانت تقع إلى الجنوب من مصر بالقرب من سواحل البحر الأحمر فيما هو اليوم السودان أو إريتريا. ولما كانت الإشارات إلى بنت ترد في أنواع شتى من النصوص المصرية (من قصائد الحب إلى السير الذاتية)، وهى وثائق تغطى فترة زمنية طويلة (حوالى ٢٠٠٠ سنة)، فإنه ليس من الواضح أن كلمة 'بنت' تعنى نفس المكان فى كل مرة. وعلى هذا فإنه يبدو أن موقع بنت كان يتغير بمرور الزمن، وبطول الحقبة الإغريقية الرومانية (٢١٠ ق.م. - ٢٩٥ م)، يبدو أنه اتخذ سمة أسطورية. وعلى الرغم من ذلك، فإن المصريين، أثناء كل تلك الحقب الزمنية، كانوا يعتبرون أن لهم علاقات خاصة مع تلك البلاد الأجنبية الغريبة، وكانوا دائماً يبدون احتراماً خاصاً للبنتين وأعمالهم.

وأقدم ذكر لبنت يوجد على حجر بالرمو، وهو نصب مهشم مسجل عليه قائمة بملوك الأسر الخمس الأولى. ووفقاً لما جاء على حجر بالرمو، فإن ساحورع فرعون الأسرة الخامسة (ح ٢٤٦٢-٢٤٥٢ ق.م.) استورد من بلاد بنت ٨٠٠٠٠ وحدة من نتيو (المر والبخور) وكميات كبيرة من الإلكترولوم (سبيكة من الفضة والذهب). ويسجل نقش آخر من الدولة القديمة رحلة إلى بنت أحضر فيها قزم وقدم إلى البلاط المصرى، وتذكر سيرة ذاتية خاصة كيف أن رجلاً صاحب سيده إلى بنت وبيبلوس. وهذا النص الأخير يثير أمراً مهماً خاصاً بالتجارة مع بنت؛ وهو أنها كانت مجرد جزء من المنظومة التجارية المصرية. وفى الحق، وحتى فى ذلك الزمن المبكر، كان المصريون يقومون برحلات منتظمة إلى بيبلوس [فى لبنان الحديثة] على السواحل الشرقية للبحر الأبيض، إضافة إلى رحلات إلى بلاد بنت. ويبدو أن الطريق المبكر إلى بنت كان يمر بوادى طميلات والبحيرات المرة فى دلتا النيل براً إلى ميناء على البحر الأحمر، حيث كانت تُبنى سفن كبيرة تستطيع السفر بحراً وتُجهز للسفر جنوباً إلى بلاد بنت.

وفى نهاية الدولة القديمة (ح ٢١٩٠ ق.م.) دخلت مصر فترة من الفوضى والتفكك، مما جعل من المستحيل استمرار الاتصال ببلاد بعيدة مثل بلاد بُنت. غير أنه لما عاد الأمن والنظام فى الدولة الوسطى (ح ٢٠٥٥ ق.م.)، استؤنفت التجارة مع بُنت. وترأس هننو كبير موظفى منتوحتب الثالث (ح ٢٠١٤-٢٠٠١ ق.م.) فرعون الأسرة الحادية عشرة، بعثة من ٢٠٠٠ رجل إلى بُنت لاستئناف العلاقات التجارية. ويذكر هننو فى سيرته الذاتية تفاصيل عن الرحلة، تشمل معلومات عن التخطيط لها وتنظيمها. ومنها نعرف أن هننو ورجاله اتخذوا طريقاً جديداً، فغادروا قفط فى مصر وساروا براً من خلال وادى حمامات إلى ميناء على البحر الأحمر. ووفقاً لما قاله هننو فإنه أرسل فريقاً سبق البعثة وحفر آباراً على طول تسعين ميلاً (١٤٥ كم) فى الصحراء ما بين قفط والبحر الأحمر. وأعطى كل فرد من أفراد البعثة هراوة وحافظة من الجلد لحفظ الماء، وكان يتلقى حصة طعام يومية مكونة من قنيتين من الماء و٢٠ رغيفاً مقدداً. بل إن قافلة الأمتعة حملت معها صنادل إضافية فى حال تمزق أحدها فى تلك الرحلة الشاقة. وبمجرد وصولهم إلى الميناء على البحر الأحمر بُنت البعثة «سفن بيبيلوس»، وهو طراز كبير خاص يصلح للإبحار فى البحر ويستخدم فى رحلات بيبيلوس وبلاد بُنت. وكشفت حفريات أثرية حديثة فى مرسى جواسيس عن بقايا ميناء على البحر الأحمر كان يستخدمه تجار الدولة الوسطى. ومن ذلك الميناء أبحر هننو ورجاله بمحاذاة الشاطئ، ثم ترحلوا وساروا ما يبدو أنه مسافة كبيرة فى داخلية البلاد حتى لاقوا البُنْتين. ومكثوا فى بُنت شهرين أو ثلاثة ثم عادوا صاعدين بمحاذاة الشاطئ. ولما وصلوا إلى الميناء المصرى كان عليهم أن يحملوا كل ما أحضروه من بضائع على ظهور الحمير، واخترقوا الصحراء عائدين إلى قفط. وشملت البضائع المر وجلود الحيوانات (الفهود والشيتا) والعاج وخشب الأبنوس والذهب وغير ذلك من البضائع الثمينة. وكانت التجارة مع بُنت تستنفد وقتاً طويلاً وموارد كبيرة من المصريين، ولكنها كانت تعود عليهم بمكاسب هائلة.

التأثير

كانت حتشبسوت واحدة من قلائل النساء اللواتي حكمن مصر. وكانت ابنة تحتمس الأول (ح ١٥٠٦-١٤٩٢ ق.م.)، ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وتزوجت حتشبسوت من تحتمس الثاني أخيها غير الشقيق وصارت ملكة لمصر. ولما مات تحتمس الثاني (ح ١٤٧٩ ق.م.)، كان وريثه تحتمس الثالث أصغر من أن يحكم، فأصبحت حتشبسوت، زوجة أب الملك الصغير، وصية على العرش. وبعد انقضاء سنتين على وصايتها على العرش قررت حتشبسوت أن تكسر التقاليد وتعلن نفسها فرعوناً على مصر. وحكمت بمفردها ما يربو على عشرين سنة، ولكن بعد موتها تولى تحتمس الثالث العرش أخيراً. ولما كانت هي في حقيقة الأمر مغتصبة للعرش فقد كان شاغلها الأكبر أن تقنن حكمها وتجعله شرعياً. فبذلت وقتاً وجهداً كبيراً كي تعلن عن إنجازاتها وتقدمها لرعاياها في أحسن صورة، وتؤكد غالبية آثارها أنها حققت السلام والرفاهية في كل أنحاء مصر. وبنيت لنفسها معبداً جنازياً رائعاً في الدير البحري، وضممت النقوش البارزة على جدرانها نقوشاً تحكى عن واحد من أعظم إنجازاتها وهي البعثة التي أرسلتها إلى بلاد بونت. وبالنسبة إلى حتشبسوت، التي لم تصاحب تلك البعثة، كانت التجارة مع بلاد بونت تشكل تطوراً اقتصادياً مهماً كما أنها أثبتت أيضاً روح المغامرة التي تمتعت بها حتشبسوت في استكشاف بلاد غريبة وبعيدة. وعلى الرغم من أن حتشبسوت ادعت دون حق أن بعثتها كانت أول البعثات إلى بلاد بونت فإنها أعادت الصلات التجارية التي كانت قد تقطعت منذ فترة الاضطرابات الثانية (ح ١٦٥٠-١٥٢٥ ق.م.). ولقد كانت نقوش بونت جزءاً مهماً من رسالة حتشبسوت إلى الأجيال التالية، للتأكيد على أنها كانت فرعوناً شرعياً حكمت بحنكة وأتت بالسلام والرفاهية لشعبها.

وعلى الرغم من أن نقوش بونت كانت دعائية في المقام الأول، فإنها حوت ثروة من المعلومات حول بلاد بونت وشعبها وإدارة شئون التجارة. وعمل الفنانون المصريون، الذين من الجائز أنهم صاحبوا البعثة في رحلتها، على التصوير الدقيق لكل خصائص

البُنْتِيَيْنِ وَيَبْنِيَتُهُمْ. فعلى سبيل المثال صوروا رجال بُنْت ببشرة داكنة محمرة، وسمات دقيقة وشعر طويل ولحيات صغيرة. وكان الرجال يرتدون عادة تنورة قصيرة، ولكن النساء كن يرتدين أردية. وكانت صورة ملكة بُنْت على النقوش هى أكثرها إثارة للإعجاب والجدل، فقد صُوِّرت بانحناءة فى الظهر إلى الخلف مبالغ فيها مع كتل من الدمن تغطى أذرعها وأرجلها القصيرة. وهذا التصوير الغريب، ولكنه دقيق، لملكة بُنْت جعل كثيراً من العلماء يعتقد أنها كانت مصابة بأمراض خطيرة شتى، رغم أن الأمر قد لا يعدو أن المصريين كانوا ببساطة مبهورين بحجمها الهائل وأرادوا أن يسجلوه بكل دقة. وإضافة إلى الناس أظهرت نقوش بُنْت القرى وما يحيط بها من نباتات وحيوانات. وكانت القرية البُنْتية التقليدية تقع على ضفاف نهر، حيث كانت أكواخ مستديرة من الطين وذات قباب تُبنى على أرصفة لتقيها من فيضان النهر والأفاعى والتماسيح وأقراس النهر. وتدل مناظر الطبيعة من النباتات والحيوانات التى صُوِّرت على النقوش أن بلاد بُنْت كانت تقع على تلال من السافانا غربى البحر الأحمر. وبما أن أحداً لم يحاول أن يستكشف تلك المناطق فإن تساؤلات كثيرة تبقى بلا جواب حول الحضارة البُنْتية وتجارتها مع مصر. ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يحتفظوا بمعسكر دائم فى بلاد بُنْت، رغم أن حتشبسوت شيدت معبداً صغيراً مكرساً للإله أمون وملكة بُنْت.

وقد زودت بعثة بلاد بُنْت مصر بطائفة من بضائع الرفاهية. وكان الطلب أكثر ما يكون على الراتنجات العطرية وخشب المر والبخور، التى كان المصريون يستخدمونها فى الاحتفالات الدينية. بل إن المصريين أحضروا معهم أشجار المر، وأضعين جذورها فى سلال لحمايتها، كى يزرعوها مرة أخرى فى المعابد المختلفة. وشملت البضائع المطلوبة الأخرى جلود النمر والفهود والشيتا والعاج وخشب الأبنوس والذهب وحيوانات حية مثل: قرود البابون والماشية والأحجار شبه الكريمة والتوابل. ولم تكن كل تلك البضائع موطنها بلاد بُنْت وإنما جمعها البُنْتيون من أعماق البلاد خصيصاً للتجارة مع مصر. وفى المقابل أعطاهم المصريون البيرة والخبز والفواكه واللحوم

والحلى والأسلحة وغير ذلك من الأشياء الصغيرة. ومن الجلى أن الاقتصاد المصرى قد استفاد استفادة هائلة من تلك التجارة، لأن كثيراً مما عادوا به إلى مصر توزعت على المعابد والأشخاص واستخدمت في التجارة مع بيبيلوس، أو مُنحت في تبادل للهدايا مع الحكام الأجانب.

وأعادت بعثة حتشبسوت إلى الحياة تجارة مهمة ومربحة. ومن الجائز أن تكون مصر كان لها بعض النفوذ والسلطان على بلاد بُنت، رغم أن السمة الرئيسية للعلاقة بينهما كانت تجارية وليست سياسية. ولقد كان من المستحيل أن تُحكم بلاد بُنت بفاعلية من تلك الشُّقة البعيدة. وعلى صعيد آخر فإن حقيقة أن بلاد بُنت كانت على بعد سحيق، حيث لا يمكن أن تشكل خطورة على مصر كانت فكرة مريحة للمصريين، الذين كانوا دائماً فى شغل شاغل بالغزو الأجنبى. وأضافت المسافة أيضاً إلى العلاقة عنصرًا للتشويق والمغامرة. وببساطة أحس المصريون أنهم يسافرون إلى 'نهاية العالم' لكى يحصلوا على ثروات لا مثيل لها ويكتسبوا معارف جديدة. ومن زوايا كثيرة تمثل البعثة المصرية إلى بلاد بُنت أول استكشاف حقيقى فى العالم.

ساره س. ملفيل (SARAH C. MELVILLE)

لمزيد من القراءة

David, R. Handbook to Life in Ancient Egypt. Oxford: Oxford University Press, 1998.

Grimal, N. A History of Ancient Egypt. Oxford: Blackwell, 1992.

Quirke, S. and J. Spencer, eds. The British Museum Book of Ancient Egypt. London: Thames and Hudson, 1992.

Trigger, B. G., B. J. Kemp, et al. Ancient Egypt: A Social History. Cambridge: Cambridge University Press, 1983.

أساطير ثبت أنها حقائق: عندما أخطأ الخبراء

إن كثيراً مما هو معروف اليوم عن العالم القديم يمثل انتصارات للهواة على المحترفين، أو انتصار ما يبدو لأول وهلة أنه من الأساطير على ما هو ظاهرياً محل شكوك علمية. ومثال الأمر الأول: ما حدث سنة ١٩٥٢، عندما تمت ترجمة ما يُعرف باسم 'الخط ب الميسيني' (Mycenaean Linear B script)، وهو جهد بدأه مهندس معمارى يدعى ميشيل فنتريس (Michael Ventris) (١٩٢٢ - ١٩٥٦). وعلى الرغم من أنه أكمل ترجمته بالاستعانة بعالم لغويات محترف هو جون تشادويك (John Chadwick)، فإن فنتريس كان قد استكمل الجانب الأعظم من أعمال فك الشفرة. وعلى الرغم من أن فنتريس كان ضليعاً فى موضوعات مثل التحليل الإحصائى فإنه كان أبعد ما يكون عن أن يكون خبيراً فى ميسينيا.

وأما فيما يتعلق بانتصار ما يبدو أنه نصر للأساطير على الشكوك، فيتبدى فى معلومات مختلفة وردت بالتوراة تبين أنها حقائق تاريخية دقيقة. ففي لحظة ما كان المؤرخون، برفضهم لقصة الخلق التوراتية، يرفضون داود وسليمان - ناهيك عن إبراهيم وموسى - بوصفهم شخصيات لا تزيد تاريخيتها على أخيل وهرقل. وفى الحق تبين الآن أن كل الشخصيات التوراتية تقريباً بعد نوح كانوا أشخاصاً حقيقيين.

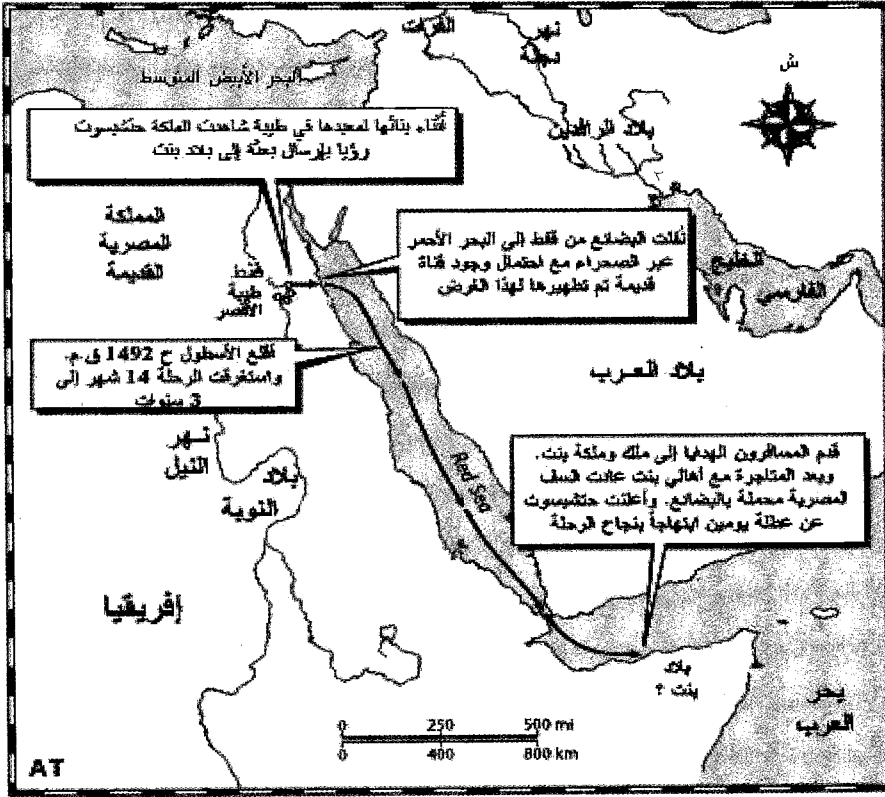
وهناك على وجه الخصوص حالة لافتة للنظر وهى حالة الحيثيين فى آسيا الصغرى الذين، على الرغم من أنهم ذُكروا فى التوراة، فإن جيرانهم المباشرين فى بلاد اليونان كانوا لا يدرون عنهم شيئاً. وفى القرن التاسع عشر، أثبت الأثاريون وجود الحضارة الحيثية واكتشفوا السبب فى أن الإغريق لم يدروا عنهم شيئاً: وهو أن الحيثيين اختفوا سنة ١٢٠٠ ق.م.، فى نفس الوقت تقريباً الذى دخل فيه المسيحيون فى عصر من الظلام فى أعقاب الغزو الدورى.

وهناك قصة واحدة تجمع كل الخيوط السابقة - وهي الأساطير التي تبين أنها حقائق، والهاوى نوح الذكاء اللماح، والطبقات التاريخية في بلاد اليونان وآسيا الصغرى - وهي قصة هينريخ شليمان (Heinrich Schliemann) (1822-1890). فمن بين المتع القليلة في طفولته الفقيرة كان كتاب عن حرب طروادة، التي كان الجميع يؤمنون بأنها من الأساطير فيما عدا شليمان. فبعد أن جمع ثروة كبيرة من عمله كتاجر، شد رحاله إلى تركيا للبحث عن موطن الطرواديين. ولم يكتشف طروادة وحدها (وموقعها الحالي حصارليك) بل كشف النقاب في النهاية عن الكثير من ميسينيا.

جدسون نايت (JUDSON KNIGHT)



رسم مصرى يبين جزءاً من الحملة إلى بلاد بونت



خريطة توضح الطريق الذي سلكته الملكة حتشبسوت عبر البحر الأحمر إلى بلاد بنت

دور 'شعوب البحر' فى تحويل مسار التاريخ

نظرة شاملة

فى نهاية القرن الثالث عشر ق.م. دخلت القوى العظمى فى شرقى البحر المتوسط والأناضول ومصر فى فترة من الاضطرابات السياسية والفاقة الاقتصادية وهجرات السكان نتج عنها تغيرات عميقة دائمة فى الهوية الحضارية للعالم القديم. فقد تداعت الإمبراطورية الحيثية فى الأناضول (تركيا الحديثة) واختفت كليةً؛ ودُمرت تماماً الحضارة الميسينية الإغريقية؛ ونُهبت مدن فى سوريا وشواطئ شرقى البحر المتوسط وهجرها سكانها؛ وتمكنت مصر بالكاد، بعد أن فقدت أقاليمها فى سوريا وفلسطين، من المحافظة على حدودها، ودامت فترة التمزق التى نشأت عدة مئات من السنين. وتضافرت عوامل شتى فى التسبب فى فترة الانهيار تلك، غير أن هجرات وغزو مجموعات عرقية مختلفة فى كل أرجاء عالم البحر المتوسط كانت من بين العوامل الحاسمة. وأطلقت المصادر المصرية على تلك القبائل الجواله اسم 'شعوب البحر' التى منها استقى العلماء المحدثون هذا الاسم.

الخلفية

نعمت حضارات بحر إيجه والشرق الأدنى بفترة من رخاء رائع واستقرار عام خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. واحتفظت القوى السياسية العظمى آنذاك- المصريين والحيثيون ودولة الميتانى والبابليون، بعلاقات دبلوماسية معقدة وكان لها نشاط تجارى حافل، وتصارعوا فيما بينهم للسيطرة على المناطق ذات

الريح الوفير في فلسطين وشمال سوريا وسواحل شرقي البحر المتوسط، ووفرت تلك السواحل منفذاً إلى جزر بحر إيجه وأرض بلاد الإغريق، حيث ازدهرت الحضارتان المينوية والميسينية. ونتج عن الاتصال التجارى والدبلوماسية تبادل فنى وثقافى على نطاق فاق كل ما كان فى أية فترة سابقة. ولأول مرة صار هناك نظام دولى حقيقى.

وكانت مصر فى أغلب فترات تلك الحقبة معترفاً بها عالمياً بوصفها الأمة القائدة، فكانت تحكم إمبراطورية تمتد شمالاً من خلال سيناء صعوداً إلى الشاطئ الفلسطينى وحتى سوريا، وجنوباً من خلال نهر النيل إلى النوبة. وأتى التهديد الوحيد لمكانة مصر المتميزة من الحيثيين فى الأناضول، ومن حكام تابعين متمردين، ومن غارات عارضة من القبائل الليبية من الغرب، ومن هجمات متقطعة من قراصنة أو بدو رحل. وتحت قيادة رمسيس الثانى (ح ١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م.) تعاملت مصر بسهولة مع تلك التهديدات. وفى العام الرابع من حكم رمسيس شن الشردين، وهم قراصنة من جزر بحر إيجه أو من الساحل السورى، هجوماً شرساً على الدلتا المصرية. وهزمهم رمسيس وحل مشكلة أى هجوم مستقبلى بأن أدمج من بقى من الشردين على قيد الحياة فى جيشه. وكان ذلك هو أقدم ذكر لأى من 'شعوب البحر'، وجدير بالذكر أنهم صاروا فرقة مرتزقة مهمة فى جيش فرعون.

وكان من المحتم أن يشتبك رمسيس فى صراع مع الحيثيين حول السيطرة على سوريا، وحاربهم فى معركة قادش حوالى سنة ١٢٨٦ ق.م. ولم تكن نتيجة المعركة حاسمة، غير أن كلا الجيشين كان يحوى كتائب من المرتزقة ستظهر أسماء قبائلهم فيما بعد فى قوائم أسماء 'شعوب البحر'. وهكذا نجد أن اللوكا والدردانيين، وكلاهما من الساحل الجنوبي للأناضول، حاربا فى صفوف الحيثيين، بينما قاتل الشرديون لحساب المصريين. وفى تلك اللحظة كان كل من المصريين والحيثيين لا يزالان على درجة من القوة تكفى للتعامل بسهولة معقولة مع تلك القوى العدوانية. ويشهد لجوء كلتا القوتين إلى ضم تلك الشعوب إلى قواتهما بكفأتهما القتالية العالية،

ولكنه يشى بضعف خطير فى القوى العظمى وهو اعتمادهما على المرتزقة. وحل المصريون والحيثيون خلافتهما ووقعا معاهدة سلام حوالى سنة ١٢٦٨ ق.م. وبان أن الموقف السياسى فى الشرق الأدنى قد استقر. غير أن حكم رمسيس الثانى الطويل الأمد (ح ١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م.) قد نتجت عنه أزمة فى وراثة العرش واضطراب سياسى وإنهاك اقتصادى أضعف مصر وتركها عرضة للهجوم. وتجاه نهاية القرن الثالث عشر ق.م. عانى الحيثيون أيضاً من مشاكل سياسية داخلية قوضت من أركان السلطة المركزية وأعطت ذريعة للحكام التابعين للتمرد.

وتمتعت أيضاً الجزر الإيجية وبلاد اليونان بالرخاء والنمو الاقتصادى فى القرن الثالث عشر ق.م. وسيطر الميسينيون (نسبة إلى مدينة ميسينا) على بلاد اليونان وبحر إيجه من خلال دول-مدن منفصلة اعتمدت قوتها على وجود طبقة محاربة قوية. وكانت كل مدينة مستقلة استقلالاً ذاتياً ويحكمها ملك، وتحميها قلاع حصينة. وليس من المعلوم مدى اتصال الميسينيين بالحيثيين أو المصريين أو بموانئ شرقى البحر الأبيض التجارية، ولكن فيما بعد حددت الأساطير الإغريقية تاريخ حرب طروادة الشهيرة بنهاية القرن الثالث عشر ق.م.، وهناك دلائل على التجارة واستيطان محتمل للميسينيين فى الأناضول والساحل الشرقى للبحر الأبيض. وكثيراً ما كان الميسينيون يتحاربون فيما بينهم، وكان من المحتم أن يترك هذا القتال المستمر آثاره. فبدءاً من ١٢٥٠ ق.م. بدأ الاقتصاد الميسينى يعانى من اضمحلال أضعف الدول-المدن وتركها عرضة للتهديدات الخارجية.

وفى نهاية المطاف نتج عن التدهور الاقتصادى والتغيرات المناخية السيئة (الجفاف) فى كل أنحاء شرقى البحر المتوسط أن القوى العظمى استحالت عليها أن تتعامل بكفاءة ضد القراصنة الذين اشتد نشاطهم وضد المغيرين على الأراضى. وليس من المعروف ما الذى دفع هؤلاء المغيرين لأن يبدأوا هجومهم المدمر وهو أمر قيد النقاش، ولكن الخراب الذى تسببوا فيه هو من الأمور المؤكدة.

التأثير

فى العام الخامس من حكم الفرعون المصرى مرنبتاح (ح ١٢٢٤-١٢١٤ ق.م.)، هوجمت مصر بواسطة الليبيين وتحالف من شعوب البحر' شمل الإكوش(Ekweh) والشكيلش (Shekelesh) والشردين (Sherden) واللوكا (Lukka) والترش (Teresh)، ويبدو أنهم كانوا جميعاً ينتمون إلى سواحل الأناضول. ولم يكن ذلك مقصوداً به أن يكون غارة بسيطة لنهب غنائم، ولكنه كان جهداً منسقاً بهدف غزو مصر والاستقرار بها. ونجح مرنبتاح فى صد الغزو ولكن الأسوأ كان لا يزال فى المستقبل. فبعد حوالى ٢٠ سنة واجه الفرعون رمسيس الثالث (ح ١١٩٤-١١٦٢ ق.م.) جيشاً غازياً ضخماً من 'شعوب البحر'. ووفقاً لما قاله رمسيس:

...وبالنسبة إلى البلاد الأجنبية، فإنهم دبروا مؤامرة فى بلادهم. فتحركت كل البلدان فى آن واحد، وانغمست فى الحرب. ولم يتمكن بلد واحد من الوقوف أمام جيوشهم، حتى (الحيثيون) وكود وقرقميش وأرزاوا وألشيا (قبرص). كلها حوصرت. ونصبوا معسكراً فى عمور (عمورو أى شمال سوريا). فاقفرت من سكانها وخربوا أرضها بما لم يحدث من قبل. (انظر أ. كورت الشرق الأدنى القديم من حوالى ٢٠٠٠-٢٣٠٠ ق.م.، الجزء الثانى، لندن: روتلج، ١٩٩٥، ص ٢٨٧)

وهذا النقش هو الوصف المكتوب الوحيد لدينا لتلك الأحداث. ووفقاً لما يقوله المصريون فإن الإمبراطورية الحيثية ومدن ساحل شرقى البحر الأبيض وقبرص؛ كانت قد استسلمت بالفعل للغزاة الذين اندفعوا بعد ذلك على الساحل كى يغزوا مصر. وفى الحق فإن الحفائر فى مدن الإمبراطورية الحيثية وشمال سوريا وسواحل البحر الأبيض الشرقية أثبتت وجود طبقات من التخريب الشامل. وحل بالإمبراطورية الحيثية، التى ازدهرت فى الأناضول لما يقرب من ألف عام دمار ماحق حيث إنها نُسيت تماماً حتى إعادة اكتشافها فى الأزمنة الحديثة. وخُربت عمور وأوجاريت ولم يعد إليها سكانها قط مثلما حدث لكثير من المواقع فى فلسطين. وفى مصر حارب

رمسيس الثالث وجيشه معركة يائسة مع القوات المتحالفة للبلست (Peleset) والتشركرو (Tjerku) والشكش والدانو (Da'anu) والواشوش (Washosh). وانتصر المصريون ولكنهم فقدوا ممتلكاتهم في سوريا وفلسطين وغالبية أراضيهم في النوبة نتيجة للقتال. وعلى الرغم من أن المصريين نجحوا في طرد الغزاة، فإن الأسرة العشرين من الناحية الفعلية تمثل نهاية الدولة الحديثة وبصورة ما نهاية مصر الفرعونية. ولم يحدث بعد ذلك أن تمتعت مصر بمثل تلك المكانة الرفيعة سياسياً أو ثقافياً؛ ولم يحدث بعد ذلك أن صارت مصر تقود النظام العالمى.

وبينما كان شرقى البحر الأبيض يتداعى تحت وطأة غزوات شعوب البحر، تعرضت يونان الميسينيين بدورها لدمار شامل. وهناك جدل يدور حول من كان مسئولاً عن تدمير الميسينيين، ولكن علماء كثيرين يعزون فناءهم إلى غزو قام به شعب جديد قادم من الشمال هم الدوريون. وكان الخراب شاملاً حيث مُحِيتْ مدن عديدة من الوجود وسقط المجتمع فى وهدة الأمية بعد أن فقدوا مقدرتهم على الكتابة بالخط ب المستقيم الذى كان الميسينيون يستخدمونه. ودخلت بلاد اليونان فى 'عصر ظلام' بلغت شدته أنه دام ما يقرب من ٤٠٠ سنة.

تتسم نهاية عصر البرونز بهجرات مجموعات عرقية مختلفة وانهايار مؤسسات سياسية راسخة فى القَدَم مثل الحيثيين. وتسبب الدمار الذى أحدثته شعوب البحر فى انتهاء عصر البرونز نهاية دموية، غير أن هناك أيضاً بعض النتائج الإيجابية. فقد استقرت القبائل المتجولة بعد أن لم يبق أحد تفترسه. وتعرف العلماء على البلست الذين جاء ذكرهم فى نقش رمسيس الثالث، وهم الفلسطينيون (Philistines) الذين استقروا فى فلسطين فى ذلك الوقت. أما الشردين والشكش فقد ربطوا بينهم وبين جزيرتى سردينيا وصقلية على التوالى، بينما قد يكون للترش علاقة بالأتراك فى إيطاليا. وعلى الرغم من أن تلك التعرفات غير مؤكدة فإنها تتفق مع بعض التحركات التى حدثت نتيجة للغزوات التى وصفناها سابقاً. وفى وقت ما خلال تلك الفترة، استقر بنو

إسرائيل، الذين لم يكونوا من 'شعوب البحر' في فلسطين وانتقلوا من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار وإنشاء المدن.

ترك تدمير حضارات عصر البرونز فراغاً سياسياً ملأته في النهاية أقوام جديدة ومفاهيم سياسية جديدة. فقد كانت كل القوى العظمى في عصر البرونز ملكيات تسيطر على اقتصادها سلطات مركزية قوية. وكانت غالبية تلك الحضارات تعمل بنظام الضرائب والتوزيع، مع فرص ضئيلة للتجارة المستقلة. ومهد انهيار ذلك النمط من الأنظمة السياسية الطريق للتجديد. وعلى سبيل المثال، تخلى الإغريق، وكانوا لا يزالون يعيشون في دول - مدن مستقلة، عن مجتمع المحاربين الأرستقراطيين القديم وطوروا أنواعاً جديدة من الحكومات، لم تتضمن إلا قلة منها وجود ملوك. وسمح انهيار الحيثيين والمصريين لدول أخرى من الشرق الأدنى مثل: آشور وبابل بأن تزداد قوة. وأدى تدفق مجموعات عرقية جديدة في كل أنحاء منطقة البحر الأبيض إلى ابتكارات تقنية مثل اختراع الفينيقيين للأبجدية وتطور استخدام الحديد. وقد تكون 'شعوب البحر' المحيرة قد تسببت في عصر من التدهور في شرقي البحر الأبيض، غير أنه من تلك الأنقاض نشأت حضارات عصر الحديد العظيمة- الآشوريون والبابليون والإغريق والرومان.

ساره س. ملفيل (SARAH C. MELVILLE)

لمزيد من القراءة

Barnett, R. D. "The Sea Peoples." In *The Cambridge Ancient History*, third ed., vol. 2, part 2. (1975): 359-378.

Drews, R. *The End of the Bronze Age: Changes in Warfare and the Catastrophe of c. 1200 B.C.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993.

Kuhrt, A. *The Ancient Near East c. 3000-300 B.C.*, vol. 2. London: Routledge, 1995.

Redford, D. B. *Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992.

Sandars, N. K. *The Sea Peoples.* London: Thames and Hudson, 1978.

الفينيقيون: دروس مبكرة في علوم الاقتصاد

نظرة شاملة

كان الفينيقيون أعضاء جماعة حضارية قديمة تسكن في المنطقة التي تُعرف الآن باسم الشرق الأوسط. واشتهروا بسعيهم الدؤوب للتجارة وإنشاء المستوطنات في منطقة البحر المتوسط خلال آخر ألفيات قبل الميلاد. وأسسوا مدناً ومستعمرات مهمة في أرجاء المنطقة شملت صيدا وصور وقرطاجنة وبيروت. وأصبحت قرطاجنة بعد إنشائها أهم مدينة في غربى البحر الأبيض. فقد كانت المدينة الرئيسية للتجارة وكانت حلقة اتصال مهمة في سلسلة المستوطنات التي أنشأتها فينيقيا. وكانت هناك أيضاً مستوطنات فينيقية أخرى عديدة سهلت الطريق إلى إسبانيا. وكانت إسبانيا محطة نهاية مهمة بسبب ثرواتها من المعادن الثمينة. وشملت البضائع المهمة المستوردة الأخرى: البردى والعاج وخشب الأبنوس والحريير والتوابل والفلات الثمينة والحلى.

وتفرد الفينيقيون بصناعة أشياء كانت مرغوبة في كل أنحاء العالم. وكانوا صناعاً مهرة اشتهروا بدقة تفاصيل عملهم. وبسبب المدى الواسع لترحالهم كثيراً ما كانوا يأخذون فكرة من إحدى الحضارات ويحسّنون فيها، أو يوفرون أشياء في أجزاء من العالم لم تكن متاحة فيها من قبل. وكانت أهم المواد التي يصدرونها خشب الأرز والزجاج وأقمشة صور. وكان الأرز عظيم الأهمية في الشرق الأوسط القديم؛ لأن ذلك المنتج الطبيعي كان شديد الندرة في مناطق كثيرة. ويضاف إلى ذلك أن طبقات النبلاء كانوا يحبون رائحته الزكية. وابتكر الفينيقيون تقنية الزجاج المنفوخ التي وفرت

منتجات الزجاج لكل طبقات المجتمع. ولعل أكثر السلع المصدرة شهرة كانت أقمشة صور الأرجوانية المصبوغة بصبغات من محار الميوركس (Murex). وفي الحقيقة ارتبط ذلك النوع من الأقمشة الصورانية بهؤلاء القوم، حيث أن كلمة فينيقيا مشتقة من الكلمة الإغريقية للون الأرجواني (القرمزي). وكانت أقمشة الكتان الرقيق وأشغال التطريز والنبيد وأشغال المعادن من بين صادراتهم المهمة. وأخيراً أدار الفينيقيون تجارة مهمة للترانزيت كانت تنقل الأفراد من مكان إلى آخر.

وليست هناك إلا أدلة واهية عن الكيفية التي نشأت بها الحضارة الفينيقية، أو ماذا كانوا يطلقون على أنفسهم بلغتهم؛ غير أن المؤرخين يعتقدون أنهم كانوا يستخدمون كلمة «كنعاني». ومن المثير أن تلك الكلمة نفسها فى اللغة العبرية تعنى أيضاً «تاجر»، وهو وصف يناسب الفينيقيين عاشقى التجارة. وربما يكونون قد أتوا إلى منطقة البحر الأبيض حوالى ٣٠٠٠ ق.م.

وبصورة عامة لم تكن فينيقيا دولة مستقلة فى الجانب الأكبر من فترة وجودها. وكانت القوى العظمى دائماً تهددها وتجتاحتها. وفى البداية فرضت مصر شيئاً من السيطرة على فينيقيا، ولكن بمجرد أن تمكن الفينيقيون من التخلص من قبضتها كانوا أحياناً يقعون تحت سيطرة قوى أخرى، مثل الآشوريين والفرس، وفى النهاية احتواهم الرومان فى مجتمعهم. وعلى الرغم من ذلك، فإن الفينيقيين تمكنوا من إحداث تأثير دائم على العالم.

كان الفينيقيون أداة رئيسية فى نشر طريقة كتابتهم، التى اشتقت منها أبجديتنا الحديثة. وكانوا يشجعون المتاجرة مع الحضارات الأخرى ومن خلال التجارة كشفوا الحضارات والثقافات المختلفة فى حوض البحر المتوسط لبعضها البعض. ومن خلال ترحالهم الدائم على خطوط تجارتهم شجع الفينيقيون التبادل الثقافى بين الحضارات المختلفة، وساعدوا على الإسراع فى نشر العلم والفلسفة والأفكار الأخرى فى أنحاء العالم القديم. بل إن الفينيقيين عُزى إليهم، دون حق، اختراع تقنيات

مهمة مثل الزجاج؛ ورغم ذلك فلا شك أنهم كانوا أساسيين في نشر وتحسين تلك التقنية في العالم.

الخلفية

أنشأ الفينيقيون طرقاً تجارية استخدمت كلاً من اليابسة والبحر. وهناك دلائل قوية على أن كل غرب آسيا كانت تجوبه قوافل برية يقودها فينيقيون. وكانت فينيقيا مرتبطة بالتجارة مع غالبية الحضارات المعروفة، وتلك التي كانوا لا يستطيعون الوصول إليها برأ كانوا يسافرون إليها بحراً.

ولم تتبق إلا أدلة واهية على تجارة فينيقيا البرية. ويفترض بعض العلماء أن مدى التجارة الفينيقية يمتد لأكثر بكثير مما تشير إليه الأدلة التاريخية النادرة. وربما كانت تصل إلى أماكن مثل أواسط إفريقيا. وكل ما هو معروف هو أن تجارة الفينيقين البرية كانت غالبيتها الساحقة تتم بواسطة القوافل. وكان السبب الرئيسي لذلك هو الأمان، لأن المجموعات الكبيرة كانت أقل تعرضاً للاعتداء من الجماعات الصغيرة، وسمح ذلك بحماية الحمولات الثمينة من اللصوص الذين كانوا متواجدين دائماً على الطرق. وهناك سجلات يعود تاريخها إلى ١٦٠٠ ق.م. تشير إلى أن قوافل الفينيقين كانت تسافر شرقاً بالأخشاب وتعود بالتوابل. وكانت تزود أقرب جيرانها بالحبوب والمنتجات الأخرى، بينما تزود الحضارات الأخرى بما تحتاجه أو ترغب فيه من بضائع. وكانت التجارة الفينيقية مع مصر تتم على نطاق واسع، حيث كانوا يستوردون منها الأشربة الكتانية والبردى والجعارين، بينما يصدرون إليها النبيذ والأقمشة والبضائع المصنّعة. غير أن أهم طرقهم البرية كان يؤدي إلى بلاد العرب.

ولقد كان للتجارة الفينيقية مع بلاد العرب أهمية خاصة لأنهم لم يكونوا يتاجرون في البضائع العربية المطلوبة فحسب وإنما لأن بلاد العرب كانت أيضاً الطريق الوحيد

للحصول على بضائع الهند. فكانت بلاد العرب هي المصدر الرئيسي للتوابل، مثل القرفة، لفينيقيًا ومن ثم إلى كل العالم الغربي. وكانت تلك المنطقة من العالم تشتهر أيضاً بالصوف الرقيق. كما كانت هناك أيضاً بضائع أخرى تأتي من بلاد العرب. وفي المقابل، يُعتقد أن فينيقيًا كانت تصدر إلى بلاد العرب بصفة رئيسية البضائع المصنعة مثل: المنسوجات الكتانية والزجاج، حيث يُظن أن الطلب عليها كان شديداً.

وعلى الرغم من أن التجارة الفينيقية البرية كانت واسعة الانتشار، فإن الطرق البحرية كانت أوسع مجالاً. فكانت رحلاتهم تذهب بهم إما إلى مستوطناتهم أو إلى سكان الدول المختلفة. وكانت غالبية المستوطنات التي أنشأها الفينيقيون مستوطنات تجارية أُنشئت في مواقع استراتيجية بالقرب من أماكن التزود ببضائع معينة. وكان الهدف من تلك السياسة تمكين الفينيقيين من احتكار تلك البضائع، بحيث يستطيعون أن يفرضوا لها أى أسعار يودونها، وعلى سبيل المثال، يُعتقد أن قبرص قد استُوطنت في بادئ الأمر لاحتوائها على مناجم النحاس، بينما تأسست ليكيا للحصول على الأخشاب. وعملت المستوطنة على توفير تلك البضاعة لفينيقيًا التي كانت بدورها توفر للمستوطنين أنواعاً مختلفة من بضائع فينيقيًا المصنعة.

وكانت هناك مستوطنة مختلفة هي قرطاجنة. وكانت قرطاجنة (ومعناها المدينة الجديدة) مدينة كبيرة في العالم القديم أسسها الفينيقيون على الساحل الشمالي لإفريقيا بهدف إنشاء مركز تجارى مهم. واختير الموقع مطلقاً على خليج طبيعي يوفر مرسىً أمنًا ووفرة في الطعام. كما عملت كنقطة بداية للدروب البرية إلى أعماق إفريقيا أو للسفر بحراً إلى إسبانيا. وكانت قرطاجنة مدينة في غاية الأهمية لفينيقيًا حتى دمرها الرومان دماراً تاماً سنة ١٤٦ ق.م. في الحرب البونيقية الثالثة.

وحملت الطرق البحرية الفينيقيين إلى نهايات العالم المعروف. فكانوا يتاجرون في كل أنحاء البحر المتوسط بل إنهم غامروا بتحدى المحيط الأطلنطي. وهناك تخمينات بأن تلك الطرق التجارية قد وصلت بهم إلى الدوران حول إفريقيا، وإلى بريطانيا العظمى، وأنهم تاجروا مع جزر الكناري.

وكان للفينيقيين أهداف ثلاثة من تجارتهم مع الدول الأخرى، أولها: أن يبيعوا بضائعهم المصنَّعة مقابل أرباح. وثانيها: أن يبيعوا منتجات أمم أخرى نظير أرباح. وثالثها: أن فينيقيا أرادت أن تحصل من بلد ما على بضائع ترغب فيها أمم أخرى. وبهذا كانت فينيقيا تحقق أرباحاً من كل بلد بثلاث طرق مختلفة. وكان الأساس الجوهري للفلسفة الاقتصادية الفينيقية هو الوصول إلى احتكار ما. وكثيراً ما كان التجار يذهبون إلى بلد ما ويبيعون بضائع أساسية للحياة بأسعار بالغة التدنى، حيث يطردون التجار المحليين من السوق. وبمجرد تحقيق ذلك الهدف أصبح السوق المحلي معتمداً اعتماداً كلياً على الفينيقيين لتزويدهم بتلك المنتجات.

التأثير

صنف بعض المؤرخين، دون وجه حق، الفينيقيين بأنهم مجرد باعة متجولين سلبين للفنون والبضائع. غير أن الأمر لم يقتصر على أن إنجازاتهم التاريخية تستحق التنويه والذكر فحسب، وإنما كانوا أساسيين فى نشر المعرفة والأفكار فى العالم القديم. ومن نواحٍ كثيرة يمكن اعتبارهم وسطاء من حيث التأثير. ويجب ألا تقلل من شأن إسهاماتهم حقيقة أنهم لم يكونوا المبدعين لبعض المفاهيم أو التقنيات. فقد عملوا كنقطة الفكر والأفكار بين الحضارات المختلفة وساهموا فى تنشيط تبادل التقنيات والمعرفة بينها. وبهذا تمكنت حضارات عديدة، كانت ستبقى معزولة عن بعضها البعض لفترات طويلة، من الاستفادة من وجود الحضارات الأخرى. ويمكن تتبع مسار المعرفة من بلاد الرافدين ومصر إلى فينيقيا ومنها إلى قبرص والأناضول وسوريا. وهكذا يمكن أن نعزو إلى الفينيقيين فضل نقل المعارف بين مجموعات حضارية متعددة.

ويدين الإغريق على وجه الخصوص بامتنان كبير إلى الحضارة الفينيقية. وأول وأهم شئ أنهم تبنوا الأبجدية الفينيقية لاستخدامهم الخاص مع تحويرات أو تغييرات

ضئيلة. كما أن الإغريق طبقوا أيضاً المعايير الفينيقية للأوزان والمقاييس. ويضاف إلى ذلك أن الإغريق تبنوا الفن الفينيقى، من الرسوم الزخرفية على الأواني الفخارية إلى الطرز المعمارية للأبنية.

وكان على الفينيقيين أن يكونوا مهرة في وسائل الملاحة كي يتمكنوا من التربع على عرش التجارة. وغطت طرقهم التجارية العالم المعروف وزادت عليه. وتميزوا بكونهم ملاحين صبورين ولكنهم غير هيابين، وكانوا يتوقون إلى المغامرة في مناطق لم يجرؤ أحد من قبلهم على الذهاب إليها. ويُعزى إلى الفينيقيين فضل الدوران حول إفريقيا، واكتشاف جزر الأزور، ومن الجائز أن يكونوا قد وصلوا إلى بريطانيا العظمى. وقد فعلوا ذلك أملين أن ينشئوا احتكارات تجارية أو يوسعوا من نطاق تجارتهم. وحافظوا على أسرار مسارات طرقهم التجارية ووسائل الملاحة فيها، ولكن تلك الأسرار تسربت ببطء إلى المجتمعات الأخرى. وعلى سبيل المثال، يُعزى إلى الفينيقيين فضل الاهتمام بالنجم القطبي كعامل مساعد في الملاحة. وكان ذلك وغيره من تقنيات التعرف على الطرق إسهاماً ومساعدة كبيرة لمن أتى بعدهم من الشعوب التي اهتمت بالبحار.

كان تأثير الفينيقيين على العالم اقتصادياً وحضارياً في المقام الأول. وكان تأثيرهم السياسي ضئيلاً وتجنبوا المواجهات قدر استطاعتهم. واستغلوا أماكن اختيرت بعناية بها مرافئ طبيعية كي ينشئوا فيها مدنهم ومستوطناتهم. ومكنت تلك المواقع الجغرافية الفينيقيين من تكوين تجارة ضخمة كانوا يوفرون فيها تبادلاً ليس للبضائع فقط وإنما أيضاً للمعلومات والأفكار بين الحضارات. ومن المؤكد أن الحضارات اللاحقة تدين بالكثير للفينيقيين.

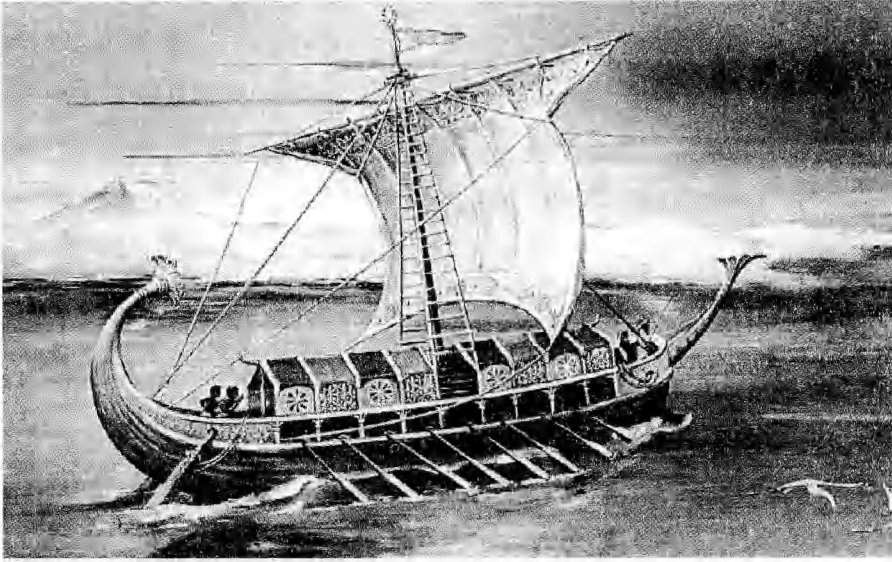
جيمس ج. هوفمان (JAMES J. HOFFMANN)

لمزيد من القراءة

Aubet, Marua E. *The Phoenicians & the West: Politics, Colonies & Trade*. New York: Cambridge University Press, 1996.

Bullitt, Orville, H. *Phoenicia & Carthage: A Thousand Years to Oblivion*. Pittsburgh: Dorrance Publishing, 1978.

Rawlinson, George. *Phoenicia*. North Stratford: Ayer Company Publishers, 1977.



سفينة فينيقية

فارس توسع حدود إمبراطوريتها والاستكشافات والتنظيم الإداري

نظرة شاملة

عندما نشأت الإمبراطورية الفارسية في القرن السادس ق.م، كانت أكبر إمبراطورية عُرفت، ووفرت لجنوب غرب آسيا والمناطق المجاورة مستوى من التنظيم الإداري لم يسبق له مثيل. فقد بنى الفرس طرقًا وحفروا قنوات وأنشأوا أول نظام بريدي مهم في التاريخ للحفاظ على الاتصال بين الإمبراطور وساتراياته (أو حكام أقاليمه). واحترم الفرس معتقدات الشعوب التي غزوها بما عُرفوا به من تسامح ديني، على الأقل في العهود المبكرة للإمبراطورية، فقد سمحوا، على سبيل المثال، لبني إسرائيل أن يعيدوا بناء مدينتهم أورشليم. ومن خلال اليهودية وفيما بعد المسيحية سوف يكون لعقيدتهم الزرادشتية تأثير عميق، وإن يكون غير مباشر، على الحياة الروحية للغرب. وبالمثل سيكون لبلاد فارس تأثير سياسي هائل من خلال تأثيرهم على بلاد الإغريق.

الخلفية

في حوالي ٣٠٠٠ ق.م. بدأت مجموعات من القبائل تُعرف اليوم باسم الهندو-أوروبيين بالتحرك من موطنهم وهو الآن جنوب وسط روسيا. وليس معروفًا إلا النزر اليسير عن تلك المجموعات، الذين انتهى بهم الأمر إلى التوزع بين الهند وأوروبا؛ وحقيقة فإن الدليل الوحيد على مجرد وجودهم هو العلاقة القوية بين لغات إيران والهند

وأوروبا. وشرعت مجموعة من الهندو-أوربيين هم الآريون فى التحرك إلى المناطق التى تعرف اليوم باسم أفغانستان، وفيما بين ٢٠٠٠ و١٥٠٠ ق.م. انقسموا إلى مجموعتين. فبعضهم هاجر شرقاً، حيث غزوا شعوب وادى السند وأسسوا الحضارة الهندوكية فى الهند القديمة، بينما اتجه آخرون جنوباً إلى ما هو اليوم إيران - حيث سميت الأرض باسمهم.

وفى النهاية انقسم الإيرانيون مرة أخرى إلى مجموعات، أهمها الميديون (الماديون) على شواطئ بحر قزوين فى الشمال، والفرس عبر الجبال إلى الجنوب. وفى بادئ الأمر كان الميديون هم المجموعة المهيمنة، غير أنهم تلقوا هزيمة على يد الإسكيزيين، وهم جماعة شبه بدوية أتوا مما يعرف اليوم باسم أوكرانيا، فى منتصف القرن السابع ق.م. بيد أنهم استردوا عافيتهم واستأنفوا سيطرتهم على المنطقة بعد سنة ٦٢٥ ق.م.، عندما طرد الملك الميذى (المادى) كياكزاريس (Cyaxares) حكم ٦٢٥-٥٨٥ ق.م.) الإسكيزيين وشن حرباً على آشور. وفى ذلك الوقت كانت الأخيرة تسيطر على أكبر وأقوى إمبراطورية فى المنطقة، ولكن كياكزاريس تحالف مع قوة بازغة أخرى هى بابل ليدمروا آشور سنة ٦١٢ ق.م. وفى أعقاب ذلك تقاسم الميديون والبابليون الشرق الأدنى فيما بينهم، ولفترة من الزمن امتد النفوذ الميذى حتى وصل إلى ليديا فى آسيا الصغرى (تركيا الحالية).

حقيقة فإن الميديين وحلفاءهم البابليين قد مهدوا الطريق لأسرة جديدة هى الأخامينيدي (الهخامنشية) وهى البيت الحاكم لفارس. إلا أن ذلك لم يكن ليحدث لولا ظهور حاكم قوى هو كوروش (قورش) الثانى (Cyrus II)، الذى اشتهر باسم كوروش الكبير (ح ٥٨٥-٥٢٩ ق.م.؛ حكم ٥٥٩-٥٢٩ ق.م.). ووجد كوروش الفرس ضد الميديين وهزمهم فى ٥٥٠ ق.م.، وبهذا أنشأ الإمبراطورية الفارسية.

التأثير

بعد ذلك شن كوروش الحرب ضد ليديا وهزمها وأسر ملكها كروسوس (Croesus) حكم حوالي 560-546 ق.م.)، سنة 546 ق.م.، قبل أن يبدأ في شن الحرب ضد الدول - المدن الإيونية في بلاد الإغريق. وهذا الحدث الأخير له مغزى من نواحٍ كثيرة. فقد كان أول مرة تخترق فيها قوة من بلاد الرافدين (Mesopotamia) أطراف أوربا: وفي الحقيقة، كانت إمبراطوريات الآشوريين والبابليين والميديين لا تزال في مجملها محلية المدى تضم شعوباً متماثلة نسبياً من الناحية اللغوية، على الرغم من كونها كانت ذات جنسيات متعددة أكثر من سابقتها من إمبراطوريات المصريين والحيثيين. وعلى هذا كان غزو بلاد الإغريق يمثل القذائف الافتتاحية في محاولة لصوغ عالم متعدد القارات - وهو جهد فشل، على الأقل في بلاد الإغريق، ونتج عنه أهم صراعات في العالم القديم.

وفي نفس الوقت حول كوروش انتباهه إلى بابل التي استولى عليها في 539 ق.م. وبذلك الغزو، الذي صورته سفر دانيال في التوراة، سيطر الفرس على أكبر إمبراطورية وجدت حتى ذلك الوقت، شاملة معظم إيران الحديثة والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان وأجزاء من تركيا. ولما أضافوا مصر فيما بعد؛ شكل ذلك ثالث أكبر مملكة في العالم الشرقي القديم؛ ويعود الفضل في إنشاء الإمبراطوريتين الأكبر منها - والتي بناها الإسكندر الأكبر (356-323 ق.م.) وفيما بعد الرومان - إلى المثال الذي ضربه الفرس.

غير أن الإمبراطورية الفارسية كانت أكثر من مجرد كيان سياسى كبير. وكما كان الحال مع المغول فيما بعد، الذين أسسوا أكبر إمبراطورية في التاريخ كله بعد ذلك بسبعة عشر قرناً، لم يكن الفرس يملكون حضارة متقدمة يفرضونها على العالم. وعضواً عن ذلك اكتفوا بأن يتكيفوا مع الآخرين ويستعبروا منهم، وسمحوا لرعاياهم الجدد بأن يسيروا حياتهم مثل السابق. فاستمر الآشوريون والبابليون في عبادة

آلهتهم، بل إن كوروش أعاد بناء المعابد البابلية. كما سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء معبدهم ومدينتهم المقدسة أورشليم.

لقى كوروش حتفه في ساحة القتال في ٥٢٩ ق.م. وخلفه ابنه قمبيز الثاني (حكم ٥٢٩-٥٢٢ ق.م.)، الذي غزا مصر في ٥٢٥ ق.م. وعقب موت قمبيز في خضم ثورة قامت، استولى على العرش قائد يدعى دارا (٥٥٠-٤٨٦ ق.م.)؛ حكم ٥٢٢-٤٨٦ ق.م.)، وشرع في التعامل مع أعداء قمبيز. واستغرق منه إخماد التمرد سنة كاملة، بعدها سار دارا إلى شمال الهند وأضاف مساحات كبيرة من الأرض إلى ممتلكاته. ساهم ذلك بدوره مساهمة كبيرة في صنع حدث مهم هو صياغة عالم متعدد الجنسيات: فلم يحدث من قبل أن توغل غزاة من جنوب غرب آسيا إلى مثل تلك المسافة إلى الشرق، وهنا ضرب الفرس أيضاً المثل للإسكندر.

وفي الحقيقة فإن الفرس، مثلهم في ذلك مثل الميديين والبابليين من قبلهم، مهدوا الطريق بصورة حرفية لمن خلفوهم، وحدث ذلك جزئياً بسبب أن الفرس والإغريق انغمسوا في صراع مرير مطول ترك الإغريق متعطشين للانتقام. وعلى الرغم من أن كوروش كان أول من أشعل فتيل ذلك الصراع فإن دارا كان هو من أوجج نيرانه وزادها اشتعالاً. ففي ٥١٦ ق.م. سار بجيوشه ضد الإسكيزيين ليمنعهم من تزويد الإغريق بالقمح، وكان على استعداد لأن يهاجم بلاد الإغريق نفسها. وكما تبين فإن شئون حكم إمبراطوريته استنفدت وقت دارا لعدة سنوات، ولكن حدث في ٤٩٩ ق.م. أن الدول-المدن الإيونية فرضت عليه القتال بتمرداها ضد الحكم الفارسي. وسرعان ما هب الأثينيون والإسبرطيون وغيرهما في بلاد اليونان وانضما إلى جيرانهما في إيونيا ضده، ووصل الصراع إلى ذروته في ٤٩٠ ق.م. بمعركة ماراثون، التي انتهت بانتصار إغريقي. وانسحب دارا على أمل أن يعاود الهجوم مرة أخرى، ولكنه مات بعدها بأربع سنوات دون أن يحقق هدفه.

غير أن دارا أثناء حكمه الطويل فعل الكثير ليغير من نمط الحياة في بلاد فارس. فخلافاً لكوروش، الذي لا يبدو أنه كانت لديه معتقدات دينية قوية، احتضن دارا تعاليم

الزرادشتية وعمل على نشرها، تلك التعاليم التي نادى بها النبي زرادشت، الذي يدعى أحياناً زاراثوسترا (ح ٦٢٨-٥٥١ ق.م.). وكانت الزرادشتية تعلن أن الإله أهورا- مازدا هو الإله الأعظم على كل الآلهة الأخرى، وكانت تصور منافسه أهريمان بوصفه تجسيداً للشر، أى الشيطان بمعنى آخر. وكان مقدراً لتلك الأفكار أن يكون لها تأثير بالغ العمق على بنى إسرائيل، الذين بقى كثير منهم فى بلاد فارس، وخضع كلهم على أية حال للحكم الفارسى. ومن المؤكد أن جمل العهد القديم التي كُتبت فى الأسر ناقشت طبيعة الشر؛ ولكن شخصية الشيطان (وهى كلمة مشتقة من الكلمة الفارسية 'شايطان' وتظهر فى الكتب المقدسة اليهودية) لا تظهر إلا فى سفر أشعيا وما بعده من الأعمال المتأخرة.

وعلى أية حال فإن فكرة الشيطان لم تترسخ مطلقاً فى العقيدة اليهودية، وهى عقيدة تصور الرب بصفة عامة بوصفه أباً لكل الأشياء، الطيب منها والخبيث. غير أنه بانبثاق المسيحية من اليهودية بعد ذلك بقرون، ترسّخ مفهوم الشيطان ككائن مستقل. وكذلك أذكت فكرة الصراع بين الخير والشر فى المسيحية الإحساس بالرسالة، تلك الفكرة التى تحمل بين طياتها مضمون أن الصراع سيصل إلى ذروته عند نهاية العالم. وأثر ذلك بدوره على الحماس المسيحى للعمل الشاق والإنتاج، وهى سلوكيات ستدفع فى النهاية بمجتمعات أوروبا الغربية إلى نجاحات غير مسبوقة فى الفترة ما بعد ١٤٥٠م (وكان ظهور ملوك المجوس، كما سجلته الأناجيل، أو الرهبان الزرادشتيين المجوس الثلاثة وهم يتتبعون نجماً ليعثروا على الطفل يسوع، رمزاً للعلاقة بين الزرادشتية والمسيحية).

وبينما كان أهورا - مازدا ينظم الأمور تنظيماً سماوياً كان دارا يجاهد بحثاً عن تنظيم دنيوى من خلال إمبراطوريته التى كانت الإمبراطورية الأعظم فى التنظيم الإدارى حتى وقتها. فأنشأ نظاماً للتقاضى كان موحداً فى كل أنحاء الإمبراطورية، مع الأخذ بالعادات المحلية فى الاعتبار. ويمقتضى إصلاحاته القضائية صار للأقاليم نوعان من المحاكم: واحدة لتنفيذ القانون حسب الشريعة القانونية الفارسية، والأخرى

تتعامل مع الأمور المحلية طبقاً للقانون المحلى. وقسم الإمبراطورية إلى ٢٠ ساتراية (مرزبانية)، أو إقليم، سمحت بقدر من الحكم المحلى. وكان للساتراب (المرزبان)، الذى عادة ما كان من العائلة الملكية، السلطات المطلقة فى حكم منطقتة المحلية، ولكنه كان متوقعاً منه بالطبع أن يبقى مخلصاً للإمبراطور المقيم فى سوسا عاصمة الإمبراطورية الفارسية.

وفى الحقيقة كان للإمبراطورية عواصم ثلاث. سوسا العاصمة الشتوية، وتختص باستقبال الزوار الأجانب، وتقع فى نهاية الطريق الملكى الذى كان يمتد إلى مسافة ١٥٠٠ ميل (٢٤٠٠ كيلومتر) من عاصمة ليديا السابقة فى سارديس؛ غير أن دارا بنى قصره وغيره من الأبنية العظيمة فى برسبوليس عاصمة الربيع، التى كانت متوارية بعيداً إلى الجنوب الغربى. وفى وقت الصيف كان يستخدم همدان أو إكباتانا فى ميديا. وكان الطريق الملكى عند إنشائه واحداً من أطول الطرق فى العالم، بل إنه يقارن بالطرق السريعة فى الولايات المتحدة اليوم، وكان طريقاً مهيباً. والطريق رقم ٧٥ ما بين الولايات الذى يصل بين الحدود الكندية فى ميتشيجان إلى أقصى الجنوب فى فلوريدا، لا يكاد يضارعه طولاً.

وجعل الطريق الملكى إنشاء واحد من أوائل الأنظمة البريدية فى العالم أمراً ممكناً. فانتشرت على طوله ما يقرب من ٨٠ محطة يسلم فيها حملة البريد الممتطين الخيل حمولتهم من واحد إلى آخر، وهو نظام لا يختلف عن نظام إكسبريس الخيل الذى كان يستخدم فى الغرب الأمريكى فى ستينيات القرن التاسع عشر. وكان نظام الرسل الفارسى على درجة كبيرة من الكفاءة مما دفع هيروودوت (ح ٤٨٤-٤٢٠ ق.م.) إلى أن يكتب فيما بعد "لم تكن الثلوج ولا الأمطار ولا الحرارة ولا حلقة ظلام الليل لتمنع هؤلاء الرسل من إكمال دورتهم المخصصة لهم." واليوم نجد تلك السطور منقوشة على واجهة مبنى البريد الرئيسى بمدينة نيويورك.

وكان استخدام البريد فى الإمبراطورية الفارسية مقتصرأ على الملك والساترايات، وحافظ دارا على الأمن والنظام باستعراضات مرئية لقوته العسكرية.

ومن خلف الستار أنشأ واحدة من أولى شبكات الاستخبارات فى العالم كى تبقى على دراية بما يدور فى الإمبراطورية. بيد أن نظام الضرائب الفارسى كان متحرراً نسبياً، على الأقل فى بدايته. فكان مواطنو الإمبراطورية الفارسية يدفعون ضريبة موحدة هى ١٠ بالمئة من دخلهم، وهو نظام تبناه الخلفاء المسلمون بعد ذلك بألف عام. وعلى النقيض من ذلك، كان قدماء المصريين يدفعون ثلث دخلهم للدولة (وبالطبع يدفع غالبية الأمريكين اليوم ما يزيد على ١٠ بالمئة)؛ غير أنه لما زادت الضرائب فيما بعد كان لذلك تأثير معوق على الاقتصاد الفارسى مما ساهم فى سقوط الإمبراطورية.

وأدخل الفرس فى كل أنحاء البلاد التى فتحوها نظاماً للرى ساهم فى جعل مساحات فى مصر وأواسط آسيا خصبة وصالحة للزراعة. ويضاف إلى ذلك أن الاستقرار الذى وفرته إمبراطوريتهم - وكان ذلك يعد تنبؤ بما سوف يحدث أثناء حكم المغول - سهل أنذاك تجارة غير مسبوقه بين الهند ووسط آسيا والبحر المتوسط. وفيما بعد عندما سار إكزرسيس (حكم ٤٨٦-٤٦٥ ق.م.) ابن دارا وجيوشه لمحاربة الإغريق شهدت سجلات هيروdot عن القوات المقاتلة بالطابع المتعدد الجنسيات لمملكة الفرس المترامية الأطراف: فكان هناك ميديون وفرس وأشوريون وهنود وإسكيزيون وتراقيون وأفارقة.

غير أن الإمبراطورية الفارسية نزلت عن قممتها فى عهد إكزرسيس. فقد كانت أقل تسامحاً من أسلافه، وقضى بوحشية على ثورات فى بابل ومصر، وحاول أن يفعل الشئ نفسه فى بلاد اليونان عندما شن سنة ٤٨٠ ق.م. الهجوم الثانى الذى لم يعش أبوه ليقوم به. وهزم الإسبرطيين فى ثرموبيلاي وأحرق أثينا، ولكن أسطوله خسر معركة سلاميس، وبطلول سنة ٤٧٩ ق.م. كان النصر حليف الإغريق. وبعدها فقد إكزرسيس الاهتمام بتوسيع الإمبراطورية وأمضى معظم وقته داخل قصره، حيث اغتيل سنة ٤٦٥ ق.م.

وأثناء حروب البيلوبونيز (٤٣١-٤٠٤ ق.م.) وفى أعقابها، حاول الفرس أن يوقعوا الشحاء بين أثينا وإسبرطه. وعلى الرغم من أن فارس وقعت سنة ٣٨٧ ق.م. معاهدة

سلام مع إسبرطه تعترف فيها الأخيرة بالسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى، فإن إكزرسيس الثالث (حكم ٢٥٩-٢٢٨ ق.م.) انغمس في صراع آخر في البلقان. وفي هذه المرة واجه متحدياً هائلاً أكثر خطورة من أى إغريقى هو القائد العسكرى المقدونى فيليب الثانى (٢٨٢-٢٢٦ ق.م.؛ حكم ٢٥٩-٢٢٦ ق.م.)، الذى أقسم أنه سيفوز الإمبراطورية الفارسية. ولم يعش فيليب ليفعل ذلك؛ ووقع عبء ذلك على ابنه الإسكندر.

ويعود سقوط إمبراطورية فارس الأخامينية إلى فتوحات الإسكندر الأكبر فى ٣٣٠ ق.م.، ولكنها عاشت من خلال الإمبراطوريات التى حلت محلها. فالمملكة الفارسية شكلت العمود الفقرى لإمبراطورية الإسكندر، ولالإمبراطورية التى أسسها قائده سلوكوس (ح ٢٥٦-٢٨١ ق.م.). وفى ١٢٩ ق.م. سقطت الإمبراطورية السلوقية فى يد البارثيين؛ وفى ذات الوقت ترك مثال الإسكندر أثراً فى تأسيس الإمبراطورية المورانية فى الهند. غير أنه فى ذلك الوقت كان كياناً أكبر يسير على طريق الصعود، وهو كيان تعلم قواده أيضاً من فتوحات الإسكندر والفرس من قبله ألا وهو روما.

جدسون نايت (JUDSON KNIGHT)

لمزيد من القراءة

كتب

Neurath, Marie. They Lived Like This in Ancient Persia. New York: F. Watts, 1970.

Persians: Masters of Empire. Alexandria, VA: Time-Life Books, 1995.

مواقع على الإنترنت

Persian History." <http://www.persian.com/aboutiran/history.>"



دارا الأول (دارا الأكبر)



إكزسيس ملك فارس

هانو يبجر على الساحل الغربى لإفريقيا- وربما إلى أبعد من ذلك

نظرة شاملة

فى حوالى ٥٠٠ ق.م. قامت رحلة بقيادة الملاح هانو من قرطاجنه فيما هو اليوم تونس متجهة إلى الغرب. وكان يقود ستين سفينة بها ما يقرب من ٥٠٠٠ رجل وامرأة، وكلف هانو بإنشاء مستوطنات تجارية على الساحل الغربى لشمال إفريقيا. وهذا ما فعله منشئاً عدداً من المدن فيما هو المغرب اليوم؛ ولكن هانو وصل إلى أبعد من ذلك بكثير فى إنجاز لم يتكرر حتى العصر الذهبى للاستكشافات البرتغالية بعدها بما يقرب من ألفى عام. وأبجر مع رجاله على الساحل الغربى لإفريقيا، ولعله وصل حتى ما يعرف اليوم باسم السنغال أو حتى ليبيريا- وربما، حسبما يعتقد بعض العلماء، إلى أبعد من ذلك.

الخلفية

فى وقت ما بعد سنة ٨٠٠ ق.م.، أنشأ القرطاجنيون الساميون مدينة قرطاجنه بالقرب من موقع مدينة تونس الحالية. وكان بها فى أوج ازدهارها حوالى مليون نسمة، مما جعل منها مدينة لا تكاد تُصدق فى حجمها بمقاييس العالم القديم. ونمت المدينة، مضيئةً مستوطنات فى أنحاء شمال إفريقيا وشبه جزيرة أيبيريا وصقلية، وبحلول القرن الخامس ق.م. صارت قرطاجنه القوة البحرية المسيطرة فى غربى البحر المتوسط. وفى ٢٦٤ ق.م. وجدت قرطاجنه نفسها فى خضم صراع مع الجمهورية

الرومانية فى الحروب البونية (وهو اسم الصفة باللغة اللاتينية لكلمة 'فينيقى')، وبعد ١١٨ سنة دمرت روما المدينة تدميراً تاماً.

غير أن كل ذلك كان فى علم الغيب عندما قام هانو برحلته التاريخية. ويبدو أن رحلته تلك لم تكن أول مجموعة من القرطاجنيين يُرسَلون إلى الإبحار حول القارة الإفريقية: فيقال إن نخاو الثانى فرعون مصر (حكم ٦١٠-٥٩٥ ق.م.) استأجر جماعة من القرطاجنيين حوالى ٦٠٠ ق.م. للإبحار حول ساحل إفريقيا. وتؤكد بعض التقارير أن تلك الرحلات المبكرة قد أكملت المهمة، بالسير بمحاذاة الساحل ثم داروا حول الطرف الجنوبى لإفريقيا مهتدين بالساحل فى المحيط الهندى قبل أن يعوبوا إلى مصر.

ومن الصعب أن نعرف كيف نتعامل مع تلك الرواية، التى تبدو أنها مستقلة عن رحلة هانو، ولكنها تحمل بين طياتها كثيراً من نفس العوامل - رغم أن التكاليف بالرحلة فى هذه الحالة كان من حاكم أجنبي. وهذا يثير بدوره موضوع ماذا كان نخاو يرغب فى تحقيقه بالضبط، هذا إن كان قد أرسل حقاً تلك البعثة. فمصر سنة ٦٠٠ ق.م.، وقد أثقلت كاهلها سنوات من هجوم قوى خارجية، لم تكن فى وضع يتيح لها أن ترسل رحلات لمجرد إشباع الفضول أو حتى لاستعراض القوة المصرية. فإشباع الفضول كان أمراً لا يكاد يصدق من الدول قبل الحديثة، والثانى كان فى أغلب الظن فوق طاقة الموارد المصرية.

التأثير

تأتى الغالبية الساحقة من تفاصيل رحلة هانو- وفى الحقيقة كل سيرته الذاتية - من نقش تركه هانو نفسه على نصب أو عمود لتمجيد الآلهة وشكرها على سلامة رحلته. وهذا النقش يعرف باسم 'بريبولوس' (Periplus)، ويتكون من ١٨ (١٩ حسب

بعض الروايات) فقرة مرقمة تحوى إنجازاته، وعلى الرغم من قصرها فإنها تعتبر أطول كتابة معروفة كتبها كاتب قرطاجنى.

والنص الذى وصلنا هو نسخة منسوخة من نسخة أخرى. ففى خلال قرن من كتابة هانو لنقشه قام كاتب مجهول بترجمة نسخة مفيدة وإن كانت أبعد ما تكون عن ترجمة ملهمة من النص السامى إلى الإغريقية. وعلى مر القرون التى تلت عكف كتاب إغريق ورومان وفيما بعد بيزنطيون على نسخ نسخ من الأصل، والنسختان المعروفتان اليوم يعود تاريخ إحدهما إلى ما قبل القرن التاسع، والأخرى إلى القرن الرابع عشر. ويؤكد بعض العلماء أن هانو نفسه لم يكتب النقش وإنما كان ذلك من عمل كاهن استجوب ملاحين اثنين من بعثة هانو.

وعلى أية حال، فالنص يبدأ بأن يقرر أن "هانو ملك قرطاجنه" قد "قام برحلة إلى الأراضى الليبية فيما بعد أعمدة هرقل"، وأن النقش يقصد به تكريم 'كرونوس'. وفى الحقيقة فإن تعبير 'ملك' يعنى ببساطة أنه كان من كبار الحكام، بينما كانت 'ليبيا' الاسم الإغريقى لإفريقيا نفسها. وفى أماكن أخرى يتحدث النص عن 'الليبيين الفينيقيين' أى القرطاجنيين - كما يتحدث عن 'الإثيوبيين'، وهو مصطلح عام يصف الأقوام من أصحاب البشرة الداكنة القاطنين فى إفريقيا جنوب الصحراء. وأخيراً، كان 'كرونوس' اسم إله إغريقى (أو بالأدق واحداً من الجبابرة titan) وكان أباً لزيوس كبير آلهة الإغريق. وليس من المحتمل أن يكون هانو أو أى قرطاجنى آخر قد أقام نصباً لكرونوس؛ وربما كان الإله المقصود هم بعل حمون، وهو صورة محورة للإله الذى كان الفينيقيون من أسلاف القرطاجنيين يعبدونه.

وكما يتبين من الفقرة الأولى المرقمة من النقش، فإن أهل قرطاجنه أزلوا بعثة هانو الاستكشافية بهدف إنشاء مدن أو مستوطنات لتوسيع نطاق إمبراطوريتهم التجارية. ويذكر هانو أنه "أبحر مع خمسة وستين مركباً من نوات المجاديف، تحمل حوالى ثلاثين ألف رجل وامرأة، والطعام وغيره من المؤن." وإنه ل يبدو مستحيلاً أن

تحمل ستون سفينة ٣٠.٠٠٠ مستوطن، والأغلب أن هانو اصطحب معه ٥٠٠٠ شخص- وهو رقم لا يزال مهولاً بالمقاييس القديمة.

وبعد أن أبحروا خلال أعمدة هرقل، أو مضائق جبل طارق، لمسافة ١٠٠٠ ميل (١٦٠٠ كم) إلى الغرب من قرطاجنه، دخل المسافرون مياه المحيط الأطلنطى التى لم تكن قد استكشفت بعد بكاملها. ثم استداروا تجاه سواحل ما هو المغرب اليوم، حيث أسسوا أول واحدة من المستوطنات العديدة فى 'تيمياتيروم' وهى 'المهدية' اليوم بالقرب من العاصمة الرباط.

وفى النقطة التالية (والتي قد تكون رأس كانتين أو رأس بدوزا أو رأس مازاجان) يقرر النقش أنهم بنوا معبداً للإله بوزيدون. وهنا، وللمرة الثانية، نجد اسماً إغريقياً، وهم ربما كرموا إلهاً فينيقياً من آلهة البحر كان اسمه مجهولاً لليونانيين. ووفقاً للنقش أبحر المسافرون شرقاً، وهى معلومة تثير التساؤل لأن اليابسة تقع إلى شرقهم. ولعلمهم أبحروا داخل نهر يسمى أم الربية ودخلوا بحيرة، حيث وجدوا، طبقاً لأقوال لهانو، "قيلة وحيوانات برية أخرى".

وبعد إبحار ليوم آخر أسس الرحالة مدناً أسموها كاريكون تيكوس وجيتى وأكرا ومليتا وأرامبيس. وأمكن التعرف عليها كلها بدرجات متفاوتة من التأكد، والأخيرة ترتبط بموقع عثر فيه الآثاريون المحدثون على آثار قرطاجنية- تشمل أدلة على أن المستوطنين اشتغلوا بصناعة خاصة بالفينيقيين، وهى جمع المحار لصناعة الصبغة الأرجوانية.

وفى كل مدينة ترك الرحالة خلفهم مستوطنين بينما انطلقوا هم جنوباً. وأول ذكر فى تقرير هانو عن الحياة البشرية (عدا القرطاجنيين أنفسهم) يأتى فى وصف لقاء بجوار نهر أسماه ليكسوس، حيث تصادق الببو 'الليكسيون' مع الزوار. ويبدو أن بعضاً من السكان المحليين أبحروا مع القرطاجنيين وعملوا مترجمين. إلا أنه حدث فيما بعد أن قابل الرحالة 'إثيوبيين عدائين' فيما قد يكون جبال أطلس الخلفية.

وبعد أن أبحروا قبالة أراض صحراوية وصلت جماعة هانو إلى جزيرة صغيرة يبلغ محيطها خمسة ستادات (حوالي ٩٠٠ متر أو نصف ميل) حيث أسسوا مستعمرة أسموها سرن. وربما تكون تلك هي جزيرة هرن قبالة ساحل الصحراء المغربية، رغم أنها أكبر بكثير من الأبعاد التي ذكرها هانو. وسرعان ما قابلوا سكاناً محليين أكثر عدوانية حاولوا منعنا من التوجه إلى الشاطئ بقذفنا بالحجارة، وبعدها مروا على نهر- ربما نهر السنغال- كان مليئاً بالتماسيح وأفراس النهر.

وأبحروا لمدة ١٢ يوماً بعد سرن، وأثناء ذلك الإبحار شاهدت الجماعة شاطئاً مأهولاً كله بأثيوبيين ... لم يكن لسانهم مفهوماً لنا ولا لليكسيين المصاحبين لنا. وفي اليوم الثاني عشر "شاهدنا جبلاً عظيماً عليه غابات من أشجار عطرية متنوعة". وقد يكون ذلك هو رأس فيردى أو رأس ميسورانو بالقرب من مونروفيا عاصمة ليبيريا الحالية؛ ومما هو جدير بالذكر على أية حال أن هانو كان يعاين الموارد الطبيعية النفيسة للمنطقة وعينه على التجارة.

وسرعان ما دخلوا خليج غينيا، حيث شاهدوا نيراناً على الشاطئ أثناء الليل. وفي موقع أطلق عليه هانو اسم القرن الغربي، لعله رأس ثرى بوينت فى غانا الحديثة، سمعوا أصوات مزامير وصنج وهدير طبول وصيحات هائلة. وتملكنا الرعب وطلب منا المترجمون أن نغادر الجزيرة. وبعد مسافة أخرى شاهدت جماعة هانو بركاناً أطلق عليه اسم "عجلة الآلهة"، ولعله كان جبل الكاميرون. وأبحروا لثلاثة أيام قبالة أنهار من النيران" أسماها هانو القرن الجنوبي، وتقع إما فى جابون أو سييرا ليون.

وفى الفقرة الأخيرة يذكر هانو أحداثاً غريبة حدثت فى القرن الجنوبي: "هناك جزيرة فى ذلك الخليج ... وبها بحيرة، داخلها جزيرة أخرى مليئة بالمتوحشين. وغالبيتهم كانت نساء كثيفات شعر الجسم، أسماها مترجمونا الغوريلات. وعلى الرغم من أننا طاردناهم فإننا لم نستطع الإمساك بأى ذكر: فقد فروا جميعاً، وكانوا متسلقين مهرة ودافعوا عن أنفسهم بالحجارة. إلا أننا أمسكنا بثلاث إناث، قاومن من أمسكوا

بهن بالعض والمخالب. فاضطررنا إلى قتلهن وسلخنا جلودهن وأحضرناها معنا إلى قرطاجنه. لأننا لم نبحر أبعد من ذلك بسبب نقص مؤونتنا.

كان ذلك هو أول إشارة مكتوبة إلى الغوريلا، وهى كلمة، وفقاً لقاموس ويستّر مشتقة من اليونانية 'جوريلاي' (Gorilla) قبيلة من نساء كثيفات الشعر جاء ذكرها فى تقرير عن رحلة حول إفريقيا. ويبدو أن الكلمة هى تحريف يونانى لتعبير لقبيلة كيكونجو هو 'نجو ديدا' (ngo diida)، ويعنى 'حيوان قوى يضرب نفسه بعنف' - ولكن ذلك يحمل بين طياته أمراً محيراً فى رحلة هانو. فبناء على التقرير المكتوب، كان على المسافرين أن يسافروا مسافة أكبر بكثير، عابرين خط الاستواء، لكى يلاقوا متكلمين بلغة كيكونجو.

وأثار ذلك تساؤلات عما إذا كان هانو قد دار فعلاً حول الطرف الجنوبى لإفريقيا، ولكنه أثر أن يبقى اكتشافاته الأخرى سرّاً. وكان بلينى الأكبر (ح ٢٣-٧٩ م)، الذى قرر أن فراء الغوريلا تبقى معروضاً فى معبد قرطاجنى حتى تدمير المدينة على يد الرومان، قد كتب أن هانو أبحر من جاديس [قادش] إلى أقصى جزء فى بلاد العرب، وأثناء ذلك دار حول القارة الإفريقية. غير أن هانو فى الأغلب استدار فعلاً عندما قال إنه فعل ذلك. وعلى الرغم من أن موضوع اشتقاق كلمة غوريلا لا يزال يفرض نفسه، فإنه يبدو أقل إلحاحاً فى ضوء حقيقة أنه لا توجد دلائل على وجود قرطاجنى فى جنوب أو شرق إفريقيا. وأهم من ذلك أن رأس الرجاء الصالح تشكل عقبة كئداء، وهى التى وجدها الملاح البرتغالى بارثولوميو دياز (ح ١٤٥٠-١٥٠٠) غير ممكن عبورها رغم امتلاكه لتقنيات ملاحية أكثر تقدماً مما كان لدى القرطاجنيين.

وعلى أية حال، ترك ما كتبه هانو تأثيراً عميقاً على عديد من الكتاب الآخرين، من بينهم هيرودوت (ح ٤٨٤-٤٢٠ ق.م.). فوفقاً لما قاله المؤرخ الإغريقى، كان التجار الفينيقيون على سواحل إفريقيا، ربما فى منطقة السنغال الحديثة، يترجلون إلى اليابسة فى جزيرة ويضعون كمية من البضائع على الشاطئ ثم يعودون إلى سفنهم. فيتقدم الأفارقة ويضعون كمية من الذهب، الذى كان وفيراً فى منطقتهم، بجوار

البضائع الفينيقية. فإذا ما قدر الفينيقيون أن التبادل مناسب، كانوا يأخذون الذهب ويرحلون. غير أنهم إذا لم يجدوه مناسباً يتركون بضائعهم على الشاطئ حتى يحضر الأفرقة مزيداً من الذهب. وبمجرد أن يتفقا على الصفقة يحمل الفينيقيون ذهبهم ويرحلون.

ويبدو أن وصف هيرودوت مستمد مما كتبه هانو. ويعد ذلك بقرون ذكر الرحالة العرب إلى تلك المنطقة أن الأفرقة لا يزالون يمارسون ذلك النمط من التجارة. ومن البديهي أن قرطاجنه ومستعمراتها قد زالت منذ زمن سحيق إلا أن هانو ورحلته تبقى أسطورية: وحتى لو كان قد استدار عائداً إلى الجانب الغربي من إفريقيا، فإنه يبقى أنه سافر أبعد جنوباً من أي ملاح حتى القرن الخامس عشر. وفي القرون الأخيرة أشاد كتاب متنوعون مثل: مونتسكيو وراف والدو إمرسون بهانو وإنجازاته.

جدسون نايت (JUDSON KNIGHT)

لمزيد من القراءة

كتب

Cary, M., and E. H. Warmington. *The Ancient Explorers*. London: Methuen, 1929.

Simon, Chaman. *Explorers of the Ancient World*. Chicago: Children's Press, 1990.

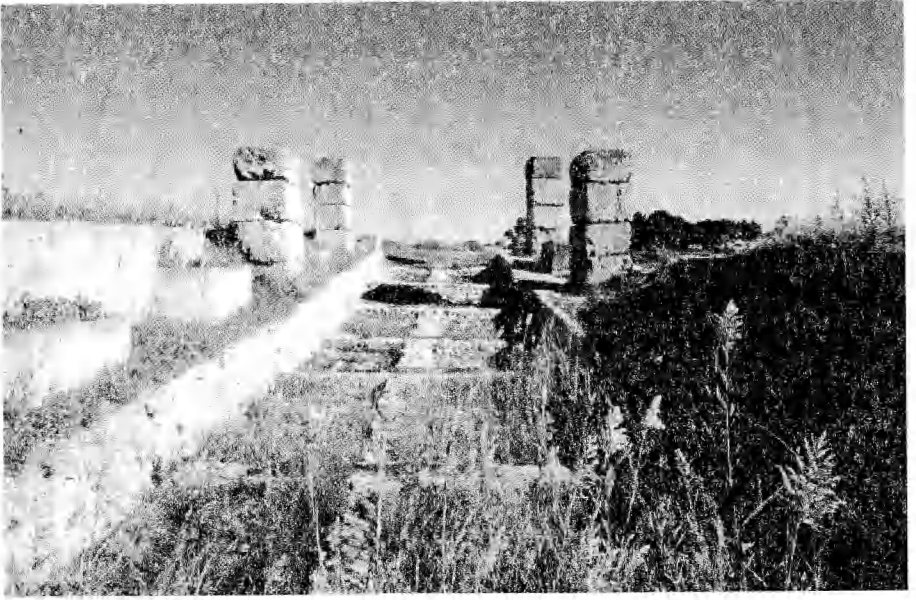
Sladen, Douglas. *Carthage and Tunis*. London: Hutchinson, 1906.

مواقع على الإنترنت

Casson, Lionel. "Setting the Stage for Columbus." <http://www.millersv.edu/~columbus/data/art/CASSON01.ART>

"Hanno's Periplus on the Web." <http://www-personal.umich.edu/~spalding/Hanno>.

Lendering, Jona. "Hanno." <http://home.wxs.nl/~lende045/Hanno/Hanno.html>.



بقايا البوابة البونية في قرطاجنه الأول

كتاب «التاريخ» لهيرودوت

نظرة شاملة

يُعرف المؤرخ الإغريقي هيرودوت باسم «أبو التاريخ» لأنه كتب أول عمل تاريخي نثراً في الآداب الغربية. وكتابه «التاريخ» يتناول الأحداث التي أدت إلى الحروب بين الإغريق والفرس في القرن الخامس ق.م، وعلى الرغم من أنه كتبه بعد الحرب بزمن طويل فإن هيرودوت تحادث مع أولئك الذين عايشوا الحرب. وسافر في أنحاء العالم المعروف كي يتعرف على جغرافية الإمبراطورية الفارسية ويتفهم طرائق الحياة والتفاعلات السياسية للشعوب التي عاشت هناك. ولقد كان هيرودوت واحداً من أوائل من وصفوا الجغرافيا والثقافة والمجتمع في تلك المناطق.

الخلفية

ولد هيرودوت في حوالي سنة ٤٨٥ ق.م. في هاليكارناسوس، وهي مدينة إغريقية على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى، عبر بحر إيجه قبالة بلاد اليونان. وكانت هاليكارناسوس مستعمرة تقع على أطراف العالم الإغريقي. وعلى الرغم من بعدها عن مركز الحضارة الإغريقية فإن أهلها كانوا يتحدثون اليونانية ويعتبرون أنفسهم إغريقاً ويطبقون العادات والديانات والسياسة الإغريقية. ولا يُعرف إلا النزر اليسير عن حياة هيرودوت، وهو لا يكشف في أعماله إلا عن القليل من شئونه الشخصية. وتقول بعض المصادر إن عائلته كانت من العائلات الكبيرة في

هاليكارناسوس. وفي شبابه شارك هيروdot في ثورة ضد طاغية محلي ونفى إلى جزيرة ساموس لبعض الوقت.

كان الأمر الذي أثار اهتمام هيروdot هو الحرب بين الإغريق والفرس التي بدأت في 492 ق.م. وانتهت أخيراً في 449 ق.م. وكان اهتمامه منصباً بوجه خاص على الفترة ما بين 490 و479 ق.م.، والتي فيها حاول الفرس مرتين غزو بلاد اليونان. ولعل اهتمامه في ذلك الصراع قد بدأ وهو صبي صغير عندما اصطحبت أمه إلى ميناء هاليكارناسوس كي يشهد عودة الأسطول الفارسي المهزوم. وفي النهاية توصل هيروdot إلى قناعة أن النهاية الناجحة للصراع كانت أمراً أساسياً للحفاظ على الحضارة الإغريقية، وأن هزيمة الفرس لم تحفظ بلاد اليونان فقط وإنما بقية العالم، من الاجتياح بواسطة الاستبداد الشرقي.

كان العالم الذي يعرفه هيروdot يتكون من البحر المتوسط والدول المحيطة به، فلم يكن معروفاً آنذاك إلا أقل القليل عن بقية أنحاء العالم. وبدأ هيروdot ترحاله وهو بالغ، على الرغم من أنه ليس معروفاً بالضبط متى كان ذلك ولماذا. كما أنه ليس من الواضح كيف كان يسافر وكيف كان يدفع نفقات رحلته؛ ولعل تاجراً استخدمه أو عمل هو نفسه بالتجارة. وتدل كتاباته على أنه سافر إلى بلاد بعيدة على متن سفن تجارية، وأنه كانت لديه معرفة جيدة بالسفن والأوزان وأنظمة القياس والبضائع التجارية. ومن الجائز أنه كان يسافر برأ بالقوافل التجارية. ووصل جنوباً إلى أسوان في مصر وشرقاً إلى نهر الفرات، وغرباً إلى سيرين (ليبيا الآن)، وتوغل في أعماق شمال إفريقيا وإلى مناطق شمال البحر الأسود. وتجول في معظم أرجاء الإمبراطورية الفارسية، من البحر المتوسط غرباً إلى نهر السند في الشرق، ومن روسيا في الشمال إلى بحر العرب في الجنوب. وهو يتحدث في كتاباته عن النيجر وتشاد في أواسط إفريقيا، وبحر قزوين في روسيا، وعن إسكندرية بلاد الإسكندرية التي تشمل اليوم أجزاء من المجر ورومانيا. ومن المشكوك فيه أن يكون هيروdot قد زار فعلاً كل تلك الأماكن، ولكنه سمع عنها من أناس زاروها.

في القرن الخامس ق.م. كانت بلاد اليونان تتكون من دول - مدن مستقلة يحكمها دكتاتوريون أو ملوك أو مواطنون. ونادراً ما كانت تلك الدول - المدن تتفق فيما بينها، غير أنها كانت تتشارك في نفس الحضارة واللغة والعادات. وخلعت أثينا، كبرى تلك الدول - المدن، ملكها في ٦٨٠ ق.م. وأنشأت نظاماً للحكم بموظفين منتخبين بموافقة المواطنين. وفي ٥٦٠ ق.م. استولى دكتاتوريون على أثينا، ولكنهم سقطوا في ٥١٠ ق.م.، ونشأ نظام جديد للحكم - هو أول ديمقراطية في العالم. وبمقتضاه كان كل مواطن يتسم بالكفاءة يساهم في إدارة شئون الحكومة. ونال هذا النظام المتفرد في نوعه ثناء كتاب عديدين من بينهم هيرودوت، الذي أوضح التناقض بين نظام الحكم الأثيني والفارسي.

التأثير

يُعرف هيرودوت باسم 'أبو التاريخ' لأنه كان أول من أخذ على عاتقه وضع تفسير مكتوب وموحد للأحداث التاريخية نثراً. وكانت التواريخ السابقة تُكتب في قالب شعر قصصي، مثل 'الإلياذة' أو غيرها من الملاحم الشعرية المقفاة. ولعل هيرودوت كان يهدف إلى أن تظهر أعماله على مراحل متعددة، رغم أن الغالبية الساحقة من أعماله وصلت إلينا على صورة كتاب موحد يسمى 'التاريخ'. والأقسام الخمسة الأولى من أعماله، وتسمى تقليدياً 'كتباً'، تستكشف الأجزاء المختلفة للإمبراطورية الفارسية. وأضافت الكتب إضافات هائلة إلى معارف القدماء عن العالم والبلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط. ونظراً لأن أعمال هيرودوت كانت تُقرأ على الملأ على مستمعين إغريق فإنه لم يذكر تفاصيل عن بلاد اليونان. ولكنه شرح تفاصيل الأوضاع السياسية الإغريقية سنة ٥٠٠ ق.م. لأن معاصريه لم تكن لديهم دراية بتلك الفترة أو لم يكونوا يتذكرونها، فقد كانت قبل ذلك بخمسين سنة.

كما أُطلق على هيرودوت أيضاً لقب «أبو علم الأجناس البشرية» لأنه سجل سلوكيات ومعتقدات وعادات وثقافة شعوب الإمبراطورية الفارسية. وأبدى اندهاشه من

بعض تلك الحضارات، ونفوره من بعضها، ولكنه أعجب ببعضها الآخر. وإحدى جملته التعبيرية مألوفة فيما يختص بالنظام البريدي للولايات المتحدة. فقد أشاد بنظام الاتصالات في فارس وقال عن رسله: "لم تكن الثلوج ولا الأمطار ولا الحرارة ولا حلقة ظلام الليل لتمنع هؤلاء الرسل من إكمال دورتهم المخصصة لهم." وأحياناً كان هيرودوت يعلق على أحداث غير عادية أو يتحدث عن شعوب مثيرة للاندھاش، وأحياناً يذكر أقوالاً مرسلة دون أن يذكر ما إذا كان هو يصدق تلك القصص أم لا. وتشى أعماله بحماسة الكبير لتنوع الحياة.

غير أن التركيز الأساسي لكتاب 'التاريخ' كان على الحرب بين بلاد اليونان وفارس. وكل رحلات هيرودوت وتحقيقاته وبصيرته تسهم في إلقاء الضوء على خلفية ذلك الصراع وشرح جذور العداء بين البلدين. ورأى هيرودوت أن الصدام هو سلسلة من الصراعات بين المدن الإغريقية المستقلة والإمبراطورية الفارسية الضخمة المترامية الأطراف التي يحكمها حكام مستبدون شرقيون حكماً أوتوقراطياً مطلقاً. وكان يؤمن بأن الآلهة عاقبت البشر الذين يظهرون إفراطاً في الكبر والعجرفة، التي جسدتها أحسن ما يكون الكلمة الإغريقية 'هوبريس' (hubris)، وأن الهزيمة الفارسية توضح إيمانه هذا بجلاء. غير أن هيرودوت كان يؤكد دائماً في كتاباته الدور الذي لعبته شيم الرجال لا تدخل الآلهة. وكان هذا التوجه العقلاني في كتابه التاريخ شيئاً جديداً تمام الجدة.

كانت الدول - المدن الإغريقية تشترك في اللغة والثقافة والدين والتاريخ، وعلى الرغم من خلافاتها الطويلة الأمد فإنها اتحدت في 480 ق.م. كي يهزموا الفرس. وكانت فارس يحكمها دارا الثاني الذي غزا مجموعة من الحضارات المتباينة، لهم لغات وعبادات وديانات مختلفة، وسيطر عليها. وبلغ دارا من القوة مبلغاً مكنه من الاحتفاظ بجيش جرار وبحرية مكونين من شعوب مختلفة تحت قيادة واحدة موحدة. وأبدى هيرودوت عجبه من حجم القوات الفارسية، ولكن الأرقام التي يذكرها كانت أرقاماً عجيبة، بحيث إن المؤرخين لا يأخذونها في اعتبارهم بوصفها مبالغات صارخة.

وكان هيرودوت يتمتع بحماسة القصاص لقصة محبوبة كما كانت له عين ثاقبة لتمحيص التفاصيل وإحساس حاد بالجغرافيا. وكان يدرك أيضاً ما له أهمية تاريخية، وبهذا استوعب مغزى المعركة البحرية الكبيرة في سلاميس، التي كانت حجر الزاوية في الهزيمة الفارسية. وكانت الحروب اليونانية الفارسية نقطة تحول حاسمة في حرية الدول - المدن الإغريقية، وضمن النصر الإغريقي انتصار الديمقراطية وبقاء حكم القانون على الاستبداد الفارسي. وأثنى هيرودوت على القائد الإثيني ثيموستوكليس (Themistocles) الذي خطط للنصر في سلاميس على الرغم من أنه أدان الرجل وحياته. انتصر الإثينيون في معركة ماراتون وسلاميس التي خاضوهما سنتي ٤٩٠ و٤٨٠ ق.م. على التوالي رغم أن حليفهم إسبرطه لم تصل قواتها للمساعدة. وترتب على هذين الانتصارين نشأة إمبراطورية إثينية، ولكنها أدت أيضاً إلى تنافس داخلي ونزاع دائم انتهى في النهاية بحرب البيلوبونيز (٣١-٤٠٤ ق.م.) التي أسفرت عن تدمير القوة الإغريقية.

وقد تعقب هيرودوت الأحداث التي أدت إلى الصراع بين بلاد اليونان وفارس، واصفاً معارك الحرب المهمة، وسجل ما يعرفه عن الأحداث والشعوب. وفعل ذلك بصورة مثيرة للإعجاب، رغم دخوله في مسارات جانبية واستطرادات. وضمن كتابه أساطير وحكايات كانت غير قابلة للتصديق حتى أنه أبدى شكوكه تجاهها. فلماذا استخدمها؟ لأنها كانت المعلومات الوحيدة المتاحة كي يلقي الضوء على الحضارة. وكانت كل مصادره شفاهية فلم تكن هناك سجلات مكتوبة، ولا روايات رسمية، ولا وثائق رسمية يرجع إليها. تحدث هيرودوت إلى شهود عيان أو إلى أناس كانوا يعرفون أشخاصاً آخرين شاركوا في صنع الأحداث. وأحياناً كان كل ما لديه أقوال مرسلة أو شائعات. وكان يكتبها حتى لو تشكك في صحتها ولكنه كان يطلب من قرائه أن يصدقوها لو رغبوا في ذلك. وعندما كان يسجل روايتين مختلفتين لحدث ما، كان يذكر تفضيله لرواية على الأخرى. ولم يكن تاريخ هيرودوت عملاً علمياً، ولكن ما كتبه أوضح كيف كان الناس قديماً ينظرون إلى تاريخهم.

وليس لهيرودوت مثل في الأدب القديم بوصفه من الجغرافيين الأوائل وأول مؤرخ وأول من بحث في الأنتروبولوجيا. وكان خلفاؤه مثل ثوسيديديس (Thucydides) (ح ٤٠١ ق.م.) المؤرخ الإغريقي وبلوتارك (٤٦- ما بعد ١١٩ م) كاتب السير الإغريقي، يستعينون بوثائق مكتوبة وطوروا تقنيات أفضل لتنظيم الكتابة التاريخ. بينما لم يكن هيرودوت يملك إلا فطنته وتصميمه يستخدمهما. ولم ينتج أى من خلفائه عملاً فى التاريخ أو الأنتروبولوجيا قابلاً للقراءة وممتعاً ومتكاملاً مثل 'التاريخ'.

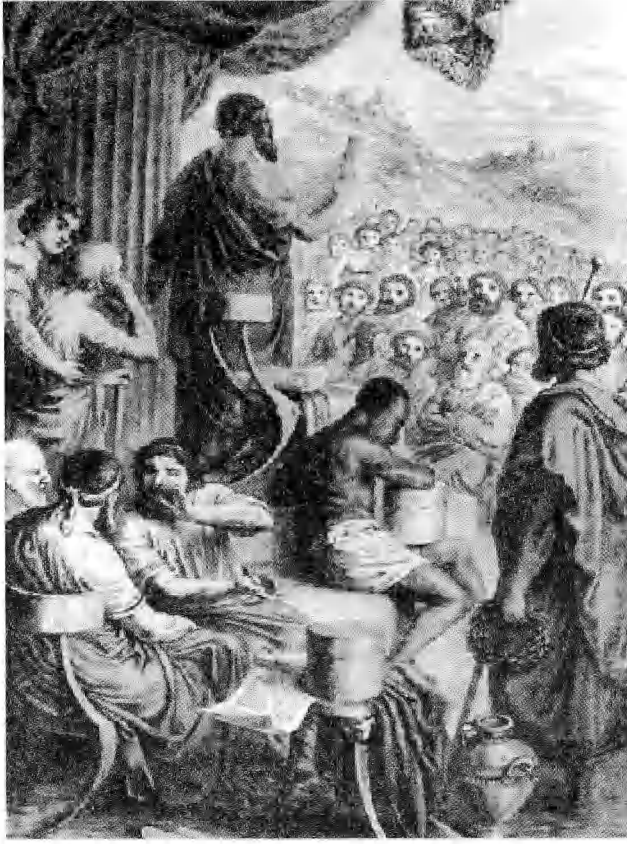
ليندال بيكر لاندور (LYNDALL BAKER LANDAUER)

لمزيد من القراءة

Herodotus. The Histories. trans. by David Grene. Chicago: University of Chicago Press, 1987.

Myres, Sir John L. Herodotus, Father of History. Chicago: Henry Reghery Company, 1971.

Romm, James. Herodotus . New Haven, CT: Yale University Press, 1998.



هيروdot يقص تاريخه على جمع من المستمعين

زينوفون والعشرة آلاف

نظرة شاملة

فى سنة ٤٠١ ق.م. سار كوروش (قورش) الأصغر (٤٢٤؟-٤٠١ ق.م.) إلى قلب الإمبراطورية الفارسية كى ينتزع العرش من أخيه أرتكزسيس الثانى (حكم ٤٠٤-٥٨/٣٥٩ ق.م.). وكان جوهر جيشه يتكون من فرقة من مرتزقة الإغريق، عُرِفَت فيما بعد باسم 'العشرة آلاف'. وكان بين صفوفها ضابط صغير يسمى زينوفون (٤٣١؟-٣٥٤؟ ق.م.). وبعد أن قُتِل كوروش فى معركة كوناكسا ساهم زينوفون فى قيادة الجنود الإغريق الغزاة شمالاً إلى البحر الأسود ومن ثم إلى الوطن. وكانت رحلتهم خلال جبال كردستان والسهول الأرمينية المرتفعة هى الاستكشاف الوحيد لتلك المناطق المنعزلة والوعرة حتى الأزمنة الحديثة.

الخلفية

كان موت إكزسيس الكبير (٥١٩؟-٤٦٥ ق.م.) علامة على بداية انحدار الأسرة الأخامينية. وتضعفت قوى فارس تدريجياً تحت حكم خلفائه الذين كانوا عاجزين بصفة عامة. وابتلى حكم أرتكزسيس الأول (٤٦٥-٤٢٥ ق.م.) بالغارات الإغريقية على آسيا الصغرى والعديد من الثورات. ولم يحكم إكزسيس الثانى إلا ٤٥ يوماً قبل اغتياله. وفى الحال استولى أخوه غير الشقيق دارا الثانى أوكوس (حكم ٤٢٣-٤٠٤ ق.م.)، على العرش. غير أن قوته ضعفت من جراء مؤامرات القصر

والفساد. كما كان دارا أيضاً يسيطر عليه الخصيان وباريساتيس أخته غير الشقيقة وزوجته فى نفس الوقت.

وفى سنة ٤١٢ ق.م. حاول دارا أن يستعيد السلطان الفارسى على المدن الساحلية الإغريقية فى إيونيا. وكان يقود العمليات الحربية كل من فارنابازوس وهو ساتراب (حاكم) داسكيليوم وتيسافرنيس ساتراب ليديا وكاريا. وتشكل تحالف مع إسبرطه ضد أثينا وأمكن استعادة معظم إيونيا. وتوقف حدوث أى نجاحات أخرى بسبب محدودية المساعدات التى قدمها تيسافرنيس لإسبرطه. وعلى ذلك أقنعت باريساتيس زوجها دارا بأن يعين ابنهما كوروش خلفاً لتيسافرنيس (٤٠٧ ق.م.). وساعد كوروش إسبرطه على إعادة بناء أسطولها، الذى أنزل هزيمة ساحقة بالآثينيين فى إيجوسبوتامى (٤٠٥ ق.م.). وأدى ذلك إلى إنهاء حرب البيلوبونيز نهاية سريعة.

كان كوروش حاضراً عند وفاة أبيه فى ٤٠٤ ق.م. ولما توج أخوه الأكبر أرتكزرسيس الثانى، اتهم تيسافرنيس كوروش بالتآمر لقتل الملك الجديد. وتوسطت باريساتيس لابنها كوروش وأقنعت أرتكزرسيس بأن يعيده إلى آسيا الصغرى. فلما عاد كوروش إلى سارديس فى ليديا شرع فى الحال فى التحضير للاستيلاء على العرش.

التأثير

جمع كوروش جيشاً بذريعة أنه يريد إخضاع بيسيديانز المتمرد. وكان جوهر ذلك الجيش يتكون من حوالى ١٤٠٠٠ من المرتزقة الإغريق. وكان ما يربو على ١٠,٠٠٠ منهم من الهوبليت (hoplites) - وهم مشاة مدججو السلاح يحملون رماحاً يبلغ طولها ٢-٢ متر. أما الباقون فكانوا من البلتاست (peltasts) - وهم من القوات المعاونة المسلحة تسليحاً خفيفاً. وكانت تلك القوات تجند من جميع أنحاء بلاد اليونان. وجنّد

بروكسينوس من بويتيا (Boeotia) وحده ١٥٠٠ من الهوليت و٥٠٠ من البلتاست. كما أنه جُنّد أيضاً صديقه زينوفون. وعين كوروش كليركوس الاسبرطى المنفى قائداً عاماً لكل الإغريق.

. وفى مارس ٤٠١ ق.م. سار كوروش من سارديس ومعه قوة مختلطة شملت مرتزقته من الإغريق، و٢٦٠٠ فارس وعدد غير محدد من الآسيويين. واتجه الجيش إلى بيسيديا فى الجنوب الشرقى. وبحلول شهر يونيو كانوا قد تخطوا بيسيديا ودخلوا سوريا. وأدرك الإغريق أنهم خُدعوا ورفضوا أن يتقدموا أبعد من ذلك. ونجح كليركوس فى استرضائهم بتأكيدات من كوروش أنهم لن يذهبوا إلى أبعد من نهر الفرات. إلا أن كوروش، بعد أن وصل الجيش إلى تابساكوس على الضفة الغربية للفرات فى أواخر يوليو، كشف عن نواياه الحقيقية. ولم يقتنع الإغريق إلا بعد وعود بمكافآت كبيرة وتبعوه عابرين النهر إلى بابل.

أبقى الجيش نهر الفرات على يمينه ووصل فى النهاية إلى كاربوراس (أو أراكسيس وهو نهر خابور الحديث). ثم عبروا ذلك النهر وتابعوا السير فى الصحراء بمحاذاة الفرات. وحكى زينوفون عن الحيوانات الغريبة التى قابلوها هناك من الحمر الوحشية والنعام وطانر الحبارى والغزال. وبعد ذلك وصلوا إلى نهر مسكاس. وفى وسط مجرى النهر وجدوا مدينة كبيرة مهجورة أشار إليها زينوفون باسم كورسوت.

وبينما كان الجيش يتقدم إلى بايلى ازدادت تحرشات العناصر الأمامية لقوات أرتكزسيس بهم. فقد كان الملك قد حذره تيسافرنيس مسبقاً فجمع فى عجلة جيشاً من ٢٠ ألفاً من المشاة و٦٠٠٠ فارس. وأخيراً التقى الجيشان فى الثالث من سبتمبر فى كوناكسا على مبعدة حوالى مئة ميل (١٦١ كم) شمالى بابل.

سحب كليركوس، الذى كان يقود القلب الإغريقى، قواته كى يستغل ميزة وجود نهر الفرات على يمينه. وقاد بروكسينوس، وبجواره زينوفون، القوات الأقرب إلى النهر. واحتل كوروش المناطق الأبعد إلى الداخل. وقاد تيسافرنيس الفرس قبالة كليركوس

مباشرة بينما تولى أرتكزسيس القلب، وانتشرت ميمنة الملك إلى ما بعد ميسرة كوروش بصورة منذرة بالخطر.

ولم يكن مشاة الفرس المسلحون تسليحاً خفيفاً أنداداً للهوليت الإغريق. وفي الوقت الذي سحقوا فيه خطوط تيسافرنيس كانت ميسرة كوروش يحيق بها خطر التطويق. ولما أدرك كوروش أنه في أشد الحاجة إلى ضربة حاسمة في التو هاجم واقتحم قلب العدو بسرية من الخيالة قوامها ٦٠٠ فارس. ونجح في الوصول إلى أرتكزسيس وإصابته بجراح، ولكنه شخصياً قُتل. وبينما كان كليركوس يندفع مخترباً قلب قوات أرتكزسيس كان مرتزقة كوروش من الآسيويين يفرون من ميدان القتال في حال من الفوضى. غير أن الإغريق تمكنوا من القضاء على من تبقى من القوات الفارسية.

ولم يحدث إلا في اليوم التالي أن زينوفون والقواد الهلينيون علموا بمقتل كوروش. ومرت أسابيع من المناورات قبل أن ينجح كليركوس في التفاوض مع أرتكزسيس كي يسمح لهم بالمرور بسلام إلى إيونيا. وأثناء ما كانوا 'مصحوبين' بقوات تيسافرنيس شاهدوا بقايا الحائط الميدي- وهو التحصينات الهائلة التي بناها نبوخذنصر بين أوبيس وسيبار (وبقايه موجوده جزئياً بين سيبار ونصبيات بالعراق). وطبقاً لما ذكره زينوفون كان سمك السور ستة أمتار وارتفاعه ٣٠ متراً ومبنى من الطوب المجفف في الشمس والمطلى بالقار.

وبعد عبور نهر دجلة (جنوب بغداد) والسير شمالاً على ضفته الشرقية حتى رافده زاباتس (الزاب الكبير)، تقابل كليركوس وبروكسينوس وقوادهما مع تيسافرنيس لمزيد من التفاوض. وفي أثناء ذلك اللقاء قتلهم الساتراب بخسة وغدر. وكان زينوفون من بين القواد الجدد الذين انتخبوا لقيادة الإغريق.

وعلى الرغم من أن الهوليت قد أثبتوا مهارتهم في المعارك الالتحامية فإنهم كانوا يتسمون بالبطء ومحدودية القدرة على المناورة. وجعلهم ذلك عرضة لهجوم الفرسان

أثناء سيرهم. وهذا جعل زينوفون يقترح عبور الزاب الكبير والانسحاب شمالاً بأسرع ما يكون إلى أراضٍ أكثر وعورة. وسوف يؤدي ذلك إلى تحييد فرسان تيسافرئيس، الذين أصبحوا الآن يزعجونهم بطريقة سافرة. ويعد ذلك يبحثون عن مكان يعبرون منه نهر دجلة أمليين أن يجدوا طريقهم غرباً إلى بحر إيجه. فإذا لم يفلحوا في ذلك فليتجهوا شمالاً إلى البحر الأسود. ولما وافقوا على ذلك المسار نظم زينوفون قاذفى المقاليع الروديسيين ورماة السهام وغيرهم من البلتاست في مجموعات صغيرة لإعاقة المناوشين من الأعداء بينما تراجع القسم الأكبر من الهوبليت في تشكيلات مربعة مجوفة.

وأثناء تتبعهم لمسار نهر دجلة فوجئ الهلينيون بمدينة كبيرة مهجورة تعرف باسم لاريسا. ومن المحتمل أنها كانت الركن الجنوبي الغربي لنيوى القديمة (بالقرب من نمرود الحديثة جنوب غرب الموصل). ويعد أن ساروا ٢٩ كيلومتراً أخرى (شمال الموصل مباشرة) مروا بقلعة مهجورة منذ زمن بعيد تسمى مسبيلا (Mespila). ويظن العلماء أنها الركن الشمالى الغربى لنيوى، التى يقال إن محيطها كان ٩٠ كيلومتراً.

وأحبط الإغريق فى محاولاتهم عبور دجلة بسبب عمقه واتساعه. وإلى الشمال من الجزيرة كانت تلال كردستان تطل على النهر مباشرة مما استحال معه السير على ضفته، فاضطروا إلى ارتقاء جبال كردستان. وتلك منطقة، وكذلك الهضبة الأرمينية إلى الشمال، لم تخضعها فارس مطلقاً إخضاعاً حقيقياً. ويزودنا كتاب زينوفون 'أناباسيس' (Anabasis) بأول إشارة غربية إلى السكان المستقلين المحاربين للمنطقة المعروفين باسم الكردوسيين (Carducians) أو الأكراد الذين اشتبكوا معهم. وشق الإغريق طريقهم قتالاً إلى الشمال إلى مناطق السنتريت (Centrites شرقى دجلة)، التى وصلوها فى أوائل ديسمبر.

وتحديد المسار الذى سار فيه الإغريق من تلك النقطة هو من المعضلات. فبعد أن عبروا السنتريت، يعتقد معظم العلماء أنهم استمروا فى الاتجاه الشمالى الغربى قبل

أن يستديروا إلى الشمال الشرقى ويتوغلوا فى الهضبة الأرمينية. ثم اتجهوا إلى تليبوس (Teleboas) عن طريق موس (Mus). وبعد ذلك عبروا مناطق ريفية خالية من الدروب، متحملين البرد والثلوج قبل أن يصلوا إلى الفرات الغربى الذى عبروه فى مكان ما بالقرب من إرزيروم (Erzerum). وفى يناير من سنة ٤٠٠ ق.م. اتجهوا شمالاً إلى نهر هارباسوس (Harpasus) مارين فى أقاليم التاووكى (Tao-chi) والكالبييس (Chalybes). وأثنى زينوفون على الأخيرين بوصفهم أعنف همج قابلوهم.

وبتبعهم لنهر هارباسوس وصل الإغريق أخيراً إلى مدينة جيمينياس (Gymnias) حيث علموا أنهم على مسيرة أيام قليلة من ميناء ترابيزوس (Trapezus) طرابزون الآن (بتركيا) على البحر الأسود. ووصلوا إلى تلك المستوطنة الهلينية فى أوائل فبراير. وبلغ عددهم الآن ١٠,٠٠٠، ومن هنا جاء اسمهم 'العشرة آلاف'. ويسيرهم على السواحل الجنوبية للبحر الأسود وصل العشرة آلاف أخيراً إلى كيسوبوليس (Chysopolis) على البسفور، حيث غادروا آسيا الصغرى وعبروا إلى بيزنطة.

وتركت أنباء الانسحاب الناجح للعشرة آلاف مخترقين أقاليم مجهولة تحت ظروف صعبة وضد سكان عدائين إحساساً مثيراً فى العالم الإغريقى. وسجل زينوفون تلك الإنجازات فى كتابه 'أناباسيس'، وهو يحظى بصفة عامة بنصيب الأسد فى فضل بقاء البعثة على قيد الحياة. وكانت الحملة واستكشاف كردستان وأرمينيا مغامرات من الطراز الأول، ولكنها تركت أيضاً نتائج حربية وسياسية دائمة.

أكدت معركة كوناكسا ما كان الإغريق يعلمونه بالفعل عن المشاة الفرس - أنهم ليسوا أنداداً للهوليت. وأهم من ذلك أن مسيرة العشرة آلاف التى تلت المعركة واستغرقت خمسة شهور قطعوا فيها ٢٤١٤ كيلومتراً كشفت الضعف الداخلى الجوهرى للإمبراطورية الفارسية. وشجع ذلك على تجدد الغارات الإغريقية داخل الأراضى الفارسية. وقام الملك الإسبرطى أجيسيلوس الثانى (Agesilaus II)

(٤٤٤-٣٦٠ ق.م.)، الذي استخدم زينوفون وعناصر من العشرة آلاف، بغزوة ضد فارس في آسيا الصغرى بنجاح عظيم، وهزم تيسافرنيس في سارديس هزيمة حاسمة سنة ٣٩٥ ق.م. وشجعت تلك الأحداث أيضاً فيليب الثاني (٣٨١-٣٣٦ ق.م.) ملك مقدونية على اتخاذ قرار بغزو فارس، الأمر الذي أتمه بنجاح ابنه الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.). وهكذا كانت الإنجازات البطولية للعشرة آلاف مسنولة بطريق غير مباشر عن سقوط الإمبراطورية الفارسية.

ستيفن د. نورتن (STEPHEN D. NORTON)

لمزيد من القراءة

كتب

Cary, Max, and E.H. Warmington. *The Ancient Explorers*. Rev. ed. Baltimore, MD: Penguin, 1963.

Cawkwell, George. *The Persian Expedition*. Trans. Of Xenophon's *Anabasis*, by Rex Warner. New York: Penguin, 1949.

Dillery, John. *Xenophon and the History of His Times*. London: Routledge, 1995.

Hirsch, S.W. *The Friendship of the Barbarians: Xenophon and the Persian Empire*. Hanover, NH: University Press of New England, 1985.

Jacks, Leo V. *Xenophon, Soldier of Fortune*. New York: Scribner, 1930.

Warry, John. *Warfare in the Classical World*. Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1995.

مقالات في دوريات

Roy, J. "The Mercenaries of Cyrus." *Historia* 16 (July 1967): 287-323.

أطراف الأرض (ألتيفا ثول) وبريطانيا (بريتانيك) ورحلة بيثياس من مساليا

نظرة شاملة

استمرت كلمة ألتيفا ثول (ultima Thule) لقرون مرادفة لأطراف الأرض. واستخدم بيثياس من مساليا (اشتهر ٣٢٥ ق.م.) كلمة ثول لأول مرة ليشير بها إلى الأراضي في أقصى الشمال التي زارها في رحلته في شمال المحيط الأطلنطي. وفيما بعد أطلق عليها سنيكا (4) (Seneca) (٤ ق.م. - ٦٥م) لقب ألتيفا (الأبعد ما يكون) ثول. ورغم أن موقعها بالدقة لا يزال غير معروف إلا أنه يبدو من المؤكد أن بيثياس قد غامر بالإبحار حتى خط عرض ٦٢× شمالاً. وكان أيضاً أول من دار حول بريطانيا وأول من سجل معلومات جغرافية وإثنوجرافية دقيقة عن شمال غرب أوروبا.

الخلفية

تمثل إدراك الإغريق لوجود بريتانيك (Brettanike) (بريطانيا) والمناطق من أوروبا تحت المنطقة القطبية في أساطيرهم. وفي بادئ الأمر كان يُظن أن ثمة نهراً أسطورياً هو نهر إريدانوس (Eridanus) يتدفق شمالاً خلال أوروبا الغربية وكان مرتبطاً بإنتاج العنبر. ويشير هوميروس (اشتهر حوالي ٨٥٠ ق.م.) في الإلياذة إلى أرض الليستريجونيين (Laestrygones) حيث يتقارب مرور النهار والليل سوياً كما أن بها السيميريين (Cimmerians) الذين يعيشون على حافة المحيط في صقيع وظلمات.

ولم تتكون صورة أكثر وضوحاً عن أراضى شمال الأطلنطي إلا في القرن السابع ق.م. عندما تغلغل المستوطنون الإغريق في غربي البحر المتوسط وشرعوا في المتاجرة

مع تارتيسوس (Tartessos) (إشبيلية الحديثة في إسبانيا). وكان التجار التارتيسيون قبل ذلك بأمد طويل قد أسسوا طرقاً تجارية مع بريتاني وكورنول للمتاجرة فى القصدير ومع إيرلندا للذهب والنحاس. واستغل الإغريق لآخر مدى علاقاتهم مع تارتيسوس عندما تأسس الميناء الفينيقي مساليا (Massalia) مرسيلىا الحديثة بفرنسا) حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. وهناك دلائل أن شخصاً فينيقياً يسمى ميداكريتوس (Midacritus) أبحر شمالاً حتى بريتاني وعاد بحمولة من القصدير.

وانقطع طريق اتصال الإغريق بالأطلنطى حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. عندما طردهم الفينيقيون من إسبانيا ودمروا تارتيسوس. ومن ثم سيطر القرطاجنيون على أعمدة هرقل (مضايق جبل طارق) من مستعمرتهم فى جاديز [قادش] (تأسست حوالى ١١٠٠ ق.م.). واستمرت مساليا تسيطر على الساحل فى اتجاه الجنوب حتى إمبريون (Emporion) أميورياس Ampurias، ١٢١ كم شمال شرق برشلونة الحالية بإسبانيا)، ولكن وسيلتهم الوحيدة لطلب قصدير الأطلنطى كانت القوافل البرية عبر بلاد الغال.

كان بيثياس (Pytheas) هو الإغريقى التالى الذى يبحر فى الأطلنطى. وعلى الرغم من أن التاريخ الحقيقى لرحلته لا يزال مشكوكاً فيه، فإنه من الممكن تحديده بصورة تقريبية. ويبدو أنه استعان بعمل مرجعى يعود تاريخه إلى ٢٥٠ ق.م. وإضافة لذلك فإن ديكايرخوس من مسينا (Dicaearchus of Messene) (اشتهر ٢٩٦-٢٢٦ ق.م.) قد استرشد بما كتبه بيثياس. وعلى ذلك فلا بد أن الرحلة حدثت فيما بين ٢٥٠ و٢٩٠ ق.م. ويضاف إلى ذلك أن قرطاجنه كانت تراقب المرور خلال الأعمدة (مضيق جبل طارق) مراقبة لصيقة. وإذن فالمعتقد السائد أن بيثياس لم يكن ليستطيع الإبحار إلى الأطلنطى إلا عندما كانت قرطاجنه منشغلة بحريها مع سيراكيز فى السنوات ٢١٠ إلى ٢٠٦ ق.م.

وهذا التاريخ يفترض أن بيثياس كان قائداً أو على الأقل عضواً، فى بعثة أرسلتها مساليا. وهناك افتراض بديل يقترح أنه ارتحل كمسافر على متن

سفينة تعمل على خط ملاحى منتظم، وربما سافر براً إلى بریتانى قبل أن یركب مثل تلك السفينة. وعلى الرغم من أن ذلك یجنبنا الحاجة إلى تفسير كيف استطاعت سفينة إغريقية أن تخترق الحصار الفینیقى، فإنه يبدو رأياً غير محتمل وليس له سوى أنصار قلائل.

ومن المحتمل أن البعثة كانت تحت مظلة رسمية بهدف الحصول على معلومات تساهم فى تنشيط تجارة مساليا. وتقول الأساطير: بیثياس كان فلكياً وجغرافياً متفرداً، فقد حدد بدقة خط العرض الذى تقع عليه مساليا. ولهذا كان من الطبيعى أن یكون عضواً مهماً فى مثل تلك المغامرة.

التأثير

وصف بیثياس رحلته الاستكشافية فى «على المحيط» (Peri Okeanou) وكان ذلك مقالاً عاماً فى الجغرافيا. ومما یؤسف له أن هذا العمل لم يعد موجوداً. وما عُرِف منه التُّقَط من تعليقات فى أزمان تالية. ومن تلك المصادر المتناثرة أمكن إعادة تكوين المسار الذى اتخذه والاكتشافات التى قام بها.

فبعد أن مر من خلال أعمدة هرقل أبحر بیثياس فى اتجاه الشمال الغربى ماراً بقادش. ثم لف حول لسان الأرض عند رأس سانت فينسنت بالبرتغال، وسار فى اتجاه شمالى بمحاذاة الساحل. وبعد أن مر بالطرف الشمالى الغربى لأيبيريا اتجه شرقاً متتبِعاً خط الساحل إلى خليج بسكى (Bay of Biscay) وعندما استدار الساحل شمالاً مرة أخرى، قدر موقعه بأنه على بعد ٦٤٤ كيلومتراً فقط من مساليا وعلى نفس خط العرض. وبهذا اكتشف أن أيبيريا شبه جزيرة.

وفى النهاية دخلت البعثة ميناء كوربيلو السلتى (سانت نازير الحالية بفرنسا على مصب نهر اللوار). وبعد أن تزود بالمؤن عاود بیثياس رحلته فى اتجاه شمالى غربى

بمحاذاة بريتاني. وفى النهاية وصل إلى رأس كابايون (Cape Kabalon) وجزيرة أويكسيسام (Ouexisame) أو شانت (Ushant) فى أبعد نقطة إلى الغرب فى بلاد الغال.

وبدلاً عن أن يستمر فى مساره المحاذى للساحل اندفع بيثياس عبر القنال الإنجليزي بحثاً عن مناجم القصدير فى بريطانيا. وفى أغلب الظن أنه علم بموقعها من السكان السلتيين فى كوريبيلو أو بريتاني. وفى نهاية المطاف شاهد المساليون سواحل بريطانيا وترجلوا من سفينتهم كى يستكشفوا.

كانت البلاد وعرة وغير مغرية تغطيها غابات كثيفة ومستنقعات. غير أنهم سعدوا لما التقوا بالسكان السلتيين. وكان هؤلاء البريطانيون يعيشون فى سلام رغم أنهم كان لديهم عدد كبير من رؤساء العشائر والحكام. ولعل بيثياس قد قام برحلات قصيرة إلى داخل البلاد كى يجمع معلومات أكثر. ولاحظ أن منازلهم كانت مبنية بطريقة بدائية من البوص المصفر أو جذوع الشجر؛ وأنهم كانوا يدرسون قمحهم داخل المنازل بسبب رداءة الجو؛ وكانت لديهم معرفة بالعربة الحربية. وهو يذكر أيضاً مشروبهم من سائل الشعير المخمر (الجنة) ونيذ العسل.

تابع بيثياس رحلته، فوصل بعد ذلك إلى بولييريوم (Bolerium) (لاندز إند بكونوول)، وهى نتوء صخرى فى الزاوية الجنوبية الغربية لبريطانيا. وهناك اكتشف ما أصبح لقرون واحداً من أهم مصادر القصدير للبحر الأبيض المتوسط. وأطلعته عمال المناجم الكورنواليون على وسائل استخراج القصدير، وصهر الخام وتنقيته. كما وصف أيضاً كيف ينقلون القصدير المصنَّع فى وقت الجزر فوق الأرض المنبسطة إلى جزيرة إكتيس الصغيرة (Ictis) (جبل سانت ميشيل). ومن هناك كانوا ينقلونه بالسفن إلى بلاد الغال وغيرها من البلدان الأبعد.

ثم سافر بيثياس بعد ذلك إلى شمال إنجلترا متتبِعاً السواحل الشرقية للبحر الإيرلندي، وعلى الرغم من أن جميع التعليقات لا تذكر إيرلندا فإنه لا بد قد شاهد الجزيرة أثناء مروره فى القناة الشمالية، حيث لا تبعد أكثر من ٢١ كيلومتراً من جنوب اسكتلندا. وقد تكون الروايات عن انتشار أكلة لحوم البشر بين السكان قد جعلته يحجم عن

النزول إلى البر. وبصرف النظر عن ذلك فقد وصل في النهاية إلى الطرف الشمالي لإسكتلندا، حيث يقال إنه واجه موجات مد يبلغ ارتفاعها ٣٧ متراً. ومن المستحيل وجود موجات مد حقيقية بمثل ذلك الارتفاع. ولعله كان يشير إلى موجات المد التي تزيد الرياح من شدتها في منطقة بنتلاند فيرث (Pentland Firth) التي تفصل اليابسة الرئيسية عن جزر أوركني.

ويعد استكشاف جزر أوركني قام بيثياس بأشهر اكتشاف له. فقد علم من رعاة الأغنام بالجزيرة بوجود جزيرة أخرى إلى الشمال وهي أكبر بكثير. وكانت تسمى ثول وتقع على مسافة إبحار لمدة ستة أيام على حافة بحر كرونيان المتجمد، الذي كان يقع في نهاية العالم وفقاً للمعتقدات السائدة آنذاك. وكان بيثياس قد لاحظ بالفعل أن النهار قد بدأ يطول أثناء اتجاهه شمالاً، وقرر أن النهار في ثول يبلغ طوله ١٩ ساعة في الصيف. وادعى أيضاً أن هناك منطقة أبعد إلى الشمال ماؤها شبه متجمد فلا هو أرض ولا هو بحر ولا هو سماء، ولكنه مزيج من الثلاثة يشبه «رنة البحر» (قنديل البحر) ولا يستطيع المرء أن يسير عليه ولا أن يبحر فيه.

وتحديد موقع ثول هو من الأمور الخلافية. وعلى الرغم من ذلك، وبسبب أن ملاحظاته تتميز بمستوى رفيع بصفة عامة، فإن المرء يميل إلى التسليم بأن بيثياس قد تعدى خط عرض ٦١ × شمالاً حيث يصل طول النهار إلى ١٩ ساعة. وي طرح هذا جزر شتلاند أو منطقة برجان بالنرويج كاحتمالات أولى. غير أنه من المؤكد أن ثول قد وُصفت بأنها جزيرة كبيرة، بينما النرويج ليست كذلك، وكذلك لم توصف ثول بأنها مجموعة من الجزر كما هو حال جزر شتلاند. واقترح الجدال إيسلاندا وجزر فارو أيضاً. إلا أن كلا من هذين يقع على بُعد إبحار أكثر من ستة أيام من إنجلترا.

وعلى أية حال، في النهاية استدار بيثياس جنوباً وأكمل دورته حول بريطانيا. وفي تلك المرحلة عبر القنال الإنجليزي مرة أخرى واتجه شمالاً حتى دخل بحر البلطيق. وبعد إبحار لمسافة ١١٢٧ كيلومتراً حدد موقع جزيرة العنبر - وهي المصدر

الرئيسى للعنبر للبحر الأبيض المتوسط - ونهر تانيس (Tanais)، الذى كان يحدد الحدود القديمة بين آسيا وأوربا. ويظن بعض العلماء أن ذلك يصف بدقة ساملاند (Samland) البروسية بالقرب من نهر الفستولا، التى تُعرف اليوم باسم ساحل العنبر. ورفض آخرون هذا الرأى، مؤمنين بأنه لم يصل إلى أبعد من نهر الإلب. ويعودته إلى وطنه قطع بيثياس، حتى بالتقديرات المتحفظة، ما يزيد على ١٢٠٧٠ كيلومتراً.

ساهمت قياسات بيثياس الفلكية فى تطور الجغرافيا الرياضياتية. وتقبل إيراتوستنيز (Eratosthenes) (ح ٢٧٥-١٩٤ ق.م.) خط ديكيارخوس الذى يمتد بين أعمدة هرقل وجزيرة رودس وتوسع فيه إلى مجموعة من الخطوط المتوازية لقياس خطوط العرض. واعتمد على ملاحظات بيثياس لتحديد خطوط العرض الشمالية. وتقبل هيبارخوس (Hipparchus) (ح ١٩٠-١٢٠ ق.م.) أيضاً ملاحظات بيثياس المسالى بوصفها على درجة كافية من الدقة واتخذ منها أساساً لنظام وضعه لخطوط العرض. كما أصاب بيثياس أيضاً فى وصفه لبريطانيا بأنها مثلثة الشكل، وقدر بدقة طول محيطها بأنه ٦٤٢٧ كيلومتراً، وقرب المسافة بين شمال بريطانيا ومساليا إلى ١٦٩٠ كيلومتراً، وهو تقدير أقل بقليل من الحقيقة (١٨٠٢ كم).

ورغم ذلك فإن غالبية الكتاب الأقدمين كانوا ينظرون إلى بيثياس بوصفه كذاباً وذا خيال. وانتقد سترابون (Strabo) الجغرافى الإغريقى (ح ٦٣ ق.م. - ح ٢٤ م) بيثياس بسبب أن تقاريره عن أقاصى الشمال تناقضت مع النظريات المقبولة منذ القدم عن المناطق غير المأهولة الشديدة الحرارة والقارسة البرودة. كما سخر سترابون أيضاً من وصف بيثياس لموجات المد العملاقة و«رئة البحر». وعلى الرغم من عدم تصديقها بصفة عامة فإن ما رواه بيثياس فتح أعين الهلنيين على غرب أوربا.

ومن المثير للسخرية أن كثيراً من التفاصيل التى أدت بالمنتقدين القدامى إلى الشك فيما قاله بيثياس، قد صارت الآن هى العوامل المؤيدة لروايته. فأوصافه للحياة النباتية والحيوانية وأحوال الطقس والملاح الجغرافية كلها تتفق كثيراً مع ما يُعرف اليوم عن تلك المناطق. ولعل من الأشياء غير المثيرة للتعجب أن المستكشف القطبى

فريدوف نانسن (Fridtjof Nansen) (١٨٩١-١٩٣٠) اعترف بأن «رنة البحر» هو وصف دقيق لقطع الجليد الصغيرة الطافية والضباب الذي يتكون على حافة الجليد المنجرف. وكل ذلك يؤكد مكانة بيثياس كواحد من أعظم مستكشفى العالم.

ستيفن د. نورتون (STEPHEN D. NORTON)

لمزيد من القراءة

كتب

Carpenter, Rhys. *Beyond the Pillars of Heracles*. New York: Delacorte Press, 1966.

Cary, Max, and E. H. Warmington. *The Ancient Explorers*. Rev. ed. Baltimore, MD: Penguin Books, 1963.

Romm, J. S. *The Edges of the Earth in Ancient Thought: Geography, Exploration and Fiction*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992.

Roseman, Christian Horst. *Pytheas of Massalia: On the Ocean*. Chicago: Ares Publishers, Inc., 1994.

مقالات في دوريات

Diller, Aubrey. "Pytheas of Massalia." In C. C. Gillispie, ed., *Dictionary of Scientific Biography*. New York: Charles Scribner's Sons, 1975: 225-26.

Whitaker, Ian. "The Problem of Pytheas' Thule." *Classical Journal* 77 (Dec.-Jan. 1981-1982): 148-64.

نيارخوس يكتشف طريقًا بحريًا من الهند إلى شبه الجزيرة العربية

نظرة شاملة

في ٢٢٥ ق.م. قام نيارخوس القائد العسكري الإغريقي بحملة بحرية استكشافية من مصب نهر السند إلى مصب نهر الفرات في بلاد الرافدين، أو العراق الحديث. وكان لرحلته أهداف عديدة لم يكن أقلها إعادة جانبا كبير من القوات المحاربة للإسكندر الأكبر من الهند إلى بلاد اليونان؛ ولكن مهمته الرئيسية كانت التوصل إلى طريق بحري بين شبه القارة الهندية والشرق الأدنى. وهو ما نجح فيه، وتحقق معه توسيع نطاق التجارة والتبادل التجاري بين الهند والبلدان الواقعة في غربها.

الخلفية

ترتبط سيرة حياة نيارخوس (٢٦٠-٣١٢ ق.م.)، الذي كان مسقط رأسه في جزيرة كريت، ارتباطاً وثيقاً لا فكاك منه مع سيرة حياة صديقه وقائده الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.). وكان والد الإسكندر فيليب الثاني (حكم ٣٥٩-٣٣٦ ق.م.) قد غزا الدول - المدن الإغريقية بهدف توحيد كل بلاد اليونان تمهيداً لإخضاع الإمبراطورية الفارسية المحتضرة. ولكنه اغتيل قبل أن يحقق هدفه، فوقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق ابنه أعظم قائد عسكري عرفه العالم.

وفي ٣٣٥ ق.م. شرع الإسكندر في تحريك قواته الجراراة إلى آسيا الصغرى، وسرعان ما انتصر في اشتباك مع القوات الموالية للفرس التي كان يقودها مرتزق

إغريقى يدعى ممنون. ثم تحرك إلى سيليزيا، حيث حقق انتصاراً حاسماً ضد الإمبراطور الفارسى دارا الثالث (مات ٣٣٠ ق.م.) فى إيسوس. وكنتيجة لذلك النصر سيطر الإغريق على كل الجزء الغربى من الإمبراطورية الفارسية، وأثناء الفترة من ٣٣٤ إلى ٣٣١ ق.م. أحكمت قوات الإسكندر سيطرتها على جنوب غرب آسيا ومصر. وفى أكتوبر ٣٣١ ق.م. التقت هذه القوات مع قوة فارسية فى جوجاميللا فى آشور، وفى هذه المرة كان الانتصار تاماً على قوات العدو.

تحرك الإسكندر شرقاً كي يؤمن إمبراطوريته، لكنه لم يكتف بمجرد إخضاع بلاد فارس فقط: ففيما بين ٣٣٠ و٣٢٤ ق.م. غزت جيوشه ما هو الآن أفغانستان وباكستان وتوغلت فى الهند. غير أن جيوشه رفضت الاستمرار بعد أن عبرت نهر بياس فيما هو باكستان الآن. فقد كان الرجال قد غادروا موطنهم منذ ما يقرب من عقد وكانوا تواقين إلى العودة إلى نويهم، فوافق الإسكندر على الشروع فى التوجه غرباً مرة أخرى.

وطوال سنوات القتال الطويلة، كان نيارخوس يقاتل جنباً إلى جنب مع صديقه وقائده، ووضح مبكراً دوره كواحد من خلاء الإسكندر عندما منحه القائد لقب ساتراب، أو حاكم، على مقاطعات ليديا وپامفيليا فى آسيا الصغرى. وعندما بدأ فى الاستعداد للعودة إلى أرض الوطن كرمه الإسكندر مرة أخرى بمنحه مركزاً متميزاً هو أمير البحر. فى حين عادت مجموعة من القوات الإغريقية برأ بطريق شمالى ومجموعة أخرى بقيادة الإسكندر نفسه بطريق جنوبى، كان على نيارخوس أن يبحر بأسطوله بحذاء الساحل حتى بلاد الرافدين. واشتمل هذا التكريم من جانب الإسكندر على تكليف لنيارخوس: أن يعثر على أفضل طريق بحرى بين الهند والشرق الأدنى.

التأثير

وفى الحقيقة، عين الإسكندر نيارخوس لوظيفة أمير البحر فى سنة ٣٢٧ ق.م.، أى قبل قرار العودة. ويشير ذلك إلى أحد احتمالين أو كليهما: إما أن القائد قد علم بالرغبة المتزايدة عند قواته بالعودة إلى الوطن، أو أنه كان قد جالت فى خاطره فكرة القيام ببعثة استكشافية بحرية. ويعتقد المؤرخون أن الإسكندر لو كان قد طال به الأجل لخصص بقية سنواته لا فى الإدارة ولا حتى فى الغزو - فقد تعبت قواته وملت، وكان هو قائداً يرقب مشاعر جنوده مراقبة وثيقة - بل فى الاستكشاف.

وليس من المعروف متى اكتسب نيارخوس مهاراته السابقة كقائد بحرى، بل ليس من المعروف أنه كان يملك هذه الخبرة أصلاً. غير أن المؤرخ أريان (Arrian) مات ١٨٠ م)، الذى كتب بإسهاب عن حملات الإسكندر العسكرية، قدم أفكاراً لا عن عدم قيادة الإسكندر القوة البحرية بنفسه فحسب وإنما أيضاً عن أسباب اختياره لنيارخوس. ونقتبس بتصريف مما كتبه أريان أن "الإسكندر كانت لديه رغبة ملحة للإبحار فى البحر الذى يمتد من الهند إلى بلاد فارس ولكنه تخوف ... لئلا يدمر أسطوله، وسيكون ذلك وصمة تلتخ كل إنجازاته وتقضى على سعادته؛ ولكن رغبته فى فعل شيء استثنائى وغريب تغلبت عليه فى نهاية الأمر".

واستطرد أريان "أنه على الرغم من كل ذلك، فكر الإسكندر فيمن يختاره للمهمة ويكون متفقاً مع تخطيطاته؛ وكذلك يكون الشخص المناسب لتشجيع طاقم الأسطول". واقتبس أريان من نيارخوس قوله إن الإسكندر أشركه فى مداولاته حول اختيار قائد للأسطول "وأن الحديث تناول واحداً من الرجال بعد الآخر، ورفض الإسكندر بعضهم لأنهم غير راغبين فى المخاطرة بأرواحهم فى سبيله، والبعض الآخر لأنهم جبناء، وأن آخرين قد تسلطت عليهم فكرة الحنين إلى الوطن، وعندئذ تكلم نيارخوس: "أيها الملك إنى أتعهد بأن أتولى قيادة أسطولاك؛ وليبارك الإله هذا المشروع، وسوف أوصول سفنك ورجالك سالمين إلى بلاد فارس، إن كان هذا البحر قابلاً للملاحة والعمل ليس فوق طاقة البشر".

ولأول وهلة تخوف الإسكندر من أن يبعث بنيارخوس فى تلك المهمة الخطيرة، ولكن نيارخوس فى النهاية تمكن من إقناعه بجدله المنطقى بأن الرجال عندما يشاهدون إمبراطورهم قد أرسل صديقه الحميم إلى هذه المهمة فسوف يهدأ بالهم تجاه الأخطار. وبعد أن عهد إليه الإسكندر بالمهمة أعطاه كل القوات التى لها خبرات فى الملاحة، كما منحه كتيبة من نجارى السفن من الهندود، وبنى هؤلاء ما يقرب من ٨٠٠ سفينة للإغريق، بعضها تبلغ حمولتها ٢٠٠ طن، واستأجر نيارخوس ملاحين هنود للعمل كأداء. وفى أواخر سبتمبر ٣٢٥ ق.م. أبحر الأسطول من مصب نهر السند.

بدأت الرحلة بداية منحوسة عندما تأخرت ٢٤ يوماً فى كروكولا (كراتشى الحالية فى باكستان) لأن الرياح لم تكن مواتية. وبعد إبحار خمسة أيام وصلوا إلى مصب نهر الهاب، ويقع اليوم على الحدود بين مقاطعتى السند وبلوشستان الباكستانيتين. وكان نهر الهاب أول نهر من أنهار عديدة تنساب من شبه القارة الهندية إلى بحر العرب مر بها المسافرون، ومرة أخرى لم تكن الأمور مواتية: فبعد إبحارهم من الهاب أغرقت عاصفة ثلاث سفن. ولحسن الحظ أمكن إنقاذ طواقمها.

رسا الأسطول عند رأس كراتشى والتقى لقاءً قصيراً مع جزء من قوات الإسكندر. وبعد التزود بالمؤن تابعوا رحلتهم إلى نهر هينجول. وهناك اشتبكوا فى معركة ناجحة مع حوالى ٦٠٠ من السكان المحليين الذين هاجموهم، وهم أناس وصفهم نيارخوس بأنهم كثيفو الشعر على رؤوسهم وأجسامهم، وأظافرهم مثل مخالب الحيوانات. وأسرت قوات نيارخوس عدداً منهم ثم انطلقوا فى طريقهم.

استغرق منهم المرور أمام سواحل مقران ٢٠ يوماً، حيث بحثوا عبثاً عن مياه عذبة ومرة أخرى كان السكان عدوانيين. وعند نهر كلامى دنس نيارخوس حرمة مكان مقدسه عقيدة محلية لعبادة الشمس، وانتهك محرماتهم بنزوله فى جزيرة أستولا التى

يقدمونها. ومن الواضح أنه خرج من تلك الحادثة دون خدش، ولكن الطعام كان قد بدأ يتناقص مع قواته فاضطروا إلى صيد الماعز الوحشى على الشاطئ.

وحصلت البعثة على المؤن من مدينة باسنى فيما هو اليوم بلوخستان، ومع استمرارهم فى الإبحار غرباً عثروا على أراضٍ أكثر خصوبة. وربما يكون نيارخوس قد توصل إلى قصب السكر فى هذه اللحظة، ووصفه بقوله: 'بوص ينتج العسل رغم عدم وجود نحل'. ويبدو أنه فى نفس تلك المنطقة شاهد نيارخوس الحيتان، فقد ذكر أنه شاهد أبراجاً ضخمة من المياه تندفع فى الهواء. كما لاحظ أيضاً أن السكان المحليين يجدفون فى زوارق بدلاً عن التجديف على الطريقة الإغريقية.

ومتلما كان نيارخوس طائشاً ومتهوراً فى حادثته مع عبدة الشمس، كان كذلك فى مدينة جوادار، حيث فضل أن يقاتل المدينة رغم رغبة السكان المحليين فى المتاجرة. غير أن الأزمة انتهت إلى طريق مسدود، واكتفى فى النهاية بالمتاجرة مع أهل المدينة فى سبيل وجبة من الأسماك. ومن هناك أبحروا بحذاء الشاطئ، فوصلوا بلاد فارس عند رأس جاسك فى إقليم كرمان. ولح المسافرون رأس مسندم وهى رأس شبه الجزيرة العربية التى تعمل كحد فاصل بين خليج عمان والخليج الفارسى، غير أن نيارخوس رفض اقتراحاً من ضابطه الرئيسى بأن يعبروا مضيق هرمز ويستكشفوا الساحل العربى.

وعند مصب نهر ميناب ترجل نيارخوس إلى اليابسة وتوغل حتى تقابل مع الإسكندر، الذى حياه وقواته بوصفه بطلاً. واحتفل الإسكندر بنجاح الرحلة بإقامة الاحتفالات وتقديم الأضحيات للآلهة، ولكن بعد قليل من التلذذ استأنف نيارخوس إبحاره بعد جزيرة هرمز وتجاه جزيرة قشم. وهناك جنحت بعض سفنه على ضفاف رملية، مما عطلهم ثلاثة أسابيع للإصلاح. غير أنهم فى النهاية استأنفوا الإبحار صُعداً فى الخليج الفارسى، وأخيراً حطوا الرحال عند مدينة ديرينوتيس عند مصب نهر الفرات، ومن هناك صعدوا مع نهر قارون وتقابلوا مع الإسكندر للمرة الأخيرة فى العاصمة الفارسية سوسا.

مات الإسكندر بعد ذلك بفترة وجيزة في بابل في يونيو ٣٢٣ ق.م.، وتضاءلت حظوظ نيارخوس. ومن المحتمل أن نيارخوس فقد أقاليمه في آسيا الصغرى في صراع القوى الذي نشب بين قواد الإسكندر، وعند هذه اللحظة تلاشى نيارخوس من سجلات التاريخ. غير أن إنجازاته حُفظت، لا في كتابات أريان فحسب بل أيضاً فيما كتبه استرابون (ح ٦٤ ق.م. - ٢٣ م). وكان لنيارخوس فضل الاتصال بين أراضى الشرق الأدنى وأوروبا وبين الهند، التي سوف يستوردون منها بضائع ثمينة عديدة - والأهم من ذلك - أفكاراً، من بين أهمها الأعداد الهندية-العربية، التي بدأت تشق طريقها غرباً في السنوات الأولى من العصور الوسطى.

جدسون نايت

لمزيد من القراءة

كتب

Cary, M. and E. H. Warmington. The Ancient Explorers. London: Methuen, 1929.

Hyde, Walter Woodburn. Ancient Greek Mariners. New York: Oxford University Press, 1947.

Kagan, Donald, ed. Studies in the Greek Historians: In Memory of Adam Parry. New York: Cambridge University Press, 1975.

Vincent, William. The Commerce and Navigation of the Ancients in the Indian Ocean. New Delhi, India: Asian Educational Services, 1998.

مواقع على الإنترنت

Arian: Anabasis Alexandri: Book VIII (Indica), Tr. E. Iloff Robson (1933) Ancient History Sourcebook. <http://www.fordham.edu/halsall/ancient/arrian-bookVIIIIndia.html>.

"Names of Rivers of NW India According to Greek Sources." <http://sarasvati.simplenet.com/aryan/alexander.html>.

Strabo: Geography: Book XV: On India Ancient History Sourcebook. <http://www.fordham.edu/halsall/ancient/strabo-geog-book15-india.html>.

الإسكندر الأكبر

نظرة شاملة

الإسكندر هو الملك المقدوني الذي أكسبته فتوحاته العسكرية فى القرن الرابع ق.م. لقب "الإسكندر الأكبر"، وهو الذى وحد الجانب الأكبر من العالم المعروف فى أخريات العصور القديمة فى إمبراطورية واحدة. وقمع الإسكندر مقاومة الإغريق وقضى على الإمبراطورية الفارسية وغزا مصر واجتاح شمال الهند. وبهذا أصبح الإسكندر أول من وحد أوروبا وآسيا الصغرى. كانت شخصية الإسكندر قوية وتتسم بالدهاء السياسى. ونتيجة لاستراتيجيته الحربية الذكية وفلسفته الخبيرة بالشئون الدنيوية، مع قسماة جسدية أخاذة ومعاملة للمهزومين تتسم بكل من الوحشية والكرم، فقد ارتفع الإسكندر إلى مكانة إله أثناء حياته. وإبان فترة حكم الإسكندر انتشرت الثقافة واللغة الإغريقية فى كل أرجاء الإمبراطورية، وصارت تمثل القاعدة التى تُحتذى فى عالم جديد متوحد. وبعد وفاة الإسكندر، ثبتت الثقافة المشتركة، التى يُطلق عليها الهلينيستية، حتى عندما واجه الإغريق الاضطرابات المدنية وتصارع قواده على أوصال إمبراطوريته.

الخلفية

كان الإسكندر ابناً لفيليب الثانى ملك مقدونيه، الذى وحد الدول-المدن الإغريقية بهدف شن الحرب على الفرس. وكان المقدونيون يتحدثون بلهجة من لهجات اللغة اليونانية، ولكنهم كان يُنظر إليهم من قبل الإغريق بوصفهم برابرة من الشمال عليهم

مجرد قشرة من الثقافة الهلينية الرفيعة. غير أن فيليب الثاني كان حاكماً قوياً تاق إلى أن يتقبل الإغريق أبناء شعبه بوصفهم إغريقاً - مع فارق جوهري واحد. فقد كان المقدونيون يعتبرون أنفسهم شعباً واحداً متحداً (كانت مقدونيه واحدة من أوائل الأمم المتحدة في تاريخ أوروبا). بينما كان الإغريق يعتبرون أنفسهم مواطنين في دول-مدن مستقلة عن بعضها. وفي ٣٢٨ ق.م. تمكن فيليب الثاني، من خلال نظام عسكري معقد وكفؤ، مصحوباً بدهاء دبلوماسي، من أن يوحد الدول - المدن الإغريقية في وحدة هي الحلف الكورينثي. وكانت دول الحلف مستقلة استقلالاً ذاتياً يترأسها فيليب كقائد عام. وكانت فكرة فيليب أن يقوم بأعمال الغزو من خلال الوحدة، وهي الفكرة التي طبقها بإتقان ابنه ووريثه الإسكندر فيما بعد.

وفي منتصف الصيف تلقى فيليب الثاني، وقد فرغ لتوه من آخر انتصاراته في بوتيديا (Potidaea)، ثلاث رسائل مترامنة: أن حصانه قد كسب سباق الخيل في الألعاب الأولمبية، وأن الإليريين (الألبانيين) قد تم دحرهم في معركة كبيرة، وأنه قد رزق بولد هو الإسكندر. وبهذا بدأت الأساطير المحيطة بالإسكندر منذ ولادته. فقد تنبأ النجمون لفيليب أن الطفل الذي يولد وسط انتصارات ثلاثة سوف يكون هو نفسه منتصراً. كان الإسكندر صبياً ممتلئ الجسم وذا عقل متوقد ومتعطش للمعرفة. وورث عن أمه أوليمبياس (Olympias)، وهي أميرة من إبيروس (Epirus)، طبيعتها العاطفية. وذا والدا الإسكندر فيه إحساساً بالطموح. والتصق الإسكندر وأوليمبياس في علاقة والدية لصيقة لأن الأب والابن كانا متباعدين أثناء الجانب الأعظم من شباب الإسكندر بسبب حملات فيليب العسكرية. غير أن كلا الوالدين سعدا بنضج الإسكندر المبكر، ولما بلغ الثانية عشرة قدرا أن ذهنه قد سما بدرجة تستحق أحسن تعليم متاح. فاستخدم أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) أبرز تلاميذ الفيلسوف أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) المعلم للإسكندر.

وخلال السنوات الثلاث التالية تكون عند الإسكندر اهتمام ثابت بالحضارة الإغريقية والفلسفة وتاريخ الأبطال، وبخاصة أعمال الشاعر هوميروس (اشتهر

ح ٨٠٠ ق.م). وفيما بعد حمل الإسكندر معه إلى أسيا نسخة من إلياذة هوميروس جهزها له أرسطو. وكثيراً ما كان أرسطو يشير إلى فقرة وردت في الإلياذة تتحدث عن أجامنون وتقول "كان يمثل كلا الأمرين، وسيم ومقاتل شرس." كما علّم أرسطو الإسكندر أيضاً فن الخطابة والرياضيات وعلم النبات والطب والفلك والشعر.

كان الإسكندر يتمتع بجسم رياضي ممشوق (رغم أنه لم يكن طويل القامة)، غير أنه لم يكن يهتم كثيراً بالمسابقات الرياضية، حسب ما ذكره الفيلسوف والمؤرخ الإغريقي بلوتارك (٤٥-١٢٠ ق.م). وكانت بشرته شقراء ويعتبر وجهه وسيماً ذا أنف مستقيم وله عينان صافيتان نفاذتان. وكان شعره يتهدل على جبهته مثل عُرف الأسد. وفي صباه كان منضبطاً في مواعيده وعاداته الشخصية. وفي أوقات استرخائه كان يعزف على القيثارة ويستمتع بالاستماع إلى الموسيقى. وكان يعشق الصيد، فقد كان الريف المقدوني يموج بالظباء والثعالب، كما كانت الأسود تتجول في المرتفعات. وكان الإسكندر الشاب نشيطاً بل مليئاً بالطموح، فوفقاً لبلوتارك أبدى قلقه ذات مرة لأن أباه سيفوزو كل العالم ولن يترك له فرصة للعظمة والشهرة.

وفي سن السادسة عشرة، وبينما كان أبوه يحاصر بيزنطة نصبه أبوه وصياً على العرش في مقدونيه. وفي تلك الفترة قمع الإسكندر تمرداً في تراقيا. فقد اقتحم مدينة في تراقيا وأعاد تسميتها باسم ألكساندروبوليس، على اسمه. وفيما بعد ترصعت إمبراطوريته بمدن تحمل اسمه. وفي سنة ٢٢٦ ق.م، في سن العشرين، تبوأ الإسكندر العرش المقدوني بعد أن اغتيل فيليب الثاني بواسطة بوسانياس (Pausanias) أحد حراس الملك وصديق الإسكندر. ويؤكد بعض المؤرخين أن أوليمبياس زينت لبوسانياس اغتيال فيليب لقيامه بتطليقها كي يتزوج من امرأة مقدونية صرفة.

وبعد وفاة والده اكتسب الإسكندر بسرعة ولاء الجيش المقدوني وقواده. وبمجرد توليه السلطة أمر الإسكندر بإعدام كل المتآمرين وأعدائه الداخليين وأعاد

أوليمبياس كملكة لمقدونيه. ولكن المدن الإغريقية أثينا وثيبس (طبيه) ترددت فى إعلان الولاء للإسكندر ذى العشرين سنة، كما أنهم اعتبروا أن الحضارة المقدونيه أدنى منزلة من حضارتهم.

وسرعان ما قامت الثورة فى المدينتين، أثناء ما كان الإسكندر غائباً يؤمن الحدود الشمالية لتراقيا. وتأججت الثورة بشائعات وصلت المدينتين أن الإسكندر قُتل فى الحملة الشمالية. ويعد أن نجح فى تأمين الحدود الشمالية لتراقيا سار الإسكندر جنوباً مسافة ٢٥٠ ميلاً (٤٠٢ كيلومتر) فى فترة أسبوعين. ووصف المؤرخ الإغريقى أريان (Arrian) (من القرن الثانى الميلادى) كيف سار الإسكندر إلى أبواب طيبة ومنحهم فرصة أن يبدلوا من موقفهم. ورد الطيبيون بالجنود، فاقترح الإسكندر المدينة وأحرقها (ولم يترك إلا المعابد ومنزل الشاعر بيندار Pindar) وقتل كثيراً من سكان المدينة (وبيع آخرون فى سوق النخاسة)، كأمثلة للأثينيين وباقى بلاد اليونان. وسرعان ما استسلمت أثينا وبقيت تحت حكم الإسكندر. وتبخرت كل المقاومة اليونانية أيضاً. وترسخ حكم الإسكندر لكل بلاد اليونان مما سمح له أن يركز جهوده على الحملة المزمعة ضد الفرس.

وفى سنة ٣٣٤ ق.م. بدأ الإسكندر مسيرته شرقاً تجاه آسيا الصغرى ليواجه الإمبراطورية الفارسية. وبلغ جيشه ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ رجل، ومعهم ١٢,٠٠٠ قوات احتياطية متاحة فى الحلف الكورنثى. أما الفرسان المصاحبة فكانت مكونة من ٢٠٠٠ فارس مدربين تدريباً جيداً ومسلحين تسليحاً ثقيلاً، وشكلت قلب الآلة الحربية المقدونية. وانضم إلى الفرسان قوات خفيفة والكتيبة المرنة، وهى مجموعة من الجنود الراجلين عالى الكفاءة المزودين بالدروع والمسلحين تسليحاً مؤثراً مكوناً من سيوف قصيرة ورماح طويلة تبرز عدة أقدام أمام الطابور. وكانت الكتيبة المرنة تتقدم كمجموعة قبل أن يتمكن العدو من الاشتباك مع سيوفها القصيرة. وعبر الإسكندر الهلسبون (الدرنيل الحديثة) ومعه قواده أنتيجونوس (Antigonos) ويطليموس (Ptolemy) وسلوكوس (Seleucus)، وسرعان ما اشتبك مع جيش فارسى عند نقطة

عبر نهر جرانيكوس (Granicus) وكان الجيش الفارسي تحت قيادة ملكهم دارا الثالث، وقاد الإسكندر هجوماً عبر نهر جرانيكوس واشتبك في قتال مرير بالأيدى قُتل فيه غالبية قواد دارا.

وفى سنة ٣٢٢ ق.م. اشتبك الإسكندر مع دارا للمرة الثانية فى مدينة إيسوس (Issus) على الساحل السنورى. وفى إيسوس كان دارا يتفوق عدداً بدرجة كبيرة على الإسكندر، غير أن الأخير انتصر بسبب تضاريس المنطقة ولأنه تفوق على جيش دارا فى المناورة. وهرب دارا من إيسوس ولكنه خلف وراءه أمه وزوجته وابنتين، وكلهم عاملهم الإسكندر بكل احترام. ومن إيسوس سار الإسكندر جنوباً على ساحل البحر المتوسط مستولياً على مدن ساحلية صغيرة عديدة. وعندما وصل الإسكندر إلى ميناء صور الفينيقي احتاج الأمر منه حصاراً دام سبعة أشهر كى يقهر المدينة. واستخدم الإسكندر فى الحصار منجانيقاً ذا وتر مشدود (وكان جيشه أول جيش يستخدمه) ومعدات لاختراق أبواب المدينة وسيوفاً. وأعدم الإسكندر الكثير من أهل المدينة ممن رفضوا الاستسلام وباع نساءها وأطفالها فى سوق النخاسة. وانكسرت شوكة البحرية الفارسية بسقوط صور، واستردت بحرية الإسكندر سيطرتها على بحر إيجه.

ومع الدمار الذى حل بصور كان من الضرورى العثور على مركز آخر للتجارة المتنامية فى شرقى البحر المتوسط. وكانت مصر هى الاختيار المنطقي، ووصل الإسكندر إلى هناك فى أواخر سنة ٣٢٢ ق.م. وفى مصر وعلى مقربة من مصب الفرع الغربى للنيل أنشأ الإسكندر مدينة كبيرة تحمل اسمه. ورحب المصريون، الذين سئموا الحكم الفارسي، بالإسكندر بوصفه محرر مصر. وفى الحقيقة لم يكن الجيش المصرى السيء التنظيم ليقف كثيراً فى وجه الإسكندر. وأثناء وجوده فى مصر قام الإسكندر بالحج إلى معبد آمون رع وكهنته، وهو الإله الذى يُقرن بزيوس الإله الإغريقي، وإلى معبد زيوس آمون. وبعد رحلة شاقة عبر الصحراء إلى واحة سيوة، حيث يوجد المعبد الأخير أعلن الإسكندر ابناً لزيوس وأنه مقدر له أن يحكم العالم.

وسر الإسكندر من هذا الإعلان، ولكنه اهتم أكثر بالتأكد من أن الصحراء الليبية كانت عائقاً حقيقياً لأي غزو لمصر من الغرب. وأثناء تواجده في مصر تبادل الإسكندر الرسائل مع دارا. وعرض دارا على الإسكندر هدنة وبعض الأقاليم الفارسية، ولكن الإسكندر رفض العرض. وفي منتصف عام ٣٢١ ق.م. عاد الإسكندر إلى بلاد فارس بحثاً عن دارا.

وسار الإسكندر وجيوشه تجاه بابل، وهي عاصمة قديمة لفارس، حيث كان دارا ينظم مقاومة، وحيث ستنشب واحدة من أكبر المعارك في التاريخ القديم. والتقى الجيشان في جوجاميل (في العراق الحديث). ولما شاهد المقدونيون الأعداد الهائلة لأضواء نيران المعسكر الفارسي ليلاً ظنوا أن القوات الفارسية أكثر عدداً من أن يهزموها. وحث الرجال الإسكندر على أن يهاجم ليلاً فالظلام سيمنحهم ميزة المفاجأة. وأصر الإسكندر، مدرّكاً لأخطار القتال الليلي، على أن يهزم دارا في معركة متكافئة. واشتبك الجيشان في الصباح في واد فسيح. وكان جيش دارا يفوق عدده جيش الإسكندر بما لا يقل عن عشرة آلاف رجل؛ وزعم بعض المؤرخين أن قوات دارا بلغت المليون عدداً. وأمام قوات الحرس الملكي لدارا وقفت عجلات حربية تحمل إسكيزيين ومعهم خمسة عشر فيلاً. وقاد دارا المعركة من عجلته الحربية، وكان بطيئاً في تعديل خطط المعركة مع تغير الأحوال في ميدان القتال. واستغل الإسكندر تلك القرارات الخاطئة. ولم يمنح دارا قواده ومعاونيه حرية كافية في إصدار القرارات، وبالتالي عجز جيشه عن أن يستغل نقاط ضعف الإسكندر. وهزم الإسكندر جيش دارا هزيمة ساحقة، بينما فر دارا ثانياً إلى الجبال تاركاً رجاله الذين كانوا يذودون عنه.

سار الإسكندر إلى بابل واحتل المدينة وأعلن ملكاً على بلاد فارس. وبكل أريحية عين الإسكندر فرساً حكاماً على الأقاليم، ولكنه أحرق أيضاً القصر الملكي وسواه بالأرض. واستمر الإسكندر يطارد دارا، وفي النهاية علم أن أميراً باكتيريا قد أسر الملك السابق. وعندما وصل الإسكندر إلى دارا وجده في عربته مقتولاً بواسطة رجاله. وأعدم الإسكندر القتلة وأقام لدارا جنازة تليق بملك.

وتابع الإسكندر مسيرته شرقاً تجاه الهند، وعبر جبال هندو-كوش ذهاباً وجيئة سنة ٣٢٧ ق.م. وكان الطريق إلى الهند ينحدر إلى وادي كابول ويمر خلال ممر خيبر وكانت التضاريس شديدة الوعورة وواجه الإسكندر مقاومة محلية عنيفة. ولما وصل الإسكندر إلى الهند لاقاه تاكسيليس (Taxiles) وهو أمير محلي في البنجاب، واحتفى تاكسيليس بالإسكندر وأهداه أفيالاً وهدايا أخرى، وأقنع الإسكندر أن يساعده في نزاعه مع عدو هو بوروس (Porus) الذي يقال إنه كان يفوق المترين طولاً. وكان بوروس موجوداً شرق نهر هيداسبيس (Hydaspes) مباشرة الذي كان الإسكندر ينتوى عبوره قبل أن تنوب ثلوج الهيمالايا وتسقط الأمطار الاستوائية الموسمية مما يجعل العبور أمراً مستحيلاً. وأرهقت الإسكندر المعركة مع بوروس كما لم ترهقه معركة من قبل. فقد كان لدى بوروس جيش حسن التجهيز وبه مشاة أكثر عدداً مما لدى الإسكندر، وعجلات حربية، وما يربو على منتى فيل لإلقاء الرعب في خيول خيالة الإسكندر. وتمكن الإسكندر من هزيمة بوروس والهنود بعد معركة شرسة استخدم فيها خططاً مبالغتة كى يدفع ببوروس إلى النهر الهانج أثناء عاصفة. كان الإسكندر يأمل فى أن يصل إلى نهر الجانج فى الهند أو إلى حافة المحيط كى تصبح حدوداً طبيعية شرقية لإمبراطوريته، غير أن جنوده المقدونيين بعد معركته مع بوروس كان الضجر والإرهاق قد حل بهم. فبعد ما يقرب من تسع سنوات وأحد عشر ألف ميل (١٧.٧٠٣ كيلومتر) لم يتمردوا ولكنهم أقنعوا الإسكندر سنة ٣٢٥ ق.م. بأن يتجه بهم غرباً تجاه مقدونيه والوطن.

وفى سنة ٣٢٣ ق.م. عاد الإسكندر إلى بابل، التى كان يزعم أن يجعل منها حاضرة إمبراطوريته الجديدة. وفى أوائل يونيو من نفس العام، سقط الإسكندر مريضاً بالحمى وأخذ يحتضر عشرة أيام قبل أن يموت. ويبقى السبب الحقيقى لموت الإسكندر لغزاً غامضاً، لكن السبب الأغلب قد يكون الملاريا أو التيفود. ولعل الإرهاق الذى سببته عشر سنوات من الحملات والجراح العديدة التى أصيب بها أضعفت جسمه بما جعله لا يتحمل أياً من هذين المرضين الشائعين وإن كانا يتسمان

بالخطورة. وكان الإسكندر قد حضر مأدبة قبل ما يزيد على عشرة أيام من وفاته، وكانت ثمة شكوك فى احتمال دس السم له. غير أن عَشَّابى بابل لم يكن لديهم مزيجات أعشاب قاتلة على درجة من التعقيد، حيث تقتل ضحيتها على فترة عشرة أيام. فسموم تلك الأيام كانت تقتل بسرعة، حتى أولئك المفترض أنهم أنصاف آلهة.

أما فيما يتعلق بمن خلفه، فقد زعم بعض المؤرخين أن الإسكندر، حسب كلماته، أوصى بمملكته 'للأقوى'. وثمة روايات أخرى تقول إنه أوصى بالقائد برديكاس (Perdiccas) خليفة له، بعد أن ضم يدى برديكاس إلى يدى روكسان زوجة الإسكندر التى كانت حاملاً وذلك قبيل وفاته مباشرة. وفى أغلب الظن أن الإسكندر مات دون أن يحدد خليفة له.

التأثير

شهدت الأوقات المضطربة التى أعقبت وفاة الإسكندر قواده وآخرين وهم يتطاحنون على أجزاء من إمبراطوريته لما يقرب من ٣٠٠ سنة، وفى النهاية تركوها فريسة لقوة جديدة بازغة فى الغرب وهى روما. وولد ابن الإسكندر، وهو الإسكندر الرابع، بعد وفاة أبيه مباشرة، ولفترة من الوقت اتَّفَقَ على أن يتشارك أريدياوس (Arrhidaeus) أخو الإسكندر غير الشقيق مع الرضيع ابن الإسكندر فى الملك. غير أنه سرعان ما دبرت أوليمبياس مؤامرة لاغتيال أريدياوس، كما اغتيل الإسكندر الرابع فى سن الثانية عشرة. ولما انزاحت شجرة نسل الإسكندر من الطريق تقاسم الإمبراطورية القواد العسكريون وقسموها إلى ثلاث ممالك كبيرة ويضع دول صغيرة. وفاز ثلاثة قواد بأكبر الجوائز وهم بطليموس (Ptolemy) مؤسس دولة البطالمة فى مصر، وسلوكوس (Seleucus) الذى أسس دولة السلوقيين التى حكمت بلاد فارس، وأنتيجونوس (Antigonos) الذى حكم أسيا الصغرى وانتهى به المطاف إلى أن نجح فى السيطرة على مقدونيه.

صنع بطليموس من نفسه ملكاً وفقاً لتقاليد الإسكندر المقدونية، وأسس أسرة استمرت تحكم حتى غزا يوليوس قيصر مصر. ومثلما فعل الإسكندر، ادعى بطليموس أنه من نسل الآلهة. وحاول أن يصوغ رابطة دينية مع المصريين بأن أدخل ديناً جديداً مستمداً من الأساطير على شاكلة عقائد الهلينستيين. واكتسبت واحدة من الآلهة الجديدة هي إيزيس شيئاً من الشعبية، ولكن غالبية المصريين رفضوا الديانة الجديدة. ونجح بطليموس بصورة أفضل في لجوئه إلى ماضى مصر العريق بأن أعلن نفسه فرعوناً. وبسبب تفضيله الإغريق على المصريين في الوظائف العامة الإدارية فقد استمر الكثيرون ينظرون إلى حكمه بوصفه أجنبياً. واحتضن المصريون بعضاً من خلفائه. وكانت كليوباترا آخر نسل بطليموس أميرة و فرعوناً أيضاً. وتمكن أنتيجونوس من حكم بلاد اليونان وحلف المدن اليونانية التي كانت خاضعة للإسكندر. ودام حكم الأنتيجونيين أيضاً حتى ظهور روما. وفاز سلوكوس بجزء مصغر من الإمبراطورية الفارسية، وادعى أن نسبه يرجع إلى الإله أبوللو. وادعى أيضاً أن زيوس يقيم في عاصمته أنطاكية. وعلى الرغم من تلك الادعاءات بنسب يعود إلى الآلهة فإن الغنيمة الفارسية لسلوكوس كانت أقل الممالك نجاحاً في العصر الهلينستي.

انتشرت الحضارة الإغريقية في كل أرجاء العالم المعروف خلال العصر الهلينستي، ذلك العصر الذي يشمل فترة حياة الإسكندر ولده تقارب القرنين بعد وفاته. وأصبحت اليونانية لغة النخبة المثقفة من سواحل جنوب فرنسا إلى الهند. ونتيجة للإسكندر صارت المناسبات الرياضية اليونانية تقام في حرارة الخليج الفارسي، وحكايات حصان طروادة أو قصص غرام كيوبيد (Cupid) وبسيكه (Psyche) تُروى في البنجاب. وتُرجمت أشعار هوميروس إلى الهندية، واعتاد الإغريق على العقائد الغربية مثل البوذية. ويعد أن لم يعد التأثير اليوناني مقتصرًا على بُركة الضفادع (وهو التعبير الذي أطلقه الإسكندر على البحر المتوسط) انتشر عبر كل الشرق الأدنى، وامتزجت التيارات الحضارية اليونانية مع نظيراتها من الحضارات الشرقية. بل إنه حتى بعد أن وصلت الفيالق الرومانية استمر جانب كبير من الشرق

الأدنى في النظر إلى الحضارة الإغريقية بوصفها الحضارة الأسمى، والتي تستحق المحاكاة أكثر من غيرها.

كان الإسكندر يطمح إلى خلق تقاليد عالمية جديدة موسعة بمزج الحضارات القديمة سوياً. فشجع الزواج المشترك ونبذ الخيلاء الحضارية للإغريق التقليديين. وفي سنة ٢٢٤ ق.م. تزوج الإسكندر من سيدة من نبلاء الفرس وهي روكسانا التي ولدت ابنه بعد وفاته. وبلغ مجموع رجال الإسكندر الذين تزوجوا من سيدات محليات ما يربو على عشرة آلاف رجل، وكان الإسكندر يكافئهم بمنحهم المهور أو بأوامر تسريح من الجيش والسماح لهم بالعودة إلى أرض الوطن. ويؤكد كثير من المؤرخين أن الإسكندر كان يهدف إلى حلول طويلة الأمد لتحامل الشرق ضد الغرب، وكان يؤمن بأن نشأة طبقة جديدة من النبلاء ذات دم مشترك سوف تدعم رابطة دائمة بين الحضارتين.

وتزوج الإسكندر زيجة أخرى من ستاتيرا، إحدى بنات دارا، ربما ليضفي مزيداً من الشرعية على وضعه كملك فارس. غير أنه حدث بعد وفاة الإسكندر أن فسخت كثير من زيجات ضباطه من النبيلات الفارسيات. كما عمد الإسكندر أيضاً إلى ارتداء طراز شرقي معدل من اللباس، ووفر للفرس دروساً عن الحضارتين الإغريقية والمقدونية. وعندما سُرحت القوات المقدونية استبدل بها فرساً خالفاً بذلك قوة مشتركة. فوضع المقدونيين من حملة الرماح الطويلة في الصفوف الأمامية تتبعهم صفوف من الفرس من حملة السيوف والرماح القصيرة. ولم يكن الإسكندر يطبق تصرفات رجاله الذين كانوا يتحاملون على المنهزمين ويوقعون بهم الأذى.

وبتأثير من الإسكندر لم يعد الفن الإغريقي التقليدي أمراً يقتصر الاهتمام به على بضع مدن وإنما أصبح يمثل لغة مصورة لما يقرب من نصف العالم. وهكذا تغيرت سمات الفنون الإغريقية التقليدية في العصر الهلينيستي، وبخاصة في العواصم الجديدة في الإسكندرية وبرجاموم وأنطاكية واكتسب ثراء وترك تأثيراً. ففي المعمار ظهر نمط جديد من الأعمدة مبنى على نوع نشأ قبل ذلك في القرن الرابع ق.م. وسُمي

على اسم كورينث المدينة التجارية الثرية. وفي تلك الأعمدة الكورنثية الجديدة أضيفت زينات من أوراق الشجر والأزهار إلى التصاميم الإيونية. وكانت تلك التصاميم الشديدة الزخرفة تناسب الأحجام الضخمة للأبنية في المدن الحديثة النشأة في الشرق (مثل تيجان الأعمدة الكورنثية في مدينة إبيدوروس المبنية حوالي ٣٠٠ ق.م.). أما في النحت فقد تضاعف الاهتمام بالتناسق والدقة التي اشتهرت بها بلاد اليونان التقليدية، وبدلاً منها تركز الاهتمام على التأثيرات العاطفية. ويحوى مذبح زيوس في برجاموم (ح ١٧٠ ق.م.) على نحت يمثل الصراع بين الآلهة والعمالقة ويصور الحركة الجامحة والتعبيرات العنيفة، كلها على نطاق كبير. وكان المقصود من المذبح أن يكون مثيراً للإعجاب على شاكلة فتوحات الإسكندر.

وفي ذلك العصر بدأت العائلات الثرية تجمع القطع الفنية. وكثيراً ما صُوّرت الطبيعة، وخصوصاً النباتات، في الرسومات والتصاميم. وبدأ أيضاً فن رسم الأشخاص، ربما كرد فعل للوعي بفقدان الهوية الشخصية في عالم يتمدد ويكبر وتمتزج حضاراته؛ أو لوفرة الشخصيات المؤثرة سياسياً وعسكرياً وتعليمياً في الحقبة الهلنستية. واعتنق الفن الروماني المبكر في مدينة بومبي أفكار وتعاليم العصر الهلنستي، حيث عُثِرَ فيها على رسم بالفسيقساء يمثل الإسكندر شخصياً أثناء معركة إيسوس.

وعلى الرغم من أنه قد يكون أمراً مثيراً للاهتمام أن نخمن ماذا كان يمكن للإسكندر أن يحققه إن امتد به العمر إلى سن متأخرة ويبدأ في مواجهة مشاكل حكم إمبراطوريته الفسيحة الأرجاء، فإنه من المؤكد أن مسيرة حياة الإسكندر كانت كافية لتغيير مسار التاريخ. فقد انتهت إلى غير رجعة الدول-المدن الصغيرة الديموقراطية، ومعها انتهت الحضارة المتجانسة المتركزة على سواحل بحر إيجه. وهدفت الحضارة الجديدة المبنية على الوحدة إلى ربط الإمبراطورية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً كوحدة واحدة. وكانت تلك الحضارة الجديدة للعصر الهلنستي هي التي هذبت روما وأدت إلى نشأة روما بوصفها دولة عالمية.

برندا ويلموث ليرنر (BRENDA WILMOTH LERNER)

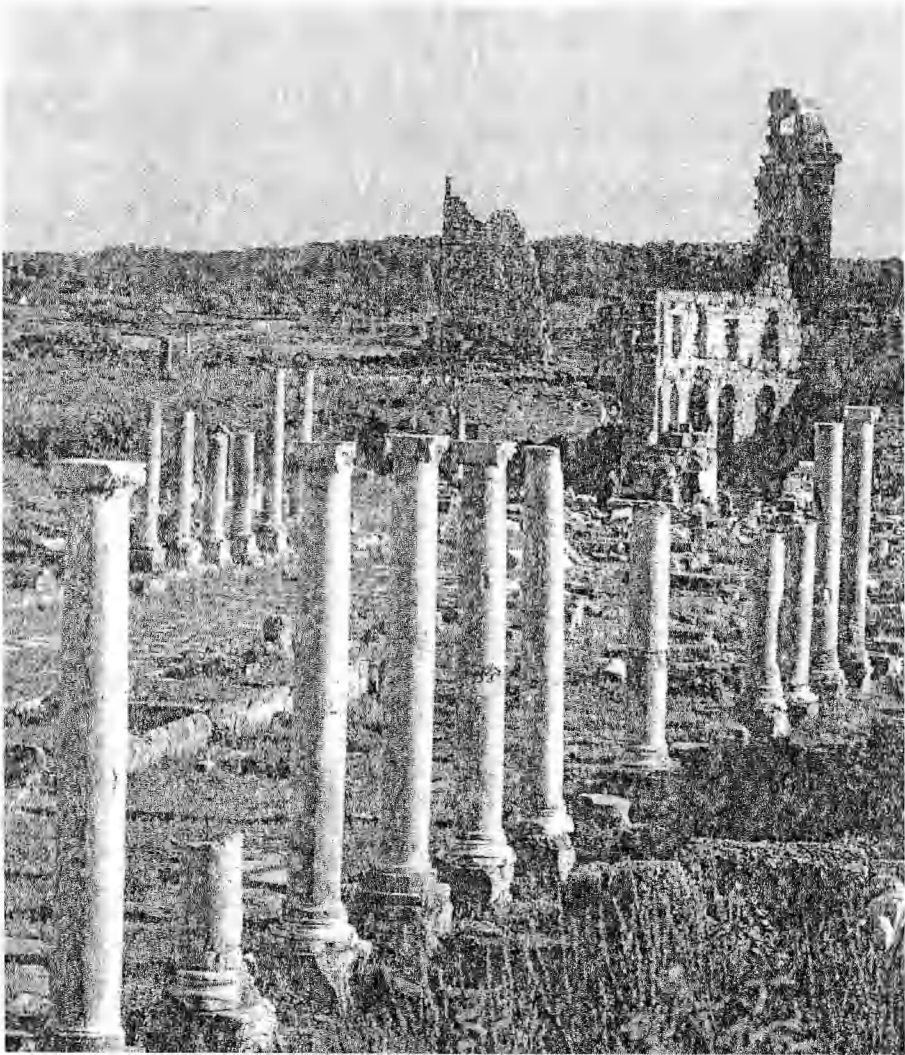
لمزيد من القراءة

Arrian. *The Campaigns of Alexander*. Trans. by Aubrey de Sélincourt. Harmondsworth, England, and Baltimore: Penguin Books, 1971.

Fox, Robin Lane. *Alexander the Great*. New York: Dial Press, 1974.

Green, Peter. *Alexander to Actium: The Historical Evolution of the Hellenistic Age*. Berkeley: University of California Press, 1990.

Plutarch. *Plutarch: Lives of Noble Grecians and Romans*. Edited by A.H. Clough, trans. by John Dryden. 2 vols. New York: Modern Library, 1992.



أطلال هليينستية في تركيا



إمبراطورية الإسكندر الأكبر

طريق الحرير يربط بين الشرق والغرب

نظرة شاملة

كان فتح طريق الحرير، الذي ربط في النهاية بين الصين وأوروبا، واحداً من أهم الإنجازات في تاريخ الاستكشاف فيما قبل الفترة من ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ م. وحقيقة فإن إنشاء طريق الحرير كان ظاهرة انعكست أصدائها في صور شتى في عصر الاستكشاف الكبير بعد ما يقرب من ١٥٠٠ سنة. فكلاهما كان مغامرات هائلة شملت أشخاصاً كثيرين، ولكن في كلتا الحالتين، من المستطاع أن نتتبع الأثر الذي أحدثه شخص واحد أو شخصان. ففي التاريخ الأحدث كان ذلك الشخص هو الأمير هنري الملاح، بينما في حالة طريق الحرير، فيعود الفضل إلى الرحالة الصيني تشانج تشين من القرن الثاني ق.م.، أو ربما إلى إمبراطوره هان وو تي.

وطريق الحرير لم يكن، إن شئنا الدقة، 'طريقاً' بل كان سلسلة من الدروب والمسارات الأرضية من العاصمة الصينية في تشانجان (زيان) وحتى أنطاكية ودمشق وغيرهما من مدن المشرق. كما لم يكن من المعتاد لرحالة منفرد وحيد أن يسافر مسافة الطريق بكاملها، وإنما عوضاً عن ذلك كان التجار يغطون مسافات محددة متجهين إلى مدن تجارية حيث يتبادلون بضائعهم، التي تستمر في مسيرتها غرباً أو شرقاً. وفي عدة نقاط شكلت الجبال وغيرها من العوائق مفترق طرق استوجب اتخاذ طريق شمالي أو جنوبي، إما إلى الشمال إلى سمرقند (في أوزبكستان الحديثة) وإما إلى الجنوب في باكتريا، وهي أفغانستان الحالية؛ ولكن الوجهة النهائية كانت واحدة. وفي أوج التاريخ المبكر لطريق الحرير سنة ١٠٠ م كان من الممكن نظرياً السفر على طرق راسخة من الصين إلى إسبانيا، أي مسافة حوالي ٨٠٠٠ ميل (١٢.٨٠٠ كيلومتر).

الخلفية

كان الجزء الرئيسي لطريق الحرير يمر في آسيا الوسطى، وهي الأراضي التي تمتد بين الأودية الخصيبة لأنهار شرقى الصين والغابات السيبيرية في الشمال وشبه القارة الهندية في الجنوب والهضبة الإيرانية غرباً. وهناك استؤنس الحصان ربما في زمن مبكر يصل إلى ٢٢٠٠ ق.م. وأصبح الوسيلة المثالية للمواصلات لدى الشعوب الرُحل عند عبورهم المسافات التي لا تبدو لها نهاية من الصحراء والأراضي المعشوشة، وسوف تمر قرون كثيرة قبل أن يبتكر البدو الرحل الركاب، وهو واحد من أعظم ما تركوه للبشرية، غير أنهم كانوا خيالة متمرسين، حيث قال المؤرخون الرومان فيما بعد أنه يبدو وكأن الحصان قطعة من راحبه مكونين كائناً واحداً.

وإلى الشرق والجنوب من أولئك البدو الرحل كانت تقع الصين، وهي بلاد ليست غنية بحضارتها فحسب - والتي لم يأبه لها البدو الرحل كثيراً - وإنما أيضاً بثرائها المادى الملموس (والذى أثار حقاً اهتمام البدو الرحل). ولهذا فمنذ بداية التاريخ الصينى دأبت شعوب أواسط آسيا ومنغوليا على الإغارة على حدود الصين. ومن جانبهم، كان الصينيون يصمون كل تلك القبائل بأنهم من البرابرة، وفي الحق ومن وجهة نظر الصين القديمة لم يكن ثمة سوى نوعين من البشر: البرابرة والصينيون. ونشأ ذلك جزئياً من نفس المنطق الذى حدا بالإغريق أن يصموا كل من ليس إغريقياً بكلمة "بارباروى" (barbaroi) بمعنى همجى؛ بيد أنه نتج أيضاً من أن الصينيين ببساطة لم يعرفوا حضارات أخرى. فقد كانت أعلى جبال فى العالم تفصلهم عن الهند، وعندما اتصل الصينيون فى النهاية بحضارة أخرى لم تكن الحضارة الهندية وإنما الحضارة الإغريقية التى كانت فى حالة اضمحلال منذ أمد بعيد.

ترك غزو الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٢ ق.م.) لغرب آسيا فى أعقابه أثراً مُتمثلاً فى الإمبراطورية السلجوقية، غير أنه حدث حوالى ٢٠٠ ق.م. أن الشعب الباكثيرى تخلص من الحكم السلجوقى لإقليمه. وعُرف الباكثيريون المنتهلون - أى المتأثرون تأثراً

عميقاً بالحضارة الإغريقية - باسم الباكثيريين-الأغارقة، وعلى مدى القرن التالى سيطروا على كثير من أقاليم الهند. وكان ثمة شعب آخر فى نفس المنطقة هو «الساكا» (the Sakas)، الذين يُعرفون أحياناً باسم «الإسكيزيين الهنود»، الذين كانت جنودهم تعود إلى كل من الهند وشعوب ما يُعرف اليوم باسم أوكرانيا. ومن الجلى أن مزيجاً حضارياً يتكلم لغات متعددة كان فى سبيله إلى التكون، وفى القرن الثانى ق.م. أصبح أكثر تبايناً بوصول مجموعة أخرى من الحدود الشمالية إلى الصين.

فمن بين أكثر قوى البدو الرحل تهديداً لحدود الصين لم يكن هناك ما هو أخطر من الهسيونج - نو أو الزيونجنو - الذين اشتهروا عند الغرب باسم الهون. فلم يكتف الهسيونج - نو بتهديد الصين بل قاموا أيضاً بمهاجمة القبائل الأخرى من البدو الرحل مثل اليو - تشيه الذين أُجبروا على الارتحال غرباً، وبحلول ١٦٥ ق.م. كانوا قد وصلوا إلى باكتريا.

وفى الوقت نفسه عقد الصينيون العزم على أن يفعلوا شيئاً إزاء الهسيونج-نو. فوحدَ الإمبراطور شى-هوانج-تى (حكم ٢٢١-٢١٠ ق.م.) معظم أنحاء الصين لأول مرة فى التاريخ، وحول الصين إلى إمبراطورية، وشرع فى بناء سور الصين العظيم كى يمنع البرابرة من إزعاج حدود الصين. وعلى الرغم من أن السور فشل فى تحقيق الهدف منه فإنه ساهم فى بعثرة قبائل الهسيونج - نو المختلفة غرباً، فانتشروا تجاه الهند وانتهى بهم المطاف فى النهاية إلى أوروبا.

تبنى الإمبراطور وو - تى (حكم ١٤٠-٨٧ ق.م.) من أسرة هان سياسة مختلفة فى التعامل مع الهسيونج - نو. ففى عهده أصبحت الصين أكبر ما تكون فى المساحة الجغرافية وضمت تحت سيطرتها ما يعرف الآن باسم فيتنام وبورما فى الجنوب، وكوريا ومنغوليا فى الشمال. وازدهرت أحوال الصين، ولم يكن وو - تى ليسمح للهسيونج-نو بأن تفسد المنجزات التى حققها. ولهذا فقد وضع خطة لإرسال مبعوث إلى الغرب بهدف العثور على قبائل يوه-تشيه وعقد حلف معهم فى مواجهة الهسيونج - نو.

وكان السفر فى الأراضى الوعرة للمناطق الغربية غير المستكشفة يحتاج رجلاً يتسم بالشجاعة والدهاء؛ وربما لهذا السبب لم يكتب ووتى، الذى كان حاكماً مطلقاً، بأن يأمر أحد وزرائه أن يقوم بالمهمة وإنما طلب متطوعاً. وتقدم أحد الرجال، من الحرس الإمبراطورى الخاص، يدعى تشانج تشين أو زهانج كيان (اشتهر ١٢٨-١١٤ ق.م). ووصف مؤرخ لاحق تشانج تشين بأنه "رجل متين البنيان وشديد الكرم؛ ويلهم الآخرين على الوثوق به، وكان البرابرة يحبونه" وفى ١٢٨ ق.م. بدأ ومعهم ١٠٠ رجل رحلة لما يربو على ٢٠٠٠ ميل (٢٢٠٠ كيلومتر) عبر تضاريس من أخطر مناطق الأرض.

التأثير

لم تكن الطبيعة هى أخطر ما هدد الرحلة، فقد كان الهسيونج -وهم الأكثر خطورة، وأسروا تشانج تشين ورجاله فى غربي الصين. وكان من الواضح أن زعيم الهسيونج - نو يعترض على ما أسماه اقتحام أراضيه وسأل تشانج تشين: "إن أنا أردت أن أرسل مبعوثاً إلى [فيتنام] فهل سيسمح لى الإمبراطور بذلك؟" غير أنه من العجيب أنه عامل تشانج تشين معاملة حسنة، بل إنه سمح له بأن يتزوج من فتاة من الهسيونج - نو أنجب منها ولداً. وبقي تشانج تشين معه عقداً كاملاً يتحين الفرص، فهو لم ينس مهمته قط، حتى تمكن من الفرار ومع أسرته وجانب من قواته الاستكشافية. ووصلوا إلى مدينة كوكاند أو كوكون فى فرغانة (جزء من أوزبكستان الآن)، حيث أخبره حاكم محلى صديق بأن قبيلة يوه - تشيه قد مرت من المنطقة فى طريقها إلى باكتريا. ومن اليسير أن نتخيل خيبة أمل تشانج تشين عندما التقى أخيراً اليوه - تشيه ليجد أنهم نبذوا حياة الترحال ونمط حياة البدو الرحل واستقروا وصاروا متحضرين؛ ولهذا فقدوا اهتمامهم بالعودة إلى الصين لمقاتلة أعدائهم القدامى.

بقى تشانج تشين مع اليوه - تشيه لمدة عام، ثم قفل راجعاً إلى أرض الوطن. وفى حوض التاريم، وهى منطقة جرداء فى أقصى غرب الصين، أسره الهسيونج-نو مرة أخرى، حيث بقى لمدة عام؛ غير أنه بعد وفاة حاكم الهسيونج-نو سنة ١٢٦ ق.م. استغل الفوضى التى نشبت من جراء ذلك وفر إلى تشانج-آن. وعاد إلى العاصمة ومعه زوجته وابنه ورجل واحد فقط من المئة رجل الذين بدأوا معه الرحلة: فقد قتل الباقون أو أسروا أو أُجبروا على أن يعودوا أدراجهم.

ويبدو أن تشانج تشين، بعد رحلته التى استغرقت ١٣ سنة والمشاق الهائلة التى تعرض لها، لم يحقق شيئاً يُذكر؛ ولكنه حقق أكثر بكثير مما كان يدرك. فبفضل تشانج تشين صار الصينيون لأول مرة مدركين لوجود أراضٍ فى الغرب: أنكسى (بلاد فارس)، وتياوزهى (بلاد العرب)، بل حتى داتشين (روما). ويجانب الكم الثرى من المعارف السياسية والدبلوماسية والاقتصادية التى عاد بها كانت ثمة بعض المهاج من حفنة من البذور كان قد نجح فى تهريبها. ونتج عنها العنب، الذى عرّف الصينيين إلى النبيذ إضافة إلى طيب مذاقه فى حالته الطبيعية.

وأعاد الإمبراطور وو-تى إرسال تشانج تشين فى بعثة ثانية إلى أواسط آسيا (١١٩-١١٥ ق.م.) وأرسل معه هذه المرة قوة استكشافية أكبر عدداً وأحسن تجهيزاً. وفى الطريق أرسل تشانج تشين مبعوثين إلى بلاط البارثيين حكام فارس، الذين ردوا بإرسال سفير إلى الصين. وكان للبارثيين أيضاً علاقات دبلوماسية مع روما، وبذلك تأسست علاقة وثيقة بين الشرق والغرب، وبالنسبة إلى البارثيين، استفادوا من وضعهم كوسطاء بين الطرفين.

ولما قدم تشانج تشين إلى فرغانة للمرة الثانية، شاهد الجياد الرائعة للإقليم، حيث يصل ارتفاع الجواد إلى ١٦ يداً (٦٤ بوصة أو ١٦٣ سنتيمتراً) عند الكتفين. ونالت تلك «الجياد السماوية» شهرة عريضة بسبب قوتها الجسمانية ووسامة قسماتها، وكذلك بسبب أنها يبدو أنها كانت تعرق دماً. (ولم يحدث إلا فى القرن العشرين أن تمكن

العلماء من معرفة سبب ذلك، وهو طفيليات تحفر لنفسها مكاناً تحت جلد الحصان فيتورم الجلد ثم ينفجر دماً.)

وأثارت «الجياد السماوية»، كما كانت تُعرف، فضول ووتى وحاول شراء بعضها من ملك فرغانة. وكان رد الملك، ومن الجلى أنه لم يكن يُكِنُّ صداقة لتشانج تشين منذ السنوات الأولى، أن قتل المبعوث الصينى وجرّد جثته من ملابسها كعلامة على عدم الاحترام. وعندئذ أرسل الإمبراطور جيشاً مؤلفاً من ٦٠.٠٠٠ جندي حاصر العاصمة وعاد معه بضعة آلاف من الأحصنة. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت «الجياد السماوية» رمزاً للمكانة الاجتماعية للأغنياء والأقوياء فى الصين، مثلها فى ذلك مثل بعض طرازات السيارات الفارهة اليوم.

وفى خلال القرنين اللذين أعقبا وفاة تشانج تشين - الذى لا يزال يُحتفل به بوصفه بطلاً بين الصينيين اليوم - اتفقت قوى الصين مع قوى البارثيين، مما سمح لقوافل التجار لأن تسافر غرباً بأمان نسبى إلى بلاد الرافدين. وهناك كان الطريق ينقسم إلى طريق شمالى ينتهى فى أنطاكية السورية، وطريق جنوبى يمر ببابل وينتهى فى دمشق. وكانت المناطق الأخيرة تقع تحت سيطرة إمبراطورية ثالثة هى روما، والتى بعد ذلك أنشأت علاقات دبلوماسية مباشرة مع الصين.

نجحت بعثات ووتى إلى أواسط آسيا فى إبعاد الهسيونج-نو، غير أنه حدث فى سنوات لاحقة أن ضعفت قوة أسرة هان، فاستأنف الهسيونج-نو سيطرتهم على حوض التاريم. إلا أنه حدث فى الفترة ما بين ٧٣ إلى ١٠٢م، أن قائدأ يدعى بان تشاو استرد الإقليم بكامله، بما فيه كاشجار (قشغر)، وهى اليوم المدينة الرئيسية فى التركستان الصينية. ووسعت انتصاراته من حدود الصين غرباً إلى أبعد من حدودها الحالية، حتى وصلت شواطئ بحر قزوين، وأرسل سفراء إلى بلاطات الدول المحيطة بالخليج الفارسى.

وفى ٩٧م فوض بان تشاو المدعو كان ينج ليكون مبعوثه إلى روما. وكان ذلك أول اتصال مباشر بين الصين وروما، غير أن كان ينج فى حقيقة الأمر لم يذهب إلى أبعد من مدينة النجف فى العراق، حيث علم أن الرحلة إلى روما ذاتها تستغرق عامين آخرين. وفى الحقيقة فإنها لم تكن لتستغرق أكثر من شهرين ولكن مضي فيه البارثيين لم يشاؤوا أن يفقدوا مكاسبهم من عملهم بوصفهم وسيطاً بين الطرفين، ولهذا بالغوا فى طول المسافة. ولما صدق كان ينج المعلومة البارثية المغلوطة عاد أدراجه دون أن يحقق هدفه.

ولم يحدث قبل سنة ١٦٦م، بعد أن أنزلت روما الهزيمة بالبارثيين وسيطرت على منطقة الخليج الفارسى، أن اتصالاً مباشراً تم مع الصين. ويبدو أن المبعوث الرومانى الذى أرسله الإمبراطور ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) (حكم ١٦٦-١٨٠م)، قد سافر بطريق البحر عن طريق فيتنام الحالية. وبحلول ذلك الوقت حاول بطليموس الجغرافى الشهير (حوالى ١٠٠-١٧٠م) أن يضع خريطة لطريق الحرير، وكانت روما والصين قد نعمتا بعلاقات تجارية واسعة، ويعود الفضل فى ذلك إلى بان تشاو وإعادته فتح المناطق التى كانت مهددة.

ومنذ زمن المسيح كان أثرياء الرومان يقدرون الحرير ويعشقونه، ولم يُعرف الحرير فى الغرب إلا بعد إنشاء طريق الحرير. ولما كانت الحكومة الصينية مدركةً للمكاسب الناتجة عن تصدير الحرير، فقد اتخذت من الإجراءات ما يكفل لها احتكاره بمنع خروج دود القز من حدود الصين. (إلا أنه حدث فى أوائل العصور الوسطى أن دوداً مهرباً وجد طريقه إلى الغرب). وفى المقابل لم يحدث أن روما أو أيّاً من الممالك الخاضعة لسلطانها فرضت أى قيود مماثلة على صادرات منتجات الشرق الأدنى، ولكن ذلك لم يكن بدافع من الكرم والأريحية: فالصادرات الغربية كانت فى غالبيتها مواد غذائية ولا يمكن نقلها دون أن تفسد. ولهذا تصدرت الحبوب والنباتات قائمة الصادرات إلى الشرق، وبذلك تعرف النوق الشرقى على الزيتون والخيار والرمان ونبات الفصيصمة (alfalfa)، وكذلك البندق والسّمسم. (واليوم يشكل زيت السّمسم واحداً من أهم مكونات الطعام الصينى).

وإضافة إلى المنتج الذي أكسب طريق الحرير اسمه، شملت الصادرات الصينية على الطريق منسوجات أخرى وكذلك الخيزران والحديد. وبدورهم استورد الصينيون المنتجات الصوفية والمصنوعات الفنة الهلينية، التي تركت أثرها على الطرز الفنية في بعض أجزاء آسيا. وفي الحقيقة يشكل تصدير واستيراد الأفكار والمعتقدات واحداً من أهم سمات طريق الحرير. فعلى سبيل المثال، بدأت أفكار الأغنوسطية (gnosticism)، وهي مجموعة متفرقة من المعتقدات نشأت بين أغارقة آسيا الصغرى وبلاد اليونان، بدأت في التحرك شرقاً في القرون التي أعقبت يسوع الناصري.

والأغنوسطية، التي ذُكرت وانتقدت في العهد الجديد، لها أشكال متعددة، ولكنها كلها تؤكد أهمية المعرفة الروحية (gnosis)، وهي الاعتقاد بوجود معارف خاصة متاحة فقط للمختارين في أية عقيدة. وكان للأغنوسطية تأثير عميق على العقيدة المانوية المنشقة التي نشأت في فارس في القرن الثالث الميلادي. وفيما بعد انتشرت الأفكار المانوية غرباً، وبهذا أعادت إدخال الأغنوسطية في البلاد التي ولدت فيها.

وكذلك كانت النسطورية (Nestorianism) ذات نفوذ، وهي فصيل من المسيحية أعلنتها الكنيسة سنة ٤٣١م منشقة ومهرطقة، فبدأت في التحرك شرقاً على طريق الحرير. وأثبتت المجتمعات النسطورية في الهند والصين أنها وسيلة اتصال حيوية بين الشرق والغرب، وكان مقدرها لها، على شاكلة المانوية، أن تعود إلى الغرب في ثوب جديد. إلا أن من حملها هذه المرة لم يكونوا من الرهبان ولكن من الغزاة: المقاتلون المغول الذين اعتنق الكثير منهم معتقدات الفكر النسطوري.

ولكن إذا كان لطريق الحرير دين فهو البوذية، وهي تراث يمكن أن يعزى في جانبه الأعظم إلى كانيشكا (Kanishka) (اشتهر حوالي ٧٨-١٠٣م) الذي ينتسب إلى الكوشان، وهي الفصيل الأكبر من الفصائل الخمس لقبائل يوه-تشييه، الذين سيطروا في القرن الأول الميلادي على مساحات شاسعة امتدت من الأطراف الجنوبية إلى روسيا الحديثة إلى وادي الجانج في الجنوب الشرقي للهند. ووضعهم ذلك على مفترق طرق

العالم على جانبي طريق الحرير في ذات الوقت الذي أكدت فيه انتصارات بان تشاو على حيوية التجارة بين الشرق والغرب بصورة غير مسبوقه.

وتحت حكم كانيشكا أصبحت إمبراطورية الكوشان واحدة من أعظم أربع دول متعددة الجنسيات مع ممالك الصين والبارثيين والرومان، غير أن تركيبة النفوذ في أراضي الكوشان كانت انتقائية بصفة خاصة. وترمز إلى ذلك مسميات الوظائف الإدارية المختلفة داخل الإمبراطورية: فكلمة «ساتراب» الفارسية لحكام الأقاليم، و«مريدريك» (meridarek) الهندية لرؤساء المقاطعات، و«ستراتيجوى» (stratego) اليونانية للحكام العسكريين. وبالمثل احتفظ كانيشكا بمجموعة من الألقاب المختلفة من البلاد التي سيطر عليها، أو من البلاد التي كان على علاقة بها بفضل طريق الحرير: ملك الملوك (باكتريا وفارس)، والملك الأعظم (الهند)، وابن السماء (الصين)، والإمبراطور (بلاد اليونان وروما).

وساهمت إمبراطورية كانيشكا أيضاً في انتقال الأفكار الإغريقية عن الفن إلى الهند، حيث بدأ النحت يتخذ مساراً هليلينستياً واضحاً. وبنى كانيشكا عدداً من النصب التذكارية منها معبد برجى الشكل في عاصمته في بيشاور (هي الآن في باكستان على الحدود الأفغانية). فإن كان ما قيل عن ارتفاعه (١٩٤ متراً) صحيحاً فإنه يكون بذلك أعلى مبنى في العالم القديم، بل أعلى مبنى قبل القرن التاسع عشر. ومن المؤكد أن التمثالين المنحوتين^(١) في الصخور في باميان على مبعده ٢٤٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من كابول الحالية بأفغانستان هي تراث قوى لإمبراطورية الكوشان: وواحد منهما يرتفع إلى مسافة ٥٣ متراً أى أعلى بكثير من تمثال الحرية.

(١) ومما التمثالان اللذان نسفتها طالبان سنة ٢٠٠١ بنزيرة أنهما أوثان . (المترجم).

غير أن الأمر الأكثر أهمية هو حقيقة أن التمثالين يمثلان بوذا (سيدهارتا جوتاما ٥٦٣-٤٨٣ ق.م.)، الذي اعتنق كانيشكا عقيدته. ويشكك بعض المؤرخين في صدق إيمان كانيشكا بالعقيدة البوذية لأن تبني البوذية كانت له فوائده العملية. من بينها أن قبيلة الكوشان بوصفها من الأجانب لم تكن لتأمل في أن تحرز إلا وضعاً متوسطاً في النظام الطبقي الهندوكي في الهند. ويضاف إلى ذلك أن السمات الوديعه للبوذية تعزز الانسجام والتألف في إمبراطورية مكونة من مجموعات عرقية متباينة.

وسواء كان كانيشكاً مؤمناً حقاً أم لا فإنه خدم العقيدة البوذية مثلما خدم الإمبراطور الروماني قسطنطين (٢٨٥-٣٢٧ م) العقيدة المسيحية. فباعتناقه البوذية الماهانية أو «العجلة الكبيرة» فقد ختم بخاتم الموافقة الإمبراطورية على تفسيرات معينة للعقيدة، وهي التي لا تزال التفاسير المهيمنة على البوذية حتى اليوم. ومثلما عقد قسطنطين فيما بعد مجمع نيقية الذي ساهم في تحديد لب التعاليم المسيحية فإن كانيشكا جمع رهطاً من الرهبان البوذيين شكلوا تعاليم الماهايانا.

ومن خلال سيطرته على طريق الحرير ضمن كانيشكا انتشار العقيدة ليس في شمال الهند فحسب، وإنما فيما يُعرف اليوم باسم أفغانستان وباكستان وأوزبكستان وغيرها من شعوب أواسط آسيا والصين. ولم تعش إمبراطورية الكوشان طويلاً بعد وفاة كانيشكا، ولكن نفوذها استمر من خلال تأثيرها على انتشار البوذية. وكانت ثمة مساحة من سخرية الأقدار في ذلك: لأن ربط العقيدة بالأجانب في الحقيقة أذى الفكرة البوذية في الهند، حيث حدث بعث قومي حماسي للعقيدة الهندوكية ضمن لهذه العقيدة مكانة السيادة التي تتمتع بها اليوم.

وفي تلك الأثناء بدأت العقيدة تترسخ في الصين، وأدى ذلك إلى قيام حجاج بوذيين بعدد من الرحلات الشهيرة إلى الهند، ومنهم فا-هسين (ح ٢٢٤-٤٢٢) وهسوان-تسانج (ح ٦٠٢-٦٦٤). وعلى الرغم من أن الطريق من الصين إلى الهند يبدو أنه طريق سهل تجاه الجنوب مباشرة فإن وجود جبال الهيمالايا غير القابلة

للاختراق أجبر الرحالة على الاتجاه غرباً ثم جنوباً، وفي كلتا الحالتين سهّل طريق الحرير من إتمام الرحلة بقدر من الأمان. وكذلك تيسر الأمر أيضاً بحقيقة أن كل البلاد التي عبروا خلالها كانت ممالك بوذية؛ غير أنه في حالة هسوان-تسانج كانت ثمة قوة أخرى - وهى الإسلام - فى حالة بزوغ. وبمرور الوقت تمكن الإسلام من اجتياح أفغانستان وغربى الهند وأواسط آسيا، ودفع بالنفوذ البوذى إلى الوراء؛ غير أن العقيدة الأخيرة، أى البوذية، فى نفس الوقت كانت قد انتشرت أكثر إلى الشرق إلى كوريا واليابان وجنوب شرق آسيا.

شهدت الفترة ما بين كانيشكا وانتشار الإسلام سقوط كل الإمبراطوريات الأربع التى كانت تجمى طريق الحرير. ومن اللافت للنظر أن القوة التى بدأت الحركة تجاه تدمير روما كانت نفس الشعب، هسيونج-نو بعد أن طردتهم الصين. فبعد وصولهم إلى أوزيا فى القرن الرابع حملوا اسماً جديداً هو الهون. وفى أعقابهم جاءت شعوب أخرى من بدو أواسط آسيا عن فيهم الأفار ((Avars، الذين عرّفوا الأوربيين على السرج والركاب - وهو أداة تُمكن الرجال من القتال من فوق ظهور الخيل حاملين تسليحاً ثقيلاً، وهو الذى مهد الطريق عملياً لظهور نظام الفروسية ومن ثم للنظام الإقطاعى.

وفى قرون لاحقة ظهرت مجموعتان أخريان من أواسط آسيا جديرتان بالذكر، تدفقتا إلى الغرب على طريق الحرير القديم. فظهر الأتراك أولاً الذين قطعوا آخر اتصال بين أوروبا والشرق وضمنوا ألا يغامر مسافر أوربى بالسفر إلى أبعد من سوريا. ثم ظهر المغول فى أوائل القرن الثالث عشر، الذين أدت سيطرتهم الواقعية على كل العالم المعروف إلى تسهيل استئناف العلاقات التجارية التى كانت متوقفة منذ قرون. وبدوره أمكن لرحالة مثل: ماركو بولو (١٢٥٤-١٢٢٤) وابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٨؟) أن يرتحلوا على طريق الحرير مرة أخرى وأحدثوا نهضة فى المواصلات بين الغرب والشرق.

جدسون نايت

لمزيد من القراءة

كتب

Frye, Richard Nelson. *The Heritage of Central Asia from Antiquity to the Turkish Expansion*. Princeton, NJ: Markus Wiener Publishers, 1996.

Griffiths, Philip Jones. *Great Journeys*. New York: Simon & Schuster, 1990.

Grousset, René. *The Empire of the Steppes: A History of Central Asia*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1970.

Hopkirk, Peter. *Foreign Devils on the Silk Road: The Search for the Lost Cities and Treasures of Chinese Central Asia*. London: Murray, 1980.

Hulsewé, A. F. P. *China in Central Asia: The Early Stage, 125 B.C.-A.D. 23: An Annotated Translation of the History of the*

Former Han Dynasty. Leiden, Netherlands: Brill, 1979.

Journey into China. Washington, D.C.: National Geographic Society, 1982.

مواقع على الإنترنت

Center for the Study of Eurasian Nomads. <http://www.csen.org>.

"Lost Cities of the Silk Road." <http://www.alumni.caltech.edu/~pamlogan/silkroad/index.html>.

Silk Road Foundation. <http://www.silk-road.com>.



كان أتتلا زعيم الهون (جالساً على العرش) ينحدر من قبيلة هسيونج-نو.

سعى روما لتكوين إمبراطورية وتأثير ذلك على الاستكشاف

نظرة شاملة

من أصولها المتواضعة سنة ٧٥٢ ق.م. ظهرت روما كى تغزو غالبية الأجزاء المعروفة فى أوربا وجنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا فى القرون التسعة التى تلت. وبإخضاعهم للشعوب دون شفقة ولا هوادة وقسرهم على السير فى ركاب رؤيتهم الإمبراطورية تمكن الرومان من صنع إمبراطورية تأخذ بالألباب فى مجالاتها، مملكة سمحت للتجارة والمواصلات والترحال أن تصل إلى أفاق لم تصلها من قبل. وفى عنفوان الإمبراطورية سنة ١١٦ م، أصبح السفر ممكناً من اسكتلنده إلى البحر الأحمر دون اللجوء إلى طرق غير رومانية إلا فى عبور البحار. فلم يكن من المستغرب إذاً أن جغرافىي البلاد الرومانية شرعوا، ربما لأول مرة فى التاريخ، فى التفكير فى رسم خريطة للعالم المعروف. وبالمثل، لم يكن من المستغرب أيضاً، وبعد قرون من انهيار روما، أن فكرة إمبراطورية كبرى متعددة الجنسيات وذات قاعدة أوربية بقيت حية فى الأذهان.

الخلفية

مجدت أساطير عديدة نشأة الرومان أشهرها إنياذة فيرجيل (Virgil) (٧٠-١٩ ق.م.) الكبيرة، التى صورتهم بوصفهم نسلا لأمير عظيم قاد مجموعة من الهارين من طروادة المهزومة. وهناك مظهر ذو مغزى للأسطورة هو الصورة غير الطيبة التى تظهر فيها ديدو، الملكة التى كان سكان قرطاجنة - المنافس التاريخى لروما -

يعتبرونها مؤسسة حضارتهم: ففي رواية فيرجيل تقع ديدو في حب إينياس وتقدم على الانتحار عندما يهجرها.

وهناك أساطير أقدم تتعلق بالتوأم رومولوس وريموس، اللذين ربتهما ذئبة بالقرب من المكان الذي أنشأ فيه رومولوس المدينة بعد أن قتل أخاه. وتلك القصة عن الخيانة ومعها صورة الذئبة - التي أصبحت فيما بعد رمزاً لروما - تحمل الكثير بين طياتها عما سيحدث مستقبلاً لما شرع الرومان يتطلعون إلى ثروات الأمم المجاورة. وكذلك أيضاً قصة نساء السابين (Sabine) : فقد كان رجال روما في بواكيرها يريدون الحصول على زوجات، فخدعوا رجال السابين وأغروهم بترك مدينتهم، ثم هاجموا المدينة واغتصبوا النساء واختطفوهن.

وكانت روما ذاتها تتشكل من عدة مجموعات من قوميات مختلفة تشمل اللاتين والإترسكيزن والسابين، وساهمت الروايات عن نساء السابين في تعليل كيف أن روما كانت تُحكم بصورة دورية بملوك من كل من المجموعات الثلاث. وقيل إن تلك الترتيبات استمرت طوال حكم ستة ملوك أسطوريين حكموا في الفترة ما بين وفاة رومولوس ونشأة الجمهورية الرومانية سنة ٥٠٧ ق.م. وهي أول تاريخ صادق في التاريخ الروماني.

وقام الإترسكي تاركوينيوس سوبربوس (Tarquinius Superbus)، ويفترض أنه ابن الملك السابع، باغتصاب سيدة رومانية عفيفة تدعى لوكريشيا التي غلبها الإحساس بالعار حتى أنها قتلت نفسها، وأدى ذلك إلى قيام ثورة انتهت بخلع تاركوينيوس. وبعد ذلك رفض الرومان أن يحكمهم ملوك، واعتبر كل مواطني روما - سواء من اللاتين أو الإترسكيين أو السابين - أنفسهم رومانيين أولاً. ومن ثم عقدوا العزم على أن يسيطروا على كل شعوب المناطق المحيطة بهم (بما في ذلك أبناء عموماتهم).

التأثير

خلال أول قرن بعد نشأتها توسعت الجمهورية الرومانية ببطء داخل شبه الجزيرة الإيطالية، محققة انتصارات بمزيج من القوة العسكرية والذرائع الدبلوماسية - أي بانتهاك المعاهدات. ثم حدث هجوم على المدينة نفسها قام به الغاليون الهمج (Gauls) أو السلت (Celts) سنة ٣٩٠ ق.م.، وهو حدث كان حاسماً في إنكفاء تصميم الرومانيين على فرض سيطرتهم على جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية. وحققت روما ذلك إلى حد كبير خلال القرن الرابع ق.م.، وبطول ٢٧٥ ق.م. كانت روما قد غزت أجزاء من جزيرة صقلية التي كانت في السابق تحت سيطرة المستعمرين الإغريق لمستعمرة ماجنا جريكيا (Magna Grecia) .

ولم يكن شرق صقلية مجرد أول أراض رومانية خارج الأراضي الإيطالية فحسب، ولكن غزوها منح روما موطئ قدم ساعدها في هزيمة قرطاجنه، وهو العمل الذي حولها إلى إمبراطورية حقيقية. وكانت قرطاجنه تسيطر على غالبية شمال إفريقيا وإسبانيا والجزر المتاخمة لشواطئ إيطاليا الغربية؛ غير أن القرطاجنيين كانوا، بخلاف الرومان، قوماً مسالمين. وهكذا، وبمبادرة من روما، اشتبكت القوتان في الحرب البونوية الأولى (٢٦٤-٢٤١ ق.م.)، التي انتهت بغزو روما لكورسيكا وسردينيا وكل صقلية.

وعلى العكس من ذلك، كان القرطاجنيون الغاضبون هم المعتدون في الحرب البونوية الثانية (٢١٨-٢٠١ ق.م.) التي تضمنت حملة رائعة استمرت ١٥ سنة بقيادة هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق.م.). وافتتح الأخير فصلاً جديداً في تاريخ الاستكشاف بعبوره جبال الألب، الذي أثبت أن الممرات الجبلية الخطيرة يمكن عبورها بواسطة جيش كبير. ولا شك في أن نجاحه في ذلك فتح عيون الرومان على الاحتمالات التي تحدى بهم من الشمال.

وعلى الرغم من عبقرية تقدم هانيبال فإن، الحرب انتهت بهزيمة قرطاجنه، وفي أعقابها أضافت روما أراضى كثيرة إلى ممتلكاتها. وبحلول بدايات القرن الأول ق.م، أصبحت إسبانيا وجنوب بلاد الغال (فرنسا الحديثة) وكل شبه الجزيرة الإيطالية تحت الحكم الرومانى المباشر، وكذلك أرض الوطن القرطاجنى السابق، وأضاف غزو أراضى أوربا الشرقية، الذى تم فيما بين ٢٢٠ و١٢٢ ق.م، كل سواحل بحر الأدرياتيكى وأعظم جائزة حتى حينه: بلاد اليونان. وإلى الشرق بعد أبعد من ذلك أخضع الرومان آسيا الصغرى، وبهذا صاروا قوة فى قارات ثلاث.

وعند تلك النقطة بدأ القادة الرومان يحسون بمذاق الغنائم التى حققتها الانتصارات، وكل استحواذ على أراض جديدة أتى بثروات جديدة للإمبراطورية. وفى المقابل حقق الرومان لرعاياهم الجدد الاستقرار الذى يوفره حكم إمبراطورية قوية: فعلى سواحل آسيا الصغرى، على سبيل المثال، كسر يوليوس قيصر (١٠٢-٤٤ ق.م) وآخرون شوكة القراصنة السيليزيين الذين هددوا السفن التجارية طويلاً. وفى غزوهم لتلك البلاد منح الرومان شعوب رعاياهم حقوق المواطنة بما يحمله ذلك من مكانة ومزايا سياسية. وصار عالم البحر المتوسط أكثر رومانية، بمعنى أن الشعوب تقبلت الحضارة الرومانية - التى كانت فى نواح كثيرة امتداداً لنظيرتها الإغريقية.

وفى ما بين ١٢٢ و٢١٦ ق.م، عندما أنهى أوكتافيان (٦٣ ق.م - ١٤ م) الجمهورية وأصبح "أغسطساً" (ومعناها المبجل) أى أول إمبراطور رومانى، انتشر النفوذ الرومانى فى كل الاتجاهات. وكان يوليوس قيصر قد غزا غالبية أجزاء ما يُعرف اليوم بفرنسا وبلجيكا، وقام بأول حملة لإخضاع إقليم كان فى السابق خارج متناول يد حضارة بحر أوسطية وهو بريطانيا، التى ضمتها روما إلى ممتلكاتها سنة ٤٣ م. وفى الوقت ذاته أصبحت سوريا وبعدها جوديا جزءاً من الإمبراطورية، وكان لهذا الأمر الأخير نتائج لم تكن فى الحسبان.

فقد حدث أن غزو روما لجوديا تزامن مع ميلاد المسيحية، وفي السنوات التي تلت ذلك نشر المبعوثون المسيحيون العقيدة في المدن الرومانية في آسيا الصغرى وبلاد اليونان. وبعد قرون عانى فيها المسيحيون من الاضطهاد على أيدي الأباطرة الوثنيين، تبنى قسطنطين (٢٨٥-٣٣٧ م) العقيدة المسيحية وقَنَّها وصارت العقيدة المهيمنة في روما. وأفرخ هذا بدوره ارتباطاً وثيقاً بين المسيحية وكرسى السلطان الروماني، وهو ارتباط - يرمز إليه منصب البابا، أو أسقف روما - استمر حتى بعد أن سقطت الإمبراطورية الرومانية نفسها.

كان سقوط روما يبدو أمراً مستبعداً تماماً في الأيام الأولى للإمبراطورية، غير أنه كانت ثمة دلالات بالفعل على أنها وصلت إلى أقصى مدى لها. فالحملة الكارثية التي قام بها أوليوس جالوس (Aelius Gallus) في بلاد العرب سنة ٢٥ ق.م، وكذلك الهزيمة (الأشد بكثير) التي نالتها القوات الرومانية في غابة تيوتوبورج (Teutoburg) الألمانية سنة ٩م، أقتنعتنا أغسطس بأن وقت التوسع قد انتهى. وبحلول ذلك الوقت أصبحت روما تسيطر على كل شواطئ شمال إفريقيا (بما في ذلك غنيمة كبرى أخرى هي مصر)؛ وكل أوروبا الغربية عدا بريطانيا، وسكاندينافيا والمناطق شمالي نهر الراين؛ وكل أوروبا الشرقية جنوب نهر الدانوب؛ وآسيا الصغرى؛ والشرق الأدنى. وتشكلت حدود الإمبراطورية من أنهار وصحراوات ومحيطات وجبال، وحذر أغسطس ابن زوجته وخليفته تيبيريوس (Tiberius) (حكم ١٤-٣٧م) أن يتجنب أية توسعات أخرى.

وفي الحقيقة لم يشهد القرن الذي تلا وفاة أغسطس إلا فتوحات ضئيلة أهمها في بريطانيا وغربي آسيا، ووصلت الإمبراطورية إلى أقصى امتداد لها تحت حكم تراجان (Trajan) (حكم ٩٩-١١٧م). وعلى الرغم من استمرار قيام الثورات والتمردات وأوبئة الطاعون وغير ذلك من الكوارث، فإن القرنين الأولين بعد الميلاد كانا فترة استقرار لم يسبق لهما مثيل، وكانا عصرًا اتسم بالسلام الروماني (Pax Romana).

وفى الوقت الذى سيطرت فيه روما على غالبية العالم المعروف، وصلت المحاولات إلى رسم خريطة لذلك العالم إلى درجة من النضج لم يسبق لها مثيل من قبل، بل بعد ذلك بأمد طويل. وكان ذلك النمط المبكر من تلك الجغرافية العلمية، مثلها مثل أمور أخرى كثيرة، كانت إرثاً من الإغريق، لكن العصر الرومانى كان هو الذى أفرز سترابون (Strabo) أعظم جغرافى العالم القديم (ح ٦٣ ق.م. - ٢٣م) من آسيا الصغرى. ولم يتفوق أى كتاب آخر على كتابه "الجغرافيا" (Geographica)، رغم أخطائه، كدليل للعالم الغربى حتى أواخر العصور الوسطى. وأفرزت القرون الأولى للإمبراطورية بالمثل عديداً من الشخصيات، يكاد كلهم أن يكونوا من الإغريق، كانت أعمالهم أعظم منجزات الغرب فى مجالاتها لفترة الألف سنة التالية: وهم على سبيل المثال: بطليموس الفلكى (ح ١٠٠م - ١٧٠م)، وجالينوس الطبيب (١٣٠ - ٢٠٠م)، الذى عمل كطبيب خاص للإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٢١ - ١٨٠م).

وفى عصر "السلام الرومانى" ضُمن انتشار الفيالق الرومانية فى المناطق الحدودية استقرار الإمبراطورية، وفتح إنشاء الطرق بلادها المتعددة أمام التجارة. وفى النهاية غطت شبكة الطرق العامة المثيرة للإعجاب الأقاليم الرومانية وأكدت الحماية التى أسبغها وجود الجنود الرومان أن السفر صار أمناً. ولم تكن تلك الطرق مجرد دروب وإنما كانت طرقاً عريضة يبلغ عرضها ١٢ قدماً (٣,٧ متر) أو أكثر ومبنية من الحجارة والطفلة والحصى لعمق ٣ أقدام (٠,٩ متر). وكانت خنادق الصرف تمتد على جانبيها، وتنتشر بها علامات حجرية تحدد أطوال المسافات من وإلى روما - ومن هنا جاء القول الشهير: «كل الطرق تؤدى إلى روما».

والحديث لا ينتهى عن تلك الطرق وعن الأحوال الكئيبة التى سادت أوروبا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، حتى أن أحسن طرق القارة فى بدايات عصر النهضة كانت لا تزال تلك التى بناها الرومان قبل ذلك بما يربو على ألف عام. وفى الحقيقة كان الوضع الشبيه التاريخى التالى هو طرق الأوتويان الألمانية، والتى كانت اللهمة

للطرق الرئيسية بين الولايات الأمريكية، التي بناها حاكم فى القرن العشرين كان ينوى إنشاء صورة مروعة من الإمبراطورية الرومانية وهو أدولف هتلر.

ازدهرت التجارة فى جميع أرجاء البلاد الرومانية، وكان لكل إقليم طابعه ومجال تخصصه. فمصر بدلنا نيلها الخصيبة التى أنتجت على مر الزمن محاصيل ممتازة، كانت سلة الغلال للإمبراطورية، ولكن حتى البلدان الأقل حظاً من التحضر كان لها منتجاتها القيمة، فمن بريطانيا مثلاً جاء القصدير والحديد والصوف، وأنتجت مناطق الحدود مع إسكنديا الحبوب والعسل والقنب. وجعل طريق الحرير ووجود إمبراطورية مماثلة فى القوة هى أسرة هان فى الصين، جعل الاتصال مع أبعد حضارة معروفة أمراً ممكناً. ويسرت الحماية الرومانية للطرق البحرية التجارة مع البلاد المنتجة للتوابل فى جنوب بلاد العرب والهند، بينما سمحت سيطرة روما على النيل باستيراد العاج من أواسط إفريقيا.

ولعله إذًا ليس من الأمور المثيرة للاندعاش أن المؤرخ إوارد جيبون (١٧٣٤-١٧٩٤)، فى كتابه «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، وصف الفترة من ٩٦م إلى ١٨٠م بأنها تلك الفترة من تاريخ العالم التى كانت فيها أحوال الجنس البشرى أسعد الأوقات وأكثرها ازدهاراً. غير أنه مع وفاة الإمبراطور ماركوس أوريلْيوس دخلت روما فى فترة اضمحلال طويل ويطيء. وقد ذُكرت أسباب متعددة لانهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية، وهو انهيار بدأ حثيثاً فى أخريات القرن الرابع الميلادى. وجيبون، مثلاً، ألقى باللوم على المسيحية. غير أن السبب الأكثر احتمالاً هو أن الحضارة الرومانية كانت ببساطة قد نال منها التعب والإرهاق. فالرومان قد كونوا ثرواتهم بفضل الغزوات العسكرية وليس من خلال التجارة أو الاختراعات، وتوقف النمو بمجرد أنه لم يعد ثمة عالم يُقهر ويُستعمر، وانهارت المملكة على نفسها تماماً.

غير أن حلم روما استمر حياً فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، التى حكمت من مدينة القسطنطينية أو بيزنطة بدءاً من ٣٣٠م. واستمرت الإمبراطورية على قيد

الحياة حتى سنة ١٤٥٣، وفي أثناء ذلك نقلت نمطاً من الثقافة الرومانية إلى روسيا، الذين أطلق حكامها على أنفسهم لقب "قيصر". وفي تلك الأثناء في أوروبا الغربية لم يمت مطلقاً الحلم بإمبراطورية، ومع تتويج شرلمان (٧٤٢-٨١٤) كإمبراطور على الرومانيين سنة ٨٠٠ م، اكتسب الحلم صيغة جديدة صارت تُعرف باسم "الإمبراطورية الرومانية المقدسة". ولم تستطع الأخيرة أن تكون على مستوى من العظمة يضارع عظمة اسمها، إلا أنها أصبحت السمة الأساسية للأمة التي ساهم شعبها في الماضي في تقويض أركان الإمبراطورية الرومانية وهي ألمانيا. وفي القرن العشرين تحولت فكرة روما إلى الرؤى الإمبريالية المفزعة لهتلر وبنيتو موسوليني في إيطاليا وجوزيف ستالين في الاتحاد السوفييتي؛ غير أنه مع بدايات القرن الواحد والعشرين عاودت الفكرة الظهور في صورة أكثر اعتدالاً مع التوحد التدريجي الاقتصادي لأوروبا.

جدسون نايت (JUDSON KNIGHT)

لمزيد من القراءة

كتب

Bardi, Piero. *The Atlas of the Classical World: Ancient Greece and Ancient Rome*. Illustrations by Matteo Chesi, et al. New York: Peter Bedrick Books, 1997.

Richardson, John. *Roman Provincial Administration, 227 B.C. to A.D. 117*. Basingstoke, England: Macmillan, 1976.

Starr, Chester. *The Ancient Romans*. New York: Oxford University Press, 1971.

مواقع على الإنترنت

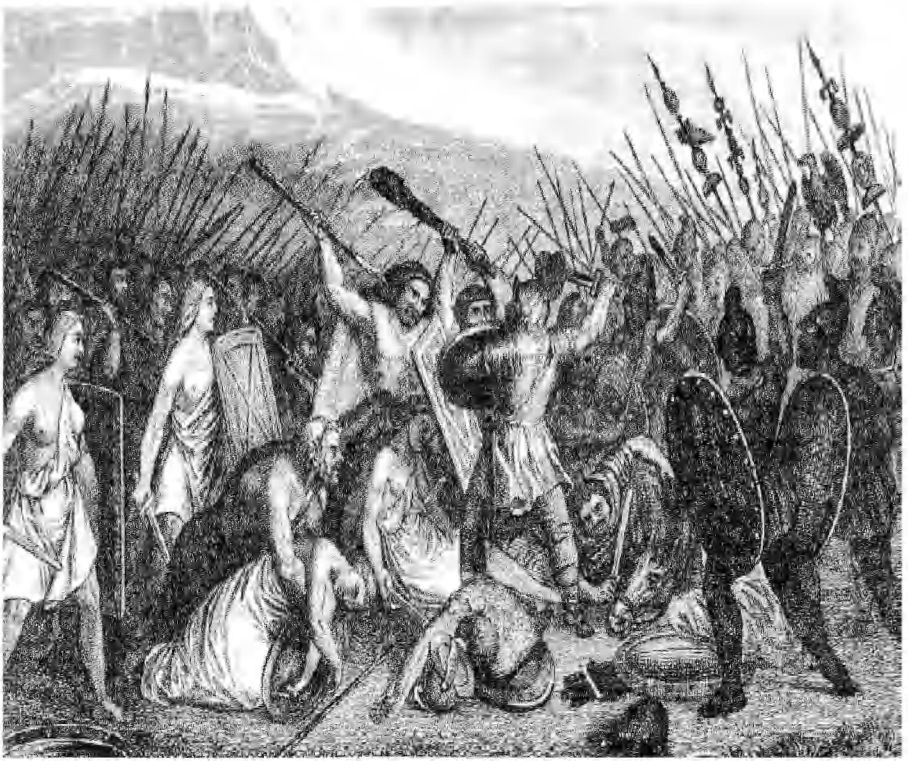
The Interactive Ancient Mediterranean Project. <http://iam.classics.unc.edu/>.

Maps of the Roman Empire. <http://www.dalton.org/groups/Rome/RMaps.html>.

The Roman Empire. <http://www.roman-empire.net>. Rome and Romania, 27 B.C.-A.D. 1453 <http://www.friesian.com/romania.htm>.



كان الجندي الروماني السلاح المرعب للإمبريالية الرومانية



قتال بين الجنود الرومان والقبائل الجرمانية

يوليوس قيصر وبلاد الغال

نظرة شاملة

كانت حملات يوليوس قيصر العسكرية إلى بلاد الغال في القرن الأول ق.م. معلماً لنقطة تحول مثيرة في تاريخ أوروبا القارية. ففي أعقاب تدخل قيصر الناجح في تهجير شعب الهلثيتي غرباً إلى بلاد الغال، سيطرت روما بسرعة على كل البلاد بين البحر المتوسط والقتال الإنجليزي، وبين المحيط الأطلنطي ونهر الراين. وبعد انتصارات قيصر العسكرية الأولى نتج عن عملية الرمننة سلسلة من المعارك الثقافية أشد إتقاناً.

غطت حملات قيصر الفترة ما بين ٥٨ إلى ٥٠ ق.م. وأحسن رواية عن الحرب الغالية هي ما كتبه قيصر نفسه بعنوان «تعليقات على الحرب الغالية»، التي تضمنت صورة واضحة ومفصلة عن الحملة. ولعل الكتب السبعة التي تضمنتها «التعليقات» قد كُتبت أثناء فصول الشتاء بين المناورات التكتيكية. وقد صدرت تلك الحلقات موجهة إلى جمهور روماني شديد التعاطف مع حملات قيصر. وفي الوقت الذي تبدو فيه «التعليقات» موضوعية وغير متحيزة إلا أنها عملت على تعزيز مصالح قيصر السياسية وهي غزو روما من خلال غزو بلاد الغال. فقد هون من شأن الهزائم الرومانية ولعب على وتر الصورة الذهنية النمطية التي يؤمن بها الرومان عن الغالين بأنهم همج غير جديرين بالثقة، وكتب ذلك في نص وضع فيه جلياً أن هدفه هو تعزيز سلطته السياسية في روما. وعلى الرغم من أهداف «التعليقات» السياسية يبقى النص أشد المصادر ثراءً بما فيه من معلومات عن الأبعاد الحضارية والتكتيكية للحرب الغالية.

الخلفية

بحلول سنة ٥٨ ق.م. كانت بلاد الغال عبر جبال الألب، أو ما أسماها الرومان 'بروفينشيا' (Provincia)، تحت السيطرة الرومانية منذ ما يقرب من قرن. ونبع انغماس الرومان فى المنطقة من الحلف الطويل بين الإمبراطورية الرومانية ومساليا (Massalia)، وهى دولة-مدينة إغريقية مستقلة هى الآن مدينة مرسيليا الفرنسية، وكانت مركزاً تجارياً ناجحاً على شاطئ البحر المتوسط. وأسستها حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. مستعمرون إغريق من فوكايا وهى مدينة إيونية. وشجعت مساليا على نشأة نمط حياة بحر أوسطى على طول الشواطئ الجنوبية لبلاد الغال عبر جبال الألب. غير أن نجاحات مساليا لم تكن واعدة قوة حربية. وعلى الرغم من وضع مساليا المسيطر على التجارة فى البحر المتوسط فإن الدولة - المدينة واجهت مشاكل شتى مع جيرانها من قبائل السلت الليجوريين (Celto-Ligurian).

ويعد أن ساعدت روما مساليا سنة ١٢٥ ق.م. أسست روما قاعدة عسكرية فيما هو اليوم إكس-أن-بروفانس (Aix-en-Provence) بفرنسا. ومن ذلك الموقع التكتيكي كان بمقدور القوات الرومانية أن تسيطر على الإقليم. وبحلول ١٢١ ق.م. كانت قوات قبائل الألوبروجيين (Allobroges) والأرفينيين (Arvenians) المعادية قد سُحقت. وضمّت روما مساحات كبيرة من الأراضى امتدت من جبال البرانس إلى حوض نهر الرون السفلى، ومن وادى الرون إلى بحيرة جنيف. وسمحت روما لمساليا بالاحتفاظ بأراضيها، ولكن مساليا تحولت إلى جيب صغير من النفوذ الإغريقي وسط أراضٍ رومانية شاسعة. وكذلك ساهم طريق "فيا دوميتشيا" (Via Domitia) الذى أُُنشئ سنة ١١٨ ق.م. فى ترسيخ بلاد الغال بوصفها بلاداً رومانية. وربط هذا الطريق الطويل بفعالية بين بلاد الغال وإيطاليا فى الشرق والممتلكات الرومانية فى إسبانيا إلى الغرب. ولما كانت إسبانيا هى الأخرى تسبب مشاكل عديدة للرومان فقد ضمن طريق فيا دوميتشيا تدفقاً منتظماً للقوات الرومانية عبر بلاد الغال.

وساعد النفوذ التجارى لمساليا الذى دام أعواماً طويلاً على عملية رمننة بلاد الغال. ففي الوقت الذى نشدت فيه مساليا العون من جيرانها العدوانيين كانت الدولة- المدينة منغمسة فى علاقات تجارية مكثفة مع العديد من القبائل الغالية. وعثر الأثريون على عدد كبير من أباريق الأمفورا (amphora)، التى كانت تُستخدم لحفظ نبيذ البحر المتوسط، منتشرة على نطاق واسع فى أرجاء بلاد الغال القديمة. ونشرت مساليا جنوبى بلاد الغال التأثير البحر أوسطى بدرجة جعلت يوستينوس (Justinus) المؤرخ الرومانى يعلق قائلاً: "يبدو الأمر وكأنما صارت بلاد الغال جزءاً من بلاد اليونان، بدلاً من أن تكون اليونان قد استعمرت بلاد الغال." غير أن الرمننة كانت تحمل فى طياتها عدداً من المشاكل. وكانت العملية، التى امتصت المستعمرين واستوعبتهم كى تحولهم إلى رعايا مخلصين، بالغة الصعوبة فى بلاد الغال على وجه الخصوص بسبب مواقف كل من الرومان والغاليين. فقد كان الغاليون مستهلكين شرهين للبضائع البحر أوسطية، ولكنهم كانوا متوجسين من العادات الاجتماعية الرومانية وغير معتادين على الأفكار الرومانية المتعلقة بالتطوير الحضرى للمدن. وفى المقابل كان الرومان يرون الغاليين شعباً صاخباً وغير متزنين، ويفضلون العنف على الحوار فى حل منازعاتهم. وإضافة إلى ذلك كان الرومان يؤمنون بأن الغاليين مولعون أكثر مما يجب بمباهج النبيذ.

التأثير

قامت الحروب الغالية بسبب انتقال قبائل الهلپيتى غرباً عبر بلاد الغال. فقد هددت هذه الهجرة الجماعية الاستقرار الواهى فى بلاد الغال. وفى سنة ٦٠ ق.م. تحدث شيشيرون (Cicero) عن السلام فى بلاد الغال قبل تلك الهجرة. وعلى الرغم من أن إدارة المنطقة كانت دائماً مصدر مشاكل للرومان فإن توازناً معقولاً كان يغلف الإقليم. وفى الحقيقة، لم تتبع رغبة قيصر المبدئية فى السيطرة على الإقليم من الحاجة

إلى تحقيق أية أهداف عسكرية مباشرة فى بلاد الغال، وإنما كان قيصر يتوق إلى السيطرة على بلاد الغال لأن ذلك الوضع يتيح له حشد قوات عسكرية كبيرة كان يحتاج إليها كى يحكم سيطرته على مقاليد الأمور فى روما.

ويحلول سنة ٦٠ ق.م. كانت الجمهورية الرومانية العجوز قد تفسخت وصارت الإمبراطورية تحكمها نزوات قواد عسكريين يتعطشون إلى السلطة. وتنافس بومبى وقيصر وكراسوس سعياً وراء السلطة المطلقة. وأطلق المؤرخون على الاتفاق الذى أبرمه الثلاثة فيما بينهم كى يحكموا اسم "الثالوث الأول" (First Triumvirate) ولكن ذلك الاتفاق غير الدستورى للحكم لم يكبح جماح الطموحات السياسية لأعضاء الثلاثى. وسعى قيصر للحصول على ثراء ومكانة عسكرية تكفل له أن يبرز بومبى وكراسوس. ووفرت له هجرات الهلقتى سلسلة من الفرص ليؤكد سمعته باعتباره قائداً عسكرياً كفئاً ونشطاً.

وعلى الرغم من أن كتاب «تعليقات على الحرب الغالية» كان فى مبدئه أداة لقيصر فى العلاقات العامة، فإن العمل له أهميته اليوم بسبب تصويره للحضارتين الغالية والجرمانية. وليس هناك إلا قلة قليلة نادرة من الوثائق التى تتناول بلاد الغال فيما قبل العصر الرومانى. وفى أحسن الأحوال يبدو الغاليون برابرة همج فى روايات الرحالة القدامى. وفى حين كان الرومان يعتبرون كل الأجانب برابرة، إلا أن تقرير قيصر يبين أوجه التشابه والاختلاف بين هؤلاء البرابرة وسكان روما. ويتناول «التعليقات» التركيبة السياسية والاجتماعية لكل من الغاليين والجرمان. غير أن «التعليقات» لا يقلل من شأن حضارة القبائل الغالية والجرمانية. وبدلاً من ذلك، وفى مواضع كثيرة، يثنى قيصر على أولئك البرابرة لتجنبهم الرذائل ونقاط الضعف التى تتسم بها الحضارة الرومانية.

ويقرر قيصر أن الغاليين والرومان يكاونون متطابقين حضارياً فى نواح كثيرة، ويذكر أن التركيبة الهرمية للمجتمع الغالى تتوازى مع مثيلتها فى المجتمع الرومانى. وبالمثل، كان بمقدور قيصر أن يقارن بين الأنوار التى تلعبها

الآلهة الغالية بأشوار مجمع الآلهة الرومانية. غير أنه يؤكد تفوق الديانة الرومانية. وهو يركز في "التعليقات" على نفور الرومان من التضحيات البشرية، مما يشير إلى أن "القبائل الغالية كلها عبيد للخرافات". ويؤكد قيصر ولعهم بالأضحيات البشرية ويذكر تفاصيل عادة الغالين في حشو سلال ضخمة مجدولة بالرجال ثم إشعال النار فيها.

يضاف إلى ذلك أن قيصر يُفرِّق تفرقة واضحة بين الغالين والجرمان، وينوه أن نمط حياة البداوة وعادات الزواج عند القبائل الجرمانية تشكل وسيلة للمحافظة على المساواة الاجتماعية، وأن التركيبة الهرمية الفاسدة والمنعدمة الكفاءة عند الغالين والرومان لا وجود لها عند البرابرة الجرمانين. وفي حين لا يجد قيصر تماثلات كثيرة بين الحضارتين الجرمانية والرومانية فإنه يبدو أنه يؤيد التميز العسكري للقبائل الجرمانية. ويرى قيصر أن الانضباط المتأصل في حضارة عسكرية الطابع تتولد عنها خصائص إيجابية أخرى. فهو ينوه، على سبيل المثال، بحماية الضيوف في الثقافة الجرمانية، ويناقد المدى الذي يحترم فيه الجرمان كرم الضيافة بوصفه أمراً مقدساً.

وعلى الرغم من تعاطف قيصر مع الشعبين الغالي والجرماني، فإن حملته العسكرية أخضعت العديد من القبائل الغالية والجرمانية للحكم الروماني. ولكن وصفه المعقد للغالين والجرمان يشي بالصعوبات التي اكتنفت عملية الرمننة. ومن تبسيط الأمور أن يُختزل الصراع بين الثقافتين الغالية والرومانية إلى صراع ثنائي بسيط بين الرمننة والمقاومة. فأوجه التشابه بين الثقافتين الغالية والرومانية، إضافة إلى حقيقة أن مسالبا كانت تشجع على نمط حياة بحر أوسطى، تشير إلى أنه كان من الطبيعي أن يتم امتصاص الغالين بسهولة في الثقافة الرومانية. غير أن الجيش الروماني، حتى بعد الحروب الغالية، حافظ على وجود قوى له في بلاد الغال. وكانت الجهود الرومانية في بلاد الغال تركز على منع العنف أكثر من تركيزها على فرض القيم والعادات الرومانية.

ونتيجة لذلك، فإن الثقافة التي ظهرت بعد الحروب الغالية كانت هجيناً متفرداً للتأثيرات الغالية والرومانية. وفي الحقيقة، فإن الثقافة الغالية - الرومانية التي نشأت وقتئذ كانت تقاوم تأثيرات الثقافة الرومانية وتمتعها في نفس الوقت.

ولقد كان الرومان بطيئين في تقبلهم للغالين كما يدل عليه التواجد العسكى الرومانى الكثيف فى الإقليم. فبدلاً من أن يستبدلوا المدن الرومانية القوية المركزية بالقرى الغالية عمد الرومان إلى بقاء البناء والتشييد فى حده الأدنى وأبدوا تحفظات قوية تجاه السماح للغالين باكتساب صفة المواطنة الرومانية. وفى الحقيقة فإن التمييز بين تخطيط المدن الغالية والمدن الرومانية يلقى الأضواء على الفوارق الحضارية الأولية التى حجت من عملية الرمننة فى بلاد الغال. ويناقش قيصر المدى الذى أثرت به الطبيعة البدوية الخالصة للقبائل الجرمانية والقرى الريفية الغالية على العمليات العسكرية الرومانية. فبينما كان من الصعب إيقاف الجرمانين المتحركين بصفة دائمة تمكن الرومان من السيطرة على القرى الغالية بسهولة نسبية.

وجعل انعدام وجود التحصينات فى القرى الغالية، جعل منها أهدافاً سهلة للجيش الرومانى. غير أن تلك السمات تكشف أيضاً عن مواقف متباينة تجاه دور المراكز الحضرية ودور الحضارة الحضرية. فالقرى الغالية لم يكن بها تركيز فى الأبنية وهو الشيء الذى كان من السمات الأساسية للمدن الرومانية، وبدا للرومان أن المدن الغالية ليس لها مركز، فكانوا مترددين فى تسمية تلك المساحات مدناً. وحتى بعد انتهاء الحرب الغالية لم يكن لدى الغالين إلا مناطق حضرية قليلة. وكان هناك تباين واضح بين المدن الرومانية وحضارة ما يحيط بها من ريف. وعملت المدن التى أقامها الرومان فى بلاد الغال كبؤر أمامية للحضارة وسط شبكة متناثرة من القرى الغالية الريفية. ونتيجة لذلك انقسمت الحضارة الغالية - الرومانية مكانياً حيث شغل الرومان المدن الرومانية الجديدة بينما بقى الغاليون فى المناطق الريفية.

وخلق هذا التباين المكانى بلاد الغال الرومانية وبلاد الغال الغالية - ومن المفارقة - أن أوجه التشابه بين الغالين والرومان قد تسببت فى تثبيط نشأة سريعة لحضارة

متوازنة بين الغالية والرومانية. وبدا أن تصوير قيصر للغالين في "تعليقات على الحرب الغالية" كان توقعاً منه بالصعاب التي تكتنف الصراع الحضارى الذى يعقب الصراع العسكرى.

دين سوينفورد (Dean Swinford)

لمزيد من القراءة

Caesar, Julius. The Gallic Wars. Trans. By John Warrington. New York: Heritage Press, 1955.

Drinkwater, J.F. Roman Gaul: The Three Provinces, 58 B.C.-A.D. 260. Ithaca: Cornell University Press, 1983.

King, Anthony. Roman Gaul and Germany. San Fransisco: University of California Press, 1990.

Woolf, Greg. Becoming Roman: The Origins of Provincial Civilization in Gaul. Cambridge University Press, 1998.

إليوس جالوس يحاول غزو بلاد العرب - ويصل إلى أقصى حدود السلطان الروماني

نظرة شاملة

في سنة ٢٥ ق.م. أرسل الإمبراطور أغسطس حاكم مصر إليوس جالوس (Aelius Gallus) في حملة عسكرية إلى شبه الجزيرة العربية. وكان هدفه أن ينشر السيطرة الرومانية في كل أنحاء بلاد العرب، وأن يسيطر على الدول الغنية المنتجة للتوابل في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، غير أنه بدلاً من ذلك تورط الرومان في حملة فاشلة تعسفة كلفتهم الكثير من الأرواح والأموال وسمعة الإمبراطورية. وكانت تلك أول مرة تواجه فيها الإمبراطورية بصدق الحدود القصوى لطموحاتها الإمبريالية، وكانت إيذاناً مبكراً بالتراجع الروماني البطيء الذي قُدر له أن يحدث بعد ما يقرب من قرنين.

الخلفية

تأسست روما كجمهورية سنة ٥٠٧ ق.م. وبدأت وجودها بقتال الإترسكيين في سبيل السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية. وفي ٤٩٦ ق.م. اشتبكت روما في معركة مع عدد من جيرانها وكسبتها، وكان من بين أهم أسباب انتصارها استخدام الرومان للتكتيكات العسكرية الإغريقية مثل استخدام الهوبليت (hoplite) ، وهو جندي مشاة نو تسليح ثقيل) وكذلك الفيلق المتكثل. وحفز هجومٌ على روما ذاتها سنة ٣٩٠ ق.م. من جانب السلت أو الغالين من تصميم الرومانيين على تحقيق التفوق

العسكري على كل الأعداء، وفي السنوات التي تلت عمل القناصل الذين حكموا الجمهورية الفتية على ضمان ألا تُهدد أراضيها مرة أخرى.

وفيما بين ٢٤٢ و٢٩٠ ق.م. حاربت روما السامنيتيين (Samnites) لفرض سلطانها على غالبية إيطاليا الجنوبية، وبحلول ٢٧٥ ق.م. كانت قد دحرت المستعمرين الإغريق الذين كانوا يسيطرون على صقلية. وأتاح لهم ذلك أن يتجهوا بأبصارهم عبر البحر المتوسط إلى القوة العظمى الأخرى في المنطقة وهي قرطاجنة، التي هزمتها روما في الحرب البونوية الأولى (٢٦٤-٢٤١ ق.م.). وهذه الحرب الأخيرة انتهت باستيلاء روما لا على صقلية فحسب وإنما على كورسيكا وسردينيا أيضاً، وهي بداية إمبراطورية روما عبر البحار. أما الحرب البونوية الثانية (٢١٨-٢٠١ ق.م.) فعلى الرغم من سلسلة من الاشتباكات البطولية قادها هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق.م.) القائد القرطاجني فإنها انتهت بالقضاء على قوة قرطاجنة، وفي السنوات التي تلت ذلك عملت روما بهمة ونشاط على بناء إمبراطوريتها.

وفي الوقت الذي أضافت فيه روما إلى ممتلكاتها قرطاجنة وأجزاء من إسبانيا وأسيا الصغرى وبلاد اليونان، بدأ الاقتصاد الروماني يزداد اعتماداً على الفتوحات، وكان القدماء بصورة عامة لا يعرفون شيئاً عن أفكار النمو الاقتصادي التراكمي مثل الاستثمار أو نمو الأعمال؛ فكان اقتصادهم قائماً على قاعدة "المجموع صفر" (zero-sum) للنمو بواسطة الامتصاص والاستيلاء^(١) ومع غزو كل بلد جديد عمدت روما ببساطة إلى استغلال ثروات المهزوم - بما في ذلك أفراد الشعب أنفسهم، الذين أقسر الرومان الكثيرين منهم على العبودية.

وسارت تلك الأوضاع بنجاح ما دامت هناك بلاد متاحة للغزو؛ وفي الآن نفسه كان الوقت قد بدأ ينفذ سريعاً بالنسبة إلى نظام الحكم الجمهوري. ونتج عن سلسلة

(١) بمعنى أنه إن تنافس شخصان وكسب واحد منهما فلا بد أن يخسر الآخر مقداراً مماثلاً. (الترجم).

من الحروب الأهلية فوضى سياسية حقيقية، وعندما أسس يوليوس قيصر (١٠٢-٤٤ ق.م.) ومعه بومبي (١٠٦-٤٨ ق.م.) وكراسوس (١١٥-٥٣ ق.م.) حكومة الثلاث الأول (First Triumvirate) سنة ٦٠ ق.م.، ظن الكثيرون أن الجمهورية فى طريقها إلى التعافى. وكان ما تم فى حقيقة الأمر هو أن تكريس الدكتاتورية وانهايار حكم الثلاث الأول أديا إلى نشأة الثلاث الثانى كان على قمته أوكتافيان (٦٣ ق.م. - ١٤ م) ابن أخت قيصر. ولما هزم أوكتافيان مارك أنتونى (٨٢٩-٢٠ ق.م.) حليفه السابق فى معركة أكتيوم سنة ٢١ ق.م. أصبح أوكتافيان حاكماً مطلقاً تحت اسم أغسطس قيصر (Augustus Caesar). ومنذ ذلك التاريخ تحولت روما نظرياً إلى إمبراطورية وهو ما كانت عليه بالفعل منذ زمن طويل.

التأثير

لم يستخدم أغسطس نفسه قط لقب «إمبراطور» وعلى الرغم من القساوة التى استولى بها على الحكم فإنه أثبت أنه حاكم عادل بمجرد توليه الحكم. غير أنه فى الشئون الخارجية كان محكوماً بالأعراف الراسخة - بل رغباته الشخصية - التى فرضت عليه الاستمرار فى سياسة النمو بالتوسع.

فى أول عام من حكمه اتجهت أنظار أغسطس إلى الجنوب، وقام كورنيليوس جالوس (Cornelius Gallus) (ح ٧٠-٢٦ ق.م.) أول حاكم لمصر، بما بدا أنه حملة ناجحة لىبسط نطاق الولاية المصرية حيث تشمل بلاد كوش أو النوبة (السودان الحديث)، ولكن عندما حاول جايوس بترونيوس (Gaius Petronius) أن يعزز تلك المغنم أجبر على التوقف عند الشلال الأول فى نهر النيل. وفى سنة ٢٦ ق.م. حل إلبوس جالوس محل كورنيليوس (الذى ربما يكون أو لا يكون من أقربائه) كحاكم لمصر، وفى أعقاب ذلك مباشرة تلقى أوامر من أغسطس أن يشرع فى حملة على بلاد العرب.

كان الرومان ينظرون إلى بلاد العرب بوصفها مكونة من ثلاثة أجزاء، وانتهى الأمر بأن روما لم تتمكن إلا من غزو بلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) أو بترا (Petra)، وهى المساحة التى تشمل شبه جزيرة سيناء وأجزاء من سواحل البحر الأحمر. وعلى الرغم من أن روما لم تضم بترا إلا سنة ١٠٦ م فإنها كانت بالفعل تحت النفوذ الرومانى، وكان أغسطس يأمل فى استغلال عونها فى السيطرة على بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) أى جنوبى بلاد العرب التى تضمنت اليمن الحديثة وكانت منطقة على شىء من الثراء النسبى. فهى لم تكن تملك ثروة من البخور فحسب، وإنما كانت التوابل تنمو هناك بوفرة حيث إن الممالك العربية الحميرية فى جنوب بلاد العرب كان يُطلق عليها "نول البخور". وما بين بترا وبلاد العرب السعيدة امتدت مناطق مجهولة شاسعة تضمن اندحار أى غازٍ محتمل، وهى بلاد أطلق عليها الرومان اسم بلاد العرب المهجورة (Arabia Deserta) الذى يشى بطبيعتها الشديدة الوعورة.

غير أن إليوس كان لديه من الأسباب التى تجعله مليئاً بالثقة فى مستهل حملته. فقد حصل على تأييد العرب الأنباط فى بترا، والعون من إدارى نبطى يدعى سيلايوس (Syllaeus) الذى قبل أن يكون دليله. وبدأ رحلته من مدينة كليوباتريس (Cleopatra) (مدينة السويس الحديثة) على خليج السويس ومعه حوالى عشرة آلاف جندى رومانى ومصرى، إضافة إلى ٥٠٠ من اليهود و١٠٠٠ نبطى.

وكان أول نذير بالأحوال السيئة التى ستحدث مستقبلاً هو عندما صادفت السفن الرومانية رياحاً غير مواتية وهى تعبر خليج العقبة، لكنهم وصلوا فى النهاية إلى مدينة لوك كوم (Leuke Come أو حوراء (Haura) فى شبه الجزيرة العربية. غير أنه سرعان ما انتشر وباء فى صفوفهم بسبب الطعام الفاسد والمياه، مما أجبرهم على التلكؤ فى لوك كوم طوال الصيف والشتاء. وفى النهاية وفى ربيع ٢٤ ق.م. بدأوا رحلتهم عبر الصحراء مصطحبين معهم قافلة من الجمال تحمل المياه.

وسارت القوة الاستكشافية لمدة ثلاثين يوماً فى أراض تسيطر عليها قبائل أريتا (Areta) حلفاء روما، وأمضت خمسين يوماً آخرين تسير فى صحراء غير مدرجة على خرائط. وفى النهاية وصلوا إلى منطقة نجرانا أو نجران، وهى إقليم أنعشت أرضه الخصبة الأمل فى نفوسهم. بل إن الرومان اقتحموا عدداً من القرى واستولوا على المؤن، ثم تقدموا لحصار مدينة مارسيابا أو مأرب. غير أن تناقص مخزونهم من المياه أجبرهم على فك الحصار، ولكن سيلايوس أصر على أنهم على مبعده مسيرة يومين فقط من «دول البخور» الساحلية المغربية.

وأضى جالوس وقواته ستة أشهر يتجولون فى الصحراء، حتى أدركوا أخيراً أن سيلايوس وغيره من الحلفاء النبطيين لم يكونوا حلفاءً يوثق بهم كما كانوا يظنون. وفى النهاية استدار راجعاً بجيشه ولم يستغرق منهم الوصول إلى ساحل البحر الأحمر إلا ستين يوماً مما يثبت أنهم استُدْرِجوا إلى مطاردة وهمية.

كان الجيش الذى عبر البحر الأحمر إلى ميوس هورموس (Myos Hormos) أو أبو شعر فى مصر أقل عدداً بكثير عما كان عليه عندما غادرها قبل عام. فعلى الرغم من أنهم لم يفقدوا سوى سبعة رجال فى القتال فإن المرض والجوع وشدة الحرارة حصدت أرواحاً كثيرة. كما أنهم لم يكتسبوا أية معارف ذات قيمة عن الإقليم، وكل ما توصلوا إليه هو أن المصالح الرومانية لن تتحقق بحملة أخرى.

وعندما نسترجع أحداث حملة إليوس جالوس، التى كان مصدرها الرئيسى سترابون (ح ٦٤ ق.م - ٢٣م) المؤرخ الرومانى وصديق جالوس، نجد أنها تشكل الفصل الأول فى مسلسل محتشد بأحداث تراجع روماني. وعلى الرغم من أن قوات أغسطس أحكمت سيطرتها على المواقع المهمة على الأطراف الغربية لشمال إفريقيا وكذلك جوديا وأجزاء أخرى من آسيا الغربية، فإنه اتضح منها أن بعض أطراف معينة للإمبراطورية لا يمكن السيطرة عليها بون تكلفة باهظة.

ومن أهم تلك الأطراف المناطق فيما بعد نهر الراين، التى بدا سكانها الشقر ذوو العيون الزرقاء كلهم متشابهين للرومان لدرجة أنهم أطلقوا عليهم كلمة لاتينية معناها

"متشابهة" وهي كلمة "جرمانوس" (germanus) وسوف يلعب الجرمان بالطبع دوراً جوهرياً في سقوط روما النهائي بعد ذلك بعدة قرون، ولكن حتى في زمن أغسطس، وروما في عنفوان قوتها، أنزلت القبائل الجرمانية هزيمة منكرة بالقوات الرومانية في غابة تيوتوبورج (Teutobourg) سنة ٩م.

ونتيجة للهزيمة في تيوتوبورج تخطى أغسطس - ويومها كان قد بدأ يتقدم في السن - عن القيام بمحاولات أخرى للتوسع شمالاً، وحذر ابن زوجته تيبيريوس (Tiberius حكم ١٤ - ٢٧م) من القيام بأية مغامرات عسكرية أخرى. وعلى الرغم من ذلك توسعت الإمبراطورية تحت حكم تيبيريوس حتى وصلت إلى أقصى مدى لها أيام تراجان (Trajan) (حكم ٩٩-١١٧م) سنة ١١٦م. وعند ذلك الحد امتد سلطان روما من حدود اسكتلنده إلى مصب دجلة والفرات، وساد السلام الروماني (pax romana) الذي فرضه أغسطس في غالبية أنحاء العالم. غير أنه حدث بعد ذلك بست سنوات فقط أن هادريان (Hadrian) (حكم ١١٧-١٢٨م) أمر ببناء سور الشهير في شمال بريطانيا. وكان الهدف منه هو إبقاء البكت (Picts) سكان اسكتلنده بعيداً، وهو الهدف الذي فشل السور في تحقيقه، وبقي السور دليلاً حياً على أن الإمبراطورية وصلت إلى أقصى حدودها - وأنها لا محالة سوف تبدأ في الانكماش.

جدسون نايت

لمزيد من القراءة

كتب

Birley, A.R. Roman Papers. New York: Oxford University Press, 1979.

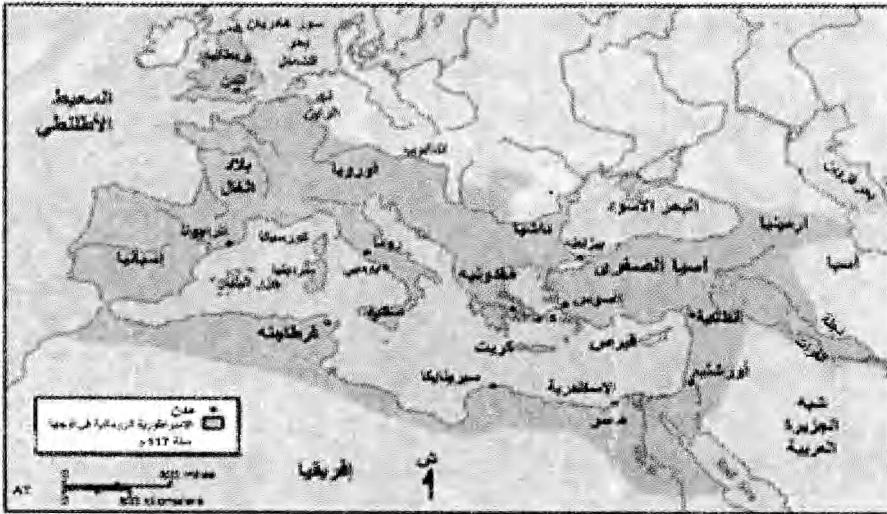
Cary, M. and E.H. Warmington. The Ancient Explorers. London: Methuen, 1929.

مواقع على الإنترنت

"Aelius Gallus' Arabian Expedition Ends in Disaster!" Vox Romana II. <http://pages.ancientsites.com/Donalda-Antonius/VoxRomana2.html>.

"Ancient Accounts of Arabia, 430 B.C.-550 C.E." Ancient History Sourcebook. <http://www.fordham.edu/halsall/ancient/arabia1.htm>.

"A History of Merchant Routes." Sheba Aromatics. <http://www.shebaaromatics.il2.com/historyroutes.htm>.



الامبراطورية الرومانية في ذروة مجدها 117 م

التكنولوجيا والحكومة الرومانية، وانتشار المسيحية المبكرة

نظرة شاملة

نشأت المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة يسوع الناصرى لتصبح واحدة من عقائد العالم الرئيسية. ونشر الرسل من أمثال بولس الرسول من مدينة طرسوس (١٠-٦١م) العقيدة الجديدة فى جميع أنحاء العالم الرومانى. ويعود نجاح هذا المشروع الروحانى إلى عاملين جوهريين. فبحلول سنة ٢٥م كان عدد متزايد من الناس فى داخل الإمبراطورية يبحثون عن بديل لتنظيم الدينى والفلسفية الفاسدة والتى عفى عليها الدهر. وكانت المسيحية تمثل لهم بديلاً عالمياً لذلك الانحراف الرومانى. وكان نجاح هذا النظام الجديد للقيم مبنياً على تفوق التقنية الرومانية التى بنت أعظم نظام للطرق فى العالم القديم. وسمحت هذه الطرق للرسل المسيحيين الأوائل بدخول سهل ميسر إلى قلوب وعقول ما يقارب ٥٥ مليون شخص.

الخلفية

بحلول سنة ٥٠٠ ق.م. كانت روما قد استنتت لنفسها سياسة مدروسة للتوسع. فقد أمنت الطبقة الأرستقراطية بأن السبيل الوحيد للدفاع ضد عدوان خارجى وتوسيع سلطان روما هو تبنى سياسة للتوسع الإمبريالى الاستعمارى. ومن ٤٠٠ ق.م. إلى ٣٦٠ ق.م. اجتاحت الفيالق الرومانية وأمنت كل وسط وجنوب إيطاليا، وبعدها بسبعين سنة أصبح شبه الجزيرة بكامله تحت السيطرة الرومانية. ومهد هذا النجاح لأعظم

التحديات العسكرية الرومانية حتى حينه عندما اشتبكت وهزمت قرطاجنة الدولة -
المدينة الشمال إفريقية فيما صار يُعرف باسم الحروب البونية.

كان التأثير الاقتصادي الرئيسى للحروب البونية هو «تتجير الزراعة» أى استغلالها فى التجارة. فنتيجة لسياسة التوسع الإمبريالى أمضى عديد من مزارعى الطبقة المتوسطة جل أوقاتهم يقاتلون فى الفياق ولم يترك لهم ذلك وقتاً لزراعة أراضيهم الخاصة، مما وضع الأسرَ فى ضوائق مادية عسيرة، وفى النهاية اضطروا إلى بيع أراضيهم إلى ملاك الأراضى الأثرياء. وجمعت تلك الطبقة الجديدة من المزارعين التجاريين ممتلكاتهم الشخصية فى أبعاديات [عزب] ضخمة أطلق عليها اسم "لاتيفونديا" (latifundia) وبدخول أراضٍ جديدة تحت السيطرة الرومانية انتشر ذلك النموذج الزراعى فى الأقاليم المغزوة حديثاً. وترتب على ذلك تخصصٌ فى زراعة المحاصيل ذات العائد المادى المجزى التى صارت تباع فى المناطق الحضرية الدائمة النمو.

وبمرور الوقت ظهرت إلى الوجود إمبراطورية حضرية جديدة اعتمدت على شبكات ناجحة للتجارة لإقامة أودها. ووصل النجاح الرومانى إلى أقصى مراتبه فى سنوات ما بين ٢٠ ق.م. إلى ١٨٠ م، التى يطلق عليها المؤرخون تعبير «السلام الرومانى». وخلال تلك الفترة من الاستقرار غير المسبوق ازدهرت التجارة والصناعة والثقافة ووصلت إلى أعلى ذراها.

ومن بين أهم أسباب ذلك النجاح المهارة العظيمة للمهندسين المدنيين الرومان الذين أنشأوا شبكة من الطرق والجسور ربطت المراكز الحضرية بالمقاطعات تحت الحماية العسكرية الرومانية. وفى البدء أنشئت الطرق بهدف واحد فى الأذهان هو نقل الفياق بأسرع ما يكون للاشتباك مع قوات معادية وإنزال الهزيمة بها. وأنشئ أول طريق سنة ٢١٢ ق.م. كى يساعد على غزو الجزء الجنوبى لشبه الجزيرة الإيطالية. وبحلول فترة "السلام الرومانى" كان بالإمبراطورية شبكة من الطرق تغطى ما يقرب من ٥٥ ألف ميل (٨٨,٥٠٠ كيلومتر). ولكى تحمى وحدات من الفرسان والمشاة شبكة

الطرق التجارية الممتدة كان مطلوباً منها أن تتمكن من الحركة السريعة فى أنحاء الإمبراطورية كى تنتشر السلام. واتخذت النولة هذا القرار المهم مبنياً على إدراك حقيقة أن الإقامة الدائمة للقوات فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية أمر باهظ التكلفة. وفضل العسكريون إنشاء قوات ضاربة صغيرة متحركة من حوالى ١٨٠.٠٠٠ جندى، يمكن تحريكها بسرعة إلى أى موقع لتنفيذ القوانين الرومانية وحمايتها. وفى الحقيقة صارت شبكة الطرق الإمبراطورية نقاط انطلاق لعمليات الجيش العسكرية. فعندما تصل الأنباء بأن تمرداً أو غزواً صار وشيك الحدوث يتم إرسال وحدات من الجيش للاشتباك مع العدو. وكان بمقدور وحدة رومانية أن تقطع حتى ٢٤ ميلاً (٦, ٢٨ كيلومتر) فى خمس ساعات وفقاً لحالة الجو وتضاريس المنطقة. وكان الجنود الرومانيون فى حالة دائمة من اللياقة البدنية تمكنهم من الاشتباك الفورى مع العدو بعد مسيرة طويلة. وسمح هذا المزج المؤثر بين الطرق والتكتيكات الحربية سمح لروما أن تحكم سكاناً بلغ عددهم ٥٥ مليوناً.

التأثير

كان اليهود من بين عديد من مجموعات الأقليات التى تعيش تحت مظلة الحكم الرومانى. وكانوا متفردين بين عقائد الإمبراطورية لأنهم كانوا موحدين أى يؤمنون بإله واحد. ويحلول العقد الرابع من «السلام الرومانى» كان واحد من النشطاء اليهود يدعى يسوع يحقق شهرة عريضة مبنية على دعوة للسلام والحب والخير والإنسانية. وكان الرومان قلقين لسنوات عديدة من التهديد من الأنشطة الثورية للشعب اليهودي. فأصرارهم على عبادة إله واحد كان يصطدم مع القيم الرومانية وترك شراً عميقاً فى العلاقات بين المجتمعين. ولم تكف تعاليم يسوع الناصرى بالتسبب فى إقلاق الرومان فحسب وإنما بدأت بمرور الوقت فى تقويض سلطان السلطات اليهودية. وأدت شكوك المجموعتين إلى محاكمته وإدانته وإعدامه سنة ٣٣ م.

وبعد وفاة يسوع شرع حواريوه فى نشر رسالته بين زملائهم من اليهود أولاً ثم فى النهاية فى جميع أنحاء الإمبراطورية. وكان بولس الرسول الطرسوسى أول رسول عظيم يمارس نشاطه خارج المجتمع اليهودى، وابتدأ نشاطه سنة ٣٥ م. تلقى بولس تعليمه فى الشريعة اليهودية وأمضى السنوات الأولى من عمله يحارب أولئك الذين ينتهكون بنودها. وذات يوم وبينما كان مسافراً إلى دمشق حدث له تجربة هداية غيرت مجرى حياته. فقد خُيل له أن التقى المسيح الذى بُعث وأنه أمره بنشر تعاليم المسيحية بين الأغيار أى غير اليهود. وقام بولس بأربع رحلات مستغلاً شبكة الطرق الرومانية الهائلة كى ينشئ مجتمعات من المسيحيين فى كل أرجاء الإمبراطورية. ونجح فى ربط تلك المجموعات الدينية سوياً ومؤمنين بالدين الجديد بواسطة سلسلة من الخطابات تشكل اليوم جزءاً مهماً من العهد الجديد. ويتفق الباحثون على أن ثلاثة عشر على الأقل من كتب العهد الجديد يمكن أن تُعزى إلى بولس أو أتباعه. ونجح فى إنشاء كنائس مسيحية وهو أمر كان مستحيلاً لولا شبكة الطرق الرومانية الممتازة.

كانت الجاذبية الأولية للمسيحية مبنية على انتشار التحرر الروحانى من الأوهام عند العديد من مواطنى روما. فرسالتها عن الخلاص العام اجتذبت بوجه خاص قطاعاً من المواطنين تم تهميشهم اقتصادياً وسياسياً أثناء توسع الإمبراطورية. وعبرت المسيحية عن البؤس الاجتماعى للعبيد وأحزان المزارعين الذين طُردوا من أراضيهم والعاطلين عن العمل فى المدن. وانجذب كثير من مثقفى روما إلى الرسالة لأنها سدت فراغاً روحياً لم يعد فى الإمكان ملؤه بالقيم والمعتقدات الرومانية التقليدية التى حطت من قدرها قرون من الفساد.

كما استفاد انتشار الدين المسيحى أيضاً من الاستقرار الذى حققه السلام الرومانى. وهذا الاستقرار ذاته الذى حمى الإمبراطورية من الغزو والثورات ضمن ترحالاً أمنياً للرسول المسيحيين الأوائل، مما ساعد على سرعة انتشار ذلك النظام الجديد للقيم. وأصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة عندما اعتنقها الإمبراطور

قسطنطين (حكم ٣٠٦-٣٣٧) وجعل منها عقيدته الشخصية. ومنذ ذلك الوقت صار الرسل المسيحيون يتجولون في الإمبراطورية تحت حماية الإمبراطور.

وتحقق أكبر نجاح في نشر العقيدة بين صفوف الشعوب الجرمانية في شمال أوروبا. وكان ذلك حقاً نقطة تحول مهمة في تاريخ الكنيسة. وبعد اعتناق قسطنطين للمسيحية أصبح من الضروري أن يكون للدين الجديد تاريخ زمني مسجل. وأيضاً كان القرار باعتبار ٢٥ ديسمبر يوم مولد يسوع محاولة لترسيخ أرضية روحية مشتركة مع القبائل الجرمانية الحديثة الدخول في زمرة الدين. فالديانات الوثنية لتلك القبائل كانت مبنية على أهمية تغيرات الفصول. وكان الانقلاب الشتوى بوجه خاص ذا أهمية كبيرة لأنه كان موعد الاحتفال بإعادة بعث الطبيعة، وبعده يبدأ النهار في الاستطالة ويتدفق دفاء الشمس بادتاً بعثاً جديداً للطبيعة. وتبنت الكنيسة المسيحية المبكرة هذه المفاهيم عن إعادة البعث والتجدد كى يرمز إلى ميلاد يسوع. وينطبق هذا أيضاً على تحديد موعد أهم احتفال في المسيحية وهو القيامة. فيحدد موعد عيد الفصح وفقاً للانقلاب الربيعي، وأحد عيد الفصح، وهو ذروة الاحتفالات بإعادة البعث، يُحدّد دائماً بأول يوم أحد بعد أول يوم اكتمال اللبدر بعد الاعتدال الربيعي. وتعكس رموز عيد الفصح، الأرانب والبيض، أهمية الخصوبة والبعث في العقائد الجرمانية المبنية على الطبيعة.

وترتبط أيضاً نشاطات القديس باتريك (٤٥٧-٤٩٢) في أوساط الإيرلنديين بالتقنيات والحضارة الرومانية. فعندما توغل الرسل المسيحيون في الجزر البريطانية في القرن الرابع الميلادي اختطف باتريك وهو صبي يافع في واحدة من الإغارات العديدة التي أفرزها ذلك التوسع. وأعيد إلى إيرلندا حيث صار عبداً، وأخيراً تمكن من الهرب وانخرط في سلك الرهبنة وعاد ليعمل مع الشعب الذي كان يستعبده يوماً من الأيام. وتمثل قصته خروجاً مهماً على التراث الثقافى للإمبراطورية. فقد ابتعد لاهوت باتريك عن تعاليم الآباء المبكرين للكنيسة المبنية على التشريعات المحملة بالذنوب. وركز على السعادة والحبور اللذين وجدتهما فى خلق الرب وجعل تعاليمه تعاليماً احتفالية.

كما ابتعد باتريك أيضاً عن النظرة الرومانية للمرأة، التي أنزلتها إلى مرتبة مواطن من الدرجة الثانية. وأبدى إعجابه بقوة وشجاعة النساء الإيرلنديات وأعلى من مرتبتهم داخل الكنيسة.

ومن تلك الارتباطات المبكرة بالحضارة والتقنيات الرومانية انطلقت العقيدة والقيم المسيحية وانتشرت في النهاية في كل أرجاء العالم. وكان انتشار المسيحية المبكرة مثلاً مهماً للرابطة التي تربط بين التقنيات والحكومات والمجتمع.

ريتشارد د. فيتزجيرالد (Richard D. Fitzgerald)

لمزيد من القراءة

Ayers, Robert. *Judaism and Christianity: Developments and Recent Trends*. Lanham, MD: University Press of America, 1983.

Markus, R.A. *Christianity in the Roman World*. New York: Charles Scribner Sons, 1974.

White, K.D. *Greek and Roman Technology*. Ithaca: Cornell University Press, 1984.



أدخل القديس بولس الكثير من الأغيار (غير اليهود) إلى المسيحية في العالم الروماني



الفن المسيحي المبكر في أبروشية إيطالية

لينديسفارن وإيونا: الحفاظ على الحضارة الغربية في عصور الظلام

نظرة شاملة

عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام البرابرة سنة ٤٧٦ م، بدأت في الاختفاء كثير من المعارف الغربية المتراكمة. وضاعت اللغائف والمخطوطات بعد أن هُجرت الأديرة والمكتبات التي كانت تحتفظ بها. وما تبقى من وثائق تناقصت أهميتها لدى شعوب تجهل قيمتها. وبينما دلفت أوروبا إلى عصور الظلام لم يبق إلا عدد قليل من الناس، غالبيتهم من الرهبان المسيحيين، على دراية باللغة اللاتينية لغة المعرفة والتعلم. ومع ذلك الانحطاط بدأت الثقافة الرومانية المتراكمة تزوي؛ واختفت أو كادت الأعمال الإغريقية القديمة المترجمة.

ورغم انحسار المعرفة عن بلاد اليونان وروما، فإن إسهاماتها الملموسة في الثقافة الغربية ظلت قائمة في عصور الظلام. فقد تمكنت الكنيسة الرومانية لا من البقاء على قيد الحياة بعد سقوط الإمبراطورية فحسب ولكنها نجحت في أن تزدهر وتتبعش أحوالها في غيبة الإمبراطورية، فكانت ترسل الرسل إلى أقصى الأطراف الجغرافية لأوروبا. وسافر بعض أولئك الرجال إلى الجزر البريطانية ينشُدون تحويل القبائل الهمجية إلى المسيحية (وهي الشعوب التي لم تكن من المواطنين السابقين للإمبراطورية الرومانية). ولما وصلوا إلى شمالي أوروبا أنشأوا الأديرة وعلموا الأجيال المستقبلية من القساوسة، وترجموا النصوص الدينية وبعضاً من النصوص الدنيوية غير الكنسية. وتُعرف أديرة مثل لينديسفارن وإيونا، وكتاهما تقع في الجزر الشمالية البريطانية، باسم «مهد المسيحية» بسبب إسهاماتها في لاهوت العصور

الوسطى وتشجيعها لسلك الرهبنة وتفانيها فى تعليم اللغة اللاتينية وترجمتها للعديد من النصوص.

الخلفية

أسفر انهيار الإمبراطورية الرومانية عن حالة هائلة من عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى أوربا. وكانت الإمبراطورية قد بنت وأدارت شبكة من الطرق وأمنت أساطيل من السفن التجارية ووضعت قواعد للتعامل النقدى سهل التجارة. ويسر انتشار اللاتينية بين طبقات الصفوة العليا فى الإمبراطورية من سبل الاتصال كما جعل القوانين أكثر اتساقاً. وقبل الانهيار لم يكتف الفنانون والفلاسفة والباحثين بترجمة الأعمال الشهيرة للحضارة الإغريقية إلى اللاتينية، فحسب وإنما أسهموا إسهامات جوهرية فى تلك المجالات نفسها. فقد أفرزت الحضارة الرومانية تقدماً تكنولوجياً عظيماً وتخطيطاً عمرانياً بارعاً. غير أنه دون وجود بنية إدارية ما كانت لتقوم قائمة لغالبية تلك المنجزات. وطوال الثلاثمئة سنة التالية وقعت أوربا تحت وطأة عصور الظلام، وهى حقبة اكتسبت ذلك الاسم عندما نُسيت إلى حد كبير منجزات الإمبراطورية الرومانية فى المجالات العلمية والتكنولوجية والفلسفية.

غير أن مؤسسة واحدة تمكنت من البقاء على قيد الحياة بعد سقوط روما. فقد استمرت الكنيسة الرومانية تنتشر المسيحية داخل حدود الإمبراطورية السابقة. ويزوال الحكم الرومانى تحولت قوانين الكنيسة وأنظمتها الإدارية إلى قوة سياسية مهيمنة فى أوربا الغربية. غير أنه حدث أثناء القرون الأولى لعصور الظلام أن وقعت مكتبات الكنائس وأماكن النُسَاح (وهى أماكن كانت المخطوطات تُكتب فيها وتُنسخ باليد) تحت تهديدات البرابرة الغزاة. وفر كثير من الرهبان إلى أديرة أكبر أو إلى أطراف أوربا وأسيا الصغرى، وكثيراً ما كانوا يحملون معهم النصوص اللاتينية. وبذلك تبعثرت مجموعة المعارف الرومانية.

الجزر البريطانية

وعلى الرغم من أن يوليوس قيصر غزا بريطانيا حوالى سنة ٥٤ ق.م. فإنه لم يحدث إلا سنة ٤٢م أن الجيش الرومانى غزا بريطانيا فعلياً. وبعد ذلك بأربعة قرون كان التواجد الرومانى فى ألبيون (Albion)، وهو الاسم الذى كانت تعرف به بريطانيا، قد تلاشى تقريباً، وبدأت تجتاح الجزيرة القبائل الجرمانية التى صارت تُعرف باسم الأنجلوساكسون، وحفقت القرون التالية بالصراعات. وفى حين أدخل الرومان الديانة المسيحية فى المنطقة أشعل الغزو الجرمانى موجة من التخلّى عن الدين الجديد. ولهذا أصبحت الجزر هدفاً لإرساليات الكنيسة التالية كى تسترد أتباعها السابقين. وكان القديس (سانت) أوجستين أشهر هؤلاء المبوعوثين، على الأقل لفترة وجيزة، وهو الذى نجح فى تحويل مملكة كنت إلى المسيحية سنة ٥٩٧.

وسافر رسل آخرون خارج حدود بريطانيا الرومانية. فأنشأ القديس (سانت) كولومبا ديراً فى إيونا، وهى جزيرة قبالة سواحل إسكتلنده، سنة ٥٦٣، ومن هناك قام بحملته لتنصير إسكتلنده. وأسس رسل آخرون أديرة خاصة بهم وكل منها يطل على الإقليم المتاخم له.

مات كولومبا سنة ٥٩٧، ولكن خلفاءه استمروا فى عملهم فى الجزر البريطانية. وفى سنة ٦٣٥، أسس راهب إسكتلندى من السلتي هو سانت أيدان (Saint Aidan) موقعاً أمامياً صغيراً فى لينديسفارن (Lindisfarne)، وهى جزيرة قبالة سواحل شمال إنجلترا فى بحر الشمال. وكانت للينديسفارن مزية استراتيجية هى أنها جزيرة ولكنها كانت تتصل بالأراضى الإنجليزية بممر طبيعى عند انخفاض المد، وبهذا سمحت بالاتصال السهل مع نورثمبريا المتاخمة. وبحلول سنة ٦٣٧، وسّع سانت أيدان من مجرد موقع أمامى صغير وجعل منه كنيسة وديراً، وبذلك أصبحت لينديسفارن، مثل إيونا، المركز الدينى الرئيسى فى المنطقة وترسل الرسائل إلى المناطق الداخلية البريطانية. وكذلك أصبحت واحدة من أهم المراكز اللاهوتية وإنتاج المخطوطات فى عصور الظلام.

وفى سنة ٦٨٥، ترك سانت كيثبرت (Saint Cuthbert) منصبه كأسقف هكسام وأصبح أسقف لينديسفارن. وذاعت شهرة الجزيرة وديرها من خلال شهرته بوصفه معالجاً وصانع معجزات. ولما مات كُرم بوصفه قديساً وأصبح قبره فى لينديسفارن مزاراً للحجاج ومكاناً شهيراً للمعجزات. ولعل تلك الفترة كانت «العصر الذهبى» للدير، سواء فى الرخاء أو النفوذ.

وحدثت أول إغارة كبيرة للفايكنج على الجزر البريطانية فى لينديسفارن فى القرن التاسع. وفى سنة ٨٧٥، وبعد عقود من غارات الفايكنج المتكررة انتقل الدير ومعه رفات سانت كيثبرت، التى لم تتحلل مطلقاً بطريقة إعجازية، إلى ديرهام فى الأراضى البريطانية. وبحلول سنة ١٠٨٢، كان الدير الذى أعيد توطينه فى حال من الازدهار تضارع أحواله عندما كان فى لينديسفارن. وصارت ديرهام واحدة من أهم الكاتدرائيات والإبرشيات فى العصور الوسطى، وكانت تهيمن على الثلث الشمالى لإنجلترا.

التأثير

كان لتحول الجزر البريطانية إلى المسيحية معانٍ ضمنية أيضاً. فقد احتاج إنشاء كنائس جديدة وأديرة إلى رهبان مدربين لاهوتياً وإلى نسخ من الكتب المقدسة. ويضاف إلى ذلك أن رجال الدين كان مطلوباً منهم أن يجيدوا اللغة اللاتينية. وأصبح دير لينديسفارن معقلاً لإجادة القراءة والكتابة والدراسات الثقافية فى حقبة كان فيها الإلمام بالقراءة والكتابة أمراً بالغ الندرة. ولم يكن رجال لينديسفارن مدربين فقط على القراءة بل كانوا يجيدون الكتابة أيضاً حتى يتمكنوا من نسخ النصوص الدينية. وكثيراً ما كان راهب يمضى عدة سنوات كى ينسخ نسخته الشخصية من الكتاب المقدس (عادة ما كانت تقتصر على الأناجيل والمزامير والأمثال وقلة قليلة من الكتب الشهيرة الأخرى) قبل أن يرسل ليتراأس إبرشية خاصة به أو يقوم بأعمال تبشيرية.

ورفع هذا النمط من التعليم الديرى من شأن اللاتينية بوصفها اللغة الأولى سواء للكنيسة أو للمتعلمين الأوربيين فى العصور الوسطى.

وأكثر ما يثير الإعجاب من أعمال الدير التى بقيت هو إنجيل لينديسفارن، وهو مخطوط مزخرف (ذو صور مزخرفة) ويشمل الأناجيل الأربعة الأولى من العهد الجديد كما يشمل أيضاً كتباً لسانت جيروم وإيزيبيوس النيقوميدي وغيرها من النصوص. وفى أغلب الظن كُتِبَ إنجيل لينديسفارن خصيصاً لأسقف الجزيرة إيدفريث (Eadfrith) فى أخريات القرن السابع أو أوائل القرن الثامن. (وهناك عمل آخر بقى هو كتاب كِلز (Kells) الذى يحوى أيضاً الأناجيل الأربعة ربما انتهى العمل فيه فى إيونا حوالى نفس الوقت). ومخطوط لينديسفارن المكتوب باللاتينية له أهميته التاريخية فى حد ذاته، ولكن حدث فى القرن التاسع بعد فرار الرهبان إلى ديرهام المجاورة أن الأناجيل روجعت. ويبدو أن شخصاً ما ترجم اللاتينية بين السطور إلى لهجة ساكسونية محلية فى نورثمبوريا، مما جعله واحداً من أوائل الأناجيل التى تُرجمت إلى لغة محلية أثناء العصور الوسطى.

وبعد الانتهاء من تدريب الرسل فى إيونا ولينديسفارن ثم إرسالهم إلى مهامهم أنشأوا سلسلة من الإبرشيات والكنائس والأديرة التى كثيراً ما كانت تقام بالقرب من القرى، وبذلك تدمج إدارة الكنيسة مع المجتمع المحلى. والأهم من ذلك أنه بعد تحول الحكام المختلفين للممالك البريطانية إلى المسيحية كانوا ينضمون إلى الكنيسة ويناصرونها؛ وقد دُفِنَ بعض من ملوك إسكتلنده وإيرلندا الأوائل فى دير إيونا.

واحتاج العدد المتزايد من الأديرة والكنائس إلى وسائل فعالة للسيطرة على الإبرشيات وروادها. ومكن استخدام اللغة اللاتينية رؤساء الكنيسة من الاتصال فيما بينهم متغلبين على العوائق العرقية والحدود الإقليمية، وسمح كذلك بفهم أكثر توحداً للعقيدة والقانون. وأصبح أسقف روما، أو البابا، كبير المديرين السياسيين للكنيسة وزعيمها الروحى.

غير أن لينديسفارن وإيونا كان لهما تاريخ من العلاقات المتوترة مع هيئة كهنة الكنيسة. وفي حوالي سنة ٧٠٠، كيّف الديران من أفكارهما الدينية حيث تصبح المسيحية أكثر جاذبية للسكان المحليين فقد أدمجوا الاحتفالات المحلية والتقاليد والأفكار الصوفية عن الطبيعة والتي لم تكن تدعمها كنيسة روما. واشتد التوتر بدرجة أن إيونا فيما بعد أعلنت نفسها مركزاً للكنيسة السلتيّة بدلاً عن كونها تابعة لروما. وتصالحت الاثنان في العصور الوسطى، لكن الخلافات استمرت. وفي الحق فإن الكنيسة المشيخية الاسكتلندية، وهي طائفة بروتستنتية تأسست في القرن السابع، تزعم أن إيونا هي سلفها العقائدي.

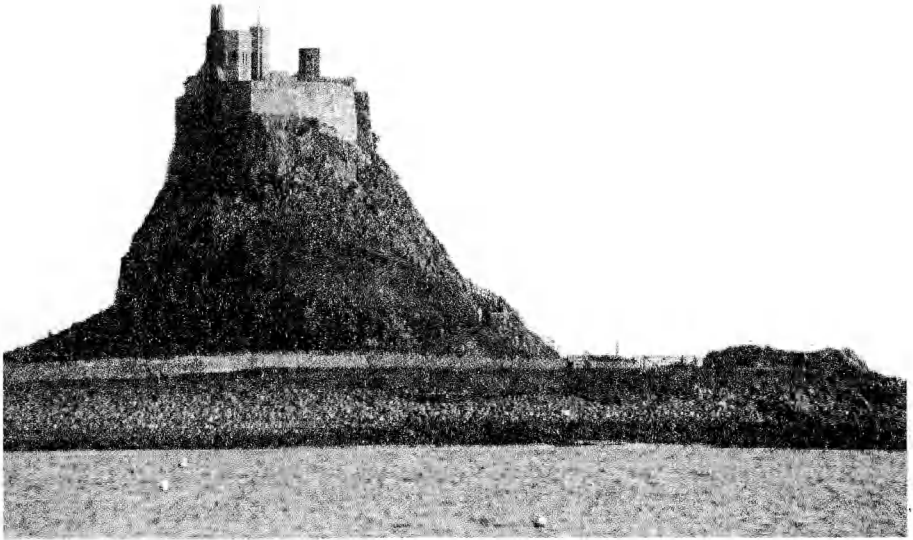
ساهمت إيونا ولينديسفارن في الحفاظ على اللغة اللاتينية وانتشار التعليم ونشر المسيحية في أنحاء شمال إنجلترا. وكتاهما في الأغلب نسخاً كثيرة من الإنجيل وغيره من المخطوطات اللاهوتية، وربما ترجمت أعمالاً غير كنسية أيضاً. وفي سنة ١٩٩٧، عثر الأثريون في لينديسفارن على ما يُعتقد أنه بقايا حجرة السُباح، مما أسبغ على الدير دوراً جديداً في المحافظة على الحضارة الغربية أثناء عصور الظلام.

أدريين ويلموث ليرنر (Adrienne Wilmoth Lerner)

لمزيد من القراءة

Bonner, Gerald, David Rollson, and Clare Stancliffe. *St. Cuthbert, His Cuit and His Community to A.D. 1200*. Woodbridge, Suffolk, U.K.: Boydell Press; Wolfboro, NH: Boydell & Brewer, 1995.

Alexander, Jonathan J.G. *Medieval Illuminators and Their Methods of Work*. New Haven, CT: Yale University Press, 1994.



جزيرة ليندسفارن قبالة سواحل نورثمبرلاند بإنجلترا

سانت برندان ورحلته الملحمية

نظرة شاملة

فى بعض الأحيان يُعزى إلى الراهب السلتي سانت برندان (Saint Brendan) الفضل فى أنه أول أوربى يصل إلى العالم الجديد. فإن كانت وقائع رحلته إلى أمريكا الشمالية دقيقة فإنه بذلك يكون قد سبق اكتشاف ليف إريكسون (Leif Erikson) إلى أرض الكروم (Vinland) بأربعمئة سنة ورحلات كريستوفر كولومبوس إلى بحر الكاريبى بما يقرب من ألف عام.

ونحن لا نعلم إلا أقل القليل عن حياة برندان من الناحية التاريخية. وتبدأ النصوص فى الإشارة إليه فى القرن السابع. وتدل الأدلة التى وردت بتلك النصوص على أنه ولد حوالى سنة ٤٨٩م، فى مقاطعة كيرى (Kerry) بجنوب غربى إيرلندا. وكان تلميذاً لإيرك (Erc) أسقف كيرى. وعمد بواسطة إيرك فى تيرييد (Turbid) بالقرب من أردفرت (Ardfert) وتلقى تعليمه على يد سانت إيدا (Saint Ida) لمدة خمس سنوات. ثم أكمل دراساته على يد الأسقف إيرك، الذى رسّمه كاهناً سنة ٥١٢، وبعد أن عُين رئيس دير بدأ فى ممارسة الكهنوت فى إيرلندا، وأنشأ العديد من الأديرة والكنائس فى أنحاء ذلك البلد. وأطلق اسمه على العديد من التضاريس الطبوغرافية فى إيرلندا بل فى انجلترا أيضاً. وفيما بين ٥١٢ و٥٢٠، أنشأ برندان صوامع للرهبان فى أردفرت وشاناكيل (Shanakeel) وأصبحت شاناكيل، التى تقع عند سفح تل براندون، النقطة التى انطلق منها برندان فى رحلته إلى الأرض الموعودة. ويُعزى إلى برندان، وكان من نوى النفوذ فى سلك الكهنوت، فضل القيام برحلات حج بعيدة المدى إلى

بريطانيا وبريتاني وجزر أوركنى وشتلاندا. حقيقة يبدو أن برندان اكتسب شهرة عريضة كرحالة من قبل أن يقوم برحلته الملحمة. كما أنه أنشأ دير لانكارفان فى ويلز، وكذلك الدير الشهير على الجزيرة النائية إيونا قبالة الشواطئ الشمال غربية لإسكتلندا.

الخلفية

هناك مصدران رئيسيان يحكيان عن المغامرات البحرية الأسطورية لبرندان. أولهما هو "حياة سانت برندان" (Vita sancti Brendani) الذى كُتب فى إيرلندا فى القرن التاسع. وهذه الوثيقة تسير وفقاً للنمط التقليدى للكتابة عن حيوات القديسين فى مطالع العصور الوسطى، وكُتبت باللاتينية. وهى تسرد معلومات مهمة عن سيرة حياته وتشير إلى أن برندان قام برحلتين. وحسب ما جاء بها فإن أول رحلة استغرقت خمس سنوات وكانت محاولة لم تكلل بالنجاح للعثور على جزيرة مقدسة ظهرت لبرندان فى الحلم. أما الرحلة الثانية فكانت ناجحة واستغرقت منه سنتين. غير أن ذلك المصدر لم يركز كثيراً على رحلات برندان بل يصورها وكأنها أحداث قليلة الأهمية فى حياة رجل دين قوى وذى أهمية.

أما المصدر الثانى "رحلات برندان البحرية" (Navigatio Brendani) فقد تكرر بكامله لرحلة مدتها سبع سنوات. ويؤكد الباحثون أن هذا المصدر أيضاً قد كتبه كاتب إيرلندى، وكان موجوداً فى بدايات القرن العاشر. ولا يدخل 'رحلات برندان البحرية' فى تفاصيل سيرة حياة برندان. وفى الحقيقة فإنه يفترض فى قارئه معرفة مسبقة بحياة برندان وأسطورته كما وردت فى 'حياة سانت برندان'. ومن هذا المنطلق تختلف تركيبته اختلافاً واضحاً عن الكتاب الأخير. وتبدو صياغة «رحلات برندان البحرية» عظيمة الشبه مع 'حكايات الرحلات' الإيرلندية (Irish Immram) التى تحكى تفاصيل سلسلة من المغامرات غير المترابطة ولا تربطها سوى رحلة بحرية قام بها مغامر بطل، وشكلها العام يشابه ملحمة هوميروس الأوديسة.

التأثير

لم تكن الأحوال الاجتماعية فى بواكير العصور الوسطى متحمسة بصورة خاصة للرحلات الاستكشافية. غير أنه، فى واحدة على الأقل من النقاط البعيدة للحضارة الأوربية، سمح الحماس الدينى والتبشيرى باستكشافات ضخمة. وتكونت عند الإيرلنديين، الذين تحولوا إلى المسيحية فى غضون القرنين الرابع والخامس، حضارة ديرية مركبة. فقد تناثرت أديرة كثيرة عبر الجزيرة حيث عاش الأتقياء نمط حياة تتسم بالزهد بعيداً عن مغريات الحياة الدنيوية. وكرس رجال الدين الإيرلنديون أنفسهم لترجمة ونسخ النصوص ولرحلات الحج والتبشير. كما كان رجال الدين هؤلاء يرتطون أيضاً إلى الجزر العديدة التى يتعذر الوصول إليها والمتناثرة حول الجزر البريطانية كى ينشئوا أديرة منعزلة أو صوامع للتعبد (مبان صغيرة للتعبد).

وحقق رجال الدين هؤلاء منجزات بحرية جسورة على طول شواطئ صخرية شديدة الوعورة مستخدمين قوارب صغيرة تعرف باسم «كوراج» (currachs) ويبلغ طول تلك القوارب حوالى ثلاثين قدماً (تسعة أمتار) وهى مصنوعة من هيكل خشبى مغطى بجلود حيوانات مخاطة سوياً حيث تشكل غطاءً متكاملًا. وكانت قادرة على الانتشاء مع مياه المحيط، مثلها فى ذلك مثل القوارب الطويلة للفايكنج، وبذلك كانت قادرة على الإبحار السريع.

سافر رهبان بواكير العصور الوسطى كثيراً على متن تلك القوارب. وتأسس دير إيونا الشهير، الذى يقع على جزيرة منعزلة قبالة الشاطئ الشمالى الغربى لإسكتلنده، تأسس سنة ٥٦٣، بواسطة مجموعة من الرهبان بقيادة برندان، الذين أبحروا من إيرلندا فى زورق كوراج. واستخدم الرهبان تلك القوارب التى تبدو غير ثابتة ليقوموا برحلات حج فى جميع أنحاء الجزر البريطانية. وبنهاية القرن التاسع كانت مجموعة من الرهبان الإيرلنديين قد وصلت إلى فرنسا وإيسلاندا.

وفيما بين القرنين التاسع والثاني عشر كان الإسكندنافيون يملكون أقوى قوة بحرية في أوروبا. وفي أوقات مختلفة انتشرت إمبراطورية الفايكنج حتى وصلت صقلية جنوباً وروسيا في الشرق، وجرينلاند وأرض الكروم الغامضة في الغرب. وأنشأ الفايكنج قاعدة لهم في جرينلاند في القرن العاشر، وشرعوا في استكشاف طموح لأبعد مناطق غرب الأطلنطي. غير أن وثائق مثل رحلات برندان البحرية تدل على أن الإسكندنافيين لم يكونوا أول من قهر العواصف الكئيبة لشمال الأطلنطي.

فعندما وصل الفايكنج إلى إيسلند سنة ٨٧٠، صادفوا مجتمعاً من الرهبان الإيرلنديين، أطلقوا عليهم اسم "بابار" (papars) وهي كلمة نوردية معناها «آباء»، وهي تدل دلالة مباشرة على استعمار الجزيرة برهبان إيرلنديين. وفي الحقيقة فإن أسماء عديدة لأماكن على طول الساحل الجنوبي الشرقي لإيسلند لا تزال تحمل كلمة بابار في مكوناتها. ويصف كتاب «لاندنامابوك» (Landnamabok) أي «كتاب المستوطنات»، وهو نص إيسلندي من القرن الثاني عشر، يصف نتائج تلك اللقاءات المبكرة بين رهبان إيرلنديين منعزلين ورجال الشمال النورديين. وفي أعقاب وصول النورديين مباشرة انزعج الإيرلنديون من احتمالات مشاركة أراضيهم مع كفار ففروا في قواربهم تاركين خلفهم كتباً وأجراساً وصولجاناتهم (وهي عصي يحملها الأساقفة كرموز لمناصبهم).

كما تدل أعمال ديكيول (Dicuil)، وهو راهب كان يكتب في القرن التاسع أثناء عهد شارلمان، على إمكانية سفر رهبان العصور الوسطى بين إيرلندة وإيسلندة. ويشير ديكيول إلى أن الرهبان الإيرلنديين كانوا يسافرون بانتظام إلى جزيرة في أقصى الشمال لم تكن الشمس تغيب عنها في فصل الصيف. ولعل هذه المعلومة تشير إلى جزيرة مثل إيسلندة تقع أقصى خطوط العرض الشمالية.

ونحن نعلم أن الرهبان الإيرلنديين كانوا يسافرون مسافات كبيرة في قواربهم الكوراج. ولكن هل عبروا الأطلنطي؟ ويشير كتاب «رحلات برندان البحرية» أن الرهبان كانوا على دراية بوجود أراض بعيدة، وكانت رغباتهم في الابتعاد أقصى ما

يستطيعون عن المغريات الدنيوية دافعاً قوياً لهم على القيام برحلات عبر الأطلنطي. وفي الحقيقة فإنه في الوقت الذي يشير فيه كتاب «حياة سانت برندان» إلى أن رحلة برندان كانت بسبب رؤيا غامضة فإن «رحلات برندان البحرية» يعطى دافعاً مختلفاً للرحلة. ففي «الرحلات» يسمع برندان عن جنة أرضية عثر عليها الناسك بارينتوس (Barintus) في رحلة بحرية قام بها للبحث عن ميرنوك ابنه في العماد. ويقرر النص أن ميرنوك كان يعيش مع رهبان آخرين في تلك الجنة الأرضية البعيدة.

وتتباين التفاسير في مدى دقة «رحلات برندان البحرية» تبايناً كبيراً. فالبعض يرى فيها مجرد نسخة مسيحية لكتاب «حكايات الرحلات» الإيرلندية (Irish Immram)، وهو حكاية إيرلندية عن رحلة خيالية في المحيط. وثمة نقاط تطابق عديدة بين النص اللاتيني لرحلات برندان مع النص السلتي "رحلة ميل دوين" (Voyage of Mael Duin) وهو نص مكتوب باللغة الغالية. وعلى الرغم من أن الطابع المسيحي لرحلات برندان قد تحول إلى سمات دنيوية في «رحلة ميل دوين» إلا الجزيرة الموصوفة تكاد تتطابق في النصين تطابقاً تاماً.

ويتضمن رحلات برندان البحرية مزيجاً شاداً من تفاصيل واقعية وخيالية تتعلق بالعالم الطبيعي. وبخلاف الوثائق المعاصرة التي تسجل تفاصيل حيات القديسين، فإنه لا «الرحلات» ولا «الحياة» تنسبان أية معجزات لبرندان. وبدلاً من ذلك يُصوّر برندان كزعيم داهية ومغامر ماهر. وفي هذا المجال يتشابه برندان مع أوديسيوس. فهو لا يخاف مطلقاً في مواجهة الأخطار، وهو على يقين من أن الرب سيقود سفينته بنجاح إلى وجهتها.

ومن ناحية أخرى، من الواضح أن «الرحلات» نص رمزي مجازي. فكثير من الشخصيات باهتة وتظهر بغرض واحد معين. فمثلاً يسمع برندان لثلاث شخصيات تظهر متأخرة في سياق القصة بمرافقته في الرحلة مع فريقه من الرهبان، ثم تموت كلها بسبب ارتكابهم للخطيئة. وبالمثل نجد أن مغامرات الرهبان كلها تتفق في أهدافها الدينية والعقائدية. وكل مغامرة تعمل كمثال يؤكد تزايد ثقة الطاقم في الرب. ويزور الطاقم ثلاثة أماكن ثلاث مرات: جزيرة الغنم وجزيرة

الطيور وياسكونيوس أضخم سمكة فى المحيط. وفى بادئ الأمر يندهش الرهبان من أسراب الطيور المتكلمة، ثم يندعرون عندما يدركون أن الجزيرة التى حطوا عليها هى حوت فى حقيقة أمرها. غير أنهم عندما يكرون هذه الدورة يزدادون ثقة فى خطة الرب التى توجه الحالة المزاجية لبرندان، فهم يمرون خلال الجحيم ويشاهدون عقاب يهوذا. ويتأس برندان الشياطين الذين ينزلون العقاب ييهوداً مؤكداً القوة الحقيقية للاستقامة والدوافع الأخلاقية. ويعكس التأكيد المفرط فى مسيحيته على تلك الأخلاقيات وغيرها من الأفكار الرئيسية صدق أفكار مماثلة فى «حكايات الرحلات» السلتنية وكذلك فى الأعمال الكلاسيكية اللاتينية التى كان رهبان العصور الوسطى مطلعين عليها.

غير أن رحلة حديثة تلقى الضوء على مدى الدقة الواقعية لروايات رحلات برندان. فى ١٩٧٦، أعاد تيم سفيرين (Tim Severin) وطاقمه تمثيل رحلة برندان. ويشير نجاحهم إلى أن رحلة برندان، التى من المحتمل أنها كانت من إيرلنده إلى نيوفونلاند، كانت ممكنة الحدوث. فقد صنع سفيرين قارباً من الجلود مستخدماً تقنيات ورد ذكرها فى «الرحلات». وكان مساره على طول طريق "صخرة الخطوات" فى شمال الأطلنطى. وهو طريق لا تزال السفن الحديثة والطائرات تستخدمه، وربما استخدمه ليف إريكسون أيضاً فى رحلته إلى أرض الكروم فى القرن العاشر.

وقد عثر سفيرين على أدلة عديدة تثبت التطابق بين التفاصيل التى تبدو خيالية، والتى جاءت فى 'الرحلات' وبين أحداث يومية فى رحلته عبر الأطلنطى. فعلى سبيل المثال، حدث مراراً أن قاربهم، الذى أطلقوا عليه اسماً مناسباً هو 'برندان'، أحاطت بها أسراب من حيتان غريبة يتشابه ظهورها المتكرر مع مغامرات الرهبان المتكررة على ظهر ياسكونيوس أضخم سمكة فى المحيط. وفى الحق فإن التفسير الطبيعى المبسط للتفاصيل الخيالية التى تزخر بها تلك القصة هو أنها، فى غالب الأمر، مبنية على حقائق.

دين سوينفورد (Dean Swinford)

لمزيد من القراءة

Benedeit. Anglo-Norman Voyages of St Brendan. Edited by Ian Short and Brian Merri-
lees. Manchester: Manchester University Press, 1979.

Bouet, Pierre. Le Fantastique dans la Littérature Latine du Moyen Age: La Navigation
de Saint Brendan. Caen: Centre de Publications de l'Université de Caen, 1986.

Ohler, Norbert. The Medeival Traveller. Trans. By Caroline Hillier. Woodbridge: Boy-
dell Press, 1989.

O'Meara, John. The Voyage of Saint Brendan. Dublin: Dolmen Press, 1978.

Severin, Tim. The Brendan Voyage. New York: McGraw-Hill, 1978.

هسوان-تسانج ينشئ اتصالاً بين الصين والهند

نظرة شاملة

على الرغم من أن فا-هسين من القرن الخامس كان أول حاج بوذي صيني يزور الهند، فإن رحلة هسوان-تسانج بعد ذلك بما يربو على القرنين كانت تضارعها إن لم تكن أعظم منها في أهميتها التاريخية. وبينما أثار فا-هسين اهتمام الصينيين بالبوذية بإحضاره الكتب المقدسة من موطن نشأتها في الهند، ساهم هسوان-تسانج في تقبل الصينيين للعقيدة بصورة أعم وأشمل. كما أصبح أيضاً أول زائر صيني يزور كل الأقاليم الرئيسية في الهند، وهو يُعرف هناك اليوم بوصفه أول من افتتح العلاقات الصينية الهندية.

الخلفية

كانت نشأة البوذية في الهند في القرن السادس ق.م. على يد أمير هندي يدعى سيدهارتا جوتاما (٥٦٣-٤٨٣ ق.م.). فبعد سنوات من التأمل الروحي نبذ فيها الثروة والمتع الدنيوية، كما نبذ تعاليم كل من الهندوكية واليانية، حدث له تحول روحاني وبعده صار يُعرف باسم بوذا أو الشخص الذي استيقظ. ونشأت عقيدة حول تعاليمه شملت أفكاراً أن الشهوات هي سبب الآلام. وعلم بوذا أيضاً أنه فقط بالوصول إلى حالة النيرفانا، وهي حالة من السكينة الداخلية، يستطيع المرء أن يسمو فوق دورات تناسخ الأرواح التي تتسم بها نظرة الهندوكية إلى العالم.

وفى بادئ الأمر كسبت البوذية أتباعاً فى الهند، بيد أنها كان مقدراً لها أن تحقق أقصى نفوذ لها فى الصين. وظهرت العقيدة الجديدة فى الصين أثناء أخريات حقبة هان (٢٢م-٢٢٠م)، غير أن الصينيين رفضوها فى البداية بوصفها عقيدة «أجنبية». ولم يحدث إلا فيما بعد وأثناء فترة اضطرابات وقلقل بين حكم أسرتين (٢٢٠-٥٨٩)، أن بدأت الماهايانا أو بوذية العربة العظيمة فى اكتساب أتباع صينيين.

كان الراهب والحاج فا-هسين (حوالى ٢٢٤-٤٢٢) من أهم العوامل فى ذلك التحول. ولما لم يكن راضياً عن الترجمات الصينية المتاحة للنصوص البوذية السنسكريتية فقد شد الرحال إلى الهند وهو فى الخامسة والستين من عمره عاقداً عزمه على العثور على أصول تلك النصوص. وتلا ذلك رحلة ملحمية بلغ طولها حوالى عشرة آلاف ميل (١٦,٠٠٠ كيلومتر) استغرقت منه ١٥ سنة، سافر فيها مخترقاً أراضى بوذية فى الصين وأواسط آسيا والهند وسيلان وجزر الهند الشرقية. وأخيراً عاد إلى وطنه حاملاً معه الكتب المقدسة التى كان يبحث عنها، ونتيجة لذلك الجهد ازدادت المعارف والتقبل للبوذية فى الصين بشكل كبير فى السنوات التى تلت.

التأثير

بعد انصرام أكثر من قرنين بعد فا-هسين، قام حاج آخر يدعى هسوان-تسانج (ح ٦٠٢-٦٦٤) برحلة إلى الهند تتشابه كثيراً مع نفس الهدف وهو أن يستزيد من فهمه لتعاليم بوذا بالذهاب إلى المصدر - ليس لمجرد التوصل إلى النصوص الأصلية البوذية فحسب وإنما ليزور أيضاً الموطن الجغرافى للبوذية.

كان هسوان-تسانج طفلاً عبقرياً وتربى ليكون راهباً بوذياً، لكنه أثناء حكم أسرة سو (٥٨٩-٦١٨) وأسرة تانج التى تأسست حديثاً (٦١٨-٩٠٧) واجه هو وغيره من الرهبان حكومة ترتاب فى مدى تأثيرهم. ولم يكف كاو تسو أول حكام أسرة تانج

(حكم ٦١٨-٦٢٦) باعتناقه للتاوية الدين المنافس وإنما وضع العراقيل على السفر والترحال فى الأجزاء الغربية من الصين - وهى المناطق التى يُفترض أن يمر بها هسوان - تسانج إن كان يريد السفر إلى الهند.

ومن المؤكد أن هسوان - تسانج كان يريد السفر إلى الهند. وبينما بدأت رحلة فا-هسين بعدم رضائه عن الترجمات الصينية للنصوص البوذية، فإن رغبة هسوان-تسانج نشأت من انشغال فكره بأسئلة لاهوتية صعبة. فإن كان يعتزم أن يجيب عن تلك العضلات فهو يحتاج إلى أن يرجع إلى 'يوجاكارابهومى ساسترا' ٧٥ (gacarabhūmi sastra) (من القرنين الرابع والخامس الميلاديين)، التى لا توجد إلا فى الهند. ولهذا فقد عقد عزمه على القيام بتلك الرحلة الشاقة الحافلة بالتحديات عبر الجبال.

ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من أن الحضارات ازدهرت فى الهند والصين منذ غابر الأزمان، فإن شعبيهما كانا جهلان كل وجود الآخر لما يقرب من ألفى عام، وهى حقيقة تلقى الضوء على الحاجز العظيم الذى تشكله جبال الهيمالايا وغيرها من سلاسل الجبال التى تفصل بين البلدين. ويضاف إلى ذلك العراقيل التى وضعها الإمبراطور على السفر، مما ضاعف من أخطار رحلة هسوان - تسانج عبر الصين.

بدأ هسوان-تسانج رحلته من مدينة تشانج-آن عاصمة أسرة تانج الواقعة فى شرقى أواسط الصين، وسار فى اتجاه إلى الجنوب أكثر من رحلة فا-هسين. وتوغل غرباً، لكن رسل الإمبراطور سبقته وهى تحمل رسائل مفادها أن راهباً يحاول أن يتحدى أوامر الإمبراطور بمنع السفر فى اتجاه الغرب. وكتب فيما بعد "بينما كنت أقترّب من أقصى أطراف الصين على حافة صحراء لوب أمسك بى الجيش الصينى. ولما لم أكن أحمل تصريحاً بالسفر فقد أرادوا أن يرسلونى إلى مدينة تون-هوانج كى أمكث فى ديرها. إلا أنى أجبتهم إن أصررتم على احتجازى فسوف أسمح لكم أن تقضوا على حياتى ولكنى لن أخطو خطوة واحدة عائداً إلى الصين".

وكما تبين فيما بعد كان أكبر موظف إدارى فى المنطقة بوذياً تقياً، وفضل أن يغمض عينيه وسمح لهسوان-تسانج بأن يمر من خلال المواقع العسكرية التى تفصل الصين عن بلاد وسط آسيا. واستمر هسوان-تسانج فى السير فوق الجبال وعبر الصحراوات، حيث جابه قطاع الطرق وقبائل السلب والنهب، فضلاً عن حكام معجبين به ووفود من الشيوخ المرشحين به. وغالبية ما هو «معروف» عن رحلاته مستمد من كتب سير القديسين التى تبالغ فى إنجازات هسوان - تسانج؛ وعلى أية حال سافر إلى الغرب أبعد كثيراً مما فعل فا - هسين وزار مدن طشقند وسمرقند وبلخ. (المدينتان الأوليان هما الآن فى أوزبكستان والثالثة فى أفغانستان. وكلها كانت مراكز تجارية وحضارية مهمة فيما قبل العصور الحديثة).

وصل هسوان-تسانج إلى الهند حوالى سنة ٦٢٦، حيث زار عدداً من الأماكن ذات الأهمية فى حياة بوذا ودعوته. ثم توجه إلى دير مالاندا أكبر مركز بوذى فى الهند، حيث علمه المعلم الجليل سيلاهدارا بنفسه لمدة ١٥ شهراً. وأمضى هسوان-تسانج ما مجموعه خمس سنوات متقطعة فى مالاندا، وفى أثناء ذلك صنف ثلاث مقالات دينية باللغة السنسكريتية.

كما سافر أيضاً من مقره فى مالاندا إلى أماكن مختلفة فى الهند شملت البنغال فى الشرق وهضبة الدكا فى أواسط الهند وكورومانديل على الشاطئ الشرقى ومالابار على الشاطئ الغربى. وإضافة إلى ذلك سافر فى وادى نهر السند الذى كان قد دخل منه إلى البلاد، وبعد مدة تاق إلى أن يسلك نفس الطريق عائداً إلى الصين.

غير أن ملكاً يسمى كومارا دعا هسوان-تسانج أن يزوره فى أسام، فى شمال شرق الهند، وهى دعوة رأى هسوان-تسانج أنه ليس من الحكمة أن يرفضها. وأدى ذلك بالتالى إلى أن هارشا (ح ٥٩٠-٦٤٧) منافس كومارا وأعظم حاكم هندى فى بواكير العصور الوسطى، وجه إليه دعوة مماثلة. وفى بلاط هارشا سنة ٦٤٢، أبهر هسوان - تسانج رهطاً من بضعة آلاف من الملوك والحكام، وانتصر فى مناظرات مع لاهوتيين هندوك ويانيين. وأمطره هارشا بالعطايا ولكن هسوان-تسانج لم يقبل سوى

معطف من جلد البقر ليشيع الدفاء في جسده ويقيه من الأمطار، وفيلاً لينقل عليه الكتب الكثيرة التي أحضرها. وأخيراً شد رحاله عائداً إلى الصين سنة ٦٤٣.

وإذا ما تذكرنا حقيقة أنه غادر بلاده بطريقة غير قانونية فمما لا شك فيه أن هسوان - تسانج عاد والتوجس يسيطر عليه. ومن واحة خوتان أرسل خطاباً إلى الإمبراطور يعلنه فيه بعودته. وبعد ثمانية أشهر جاءه الرد بالترحيب. وكما تبين كان كاوتسو قد أقصاه ابنه تاي تسونج (حكم ٦٢٦-٦٤٩) عن العرش، وكان هذا الابن يعتنق البوذية وكان متلهفاً إلى لقاء هسوان-تسانج الذي وصل إلى تشانج-آن في أوائل عام ٦٤٥، وبلغ من ضخامة الأعداد التي خرجت لاستقباله أنه لم يتمكن من دخول المدينة في الحال.

وتقابل مع الإمبراطور الذي استفسر منه عن تفاصيل البلاد التي زارها. بل إن تاي تسونج عرض عليه العمل معه كمستشار شخصي، ولما اعتذر هسوان - تسانج عن قبول ذلك المنصب أمر الإمبراطور بأن تدبر له إقامة في دير هونج - فو القريب مع كوكبة من المساعدين كي يساعده في أعمال الترجمة. وكان الشرط الوحيد أن يقوم هسوان-تسانج بكتابة سجل لرحلته وهو «السجل العظيم لتانج عن رحلات إلى البلاد الغربية» الذي أكمله سنة ٦٤٦.

استمرت أعمال الترجمة التي قام بها هسوان - تسانج حتى عهد كاوتسونج (٦٤٩-٦٨٣)، وبعد تسع عشرة سنة كان قد أنتج ٧٦ كتاباً. وعندما مات الراهب الكبير سنة ٦٦٤، قيل إن حوالى مليون شخص حضروا جنازته، وفي سنوات لاحقة كان قد أصبح شخصية أسطورية. ولم يكن الأمر مجرد أن ترجماته وتعليقاته وما كتبه أتباعه شكلت ربع الكتابات البوذية الباقية في الصين وإنما ترتب على الاتصال الذي استهله هسوان-تسانج مع الهند أن توثقت العلاقات بين أسرة تانج والهند وهي القوة الجنوبية.

وبعد وفاته بتسعمئة سنة أصبح هسوان-تسانج موضوعاً لرواية خيالية كتبها تشينج-
إن (ح ١٥٠٠-١٥٨٢) وتُرجمت في القرن العشرين تحت اسم «الرحلة إلى الغرب»
(١٩٧٧-١٩٨٢)، وهو كتاب من كلاسيكيات الأدب الصيني يحوى مغامرات هزلية
ساحرة يتحول فيها هسوان-تسانج إلى تريبييتاكا الراهب المماثل لنون كيخوته (نون
كيشوت) مصحوباً بمرافقيه من قرود وخنازير. وعلى شاكلة أساطير مثل: أسطورة
الملك آرثر في الغرب، تسلت تلك الصورة الخيالية لهسوان-تسانج في كل مناحى
الحياة الثقافية الصينية من الأوبرا إلى المجلات الهزلية والرسوم المتحركة.

جدسون نايت (Judson Night)

لمزيد من القراءة

كتب

Boulting, William. *Four Pilgrims*. New York: E.P. Dutton, 1920.

Grousset, René. *In the Footsteps of the Buddha*. London: G. Routledge & Sons, 1932.

Hwui Li. *The Life of Hiuen-Tsiang*. Translated, introduced, and edited by Samuel Beal. Westport, CT: Hyperion, 1973.

Kherdian, David. *Monkey: A Journey to the West: A Retelling of the Chinese Folk Novel by Wu Ch'engen (fiction based on the life of Hsuan-tsang)*. Boston: Shambhala, 1992.

Waley, Arthur. *The Real Tripitaka and Other Pieces*. London: Allen and Unwin, 1952.

مواقع على الإنترنت

Marx, Irma. "Travels of Hsuan-Tsang Buddhist Pilgrim of the Seventh Century." Silk Road <http://www.silkroad.com/artl/hsuantsang.shtml>.

فا-هسين يسافر حول أطراف الصين وإلى الهند وجزر الهند الشرقية

نظرة شاملة

عندما كان الراهب فا-هسين فى الخامسة والستين من عمره عزم على أن يسافر من شمالى الصين إلى الهند، موطن العقيدة البوذية. وكانت النتيجة رحلة بلغ طولها ما يقرب من ١٠.٠٠٠ ميل أو ١٦.٠٠٠ كيلومتر عبر الصين وأواسط آسيا وشبه الجزيرة الهندية وأرخبيل الملايو. وشكلت الرحلة، التى سجل تفاصيلها فا-هسين فيما بعد، واحداً من أوائل لقاءات الشهيرة الصين مع الهند. وفى نجاحه فى تحقيق هدفه من الرحلة وهو الحصول على كتب بوذية أصلية، تمكن فا-هسين من اجتذاب تقبل عريض للدين الجديد فى وطنه.

الخلفية

إن أقدم عقائد الصين الدينية هى ديانات شعبية متنوعة وأنماط من عبادات السلف، ولا يزال الكثير منها يمارس حتى اليوم. غير أن القرن السادس ق.م. شهد ميلاد أنظمة عقائدية جديدة بُنيت على تعاليم ثلاثة رجال رائعين ومتعاصرين هم سيدهارتا جوتاما أو البوذا (٥٦٣-٤٨٣ ق.م.)، وكونفوشيوس (٥٥١-٤٧٩ ق.م.)، ولاوتزو (اشتهر فى القرن السادس ق.م.). والرجلان الأخيران لم يعلننا تأسيس الكونفوشيوسية أو الطاوية على التوالى وإنما نشأت هاتان العقيدتان حول كتاباتهما وكتابات حواريهما أثناء حكم أسرة هان الأولى (٢٠٧ ق.م. - ٩م.).

وعلى صعيد آخر، جاءت البوذية من الهند البعيدة. وعندما كان سيدهارتا لا يزال شاباً يافعاً اختار أن يتخلى عن حياته كأمبر وغادر قصر أبيه بحثاً عن التنوير والمعرفة. ونبذ الهندوكية بكل ما فيها من دورات لا تنتهى من الميلاد والموت من خلال تناسخ الأرواح، وبعد أن درس مع نساك يانينين نبذ أيضاً تلك العقيدة بكل ما بها من إنكار عنيف للذات. وكانت تلك هى اللحظة التى حدث له فيها تحول روحى عميق، متحولاً إلى بوذا، أو «الشخص الذى استيقظ». ومنذ تلك اللحظة كرس حياته لتعاليمه التى توصل إليها مؤخراً وهى أن الشهوات هى سبب الآلام، ويمكن التغلب عليها بالوصول إلى حالة النيرفانا، أو الهيولى العليا، وهى حالة من السلام الداخلى؛ وهى الوسيلة الوحيدة التى يمكن للمرء أن يسمو على دورات تناسخ الأرواح.

وعلى الرغم من أن العقيدة البوذية اكتسبت أتباعاً فى الهند فى بادئ الأمر فإن الهندوكية بقيت الدين المهيمن، وكان من الممكن أن تبقى البوذية مجرد جماعة صغيرة منشقة لولا انتشارها فى الشرق الأقصى. وأن ذلك كان فى المستقبل البعيد. فإثناء عهد أسرة هان المتأخر (٢٢-٢٢٠م) المضطرب اشتد تأثير التاوية، وبدأت الكونفوشيوسية والديانات الشعبية تتقبل تدريجياً فكرة التعايش بين الديانات، وعلى أية حال فإن التاوية رغم كل ما بها من شطط إلا أنها كانت عقيدة صينية محلية.

ولم يحدث إلا فى فترة خلو العرش فى الصين بين أسرتين، وهى الفترة ما بين ٢٢٠ إلى ٥٨٩، أن البوذية بدأ نفوذها يتزايد. ومن الطبيعى أن تلك الفترة تتزامن مع اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، ومثلما كان الرومان الوثنيون يتخوفون من التحدى المسيحى لعقيدتهم السحيقة القدم، فإن كثيراً من الصينيين كانوا قلقين من التأثيرات المدمرة لدين جديد على قيمهم التقليدية. وبدا أن البوذية تتحدى النظام الكونفوشيوسى الفكرى القائم الذى يشدد على الولاء للأسرة، وتبجيل الشيوخ، والعمل الشاق والدرس والتحصيل، وإطاعة الحاكم، بحثها المؤمنين على التركيز على السكنية الداخلية والتنوير بدلاً من الانشغال بالمشاكل الاجتماعية.

وربما لو كان أتيح للصين أثناء تلك القرون نظام حكم أكثر استقراراً لتمكنت القوى التقليدية من طرد الدين «الأجنبي». وبدلاً من ذلك بدأت الماهايانا أو العربية العظيمة فى اكتساب أتباع لها، وكان فا-هسين (ح ٢٣٤-٤٢٢) واحداً من الأدوات المهمة فى ذلك التغير. رُسم فا-هسين كاهناً فى سن العشرين، وأمضى العقود الأربعة التالية يدرس النصوص البوذية. وأثناء تلك الفترة اشتد عدم رضائه عن الترجمات من السنسكريتية إلى الصينية. وفى سن الخامسة والستين، وهو سن لا يكاد يسمح بالقيام برحلة ملحمية شاقة، شد رحاله إلى الهند للحصول على كتب أصلية يستخدمها فى ترجمة جديدة.

التأثير

فى سنة ٣٩٩، اصطحب فا-هسين معه مجموعة صغيرة من الرهبان وغادر مدينة تشانج-آن العظيمة التى كانت العاصمة لأسر ملكية عديدة. وعبرت المجموعة جبال لونج واستقرت مؤقتاً خلال الصيف فى مدينة تشين كيوى، ثم عبرت سلسلة جبال يانج-لو. وفى مدينة تشانج-بيه انضم إليهم رهبان آخرون يعتزمون الحج إلى الهند أيضاً.

ومن المثير للاهتمام اليوم أن نلقى نظرة على خريطة خط سير فا-هسين، الذى سار مباشرة فى اتجاه الغرب، محاذياً للحدود الحديثة بين الصين ومنغوليا وروسيا (والأخيرة تقع أكثر إلى الغرب). ومثلما تنحنى الحدود فى اتجاه الجنوب تتبع الحجاج ما هو اليوم الحدود الفاصلة بين الصين وكازاخستان. ومن البديهي أن السبب فى ذلك التطابق يعود إلى أن حدود الصين قد رسمتها المعالم الطبيعية مثلما رسمتها السياسة.

ومن بين تلك المعالم الطبيعية جبال نان شان وصحراء تكلا مكان، ويفصلان معاً الصين عن قلب وسط آسيا. وفيما بعد كتب فا-هسين برهبة عن خبرته فى عبور

الصحراء: الرمال مليئة بالأرواح الشريرة والرياح الحارة، وأى شخص يقابلهما يموت؛ ولم ينج واحد من الأذى. لا طيور تطير فوق الرؤوس، ولا حيوانات تجرى على الأرض. ومهما يركز المرء عينيه ويحرق فى أى اتجاه من الاتجاهات الأربعة لا يجد مكاناً يلجأ إليه ولا أى شيء يهديه إلى طريقه. وليس أمامه إلا العظام الجافة للموتى تهديه على الدرب".

وبعد ذلك بثمانية قرون واجه رحالة آخر هو ماركوبولو (١٢٥٤-١٢٢٤)، نفس تلك الصعاب وهو يعبر صحراء تكلا مكان. وفى الحق فإنه من اللافت للنظر أن نلاحظ إلى أى درجة تقاطعت مسارات فا-هسين وماركو بولو، وخصوصاً إذا لاحظنا اختلاف نقاط انطلاق كل منهما. فكلاهما عبر جبال البامير، مثلاً، وكلاهما وجد نفسه فيما بعد فى جزر الهند الشرقية.

وإلى الجنوب من تكلا مكان دخل فا-هسين خوتان، وهى مملكة بوذية وصفها بأنها نوع من فربوس أرضى: "البلاد شديدة الخصوبة والسعادة، وسكانها كُثُر وفى حالة ازدهار". غير أنه استمر فى سيره، وبعد خوتان بشهرين وصل إلى مدينة أخرى زارها ماركو بولو فيما بعد وهى قشغر فى أقصى غربى الصين. وبدلاً من أن يعبر الهيمالايا فضل أن يسير غرباً إلى سلسلة جبال البامير وهى أقل وعورة بقليل.

وفى عبوره لهضبة البامير، التى يبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من ١٢.٠٠٠ قدم (٣٦٥٨ متراً)، اتجه فا-هسين غرباً متوغلاً فى المنطقة التى تلتقى فيها اليوم حدود أفغانستان وطاجيكستان. وفيما بعد وصف هضبة البامير بأنها تسكنها تنينات سامة. فإن أزعج شخص الأمزجة الشريرة للتنينات فإنها تطلق عليه فى التو رياحاً مسممة وتجعل الثلوج تتساقط أو ترسل وابلأ من الرمال والحصى والأحجار الطائرة. ومن بين الأشخاص الذين واجهوا مثل ذلك المازق لا يكاد واحد من جملة عشرة آلاف ينجو دون إصابة. والسكان المحليون يطلقون على التنينات السامة اسم سكان جبال الثلوج".

وقضت المجموعة صيفاً آخر في مدينة ماموك، ومروا بمدينة بيشاور. والمدينة الأخيرة، وهي اليوم على الحدود بين أفغانستان وباكستان، كانت أيامها لا تزال مدينة بوذية. (وفي الحقيقة للإسلام لن يظهر قبل قرنين بعد ذلك، وتكاد تكون كل رحلة فا-هسين قد تمت في أراضٍ بوذية). وكانت بيشاور قد أسسها كانيشكا (اشتهر ما بين ٧٨-١٠٣م) والذي بافتتاحه طريق الحرير بين الشرق والغرب ساهم في نشر الأفكار البوذية في الصين.

دخلت المجموعة الهند عن طريق ممر هانجينج الغادر على طول الخوانق الضيقة لأعلى نهر السند. وكتب فا-هسين معلقاً على تلك المرحلة من رحلته: "المرات الجبلية خطيرة وغير مستقرة والجرف الصخرية تكاد تكون عمودية، وتكون الجبال جدراناً صخرية تهوى آلاف الأقدام إلى الوادي تحتها. وتصاب العين بالدوار إن حذق المرء إلى أسفل، وعندما يحاول المرء السير إلى الأمام لا يجد مكاناً يضع فيه قدمه". وفي تلك المرحلة من الرحلة لجأت المجموعة إلى استخدام ما يقرب من ٧٠٠ جسر معلق وسلالم ومواطئ أقدام. غير أنهم، أخيراً، وصلوا الهند ذاتها، ولكنهم اضطروا إلى القضاء الشتاء انتظاراً لعبور سلسلة جبال سافد كوه.

وطوال الطريق فضل بعض أعضاء المجموعة العودة إلى الصين، ومات واحد من أخلص أصدقاء فا-هسين. ولكنهم وصلوا أخيراً إلى مناطق جوها أكثر اعتدالاً في شبه القارة الهندية، وبدأوا يتجهون شرقاً. وطوال الطريق كانوا يزورون أماكن مهمة في حياة بوذا: كاييلافاسو، حيث ولد، ومملكة ماجادها التي تولى منها معظم تبشيريه. وزار فا-هسين أيضاً باتاليبوترا عاصمة أسرة ماوريان الإمبراطورية البوذية العظيمة.

وبعد ثلاث سنوات جمع فيها نصوصاً ونسخها في ماجادها، سار فا-هسين بحذاء نهر الجانج حتى وصل إلى مرفأ تامراليبتي التي قضى فيها عامين آخرين. يترجم النصوص، قبل أن يبحر في سفينة أخذته إلى سيلان، أو سريلانكا الحديثة. وأمضى عامين آخرين في سيلان قبل أن يتجه إلى أرض الوطن.

غير أن سفينة فا - هسين تحطمت قبالة شاطئ سومطره فيما هو اليوم إندونيسيا، وانتهى المطاف بفا - هسين في جاوه، حيث كان عليه أن ينتظر نصف عام قبل أن يجد سفينة نقله إلى الصين. وفي النهاية استقل سفينة، ولكنها انحرفت عن مسارها وسارت على غير هدى لما يزيد على شهرين. ولم يحدث إلا في سنة ٤١٤، أي بعد ١٥ سنة بعد سفره، أن فا-هسين وصل أخيراً إلى وطنه عند شبه جزيرة شانتونج.

كان فا - هسين قد أصبح في الثمانين من عمره، وانكب في التو على العمل في العاصمة تشين - كانج، وهي نانجينج أو نانكينج الحديثة، وعكف على ترجمة النصوص التي أحضرها من الهند. وفيما بعد تقاعد في دير في مقاطعة هويي، حيث قام بتسجيل رحلاته. ومات فا-هسين في سن الثامنة والثمانين، وفي السنوات التي أعقبت وفاته أشتد نفوذ البوذية في الصين تدريجياً، ويعود الفضل في ذلك إلى جهوده.

جدسون نايت

لمزيد من القراءة

كتب

Legge, James, translator. A Record of Buddhistic Kingdoms: Being an Account by the Chinese Monk Fa-Hsien of His Travels in India and Ceylon (A.D. 399-414) in Search of the Buddhist Books of Discipline. New York: Paragon, 1965.

مواقع على الإنترنت

"Fa Hsien." Theosophy Library Online. <http://theosophy.org/tlodocs/teschers/FaHsien.htm>.

Marx, Irma. "Travels of Fa Hsien-Buddhist Pilgrim of Fifth Century." Silk Road. <http://www.silk-road.com/artl/fahsien.html>.

سير حياة مختصرة

أسوكا (أشوكا)، إمبراطور هندي

(ح ٣٠٢ - ح ٢٣٢ ق.م.)

حكم أشوكا إمبراطورية الماوريا في الهند في ذروتها، وأخضع معظم شبه القارة لسلطانه، ولكنه لم يكن مجرد فاتح. فعندما فرغ من صراع دموي في السنة الثامنة من حكمه حدث له تحول ديني جعله يُسَخَّرُ البقية الباقية من حياته لفعل الخير لشعبه. ومنذ تلك اللحظة كرس حياته لتحسين أحوال رعاياه، فأنشأ محطات للاستراحة وغيرها من مشاريع الأشغال العامة في أرجاء مملكته، وأمر بنقش مبادئه الأخلاقية على الصخور، حيث لا تزال كلماته تُشاهد حتى اليوم.

وفي سنة ٢٢٦ ق.م. غزت جيوش الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.) الهند. ولكنها سرعان ما غادرتها، ولكن الفتوحات المؤثرة للإسكندر كانت إلهاماً لملك هندي شاب يدعى تشاندراجوبتا ماوريا (حكم ٣٢٤-٣٠١ ق.م.). كان تشاندراجوبتا يحكم مملكة ماجادها في شرقي الهند، وهو المكان الذي مارس فيه بوذا (سيدهارتا جوتاما، ٥٦٣-٤٨٣ ق.م.) معظم رسالته. وانطلق تشاندراجوبتا بجنوده من عاصمته باتاليبوترا، إلى الشمال الغربي من كلكتا الحديثة، وسرعان ما اكتسح غالبية الهند.

كانت إمبراطورية الماوريا مملكة رائعة وحسنة التنظيم، وكان يقال بأن باتاليبوترا هي أعظم مدينة في زمانها. إلا أن تشاندراجوبتا، على شاكلة معظم الأباطرة الأقدمين، كان يحكم بقبضة من حديد، وكانت له شبكة من الجواسيس، وكان يُنزل العقوبات حتى لمجرد التفكير في الثورة. غير أنه، في نذير غريب بما سوف يفعله

حفيده مستقبلاً، تنازل عن العرش سنة ٢٠١ ق.م. وانخرط فى سلك رهبان الـيانـية ومات فيما بعد من الجوع.

ويعد تشاندراجويتا تولى ابنه بيندوسارا (مات ٢٧٠ ق.م.) مقاليد الحكم، وأنجبت له زوجته ابناً أطلقت عليه اسم أشوكا ومعناها فى السنسكريتية أنا لست حزيناً. وطبقاً للأسطورة، لم يكن بيندوسارا يهتم بابنه، ولكنه يبدو من الواضح أنه وثق به لدرجة تكليفه بإخماد ثورة فى مدينة تاكسيلا؛ وبعدها أصبح أشوكا أميراً لبلدة أودجاين فى غربى وسط الهند، وصارت فيما بعد مركزاً عظيماً للدراسات العلمية.

ويبدو أن أشوكا لم يتول العرش إلا بعد فترة من وفاة والده، وعلى الرغم من أنه كان ثمة صراع على العرش فإن ما قيل من أن أشوكا قتل ٩٩ من إخوته ربما كان مجرد أسطورة. وهناك عدد كبير من تلك الأقاصيص - يجمعها تقليد يسمى ' أشوكا الأسود' - وكلها تشير إلى حقيقة أن أشوكا كان زعيماً قاسياً لا يرحم قبل أن يحدث له التحول الذى تحوله. ويبدو أن أشوكا كان يحتفظ بسجن به شبكة هائلة من غرف التعذيب للتعامل مع أعدائه. ومما لا ريب فيه أنه اشتبك فى حروب عديدة وأسأل كمية هائلة من الدماء فى سبيل تأمين إمبراطوريته. ثم حدث سنة ٢٦٢ ق.م. أنه سئم من كثرة إراقة الدماء.

وكانت مناسبة هذا التحول المفاجئ انتصاره على قبائل كالينجا فى الجنوب الشرقى لهند. ففى أثناء تلك الحملة أسرت قواته ما يربو على ١٥٠.٠٠٠ شخص وقتلت أضعاف هذا العدد إما مباشرة أو نتيجة للخراب العام الذى صاحب الحرب. وجاء فى واحد من النقوش العديدة التى خَلَّفَهَا بمجرد الاستيلاء على كالينجا شرع جلالته المقدس فى اتباع المبادئ الأخلاقية المستقيمة وصار محباً لها وكان يعطى تعليماته طبقاً لها.

وتأتى أقواله المتعلقة بتحوله فى أحد النقوش الخمسة والثلاثين التى أقامها أشوكا فى مختلف الأماكن فى الهند بدءاً من عام ٢٦٠ ق.م. ونُقش بعض من تلك

المراسيم، أو الأقوال، على الصخور فى أماكن شاهقة الارتفاع؛ ونُقش غيرها على أعمدة صنعها البشر. ولهذا يشار إليها بوصف مراسيم الصخور أو مراسيم الأعمدة. وعلى الرغم من أنه لم يفسر قط ما يعنيه بالمبادئ الأخلاقية المستقيمة فإنه يكاد يكون فى حكم المؤكد أن أشوكا اعتنق البوذية. غير أن النقوش تتناول المبادئ الأخلاقية بتعبيرات عامة، وليس بها ذكر لمفاهيم بوذية أساسية. ولهذا فمن الممكن أن يكون ما اعتنقه أشوكا كان مزيجاً من البوذية ودين عالمي، أو قناعة بأن كل من يعبد بإخلاص إنما يعبد نفس الإله.

ومهما كانت العقيدة فإن أشوكا عقد عزمه على أن يغزو بها العالم، مثلما كان يغزو بالسيف من قبل. فأرسل الرسل إلى أماكن بعيدة مثل مصر وبلاد اليونان كي ينشر العقيدة. وعلى الرغم من أن البوذية لم تنتشر مطلقاً فى تلك البلاد فإنها وصلت إلى جزيرة سيلان (سريلانكا الحديثة) وأزاحت الهندوكية وصارت هى العقيدة المسيطرة.

وفى سنة ٢٥٧ ق.م. عين أشوكا موظفين فى وظيفة يمكن ترجمتها إلى "مفتشى الأخلاقيات"، وكلفهم بتوزيع العطايا على الفقراء، والتأكد من أن أفراد شعبه يعامل بعضهم بعضاً بود ومحبة. وكرس جانباً كبيراً من وقته للترحال فى أنحاء الإمبراطورية، بل كان يراقب زرع الأشجار كي ينعم المسافرون بالراحة الظليلة.

وفى وقت ما من سنة ٢٢٠ ق.م. تمكن موظفو بلاطه - ربما بسبب استغراق أشوكا فى الاهتمامات الإنسانية - من التأثير على حفيده سامبراتي، الذى كان أشوكا قد اختاره لخلافته. ويبدو أن سامبراتي أجبر جده على الانزواء فى منفى افتراضى داخل القصر، وعاش أشوكا أيامه الأخيرة على مقننات غذائية هزيلة. وهى نهاية حزينة لحكم وفر درجة لم يسبق لها مثيل من العدالة والاهتمامات الإنسانية فى واحدة من أعظم إمبراطوريات العالم القديم.

جدسون نايت

الإسكندر الأكبر. فاتح مقدوني

(٣٥٦-٣٢٣ ق.م.)

على الرغم من أن الرومان فتحوا مساحات أكبر من البلاد، فإنه لم يحدث أن أخضع رجل واحد مثل تلك المساحات من البلاد وفي زمن بهذا القصر مثل الإسكندر الأكبر أو الإسكندر الثالث المقدوني، الذي فتح معظم العالم المعروف قبل وفاته في سن ٣٢ سنة. غير أن الإسكندر فعل ما هو أكثر من مجرد الانتصار في معارك حربية، فقد تعلم وفقاً للأعراف التقليدية لبلاد اليونان، ووضع على المناطق التي غزاها نوعية مستتيرة من القادة. وكان من الممكن أن تكون إمبراطوريته عظيمة حقاً لو قُدِّر له أن يعيش. ولكنه، على الحالة التي تركها عليها، عمل على وصول تأثير بلاد اليونان إلى أبعد من حدودها، تاركاً علامة لا تمحى.

كانت مقدونيه بلاداً وعرة مولعة بالحروب تقع إلى الشمال من بلاد اليونان، وعلى الرغم من أن المقدونيين اعتبروا أنفسهم جزءاً من التقاليد والأعراف اليونانية فإن الإغريق كانوا يميلون إلى النظر إليهم بتعالٍ باعتبارهم غلاظاً بدائيين وغير مهذبين. ولكن أيام المجد والفخار لبلاد اليونان كانت قد ولت، وأخضع فيليب الثاني (٢٨٢-٢٣٦ ق.م.، حكم ٢٥٩-٢٣٦ ق.م.)، أبو الإسكندر كل جنوب غربى أوربا فيما بين ٢٥٤ و٢٣٩ ق.م. وفي سن السابعة عشرة قاد الإسكندر بنفسه القوات المقدونية التي غزت طيبة.

وكان من الممكن أن يتذكر فيليب، الذي أحدث ثورة في تكتيكات الجنود المشاة، بوصفه أعظم الحكام المقدونيين لولا أن أعمال ابنه المبهرة غطت عليه. وكانت أوليمبياس أم الإسكندر رائعة أيضاً فقد أنشأت ولداها على قصص الآلهة والأبطال. ويتأثير منها أصبح متيماً بشخصية أخيل من إلياذة هوميروس، وصار ينظر إلى أعماله البطولية المتأخرة بوصفها تحقيقاً للميراث البطولى الذى توارثه عن أمه. وثمة عامل مؤثر مهم ثالث هو أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.)، الذى تولى تعليم الإسكندر

فى سنوات مراهقته. ومن اللافت للنظر أن يقوم واحد من أحكم حكماء العالم القديم بتعليم أعظم قائد عسكري فى العصور القديمة، ومما لا ريب فيه أن الإسكندر تكونت لديه صورة عريضة للعالم فى ظل تعاليم أرسطو.

غير أن الإسكندر لم يكن مفكراً بل كان منجزاً. وكان رياضياً بالفطرة، وأثبت سرعة بديهته ورشاقته الجسدية عندما تمكن فى سن الثانية عشرة من ترويض حصان برى لم يتمكن أحد قبله من ترويضه. وأطلق عليه اسم «بوسيفالوس»، وأصبح الاثنان رفيقين طوال حياته. وفيما بعد عندما مات بوسيفالوس أثناء حملة الإسكندر فى الهند أطلق اسم حصانه المحبوب على مدينة فيها.

واغتيل فيليب بعد أن سيطر على بلاد اليونان مباشرة، ولكى يتولى عرشه كان على الإسكندر أن يكسب تأييد نبلاء مقدونيه. وتمكن من ذلك بأقل قدر ممكن من إراقة الدماء، وأسس بذلك سياسة اتبعها كحاكم لكل بلاد اليونان: وهو أن يترك وراءه أكبر قدر ممكن من النوايا الطيبة بينما ينطلق هو قدماً.

وبعد ذلك وجه الإسكندر اهتمامه إلى تثبيت أركان حكمه فى بلاد اليونان، وفعل ذلك بتحركات خاطفة استولى خلالها على طيبة وقتل ما يقرب من ٦٠٠٠ من أهلها المدافعين عنها. وبعد ذلك لم يلق أية مقاومة جادة من الدول-المدن، ثم شرع فى تنفيذ رسالة كانت حلمًا من أحلام فيليب وهى غزو الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف فى الشرق. وكان قد سبق لتلك الإمبراطورية أن هددت بلاد اليونان فى الماضى، وهزمت فى الحروب الفارسية (٤٩٩-٤٥٩ ق.م.); والآن سوف تفرض بلاد اليونان، بقيادة مقدونيه، سيطرتها على الإمبراطورية الفارسية المتداعية.

دخل الجانب الأكبر من جيش الإسكندر، الذى كان مكوناً من حوالى ٤٠,٠٠٠ من المشاة و٥٠٠٠ من الخيالة، إلى آسيا الصغرى بينما عبر قائدهم مضيق الهلسبونت (Hellespont) ومعه كوكبة صغيرة حتى يتمكن من زيارة حج شخصية إلى موقع مدينة طروادة. وبعد ذلك مر الإسكندر وجيشه خلال مدينة جورديان العاصمة

القديمة لفريجيا، وكانت ثمة بتلك المدينة عربية مربوطة بجبل به عقدة صعبة لا يقدر أحد على حلها. ووفقاً للأسطورة كان الملك الأسطوري ميداس أو ميتا (اشتهر ٧٢٥ ق.م.) قد ربط تلك العقدة الجوردية، وأن من يتمكن من حلها سوف يحكم العالم، وببساطة قطع الإسكندر العقدة بسيفه.

وبعد اشتباك حربي ناجح ضد أحد المرتزقة الإغريق يدعى ممنون دخل الإسكندر سيليزيا، وهي المنطقة التي تلتقى فيها آسيا الصغرى مع آسيا. وأقبل الإمبراطور الفارسي دارا الثالث (توفي ٣٣٠ ق.م.) لملاقاته بقوة قوامها ١٤٠,٠٠٠ جندي، وفي وقت من الأوقات - لأن جيوش الإسكندر كانت تتحرك بسرعة - انقطع ما بين الإسكندر وبين خطوط تموينه، وفضل دارا أن يقبض في مكانه تاركاً قوات الإسكندر تبدأ بالهجوم. واعتبر الإسكندر ذلك علامة ضعف وهاجم القوات الفارسية. وكاد الإسكندر أن يُقتل، ولكن معركة إيسوس كانت انتصاراً حاسماً للإغريق. وفر دارا تاركاً للإسكندر السيطرة الكاملة على كل أنحاء الجزء الغربي من الإمبراطورية الفارسية.

وبدلاً من السلب والنهب والاعتصاب، وهي ما يسمح به كثير من القواد لقواته أن تفعله، أمر الإسكندر جيوشه أن يتحركوا بنظام وأدب في الأقاليم المغزوة. وخلال سنتي ٣٣٢ و٣٣١ ق.م. أحكمت قوات الإسكندر قبضتها على جنوب غربي آسيا، وفي السنة الأخيرة احتل مصر، حيث أسس مدينة الإسكندرية، التي قُدر لها أن تصبح مركزاً للعلوم الإغريقية لقرون تالية. وفي أكتوبر ٣٣١ ق.م. تلاقى مع قوات فارسية قوامها ٢٥٠,٠٠٠ رجل - أي خمسة أمثال حجم جيشه - في مدينة جوجاميللا الأشورية. وكان نصراً ساحقاً للإغريق، وعلى الرغم من أن دارا فر مرة أخرى فإنه اغتيل بعد ذلك بواسطة واحد من أفراد شعبه.

وصار الإسكندر الآن يسيطر على كل الأراضي الشاسعة للإمبراطورية الفارسية، ولكنه استمر في السير شرقاً بموافقة رجاله. وفي غضون الأعوام الستة التالية، من ٣٣٠ إلى ٣٢٤ ق.م.، أخضعت جيوشه ما هو اليوم أفغانستان وباكستان،

وتوغل في الهند. وعزز الإسكندر مكانته في أفغانستان بزواجه من الأميرة الباكثيرية روكسانا (توفيت ٢١٠ ق.م.)، ولكنه بدأ يدرك أن بعضاً من قواته قد أصابهم الإرهاق، فأعاد كبار السن منهم إلى الوطن.

وكان يود الاستمرار في التوجه شرقاً إلى أقصى ما يستطيع، لمجرد أن يشاهد ما هناك، وأن يضيفه إلى إمبراطوريته إن تمكن. غير أنه حدث في يوليو ٣٢٦ ق.م.، بمجرد أن عبر نهر بيس (Beas) في الهند أن قواته رفضت التقدم بعد ذلك. ولربما كان سينشب تمرد لو أنه حاول أن يقسرهم على ذلك، ولكنه لم يفعل. فأعاد مجموعة منهم بقيادة نيارخوس (توفي ؟ ٢١٢ ق.م.) بطريق البحر كي يستكشف السواحل أثناء رحلته، وأرسل مجموعة أخرى بطريق شمالي. واصطحب معه مجموعة ثالثة من خلال جنوبي إيران، في رحلة عبرت الصحراء كاد الجيش بأكمله أن يضل طريقه فيها.

وفي ربيع ٣٢٣ ق.م. وصلوا إلى بابل، وبدأ الإسكندر يخطط لغزو بلاد العرب. غير أنه بدأ يزوى جسدياً ونفسياً، وبدأ يدمن الشراب، وأصابته حمى وسرعان ما أصبح عاجزاً عن الحركة والكلام. وفي الأيام الأخيرة من حياته لزم الإسكندر الفراش - وهو رجل لم يكن يتوقف عن الحركة - بينما وقف قواده في صفوف خاشعة يحيون الرجل العظيم الذي قادهم إلى ما لم يستطع غاز من قبله أن يفعل. ومات في ١٣ يونيو ٣٢٣ ق.م.

لم يكن الإسكندر فاتحاً اعتيادياً: فإمبراطوريته كانت تبشر بعهد جديد أكثر بهاءً تستطيع فيه كل شعوب العالم أن تتحد في إطار من المساواة التامة. لم يكن الإسكندر يفرق بين المجاميع العرقية والإثنية رغم أن بعضاً من قواده لم يوافقوه على ذلك، وبدلاً من ذلك كان يُعلى من مقام الرجال على أساس قدراتهم. ومنذ البداية كانت قواته تجند السكان المحليين، ولكنه بعد أن أتم غزو كل بلاد فارس ترسخت تلك السياسة. وكان هدفه أن يترك بلاد فارس تحت سيطرة فرس تعلموا اللغة اليونانية والثقافة الإغريقية،

وترك خلفه ما يقرب من ٧٠ مدينة جديدة اسمها الإسكندرية، وبهذا بدأ انتشار الحضارة الهلنستية في كل أرجاء غربى آسيا.

غير أن إمبراطورية الإسكندر لم تصمد طويلاً، وافتقد القواد الذين خلفوه إلى رؤيته، وأمضوا بقية حياتهم المهنية يتقاتلون على غنائم فتوحاته. وسيطر سيلوكوس (ح ٣٥٦-٢٨١ ق.م.) على فارس وبلاد ما بين النهرين وسوريا، وفى الأخيرة بقيت لسنوات عديدة إمبراطورية تحمل اسمه، وأسس بطليموس (ح ٣٦٥-٢٨٣ ق.م.) أسرة حاكمة فى مصر صمدت مدة أطول، وحكم خلفاؤه حتى سنة ٣٠ ق.م.، وهُزمت كليوباترا (٦٩-٣٠ ق.م.) آخر نسله - وأيضاً آخر فرعون مصرى - على يد إمبراطورية جديدة بل وأكبر وهى روما.

جدسون نايت



الإسكندر الأكبر

إى-تشينج، حاج صيني

(٦٣٤-٧١٤)

سافر إى-تشينج من الصين إلى الهند، بوصفه راهباً بوذياً، متتبّعاً آثار الحجاج الذين سبقوه فا-هسين (ح ٣٣٤- ح ٤٢٢ م) وهسوان تسانج (٦٠٢-٦٦٤). غير أنه لم يتبع خطواتهم بصورة حرفية، فبدلاً من عبور الجبال التي تفصل بين الصين والهند في الغرب اتخذ إى-تشينج مساراً شرقياً عبر البحار بين شبه جزيرة الملايو وأرخبيل الملايو.

فبعد أن سمع بإنجازات هسوان-تسانج، عقد إى-تشينج عزمه، ومعه ٢٧ راهباً آخر، على زيارة مسقط رأس بوذا (سيدهارتا جوتاما ٥٦٣-٤٨٣ ق.م.) نفسه، وسافرت المجموعة إلى كانتون كي يستقلوا سفينة تنقلهم إلى الهند، ولكن حدث في آخر لحظة أن انتاب الخوف قلوب الرهبان الآخرين، فوجد إى-تشينج نفسه وحيداً واستقل سنة ٦٧١، سفينة فارسية متجهة إلى ما يُعرف اليوم باسم إندونيسيا.

أبحرت السفينة عبر بولو كوندور (Polo Condore) قبالة السواحل الجنوبية لشبه جزيرة الملايو فيما هو اليوم فيتنام، واتجهت إلى بالمبانج، وهي مركز تجارى على الشاطئ الجنوبي الشرقى لسومطره. ومكث إى-تشينج هناك نصف عام قبل أن يستقل سفينة سومطرية إلى جزر نيكوبار في خليج البنغال (إلى الغرب من سومطره مباشرة جنوبي جزر أندامان وتشكل اليوم أقصى الحافة الجنوبية للأراضي الهندية). ومن جزر نيكوبار أبحر إلى تمراليبتى وهي مرفأ على دلتا نهر الجانج، حيث كان فا-هسين قد أمضى جزءاً من رحلته الهندية قبل ما يقرب من ثلاثة قرون.

كرس إى-تشينج الأعوام الثلاثة الأولى في الهند لتعلم اللغة السنسكريتية في معبد فاراها البوذي في تمراليبتى. ثم أبحر صُعداً في نهر الجانج إلى نالاندا المركز البوذي، حيث ذهب هسوان-تسانج من قبله، وأمضى هناك عقداً يدرس الكتب البوذية

هناك. كما جمع أيضاً مكتبة بها عشرة آلاف كتاب من الكتب المقدسة، أحضرها معه عند عودته إلى الصين وبها رفع كثيراً من مستوى تعليم البوذية في وطنه.

زار إى - تشينج ما مجموعه ٣٠ إمارة ومملكة في جميع أنحاء الهند قبل أن ينهى مهمته في ذلك البلد. ثم قفل عائداً إلى سومطره، حيث عاش عدة سنوات منكباً على ترجمة الكتب التي أحضرها معه. ومن الجائز أنه عاد لفترة قصيرة إلى كانتون سنة ٦٨٩، ليجتذب رهباناً يعاونونه في الترجمة. وعلى أى حال عاد أخيراً إلى موطنه في مقاطعة هونان سنة ٦٩٣ أو ٦٩٤، بعد ما يقرب من ثلاثة عقود من مغادرته للصين.

وأثناء ما تبقى من حياته انشغل إى-تشينج بترجمة حوالي ٥٦ كتاباً بوذياً إلى اللغة الصينية. كما ألف كتاباً تناول فيه رحلات مختلف الحجاج إلى الهند، وتحدث فيه عن الممارسات الدينية المختلفة لشعوب سومطره والهند.

جدسون نايت

إيزانا (Ezana). ملك أكسوم

(حكم ٣٢٥-٣٦٠)

أثناء العصور الوسطى لم تكن أوروبا هي الحصن الحصين الوحيد للمسيحية، ففي أقصى أقاصى الجنوب كان ثمة حصن للمسيحية في إفريقيا تفصله عن روما والقسطنطينية القوات الإسلامية المعادية. فالنقود المسيحية في إثيوبيا، حيث لا يزال الدين فيها قوياً إلى اليوم، يمكن تتبعه إلى رجل واحد، هو الملك إيزانا ملك أكسوم. وتحت قيادته نمت أكسوم لتصبح قوة إقليمية تتمتع بنفوذ هائل، ونشرت نفوذها إلى البلاد المجاورة عن طريق الغزو والتجارة والاستكشاف.

نشأ إيزانا في أكسوم (والتي تُنطق أحياناً أكسيوم)، فيما يعرف اليوم باسم إريتريا في مرفأ على البحر الأحمر يسمى أدوليس في وقت ما بعد سنة ٥٠٠ ق.م. ويوصفها قوة تمخر البحار، فقد اتصلت أكسوم بالحضارة الإغريقية في مصر في عهد البطالمة، وبحلول القرن الأول الميلادي كانت تتعامل تجارياً مع مناطق بعيدة مثل: الصين والهند.

وفي أثناء حكم إلالا أميدا والد إيزانا، قام فيلسوف يسمى ميروبيوس من مدينة صور فيما هو اليوم لبنان، برحلة إلى الهند، واصطحب معه ولدين هما: فرومنتيوس وإيديسيوس، غير أن السفينة لما رست في ميناء أدوليس كى تتزود بالمؤن هاجمتها جماهير عدائية، فالزوار كانوا رعايا رومان، وكان إلالا أميدا في صراع مع روما منذ أمد بعيد. وقُتل كل الأجانب فيما عدا الولدين؛ ولم يكتف إلالا أميدا بالإبقاء على حياتهما وإنما أخذهما إلى قصره.

وذكر المؤرخ روفينوس من القرن الرابع، وهو المصدر الأساسى لتلك الرواية (التي أيدتها الوثائق الأكسومية)، أن إيديسيوس على الرغم من أنه كان طيب القلب فإنه كان بسيط العقل، بينما كان ذكاء فرومنتيوس يفوق سنه، وفي الوقت المناسب عينه الملك

مسئولاً عن بيت المال وسكرتيراً. وبعد وفاة إيللا أميدا ألحت أرملته صوفيا - التي كانت قد عُينت وصية على ابنها إيزانا الطفل - على الأجنبيين، اللذين كانا قد صاروا شبابين، أن يبقيا ويساعداها.

كان الاثنان فرومنتيوس وإيديسيوس مسيحيين أتقياء، ويمرور الوقت تولدت لديهما رغبة فى مغادرة أكسوم والدخول فى زمرة الوظائف الكنسية. ويوصفه ملكاً، سمح لهما إيزانا بذلك، فرحل إيديسيوس إلى صور وفرومنتيوس إلى الإسكندرية - حيث رسمه بطريرك المدينة أسقفاً وأعادته إلى أكسوم كمبشر. وفى أغلب الظن أن إيزانا تحول إلى المسيحية بعد عودة فرومنتيوس وتحت تأثيره.

وحفظت النقود التى صُكَّتْ فى عهد إيزانا قصة تحوله إلى المسيحية. فقبل أن يتحول حملت النقود رمزاً وثنية، ولكنها بعد ذلك صارت تحمل صورة الصليب، الذى ظهر أيضاً فى نقوش عديدة فى أرجاء إمبراطوريته. ونُقشت تلك النقوش بلغة الجيز أو الإثيوبية القديمة، ولغة سبأ (لغة جنوب الجزيرة العربية) واليونانية، وبهذا أكدت الطبيعة العالمية ذات الإثنيات المتعددة لمملكة إيزانا. ومن بين ما احتفظت به النقود سجلات للغزوات، فأحد النقوش يشير إلى أن إيزانا عين إخوته شايزانا وهادفان لإخضاع قبائل البجة الذين كانوا يغيرون على القوافل التجارية فى الشمال. وتتحدث نقوش أخرى عن رحلات إلى أماكن أخرى تعذر تحديدها. ومن الجائز أن نستنتج من تلك السجلات أن إيزانا قد شرع فى غزو جنوب بلاد العرب، التى سيطر عليها حكام أكسوم بحلول القرن السادس.

وعلى الرغم من أن مصر كانت فى وقت من الأوقات القوة المهيمنة على المنطقة فإن روما أزاحتها وحلت محلها - ويحلول زمن إيزانا كانت قوى روما بدورها قد بدأت فى التضعف. وكانت كوش، فيما هو السودان الآن، واحدة من القوى العظمى فى أزمنة سابقة، وكانت قد سيطرت على مصر فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين المصرية (٧١٢-٦٦٧ ق.م.). غير أن نفوذ كوش أيضاً كان قد زوى، وكال إيزانا لتلك الإمبراطورية الضربة الأخيرة عندما غزا مرو العاصمة الكوشية القديمة.

ولقرون تالية بقيت أفسوم قوة استقرار فى مناطق جنوب الصحراء فى إفريقيا و جنوب بلاد العرب، ويعود الفضل فى ذلك لإيزانا، كما بقيت أفسوم مسيحية حتى بعد أن قضى غزو المسلمين لمصر على نفوذ أسقف الإسكندرية. ونتيجة لذلك طورت إثيوبيا نسختها القبطية الخاصة من المسيحية، التى بقيت متميزة تمام التميز عن الكاثوليكية الرومانية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية.

جدسون نايت

إيليويس جالوس (Aelius Gallus)، جندي روماني

(اشتهر ٢٥ ق.م.)

في سنة ٢٥ ق.م. قاد إيليويس جالوس حملة عسكرية إلى ما كان يطلق عليها الرومان اسم 'بلاد العرب السعيدة' وهي اليمن الحديثة. وكان الغرض من رحلته أن يمد السيطرة الرومانية إلى كل أرجاء شبه الجزيرة العربية ويتيح لإمبراطوره السيطرة على الدول المنتجة للتوابل في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، غير أن الأمور لم تسر كما خطط لها. وما خرج به لم يكن مقاطعة جديدة وإنما درس للإمبراطورية التي بدت وكأنها هي إمبراطورية لا تقهر: وهو أنه حتى روما بكل قوتها ونفوذها الذي لا يقاوم، لها حدودها التي لا تستطيع تخطيها.

وتفاصيل حياة إيليويس قبل حملته مجهولة، نصب حاكماً لمصر وهو المنصب الذي خلف فيه جايوس كورنيليوس جالوس (ح ٧٠-٢٦ ق.م.)، رغم أن علاقتهما الأسرية - إن وجدت - غير معلومة. وتلقى جالوس أوامر من أغسطس (٦٣ ق.م. - ١٤م) أول إمبراطور لروما، أن يقوم بحملته.

كانت معلومات الرومان عن بلاد العرب متناثرة وسطحية على أحسن تقدير. وكان الرومان يعلمون أن القوافل التجارية تذرع شبه الجزيرة ذهاباً وجيئة، وأن الممالك الجنوبية على جانب كبير من الثراء، أما ما يقع بينهما من أراض فكانت معلوماتهم عنها غامضة ولا تتعدى أنها صحراء كبيرة ممتدة. أبحر جالوس من مدينة كليوباتريس إلى خليج السويس مصطحباً معه قوة مشكلة من مصريين ويهود وأنباط، والأخيريون هم شعب عربي كانوا في تحالف مزعزع مع روما. كانت بداية الرحلة بداية سيئة عندما واجهت السفن صعوبات أثناء عبورها خليج العقبة، وعندما وصلوا مدينة لوك كوم أو الحوراء انتشر فيهم وباء أجبرهم على تأخير الحملة لسته أشهر. إلا أنهم في النهاية ترحلوا وبدأوا رحلتهم عبر الصحراء مصطحبين معهم قوة من الجمال المحملة بالمياه.

وبعد أن ساروا لما يقرب من ٨٠ يوماً اقتحموا عدة مدن في منطقة نجرانا، وهي نجران الحديثة، ثم قاموا بحصار فاشل لمدينة مرسيابا أو مأرب فيما هو اليوم اليمن، وفي ذلك الوقت كان مخزونهم من المياه قد بدأ في التقلص، ولكن أدلاء جالوس من العرب أصروا أنهم على مسيرة يومين من تول البخور الثرية على الساحل. وفي النهاية تحول اليومان إلى ستة أشهر، وأخيراً قرر جالوس الانسحاب وهو حائق. وتأكدت شكوكه في حلفائه المزعومين عندما استغرق منه الوصول إلى البحر الأحمر ٦٠ يوماً بدلاً عن ستة أشهر.

وعند وصولهم إلى البحر عبره الجيش إلى ميوس هورموس أو أبو شعار في مصر. ولم يفقدوا إلا سبعة رجال في المعارك القتالية، لكن أعدادهم تناقصت كبير من جراء الأمراض والجوع والمناخ - وهم لم يفشلوا في غزو بلاد العرب فحسب وإنما أيضاً لم يكتسبوا سوى معارف ضئيلة عن المنطقة. وفي الحقيقة فإن المعلومات المخابراتية التي توصلوا إليها تماثل إلى حد كبير ما توصل إليه السوفييت عند غزوهم الفاشل لأفغانستان بعد ذلك بألفى عام؛ وهو أن ثمة بلاداً تحميها سمات طبيعية وعوائق حضارية حيث يصبح ثمن الغزو باهظاً على أى قوة استعمارية.

جدسون نايت

تاي تسونج، إمبراطور صيني

(١٠٠-٦٤٩)

كان تاي تسونج واحداً من أعظم أباطرة الصين. وفي عهده وصلت الصين إلى أعلى ذراها الثقافية واستردت جانباً كبيراً من شخصيتها القومية. وساهم تاي تسونج وأبوه في طرد القوات الأجنبية وإعادة توحيد الصين، مما مهد لها العودة إلى قوتها السابقة.

ولد تاي تسونج باسم لي شيه-مين حوالي سنة ٦٠٠ في الصين التي كانت نكرياتها عن الأمجاد القديمة لا تزال حية فيها. ولا يعرف إلا القليل عن حياته المبكرة سوى أنه كان له أخوان على الأقل أكبر منه سناً. وكان أبوه قائداً في الجيش الإمبراطوري وقد سنم من حال الصين بوصفها قوة عظمى سابقة، وثار ضد الحكومة واستولى على الحكم لنفسه حوالي سنة ٦١٧. وكانت تلك الثورة هي الضربة القاضية التي أجهزت على أسرة سو، وتأسست أسرة تانج وكان والد تاي تسونج أول إمبراطور لها. وعلى الرغم من أن مصادر عديدة أكدت أن تاي تسونج لعب دوراً مؤثراً في ثورة أبيه، فإن المعلومات الأحدث تظن أن دوره كان صغيراً نسبياً. غير أنه مما لا شك فيه أنه بوصفه قائداً في جيش والده كان دوره أساسياً في الاستيلاء على العاصمة الشرقية لو-يانج، وكذلك السهل الشرقي الاستراتيجي. وعندما انتهت الثورة نهاية ناجحة تعين تاي تسونج قائداً عسكرياً وحاكماً مدنياً على الأقاليم الشرقية، وأحاط نفسه بحكومة من المديرين الأكفاء.

وحوالي ذلك الوقت دخلت العلاقات بين تاي تسونج وأخيه الأكبر منعطفاً خطيراً عندما هاجم الأخ الأكبر الحكومة للاستحواذ على المديرين الأكفاء، وقام بمحاولة انقلاب ضد أبيه، كما دبر أكثر من محاولة لاغتيال تاي تسونج. وفشلت محاولة اغتيال أخيرة لتاي تسونج من قبل أخويه الأكبر والأصغر، وكان تاي تسونج قد أبلغ بها

مسبقاً فدبر كميناً لإخوته وقتلهم، ولما علم الأب بأمر الكمين تنازل عن العرش مما سمح لتاي تسونج بتولى الملك كإمبراطور.

كان أحد أسباب الثورة التي أدت إلى قيام أسرة تانج هو إدراك أن الصين لم تعد قوة عظمى، وهو إدراك كان صحيحاً في مجمله. ففي ذلك الوقت كانت الصين قد فقدت عدة أقاليم لصالح دول خارجية، وصار للأجانب (غالبيتهم من الأتراك) نفوذ قوى فى الشئون الصينية. ونجح تاي تسونج فى معالجة تلك التحديات للشعور القومى، وقاد حملات لطرده الأتراك والتخلص من النفوذ التركى من الصين وإعادة توحيد تلك الأقاليم مع الصين. وساهم استرداد تلك الأراضى واستعادة النفوذ الصينى فى إحياء الثقافة الصينية مما أفرخ ازدهاراً للفنون والعلوم الصينية. وفى الحقيقة، فإن كثيراً من البُحاث يعتبرون أن السنوات الأخيرة من حكم تاي تسونج وحكم خلفائه المباشرين تمثل أوج الحضارة الصينية، وفيها تفوقت الإنجازات الصينية على مثيلاتها فى الغرب.

وأدرك تاي تسونج بصفته إمبراطوراً أنه لا يستطيع أن يستمر فى فرض الضرائب على شعبه بنفس المعدل الذى كانت الأسرات السابقة تسير عليه لأن الشعب لم يعد لديه ما يدفع عنه ضرائب. فحاول أن يعيد توزيع الملكية الزراعية من الأغنياء إلى الفقراء مقارنةً بالضرائب الثقيلة بإنسان يتغذى على لحمه. وعلى الرغم من أن ذلك أسهم فى مساعدة الفلاحين ونتج عنه زيادة فعلية فى تدفق السيولة النقدية فإنه أغضب الأقوياء أيضاً.

ومن ابتكارات تاي تسونج الأخرى كانت امتحانات الخدمة المدنية التى أدت إلى تطويع البيروقراطية الصينية وجعلها تتماشى مع القوانين والأعراف. وجعل ذلك من الخدمة فى الحكومة أمراً يحكمه التعليم والذكاء لا العلاقات الأسرية وأنتج حكومة مكونة من أحسن وأنبه البشر بدلاً عن أحسنها علاقات. وترتب على ذلك وغيره من التحسينات أن أصبحت الحكومة أفضل.

وأخيراً، شجع تاي تسونج العلاقات مع الحضارات الأخرى. وبخلاف الأسر الملكية السابقة تمتعت أسرة تانج بفترة من الهدوء النسبي واختفاء المجاعات الواسعة النطاق. وسمحت لهم تلك المزايا بالاتصال بحضارات أخرى مع الرغبة لذلك طواعية وعن طيب خاطر. ولم تنظر أسرة تانج إلى الصين بوصفها منارة الحضارة وسط بحر من الهمج والبرابرة. وبدلاً عن ذلك عمد أباطرة تانج إلى البحث عن المعارف الرومانية والإسلامية والهندوكية وغيرها من القوى غير الصينية، لتوسيع آفاق مداركهم.

مات تاي تسونج سنة ٦٤٩، بعد حكم رائع ومبهر بوصفه إمبراطوراً. وخلف وراءه إمبراطورية حية مزدهرة وأسرة استمرت في الحكم ٢٥٠ سنة أخرى.

ب. أندرو كرم

جايوس يوليوس قيصر (Gaius Julius Caesar)، قائد وسياسي روماني

(١٠٢ ق.م. - ٤٤ ق.م.)

مما لا ريب فيه أن يوليوس قيصر، أهم شخصية في تاريخ روما، قد مهد الطريق لنهاية الجمهورية وبداية الإمبراطورية بزعامة ابن أخته أوكتافيان أو أغسطس قيصر. وعندما كان قائداً عسكرياً قام بحملات في بريطانيا وأماكن أخرى، وبوصفه دكتاتوراً لروما قام بإصلاحات ذات شأن. ولكن أعماله، بما في ذلك علاقة الحب الشهيرة التي جمعتها مع كليوباترا، تسببت في انهيار الثقة به حتى بين أخلص خلصائه الذين تأمروا لاغتياله.

ولد قيصر في ١٢ يوليو سنة ١٠٢ ق.م.، لعائلة أرستقراطية ولكنها لم تكن ثرية. وفي طفولته نشب في روما صراع بين حزب الأرستقراطية بقيادة سولا (Sulla) (١٣٧-٧٨ ق.م.)، والحزب الشعبي - رغم أن أعضائه كانوا أرستقراطيين أيضاً - الذي كان يحدد توزيعاً أكبر للسلطة. ولما كانت جوليا خالة قيصر متزوجة من ماريوس (ح ١٥٧-٨٦ ق.م.) زعيم الحزب الشعبي فقد صار مرتبطاً بذلك الحزب، وزاد من أواصر ارتباطه به زواجه من كورنيليا (ماتت ٦٧ ق.م.) ابنة سينا (ماتت ٨٤ ق.م.) حليف ماريوس. وفيما بعد أنجبا ابنة هي جوليا.

ضرب سولا مثلاً خطيراً، قلده قيصر فيما بعد، عندما دخل بقواته مدينة روما سنة ٨٨ ق.م. وكان معنى ذلك انتهاء سلطان ماريوس، وطلب سولا من قيصر أن يطلق كورنيليا. ورفض قيصر ذلك المطلب، واضطر إلى الاختباء. وأقنعت أسرة والدة قيصر سولا بأن يرجع عن قراره، وعاد قيصر إلى روما والتحق بالجيش.

وفي أثناء خدمته في آسيا الصغرى سنة ٨٠ ق.م. نال قيصر وساماً عسكرياً رفيعاً لإظهاره الشجاعة في معركة للاستيلاء على ميتيلين في جزيرة ليسبوس، ثم شارك في حرب ضد قرصنة من سيليزيا. وبعد موت سولا عاد قيصر إلى روما سنة ٧٧ ق.م.، ولكنه بعد أن اكتسب شهرة بوصفه ممثلاً للدعاء في قضية مهمة، سافر

إلى جزيرة رودس لمزيد من التدريب على الخطابة. وفي طريقه إلى هناك أسره قراصنة سيليزيون وأبقوا عليه حتى دفع فدية. وبعد تحرره قاد قوة هزم بها القراصنة، ثم قام بهجوم ناجح - نون أن يأمره أحد بذلك - ضد مثراداتيس البونتي (Mithradates of Pontus) حكم ١٢٠-٦٢ ق.م.). وعقب ذلك مباشرة حظى بأول منصب منتخب له وهو الـ «تربييون» العسكرى، وهو منصب يعنى المدافع عن حقوق العامة ومصالحها.

ماتت كورنيليا سنة ٦٧ ق.م.، وفي خلال سنة كان قيصر قد تزوج ثانية. للمرة الثانية كانت ثمة مصالح سياسية فى تلك الزيجة: فقد كانت بومبيا (Pompeia) حفيدة سولا، وأراد قيصر أن يوثق علاقاته مع كراسوس (Crassus) (ح ١١٥-٥٢ ق.م.)، وكان شخصية محورية فى الحزب الأرسقراطى.

وكان على السياسى، لكى يؤكد مكانته ويحزز تقدماً فى روما، أن ينفق الأموال على الرشاوى ووسائل التسلية البانخة لزملائه من السياسيين ومواطنى روما. وعندما عمل كمحتسب، وهو منصب قضائى يختص بكل ما يتعلق بالشئون العامة، تفوق قيصر على زميله بيبولوس (Bibulus) (مات ٤٨ ق.م.) فى الإنفاق وأنفق على أعظم مجموعة من مباريات المجالدين (gladiators) شهدتها روما. وبعد ذلك حصل على منصب حاكم إسبانيا، حيث عوض كل ما أنفقه من أموال - ربما بوسائل أبعد ما تكون عن الشرف.

وفى الوقت نفسه تورطت بومبيا فى فضيحة عندما تمكن شخص يدعى بولشر من التسلل إلى حفلة أقامتها فى منزلها للنساء فقط وهو متخف فى زى امرأة. فطلقها قيصر فى التو. وسرعان ما انتخب قنصلاً بالمشاركة مع بيبولوس، غير أنه بحلول ذلك الوقت كان قد اتضح جلياً أن ثلاثة أشخاص فقط يمكن اعتبارهم نوى الشأن فى روما، وهم: قيصر وكراسوس وبومبى (Pompey) (١٠٦-٤٨ ق.م.).

وكان الأخير قد عاد لتوه بعد أن هزم مثراداتيس، وشكل الثلاثة سوياً الثلاثى الأول سنة ٦٠ ق.م. بل إن بومبى تزوج من جوليا ابنة قيصر كى يحكم من أواصر

العلاقة بينهما، بيد أنه على الرغم من تعهدهما كلٌ بالإخلاص للآخر فإن العلاقة بينهما لم تكن سلسلة، فإن الصراع بينهما تأخر لعدة سنوات، بينما توجه قيصر إلى بلاد الغال. وفي تلهفه على تحقيق مجد عسكري، ذهب بحثاً عن قتال، وسرعان ما عثر عليه عندما حاولت قبائل هلفتي (Helvetii)، أن تعبر بلاد الغال دون تصريح، قادمة مما يعرف اليوم باسم سويسرا. وساقهم قيصر عاندين من حيث أتوا، ثم تعامل مع قبائل السويبي (Suebi) من جرمانيا. وبعد ذلك، ولكي يمنع قبائل السلط البريطانية من مساعدة أبناء عمومته في القارة، قاد أول غزو روماني للجزيرة البريطانية سنتي ٥٥ و٥٤ ق.م. وأثناء تلك الحملات ربما يكون قيصر قد قتل مليون شخص، لكنه في النهاية وضع كل بلاد الغال تحت السيطرة الرومانية المحكمة.

ماتت جوليا سنة ٥٤ ق.م. وبذلك تقطعت الروابط بين قيصر وبومبي، وفي السنة التالية قُتل كراسوس في آسيا. وسرعان ما أصدر بومبي أوامره لقيصر بالعودة إلى روما، ولما كان قيصر متأكدًا من أنه سوف يُقتل لا محالة إن هو عاد وحده فقد أحضر جيشه معه. وبعبوره نهر روبيكون، وهو نهر قليل الغور يفصل بين إيطاليا وبلاد الغال عبر جبال الألب، فإن قيصر قد تعدى نقطة اللاعودة وأصبحت المواجهة مع بومبي أمراً لا مفر منه.

نقل بومبي قواته إلى بلاد اليونان كي يعيد تنظيمها، في الوقت الذي هزم فيه قيصر فيلق بومبي في إسبانيا. والتقت قوات الرجلين في معركة في فارسالوس (Pharsalus) في بلاد اليونان سنة ٤٨ ق.م.، وعلى الرغم من أن قوات قيصر انتصرت فإن بومبي تمكن من الهرب إلى مصر حيث اغتيل. وأثناء ما كان قيصر في مطاردة محمومة لبومبي سرعان ما تحولت اهتماماته إلى كليوباترا (٦٩-٣٠ ق.م.). وبدأوا في قصة حب وساعدها قيصر في قتالها ضد أخيها بطليموس الثاني عشر (حكم ٥١-٤٧ ق.م.).

وفى الوقت نفسه انتهز فارناسيس (Pharnaces) (حكم ٦٣-٤٧ ق.م.) الابن المراهق لمثراداتيس فرصة انشغال قيصر فى مصر، وحاول أن يسترجع مملكة أبيه فى بونتوس. وتوجه قيصر إلى آسيا الصغرى وقضى على جيش فارناسيس فى خمسة أيام. وبعدها أدلى بتصريحه الشهير عن انتصاره: "أتيت، ورأيت، وغزوت" أو باللاتينية (Veni, vidi, vici)

عاد قيصر إلى روما سنة ٤٧ ق.م.، حيث تولى سلطات الدكتاتور، وانغمس بسرعة فى سلسلة من الإصلاحات. وأهمها مجهوداته فى سبيل الإقلال من البطالة بإجباره أصحاب الأعمال على استئجار رجل حر مقابل كل عبيدين يعملان فى حقوله. ورفع عدد أعضاء مجلس الشيوخ من ٣٠٠ إلى ٩٠٠، وأدخل زعماء القبائل السلطية فى بلاد الغال فى الهيئة التشريعية لروما.

وأمكن لقيصر أن يجمع بين سلطات وظائف سياسية متعددة، مما منحه سلطات لم يتمتع بها أحد قبله من الحكام الرومان؛ غير أنه بدا وكأنما يطلب المزيد. فوضع صورته على النقود المسكوكة، وهو امتياز لم يُمنح من قبل إلا للآلهة، وأعلن أن شهر ميلاده سوف يتحول اسمه من كوينتيلوس إلى يوليوس أو يوليوس. وبدلاً عن أن يخاطب أمام مجلس الشيوخ وهو واقف، كما كان الحكام يفعلون دائماً من قبله، فإنه صار يخاطب المجلس وهو جالس - أى أقرب إلى ملك من مجرد مواطن. بل إن مارك أنتونى (٨٢؟-٣٠ ق.م.) زميله الأحدث سناً حاول إقناعه بوضع تاج على رأسه.

ولو كان قيصر قد قبل التاج لصار فى ذلك إهانة بالغة للمفاهيم الرومانية عن الحكومة، حيث كان سيصبح هدفاً للاغتيال الفورى. غير أن الاغتيال لم يتأخر كثيراً، فقبيل مغادرته فى حملة فى بلاد فارس خطط قيصر أن يخاطب فى مجلس الشيوخ بمناسبة العيد الموافق ١٥ مارس سنة ٤٤ ق.م. ولكنه لم يكن معلوماً لديه أن ما يقرب من ٦٠ رومانياً من ذوى النفوذ قد خططوا لاغتياله - يقودهم بروتوس (Brutus) (٨٥-٤٢ ق.م.) وكاسيوس (Cassius) (مات ٤٢ ق.م.). وبينما كان يدخل

إلى قاعة مجلس الشيوخ تكأناً عليه القتلة بالخناجر وطعنوه ٢٣ مرة. ووقع على أوكتافيان (٦٣ ق.م. - ١٤ م) ابن أخت قيصر عبء الانتقام من القتلة وهو الشيء الذي فعله أثناء استيلائه على السلطة وتأسيس ما صار يُعرف باسم الإمبراطورية الرومانية.

جدسون نايت



يوليوس قيصر

جريجورى الكبير، حبر أعظم إيطالى

(حوالى ٥٤٠-٦٠٤)

عندما أصبح جريجورى الأول أو جريجورى الكبير حبراً أعظم سنة ٥٩٠، كانت الكنيسة بل كل غرب أوروبا لا تزال تترنح من صدمة تدمير الإمبراطورية الرومانية الغربية. ويعد أن فشل جريجورى فى الحصول على مساندة الإمبراطور الرومانى الشرقى، أو البيزنطى، تخلى عن كل أمل فى إعادة بناء القوة الرومانية فى الغرب، وشرع فى بناء الكنيسة ككيان سياسى قوى ومعتمد على ذاته. ويعمله هذا رسخ مؤللاً للحضارة الغربية أثناء الأيام المخيفة لعصور الظلام وبدأ يوحد كل الغرب تحت راية الكنيسة الكاثوليكية.

ولد جريجورى لأسرة رومانية ثرية وقوية، غير أن روما التى عرفها كانت مجرد شبح لمجدها الزائل: فقد حولها إلى أنقاض قرنان من الدمار والتخريب بواسطة القبائل الهمجية مثل اللومبارد. وكان جيله واحداً من آخر الأجيال التى حصلت على تعليم على الطريقة القديمة الذى أفرز عديداً من الرومان حسنى التعليم فى الماضى، ويعد أن تلقى تعليمه تولى جريجورى المنصب الرومانى القديم منصب الحاكم (prefect) سنة ٥٧٢ .

وفى الثلاثينيات من عمره أصبح جريجورى مهتماً بالحركة الديرية النامية. وفى بادئ الأمر قنع بأن ينشئ الأديرة لغيره - واحد فى روما وستة فى صقلية على أراض تملكها أسرته - غير أنه فى سنة ٥٧٤ أو ٥٧٥ قرر أن يهجر العالم الخارجى ويتحول هو نفسه إلى راهب.

ويعد ست سنوات تلقى تكليفاً من البابا بيلاجيوس الثانى (حكم ٥٧٩-٥٩٠) بأن يرسله كمبعوث لدى البلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية. وعلى الرغم من فشله فى مهمته للحصول على العون البيزنطى للدفاع عن روما ضد موجة أخرى من موجات الغزو

اللومباردى، فإننا نشاطه لفت أنظار قيادات الكنيسة الذين اختاروا جريجورى خليفة لبيلاجيوس.

وفى العام الذى اختير فيه حبراً أعظم كانت ثمة مجاعة وفيضان فى روما، فضلاً عن طاعون فى أجزاء شتى فى أوروبا. واعتبر جريجورى وكثيرون غيره من المسيحيين مثل تلك الأحداث دليلاً على أن نهاية العالم قد صارت وشيكة كما تنبأ بذلك العهد الجديد، وأعطاه ذلك إحساساً بالعجلة كى يسارع بإعادة أكبر عدد من الناس إلى الحضيرة قبل رجوع المسيح.

وكان من المثير للسخرية أن يجد جريجورى نفسه فى موضع مسئولية روحية وسياسية كبرى، لأنه صرح فى مرات عديدة بأنه كان يفضل حياة الدعة والهدوء فى دير. وفى الحقيقة فإنه طوال سنواته باعتباره حبراً أعظم انتهج سبيلاً فى الحياة أشبه بالرهبان، بما فى ذلك الإقلال من الطعام والنوم، مما أضعف من أدائه لواجباته. إلا أنه داوم على الحياة بطاقة لا تبدو لها نهاية.

وفى تلك الأوقات اشتد التنافس بين أساقفة القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية وبين نظرائهم فى روما على زعامة العالم المسيحى. وكان جريجورى يؤكد أن ثمة أساساً توراتياً يؤيد تفوق روما، وحاول مرة أخرى أن يستميل تأييد الإمبراطور الذى كان بالطبع يؤيد القسطنطينية. وعند تلك النقطة صمم جريجورى على أن يقود مسيحى إيطاليا سواء أيدته الإمبراطور الشرقى أو لم يؤيده، وهو قرار اكتسب أهمية فائقة عندما سقطت القدس وأنطاكية فى يد المسلمين بعد وفاته بسنوات قليلة. (وأصبحت القسطنطينية مقر الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التى استقلت عن روما رسمياً سنة ١٠٥٤).

شكل قرار جريجورى حجر زاوية للسياسات فى العصور الوسطى: فبدلاً من التعويل على ملك ليحميهم من اللومبارد، أو ليوزع الحبوب فى أوقات المجاعة، تولى جريجورى تلك الأمور بنفسه. وبهذا صارت البابوية منصباً سياسياً فضلاً عن كونها

منصباً روحياً. ووصلت قوة البابوية إلى أقصى ذراها فى القرون التالية، ويمكن أن نعزو كل ذلك إلى جريجورى - ولكن جريجورى فعل ما فعل لا لرغبته فى السلطان وإنما لأنه أحس أنه ليس أمامه خيار آخر.

وفى خلال حياته المهنية المتسمة بنشاط استثنائى كان جريجورى يفقدى السجناء ويرحب باستمرار باللاجئين من أنحاء إيطاليا التى مزقتها الحروب ويؤويهم داخل حدود روما التى كانت تتمتع بأمان نسبي. واتخذ قرارات ضد الأساقفة الفاسدين المدانين ببيع وشراء المناصب الكنسية والزنا وغيرها من الجرائم التى لا تتفق ودورهم كزعماء روحيين. وتعامل بخشونة مع الهرطقة، وإن تفاوض أحياناً مع زعماء اللومبارد الذين كانوا لا يزالون يدينون بالأريوسية (Arianism) وهو معتقد اعتبر مهترطاً سنة ٣٢٥ .

وفى الحق فإن من بين إنجازات جريجورى كان تحويل اللومبارد من الأريوسية المهترطة. كما عمل أيضاً على تحويل الأنجلوساكسون الوثنيين إلى المسيحية بواسطة أوغسطين من كانتربرى (Augustine of Canterbury) (مات ٦٠٤) الذى أرسله جريجورى مبعوثاً له فى بريطانيا. فقد أسس أوغسطين أسقفية كانتربرى التى لا تزال تحتفظ بموقع الزعامة الدينية على المسيحيين الإنجليز حتى اليوم. وتجلت مقدرات جريجورى فى مفاوضاته مع قبائل الفرنجة فى فرنسا والقوط الغربيين فى إسبانيا، رغم أن كلا الفريقين لم يكونا يتقبلان زعامة البابا رسمياً.

ويمكن إدراك تأثير أعمال جريجورى فى جميع أنحاء أوروبا، من الطابع التكرارى للتراتيل الجريجورية - وهو نمط من الغناء يؤديه الرهبان البندكتيون الذين كرسوا أنفسهم، حسب أوامره، للكتابة للأجيال القادمة - وكذلك من القصص العديدة عن المعجزات المتعلقة بحياته وموته سنة ٦٠٤. إلا أن أهم ميراث خلفه هو تحول الكنيسة إلى قوة سياسية وتجمع المسيحية الغربية كتحالف سياسى وروحى تحت زعامة بابا قوى.

جدسون نايت



البابا جريجورى الكبير

حتشبسوت - فرعون مصرى

(حوالى ١٥١٠-١٤٥٨ ق.م.)

لم تكن حتشبسوت السيدة الوحيدة التى حكمت فى الأزمنة القديمة؛ إلا أنها بوصفها فرعوناً مصرياً من الأسرة الثامنة عشرة، كانت السيدة الوحيدة التى حكمت قوة عالمية عظمى فى ذروة عظمتها. وقد فعلت ذلك باغتصابها العرش، وبالتالي فإنها لم تنغمس فى مغامرات عسكرية خطيرة. و عوضاً عن ذلك كرسَتْ نفسها لبناء النُصُب والمباني التذكارية، وسجلت على واحد منها الزيارة التاريخية لمبعوثيها إلى بلاد بونت، وهى بلاد جرت العادة على اعتبارها الصومال الحديث.

أطلق على الابنة الكبرى من ابنتين ولدنا لتحتمس الأول (حكم ١٤٩٣-١٤٨١ ق.م.) وزوجته أحموزى، اسم حتشبسوت ومعناه 'الأولى بين سيدات الأسرة المالكة'. وعندما كانت لا تزال بنتاً صغيرة زوجها أبواها من أخيها غير الشقيق تحتمس الثانى (حكم ١٤٨١-١٤٧٩ ق.م.)، وهو ابن تحتمس الأول من زوجة أخرى. وكان الزواج بين الإخوة شائعاً فى مصر، وفى حالة تحتمس الثانى قوى ذلك من فرص اعتلائه العرش لأنه، بخلاف حتشبسوت، لم يكن أبواه الاثنان من الأسرة المالكة.

واقترح بعض المؤرخين أن تكون حتشبسوت قد دست السم لتحتمس الثانى كى تصير فرعوناً، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، وهو أمر غير محتمل، فإنها كانت ستصاب بخيبة أمل عند وفاته. فمصر لم تكن مهياة لتقبل تتويج امرأة على العرش، ولو كان لحتشبسوت ابن لصار هو ملكاً. غير أنها لم تنجب ابناً ولهذا تُوج ولد لتحتمس الثانى من إحدى محظياته فرعوناً باسم تحتمس الثالث (حكم ١٤٧٩-١٤٢٥ ق.م.).

وفى بادئ الأمر عملت حتشبسوت كمجرد وصية على الملك الصغير، الذى لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره عندما تولى العرش. وأرسلت حتشبسوت بعثة إلى جنوب

مصر لجلب الجرانيت لبناء مسلتين كُسيّتا بالذهب ووُضعتا في معبد الكرنك. وترأس البعثة مستشارها الرئيسى سننموت.

غير أنها فى السنة السادسة من حكم تحتمس ادعت أن الإله آمون تحدث إليها شخصياً وأمرها أن تتولى العرش. ولهذا أعلنت نفسها 'ملكاً' على مصر، وبهذا قدمت نفسها بوصفها رجلاً كاملاً وباللحية الاحتقالية. وساعدها موظفون أقوياء، كان أهمهم سننموت، على تثبيت موقفها، رغم أنها استمرت فى الادعاء بأنها تحكم بالمشاركة مع تحتمس الثالث.

وفى حوالى سنة ١٤٧٢ ق.م. أرسلت حتشبسوت خمس سفن من القصير وهو ميناء على البحر الأحمر إلى بلاد بُنت. وعلى الرغم من ادعائها بأن رحلتها تلك كانت أول رحلة فإن مصر كانت تتاجر بالفعل مع ذلك البلد، الذى حدد بعض المؤرخين موقعه بأنه ما بين إريتريا الحديثة والصومال، منذ ما يقرب من سبعة قرون. وهناك نقش بارز فى مقبرتها يسجل تلك الرحلة، ويصور شعب البُنت متماثلين جسدياً مع المصريين أنفسهم: نحيلين وذوى سمات دقيقة وشعر طويل. غير أن ملكة البُنت كانت امرأة غريبة الشكل - قصيرة وسمينة وذات عجز ضخم. وتسجل النقوش أيضاً أن الغرض الرئيسى من البعثة كان التجارة: كانت السفن محملة بالمنتجات الباهظة الثمن لبلاد بُنت والأخشاب الثمينة والراتنج العطرى والبخور، مع كميات من خشب الأبنوس والعاج... كما سجلت أيضاً ملاحظات دقيقة عن نباتات وحيوانات ذلك البلد.

وفيما بعد أرسلت حتشبسوت بعثة أخرى إلى مصر العليا وعدة بعثات إلى شبه جزيرة سيناء لجلب الأحجار لبناء الأبنية والنُصب التذكارية. وتصور النقوش على تلك النُصب حتشبسوت كملكة اختارتها الآلهة لمهمة خاصة هى إعادة بعث مصر بعد الدمار الذى خلفه غزو الهكسوس قبل ذلك بحوالى قرنين. وكان فى ذلك مبالغة كبيرة، ولا شك أنها كانت محاولة لتثبيت شرعيتها كحاكم.

واقترح بعض الباحثين أن حتشبسوت وسنموت كانا عاشقين؛ وبصرف النظر عن ذلك فقد كانت العلاقات بينهما وثيقة. وفي السنة التاسعة عشرة من حكمها اختفى سنموت من السجلات الرسمية، ولعله فقد حظوته لديها، وبعد ذلك بثلاث سنوات أخرى، اختفى اسم حتشبسوت بدوره من قوائم الفراعنة. ويفترض أنها ماتت، وإن كان من المحتمل أن يكون تحتمس الثالث قد أزاحها من على العرش.

وفي خلال حكمه الطويل عمل تحتمس الثالث، الذي اتجه إلى الغزوات التي نشرت الحكم المصري في فلسطين وبلاد كوش - وبهذا وصلت مصر إلى أقصى امتداد إقليمي لها - عمل على محو كل الأدلة على أن حتشبسوت قد حكمت مصر. فحطم تماثيلها وأزال اسمها من على عدد من النُصب، وفيما بعد أصبحت قوائم الملوك تتضمن فرعوناً وهمياً مكانها هو أمنسيس. وعلى الرغم من كل تلك الجهود لمحوها من الذاكرة فإن اسم حتشبسوت بقي صامداً ومعه كل المعارف عن امرأة حكمت أقوى أمة على ظهر الأرض.

جدسون نايت



حتشبسوت

زينوفون (Xenophon) - جندي ومؤرخ إغريقي

(٤٣١٤ - ٣٥٤٤ ق.م.)

إن أكثر ما يشتهر به زينوفون هو كتابته لكتاب 'أناباسيس' الذي يؤرخ لحملة كوروش الأصغر (٤٢٣٩-٤٠١ ق.م.) الفارسية والدور الذي لعبه زينوفون في قيادة المرتزقة الإغريق في طريق عودتهم إلى البحر المتوسط بعد وفاة كوروش. كتب زينوفون في موضوعات عديدة متفرقة، وكان نثره مثار الإعجاب في العالم القديم وترك أثراً عميقاً على الأدب اللاتيني.

ولد زينوفون حوالي سنة ٤٣١ ق.م. ابناً لجريفلوس الثرى الأرستقراطي الإثيني، وبلغ أشده أثناء حرب البيلوبونيز (٤٣١-٤٠٤ ق.م.). وانضم إلى الدائرة الفكرية المحيطة بسقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م.) وتعاطف مع سلوكهم الانتقادي تجاه ديمقراطية أثينا. وأيد أنظمة حكم أقلية مجلس الأربعمئة التي لم تعش طويلاً (٤١١ ق.م.) وكذلك حكم الثلاثين طاغية (٤٠٤-٤٠٣ ق.م.). وعندما أعاد ثراسيبولوس (Thracubulus) الديمقراطية في أثينا أصيب زينوفون بخيبة أمل وفضل أن يبحث عن مصيره في مكان آخر.

وفي سنة ٤٠١ ق.م. التحق زينوفون بقوة من المرتزقة الإغريق في خدمة الأمير كوروش في سارديس بليديا. وكانت الحجة التي تدرع بها كوروش لجمع تلك القوة هي تخليص ساترابيته (إقليمه) من سكان التلال من البيسيديين. فسار إلى داخلية البلاد بقوة مشتركة شملت ١٤,٠٠٠ إغريقي. وبينما كان الجيش يتوغل في سوريا أدرك الإغريق أن الهدف الحقيقي لكوروش هو أن يخلع أخاه أرتكزسيس الثاني من عرش فارس. وفعلت وعوداً بغنائم نفيسة فعلها في إقناع الإغريق باتباع كوروش جنوباً على نهر الفرات تجاه بابل.

تقابل الجيشان المتناحran في كوناكسا في أوائل سبتمبر. وأثبتت قوات الإمبراطورية الفارسية الخفيفة التسليح عجزها عن مواجهة الهوليت الإغريق، وهم

المشاة المدججون بالسلاح. غير أن كوروش قتل بينما كان النصر فى متناول يديه، وفر مرتزقته من الآسيويين فى حال من الفوضى العارمة. ولم يُهزم الإغريق ورفضوا الاستسلام. وأثناء المفاوضات اغتيل قاداتهم بخسة ونذالة، تاركين الإغريق دون قيادة. وكان زينوفون من بين القواد الجدد الذين انتخبوا فى التو. ولعب دوراً مهماً أثناء ما كان العشرة آلاف، كما صاروا يعرفون فيما بعد، يشقون طريقهم قتالاً فى اتجاه الشمال فى أراضى كردستان وأرمينيا إلى ميناء طرابزوس الإغريقى على البحر الأسود. وأظهرت رحلتهم ذات الألف وخمسمئة ميل (٢٤١٤ كيلومتراً) والتي استغرقت خمسة أشهر، مدى الضعف الداخلى الأساسى للإمبراطورية الفارسية.

استمر زينوفون يقود العشرة آلاف، وقاتلوا فى بلغاريا لحساب الأمير التراقى سوئيس قبل أن يعودوا مرة أخرى إلى آسيا الصغرى سنة ٣٩٩ ق.م. ومعهم قوة من الإسبرطيين. وهناك دافعوا عن المدن الإيونية ضد عدوان فارسى جديد. وحدث أثناء تلك الفترة أن زينوفون تقابل مع الملك الإسبرطى أجيسيلوس الثانى (٤٤٤-٣٦٠ ق.م.)، الذى كان زينوفون يكن له إعجاباً شديداً. وعاد إلى إسبرطه برفقة أجيسيلوس وخدم فى قواته. وكان حاضراً لمعركة كورونيا (٣٩٤ ق.م.) لما هزم الملك الإسبرطى تحالفاً من المدن الإغريقية شمل أثينا. وبعد ذلك بفترة وجيزة نفى زينوفون من أثينا بتهمة الخيانة.

واعترافاً بجميله فى خدمتها كافأت إسبرطه زينوفون بضيعة فى سكيلوس بالقرب من أوليمبيا، وتزوج وأنجب ولدين وكان يقضى أوقات فراغه فى الصيد ولقاء الأصدقاء والكتابة. وبعد أن هزمت مدينة طيبة إسبرطه فى معركة لوكترا (٣٧١ ق.م.) لجأ زينوفون إلى كورينث. وربما يكون قد عاد إلى أثينا بعد أن رُفِع عنه النفى (٣٦٥ ق.م.). وعلى أية حال فإن ولديه نالا تعليمهما فى أثينا، وقتل أكبرهما فى مانتينيا (٣٦٢ ق.م.) وهو يقاتل فى سبيل أثينا.

وإضافة إلى "أناباسيس" فإن أهم عمل أدبى لزي نوفون هو كتاب "هلينيك" (Hellenica)، الذى قصد به أن يكون استمراراً لكتاب ثوسيديديس 'تاريخ الحروب

البيلوبونيزية مغطياً الفترة ما بين ٤١١ إلى ٣٦٣ ق.م. كما كتب عدداً من المحادثات السقراطية (Socratic dialogues) وكتب ذكرياته عن سقراط في كتاب "ميمورايبيليا" (Memorabilia) . وشملت أعماله الأخرى 'كيروبيديا' (Cyropaedia) وهو سيرة كوروش الكبير؛ وكُتِبَ عملية عن الفروسية وتكتيكاتها؛ وكتاب عن الصيد؛ وكتاب يكيل فيه المديح لأجيسيلاوس. وهناك كتاب صغير عن مشاكل أثينا المالية كتب قبيل وفاته حوالي سنة ٣٥٥ ق.م.

ستيفن د. نورتون

سانت باتريك (Saint Patrick) - رجل دين بريطاني / إيرلندي

(عاش في القرن الخامس)

كان سانت باتريك أو القديس باتريك واحداً من أشهر القديسين الكاثوليك، وقد أرسلته الكنيسة إلى إيرلنده في منتصف القرن الخامس كي يدخل الإيرلنديين في المسيحية. ولما يربو عن نصف قرن سافر في أنحاء إيرلنده ناشراً العقيدة المسيحية بين قبائل الدرويد (Druids). ويعزى إليه الفضل بصفة عامة في أنه بمفرده أو يكاد، تمكن من تحويل غالبية إيرلنده إلى المسيحية في حياته. وبهذا أصبح القديس الراعي لإيرلنده والرسول القومي.

ولد باتريك في بريطانيا في أخرىات القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس. وكان أبواه من البريتونيين المترمنين، وكان أبوه كالبورينيوس موظفاً في الحكومة المحلية وشماساً في العقيدة المسيحية البريطانية. وفي سن السادسة عشرة اختطفه مغبيرون إيرلنديون وباعوه عبداً في سوق النخاسة. ولما انعزل باللغة والعقيدة وبُعد الشقة عن كل ما كان يألفه، انكب على الصلوات والعقيدة كي ينأى بنفسه عن كل ما حوله. وبعد ست سنوات في العبودية هرب باتريك من سيده على متن سفينة إلى بريطانيا ملتجئاً إلى الشحاذة. وهناك انضم إلى أسرته بعد أن كاد يهلك جوعاً وبعد أن أمسك به مرة أخرى ولكن لفترة وجيزة. وفي تلك الفترة أيضاً قرر أن يكرس نفسه للرب ويصبح كاهناً.

ويذكر باتريك في "اعترافاته" (Confessio)، وهو سيرته الذاتية الروحية، أنه رأى رؤيا تلقى فيها رسالة من الإيرلنديين يلحون عليه أن يعود إليهم. وترك أثراً طيباً في نفوس رؤسائه حتى أنهم وافقوا على أن يرسلوه إلى إيرلنده، أملين أن ينجح فيما فشل فيه سلفه بالاديوس. وعلى الرغم من أن الشكوك ملأت نفس باتريك عن قدراته على الخدمة في إيرلنده فإنه تمالك نفسه بمجرد أن حط بقدميه على الشاطئ، ولم يعد الشك في نجاحه ينتابه بعد ذلك إلا فيما ندر.

ركز باتريك جهوده فى شمال وغرب إيرلنده، ولم يدع مطلقاً أنه حول كل إيرلنده إلى المسيحية، رغم أن كلماته وشهرته انتشرت بسرعة فى كل أنحاء الجزيرة. غير أنه اضطر لأن يكون سياسياً مثلما كان قديساً، لأن أهدافه كانت تتعارض تعارضاً صريحاً مع أهداف حكام إيرلنده.

كان باتريك حريصاً بوجه خاص على أن يزور الملوك المحليين معطياً إياهم هدايا صغيرة ورافضاً أن يتلقى هو هدايا. كذلك كان حريصاً مع الأشخاص الذين كان نفوذهم كفيلاً بتغيير آراء الآخرين. وكان يدرك، مثله فى ذلك مثل العديد من المبشرين المسيحيين، أن تحول ملك إلى المسيحية كثيراً ما يتبعه تحول رعايا ذلك الملك. لأن ملوكاً كثيرين كانوا ببساطة شديدة يفرضون الدين على رعاياهم. غير أن باتريك كان مستعداً لأن يتحدث ويُعَمِّد ويحول كل من يسعى إليه ملكاً كان أم من العامة على حد سواء. وكانت تلك الكياسة الجوهرية هى ما أكسبه احترام أتباعه وإعجابهم.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنه حدث مراراً أنه اعتقل وهُدد بالموت أثناء عمله. وفى كل مرة كان يُطلق سراحه فى النهاية ويعود إلى عظامه بأسرع ما يستطيع. وطوال حياته لم يفقد مطلقاً إيمانه أو ثقته فى مقدرته على إكمال مهمته.

لم يترك سانت باتريك إلا كتابين من تأليفه، أولهما "اعترافات" هو الأشهر فيهما الذى كتبه استجابة لرجال الكنيسة البريطانيين، ويُفصّل فيه تطوره ونموه الروحانى خلال سنوات عمله. وعلى الرغم من أن لاتينيته كانت خشنة وغير منمقة فإن كثيراً من الباحثين أبدوا انبهارهم بالعظمة الأخلاقية والروحانية التى تجلت فى الكتاب وكذلك القوة البسيطة لإيمانه. أما كتابه الآخر "إبيستولا" (Epistola) فهو إداة قوية للمعاملة البريطانية للمسيحيين الإيرلنديين، حتى فى المراحل الأولى للعلاقات بين البلدين.

وبنهاية حياته كان باتريك قد ارتحل في أرجاء إيرلنده وصار مظهراً ثابتاً ومحبوباً في المؤسسة الكنسية. ويقال إن كفته قد صنعه سانت بريجيد، وأن طقوسه الأخيرة قد قام بها سانت تاساك. غير أن تلك الحقائق ليست في أهمية ما أنجزه في حياته المهنية ورحلاته العديدة في كل أنحاء إيرلنده.

ب. أندرو كرم (P. Andrew Karam)



أدخل سانت باتريك المسيحية إلى إيرلندا

سانت برندان - مبشر إيرلندي

(٤٨٤-٥٧٧)

يعد الراهب الإيرلندي سانت برندان واحداً من أكثر الشخصيات غموضاً في تاريخ الاستكشافات في العصور الوسطى. ويدعى البعض أن برندان، الذي أبحر حوالي سنة ٥٢٢، ومعه مجموعة من حوالي ٦٠ رجلاً إلى ما أسماها «الأرض الموعودة»، قد وصل في الحقيقة إلى أمريكا الشمالية. ويردد البعض الآخر أنه زار جزر الكناري وماديرا على أقل تقدير، كما أن هناك من يؤكد أن قصة رحلة برندان مختلفة من أساسها.

ولد برندان، الذي عُرف أيضاً باسم القديس برندان من أرفرت وكونفرت، أو ببرندان الرحالة، بالقرب من مدينة ترالي الإيرلندية الحالية في مقاطعة كيري. وتلقى تعليمه على يد عدد من رجال الكهنوت الذين قُدر لهم، مثل برندان شخصياً، أن يصبحوا قديسين. ونال رسامته قسيساً سنة ٥١٢، وفي الحال شرع في بناء مراكز ديرية في مدن متعددة في أنحاء إيرلندا.

ويشاع أن برندان بعد حوالي ١٠ سنوات من رسامته كاهناً، أبحر غرباً أو جنوباً حسب المصدر الذي تنتقيه من بين عدد من المصادر المكتوبة - وغالبيتها كُتبت فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر. ولقد تضخمت تلك الكتابات عن رحلة برندان حتى أصبح يُطلق عليها عنوان شامل هو «رحلة سانت برندان».

وتقرر غالبية الروايات أن برندان ومعه مجموعة من رهبان آخرين (يتراوح عددهم التقديري من ١٨ إلى ١٥٠ راهباً) انطلقوا بحثاً عن فردوس أرضى، وأنهم بعد رحلة استغرقت سبع سنوات عثروا على تلك البلاد المعروفة باسم "الأرض الموعودة" (تيرا ربروميسیونيس Terra repromissionis) وتعرفت الخرائط التي رُسمت في القرن الرابع عشر على تلك البلاد باسم "الجزر الحسنة الطالع" (Fortunate Isles) وهو الاسم ما قبل الاسم الحديث لجزر الكناري؛ أو ماديرا. غير أنه مع ازدياد التعمق

فى معرفة تلك المناطق فإن الواجهة الافتراضية لرحلة برندان تزحزحت غرباً. وبحلول أواخر القرن السادس عشر صار الجغرافيون يضعون «الأرض الموعودة» فى غرب إيرلندا، ولكن فى أوائل القرن التاسع عشر تم استبعاد القصة برمتها بوصفها مجرد فبركة.

غير أنه حدث فى زمن لاحق أن نشأت نظرية جديدة تتعلق برحلة برندان، وهى النظرية التى حددت وجهتها فى أمريكا. ويميل مؤيدو هذه الفكرة إلى أن تكون دوافعهم شيئاً غير الرغبة المجردة فى المعرفة العلمية - وعادة ما تكون النعرة القومية الإيرلندية والكبرياء الإثنى - ولكن عدداً من الاكتشافات تجعل من تلك النظرية أمراً مثيراً للاهتمام.

وفى سنتى ١٩٧٦ و١٩٧٧ قام باحث بحرى بريطانى يدعى تيم سفيرين وآخرون برحلة فى قارب مشابه للقارب الذى ربما استخدمه برندان، ونجحوا فى السفر من الساحل الإيرلندى إلى نيوفوندىلاند. وهناك أيضاً بعض الأساس لأساطير المستعمرات الشمالية التى أسسها ليف إريكسون (حوالى ٩٧٠-١٠٢٠) وآخرون التى وردت بها إشارات إلى مستعمرة إيرلندية، رغم أنه من غير الواضح أن لها علاقة مباشرة ببرندان نفسه. وينطبق الشيء نفسه على أساطير هنود شاوونى التى تتحدث عن قبيلة من البيض معهم أدوات معدنية كانت تقطن فى فلوريدا قبل وصول الأوربيين بزمن طويل، وكذلك تنطبق على الدعاوى الحديثة التى تذكر ألواحاً من العصور الوسطى منقوش عليها بلغة أوجهام، وهى الأبجدية الإيرلندية القديمة، وقيل إنها عُثر عليها فى وست فيرجينيا.

وهناك احتمال شبه مؤكد أن برندان قام برحلة ما؛ أما وجهتها فتبقى مجالاً للتخمين. وعلى أية حال فإنه عاش ما يقرب من نصف قرن بعد عودته سنة ٥٢٩، وفى هذه الفترة أسس عدداً من الأديرة فى أنحاء الجزر البريطانية. كما سافر بكثافة أيضاً إلى ويلز، وزار الدير الموجود بجزيرة إيونا، وهو مركز مهم للمحافظة على المعارف فى بواكير العصور الوسطى.

جدسون نايت



سانت برندان

سترابون (Strabo) - جغرافى إغرىقى - رومانى

(ح ١٣ ق.م. - ٢٣ م)

لعل كتاب سترابون "الجغرافى" (Geographica) بأجزائه السبعة عشر والذى يناقش العالم المعروف للإغرىق والرومان أيامه، هو أعظم مرجع جغرافى فى العالم القديم. والكتاب مجالاته واسعة والعمل ملئ بملاحظات المؤلف فى الفلسفة والتارىخ والعلوم، وكلها تتيج للقارى الحديث نظرة متفحصه فى أعماق العقل القديم.

نشأ سترابون فى بونتوس (Pontus) وهى مملكة فى آسيا الصغرى غزاها الرومان قبيل مولده بقليل. وانحدر من أسرة ثرية وتلقى أرفع تعليم وفقاً للتقاليد الإغرىقية والرومانية. وفى شبابه تتلمذ على يد مشاهير المعلمين الذين كانوا قد علموا أبناء العديد من علية القوم من الرومان مثل تيرانيو معلم أولاد شيشيرو (١٠٦-٤٢ ق.م.) وكان حجة فى الجغرافيا. وفى أغلب الظن اكتسب سترابون اهتمامه فى هذا الأمر من تيرانيو، الذى كان معلمه فى روما.

وفى روما أيضاً تأثر الشاب سترابون بالرواقيين، الذين تجلت فلسفاتهم فيما بعد فى مقاطع وجمل فى 'الجغرافيا'. وكان لهوميروس (اشتهر فى القرن التاسع أو الثامن ق.م.) تأثير قوى آخر، وكان سترابون يعتبر ملحماته أعمالاً تاريخية، وأشار إليها فيما بعد فى «الجغرافىكا». كما تعرف أيضاً على كتابات مؤرخين وعلماء متعددين من العالم القديم، وارتحل بكثرة فى أنحاء آسيا الصغرى والبحر المتوسط.

سافر سترابون إلى الإسكندرية بمصر سنة ٢٥ ق.م. حيث مكث بها السنوات الست التالية. ويؤكد بعض المؤرخين أنه فى بداية تواجده بمصر صاحب إيلىوس جالوس (عُرف حوالى ٢٥ ق.م.) فى رحلة نيلية. غير أن سيرة حياة إيلىوس نفسه لا تذكر مثل تلك الرحلة، التى يحتمل أنها تمت قبيل قيامه مباشرة برحلته الفاشلة إلى غزو بلاد العرب - وهى الرحلة التى أصبح سترابون واحداً من أهم مؤرخيها وإن كان بطريقة غير مباشرة. ولعل سترابون سافر بدلاً عن ذلك مع جايوس بترونيوس، وهو

قائد عسكري روماني في مصر قام برحلة نيلية حوالى ذلك الوقت. وعلى أية حال فإنه تتبع مسار النيل حتى حدود كوش أو السودان الحالى.

ويعد أن قضى وقتاً فى الإسكندرية عاد سترابون إلى روما، حيث صنف حوالى سنة ٢٠ ق.م. كتابه "مجلد التاريخ" (Historical Sketches) والذي لم يبق منه إلا قصاصات. ويغضى تاريخ سترابون، المكون من ٤٢ كتاباً، الفترة من تدمير روما لكورينث وقرطاجنة إلى حوالى زمن معركة أكتيوم فى سنة ٣١ ق.م. وبهذا فهو امتداد لكتابات بوليبيوس (Polybius) (ح ٢٠٠- ح ١١٨ ق.م.) التاريخية الذى كان سترابون يكن له إعجاباً كبيراً.

وفى وقت ما صنف سترابون تحفته الرائعة "الجغرافيا" وهى أول محاولة فى العالم لتلخيص كل المعارف الجغرافية المتاحة يومها. وفى أول جزءين من الأجزاء السبعة عشر تفحص سترابون تاريخ ذلك الفرع من المعرفة مقرظاً أولئك الذين كان معجباً بهم (مثل هوميروس الذى أطلق عليه اسم الجغرافى الأول) ومهاجماً من لم يعجبه، بمن فيهم هيروdot (ح ٤٨٤- ح ٤٢٠ ق.م.) وإراتوستينز (ح ٢٧٦- ح ١٩٤ ق.م.).

ويتحدث الكتاب الثالث عن إسبانيا والرابع عن بريطانيا وفرنسا وجبال الألب. وفى الكتابين الخامس والسادس عرض سترابون جغرافية إيطاليا والجزر المحيطة بها. وفى هذا الجزء أبدى ملاحظة أن جبل فيزوف ربما يكون بركاناً، وهى مقولة تبينت دقتها عندما ثار الجبل سنة ٧٩ م، مدمراً مدينة بومبى القريبة. والجزء السابع، الذى تحدث فيه عن شمالي أوروبا، عانى سترابون من حقيقة أنه وغالبية غيره من الرومان كانوا لا يعرفون إلا النزر اليسير عن العالم وراء جبال الألب.

وتتناول الأجزاء الثلاثة التالية بلاد اليونان والجزر المحيطة بها، وتفتقر إلى الكثير من المعلومات المفيدة، ولكن لسبب عكسى هو أن سترابون افترض أن قراءه يعلمون الكثير بالفعل عن تلك المناطق، ولذلك ركز اهتمامه على أمور مثل هوميروس -

ولمناقشات مستفيضة عن النشاط البركاني، وفي هذه الحالة حول ثيرا وميثون. وتتناول خمسة أجزاء أخرى (من ١١ إلى ١٦) آسيا، والجزء من آسيا الصغرى الذى يخص مسقط رأس سترابون يتسم بدرجة لا بأس بها من الدقة. ومن اللافت للنظر أيضاً أحاديثه عن الهند المستقاة من كتابات فُقدت لجنود من جيوش الإسكندر الأكبر. وأخيراً يتفحص سترابون إفريقيا فى الجزء السابع عشر. ومرة ثانية نجد ملاحظاته مفيدة فيما يتعلق بمناطق زارها بنفسه مثل: مصر والنيل وإثيوبيا؛ ولكن الجزء يعتمد على التخمين والافتراضات فيما يتناول بقية القارة.

وكتاب 'الجغرافيا' مليء بالأخطاء، بدءاً من وضع المؤلف للكرة الأرضية فى مركز الكون إلى تقريره بأن بحر قزوين متصل بالبحر الشمالى العظيم، الذى كان سترابون وغالبية القدماء يؤمنون بأنه جزء من محيط أكبر يحيط بكل اليابسة على ظهر الأرض. وعلى الرغم من أوجه القصور فإن 'الجغرافيا' أثبتت نفسه كعمل ذى تأثير مثلما كان عملاً طموحاً. فهو لم يزودنا فحسب بملخص واف لمعارف المؤلف التى جمعها من الرؤية المباشرة ولكنه تضمن إشارات ونفاذ بصيرة إلى مراجع ضاعت منذ زمن بعيد.

جدسون نايت

فا-هسين - حاج صيني

(ح ٣٣٤ - ح ٤٢٢)

فى بداية القرن الخامس الميلادى قام الراهب البوذى فا-هسين برحلة بطولية إلى الهند سار فيها حول الأطراف الغربية للصين، حيث جمع كتباً مقدسة بوذية. ولعبت تلك الكتابات فيما بعد دوراً مهماً فى تطور البوذية الصينية، وساهمت فى الإسراع بتقبل تلك العقيدة فى بلاد سحيقة البعد عن موطن ميلادها.

ولد فا-هسين حوالى سنة ٣٣٤، فى قرية يو-يانج بمقاطعة شانسى. وبعد أن مات كل إخوته الثلاثة الأكبر منه دفع به أبوه إلى جمعية دينية على أمل أن يحافظ بوذا على حياة ابنه. وبهذا أصبح فا-هسين راهباً وهو فى الثالثة من عمره. ومات أبوه عندما كان فى العاشرة ورفض دعوة من عمه ليعود إلى بيت العائلة. ولم يعد فا-هسين مطلقاً إلى مسقط رأسه إلا عندما ماتت أمه بعد بضع سنوات.

وتمت رسامته راهباً فى حوالى سن العشرين، ولكن العقود الأربعة التالية من حياته هى لغز غامض. والأمر الوحيد المؤكد فى حياة فا-هسين بوصفه راهباً فى الصين هو أنه بمرور الوقت ازداد اقتناعاً بأن الترجمات الصينية المتاحة للكتب البوذية المكتوبة فى الأصل باللغة السنسكريتية لا تفى بالغرض. وفى النهاية اعتزم السفر إلى الهند بنفسه ليحضر المخطوطات الأصلية ويضطلع ونفر من زملائه الرهبان بترجمتها ترجمة جديدة.

ومن الجلى إذأ أن القرار بالقيام بالرحلة الشاقة إلى الهند لم يكن تصرفاً أهوج لصبى، فقد كان فا-هسين يقارب الخامسة والستين عندما شرع - ومجموعة صغيرة من الرهبان - فى السفر سنة ٣٩٩. وسافرت المجموعة بعيداً عبر شمالى الصين، متبعين طريقاً يكاد ينطبق على خط حدود اليوم بين الصين ومنغوليا أولاً ثم روسيا. وعندما اتجه أخيراً إلى الجنوب عند أقصى الركن الشمالى الغربى للصين بدأ يتبع طريقاً يتطابق مع حدود اليوم بين الصين وكازاخستان.

ومن البديهي أن التشابه بين مسار فا-هسين والحدود السياسية الحالية هي أن الحدود فرضتها عوائق طبيعية، تقابل فا-هسين مع العديد منها، من بينها سلسلة جبال نان شان وصحراء تكلا مكان. وبعد أن انحرف في أعماق أواسط آسيا فيما هو اليوم أفغانستان، عبر سلسلة جبال بامير الشاهقة وشرع في الانحدار جنوباً إلى الهند. وشق طريقه تدريجياً عبر ريف ذلك البلد إلى ماجادها حيث عاش بوذا (سيدهارتا جوتاما، ٥٦٢-٤٨٢ ق.م.) يوماً ما وعلم. وهناك أمضى فا-هسين ثلاث سنوات يجمع النصوص وينسخها. ثم استمر في طريقه جنوباً في نهر الجانج إلى المدينة المرفأ تامراليبتى حيث أقام عامين آخرين.

ومن هناك سافر فا-هسين إلى سيلان (سريلانكا الحديثة) التي أمضى بها عامين. ثم بدأ رحلته الطويلة عائداً إلى أرض الوطن. غير أن سفينته تحطمت قبالة سواحل سومطره فيما هو اليوم إندونيسيا، وانتهى به المطاف في جاوه، حيث مكث نصف عام في انتظار سفينة تنقله إلى الصين. وحتى لما تمكن من العثور على سفينة فإنها تاهت عن مسارها لشهرين. وأخيراً في سنة ٤١٤ وبعد ١٥ سنة كاملة بعد مغادرته عاد فا-هسين إلى وطنه.

وعلى الرغم من أنه في ذلك الوقت كان قد قارب الثمانين من عمره فإنه لا شك كان في صحة طيبة مكنته من أن يتحمل كل تلك المشاق. ولم ينته عمله بعودته للصين، ففي العاصمة نانجينج انهمك في تحضير ترجمات النصوص التي أحضرها معه. ثم اعتكف في دير في مقاطعة هويى حيث كتب تقريراً عن رحلاته. ومات فا-هسين في حوالى الثامنة والثمانين.

جدسون نايت

كانيشكا - زعيم هندي

(اشتهر؟ ٧٨ م - ١٠٣ م)

يعتبر كانيشكا واحداً من أعظم وأهم حكام مملكة الكوشان، وهي مساحة تشمل الجزء الشمالي من شبه القارة الهندية، وأفغانستان، وربما أيضاً مناطق من آسيا الوسطى شمالي كشمير. وفي عهده توسعت مساحة مملكته من خلال سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة، وجمع ثروة عظيمة لإمبراطوريته، وبنى عدداً هائلاً من الأديرة والمعابد، وشجع على نشر البوذية واعتناقها. كما انتعش الفن، وبخاصة الفن القندهاري، والثقافة في عهده.

وليس من المعروف تاريخ ميلاده. كما أن تواريخ حكمه موضع خلاف، ولكن يبدو أن أكثر التواريخ تقبلاً هي من ٧٨ إلى ١٠٣. وليس من المعروف أيضاً كيف وصل إلى سدة الحكم، لكنه خلف ويما كاديفيسيس الثاني، وصار رابع حكام الكوشان. وقد نشأت إمبراطورية الكوشان على يد كاجولا كاديفيسيس في شمال الهند في باكوتريا، حيث وحد كاديفيسيس قبائل يوه-تشي الخمس، وكانت تلك القبائل قد فرت أمام قبائل هسيونج-نو المحاربة من منطقة الحدود الصينية سنة ١٢٥ ق.م. وعندما تبوأ كانيشكا العرش كانت إمبراطورية الكوشان قوية بالفعل، لكنه نهض بها إلى نرى أعلى وجعل منها واحدة من أعظم أمم زمانها.

وتحت حكم كانيشكا وسعت الكوشان حدودها حتى شملت مناطق من أفغانستان وشمالي الهند وأجزاء من أواسط آسيا. وكانت عاصمة تلك المملكة هي بوروهابورا، وهي بيشاور الحالية في باكستان. وازدهرت الإمبراطورية اقتصادياً بسبب اتصال الكوشان مع عديد من أهم حضارات العالم منها روما والصين وبارثيا (وهي جزء من إيران الحديثة). وشجعت الدولة التجارة والتبادل التجاري وتبع ذلك نشأة المدن ومناطق الحضرة. واكتشفت أطلال مدينة أسسها كانيشكا تحت مدينة تاكسيلا الحالية

بالهند. وكان الكوشان مسيطرين أيضاً بصورة كبيرة على طريق تجارى رئيسى يعرف باسم طريق الحرير.

وعلى الرغم من أن الجانب الأكبر من ازدهار الكوشان كان سببه الغزو، فإنه من المهم أن نتذكر تسامح كانيشكا تجاه الثقافات الأخرى. فعلى الرغم من أن كانيشكا كان بوذياً فإن النقود المسكوكة فى تلك الحقبة، حقبة السাকা، تصور آلهة يونانية وسومرية وزرادشتية وهندية. ويبدو هذا المزج الثقافى واضحاً فى فن الكوشان، فنجد صوراً لبوذا مرسومة بأسلوب يونانى رومانى فيما يُطلق عليه فن قندهار. وكانت تلك هى أول صور لبوذا. وازدهرت مدرسة فنون ماثوران تحت حكم كانيشكا، وكانت أكثر محليةً فى أسلوبها. وكان كانيشكا أيضاً بنّاءً عظيماً، فبنى أعداداً كبيرة من الأديرة والمعابد، غالبيتها بُنيت فى العاصمة. وأطلق كانيشكا على واحد منها اسم 'ماهافيهارا' (الدير الكبير)، ويمكن مشاهدة أطلال معبد كبير بناه كانيشكا بالقرب من بيشاور الحديثة بباكستان. وبلغ ارتفاع ذلك المعبد ٤٠٠ قدم (١٢١ متراً)، وكان يستند إلى قاعدة من خمسة طوابق بلغ ارتفاعها ١٥٠ قدماً (٤٥ متراً). واكتشف عامى ١٩٠٨ و١٩٠٩، واكتشف تابوت أطلق عليه اسم 'تابوت كانيشكا'. ويحوى أثراً بوذية مقدسة قيل إن كانيشكا وضعها بنفسه.

وكان نشر البوذية فى أواسط آسيا والصين من بين أهم منجزات كانيشكا. ولعل كانيشكا اعتنق البوذية فى فترة متأخرة من حياته. ولما أثارت ارتبآكه التعاليم المتضاربة داخل العقيدة البوذية، أنشأ كانيشكا مجلساً خاصاً تحت رئاسة أسفاجوسا الشاعر البوذى. وانعقد المجلس فى كشمير وصار يُعرف باسم المجلس البوذى الرابع. وكان استخدام اللغة السنسكريتية فى المخطوطات التى أصدرها ذلك المجلس أمراً ذا مغزى لأنها كانت المرة الأولى التى تستخدم فيها تلك اللغة وفيما بعد أصبح ذلك تقليداً. واعتنق كانيشكا نمطاً من البوذية يُعرف باسم ماهايانا، وربما كان كانيشكا مسئولاً عن انتشار البوذية فى الصين وهو الشئ الذى بدأ يلاحظ فى القرن الثانى الميلادى.

كانت الغزوات الحربية معلّماً من معالم حكم كانيشكا، ولكن إنجازات إمبراطوريته لم تكن مقتصرة على تلك الفتوحات. ففي عهده وصل الكوشان إلى آفاق جديدة في الثراء والثقافة أضاعت سماء الفن والعمارة والأدب والعلم. وأتاح تسامح الحاكم تجاه الثقافات والديانات المختلفة لكوشان بأن تستفيد من معارف وثروات بعض من أعظم حضارات زمانها. ويعود إلى كانيشكا والكوشان الفضل في كثير من التطور والانتشار الذي نعمت به العقيدة البوذية في آسيا بسبب ذلك المزج بين الحضارات.

كيلا ماسلانيتش (Kyla Maslaniec)

ميجاستثنيس - مؤرخ ودبلوماسى إغريقى

(ح ٣٤٠-٢٨٢ ق.م.)

لم يكن ميجاستثنيس (Megasthenes) أول أوروبى يزور الهند ولا أول من كتب عنها. إلا أن كتاباته أثارت اهتماماً كبيراً فى العصور القديمة، وتركت أثراً على صورة الهند فى كتابات سترابون وأريان (Arrian) وغيرهم.

وقبل ميجاستثنيس بسبعين سنة عمل ستيسياس الكنيدوسى (Ctesias of Cnidus) (٤١٦ ق.م.) طبيباً فى بلاط الأباطرة الفرس دارا الثانى أوكس (حكم ٤٢٢-٤٠٤ ق.م.) وأرتكزسيس الثانى منيمون (حكم ٤٠٤-٣٥٨ ق.م.). كتب ستيسياس كتابه "برسيكا" (Persica) غطى فيه تواريخ آشور وبابل وفارس فى ٢٣ كتاباً. وعلى الرغم من أن الباحثين الحديثين يعتبرون كتابه غير جدير بالثقة فى أوجه كثيرة فإنه ظل المرجع الإغريقى الرئيسى عن المنطقة ما بين بلاد الرافدين والهند.

وفى الفترة الزمنية ما بين ستيسياس وميجاستثنيس حدث أمر جوهري هو غزو الإمبراطورية الفارسية بواسطة الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.)، الذى بحلول سنة ٣٢٦ ق.م. كان قد سيطر على غالبية العالم المعروف من صقلية إلى غربى الهند، التى هى اليوم باكستان. وبعد وفاة الإسكندر استولى قائده سلوكوس (ح ٢٥٦-٢٨١ ق.م.) على السلطة فى فارس وبلاد الرافدين وسوريا. وفى تلك الأثناء فقد الغزاة الإغريق المقدونيون سيطرتهم على الهند، حين ألهمت غزوات الإسكندر ملكاً شاباً يدعى تشاندراجويتا ماوريا (حكم ٣٢٤-٢٠١ ق.م.) بأن يبنى إمبراطوريته الخاصة.

وربما حدث فى العقد الأخير من القرن الرابع ق.م. أن سلوكوس أرسل ميجاستثنيس كمبعوثه الدبلوماسى إلى بلاط تشاندراجويتا ماوريا. وكل ما يعرف عن ميجاستثنيس نفسه أنه نشأ فى إيونيا، وهى مجموعة من الدول - المدن على الساحل الغربى لآسيا الصغرى، أو تركيا الحالية. أما أهم إنجازاته فهو ليس مجرد عمله كسفير للدولة السلوقية لدى بلاط ماوريا وإنما كتبه الأربعة المعنونة "إنديكا"

(Indica) التي زودت الإغريق لأربعة قرون بأهم ذكر لشاهد عيان عن تاريخ الهند وجغرافيتها.

ضاع مخطوط "إندিকা" ولكن أصداءه تعيش في أعمال كتاب آخرين، وبخاصة سترابون (ح ٦٤ ق.م. - ح ٢٣ م) وأريان المؤرخ (مات ١٨٠ م). فمثلاً عندما تحدث سترابون عن حجم الهند في كتابه "جغرافى" (Geography) فإنه فضل تقديراً أكثر تواضعاً (وفى الحقيقة أكثر دقة) قدره ميجاستنيس على تقديرات ستياس أو غيره من المصادر من بينهم ضباط في جيش الإسكندر. ورجع سترابون أيضاً إلى ما كتبه ميجاستنيس عن الحياة الحيوانية والتركيبة الاجتماعية للهندوس.

ويبدو أن كثيراً مما استشهد به سترابون صحيح، غير أنه أدمج أيضاً بعض القصص الخيالية، مثل النمل الذي يستخرج الذهب من المناجم - وهى الجانب الأقل وثوقاً فى كتابات ميجاستنيس. أما أريان فبوصفه مؤرخاً عسكرياً اهتم بصفة خاصة بما ذكره ميجاستنيس عن حجم الهند وسكانها وتركيبتها الإثنية وكذلك عن بلاد القوقاز التى كتب عنها أيضاً السفير السلجوقى. وعلى الرغم من ذلك فإن أريان، الذى اقتبس عن ميجاستنيس قوله إن هناك ١١٨ قبيلة مختلفة أو إثنيات مختلفة فى الهند، عاد ونقل عنه عدداً من القصص الغريبة بما فيها قصة النمل المنقب عن الذهب وكلها جاءت من ميجاستنيس.

وعلى الرغم من أن مخطوط "إندিকা" قد اختفى منذ أمد بعيد فإن الاقتباسات عنه فى كتابات سترابون وأريان تتيح لنا أن نكون فكرة عن الأصل. ولهذا أعاد الباحث الألمانى شوانيك فى القرن العشرين تكوين جزء من الكتاب من الشذرات الكثيرة المتبقية.

جدسون نايت

نيارخوس - قائد حربي إغريقي

(٣١٠-٣١٢ ق.م.)

كان نيارخوس قائداً من قواد الإسكندر الأكبر وعمل قائداً لأسطولٍ أبحر من سواحل شبه القارة الهندية إلى نهر الفرات في بلاد الرافدين البعيدة. ويعمله هذا أثبت وجود طريق بحري بين الهند والشرق الأدنى، وبهذا صارت التجارة فيما بعد ممكنة بين بلاد اليونان والرومان وبين الهند.

ويبدو أن نيارخوس نشأ في كريت، وفي وقت ما من حياته المهنية اكتسب خبرات بحرية. ومن المحتمل أنه إن كان قد خدم على سفينة فلا بد أن ذلك قد حدث قبل أن ينضم إلى قوات الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.)، الذي اعتمد في غزوه لإمبراطوريته الإغريقية المقدونية الفسيحة الأرجاء على القوات البرية واقتصر استخدامه للبحرية على نقل الجنود.

ولعب نيارخوس دوره باعتباره قائداً بحرياً بعد ذلك بوقت طويل، لكنه منذ البداية كان من الواضح أنه صديق قديم للإسكندر، وكان من بين أكثر من يثق بهم من قواده. ففي بدايات الغزوات - أي قبل أن يستحوذ على بلدان يمنحها بأريحية - عين الإسكندر نيارخوس ساتراباً أي حاكماً على ولايتين من ولايات الصفوة المختارة في آسيا الصغرى وهما ليديا (Lydia) وبامفيليا (Pamphylia).

وتمت تلك الهبة سنة ٣٢٣ ق.م.، عندما كان الإسكندر يتحرك مغادراً آسيا الصغرى إلى الشرق الأدنى ومن ثم إلى مصر. وفي السنوات التي تلت ذلك هزم الفرس وابتلع إمبراطوريتهم، وأخيراً وضع تحت الهيمنة الإغريقية مملكة تمتد من صقلية إلى الهند. إلا أنه حدث في النهاية أن قواته أصيبت بالإرهاق والملل من الغزو وتاقت إلى رؤية عائلاتهم الذين فارقوهم منذ عقد كامل.

وفي يوليو ٣٢٦ ق.م. بدأ الإسكندر مسيرة الإياب في اتجاه الغرب، وقسم قواته إلى ثلاث مجموعات، واحدة عادت بطريق شمالي، بينما اتخذت المجموعة الثانية

بقيادة الإسكندر شخصياً طريقاً جنوبياً يمر في إيران. أما المجموعة الثالثة فأبحرت بحراً بقيادة نيارخوس، الذي عينه الإسكندر أميراً. وفي الحقيقة، قد يكون ذلك التعيين قد حدث قبل قرار العودة إلى الوطن؛ وعلى أية حال أمر الإسكندر نيارخوس بأن يعثر على طريق بحري، إن كان ذلك الطريق موجوداً، يصل ما بين نهري السند والفرات.

كذلك وضع الإسكندر تحت إمرة نيارخوس كل القوات ذات الخبرات البحرية. وتحت إشراف نيارخوس بنى نجارو السفن الهنود لبحرية الإسكندر حوالي ٨٠٠ سفينة، تصل حمولة بعضها إلى ٢٠٠ طن، واستأجر نيارخوس ربابنة سفن من الهنود كأداء. وأخيراً غادر الأسطول مصب نهر السند في سبتمبر ٣٢٥ ق.م.

كان الشهر الأول من الرحلة شاقاً بدأ بفترة طويلة من التأجيل وانتهى بعاصفة أغرقت ثلاث سفن. وفي رأس كاتشاري فيما هو اليوم باكستان رسا الأسطول وتقابل مقابلة سريعة مع جزء من قوات الإسكندر. ثم أبحروا حتى نهر هينجول، حيث اشتبكوا في معركة ناجحة مع سكان محليين معادين، ومن ثم إلى مقران فيما هو اليوم منطقة الحدود بين باكستان وإيران.

وفي مقران لاقت الحملة عنتاً شديداً في البحث عن مياه عذبة وبعدها تناقصت مؤنهم من الأطعمة، مما أجبرهم على صيد الماعز البري على الشاطئ؛ وفي باسني، وهي مدينة تقع اليوم في مقاطعة بلوخرستان، أمكنهم أن يحصلوا على مؤن جديدة، واستمروا في الإبحار غرباً ووجدوا أن الأرض أشد خصوبة.

ويبدو أن نيارخوس شاهد حيتاناً أثناء الرحلة، وهو مشهد لا بد أنه كان مشهداً استثنائياً في ذلك الجزء الجنوبي، كما كتب أول إشارة مكتوبة عن قصب السكر. كما اشتبك في معركة لا معنى لها في مدينة جوادار، فقد أصر على مهاجمة المدينة رغم أن الأهالي أظهروا الرغبة في المفاوضة. وبعد أن انتهت تلك المعركة بالتعادل قنع بأن يقايز مع أهل المدينة في سبيل وجبة من الأسماك.

وفى الوقت المناسب تلاقى أسطوله مع قوات الإسكندر فى فارس، ثم استكمل إبحاره فى مضيق هرمز صعوداً فى الخليج الفارسى. وأخيراً حطوا الرحال عند مصب نهر الفرات، بعد أن أثبتوا إمكانية الإبحار من الهند إلى بلاد الرافدين. وبعد ذلك انضم نيارخوس ورجاله إلى قوات الإسكندر فى العاصمة سوسا، غير أن القائد لم يعيش طويلاً بعدها، فقد مات فى يونيو ٣٢٣ ق.م.، مخلفاً وراءه فراغاً هائلاً فى السلطة. وفى الصراع بين القواد الذى أعقب ذلك فقد نيارخوس، فى أغلب الظن، ساترابيته فى آسيا الصغرى.

جدسون نايت

هانو - ملاح قرطاجنى (اشتھر حوالى ٥٠٠ ق.م.)

فى وقت ما حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. أبحر هانو الملاح القرطاجنى غرباً من موطنه الذى يُعرف اليوم باسم تونس. وعبر أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وسار بمحاذاة الساحل الإفريقى وربما وصل إلى ما يعرف اليوم باسم السنغال أو حتى ليبيريا. وعلى الرغم من أن التفاصيل الدقيقة لرحلته غير معروفة فإنه من المؤكد أنه أبحر فى المحيط الأطلنطى أبعد جنوباً من أى ملاح آخر حتى العصر الذهبى للاستكشافات البرتغالية بعده بألفى عام.

والجانب الوحيد من حياته المعروف للمؤرخين هو ملحمة رحلته، وتكاد تكون كل تفاصيل ذلك الجانب من حياته مستقاة من نقش محير فى بعض الأحيان تركه هانو نفسه. فبعد أن أكمل رحلته الاستكشافية كرس عموداً للالهة القرطاجنية به ١٨ (وفى بعض المراجع ١٩) فقرة تتحدث عن منجزاته.

كانت قرطاجنة المستعمرة التجارية الفينيقية الأكثر أهمية بين مستعمراتها المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط، وكانت قوة بحرية عظمى. ومن الواضح أن أهالى قرطاجنة كلفوا هانو - الذى يشير إليه النقش بكلمة "ملك"، ولكنها وفقاً للغة قرطاجنة لا تعنى أكثر من كونه موظفاً كبيراً - بالقيام بالرحلة بهدف إنشاء مدن. ويسجل نقش هانو أن أسطوله كان مكوناً من ٦٠ سفينة فينيقية، وأنه اصطحب معه ٢٠,٠٠٠ رجل وامرأة، لكن الرقم ٥٠٠٠ هو الأكثر احتمالاً (رغم أنه لا يزال رقماً مبهراً).

كان مجرد الوصول إلى أعمدة هرقل، أى مضيق جبل طارق، إنجازاً فى حد ذاته. فلم يكن معنى ذلك أنه أبحر ألف ميل (١٦٠٠ كيلومتر) إلى الغرب من قرطاجنة وإنما كانت الأعمدة أيضاً بوابة الأطلنطى المنيع الذى لم يُستكشف من قبل.

وبعد عبورها اتجهت جماعة هانو جنوباً بمحاذاة الساحل الإفريقي لما يعرف اليوم باسم المغرب، حيث أسسوا مدينة ثيمياتييريوم (Thymiaterium) وهي مدينة المهدية الحديثة.

وعند رأس كانتين بنوا مذبحاً للآلهة، ثم أبحروا شرقاً - على الأقل وفقاً لما جاء بالنقش. وهذه المعلومة الأخيرة أثارت تساؤلات حول رواية هانو، لأنه من غير الممكن أن تبحر شرقاً عند تلك النقطة على الساحل الإفريقي دون أن تصطدم باليابسة. ولعلمهم دخلوا في مصب نهر أم الربيع ودخلوا بحيرة، حيث وجدوا، طبقاً لرواية هانو، "فيلة وحيوانات برية أخرى".

أسس الرحالة القرطاجنون عدداً من المدن، وتركوا بها مستوطنين لتأكيد استمرارها وبقائها على الحياة، بينما اتجهت الجماعة جنوباً في طريقهم إلى نهر أسماه هانو نهر ليكسوس. والهوية الحقيقية لذلك النهر هي موضع خلاف؛ وعلى أية حال تذكر رواية هانو عند هذه النقطة لأول مرة الالتقاء مع بشر، وتشير إلى أن الرحالة تصادقوا مع الرُّحْل من سكان المنطقة المحليين. (ويبدو، كما جاء في جزء آخر من الرواية، أن بعض سكان منطقة ليكسوس أبحروا مع القرطاجنيين كأدلاء). غير أنهم بعد ذلك تقابل الرحالة، ربما عند جبال أطلس الخلفية، مع "إثيوبيين عدوانيين"، وهو تعبير عام يدل على كل الأفارقة من سكان جنوب الصحراء الكبرى.

وبعد أن أبحروا "قبالة أراض صحراوية" وصلت جماعة هانو إلى جزيرة صغيرة، حيث أسسوا مستعمرة اسمها سيرن، ربما كانت جزيرة هيرن قبالة سواحل غربي الصحراء. وعند تلك النقطة يذكر هانو أنهم أبحروا بعد أعمدة هرقل مسافة تعادل المسافة من الأعمدة إلى قرطاجنة. وسرعان ما التقوا سكاناً أكثر عدوانية "حاولوا منعنا من التمرجل إلى الشاطئ بقذفنا بالأحجار"، وبعدها مروا بنهر - لعله نهر السنغال - كان "مليئاً بالتماسيح وأفراس النهر".

وأبحروا لمدة ١٢ يوماً بعد جزيرة سيرن، في أثنائها شاهدوا الساحل "مسكوناً بكامله بالإثيوبيين... ويتكلمون بلسان غير مفهوم لنا ولا للأدلاء الليكسوسيين الذين

كانوا بصحبتنا". وفى اليوم الثانى عشر شاهدنا جبلاً شاهقة عليها غابات بها أشجار متنوعة عطرة" - وهو مكان اختلفت فيه الآراء ما بين رأس فيردى أو ربما ليبيريا الحديثة. وسرعان ما وجدوا أنفسهم فى خليج غينيا، حيث كانوا يشاهدون ليلاً نيراناً عديدة على الشاطئ؛ وعند مكان أسماه هانو الرأس الغربية، ربما يكون رأس النقاط الثلاث فى غانا، سمعوا أصوات مزامير وصنج ودمدمات الطبول وصرخات عظيمة. وتملكنا الخوف، ونصحنا مترجمونا بأن نغادر الجزيرة.

واستمروا فى إبحارهم وشاهدت جماعة هانو بركاناً أطلقوا عليه "عربة الآلهة"، ربما يكون جبل الكاميرون. وأبحروا لثلاثة أيام عبر تيارات من النيران ووصلوا إلى ما أطلق عليه هانو الرأس الجنوبية، وتقع إما فى الجابون أو فى سييرا ليون. وهناك وجدوا ما أسماه هانو الغوريللا، أمسكوا بثلاثة منها وقتلوا وسلخوا جلودها وأحضروها معهم إلى قرطاجنة.

وتنتهى رواية هانو بصورة فجائية بكلمات "لم نبحر إلى أكثر من ذلك بسبب نقص مؤننا". ويفترض بعض الباحثين أن القرطاجنيين فى الحقيقة داروا حول كامل القارة الإفريقية لكنهم أثروا ألا يفتشوا سر ذلك لمنافسيهم فى التجارة. إلا أن الأمر الأكثر احتمالاً هو أن البعثة استدارت عند تلك النقطة وعادت أدراجها إلى الوطن. وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإن بعثة هانو تكون قد أبحرت أبعد إلى الجنوب من أى بعثة أخرى حتى جاء الأمير هنرى الملاح البرتغالى (١٣٩٤-١٤٦٠) وأرسل بحارته كى يستكشفوا ساحل إفريقيا الغربى.

جدسون نايت

هيرودوت (Herodotus) - مؤرخ إغريقي

(٤٨٤-٤٢٠ أو قبل ذلك ق.م.)

كتب هيرودوت، الذي يُنعت بوصفه "أبو التاريخ"، أول تاريخ منشور معروف في الأدب الغربي. وكان يكتب في زمن كان التاريخ فيه لا يزال مزيجاً ملتبساً من الأساطير والشعر، فكان يجمع المعلومات عن جغرافية وشعوب شرقي البحر المتوسط وفارس كخلفية لروايته التفصيلية الدقيقة عن الحرب بين بلاد اليونان وفارس من ٤٩٩ إلى ٤٧٩ ق.م. واعتُبر اهتمامه بالشعوب والثقافات محاولة مبكرة وعابرة في علم الأنثروبولوجيا.

وعلى الرغم من أن هيرودوت يعتبر واحداً من أشهر كتاب العالم القديم فإنه لا يعرف إلا التزر اليسير عن حياته. ولد في هاليكارناسوس وهي مدينة إغريقية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، تركيا الآن، وهو يذكر أنه كان في الخامسة من عمره عندما وصل الأسطول الفارسي المهزوم إلى الميناء في هاليكارناسوس. وقد حدث ذلك سنة ٤٧٩ ق.م.، وبهذا يبدو جلياً أنه ولد سنة ٤٨٤ ق.م. وقد يكون ذلك الحدث هو الذي أثار اهتمامه بالحرب بين الإغريق والفرس.

ومن المحتمل أنه تلقى تعليماً حسناً، رغم أنه لم يذكر ذلك مطلقاً. وكانت أسرته معروفة في المدينة وثرية. ورغم أنه كان إغريقياً فإنه يحتمل أن بعضاً من أقربائه كانوا من الفرس، وربما كان ذلك ما أثار فضوله عن الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف. وعندما كان شاباً يافعاً اشترك في محاولة لخلع زعيم محلي ونفى إلى جزيرة ساموس لعدة أعوام.

ولم يُعرف عنه أنه امتهن مهنة من المهن، لكنه سافر في رحلات عديدة. ولعله عمل لحساب تاجر أو كان هو نفسه تاجراً. وكانت لديه معارف عن السفن ووسائل السفر وبلاد بعيدة مثل بلاد ما بين النهرين والبحر الأسود ومصر وشمال إفريقيا. وعندما لم يكن على سفر كان يعيش في أثينا، وفي سنة ٤٤٢ ق.م. هاجر إلى ثوري (Thurii)،

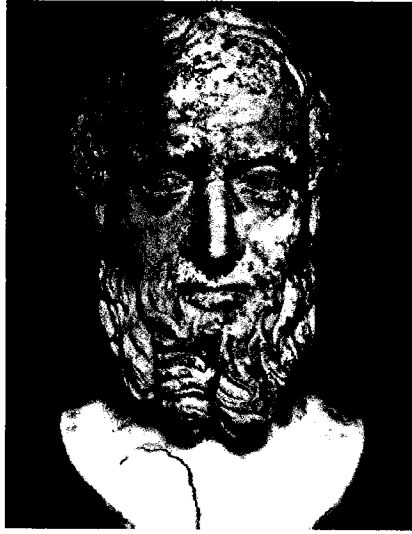
وهي مستعمرة إغريقية في جنوب إيطاليا. وفي تلك الأوقات كتب كتابه الرائع «التاريخ» عن الحروب الإغريقية الفارسية. وكان يتلو أجزاء من «تاريخه» بصوت عال من لفافات ضخمة ثمينة على مستمعين نظير أجر. وفي ذلك الوقت كان ذلك أمراً شائعاً كوسيلة لعرض الأدب على الجمهور.

عاد هيرودوت إلى أثينا حوالي سنة ٤٣٠ ق.م.، حوالي زمن بدايات حروب البيلوبونيز بين أثينا واسبارتا، ومات بعد ذلك بقليل، ربما بسبب نفس الطاعون الذي قضى على الزعيم الإغريقي القوي بريكليس. وتاريخ وفاته غامض، لكنه حدث بين ٤٢٠ و ٤٢٠ ق.م.

ويعتبر أعظم إنجازات هيرودوت في «التاريخ» هو تركيزه على حدث تاريخي واحد - الحرب بين الإغريق والفرس - زدنا فيه بنص تاريخي وشرح للصراع مع توثيقه في كتابة نثرية. فقد بحث في أسباب العداء بين هذين الشعبين ووصف الأعمال العظيمة لكل من الإغريق والفرس على حد سواء. وعلى الرغم من أنه كثيراً ما سجل الروايات التي جمعها دون أن يعلق أو يحكم عليها، فإنه كان يفتقر إلى الدقة وكثيراً ما لجأ إلى المبالغة في كتاباته. غير أنه كان يكتب قبل أن تترسخ مناهج جمع وتقييم التاريخ بزمان طويل، ولم تكن لديه وسائل يهتدى بها ولا سجلات مكتوبة يسير على منوالها ويحاكيها، كما أعاقه نقص الخرائط الدقيقة لتساعده في عمله.

ويبقى تاريخه مصدراً لا غنى عنه للمعلومات عن العالم القديم للبحر الأبيض المتوسط وغربي آسيا في القرن الخامس ق.م. ولما كان قد كُتِبَ عقب انتهاء الحروب الإغريقية الفارسية بخمسين سنة فقط فهو - لذلك - يعتبر مرجعاً يعتمد عليه بصورة عامة حول ذلك النزاع المهم. ولما كان الكتاب سهل القراءة وحافلاً بالقصص الساحرة والنوادر إضافة إلى حقائق تاريخية ذات أهمية فقد انتشر ونُسِخَ وأعيد نسخته طوال القرون. ونجح في إيصال فكرة أن الإغريق حاربوا في سبيل استقلالهم وسيادة القانون. ولم يعترض أحد عليه في تأكيده أن انتصارهم على الفرس أنقذ الديمقراطيات الغربية ومنع انتشار الحكم المطلق ونمط الحياة المنحطة.

ليندال بيكر لانداور (Lyndall Baker Landauer)



هيروdot

هيكاتايوس الميلى (Hecataeus of Miletus) - جغرافى ومؤرخ إغرىقى (اشتهر فى سنوات ٤٠٠ ق.م.)

قدم هيكاتايوس الميلى فى كتابه "التارىخ" (Historiai) نظرة شاملة للأساطير والتقاليد الإغرىقىة. ويمكن اعتبار ذلك العمل، إلى حد ما على أقل تقدير، إرهاباً بالكتابات الأنثروبولوجية الحديثة؛ ولكن هيكاتايوس يُتذكَّرُ بفضل كتابه الثانى "جولة حول العالم" (Periegesis) فى ذلك الكتاب قدم هيكاتايوس مدخلاً منهجياً للجغرافيا، مستخدماً أسلوباً استخدمه فيما بعد العديد من الكتاب الجغرافيين المرموقين فى العالم القديم.

نشأ هيكاتايوس فى إيونيا، وهى منطقة الجزر الواقعة قبالة الساحل الغربى لآسيا الصغرى (تركيا الآن) حيث كانت بدايات مجموعة الحروب الطويلة التى دارت بين بلاد اليونان وفارس (٤٩٩-٤٤٩ ق.م.). وكان معارضاً للثورة الإيونىة ضد دارا الأول (حكم ٥٢٢-٤٨٦ ق.م.) سنة ٥٠٠ ق.م.، ويعد أن قضت قوات دارا على الثورة بعد ذلك بست سنوات عمل هيكاتايوس كواحد من سفراء إقليمه لدى بلاط الساتراب (الحاكم) الفارسى أرتافرنيس (Artaphernes). وبهذه الصفة كان دوره محورياً فى إقناع أرتافرنيس بأن يعيد العمل بدساتير الدول-المدن الإيونىة؛ ولكن بعد ذلك سرعان ما انتشرت الحرب إلى الأراضى القارية اليونانية وتورطت فيها أثينا واسبارتا وغيرها من القوى فى سلسلة شهيرة من المعارك مع فارس فى ماراتون (٤٩٠ ق.م.) وغيرها من المدن.

والأحداث المتعلقة بالحروب الفارسية هى الفترة الوحيدة من حياة هيكاتايوس التى يمكن تحديد تاريخها بشيء من التأكد. أما فيما يتعلق بكتابه المعروفين فإن 'التارىخ' لم يترك إلا أثراً واهياً، والسبب الرئيسى فى ذلك هو أنه لم يتبق منه إلا قصاصات متناثرة. وعلى الرغم من ذلك فإنه من المعلوم أنه فى استعراضه للألهة والأساطير حاول هيكاتايوس أن يقدم تفسيرات عقلانية للأحداث المختلفة؛ وبمعنى آخر أنه كان

يستخدم العلم لا الخرافات أو الهوى في دراسة حضارة ما - حضارته هو في هذا السياق - وبهذا يمكن وصفه بأنه واحد من علماء الاجتماع المبكرين.

وكتاب "جولة حول العالم" بدوره لم يتبق منه إلا قصاصات، ولكنها وافرة العدد، حوالي ٣٠٠ منهم. وفيه يستكشف هيكتايوس بلاد أوروبا والبلدان التي يطلق عليها "آسيا" - والتي في الحقيقة تتضمن مصر وأجزاء أخرى من شمال إفريقيا. ومن الواضح أنه زار تلك البقاع بنفسه، كما شملت رحلاته أيضاً زيارات خاطفة لفارس ذاتها، وإلى البلاد المتاخمة للبحر الأسود.

واحتفظ مؤرخ وجغرافي مرموق آخر من آسيا الصغرى، هو هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ ق.م.) في كتاباته بكثير من كتابات هيكتايوس. ويقتبس هيرودوت بتوسع من "جولة حول بلاد العالم" في كتابه "التاريخ"، رغم أن بعض الباحثين يؤكدون أن هيرودوت لم يثن على هيكتايوس إلا عندما كان يكتشف أخطاءه. وعلى أية حال، وضعت معالجة هيكتايوس المنهجية للجغرافيا وتاريخ الشعوب الأسس لطريقة التناول الموسوعية التي استخدمها هيرودوت وآخرون غيره. ومن بين هؤلاء باحث مرموق من منطقة آسيا الصغرى كان من بين آخر الكتاب الجغرافيين العظام في العالم القديم، وهو سترابون (Strabo) (حوالي ٦٢-٢٢ ق.م.).

جدسون نايت

وو-تى - إمبراطور صينى

(١٥٦-٨٧٩ ق.م.)

أثناء حكم وو-تى امتدت حدود الصين ونفوذها فى غالبية أرجاء العالم المعروف للصين. ولهذا دخل التاريخ لكونه واحداً من أعظم أباطرة أسرة هان الصينية. وبعد وفاته أطلق عليه اسم وو-تى بمعنى "الإمبراطور الحربى" تخليداً لانتصاراته.

ولد وو-تى باسم ليو تشى حوالى سنة ١٥٦ ق.م.، وكان ابناً للإمبراطور تشينج-تي. ومن المؤكد أنه لم يكن الابن الأكبر للإمبراطور، ويعتقد أنه كان الابن الحادى عشر، مما يجعله بعيداً بعداً كبيراً عن خط تسلسل وراثته العرش. إلا أنه فى سن السابعة عمل أقرباؤه على تأكيد وضعه ولياً للعهد، وتولى العرش سنة ١٤٠ أو ١٤١ فى سن الخامسة عشرة.

وفى السنوات الأولى من حكمه كان وو-تى واقعاً تحت التأثير الشديد لأقربائه، الذين كانوا يحثونه على اتباع سياسة معتدلة دفاعية الطابع فى شئون الأمن القومى. وبحلول حوالى سنة ١٢٢، قام بأول هجوم من سلسلة من الهجمات ضد جيران يهددون الصين، فى محاولة منه لتأمين حدود الصين وتوسعتها. وفى ذلك الهجوم الأول ارتأى أن يؤمن حدود الصين الشمالية بأن يهاجم قبائل هسينج-نو، وهى قبائل من الرحل كانت تشكل أخطر تهديد للصين من تلك الجهة. وبعد أن نجح فى ذلك شرع وو-تى فى حقبة من التوسع القومى.

ونظر وو-تى إلى الشرق وغزا شمال ووسط كوريا، التى كانت قد انسلخت عن السيطرة الصينية قبل عهده. ثم استمر سائراً إلى الجنوب مدخلاً فينتام وما هو الآن جنوب الصين تحت سيطرته بحلول سنة ١٢٨ ق.م. واستمر وو-تى فى سلسلة من الغزوات ويقود جيشه بتصميم وقسوة وعدم تحمل للأخطاء.

وفى أوج توسعها وصلت إمبراطورية وو-تى إلى فرغانة، اليوم فى أوزبكستان، وسيطر على الجانب الأعظم من العالم المعروف للصين. وتشبه إنجازاته إنجازات

الإسكندر الأكبر فيما عدا أن الإسكندر كان يقود قواته بنفسه بينما بقي ووتى فى عاصمته. غير أنه مع وجود شعب أكبر تعداداً تحت إمرته كان ووتى يسيطر على جيوش أكبر تزيد على مئة ألف رجل، إضافة إلى المؤن والدعم الذى يحتاجه جيش بهذا الحجم فى ميادين القتال. ومن الطبيعى أن دفع مرتبات لمثل ذلك الجيش العرمرم كان أمراً صعباً، فأعاد ووتى تنظيم البيروقراطية الصينية وفرض الضرائب كى يتمكن من إدارة مملكته بصورة أفضل ويدفع مرتبات لحكومته.

وإضافة إلى إنجازاته الحربية والإدارية أرسل ووتى بعثات للاستكشاف، ووطنٌ مستوطنين صينيين فى الأقاليم المكتسبة حديثاً، وساهم فى تنشيط التجارة مع الدول المجاورة. وحاول أيضاً التوصل إلى تحالفات سياسية وعسكرية مع الدول الغربية ضد الهون، وهم مجموعة أخرى هددت الصين وقتذاك.

وعلى الرغم من أن محاولاته لعقد تحالفات بين الصين ودول غربية فشلت، فإن ووتى ترك بصمته فى إنشاء طريق الحرير، وهو وسيلة رئيسية للتجارة عبر القارة فى القرون التالية. وكانت له مبادرات أخرى أقل نجاحاً. ولما كانت أفكار الخلود تسيطر عليه لدرجة الهوس فقد أرسل البعثات للبحث عن جزيرة مزعومة للخالدين، دون طائل بالطبع. وأرسل بعثة أخرى للبحث عن "الجياد التى تعرق دماً" فى أواسط آسيا، فقد أحس أن وجودها يعنى مباركة الآلهة لإمبراطوريته. ولكن ووتى كان مسئولاً وحده عن جعل الكونفوشيوسية الديانة الرسمية للصين، فقد افتتح جامعات كونفوشيوسية وغيرها من المراكز التى تدعو لتعاليم تلك العقيدة.

تكلفت بعثات ووتى وحملاته العسكرية أكثر من حصيلة الضرائب الجديدة التى فرضها. وفى سنوات حكمه الأخيرة زادت إنفاقات الصين زيادة كبيرة عن مواردها، واضطر ووتى إلى الاقتصاد فى النفقات متخلياً عن بعض الأقاليم التى غزاها. وعلى الرغم من ذلك فإن الصين قد وصلت فى عهده إلى أقصى توسع إقليمى لها، وهو يعتبر واحداً من أعظم زعماء الصين. ومات ووتى سنة ٨٧ أو ٨٦ ق.م. عن عمر يناهز السبعين عاماً.

ب. أندرو كرم

شخصيات جديدة بالذكر

أغسطس قيصر (٦٣ ق.م. - ١٤ م) (Augustus Caesar)

إمبراطور روماني فتح آفاقاً جديدة في الاستكشاف والتجارة. ولد باسم أوكتافيوس (أوكتافيان)، وهو ابن أخت يوليوس قيصر وابنه بالتبني، وتولى الحكم بعد اغتيال الأخير. وفي بادئ الأمر تولى بوصفه واحداً من الحكم الثلاثي (triumviate)، وأصبح أول إمبراطور للإمبراطورية الرومانية باستبعاده لشريكه الآخرين (مارك أنتوني وماركوس ليبيدوس). مد حدود الإمبراطورية إلى أنهار الدانوب والراين والفرات.

القديس بولس (سانت بول، بولس الرسول) (Saint Paul) (ح ٢م-٦٢)

مبشر ولاهوتي مسيحي شجع ما قرره عن رحلاته التبشيرية الشخصية، وكذلك لاهوته، على الاستكشاف أثناء العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث. كان بولس أول لاهوتي مسيحي وكانت كتاباته ورحلاته موجهة بصفة خاصة إلى الأغيار (أي غير اليهود) ونتج عنها انتشار المسيحية إلى روما وإلى أبعد منها في غرب أوروبا. وكان تكيده على أهمية النشاط التبشيري بين غير المسيحيين من بين أهم المبررات المنطقية للاستكشافات والغزوات اللاحقة.

أمونرديس الأولى (عُرِفَت ٧١٠ ق.م.)

أميرة كوشية ساهمت في تأسيس الأسرة الخامسة والعشرين المصرية (الأسرة النوبية) (٧١٢-٦٧٢ ق.م.). وفي أغلب الظن أنها أول امرأة مهمة من أصول إفريقية من مناطق جنوب الصحراء. كانت شقيقة لبعنخي (٧٦٩-٧١٦ ق.م.)، الذي غزا مصر أولاً في عشرينيات القرن الثامن قبل الميلاد، وكذلك كانت شقيقة لشاباكا (حكم ٧١٦-٦٩٥ ق.م.)، الذي أسس الأسرة بعد أربع سنوات من وفاة بعنخي. وفيما بعد شغلت أمونرديس منصباً مهماً هو زوجة الإله أمون في معبد طيبة.

أنتيوخوس الكبير (٢٤٢-١٨٧ ق.م.) (Antiochus the Great)

ملك سوري من الأسرة السلوقية أعاد لفترة وجيزة توحيد إمبراطورية الإسكندر في غرب آسيا، من فلسطين إلى الهند. حكم أنتيوخوس من ٢٢٣ ق.م. باسم أنتيوخوس الثالث، وقضى أغلب وقت حكمه في حروب. أبرم تحالفاً مع مصر بتزويجه ابنته كليوباترا لبطليموس الخامس (وكانت كليوباترا السابعة الشهيرة من نسلهما)؛ ولكنه دون حكمة أو تبصر تحالف مع هانيبال القرطاجني (٢٤٧-١٨٣ ق.م.) وفيليب الخامس ملك مقدونيه (٢٣٨-١٧٩ ق.م.) ضد روما. أوى أنتيوخوس هانيبال عندما كان الأخير فاراً من الرومان، ولكن روما هزمتها في النهاية وكذلك هزمت فيليب.

بروكوبيوس (Procopius) (مات ٥٦٥ م)

مؤرخ بيزنطي، ولد في فلسطين، وكانت كتاباته من أهم المصادر عن عصر جستنيان (حكم ٥٢٧-٥٦٥). كان بروكوبيوس مستشاراً لقائد جستنيان اللامع بليسايريوس (ح. ٥٠٠-٥٦٥) أثناء حملاته العسكرية في الفترة من ٥٢٧ إلى ٥٤٠، ضد

الفرس فيما هو اليوم إيران؛ وضد القوط في إيطاليا؛ وضد الوندال في إسبانيا وشمال إفريقيا. وسجل تلك الأحداث في "تاريخ زماننا لبروكوبيوس"، وكتب أيضاً "عن المباني" في عمل من ستة أجزاء تناول فيه المباني التي شيدها جستنيان. غير أن بروكوبيوس، خفية، كان يكتب ما صار يُعرف باسم "التاريخ السرى"، رسم فيه صورة لجستنيان وإمبراطورته تيودورا (ح. ٥٠٠-٥٤٨) كشياطين فعليين في صورة بشرية، بينما يظهر بليساريوس كديوث أبله.

بعنقى ٧٦٩-٧١٦ ق.م.

ملك كوشى كان من نتيجة غزوه لمصر في حوالي ٧٢٠ ق.م. تأسيس الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين (النوبية). ولعله أول شخصية معروفة من إفريقيا جنوب الصحراء، وكان بعنقى عابداً مخلصاً لآمون الإله المصرى، وغزا مصر ليمنع التحنو الليبيين من السيطرة عليها. وقام بحملات عسكرية بارعة ضد الليبيين، غير أنه لم يهتم باحتلال البلد. وبعد أربع سنوات من موته أسس أخوه شاباكا (حكم ٧١٦-٦٩٥ ق.م.) الأسرة الخامسة والعشرين (٦٧٢-٦٧٢ ق.م.).

بلوتارك (Plutarch) (ح ٤٦٦-١١٩ م)

كاتب سير ومؤرخ إغريقى أسهمت كتاباته المسهبة فى التاريخ والسياسة والدين والأخلاقيات والفلسفة والأدب إسهاماً مؤثراً فى الربط بين الثقافتين الإغريقية والرومانية. زار بلوتارك مصر وإيطاليا وبلاد اليونان، وألقى محاضرات فى روما كما زار أثينا مرات عديدة. وعلى الرغم من أنه كان مناصراً كبيراً للحضارة الإغريقية فإنه أيد الحكم الرومانى لبلاد اليونان لإيمانه بأن له نتائج إيجابية. وتنقسم أعماله إلى جزءين: 'سير حياة' و'موراليا' وهى مقالات تتناول موضوعات مختلفة.

بويليوس هرنسيوس دكسيبوس (Publius Herennius Dexippus) (ح ٢١٠-ح ٢٧٠)

قائد ومؤرخ إغريقي - روماني كتب سجلاً بأحداث العالم التاريخية كما كتب أعمالاً أخرى. وفي سنة ٢٦٧، قاد الدفاع عن بلاد اليونان ضد شعب الهيرولي الرحل. وتشمل أعماله التي لم يتبق منها اليوم إلا قصاصات، إضافة إلى تاريخ العالم، تشمل تاريخاً لحروب روما في القرن الثالث ضد القوط، كما كتب سجلاً بخلفاء الإسكندر الأكبر.

تاسيتوس (Tacitus) (ح ٥٦-١٢٠ م)

مؤرخ وموظف روماني شملت أعماله "جرمانيا" (Germania) (٩٨ م)، وهو واحد من الأعمال المعاصرة القليلة التي تتناول الجرمانيين والبريتونيين (البريطانيين). وكذلك كتابيه "التواريخ" (Histories) (ح ١٠٩ م) و"الحوليات" (Annals) (ح ١١٦ م)، وهما يسجلان سويًا تاريخ الإمبراطورية لفترة ٨٢ سنة من وفاة أغسطس (٦٢ ق.م-١٤ م) إلى اغتيال دوميتيان (حكم ٨١-٩٦ م). وعلى الرغم من أن تاسيتوس كثيراً ما يُعتبر أعظم المؤرخين الرومان، فإنه أحياناً كان يترك استنتاجاته تتحكم فيما يرويهِ، ويُنظر إليه أكثر بوصفه معلقاً على المبادئ أكثر من مسجل للحقائق التاريخية.

تشانج تشين (زانج كيان) (عُرف ١٣٨-١١٤ ق.م.)

موظف صيني سافر إلى أواسط آسيا، وأنشأ أول اتصال بين الصين وحضارات أخرى. وقبل تشانج تشين لم يكن الصينيون يعلمون إلا بوجود برابرة همج خارج حدودهم. ولكي يتعامل الإمبراطور ووتى مع أولئك البرابرة من أمثال هسيونج-نو أو الهون أرسل تشانج تشين إلى الغرب بهدف تكوين تحالف مع قبائل يوه-تشييه الذين

كانوا فى السابق من الرحل ولكنهم استقر بهم الحال وصاروا متحضرين، وتبنوا نمط حياة هيلينستية بقيت فى باكتريا (أفغانستان الحديثة) من أيام غزوات الإسكندر قبل عدة قرون. ولم يبدوا امتماً بالعودة إلى الصين، ولهذا فإن تشانج تشين، الذى سجنه الهون لما يقرب من أحد عشر عاماً، فشل فى تحقيق هدفه المباشر من رحلته التى استغرقت ثلاثة عشر عاماً. غير أن جهوده تمخضت عن فتح طريق التجارة الذى عُرف باسم طريق الحرير، الذى ساهم مساهمة فعالة فى توثيق الصلات بين الشرق والغرب فى القرون التى تلت تلك الفترة.

تشاندراجوبتا ماوريا (حكم ٣٢٤-٣٠١ ق.م.)

إمبراطور هندى ومؤسس الإمبراطورية الماورية (٣٢٤-١٨٤ ق.م.). ولد تشاندراجوبتا فلاحاً وارتفع شأنه حتى أطاح بحكم أسرة ناندا فى ولاية ماجادها فى شرق الهند. ألهمته فتوحات الإسكندر فى غرب الهند فكوّن جيشاً ضخماً وأسس إمبراطورية شملت الغالبية الساحقة من شبه القارة الهندية. وقيل عن عاصمته باتاليبوترا إنها أعظم مدينة فى زمانها. وفيما بعد تحول تشاندراجوبتا إلى العقيدة الجايانية، وفى غمار حزنه من جراء مجاعة ألت بالبلاد امتنع عن الطعام حتى مات.

جستينيان (Justinian) (٤٨٢-٥٦٥)

إمبراطور بيزنطى حاول أن يسترجع الإمبراطورية الرومانية عن طريق المطالبة بأقاليم استولت عليها القبائل الجرمانية. ونجح جستينيان بواسطة جيوشه، تحت قيادة الجنرال بليساريوس، فى أن يسترد شمال إفريقيا ومناطق فى جنوب أوروبا وإسبانيا. كما أشرف جستينيان أيضاً على تدوين القانون الرومانى فى نظام

موحد جديد جمعه تحت اسم "القانون المدني" (Corpus juris civilis) الذي أصبح حجر الزاوية للقوانين الأوروبية.

جنديكار (Gundicar) (ح ٣٨٥-٤٣٧)

مؤسس مملكة بورجندي وشخصية مهمة في فترة الانتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى. وفي سنة ٤١٣، أصبح بورجنديو جنديكار من أوائل القبائل الرحل التي تستقر وتؤسس مملكة، ظلت تحافظ على أراضي بورجنديا في شرق فرنسا حتى سنة ١٤٧٧. كان جنديكار متحالفاً مع روما، ومات في معركة ضد أتيل الهون (ح ٤٠٠-٤٥٣)، وفيما بعد أشادت به كثير من الأساطير القروسطية.

جوبا الثاني (Juba II) (ح ٥٠ ق.م. - ٢٤ م)

ملك شمال إفريقي لنوميديا (الجزائر الحديثة) وموريتانيا (المغرب الحديثة) أرسل بعثات استكشافية إلى جزر الكنارى. كان ابناً للملك جوبا الأول (ح ٨٥-٤٦ ق.م.)، وفي طفولته سيق في موكب في شوارع روما بعد هزيمة أبيه. ولكن أوكتافيان (أغسطس قيصر مستقبلاً) تصادق معه وعينه حاكماً على نوميديا التي كانت قد أصبحت ولاية رومانية وقتئذ. وبعد أربع سنوات أضاف إليه حكم موريتانيا، وهي مقاطعة رومانية أيضاً. كان متزوجاً من كليوباترا سيلين، ابنة كليوباترا السابعة الشهيرة. ألف عدداً من الأعمال الأدبية في التاريخ والجغرافيا والنحو والدراما. ولقت رحلته إلى جزر الكنارى أنظار الرومان إلى تلك الجزر، التي كانت معروفة منذ زمن بعيد للإغريق.

دارا الأول (٥٥٠-٤٨٤ ق.م.)

ملك فارس الذي أعاد تنظيم الإمبراطورية وقسمها إلى مقاطعات أطلق عليها اسم ساترابيات يحكمها حكام. وفي عهده نشأ نظام بريدي كفو وأنشئت طرق ملكية. ويعزى إلى دارا أيضاً فضل تشجيع تطور نظام الكتابة السمارية لتكتب بها اللغة الفارسية. أرسل دارا جيشاً فارسياً للتصدي لثورة إغريقية، فهزمه الإغريق في معركة ماراثون سنة ٤٩٠ ق.م.، وهي واحدة من أشهر معارك العالم القديم.

داود (مات ح ٩٦٠ ق.م.)

من ملوك بني إسرائيل وصل بأمرته إلى أقصى قوتها. وكل ما هو معروف عنه مستمد من التوراة، واستمر المؤرخون لسنوات طويلة ينظرون بشكوك لمسألة وجوده، ولكنه اليوم صار يُعتبر شخصية تاريخية. وتحت قيادته استولى الإسرائيليون على أورشليم (ومن هنا جاء اسمها مدينة داود)، وأثناء حكمه توسعت المملكة لأكثر من ثلاثة أمثال مساحة فلسطين الحالية.

ديو كاسيوس (Dio Cassius) ح ١٥٠-٢٣٥

إداري ومؤرخ إغريقي - روماني، كان كتابه "رومانিকা" (Romanika)، المكتوب باليونانية، مصدراً ثميناً للسنوات الأخيرة من الجمهورية وبدايات الإمبراطورية. عمل ديو في وظائف متعددة في أنحاء العالم الروماني، من إفريقيا إلى آسيا الصغرى، مما يسر له تأليف "رومانিকা"، وهو عمل مكون من ٨٠ كتاباً. ويبدأ الكتاب بالبدايات الأسطورية للشعب الروماني بوصفه نسلاً لإينياس، ويسجل العمل التاريخ الروماني حتى عهد ألكساندر سرفيروس (Alexander Severus) (٢٢٢-٥٢٣)، وأصبح نموذجاً حذا حذوه المؤرخون البيزنطيون في كتاباتهم في أوقات لاحقة.

روث (عاشت حوالي ٧٠٠ ق.م.)

امرأة مؤابية تزوجت من رجل من جوديا يعيش في مؤاب. وبعد وفاة زوجها رحلت روث إلى جوديا مع حماتها. ثم تزوجت رجلاً جودياً آخر وأصبحت الجدة الكبرى للملك داود، ومن ثم من أسلاف يسوع. وتصور قصتها التي وردت في العهد القديم الهجرات المبكرة بين الأمم وتعطى درساً في أهمية تقبل الأجانب، الذين قد يساهمون مساهمات مهمة في ثقافة المرء وأمته.

زنوبيا ملكة بالميرا (Zenobia of Palmyra) (ح ٢٣١ - ما بعد ٢٧١م) (عُرِفَت عند العرب باسم الزباء)

ملكة سورية أنشأت إمبراطورية قصيرة الأمد وتحدث لفترة قصيرة هيمنة روما في الشرق. ولدت زنوبيا باسم بات زاباي، وكان مقدرًا لها أن تصبح واحدة من أهم الحكام الإناث في العصور القديمة. وكانت مدينتها بالميرا مركزاً تجارياً مهماً للقوافل السورية العابرة للصحراء السورية، واليوم تعكس أطلالها التأثير الهلينيستي القوي في المنطقة. وبعد موت زوجها أوديناثوس (أزينة عند العرب) حكمت زنوبيا بالميرا لكونها وصية على ابنها فابالاث، ثم شرعت في تكوين مملكة شملت الجانب الأكبر من مصر. وتخرج الموقف لدرجة أن الإمبراطور أورليان (حكم ٢٧٠-٢٧٥م) أتى بنفسه إلى سوريا وهزم زنوبيا وأحضرها في الأغلال إلى روما. غير أن الأساطير تؤكد أن زنوبيا الماكرة لم يتم إعدامها، ولكنها تزوجت من عضو بمجلس الشيوخ الروماني، وعاشت ما تبقى من حياتها في هدوء.

سانت أوجستين الكانتربرى (Saint Augustine of Canterbury) (مات ٦٠٤ م)

مبشر ورجل كنيسة مسيحي ارتحل من إيطاليا إلى إنجلترا عبر أوروبا كي يعيد إحياء الكنيسة المسيحية الإنجليزية سنة ٥٩٧ هـ ولد في روما وأصبح راهباً بندكتياً في سن مبكرة. أرسله البابا جريجورى الأول إلى إنجلترا، ورحبت به بيرثا الزوجة المسيحية لإيثلبيرت الأول ملك الساكسون، وبدأ عمله التبشيري في كانتربرى. نجح أوجستين في تحويل الملك وآلاف غيره إلى المسيحية، ونشر دعوته في أنحاء جنوب شرق إنجلترا.

سانت توماس (Saint Thomas) (مات ٥٣ م)

مبشر مسيحي كان واحداً من الحواريين الأصليين ليسوع، وسافر على نطاق واسع بغرض التبشير. وكان يُطلق عليه لقب "توماس المرتاب" لإصراره على التاكيد بنفسه من شخصية يسوع بعد القيامة. سافر إلى بارثيا والهند. وغالبية ما هو معروف عن فترة أخريات حياته مأخوذ من الأناجيل المنحولة. ويقال إنه استشهد على جبل سانت توماس بالقرب من مدراس بالهند بعد أن أسس كنيسة لا تزال قائمة هناك.

سرجون الأكادى (ح ٢٣٣٤-٢٢٧٩ ق.م.)

حاكم من بلاد الرافدين أنشأ أول إمبراطورية في التاريخ. أتى سرجون من أصول متواضعة، وعلى غرار موسى الذى أتى بعده بألف عام قيل إنه أنقذ من قارب من البوص والقار. وفى النهاية تولى الحكم، وأصبح أول حاكم سامى فى منطقتة. وبعد أن استولى على غالبية الأراضى بين جنوب تركيا والخليج الفارسى، قام بحركة

رمزية هي أنه غسل سيفه في المياه، وهي إشارة قلده فيها كل الغزاة في العصور القديمة. وربما يكون سرجون قد أنشأ صلات تجارية مع مناطق بعيدة مثل عُمان ووادي نهر السند وكريت، ولكن قبائل الجوتيان الرحل من الشمال بحلول ٢١٥٠ ق.م. قضت على الإمبراطورية الأكادية.

سويتونيوس (Suetonius) (٦٩ - ح ١٢٢)

مؤرخ روماني لعب كتابه "حول مشاهير الرجال" (De viris illustribus) دوراً محورياً في تشكيل نظرة الأجيال اللاحقة لروما الكلاسيكية. ويتناول العمل الحكام من يوليوس قيصر (١٠٢-٤٤ ق.م.) إلى دوميتيان (حكم ٨١-٩٦م)، وهو ملء بتفاصيل دامغة حول الفساد والمكائد التي اتسمت بها الحياة في المجتمع الروماني الراقى. بذل سويتونيوس، الذي كتب أعمالاً أخرى يبدو أن من بينها موسوعة، جهداً مضنياً في سبيل شرح موضوعات ذات طبيعة تخصصية مثل المباريات وألعاب التسلية، ومشاهير المحظيات وتطور الجهاز الإداري الروماني.

فرسنجتوريكس (Vercingetorix) (مات ٤٦ ق.م.)

زعيم قبيلة غالية أصبح، بسبب صراعه الشهير مع يوليوس قيصر، واحداً من أوائل شخصيات البرابرة الذين عرفهم التاريخ. ففي ٥٢ ق.م. كان قيصر قد أوشك على الانتهاء من غزو بلاد الغال عندما قام فرسنجتوريكس زعيم قبيلة تسمى أرفرنى (Arverni) بتمرد فيما هو الآن شرقي وسط فرنسا. فبواسطة استخدام تكتيكات بارعة لحرب العصابات، نجح فرسنجتوريكس في استدراج قيصر إلى القتال من مواقع غير مناسبة للرومان. غير أن قيصر دمر احتياطات فرسنجتوريكس ونجح في حصار القلعة وقبض على زعيم القبيلة وأحضره معه إلى روما. وبعد ست سنوات من استعراضه في شوارع المدينة في موكب نصر قيصر تم إعدام فرسنجتوريكس.

فلافيوس يوسيفوس (Flavius Josephus) (؟ ٣٧ - ؟ ١٠٠)

مؤرخ يهودى كتب بإسهاب عن الاحتلال الرومانى لفلسطين والشرق الأوسط. وكان اسمه فى الأصل يوسف بن متياس، وكان من الفريسيين، وهى طائفة يهودية تطبق الشريعة بصورة حرفية، وبعد ذلك أصبح مواطناً رومانياً. ولم يكتب بالكتابة عن الأحداث المعاصرة فحسب وإنما وثَّق تاريخ الشعب اليهودى بدءاً من بداية الخليقة فى كتابه "الأثار اليهودية" (Jewish Antiquities)

قسطنطين الأكبر (٢٨٥-٣٣٧)

إمبراطور رومانى وحدَّ الإمبراطورية المتشرذمة ورفع من شأنها. أعلن إمبراطوراً فى ٣٠٦، وفى النهاية هزم كل منافسيه على العرش فى ٣٢٥. وجعل المسيحية الديانة الرسمية للدولة، وبهذا وضع أسس أوربا العصور الوسطى. أنشأ القسطنطينية (إسطنبول) عاصمة له وبهذا أسهم فى تقوية الجزء الشرقى من الإمبراطورية، والتي أصبحت وحدة مستقلة وبقيت على قيد الحياة بعد انهيار الإمبراطورية فى الغرب، مما رسخ الاختلاف بين غرب وشرق أوربا.

كلوفيس (ح ٤٦٦-٥١١)

ملك من ملوك الفرنك (الفرنجة) كان أول حاكم ينجح فى بناء أمة مستقرة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية. وهو من البرابرة الجرمانيين الذين تحولوا إلى المسيحية، وكان يعامل رجاله من الفرنك الغازين على قدم المساواة مع الغاليين الرومان المغزوين، وبذلك صنع تأثيراً حضارياً لم يكن له مثيل فى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية السابقة. وكان أول ملك فى أسرة الميروفنجيين؛ ومن أمته انبثقت الأمم الحديثة لفرنسا وبلجيكا وهولنده وسويسرا.

كليوباترا السابعة (٦٩-٣١ ق.م.)

ملكة مصرية حاولت أن تزيد من قوة الأسرة البطلمية في مصر بارتباطها عاطفياً مع يوليوس قيصر ومارك أنتوني. تزوجت مارك أنتوني سنة ٢٧ ق.م.، رغم أن لم يكن بعدُ قد طلق زوجته أوكتافيا شقيقة إمبراطوره أوكتافيان. أقدمت هي ومارك أنتوني على الانتحار بعد أن تمكن أوكتافيان من هزيمة جيشهما سنة ٣١ ق.م. وبهذا فإن مجهودات كليوباترا في سبيل رفع شأن مصر انتهت بأن صارت مصر تحت السيطرة الكاملة لروما.

كوروش الكبير (حوالي ٦٠٠-٥٢٩ ق.م.) (قورش)

ملك وإمبراطور فارسي أسس الإمبراطورية الفارسية. خلف والده كأمير على برسيس، التي كانت جزءاً من الإمبراطورية الميديّة. ثم ثار على الميديين وهزمهم، وغزا الأمم المجاورة بما فيها إيران والإمبراطورية البابلية. ونشأت بذلك الإمبراطورية الفارسية التي بقيت قوية حتى غزاها الإسكندر الأكبر. حرر كوروش الإسرائيليين من الأسر في بابل وسمح لهم بالعودة إلى القدس.

ليفى (تيتوس ليفيوس) (Livy, Titus Livius) (٥٩ ق.م.-١٧ م)

مؤرخ روماني كتب أكثر تاريخ لروما مدعاة للاحترام في الحقبة القديمة. ويسرد كتابه «تاريخ روما» الأحداث التي مرت بها الدولة-المدينة من ٧٥٣ ق.م. إلى ٩ ق.م. ونُشر في ١٤٢ جزءاً، لم يتبق منهم إلا ٢٥ مكتملين، بينما توجد الأجزاء الأخرى في قصاصات أو ملخصات. واشتهر ليفى بأسلوبه الأدبي أكثر مما اشتهر بدقته، فقد أدمج في عمله كتاباتٍ لآخرين دون أن يتفحصها بدقة.

ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) ١٢١-١٨٠

إمبراطور وفيلسوف روماني نشر المعرفة عن الشرق الأوسط ومنطقة الحدود الشمالية لروما عن طريق حملات عسكرية دفاعية وهجومية في تلك المناطق. تبناه عمه الإمبراطور أنتونيوس بيوس (Antoninus Pius)، وخلفه على العرش سنة ١٦١. وفي عهده انتهت فترة السلام والرخاء الممتدة والتي تعرف باسم "السلام الروماني". وتعتبر كتاباته التي تُعرف باسم "التأملات" (Meditations) تعبيراً قوياً عن الفلسفة الرواقية.

مانيتون (عُرِف ح ٣٠٠ ق.م.)

كاهن مصري رسخ تسجيله لوقائع تاريخ بلده الإطار العام لدراسة مصر. وكتب تاريخه، الذي ضاع، باليونانية، وربما يكون بطليموس الأول (حكم ٣٠٥-٢٨٢ ق.م.) قد كلفه بذلك. وبقيت عناصر من عمل مانيتون، منها قوائم الملوك ومدد حكمهم، في كتابات مؤرخين آخرين. كان مانيتون هو مصدر علماء المصريات في تقسيم التاريخ المصري إلى ٣٠ أسرة، وهو نظام لا يزال يتبعه المصرولوجيون إلى اليوم.

موسي (عُرِف ١٣٠٠-١٢٠٠ ق.م.)

زعيم عبراني حرر العبرانيين من العبودية في مصر، وقادهم في رحلتهم الملحمية في أنحاء الشرق الأوسط إلى أرض كنعان. ويحكي سفر الخروج والتثنية في التوراة قصة تلك الإنجازات. ويعتبر مؤسس أمة إسرائيل وكاتب أول شرائعها. وكان جزء من تلك الشرائع، وهو الوصايا العشر، جوهرياً في تطور الحضارة الغربية.

نبوخذنصر الثانى (حكم ٦٠٥-٥٦٢ ق.م.)

ملك بابل الذى أسس الإمبراطورية البابلية وجعل منها القوة العسكرية الرئيسية فى الشرق الأوسط. وعندما ثار أبوه، وكان حاكماً على بابل، ضد آشور أصبح نبوخذنصر قائداً للجيش. وسرعان ما مات أبوه فأصبح نبوخذنصر ملكاً. ازدهرت بابل فى عهده. وأضيفت إليها مساحات شاسعة، وشيد العديد من المشاريع الإنشائية. دمرت قوات نبوخذنصر مدينة أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م. وأسرت معها كثيراً من اليهود إلى بابل كعبيد.

نخاو الثانى (حكم ٦١٠-٥٩٥ ق.م.)

فرعون مصرى يقال إنه شرع فى حفر قناة بين النيل والبحر الأحمر، ويدعى أنه مؤل رحلة دارت حول القارة الإفريقية. ولو كان ذلك صحيحاً لكانت تلك الرحلة أسبق من رحلة هانو (عاش ٥٠٠ ق.م.) ورفاقه القرطاجنيين بما يقرب من قرن. أما عن القناة، فقد ذكر هيرودوت أن نخاو توقف عن المشروع بعد أن حذرته نبوءة من الاستمرار فيه. وكاد نخاو أن يفقد عرشه بعقده لتحالف كارثى مع آشور ضد البابليين بقيادة نبوخذنصر الثانى (ح. ٦٢٠-٥٦٢ ق.م.) الذى هزمه فى موقعة قرقيش سنة ٦٠٢ ق.م. وعلى الرغم من ذلك فإنه قد نجحت مصر فى درء خطر البابليين لفترة من الزمان، ولكنها خضعت فى النهاية. وفيما بعد، عندما هُزم البابليون أنفسهم أمام الفرس، قام دارا الثانى (٥٥٠-٤٨٦ ق.م.) باستكمال حفر قناة نخاو.

هارشا (Harsha) (ح. ٥٩٠-٦٤٧)

حاكم هندى أنشأ المملكة المستقرة الوحيدة فى الأجزاء الشمالية الكثيفة السكان من شبه القارة الهندية فى الفترة ما بين سقوط إمبراطورية جويتا سنة ٥٤٠، وأول

الغزوات العربية بعد ذلك بما يقارب قرنين. وعلى الرغم من أن هارشا كان غازياً في المقام الأول فإنه أسس مملكة ازدهرت فيها الفنون. وكان راعياً للديانة البوذية، واستضاف الحاج الصيني هسوان-تسانج (٦٠٢-٦٦٤)، وكتب عدة مسرحيات. غير أن إمبراطوريته لم تعش طويلاً بعده.

هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق.م.)

قائد عسكري قرطاجنى يُعتَبَر واحداً من أعظم القواد العسكريين فى العالم القديم. كان أبوه قائداً للجيش القرطاجنى، وهو الذى شن الحرب البونية الأولى (٢٦٤-٢٤١ ق.م.) ضد الرومان. وحل هانيبال محل أبيه وشن الحرب البونية الثانية (٢١٨-٢٠١ ق.م.). قاد هانيبال جيش قرطاجنه، وهى دولة - مدينة فى شمال إفريقيا، إلى سلسلة من الانتصارات الباهرة ضد الرومان فى إسبانيا وإيطاليا، ولكنه هُزم فى النهاية. وأكثر ما اشتهر به قيادته لجيشه، بما فيه من أفيال، عبر جبال الألب.

هسوان-تسانج (زوان زانج) (٦٠٢-٦٦٤)

راهب بوذى صينى قام برحلة حج مهمة إلى الهند. فقد أرقته بعض التساؤلات اللاهوتية مما حدا به أن يبحث عن إجابة لها فى البلد الذى شهد مولد البوذية، فشرع فى عشرينيات القرن السابع فى القيام برحلة إلى الهند. وكان السفر إلى المناطق الغربية من الصين ممنوعاً فى عهد أسرة تانج، فتسلل عبر الحدود، وقام برحلة محفوفة بالمخاطر عبر ما هو اليوم جنوب روسيا وأفغانستان وباكستان. وكان أول رحالة صينى يزور كل المناطق الرئيسية فى الهند، وزار بلاط هارشا (ح ٥٩٠-٦٤٧)، وغيره من الملوك. وجلب هسوان-تسانج معه نصوصاً بوذية مقدسة ساهمت فى انتشار الدين

فى الصين، وأصبح شخصية مشهورة يُحتفى بها وتسجّل أعماله فى الأوبرات والرسوم والأفلام الصينية والكتب الهزلية الصينية.

هوميروس (Homer) (اشتهر ما بين ٩٠٠ و ٨٠٠ ق.م.)

شاعر إغريقى يشاد به كثيراً لكتابته القصائد الملحمية الإلياذة والأوديسة. ويعتقد أن هوميروس، الذى قيل إنه كان كفيفاً، قد عاش فى سميرنا أو كيوس وكان يتقوت من حكى الحكايات. وتحكى الإلياذة قصة أخيل والحرب الطروادية، بينما تتناول الأوديسة رحلات أوديسيوس الأسطورية.

سجل بالمراجع الأولية

أناجيل لندسفارن. (أواخر القرن السابع م). مخطوط مزخرف يحوى الأناجيل (الكتب الأربعة الأولى من العهد الجديد) ويحوى أيضاً كتابات للقديس جيروم ويوسيبوس النيكوميدي، إضافة إلى نصوص أخرى. ويغلب الظن على أنها كُتبت من أجل إيدفريث أسقف الجزيرة. والمخطوط المكتوب باللغة اللاتينية له أهميته التاريخية. فقد حدث فى القرن التاسع بعد أن فر رهبان لندسفارن إلى مدينة ديرهام القريبة، فتمت مراجعة الأناجيل. ووضع شخص مجهول بين السطور ترجمة بلهجة نورثمبريا السكسونية، مما جعلها واحدة من أوائل الأناجيل التى تُرجمت إلى لهجة عامية فى العصور الوسطى.

بروكوبيوس. "بوليمون" (Polemon) (الحروب، القرن السادس م). واحد من أهم المصادر عن عصر جستنيان (حكم ٥٢٧-٥٦٥). وكان بروكوبيوس يعمل مستشاراً لبليساوريوس القائد العسكرى لجستنيان فى حملاته الحربية من ٥٢٧ إلى ٥٤٠، ضد الفرس فيما هو الآن إيران؛ وضد القوط فى إيطاليا؛ والوندال فى إسبانيا وشمال إفريقيا. كما كتب بروكوبيوس أيضاً "أنكدوتا" (Anecdota) (التاريخ السرى)، وهو التاريخ السرى لجستنيان وإمبراطورته تيودورا وبليساوريوس.

بطليموس. "الدليل الجغرافى" (Geographike hyphegesis) (القرن الثانى م). عمل من ثمانية أجزاء يحوى ملخصاً لكل معارف الجغرافيا آنذاك، ويتضمن مناقشات للقواعد الأساسية لرسم الخرائط والكرات الأرضية المجسمة، ومواقع المدن المختلفة، ونظريات الجغرافيا الرياضياتية، وتعليمات لتحضير خرائط العالم. وكانت

الخرائط والتوجيهات أحياناً مجرد تقريبات مأخوذة من أقوال الرحالة، ولكنها كانت على درجة من الدقة كافية لتوضيح المواقع النسبية والاتجاهات. وعلى الرغم من أن العمل كان له تأثير مبدئي ضئيل وضاع في زوايا النسيان إلا أنه أعيد اكتشافه بعد مرور ١٤٠٠ سنة.

بيثياس المسالى. "حول المحيط" (*Peri Okeanou*) (ح ٢٠٠ ق.م.) يحوى تفاصيل رحلة بيثياس إلى شمال الأطلنطى التى دار أثناعها حول بريطانيا، وربما يكون زار إيسلانده. وإضافة لكونه أول من تحدث عن التركيبة الإثنية لبريطانيا فإنه كان أول من وثّق شمس منتصف الليل وأول من لاحظ العلاقة بين القمر والمد والجزر. وعلى الرغم من أن الكتاب مفقود الآن، فإن العديد من الكتاب القدامى اقتبسوا منه مباشرة أو أشاروا إليه. ومن تلك المصادر المتناثرة أمكن إعادة تكوين مسار رحلته واكتشافاته.

تاسيتوس. "تواريخ" (*Historiae*) و"حوليات" (*Annals*) (ح ١٠٠م.). يتضمن هذان الكتابان سويًا سجلاً للإمبراطورية الرومانية أثناء الأعوام الاثنى وثمانين بعد موت أغسطس (١٤م) وحتى اغتيال دوميتيان (٩٦م). وعلى الرغم من أن تاسيتوس كثيراً ما يعتبر أعظم مؤرخ رومانى فإنه فى بعض الأحيان كان يترك العنان لأرائه واستنتاجاته لتسيطر على ما يرويه، وتعليقاته على الأخلاقيات تثير الإعجاب به أكثر مما تثيره تسجيلاته للحقائق التاريخية.

تاسيتوس. "جرمانى" (*Germania*) (٩٨م.). من المصادر القليلة التى تتناول عادات وسلوكيات الشعوب الجرمانية وتنظيماتها فى أوربا أثناء الحقبة المبكرة للإمبراطورية الرومانية.

ديو كاسيوس. "رومانىكا" (*Romanika*) (ح القرن الثالث الميلادى). سجل قيم للأيام الأخيرة للجمهورية الرومانية وأوائل عهد الإمبراطورية، ويبدأ بالبدايات الأسطورية للشعب الرومانى كنسل إينياس مع تسجيل أحداث تاريخهم حتى عهد

ألكساندر سفروس. وقد كتبه ديو كاسيوس من واقع خبراته فى وظائف مختلفة فى أنحاء العالم الرومانى، من إفريقية إلى أسيا الصغرى. ويتكون العمل من ٨٠ كتاباً مكتوباً باليونانية، وكان نموذجاً سار على منواله المؤرخون البيزنطيون اللاحقون.

زينوفون. "أناباسيس" (*Anabasis*) (ح ٤٠٠ ق.م). يحكى عن حملة كوروش الأصغر الفارسية والدور الذى اضطلع به زينوفون بعد مصرع كوروش لكونه قائداً لـ عشرة آلاف من المرتزقة الإغريق الذين ساروا فى أقاليم الشرق الأدنى وأسيا الصغرى متجهين إلى البحر الأسود. ويشكل هذا النص واحداً من شهادات العيان القليلة المتبقية التى تتناول الإمبراطورية الفارسية، كما أن به أول إشارة فى مرجع غربى إلى الكربوشيانين أو الأكراد.

سترابون، "الجغرافيا" (*Geographica*) (ح ٧ ق.م). ربما كان ذلك الكتاب أعظم كتاب جغرافى فى العصور القديمة، ويتكون من ١٧ كتاباً، ويحوى نظرة شاملة للعالم المعروف للإغريق والرومان وقتئذ. والكتاب واسع فى مجالاته وملء بملاحظات المؤلف فى الفلسفة والتاريخ والعلوم، وكلها تعطى القارئ الحديث فكرة عميقة عن الفكر القديم.

سويتونيوس، "سيرة حياة القيصرية" (*De vita Caesarum*) (القرن الثانى م). يطرح الكتاب حقائق دامغة، بل أحياناً مثيرة، عن أول ١١ إمبراطور رومانى، بدءاً من يوليوس قيصر إلى دوميتيان. ويسجل سويتونيوس الفساد والمكائد التى اتسمت بها الحياة على قمة المجتمع الرومانى، والتى لعبت أدواراً محورية فى تشكيل آراء الأجيال اللاحقة عن روما فى العصر الكلاسيكى. ويتضمن العمل أيضاً دراسات عن المباريات ووسائل اللهو ومشاهير المحظيات وتطور الجهاز الإدارى لروما.

ليفى، "تاريخ روما". (ح القرن الأول ق.م. أو القرن الأول الميلادى). واحد من أهم كتب تاريخ روما القديمة. أرخ ليفى لأحداث النولة-المدينة من ٧٥٢ ق.م. إلى ٩ م.

ونُشر العمل فى ١٤٢ كتاباً لم يبق منهم إلا ٢٥ كتاباً كاملة، بينما بقيت الأجزاء الأخرى فى قصاصات أو ملخصات. واشتهر لىفى بأسلوبه الأدبى أكثر من اشتهاره بدقته، فهو يدمج أقوال آخرين دون التحقق من صحتها.

ميجاستينيس. "إنديكا" (*Indika*) (ح ٢٠٠ ق.م.). مؤلف من أربعة أجزاء يحوى أهم تقارير شاهد عيان لتاريخ الهند وجغرافيتها. وعلى الرغم من أن مخطوط "إنديكا" قد اختفى منذ زمن بعيد فإن إشارات عديدة إليه وردت فى أعمال سترابون وأريان وغيرهم مما يجعل تكوين فكرة عن الأصل أمراً ممكناً.

هوميروس. "الإلياذة والأوديسة". (القرن التاسع أو الثامن ق.م.). يشكل هذا العمل التروامى من قصائد الملاحم المستقاة من معارف شفوية قديمة، يشكل أساس الكثير من الأساطير والأدب الغربى ويحوى ثراءً من المعلومات عن عادات الإغريق القديمة ودياناتهم وحرورهم وجغرافيتهم وتقنياتهم. وتحكى "الإلياذة" عن الأحداث المتعلقة بحصار طروادة وسقوطها، أما "الأوديسة" فتتناول الرحلات الخطرة لأوذيسوس فى محاولته العودة إلى موطنه بعد حرب طروادة.

هيكاتايوس. "جولة حول العالم" (*Periegesis*) (القرن السادس-الخامس ق.م.). فى هذا العمل، الذى لم تتبق منه إلا قصاصات، يتناول هيكاتايوس أراضى أوروبا وما يسميه "آسيا" - وهى فى الحقيقة مصر وغيرها من مناطق شمال إفريقيا. ويبدو أنه زار تلك المناطق بشخصه، كما تتضمن رحلاته انطلاقات سريعة فى بلاد فارس ذاتها، وكذلك فى الأراضى المحيطة بالبحر الأسود. ووضع تناول هيكاتايوس المنهجى المنظم للجغرافيا وتاريخ الشعوب أساس التوجهات الموسوعية التى استخدمها هيرودوت وغيره بعد ذلك.

هيرودوت. "التاريخ" [تاريخ الحروب الإغريقية الفارسية] (القرن الخامس ق.م.). مصدر لا غنى عنه للمعلومات عن العالم القديم للبحر الأبيض وغرب آسيا فى القرن الخامس ق.م. وقد كتبه بعد مرور ٥٠ سنة فحسب على انتهاء الحروب الإغريقية

الفارسية، ويعتبر أول شرح متكامل لأحداث تاريخية كُتِبَ نشراً، وهو بذلك مصدر موثوق به بصفة عامة يتناول صراعاً مهماً. انتشر هذا العمل انتشاراً كبيراً وأعيد نسخه مرات عديدة على مر القرون بسبب سهولة قراءته وامتلائه بالحكايات المشوقة والنوادر وكذلك بحقائق تاريخية مهمة.

يوسيفوس، فلافيوس، الآثار اليهودية. (القرن الأول م). يسجل تاريخ الشعب اليهودي منذ بدء الخليقة.

جوش لاور

الباب الثانى

علوم الحياة والطب

سجل زمنى

- ح ٢٦٥٠ ق.م. إمحوتب الوزير المصرى المتعدد المواهب وأول شخصية تاريخية ذات شأن، يحاول أن يجد أسباباً طبية للأمراض- بدلاً من الأسباب الروحية.
- ح ١٥٠٠ ق.م. ممارسات طبية مبنية على الديانة الفيدية، وهى السلف التى انبثقت منها الديانة الهندوكية، تبدأ فى الظهور فى الهند.
- ح ٧٠٠ ق.م. كتابات نصوص أرتارفا-فيدا' الهندوكية تحوى معلومات شبه علمية عن العلاج.
- ح ٥٠٠ ق.م. إجراء أول تشريح معروف للجسد البشرى.
- ح ٤٠٠ ق.م. أبقراط الطبيب الإغريقى وتلامذته يضعون قواعد لأخلاقيات الطب، ويعززون المرض إلى أسباب طبيعية، ويستخدمون الغذاء والعقاقير لتجديد الجسم.
- ح ٢٥٠ ق.م. أرسطو يستحدث علوم الأحياء والتشريح المقارن، ويضع أول محاولة جادة لتصنيف الحيوانات.
- ح ٢٠٠ ق.م. هيروفيلوس الطبيب الإغريقى يتعرف على المخ بوصفه العضو الأساسى للجهاز العصبى، ويربطه بطريقة صحيحة بالحركة والإحساس؛ ويؤسس مدرسة طبية فى الإسكندرية، حيث تتم أول ملاحظات تشريحية دقيقة باستخدام التشريح.

- إراسستراتوس الطبيب الإغريقي يكتشف تقسيم المخ إلى جزء كبير وجزء صغير؛ ويكتشف جيوب الأم الجافية، وأول من لاحظ تليف الكبد. ح ٢٥٠ ق.م.
- الطبيب الإغريقي أريتاياوس الكابادوشى (من كابادوشيا) يميز بين الأمراض العقلية والأمراض العصبية، ويصف مظاهر الصرع. ح ١٠٠ ق.م.
- سجل حياة الطبيب الإغريقي جالينوس، آخر الأطباء والعلماء القدامى العظام، الذى اكتشف الغدة الصنوبرية وغيرها من الأفكار الأساسية؛ وكتب عديداً من المراجع بقيت ذات تأثير لقرون. ح ٢٠٠-١٦٠ م
- فابيولا السيدة المسيحية من الطبقة الراقية تؤسس أول مستشفى فى أوروبا الغربية فى روما. ح ٤٠٠ م
- الطبيب البيزنطى بولس الإجنطى يصبح أول من يمارس الولادة. ح ٦٥٠ م

نظرة شاملة

علوم الحياة والطب
ما بين ٢٠٠٠ ق.م. و ٦٩٩ م

الحقبة السابقة

من الصعب التعرف على منجزات الشعوب القديمة لأن عدداً قليلاً فقط من السجلات المكتوبة قد بقي منذ ما قبل ٢٠٠٠ ق.م. وتأتي أغلب الأدلة المتاحة نتيجة للبحث الأثري للبقايا المادية للحضارات المختلفة. وعلى سبيل المثال، تبين الرسوم الموجودة على جدران الكهوف، التي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٠,٠٠٠ سنة، أن فناني ما قبل التاريخ كانوا يراقبون الحيوانات مراقبة دقيقة وكانوا يعلمون الكثير عن التشريح الحيواني. وكذلك يدل اكتشاف جماجم بشرية مثقوبة بها دلائل على أن العظام قد عاودت النمو على أن الممارسات الطبية وصلت إلى درجة من التعقيد سمحت بنجاح تلك الجراحات التي ربما كانت بهدف تخفيف الضغط على المخ بعد الإصابات؛ أو على الأقل أن المريض عاش لفترة سمحت للجرح بالالتئام والعظام أن تعاود النمو. غير أنه لا بد من الاعتراف بأن الأدلة على مثل تلك المنجزات واهية.

الجراحة

وحتى بعد ٢٠٠٠ ق.م. تبقى السجلات المكتوبة نادرة وغير مكتملة. والوثائق القليلة التي بقيت عادة ما تكون مكونة من شظايا كسرية، حيث يصبح من الصعب

تحديد المدى الكامل للمعارف البيولوجية والإنجازات الطبية لتلك الفترة. ومع ذلك فإن المؤرخين تمكنوا من أن يعيدوا بناء صورة للطريقة التي كانت الحضارات القديمة تنظر بها إلى العالم الحى وكيف كانت تلك الحضارات تتعامل مع مشاكل الصحة والمرض. فمثلاً: تاتى المعرفة بالطب المصرى من أدلة مادية ومصادر مكتوبة. فالطريقة التي كان يتم بها تحضير المومياوات للتحنيط بإزالة الأحشاء الداخلية (حيث يبدأ التعفن عادة) توحى ببعض الفهم للتشريح الداخلى للأجساد البشرية. ويشير مخطوط بردى يعود تاريخه إلى حوالى ١٥٥٠ ق.م. إلى أن المصريين كانت لهم معارف جراحية على درجة لا بأس بها من الرقى، ويبدو أن الأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى البابليين، فبعض لوحاتهم الطينية تحوى تعليمات عن الجراحة. كما تم العثور على آلات جراحية قديمة فى عدد من المواقع التي استكشفتها الأثريون.

الطب الأبقراطى

يُعتقد أن أهم طبيب من العالم القديم هو الطبيب الإغريقى أبقراط (٤٦٠٩-٣٧٧ ق.م.). وفى حين تدل الدلائل على أن مثل هذا الشخص قد وُجد فعلاً إلا أن الأمر الأقل وضوحاً هو ما إذا كان هو مؤلف كل الكتابات التي تُنسب إليه، بما فى ذلك قسم أبقراط، وهو قسم يتعهد فيه من يقسمه بممارسة الطب بإحساس بالمسئولية، ولا يزال الأطباء يقسمون به عند بدء حياتهم العملية. ويشير بعض المؤرخين إلى أن أسس بعض كتابات أبقراط، ومن بينها القسم، تعود إلى فيثاغورس الأقدم منه عهداً (٥٨٢-٥٠٠ ق.م.) وأتباعه. وعلى أية حال، تسجل تلك الوثائق بعضاً من أقدم الأوصاف للممارسة الطبية فى العالم القديم، وتشمل نظرية الأخلط الأربعة وهى سوائل فى الجسم تتحكم فى الصحة. وتلك الأخلط هى: الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وكان يقال إنها تتكون فى القلب والمخ والكبد والطحال على التوالي. وتنتج الصحة الحسنة من توازن الأربعة، وكان يُظن أن المرض ينشأ من إفراط أو نقص فى واحد من تلك الأخلط. وهذا المفهوم عن الدور المسيطر لأخلط الجسم كان واحداً

من أهم العوامل المؤثرة في الطب القديم واستمر بشكل الرأى المهيمن على كيفية عمل الجسم حتى العصور الوسطى.

وشكّل الغذاء بؤرة اهتمام رئيسية في الطب الأبقراطي، فقد كان معروفاً بأن هناك علاقة وثيقة بين الغذاء والصحة، سواء في المحافظة على الصحة الجيدة أو في الشفاء من الأمراض. كما طورت حضارات أخرى ممارسات طبية مبنية على قواعد تتعلق بالغذاء. وكانت القوانين الغذائية العبرانية، التي جاء ذكرها في الكتب الأولى للعهد القديم، من بين أكثرها دقة. وشمل التحريم تناول أطعمة مثل: لحم الخنزير والحرار مصحوبة بقواعد دقيقة عن كيفية تحضير الطعام. وكانت تلك التنظيمات مبنية على قواعد النظافة وتجنب الأطعمة التي كثيراً ما تحمل الطفيليات أو غيرها من الأمراض المعدية.

وبعد كتابات أبقراط لم يُصَف إلا القليل إلى الممارسات الطبية حتى زمن جالينوس (١٢٩-١٩٩ م) في القرن الأول الميلادي. وبمجرد أن تلاشى تأثير التعسفين (الذوجماتيين) (dogmatists)، وهم أتباع أبقراط المباشرين، انتقل مركز ثقل الحضارة والطب الإغريقيين إلى الإسكندرية بمصر. وهناك تعاقبت مدارس شتى للطب واحدة تلو الأخرى، بداية من التجريبيين، الذين كانوا ينادون بالملاحظة المباشرة كوسيلة محورية لممارسة الطب، إلى المنهجيين في القرن الأخير ق.م.، الذين قاصوا الطب إلى عدد قليل من المناهج المبسطة. ولقد كان جالينوس واحداً من أعمق أطباء ومشرحي العصر الإغريقي المتأخر تأثيراً، وحُفظت كتاباته وقُبلت بطريقة تعسفية لا تقبل النقاش حتى عصر النهضة. وضللت أوصافه عن تشريح الجسد البشري، التي بُنى معظمها على تشريح الحيوانات، ضللت المشرحين لعدة قرون.

الرومان

كان هناك مجال برع فيه الأطباء الرومان وطوروا فيه هو الطب العسكري. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف يحميها الجيش الروماني، الذي طور

أطبأؤه طرائق معقدة لعلاج الجروح. وانتقلت الممارسات الجراحية التي ابتدعوها عبر القرون، ولم تتطور حتى عصر النهضة.

وكان الرومان أيضاً أول من أنشأ مؤسسات تضاهى المستشفيات. وقد نشأت فى بادئ الأمر كى تؤوى العبيد المرضى، ولكنها بعد ذلك تطورت إلى أبنية يقصدها المواطنون الرومان طلباً للرعاية الطبية. وأطلق عليها اسم ملاجئ المرضى (valetudinaria) وصارت أماكن تُقدم فيها الرعاية الطبية بصفة دائمة. كما كانت تقام أثناء العمليات العسكرية لخدمة المرضى والمصابين من الجنود.

الطب فى الشرق

فى الشرق طور الصينيون طرق الوخز بالإبر منذ ٢٧٠٠ ق.م. على أقل تقدير. واستمر طوال تلك الفترة، بل إنه فى الحقيقة لا يزال يمارس حتى اليوم. كما أتقن الصينيون أيضاً استخدام النباتات والأعشاب استخداماً معقداً فى الممارسة الطبية. وفى الهند كان الطب البراهمانى أو الأيورفيدى ذروة الممارسة الطبية الهندوكية القديمة. ويعتبر شاراكا وسوسروتا وفاجبهاتا أعظم ثلاثة معالين هندوك فى تلك العقيدة، التى تشمل نصائح فى استخدامات التداوى بالأعشاب وتوصيات خاصة بالغذاء والعمليات الجراحية وغيرها من وسائل العلاج. وفيما بعد، فى عهد إمبراطورية جوبتا (٣٢٠-٥٤٠م) استخدم الأطباء الهنود التطعيم وسيلة لمنع انتشار الأمراض المعدية.

بدايات علم الأحياء (البيولوجيا)

فى العالم القديم، كما يوضح هذا الموجز، كان الاهتمام الأكبر لعلم الحياة منصباً على الأمور الطبية. وحدث فى بلاد اليونان، بصفة خاصة، أن نحا ذلك الاهتمام مناحى أخرى تتعدى ذلك الاهتمام العملى، عندما بدأ الفلاسفة يتساطون عن وظائف الأعضاء وعلاقتها بعضها ببعض. وكان أرسطو (Aristotle) (٢٨٤٩-٢٢٣ ق.م.) أهم

شخصية فى هذا المجال. ومثلما كان الحال مع كثير من أعظم العقول فى العالم القديم لم يتبق من كتاباته إلا الفتات. ويبحث ما يقرب من ربع تلك الكتابات فى علم الأحياء، وتشمل كتاباً عن تصنيف الحيوانات، كان أول محاولة جادة لتصنيف الأنواع ذات الصفات المتشابهة. وتعرف أرسطو على ما يربو على ٥٠٠ نوع حيوانى، كما وضع أيضاً نظريات عن التكاثر وتوارث السمات المختلفة. وكان عمله مبنياً على الملاحظة الدقيقة واتسم بالإتقان حيث سيطر على كل الكتابات البيولوجية حتى عصر النهضة.

وعلى الرغم من وجود دلائل على أن أرسطو كتب عن النباتات أيضاً فإن تلك الكتابات فقدت. غير أن كتابين نباتيين كتبهما تلميذه ثيوفراستوس (Theophrastus) (٢٧١؟-٢٨٧ ق.م.) قد بقيا. وكان ثيوفراستوس أهم عالم نبات فى العالم القديم؛ وتحوى كتاباته ملاحظاته عن تركيب النباتات وتصنيفها واستخداماتها فى الطب. وانتقلت معارفه إلى الرومان، ومن خلال المصادر الرومانية المسماة بكتب الأعشاب أو العشبيات انتقلت تلك المعارف النباتية إلى العصور الوسطى.

المستقبل

تنتهى الحقبة التى يغطيها هذا الجزء عند ما صار يُعرف باسم عصور الظلام، وهى الفترة المبكرة من العصور الوسطى التى لم يحدث أثناءها إلا قدر ضئيل من التقدم العلمى أو الطبى، ولم يكن هناك إلا فهم وتتبع غامضين لتقاليد وإنجازات الماضى. وأثناء انحسار عصور الظلام فى نهاية الألفية، أعيد اكتشاف معارف العالم القديم. وعلى الرغم من عدم دقتها وقصورها فإن تلك المعارف فى آخر الأمر ساهمت فى إشعال جذوة إحياء الاهتمام بعالم الطبيعة وأدت فى النهاية إلى بزوغ فجر العلوم والطب الحديثين فى عصر النهضة.

روبرت هندريك (ROBERT HENDRICK)

الأطباء والعقاقير والموت فى مصر القديمة

نظرة شاملة

سطع نجم الحضارة المصرية القديمة فى الوادى الخصيب لنهر النيل. وكذلك سطع نجم الأطباء هناك وبخاصة فى القرون ما بين ٢٠٠٠ ق.م. و١٢٠٠ ق.م. وكان الجانب الأعظم من الطب المصرى مبنياً على الخرافات لا يزيد عليها إلا قليلاً. غير أن الأطباء اكتسبوا بعض المهارات فى علاج الجروح، وتشير وثائق تلك الفترة إلى مئات من العقاقير التى كانت مستخدمة آنذاك. ومن المحتمل أن الكثير منها كان عديم الجدوى إن لم يكن مضرراً، ولكن البعض الآخر ثبتت فاعليته فى منع تلوث الجروح. كما اكتسب المصريون أيضاً مهارات فى مقاومة الجراثيم بعد الموت (رغم أنهم لم تكن لديهم دراية بتلك الكائنات الدقيقة). فقد ساعدت عملية التحنيط فى حماية الجثث من التعفن - وطقوسها لم تكن متعلقة بالبيولوجيا فحسب وإنما أيضاً بالدين والسياسة. واستمرت بعض أفكار الطب المصرى حية فى حضارات لاحقة مثل: الحضارات الإغريقية والرومانية.

الخلفية

من بين الوسائل التى اكتسب بها العلماء والمؤرخون معارف عن الطب المصرى كانت دراسة الكتابات التى تركها أولئك الأطباء خلفهم. فقد كان المصريون أوائل الحضارات التى ابتكرت طريقة للكتابة. واستخدموا فى ذلك ألياف نبات يسمى البردى، وحولوه إلى ورق يشبه البرشمان (جلود الحيوانات). ويُطلق على لفافة

من هذا الورق القديم اسم بردية (وجمعها برديات). وقد اكتشفت ست برديات تركز على الطب.

وأهم تلك البرديات هي بردية إدوين سميث. وكان إدوين سميث (Edwin Smith) (١٨٢٢-١٩٠٦) مصرولوجياً أمريكياً اشترى البردية القديمة سنة ١٨٦٢، وقام بمحاولة لترجمتها، غير أن أهميتها لم تتضح إلا سنة ١٩٢٠، عندما ترجمها بالكامل جيمس بريستد (James Breasted) (١٨٦٥-١٩٢٥) في جامعة شيكاغو. ويعود تاريخ البردية إلى ١٥٥٠ ق.م.، وإن كان المفترض أنها نُسخت من عمل أقدم بكثير^(١).

وتتركز بردية سميث حول الجراحة، وبخاصة ما يتعلق بالجروح وكسور العظام. وينقسم جزء من هذه البردية إلى أقسام. وكل قسم ينقسم بدوره إلى أربعة أجزاء بأسلوب علمي مثير للدهشة: عنوان، وفحص للمريض، وتشخيص، ثم العلاج. ويذكر العنوان نوعاً معيناً من الجروح أو حالة مرضية معينة، مثل جرح بليغ في جبهة المريض. ويحدد فحص المريض الأعراض التي يتعين على الطبيب أن يبحث عنها والخاصة بهذا النوع من الجروح. والتشخيص هو رأى الكاتب فيما يتعلق بمصير الحالة؛ الذى قد يكون حسناً أو غير مؤكد (وفى هذه الحالة يتوجب على الطبيب أن يحاول مساعدة المريض) أو سيئاً (وفى هذه الحالة يعتبر الكاتب الحالة ميئوساً منها). وفى الجزء الخاص بالعلاج نجد تعليمات محددة حول الإجراء الجراحى الواجب اتباعه ونوع العقاقير التى تستخدم فى شفاء المريض.

وتتناول كثير من الحالات التى ورد لها ذكر فى بردية سميث وسائل إغلاق الجروح. ولعل إحدى هذه الوسائل كان استخدام الخياطة. غير أن أول خيوط عُثر عليها فى جسد يعود تاريخها إلى حوالى ٥٠٠ سنة بعد الوقت الذى يُفترض أن

(١) يستطيع القارئ الرجوع إلى شرح تفصيلى لتلك البردية فى كتاب «تاريخ الجراحة منذ أقدم العصور» تأليف الدكتور أمين توفيق، وإصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩، المترجم.

البردية قد كُتبت فيه، إضافة إلى أن تلك الخيوط لم يضعها طبيب بل وضعها محنط بعد إزالة الأحشاء الداخلية من الجثة. وثمة دلائل في البردية تشير أيضاً إلى أن الأطباء المصريين كانوا يستخدمون الأشرطة اللاصقة فى إغلاق الجروح. فقد كان الأطباء يستخدمون صمغاً مستخرجاً من أشجار السنط يضعونها على شرائط من الكتان التى يثبتونها على جانبي الجرح لإبقائهما متلاصقين - وهى نمط جد مبكر من الشريط اللاصق الحديث. وكانت هذه الشرائط تساهم فى منع التلوث، لأن الصديد كان يخرج بسهولة من الجرح، ولا تتضمن إدخال جسم غريب فى جسد المريض (مثل الخيوط المستخدمة فى خياطة الجرح).

قبل حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م. كانت الشفرات الحديدية بالغة الندرة (وباهظة الثمن) فى مصر. ولهذا كانت السكاكين التى يستخدمها الأطباء المصريون مصنوعة من الحجر. غير أن الجراحين المصريين كانوا قلما يلجأون إلى الجراحة، لأنهم فى الأغلب والأعم كانوا يخطون الجروح لا أن يُحْدِثوها. كما استخدم الأطباء أيضاً الخيزران المبرى (مثل القلم). وكانت الأدوات القاطعة الخيزرانية زهيدة الثمن ويمكن التخلص منها بعد استخدام وحيد: ويمكن اعتبارها من أوائل الشفرات ذات الاستخدام الواحد فى العالم.

والوثيقة الطبية المصرية القديمة الأخرى هى بردية إيبيرس. واشتراها إيبين سميث أيضاً سنة ١٨٦٩، ولكنه باعها إلى جورج إيبيرس فى ١٨٧٢. ويعود تاريخها، مثل بردية سميث، إلى حوالى ١٥٠٠ ق.م.، ولكنها قد تكون أقدم منها بكثير. وتتكون من مجموعة من النصوص الطبية منظمة بطريقة عشوائية إلى حد ما. وخصَّصَ جانب كبير منها للتنوع الواسع للعقاقير التى كان الأطباء المصريون يستخدمونها فى علاج مرضاهم، وهى عقاقير مأخوذة من نباتات وحيوانات ومعادن.

ومن بين العلاجات التى ذكرتها بردية إيبيرس استخدام سكين محمأة فى علاج "ورم فى وعاء دموى" - ربما كان ورماً شريانياً أو وريدياً. فبعد أن يزيل الطبيب الورم

تعمل حرارة السكين على إغلاق الوعاء الدموي بإحراقه وبذلك تمنع النزيف. ولعل ذلك يمثل أول محاولة جراحية فى العالم لإيقاف النزيف.

ويمكن أيضاً أن نجد دلالات على استيعاب المصريين للبيولوجيا عند دراستنا لإجراءات الدفن الخاصة بهم، فحرارة المناخ المصرى وجفافه تحافظ بصورة طبيعية على الأجساد عند دفنها فى الرمال. غير أن المصريين عندما بدأوا فى استخدام القبور لدفن موتاهم سمح انخفاض الحرارة وارتفاع الرطوبة لعملية التعفن الطبيعية بأن تحدث. ولما كان المصريون يؤمنون بأن الحياة بعد الموت لا يمكن أن تتم إلا إذا بقى الجسد فى حالة جيدة، فقد بات التعفن يشكل مشكلة خطيرة، فابتكروا إجراءات دقيقة للتحنيط.

كانت العقبة الرئيسية التى واجهها المحنطون المصريون هى كيفية منع عمل الجراثيم. وكانت أول وسائلهم لتحقيق ذلك هى إزالة الماء من الجسم، وهو الذى تحتاجه الجراثيم كى تبقى حية، أو استخدام مادة كيماوية مُبْتَدَّة كى توقف نمو الكائنات الحية. ولعل المحنطين المصريين كان بإمكانهم استخدام الخل كمنثبات - وهو مادة كيماوية يسهل الحصول عليها، ولكن فكرة مواجهة الحياة الآخرة كمخلل بشرى لم تكن فكرة وجيهة، كما لعلهم أثروا أيضاً ألا يستخدموا الملح كمادة مجففة.

وعوضاً عن ذلك، عمدوا إلى استخدام مزيج من التجفيف والتثبيت. ففى أول خطوة من أكثر أنواع التحنيط كلفةً، كان المحنطون يزيلون الأحشاء الداخلية (عدا القلب) ثم يفتتون المخ ويزيلون فتاته مستخدمين خطافات حديدية من خلال الأنف. ويضعون تلك الأعضاء فى أوانى يضعونها مع الجسد فى المقبرة. وكانوا يتركون القلب فى مكانه لأنهم كانوا يعتبرونه مركز الذكاء (وليس المخ) وسيكون وجوده مفيداً فى الحياة الآخرة.

وبعد ذلك كان المحنطون يعالجون الجسد بالنطرون، وهو مادة مجففة تتكون من مزيج من بيكربونات الصودا وكربونات الصودا. وكان المصريون يجمعون تلك

الكيمائيات عندما تتبخر مياه برك ضحلة بالقرب من نهر النيل بعد الفيضان السنوي، تاركة قشرة من ملح النطرون. ثم يقوم المحنطون بحشو الجسد بأكياس من المادة المجففة ويغطون الجسد بمزيد من النطرون ويتركونه لمدة ٤٠ يوماً، ولم تكن هذه الطريقة تحفظ الجسد حفظاً كافياً لأن النطرون لا يتجاوز مفعوله عمق بضعة ملليمترات.

وبعد ذلك يحشو المحنطون ما تحت الجلد بالطين والرمال كي ينفخوه، ثم يلفون الجسد بلفائف كتانية. وكانوا يُسخّنون مواد راتنجية وعصارات نباتية مثل البخور والمر ويصبونها بعد كل طبقة من اللفائف. فكانت المواد الراتنجية تعمل كمثبت وتحفظ الطبقات الخارجية من الجلد، مثلما يحفظ العنبر بقايا الحشرات داخله للملايين السنين. وكانت هذه الطريقة باهظة التكاليف لأن أياً من تلك المواد الراتنجية لم يكن يُنتج في مصر نفسها.

كان المصريون يخشون التعفن لكونها نتيجة للموت والمرض فحسب وإنما أيضاً بوصفه ناتجاً للعمليات الطبيعية داخل الجسم. فمثلاً، كانوا يعتبرون أن تحلل الطعام داخل الأمعاء هو نوع من «التعفن الداخلي» يمكن أن يتسبب في حدوث أمراض. ولم يكن لدى المصريين إلا فهم عام للجهاز الدوري - وهو الأوعية الدموية التي تربط بين أجزاء الجسم المختلفة. وأدركوا، عن حق، أن الأوعية الدموية متصلة بالقلب. غير أنهم ظنوا خطأً أن الشرج هو مركز الجهاز الدوري. ولهذا كانوا يعتقدون أن الأمعاء لو امتلأت فوق طاقتها فإن المواد البرازية سوف تتسرب إلى الأوعية^(١) وتنتشر في الجسم مسببة الأمراض. ولكي يتجنبوا ذلك شاع استخدام الحقن الشرجية بين المصريين القدماء.

(١) لعل سبب ذلك هو شيوع نزيف الدم من البواسير، مما جعل قدماء المصريين يظنون أن الشرج هو مركز الجهاز الدوري. «الترجم».

التأثير

بحلول ما يعرف بالدولتين الوسطى والقديمة (٢٠٦٠-١٠٧٠ ق.م.) كانت المدن قد تضخمت أحجامها، حيث بات بمقدور الأطباء أن يقارنوا بين الحالات المرضية المتشابهة. ولم يكتف الأطباء بإبداء الملاحظات عن الأمراض المختلفة والتناقش بشأنها مع زملائهم فحسب، وإنما قاموا بتسجيل معارفهم عنها. وفى النهاية، عندما تجمع كم كاف من المعطيات استطاعوا أن يتبينوا أنماطاً لها ويصلوا إلى تشخيصات، وهى أمور لم تكن ممكنة فى قرى صغيرة ومتباعدة. وثمة مثال يدل على أهمية الأطباء فى مدن مصر القديمة هو وجود الأطباء الإخصائيين إضافة إلى الممارسين العموميين، وخصوصاً فى البلاط الملكى. فمثلاً كان هناك أطباء تخصصوا فى أمراض العيون والأسنان والمعدة. بل كان هناك طبيب يحمل لقب «راعى شرج فرعون». كما أتاح نمو المدن للأطباء شبكة اجتماعية أكبر للحصول على العقاقير من خلال التجارة، وأحياناً مع أمم خارج مصر.

ويشير التنوع الكبير فى العقاقير المصرية إلى الدرجة التى انغمست فيها الحضارة المصرية فى التجارة. فقد كانوا يستوردون العقاقير من حضارات البحر الأبيض المختلفة، ومن مناطق فى إفريقيا، ومن آسيا (بل حتى من الصين البعيدة). ويصل مجموع العقاقير التى جاء ذكرها فى النصوص المصرية القديمة إلى ٧٠٠ عقار. وتتضمن العقاقير الغريبة التى وردت فى البرديات الطبية دهن فرس النهر والفئران المشوية وأمخاخ الخنازير وحويصلة المرارة عند السلحفاة. غير أنه ليس من المعروف ما إذا كانت تلك الأسماء مقصودة حرفياً أم لا. (فمثلاً إذا ذكرنا ثمرة عين الجمل نلاحظ أنها لا علاقة لها بالعيون ولا بالجمال، وبالمثل قد تكون حويصلة المرارة عند السلحفاة فى حقيقة أمرها نوعاً من الأعشاب ولا تمت بصلة إلى السلاحف). ويبقى التعرف على غالبية العقاقير المصرية لغزاً عويصاً. وفى أحوال كثيرة يمكن أن نحدد أن عقاراً معيناً ينتمى إلى نبات، ولكن فصيلته لا يمكن تحديدها بأى قدر من الدقة.

وحتى فى الأحوال التى يمكن التعرف على عقار ما فإن القليل منها فقط تمت تجربته فى تجارب حديثة، ولذلك لا يمكن التأكد من فاعليته.

كان الطب المصرى وثيق الارتباط بالديانة المصرية. وفى بعض الأحوال كانت العلاقة بالغة التشابك، حيث يستحيل معرفة من جاء أولاً - الاستخدام الدينى لمادة كيميائية أم الاستخدام الطبى. ولتأخذ كحل العين مثلاً. فلقرون عديدة دأب المصريون على تلوين جفونهم إما بالصبغات السوداء أو الخضراء. وكان يُطلق على الأدوات المستخدمة فى تحضير تلك الصبغات كلمة مصرية تعنى 'الحماية'. ومن المرجح أن المصريين كانوا يؤمنون بأن الكحل يقيهم من أمراض العيون التى كانت منتشرة فى مناخ مصر الجاف والمترب. وكان المصريون يعتبرون الكحل مادة ثمينة لدرجة أنهم كانوا يقدمونها كتقدمات للآلهة، بل كانوا يطلون بها أعين التماثيل الدينية. ويضاف إلى ذلك أن الأطباء كانوا يضعون تلك الأصباغ على الجروح مباشرة للإسراع فى التئامها.

وتبين أن الاعتقاد بقدره الكحل على حماية العيون له أساس طبى. فقد كان المصريون يحصلون على الصبغة الخضراء من مركبات تحتوى على النحاس. والنحاس مادة سامة للبشر إن أخذت بكميات كبيرة، وهى سامة للجراثيم فى كميات صغيرة. وتدل التجارب الحديثة على أن مركبات النحاس التى كان المصريون يستخدمونها لها تأثير فى منع العدوى التى تسببها الجراثيم.

كما كان الدين أيضاً يلعب دوراً مهماً فى الأفكار المصرية عن الأمراض. فقد كانوا يعتقدون أن غالبية الأمراض تحدث نتيجة لأرواح شريرة ترسلها ألهتهم كعقاب على سلوكيات سيئة. ولهذا كان العديد من الوسائل التى أتى ذكرها فى البرديات الطبية لعلاج الأمراض يعتمد على قوى ما وراء الطبيعة. وكانت تلك التعاويذ السحرية تتكون من شقين: ترنيمة وطقس. وتهيب كلمات الترانيم بالأرواح الشريرة أن تغادر جسد المريض، بينما تشمل الطقوس لسع المرضى بالنار أو وخزهم بالإبر لطرده الشياطين. ويعتبر إيذاء المريض بجانب إيذاء الروح المسببة للمرض تأثيراً

جانبياً يؤسف له ولكنه أمر مطلوب. وكان التضبرع بالسحر لا بالطب شائعاً بوجه خاص عندما يكون التوقع أن المرض سينتهى بالوفاة، مثل لدغات الأفاعى والعقارب السامة.

غير أننا نجد وجهة نظر مناقضة فى بردية إدوين سميث. ففي الغالبية الساحقة من الحالات الجراحية التى تصفها البردية، لا نجد ذكراً للسحر ولا للأرواح الشريرة. وبدلاً عن ذلك، نجد العلاجات تتعامل مباشرة مع أعراض ملموسة. ولعل مرد ذلك يعود إلى أن البردية تركز على جروح مرئية. ولهذا فمن الواضح أن الجروح قد نتجت عن أسباب طبيعية (مثل عضة تمساح) وليس من أسباب خارقة للطبيعة (مثل تأثير روح شريرة). وقد يكون ذلك خطوة صغيرة، وإن كانت مبكرة، على طريق انفصال الطب عن السحر. (ولكن الأطباء، طبقاً لبردية إيبيرس، يتعين عليهم أن يترنمو بالترانيم حتى أثناء وضعهم أو إزالتهم للأربطة من جرح صغير).

وكان لاحتفالية التحنيط أيضاً مغزى دينى قوى عند الشعب المصرى. فكانت طقوس دفن الملوك، على سبيل المثال، تمثل تحوله إلى إله. وهذا بدوره يرسخ أن ابن الملك، وهو الملك المقبل، هو ابن إله، مما يؤكد انتقالاً سلساً للسلطة. ولهذا كانت من المهام المهمة للمحنطين أن يمنعوا تحلل جسد الملك - وهو أمر يحمل احتمالات إفساد النظام الدينى والسياسى.

كان التحنيط والعلاج مهنتين مختلفتين تمام الاختلاف وتمارسان فى أماكن مختلفة فى المدن المصرية، ولا يعتقد أحد أن المحنطين كانوا يعطون معارفهم فى التشريح للأطباء. وفى الحقيقة، من المرجح أن معارف المحنطين التشريحية كانت كبيرة، لأنهم كانوا يزيلون الأحشاء الداخلية من أجساد الموتى من فتحات صغيرة. وتصور الهيروغليفيات المصرية أشكالاً للبشر لهم أعضاء داخلية حيوانية، مما يشير إلى أن الأطباء كانوا يدرسون التشريح بفحص الحيوانات المقدمة كأضحيات فى المعابد وليس بفحص جثث آدمية. غير أنه لما كان المصريون لم يكونوا ممنوعين من لمس الجثث الميتة متلماً كان الحال فى حضارات أخرى معاصرة لهم، فإن من المحتمل أن

خبراتهم فى التحنيط قد تركت أثراً على حضارات لاحقة مما حفزها على دراسة التشريح عن طريق تشريح الجثث.

كما ترك الطب المصرى والبيولوجيا المصرية أثرها على الحضارات الأخرى من نواحٍ أخرى. وعادت بعضُ من خبراتهم الظهور فى قرون لاحقة. فمثلاً بدأ الأطباء الأوربيون فى استخدام الأشرطة اللاصقة أثناء القرن التاسع عشر. وفى ذلك الوقت كانت معدلات تلوث جروح العمليات الجراحية من جراء استخدام الخيوط من الشدة، حيث أصبحت الجراحة بمختلف أنواعها أمراً بالغ الخطورة. ولا تزال الأشرطة اللاصقة تستخدم اليوم لإغلاق أنواع معينة من الجروح.

كما عادت خبرات أخرى الظهور بعد مئات السنين، وهى استخدام العسل كعلاج للجروح. ففي مصر كان العسل أكثر العقاقير شيوعاً؛ والإشارات إليه فى البرديات الطبية أكثر من أى عقارٍ آخر. ولعل سبب تفضيل المصريين للعسل فى العلاج هو أنه، رغم لزوجه، يمنع الالتصاق بين الجروح وأربطتها.

والعسل يمنع نمو الجراثيم - وهى سبب رئيسى للتلوث. وقد اكتُشف مقدار من العسل فى مقبرة مصرية يبلغ عمرها ٢٥٠٠ سنة، ولم تبد عليه أية مظاهر للتحلل أو التعفن. ويعمل العسل (مثل النطرون) كمادة مجفِّفة، فيمتص الماء من الخلايا فيقتلها. إضافة إلى أن بعض المواد الكيميائية فى العسل لها خاصية قتل الجراثيم. وانتشر استخدام العسل فى العلاج إلى حضاراتٍ أخرى مثل الحضارتين الإغريقية والرومانية. وبعد قرون كان العسل يُستخدم فى الصين أثناء الحرب العالمية الثانية لعلاج الجروح البسيطة حين تعذر توفر علاجاتٍ أخرى. واليوم يبحث العلماء فى فاعلية العسل فى مكافحة بعض أنواع الجراثيم التى تقاوم المضادات الحيوية التقليدية.

غير أن الممارسات المصرية التى عاشت لم تكن كلها مفيدة. ومن بين تلك الممارسات كان وضع مواد معينة على الجروح تجعل الأرواح الشريرة تفر فى نفور من

جسد المريض. وشملت تلك المواد دُك مواد برازية (وخاصة براز التماسيح) فى الجروح، الأمر الذى لا يمكن أن يفيد منه الجرح. غير أن إجراء مماثلاً كان شائعاً فى أوربا فى العصور الوسطى أثناء انتشار الطاعون الأسود. فقد كان الكثيرون يربطون بين هذا المرض القاتل وبين قوى شريرة خارقة للطبيعة. وكان البعض يعتقد أنهم إن أحاطوا أنفسهم بروائح كريهة (مثل أن يدعكوا أجسادهم بمواد برازية أو ببقاء حيوانات ميتة معهم فى منازلهم) فإنهم سيمنعون الأرواح الشريرة من دخول أجسامهم وإمراضهم.

كما عاشت أيضاً لمئات السنين الأفكار المصرية المتعلقة باختلال توازن الدم كسبب للأمراض (والتي بنوها على الفكرة الخاطئة عن تشريح الجهاز الدورى)، وفى النهاية انتهت إلى فصد الدم الذى شاع فى حضارات مختلفة. وكان الإغريق القدماء والرومان يعتقدون بأن الصحة تتحدد بتوازن الأخلاط الأربعة، أو السوائل، فى الجسم. وساد الظن أن زيادة خلط معين، مثل الدم، يؤدى إلى المرض. وللتخلص من تلك الزيادة كان الأطباء يضعون دود العلق على المرضى أو يقطعون وريداً فينزف المريض حتى يدخل فى صدمة عصبية نزفية من جراء فقدان الدم. واستمرت تلك الممارسة حتى نهاية العصور الوسطى وأعيد إحيائها مرة أخرى فى القرن الثامن عشر، مما أدى إلى وفاة أعداد لا تُحصى من المرضى.

وعلى الرغم من إخفاقاتهم، فإن الأطباء المصريين أحرزوا تقدماً رائعاً فى حدود معارفهم وتقنياتهم. وانتقل الكثير من ممارساتهم الطبية عبر طرق التجارة، حتى وصلت إلى آشور وبابل فى الشرق الأوسط وبلاد اليونان وروما فى البحر الأبيض. وأسهمت منجزاتهم فى بناء الأسس التى قام عليها التقدم الطبى اللاحق.

سناسى ر. مرى (STACEY R. MURRAY)

لمزيد من القراءة

Majno, Guido. The Healing Hand: Man and Wound in the Ancient World. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1975.

McGrew, Roderick E. Encyclopedia of Medical History. New York: McGraw-Hill Book Company, 1985.

Mertz, Barbara. Temples, Tombs, and Hieroglyphs: A Popular History of Ancient Egypt. Revised ed. New York: Dodd, Mead & Company, 1978.

Parker, Roy, ed. The Cambridge Illustrated History of Medicine. Cambridge: Cambridge University Press, 1996.

حكايات السراديب

لم يكتف قدماء المصريين بتحنيط البشر؛ بل حنطوا الحيوانات أيضاً. وكان الكثير منها بهدف تقديم قرابين دينية. فكل إله مصرى كان ممثلاً أو مرتبطاً بحيوان معين. فمثلاً كان أنوبيس إله الموتى يُصوّر برأس ابن أوى. ومن بين الوسائل التي كان المصريون يتعبدون بها إلى آلهتهم تقديم أضحية من الحيوانات المرتبطة بهم. فبعد أن يتم ذبح الحيوان (عادة بواسطة الكاهن) يقوم المتعبد بدفع تكاليف تحنيطه. وفي تحنيط الحيوانات كانت تُستخدم نفس الطريقة المتبعة في تحنيط البشر. وبعد ذلك تُترك المومياة في المعبد، وتُدفن فيما بعد في مقبرة مخصصة للحيوانات.

ونظراً للتنوع الكبير في الآلهة المصرية كان المصريون يحنطون أنواعاً كثيرة من الحيوانات، من القطط إلى الغزلان، ومن الكلاب الوحشية إلى التماسيح. وانتشر تحنيط الحيوانات انتشاراً واسعاً. فقد كشف العلماء عن مقبرة تحتوى على

ما يربو على مومياوات مليون طائر. وفي مدينة بوباستيس (تل بسطة)^(١)، حيث كان يُعبد الإله باستت، كان الكهنة يقتلون مئات القطط الصغيرة كل يوم لاستخدامها في قرابين المومياوات.

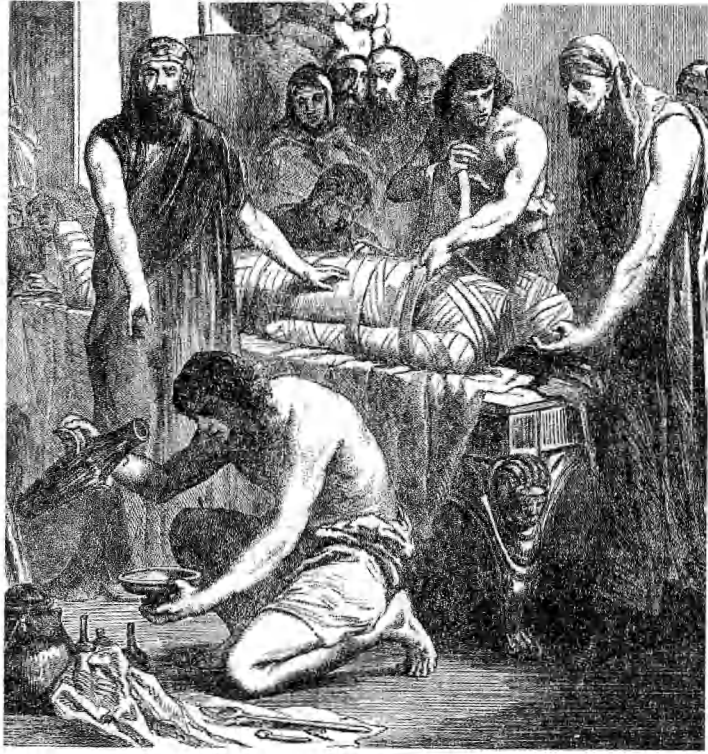
ولم تكن كل الحيوانات المحنطة قرابين دينية. فقد كان أثرياء المصريين يدفعون للمحنطين تكاليف تحنيط حيواناتهم الأليفة المفضلة التي نفقت لأسباب طبيعية. وكان الاعتقاد السائد هو أن الحيوانات الأليفة لن تنعم بالحياة الآخرة إلا إذا تم تحنيطها.

ستايسى ر. مري

(١) بوباستيس أو تل بسطة: مدينة قديمة كانت عاصمة إقليم بسطة على الفرع البيلوزي للنيل في الدلتا، وأصبحت عاصمة بعد أن صار شيشنق الأول فرعوناً، وأسس الأسرة الثانية والعشرين، واستمرت مزدهرة حتى تدهورت أحوالها بعد الغزو الفارسي لمصر على يد قمبيز الثاني سنة ٥٢٥ ق.م، وكانت مركزاً لعبادة الربة باست «القطه»، وبها أكبر جبانة للقطط المحنطة، وتقع حالياً في محافظة الشرقية «المترجم».



صانعات العقاقير أثناء صنع عقار عشبي في مصر القديمة



قدمات المصريين يقومون بلف اللغائف كجزء من عملية التحنيط

الوخز بالإبر فى الصين

نظرة شاملة

الوخز بالإبر، هو إدخال إبرة رفيعة فى نقاط محددة من الجسم كى تخفف من الآلام أو لعلاج الأمراض، وهو فن صينى قديم ظهر منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة. واستخدم الوخز بالإبر كوسيلة لاستعادة توازنٍ صحى للنشاط فى كل أنحاء الجسم، وكان، ومعه العلاج بالأعشاب، الركيزة الأساسية للعلاج فى الطب الصينى القديم. وعلى الرغم من أن الوخز بالإبر نشأ قبل نشأة التاريخ المكتوب فإن تطوره على مر الأزمان بقى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالفلسفات المرتبطة بالطبيعة فى الديانة التاوية (Taoism).

خلفية

عثر فى الآثار الصينية على أدلة على ممارسات مماثلة للوخز بالإبر يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٢٠٠٠ ق.م). وفى ذلك الوقت كانت الإبر تُصنع بطريقة بدائية من الأحجار. وكان تسمى "أحجار بيان" (bian stones) وتستخدم كوسيلة للضغط على الجسم وعلاج الجروح والشق على أماكن التلوث. وفيما بعد حلت الإبر محل أحجار بيان. وعثر على أول إشارة مكتوبة للوخز بالإبر فى كتاب "القانون الداخلى للطب للإمبراطور الأصفر" (Nei Ching Sue Wen) الذى كُتب حوالى سنة ٢٠٠ ق.م، ولكن يُزعم أنه يحوى كتابات من زمن أقدم بكثير. ويشمل الكتاب أجزاء كثيرة تتناول موضوعات جوهرية فى الطب مثل التركيبة الفسيولوجية للجسم

والتشخيص والحميات والعلاجات (بما فى ذلك الوخز بالإبر) مبنية على حكمة وخبرات الحكماء القدامى. ويشمل العمل محادثة بين "الإمبراطور الأصفر" القديم هوانج-يى (حوالى ٢٦٥٠ ق.م.) ووزيره الأول توضح الأسس الفلسفية للطب الصينى ممثلاً فى الوخز بالإبر.

ويؤمن الطب الصينى التقليدى بأن الجسم يحتوى على طاقة أساسية للحياة يسميها "تشى". ويؤكد علماء اللغة الصينية أن مفهوم "تشى" يحمل معانى أشمل من أى نوع للطاقة ورد ذكره فى العلوم الغربية. وجاء فى كتاب "القانون الداخلى للطب للإمبراطور الأصفر" أن "تشى" مسئولة عن التغيرات والحركة وعن الحياة ذاتها. وتدفع "تشى" فى كل أنحاء الجسم هو المسئول عن كل الجوانب العقلية والجسدية للحياة. وتسرى "تشى" فى الجسم فى قنوات أو خطوط طويلة منتظمة فى غالبيتها بطريقة متناسقة. وهناك أربعة عشر من تلك الخطوط تسرى على طول الجسم. وتصور المصادر المبكرة تلك الخطوط بأنها غير مادية، وتختص فقط بسريان الطاقة فى الجسم. وعندما تنسد تلك الممرات أو تصبح عديمة الكفاءة يتوقف سريان "تشى" ويختل التوازن فى الجسم مسبباً الأمراض. وكان الأطباء الصينيون التقليديون يمارسون الوخز بالإبر لاستعادة ذلك التوازن.

وكانت "تشى" مكونة من جزءين هما "ين" و"يانج". ويمكن استخدام مفاهيم "ين" و"يانج"، وكلاهما أساسى فى الفلسفة الطاوية، لوصف كل ما يحدث فى الكون، بما فى ذلك كل جزء فى الجسم ووظائفه. و"ين" و"يانج" هما متضادان متكاملان، وعندما يكونان فى حالة اتزان يعملان سوياً مكونين كياناً كاملاً. وهما يعتمدان كلٌ على الآخر، واستخدمت العلاقة بينهما لوصف توازن الطبيعة المتقلبة. فالرجل، على سبيل المثال، (الصفات الذكرية مرادفة لـ "يانج") يعتمد على المرأة كى يولد، بينما المرأة (الصفات الأنثوية مرادفة لـ "ين") تعتمد على الرجل كى تحمل. وفى الجسم، يمثل عنصر "يانج" القدرة على العمل والتحول. بينما تمثل "ين" المقدرة على الدورة الدموية والغذاء والنمو. وتؤكد المفاهيم الطاوية عن الصحة التطلع إلى الوصول إلى التناسق المثالى بين

القوى المتضادة في عالم الطبيعة، بين "ين" و"يانج". أى عدم اتزان فى عناصر «ين» و«يانج» قد يؤدى إلى انقطاع سريان تشى مسبباً الألم أو المرض. وباستخدام الوخز بالإبر كان فى استطاعة الطبيب الصينى أن يستعيد التوازن بين "ين" و«يانج» وسريان تشى.

وعندما كان الطبيب الصينى يقرر استخدام الوخز بالإبر لعلاج مريض كان يبدأ بتوجيه أسئلة وتسجيل ما لاحظته على مريضه من ملاحظات جسدية معينة، ويمثل ذلك أخذ التاريخ المرضى فى الأزمنة الحديثة. وكان الطبيب يستخدم حواسه الخمس لجمع أكبر قدر من المعلومات ذات العلاقة بتشخيصه. وكان يعتبر غالبية الأمراض داخلية (حتى أمراض الجلد وبعض الإصابات)، وبهذا تدخل فى نطاق العلاج بالوخز بالإبر. وكانت الإبر تولج فى مواضع الوخز على الخطوط الطولية. ومواضع الوخز هى مواقع محددة، حيث تقترب خطوط الطول من السطح ويصبح الوصول إليها سهلاً بالإبر. وكانت الإبر تُغرس بزوايا مختلفة وأعماق متباينة، تعتمد على التأثير المطلوب. وأحياناً كانت الإبر تُكوى أو تُضرب ضرباً هيناً أو تُسخن أطرافها بصوف مشتعل. ثم تسخن عجينة من نبات صينى وتوضع على نقطة الوخز ضمن عملية إحراق الـ "موكسا" (وهى إحراق أقماع صغيرة من أوراق الشجر الجافة على مواضع معينة من الجسم) [وهى طريقة كان اليابانيون والصينيون يستخدمونها لعلاج النقرس]. وكثيراً ما كان الوخز بالإبر والإحراق بالموكسا والتداوى بالأعشاب تستخدم كلها فى آن واحد.

التأثير

ساهمت الأحداث أثناء حقبة الدول المتحاربة من التاريخ الصينى (٤٧٥-٢٢١ ق.م.) فى تثبيت أركان ممارسة الوخز بالإبر بوصفه حجر الزاوية فى الطب الصينى، فقد صارت كل من التاوية والكونفوشيوسية هى الإيديولوجيات

الساندة وكان لها نفوذ طاغٍ على الفكر الصينى. وكانت الكونفوشيسية تنادى بأن الجسم مقدس ككل، وأنه من الأمور الحيوية أن يقدم المرء جسده إلى أسلافه عند وفاته سليماً. ولذلك كان البتر والإعدام بقطع الرأس يسببان رعباً أكثر من الموت. وقدم العلاج بوخز الإبر طريقة منطقية لعلاج الأمراض الداخلية بالاحتفاظ بسلامة الجسد. وكانت التاوية فلسفة أكثر سلبية، والتوازن عندها بين 'ين' و'يانج' يتفق مع المفاهيم الطبية للوخز بالإبر فى المحافظة على توازن وتدفق "تشى" لضمان الصحة. وخلال الحروب المتكررة أثناء السبعمئة سنة التالية والتي رسخت النظام الإقطاعى فى الصين وقوت من دعائمه، أثبت الوخز بالإبر أنه وسيلة محمولة وسهلة للعلاج أثناء الاضطرابات.

وفى الوقت الذى حقق الوخز بالإبر لنفسه مكانة وطيدة فى الطب الصينى التقليدى، فإن الأدوات التى تُستخدم لممارسته تحسنت بتحسّن المهارات التقنية. وأفسحت «أحجار البيان» الفجة المكان لإبرٍ من الفخار أكثر إتقاناً فى صناعتها. ومع تطور تقنيات صناعة المعادن، حلت الإبر المعدنية محل الإبر الفخارية وأحجار البيان. ونشأت الإبر المعدنية (وغالبيتها من الحديد) حوالى سنة ١٠٠ ق.م.، وعززت كثيراً من استخدام الوخز بالإبر. فالإبر المعدنية يمكن تشكيلها كى تُستخدم فى أغراض محددة، وظهرت منها تصاميم متعددة. وفى حفريات مقبرة أمير شونجشان، التى يعود تاريخها إلى حوالى ١١٥ ق.م.، عُثر على تسع إبر ذات تصاميم متميزة منها ما صنع من الفضة وغيرها من الذهب. وفى النهاية اتخذت الإبر التى صُنعت بعد ذلك واحداً من الأشكال التسعة التقليدية التى عُثر عليها فى المقبرة: إبر مشابهة لرؤوس السهام لوخز ما تحت الجلد مباشرة؛ والإبر الحادة المستديرة للوخز السريع أو المتكرر؛ وإبرة صممت خصيصاً لنزح الخراج؛ والإبرة متعددة الحواف لاختراق الأوردة؛ والإبرة الطويلة للعضلات العميقة؛ والإبرة الكبيرة للمفاصل؛ والإبرة غير الحادة لإحداث نقاط ضغط صغيرة؛ والإبرة المستديرة للتدليك؛ والإبرة الخيطية الشكل. وتحددت نقاط جديدة للوخز بالإبر كى تتوافق مع الإبر المحسنة. وبنهاية القرن الثالث الميلادى كانت

الغالبية الساحقة من القنوات الرئيسية وحوالي ٤٠٠ نقطة للوخز قد أمكن التعرف عليها. وترسخت القواعد الأساسية للعلاج بالإبر، وبقي الوخز بالإبر ثابتاً بصورة عامة لمدة ١٥٠٠ سنة (باستثناء تحسن تقنيات صناعة الإبر ونقاط الوخز).

وبداية من حوالي سنة ٢٢٠ ق.م. بدأ الطب الصيني التقليدي يقدم تفاسير للأمراض مبنية على الطبيعة، بدلاً من عزو المرض إلى الأرواح الشريرة أو غيرها من القوى الخارقة للطبيعة. وأصبحت "تشى" يُنظر إليها بوصفها مادة طبيعية، والوخز بالإبر بوصفه طريقة عقلانية لاستمرارية التوازن واسترجاعه. وعندما تبنى الصينيون ثقافة الاعتدال وضبط النفس في كل مناحى الحياة اليومية التي دامت أمداً طويلاً، تركز الاهتمام على المسؤولية الشخصية في المحافظة على توازن "تشى" الجسم. وبواسطة الوخز بالإبر والاعتدال في الغذاء والنشاط الجسدي والممارسات الجنسية والتأمل الروحاني، مارس الصينيون نوعاً من أقدم أنواع الطب الوقائي في العالم. وأدت المفاهيم الصينية عن "ين" و"يانج" إلى أن الطب الصيني أصبح أول طب شامل لكل الجسم في العالم، فاعتلال وظيفة أو جزء من الجسم لم يكن يُنظر إليه على أنه أمر مستقل عن سائر جسم الشخص ككل.

وفي نهاية الأمر، سلك الطب الصيني التقليدي في عملية تطوره مسلكاً مغايراً للطب الغربي. فبينما سلك كل من الطب الشرقي والغربي منهجاً يبحث عن الإجابات في الطبيعة، وكان ذلك في وقت متزامن تقريباً (حوالي ٢٠٠ ق.م.)، انتهى المطاف بالطب الغربي إلى أن صار يبحث عن الإجابات من خلال المنهج العلمي، بينما استمر الطب الشرقي في مناهجه الشمولي. وضمن التمسك بالقيم الصينية والنصوص والفلسفات القديمة احتفاظ الوخز بالإبر بمكانة راسخة في الطب الصيني حتى العصور الحديثة.

برندا ويلموث ليرنر (BRENDA WILMOTH LERNER)

لمزيد من القراءة

Beinfeld, Harriet, and Efreim Korngold. *Between Heaven and Earth: A Guide to Chinese Medicine*. New York: Ballantine Books, 1991.

Eckman, Peter. *In the Footsteps of the Yellow Emperor: Tracing the History of Traditional Acupuncture*. San Francisco: Cypress Books, 1996.

Ni, Maoshing, trans. *The Emperor's Classic of Internal Medicine*. Boston: Shambala Press, 1995.

Unschuld, Paul. *Medicine in China: A History of Ideas*. Berkeley: University of California Press, 1985.

التداوى بالأعشاب

نظرة شاملة

يستخدم طب الأعشاب أو طب النباتات الجنور والأوراق واللحاء كعقاقير لعلاج الأمراض. وربما كان الاستخدام الطبى للأعشاب وغيرها من المنتجات النباتية قديماً قَدَّمَ العلاج الطبى ذاته. وهناك اعتقاد شائع على مر التاريخ بأن الطبيعة توفر نباتات فى كل منطقة تصلح لعلاج أمراض تلك المنطقة. وكان جامعو العقاقير والمعالجون فى حضارات عديدة يستخدمون "العشبيات" وهى كتيبات إرشادية عن كيفية التعرف على النباتات الطبية وبها وصفات لتحضير العلاجات. وكان المعالجون فى آسيا والهند القديمة وبلاد الرافدين وبلاد اليونان وروما يستخدمون المئات من النباتات الطبية. ومع اختراع آلة الطباعة صارت "العشبيات" القديمة وما خَلَفَهَا من كتيبات متاحة على نطاق واسع. ولعب البحث عن نباتات طبية جديدة دوراً مهماً فى الاستكشاف الجغرافى حتى فى العالم القديم.

الخلفية

منذ أزمان سحيقة القدم وتقريباً فى كل مكان فى العالم كان أهم استخدامات للأعشاب والتوابل هى الاستخدامات الطبية، سواء للاستعمال الداخلى أو على صورة مراهم أو بلسم للالام أو لبخات. وتشهد "العشبيات" القديمة، سواء من الصين أو الهند أو سومر أو آشور أو مصر أو بلاد اليونان أو روما، بالاستخدام الواسع النطاق للتوابل والأعشاب فى علاج الأمراض. واحتفظت الأعشاب والتوابل بشهرتها

الطبية على مر التاريخ؛ ولا تزال مزاياها العلاجية تتمتع باحترام كبير وبخاصة فى آسيا والهند.

وكان التداوى بالأعشاب يستخدم تقليدياً الأعشاب والتوابل، وأحياناً فى تركيبات مع أجزاء ومنتجات حيوانية ومعادن. ويُزرع الكثير من الأعشاب الطبية طلباً لخواصها العطرية والحريفة أو أية خواص أخرى مرغوبة. وكثيراً ما كانت الأجزاء المهمة تجفف للتخزين ولتركيز المركبات المهمة بها. وتتكون التوابل والأعشاب من جذور وبصيلات وزهور وبراعم ومياسم وبثمرة وحبوب وأوراق. والأعشاب هى أوراق النبات العطرية مثل: البردقوش والنعناع وإكليل الجبل والزعرور.

وحافظت الصين أكثر من أى حضارة أخرى على طبها التقليدى، وبخاصة معارفها الدسمة من العقاقير المستمدة فى غالبيتها من العلاجات العشبية. ولعل عشابى الصين قد درسوا واستخدموا ما يربو على ٥٠٠٠ نبات. وعندما طبع لى شيه تشن (١٥١٨-١٥٩٣)، "أمير الصيدالة" فى الصين، أقرباذينه الكبير "بن تساو كانج ميون" سنة ١٥٧٨، حوى ذلك السفر الجامع للمعارف العشبية الصينية ١٨٩٢ عقاراً من ممالك الخضروات والحيوانات والمعادن، وأكثر من ٨٠٠٠ وصفة. واليوم يحاول العلماء الصينيون أن يعزلوا المواد الفعالة من العلاجات التقليدية.

شِن نونج هو أحد الأباطرة السماويين الثلاثة المبجلين بوصفهم مؤسسى الحضارة الصينية، وهو يعرف أيضاً باسم «الفلاح المقدس». ويقال إن شِن نونج تذوق بنفسه "الأعشاب المنة" حتى يتمكن من أن يُعلِّم الناس أياً منها يصلح للعلاج. ويُزعم أن نتاج ما توصل إليه مسجل فى أول أقرباذين، وهو أقرباذين ن تساو" أو "كتاب الأعشاب الكبير". ويُعتبر هوانج-تى، آخر الأباطرة السماويين، مؤلف "تى تشينج" أو "المرجع التقليدى فى الطب الداخلى للإمبراطور الأصفر"، وهو نص ألهم الفكر الطبى الصينى وأرشده لما يربو على ٢٥٠٠ سنة. ووفقاً لما جاء فى "تى تشينج" فإن أول عقاقير كانت موجودة فى الأعشاب والأشجار والنباتات والحيوانات التى كانت تُستخدم كأطعمة. ويوضح استخدام الشاي، وهو شراب يصنع من أوراق شجيرات

الشاي، مدى التداخل بين "الأطعمة والعقاقير". فالشاي يحوى كميات ضئيلة من المواد الغذائية ولكنه غنى بأشباه القلويات (الكافيين والثيوبرومين والثيوفيلين). وكان يقال إن الأنواع الثلاثة للعقاقير- نباتية وحيوانية ومعدنية- تتطابق مع السماء والبشر والأرض. كما كان يُنظر إلى أجزاء الحيوان ومنتجاته بوصفها مصدراً رائعاً للمبادئ الأساسية. وشملت العلاجات التقليدية الطحالب البحرية ومسحوق فرس البحر (وهو مصدر جيد لليود والحديد) لعلاج تضخم الغدة الدرقية والإرهاق المزمن، ونبات الإفدرا لأمراض الرئة والربو. أما الجنسنج، ملك الأعشاب الطبية، فكانت تُعزى إليه خواص تكاد تكون إعجازية.

ويمكن للعلاج الطبى أن يسير وفق أسلوبين عموميين: فالأطباء يستطيعون أن يحاولوا تقوية الجسم، حيث يتمكن من شفاء نفسه والدفاع عنها، أو يمكنهم أن يهاجموا عوامل المرض مباشرة. وكان الهدف الجوهرى لطب الأعشاب الصينى هو تقوية وحماية الجسم، واستعادة التوازن الطبيعى للطاقة وتعزيز إطالة العمر. ويمثل الجنسنج التناول الصينى التقليدى لموضوع الشفاء. فقد استخدم كمقوٍ وإعادة الشباب وكمقوٍ للباه. ويطلق عليه العلماء المحدثون اسم "أدابتوجين" بمعنى المادة التى تزيد من مقاومة كل أنواع الإجهاد من المرض إلى سوء الحظ. ولقد تبنت حضارات أخرى عديدة أفكاراً مماثلة عن التداوى بالأعشاب.

التأثير

على غرار الطب الصينى، حاول الطب الهندى أن يطيل الحياة، ويحافظ على الصحة، ويمنع المرض. ويُعرف "الأيورفيدا"، وهو المنظومة العلمية التى تشكل أساس الطب التقليدى الذى لا يزال يمارس على نطاق واسع فى الهند حتى اليوم، يُعرف باسم "علم الحياة". ويشكل كل من التداوى بالأعشاب وتنظيم الغذاء أهمية خاصة فى الطب الأيورفيدى.

ووفرت الحياة النباتية والحيوانية الشديدة التنوع في الهند ثروة من المواد الطبية. وتشير المراجع الطبية التقليدية في الحضارة الهندية القديمة إلى ما يقرب من ألف نبات طبي، بيد أن كثيراً منها مواد لا يمكن التعرف عليها أو "عقاقير مقدسة" مثل: الـ"سوما". وعلى الرغم من أن النباتات كانت المصدر الرئيسي للمواد الطبية فإن المعادن والمنتجات الحيوانية مثل: العسل واللبن وجلود الثعابين والمواد البرازية كانت من المصادر المهمة أيضاً. ونظراً لأهمية استخدام مكونات نقية وغير مغشوشة، وأعشاب جُمعت في أوقات تبشر بالخير، فإن الطبيب الحكيم كان يركّب عقاقيه من مكونات جمعها بنفسه.

وعلى النقيض من الأنظمة العلمية الطبية في الصين والهند، اندثرت المعارف الطبية لبلاد الرافدين، ولكن بعضاً من المعارف التقليدية بالعقاقير القديمة لم تختف كلياً. ولقد ازدهرت حضارات عديدة يوماً من الأيام، مثل: الحضارة السومرية والكلدانية والآشورية والبابلية، في بلاد الرافدين، وهي الأراضي ما بين نهري دجلة والفرات في العراق الحديثة. وهناك لوحة صلصالية ربما كتبها عالم سومري منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة قد تكون من أقدم الوثائق الخاصة بالصيدلة. ويحتوي اللوح على مجموعة من وصفات العقاقير الطبية وتشى بمعرفة واسعة بالنباتات والمعادن الطبية. وبلغ من فرط أهمية النباتات والأعشاب في الطب القديم أن المصطلحات الدالة على "الطب" و"الأعشاب" كانت مترادفة. وطورت الحضارات القديمة في بلاد الرافدين أقرباذينات شاملة جامعة. وتعرف العلماء الذين درسوا ألوأحاً صلصالية آشورية قديمة على ما يقرب من ٢٥٠ عقاراً نباتياً و ١٢٠ عقاراً معدنياً، إضافة إلى مشروبات كحولية ودهون وزيوت وأجزاء حيوانية وعسل وشمع وأنواع مختلفة من الألبان يُعتقد أنها كانت لها فوائد طبية خاصة. وشملت العقاقير النباتية الحلتيت (asafetida) [صمغ راتنجي يستخرج من جذور بعض النباتات] والقنب والزعفران والخربق (hellebore) والمندراجورا أو اللفاح (mandragora) والمر والأفيون وزيت التريبتينينة المستخرج من الصنوبر وغيرها. وكانت العقاقير المستخرجة من البذور واللحاء وأجزاء

أخرى نباتية تذاب فى الجعة أو اللبن وتعطى بالفم أو تمزج بالنبيذ والعسل والدهون وتستعمل من الخارج. وكان العشابون يستخدمون مصادر تتفق بصورة عامة مع الطب الشعبي، ولكن الوثائق الصيدلانية من بلاد الرافدين تنم عن دراية بعمليات كيميائية على درجة من الإتقان فى سبيل تنقية المكونات الأساسية. وكان للعقاقير الملية مكانة خاصة فى التقاليد الطبية لحضارات بلاد الرافدين لأن المرض كان يُنظر إليه بوصفه عقاباً إلهياً عن خطايا ارتكبها المريض. ولهذا احتاج الشفاء إلى إفراغ جسدى وروحى أو تَطَهُّر. ويبدو أن مكانة العشابين قد تدهورت فى الوقت الذى اشتد فيه اهتمام حضارات بلاد الرافدين بالجانب السحرى للشفاء.

وامتدح الكتاب الإغريق من أمثال هوميروس (٩٠٠-٨٠٠ ق.م.) وهيرودوت (٤٨٤-٤٣٠ ق.م.) وثيوفراستوس (٢٧٢-٢٨٧ ق.م.) أطباء مصر لحكمتهم ومهارتهم وتحدثوا عن النباتات الطبية الثمينة التى كانوا يصفونها. ولسوء الحظ لم يتبق إلا قصاصات قليلة من البرديات الطبية، التى ربما تكون قد كُتبت ما بين ١٩٠٠ و١١٠٠ ق.م. وتزودنا البرديات الطبية بمعلومات عن المفاهيم المصرية القديمة عن الصحة والمرض والتشريح والفسولوجيا (علم وظائف الأعضاء) والسحر والطب على صورة تواريخ لحالات مرضية وعلاجات وتركيبات للعقاقير ووصفات وتعاويذ. وأشهر بردية وأكملها هى: بردية إيبيرس التى كُتبت حوالى ١٥٠٠ ق.م. وتشمل مجموعة كبيرة من الوصفات والتعاويذ ومقتطفات من نصوص طبية عن الأمراض والجراحة. ويوجد فى بردية إيبيرس ما يقرب من ٧٠٠ عقار تشكل ما يربو على ٨٠٠ وصفة. وتحوى كثيراً من الوصفات مكونات غير مفهومة وغريبة أو تبدو مستحيلة، ولعلها كانت أسماء سرية أو وصفية لنباتات مختلفة. ومن الواضح أن الأطباء كانوا يعتمدون على مساعدين متخصصين وجامعى العقاقير، ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا يُحَضِّرون عقاقيرهم بأنفسهم. وعلى النقيض من عادات بلاد الرافدين، كانت الوصفات المصرية أكثر دقة من ناحية الكميات. وعلى الرغم من أن المصريين كانوا يعرفون التأثيرات المهدئة للأفيون ونبات البنج (henbane)، فإنه ما من دليل يدل على أنهم استخدموها للتخدير الجراحى.

وفى سنة ٢٢٢ ق.م. غزا الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٢٢٢ ق.م.) مصر وأدخلها فى مجال نفوذ الثقافة الهلينستية. ومن الصعوية بمكان تقرير إلى أى مدى تعلم الإغريق من المصريين وإلى أى مدى تعلم المصريون من الإغريق، ولكن أطباء الإغريق تبنوا كثيراً من العقاقير المصرية. وكان كل من أبقرط (٤٦٠؟-٢٧٧ ق.م.) وديوسكوريديس (٤٠؟-٩٠ ق.م) وجالينوس (١٢٩-١٩٩ م) وعديد من الأطباء الإغريق يصفون أعشاباً طبية فى وصفاتهم.

وينسب إلى ثيوفراستوس الإريسوسى (Theophrastus of Eresus) (٣٩٠-٢٨٦ ق.م.)، وهو فيلسوف إغريقى تتلمذ على يد أفلاطون (٤٢٧؟-٣٤٧ ق.م.) وأرسطو (٢٨٤-٣٢٢ ق.م.) فضل تأسيس علم النبات. وكان ثيوفراستوس واحداً من تلاميذ أرسطو الأثريين وورث عنه مكتبته. ولهذا فإن كتابات ثيوفراستوس تزودنا برؤية ثاقبة فى تعاليم أرسطو فى علم النبات، الذى لم يترك لنا أعمالاً خاصة به فى ذلك المجال. ويحتوى كتاب "تاريخ النباتات" (De historia plantarum)، وهو أهم ما بقى من أعمال ثيوفراستوس، على معارف مهمة عن النباتات التقليدية وجمع الأعشاب لأهداف طبية. وجمع ثيوفراستوس المعارف الموجودة فى وقته عن النباتات، وصفها ووصف ما يقرب من ٥٠٠ نبات. وقسم ثيوفراستوس النباتات إلى أشجار وشجيرات وأعشاب. ولقد بقيت مفاهيمه الأولية عن أشكال النباتات وتصنيفها وتاريخها الطبيعى مقبولة دون نقاش لعدة قرون.

وألف كراتيوس (Crateuas) الطبيب الإغريقى (القرن الأول ق.م.) أقدم كتاب عشبيات مصور معروف. والنص يصنف النباتات ويبحث فى فوائدها الطبية. ولسوء الحظ، لم يتبق إلا شذرات من أعمال كراتيوس، كمقتطفات فى أعمال كتاب آخرين.

ومن القرن الثانى ق.م. وحتى القرن الأول الميلادى ألف حشد متعاقب من الكتاب الرومان أبحاثاً باللغة اللاتينية تتناول الزراعة والعناية بالحدائق وزراعة الفواكه. وعلى الرغم من أن تلك المجموعات الرومانية لم تكن علمية الطابع فإنها تزودنا بمعلومات عن

النباتات التي كان الرومان العمليون يعتبرونها ذات قيمة. وكتب بليني الأكبر (Pliny the Elder) (٢٣-٧٩م) موسوعة تُعرف باسم "التاريخ الطبيعي" (*Historia naturalis*) خصص ستة عشر من أجزائها السبعة والثلاثين للنباتات. وأشاد بليني بالخواص الشفائية لكثير من الأعشاب والتوابل. وتكمن أهمية "التاريخ الطبيعي" في أنه يجمع ما يقرب من ٢٠٠٠ مؤلف تمثل ١٤٦ كاتباً رومانياً و٢٢٧ إغريقياً. وعلى الرغم من أن بليني لم يراع الدقة تماماً في جمعه لمادته فإن موسوعته حفظت لنا مقتطفات من نصوص كانت ستضيع إلى الأبد. وهناك عمل كتبه سنة ٤٧ م سكريبونيوس لارجوس (Scribonius Largus) (اشتهر في ٤٠ م) جمع فيه مجموعة من العقاقير والوصفات كما يحوى أول وصف دقيق لتحضير الأفيون الحقيقي.

وكتب ديوسكوريديس الطبيب والأقرباذيني الإغريقي كتاباً أكثر تنظيماً للتداوى بالأعشاب. ويعتبر ديوسكوريديس مبدع علم الأقرباذين الأوربي. وكان كتابه "الأقرباذين" (*De materia medica*) أهم مصدر للمعارف التقليدية الخاصة بالأعشاب وعلم الأدوية لما يقرب من ١٦ قرناً. ولا يزال الكثير من العقاقير التي وصفها ديوسكوريديس شائعة الاستخدام في الممارسة الطبية. وكانت رحلات ديوسكوريديس بوصفه جراحاً في جيش الإمبراطور نيرون فرصة سانحة له لدراسة سمات كثير من النباتات والمعادن وانتشارها وخواصها الطبية. ويشير الكتاب إلى حوالي ١٠٠٠ عقار بسيط. ويشمل "الأقرباذين" أوصافاً لما يقرب من ٦٠٠ نبات، منها القنب والسورنجان وشوكران الماء والنعناع، ويشير إلى الجرعة المنومة التي تُحضر من الأفيون واللفاح كمخدر في العمليات الجراحية. ومما هو لافت للنظر أن نلاحظ أن ديوسكوريديس يلفت الانتباه إلى الأصل المصري لحوالي ٨٠ من تلك العقاقير النباتية التي جاء ذكرها في كتابه عن النباتات. وصنف ديوسكوريديس نباتاته إلى ثلاثة أنواع: العطرية والمطبخية والطبية. كما يناقش أيضاً القيمة العلاجية والغذائية لأنواع شتى من الأجزاء الحيوانية مثل: اللبن والعسل، والاستخدامات الطبية للمعادن بما في ذلك الزئبق والزرنيخ وخلات الرصاص وإيدرات الكالسيوم وأكسيد النحاس. وهناك نسخة بينظمية مصورة لكتاب

ديوسكوريديس الشهير تعرف باسم "المخطوط القسطنطيني" تم تجهيزها في القرن السادس الميلادي، وربما يكون بعض من رسوماتها وأسماء نباتاتها مأخوذاً من كراتيوس.

وأعيد نشر العديد من المخطوطات العشبية في أوروبا في العصور الوسطى مستمدة بصورة عامة من ديوسكوريديس وبليني. وأحدث اختراع المطبعة ثورة في توفر كل أنواع الأدب بما في ذلك أدبيات الطب والأقربانين. قطع الكثير من كتب العشبيات في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكتبها أطباء وعلماء نبات. وكان أقدم ما طبع من عشبيات مستمداً من أعمال ديوسكوريديس وثيوفراستوس بصفة عامة. ولا يزال طب العشبيات التقليدي يمارس اليوم في غالبية أنحاء العالم، وبخاصة في آسيا والهند، ولا تزال الأعشاب تلعب دوراً في الطب الغربي. وعشابو اليوم يفرطون في الثناء على كفاءة الأعشاب والتوابل وبذور التوابل في علاج أمراض بعينها ويدفعون بأن الأعشاب أقل تسبباً في أعراض جانبية من العقاقير المصنعة.

لويز ن. ماجنر (LOIS N. MAGNER)

لمزيد من القراءة

Anderson, Frank J. *An Illustrated History of the Herbals*. New York: Columbia University Press, 1997.

Arber, Agnes Robertson. *Herbals: Their Origin and Evolution. A Chapter in the History of Botany, 1470-1670*. 3rd ed. Cambridge: Cambridge University Press, 1986.

Bensky, Dan, Andrew Gamble, and Ted J. Kaptchuk. *Chinese Herbal Medicine: Materia Medica*. Seattle, WA: Eastland Press, 1986.

Chatterjee, Asima, and Pakrashi, Satyesh Chandra, eds. *The Treatise on Indian Medicinal Plants*. New Delhi: Publications & Information Directorate, 1991.

Grieve, Maud. *A Modern Herbal; the Medicinal, Culinary, Cosmetic and Economic Properties, Cultivation and Folklore of Herbs, Grasses, Fungi, Shrubs & Trees, with All Their Modern Scientific Uses*. New York: Hafner, 1959.

Huang, Kee Chang. *The Pharmacology of Chinese Herbs*. Boca Raton, FL: CRC Press, 1993.

Kapoor, L.D. *CRC Handbook of Ayurvedic Medicinal Plants*. Boca Raton, FL: CRC Press, 1990.

Leung, Albert Y. *Chinese Herbal Remedies*. New York: Universe Books, 1984.

Sivarajan, V.V., and Indira Balachandran. *Ayurvedic Drugs and Their Plant Sources*. New Delhi: Oxford & IBH, 1994.



ديوسكوريدس يتلقى نبات اللقاح من ربة الاكتشافات

القوانين الغذائية العبرية

نظرة شاملة

وردت القوانين الغذائية العبرية لأول مرة فى سفر اللاويين وسفر التثنية منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة. وبهذا تكون من بين أقدم مثيلاتها من القيود الغذائية التى ظهرت، رغم أن هناك ما يشابهها فى الحضارات القديمة. وساهمت القيود الغذائية فى إبطاء نوبان الأقوام اليهودية المشتتة فى حضارات أخرى، وبذلك ساعدت على الحفاظ على هويتهم المتميزة وسهلت دورهم فى التاريخ.

الخلفية

نشأ الأسلوب العبرى فى الحياة فى إطار الشرق الأوسط القديم. وفى أحوال كثيرة كانت العادات اليهودية مماثلة لعادات غيرهم من القبائل السامية، أو أنهم التقطوها من شعوب أخرى فى المنطقة كالمصريين أو السومريين. غير أنه حدث فى بعض الأحيان أن تعمد العبرانيون المؤمنون بإله واحد وضع قواعد جديدة لينأوا بأنفسهم عن جيرانهم الوثنيين.

ومثل أى عادات أخرى، تطورت المحرمات والقوانين الغذائية على مر الزمن. وكان تقنينها فى أسفار اللاويين والتثنية حوالى ١٠٠٠ ق.م، ثم ورد ذكرها تفصيلاً فيما بعد فى التلمود، والمكانة المحورية التى تبوأتها فى الكتب المقدسة العبرانية فى ثقافة الشعب اليهودى، هى ما بلورت تلك القوانين الغذائية وحفظتها على مر ألاف السنين.

وتشكل القوائم الخاصة بالحيوانات المسموح بآكلها وتلك المحرمة جانباً محورياً من القوانين الغذائية. وتتكون تلك القوائم من قواعد عامة مبنية على تصنيفات عريضة. ومن بين الحيوانات ذوات الأربع لا يسمح إلا بآكل تلك التي لها حافر مشقوق وتمضغ طعامها. وتعطى التوراة بوضوح أمثلة على الحيوانات التي لا تنطبق عليها تلك القاعدة وهى الجمل وغرير الجبل والأرنب والخنزير. وكان تحريم تناول بعض الحيوانات كغذاء شائعاً بين العديد من الشعوب القديمة فى كل مكان فى العالم، وربما يعود ذلك إلى التخوف من انتقال صفات غير مرغوب فيها فى حيوان معين. والخنازير، على سبيل المثال، كانت محرمة على كثير من شعوب الشرق الأوسط (لحم الخنزير محرم على المسلمين واليهود، وكانت هناك قيود مشابهة عند قدماء المصريين والبابليين). كما كانت الهندوكية القديمة تحرمها أيضاً، وكذلك النافاجو التقليديون وهم السكان الأصليون فى غيانا، واللابيون «فى شمال إسكندنافيا» وقبيلة فى بورنيو.

وفىما يتعلق بالحيوانات المائية فإن القانون العبرانى يشدد على وجود الزعانف والقشور مما يستبعد كل أنواع المحار وثلعبان السمك والحبار والأخطبوط. وكل الحشرات محرمة، فيما عدا تلك التى تملك سيقاناً مفصلية فوق أقدامها تستطيع بواسطتها أن تثب فوق الأرض، وهذا يعنى الجراد وصرار الليل والجندب. أما الزواحف والبرمائيات وأكلات اللحوم والطيور المائية والخفافيش والحيوانات ذات المخالب مثل: القوارض وكل عائلة ابن عرس فكلها محرمة.

وإضافة إلى ذلك تتناول القوانين الشروط الواجب توفرها فى حيوان ما حتى يمكن أكله. فالحيوانات التى ماتت موتة طبيعية محرمة وكذلك الجيف. وتتطلب الإجراءات التفصيلية لذبح حيوان بغرض الأكل أن يُقطع الطلق بضربة واحدة بسكين حادة مرهفة مثل الموسيقى. وهذا يضمن أن الموت يكون فورياً وبذلك تقل آلام الحيوان. وتحرم القوانين أيضاً تناول الدم أو الدهون المحيطة بالأعضاء الداخلية. ويعتقد العلماء أن مثل تلك القوانين مستمدة من معتقدات غامضة قديمة بأن روح الحيوان تكمن فى تلك المواد. وبالمثل فإن أكل العصب الوركى فى الفخذ، الذى يرتبط فى التوراة بعملية التناسل، محرم.

ويجب ألا يُؤكل اللحم واللبن سوياً ولا أن يُطهيا أو يُخزنا معاً، وذلك بناء على نهى التوراة عن طبخ لحم صغير الماعز في لبن أمه، وفي الحق فإنه من الجائز أن يكون القانون قد قُصد به أن يكون أكثر تحديداً مما أتت به التفسير اللاحقة. ويُعتد أن المقصود هو منع طقوس كنعانية معينة للإخصاب وفقاً لنص يعود تاريخه إلى ٣٤٠٠ سنة، وفيه يتم غلى صبي في اللبن. وتكرر الكتب الخمسة الأولى الأقدم من الإنجيل العبري، وتسمى التوراة، نصحتها للناس بتجنب مثل تلك الممارسات والعادات الوثنية.

التأثير

ونجد في القوانين الغذائية العبرية أن الكلمات التي تحمل معنى «مسموح به» أو «محرم» (كوشر وتريف في لغة اليديش) تترجم عادة بـ «طاهر» و«نجس» على التوالي. غير أن القوانين الغذائية لم تُصغ في مصطلحات تحمل معنى النظافة الجسدية وإنما تعنى الطهارة الدينية أو الطقوسية. ويظن بعض الناس أنها كانت في حقيقة الأمر وسيلة لإرساء ممارسات صحية تحت ستار أنها أوامر إلهية. والبعض الآخر يعتقد أن القوانين وضعت لأسباب دينية بحتة، لتحسين أحوال الطبيعة البشرية وتعزيز الوعي بالرب بإحاطة كل أنشطة الحياة اليومية بدلالات روحية. ومن وجهة النظر هذه فإن الفوائد الصحية هي أمر عابر أو نتيجة طبيعية لاتباع قوانين الرب. وعلى أية حال، فقد تبين أن بعض القوانين الغذائية ينتج عنها طعام أكثر فائدة للصحة.

فعلى سبيل المثال، قد يكون الحيوان الذي مات موتة طبيعية مريضاً، والجيفة قد يكون قد دب فيها التعفن أو غزتها الطفيليات. وأجبر تحريم أكل الطيور الجوارح والحيوانات المفترسة الناس على استخدام حيوانات أدنى مرتبة في سلسلة الغذاء، حيث تكون السموم البيئية أقل تركيزاً. كما حُرّم أيضاً أكل الحيوانات التي تتغذى على القاع والتي تقتات بالقمامة، وتلك التي تتغذى بالترشيح مثل المحار، والتي عادة ما تحمل الطفيليات.

وتتطلب عملية الذبح، التي تراقب مراقبة لصيقة ووردت تفاصيلها في الكتابات التلمودية في حوالي ٥٠٠ م، وفيما بعد في النصوص الحاخامية، تتطلب معالجة شديدة الدقة للحم. فكل لحم حيواني يُفحص وأي دليل على وجود مرض يجعل اللحم غير طاهر. ولكي يزال أى أثر للدم يُنقع اللحم فى ماء بارد ويملح ثم يغسل ثلاث مرات. والتخوف من العصب الوركى المحرم يجعل الأطراف السفلية بأكملها غير مستخدمة من الناحية العملية، كما أنها أصعب جزء فى تنظيفه بكفاءة، وفى الوقت نفسه يُسمح بتناول كل الفواكه والخضراوات، وهى مغذية واحتمالات حملها للأمراض أقل من اللحوم. ويمكن تناولها مع أى طعام مثلها فى ذلك مثل: الحبوب والأسماك والبيض.

وعلى الرغم من الفوائد الصحية للقوانين الغذائية فإنها لم تكن مفيدة على الدوام لليهود أثناء شتاتهم الطويل - وهو الفترة التى بدأوا فيها يهاجرون من موطنهم التقليدى فى الشرق الأوسط إلى مناطق أخرى حول العالم. فعندما أصيبت أوروبا بموجات من الأمراض فى القرون الوسطى كان اليهود يعتبرون أقل قابلية للمرض بصورة ما. وقد يكون ذلك بسبب مزيج من قوانينهم الغذائية وأوامر دينية إضافية تتطلب استحماماً وغسلاً للأيدى أكثر مما كان شائعاً فى القرون الوسطى فى أوروبا، وكذلك لعزلتهم الاجتماعية النسبية عن المجتمع غير اليهودى. ويغض النظر عن السبب فإن النتيجة أنهم كانوا يُنظر إليهم بارتياح بوصفهم المتسببين فى الوباء. وأحياناً كان ذلك يتسبب فى مهاجمات قاتلة لمجموعة كان اضطهادها الدينى والعرقى شائعاً على أية حال.

وهناك نتيجة مهمة أخرى للقوانين الغذائية العبرية، وهى أنها ساهمت فى الحفاظ على وحدة الشعب اليهودى لآلاف السنين، رغم ضغوط الشتات. فقد عملت القوانين الصارمة حول ما يستطيع المرء تناوله كطعام كرباط وثيق يربط اليهود إلى مجتمعهم. وكانت العلاقات الاجتماعية مع العالم الخارجى محدودة بالضرورة، ومال اليهود إلى التجمع فى مجموعات يضمن حجمها الكبير مصدراً موثوقاً به للطعام الطاهر.

وكان الذبح الطقوسى شرطاً أساسياً يعنى أن تقاليد الصيد لم تترسخ بين اليهود، وأن تواجدهم وحيدين على التخوم لم يكن أمراً وارداً. ويضاف إلى ذلك أنه لما كان من المتعذر عليهم التأكد من أن الطعام الذى يبيعه غير اليهود يطبخ طبقاً للقوانين الغذائية، فقد عمل كثير من اليهود فى تجارة الطعام. فكان منهم القصابون والخبازون ومنتجو الألبان والبيض، ومنتجون للحبوب والتجارة فيها، والزيت والأنبذة يبعونها لليهود وغير اليهود على حد سواء. غير أنهم بدءاً من أخريات القرون الوسطى استُبعوا من غالبية التجارات ومُنِعوا من تملك الأراضى. ونتيجة لذلك، اشتدت الفاقة بالعديد من مجتمعاتهم.

ولم يحدث إلا فى أحوال وأماكن قليلة أن اهتز بصورة جدية التمسك اليهودى بقوانينهم الغذائية. وشملت تلك حقبة النفوذ الإغريقى فى أوائل ظهور المسيحية، ثم مرة أخرى منذ القرن التاسع عشر، مع بزوغ حركة إصلاح اليهودية والهجرات الجماعية لليهود الأوربيين إلى الولايات المتحدة. وفى كلتا الحالتين امتُصت قطاعات كبيرة من اليهود فى السكان عامة وفقدوا هويتهم كيهود.

وتماسك تلك القبيلة الشرق أوسطية الصغيرة على مدى آلاف السنين هو أمر ذو مغزى لبقية العالم بسبب التأثير الذى أثرته على التاريخ. فاليهود، وبخاصة من خلال النفوذ الذى تمتعت به الكتب المقدسة العبرانية، ساهموا فى تحويل أفكار الهلال الخصيب القديم إلى الأساس الوطيد الذى قامت عليه الحضارة الغربية. فالمسيحية بدأت كطائفة يهودية، ثم انتشرت فيما بعد حول العالم. والتقاليد اليهودية الخاصة بالمنح التعليمية نتج عنها إسهامات كثيرة وخصوصاً فى العلم والطب. واليوم ينغمس زعماء اليهود فى العالم الحديث والاستيعاب يؤرقهم، ولكنهم يتعاركون على مكانة القوانين الغذائية فى مجتمعهم وهو يواجه القرن الواحد والعشرين.

شيرى تشاسين كالفو (SHERRI CHASIN CALVO)

- Cahill, Thomas. *The Gifts of the Jews: How a Tribe of Desert Nomads Changed the Way Everyone Thinks and Feels*. New York: Nan A. Talese, 1998.
- Douglas, Mary. *Purity and Danger: An Analysis of the Concepts of Pollution and Taboo*. London: Routledge and Kegan Paul, 1994.
- Gaster, Theodore H. *The Holy and the Profane: The Evolution of Jewish Folkways*. New York: William Sloane Associates, 1955.
- Goody, Jack. *Cooking, Cuisine and Class: A Study in Comparative Sociology*. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.
- Harris, Marvin. *Cows, Pigs, Wars and Witches*. New York: Vintage Books, 1974.
- MacClancy, Jeremy. *Consuming Culture: Why You Eat What You Eat*. New York: Henry Holt and Company, 1992.
- Roden, Claudia. *The Book of Jewish Food: An Odyssey from Samarkand to New York*. New York: Alfred A. Knopf, 1996.
- Simoons, Frederick J. *Eat Not This Flesh: Food Avoidances from Prehistory to the Present*. Madison: University of Wisconsin Press, 1994.
- Smith, W. Robertson. *Lectures on the Religion of the Semites*. London: Routledge/Thoemmes Press, reprinted 1997.



يهود يحتفلون بعيد الفصح، ٢٢ مارس ١٩٨٩.

أبقراط وتراثه

نظرة شاملة

كان أبقراط، الذي يعرف باسم «أبو الطب»، شخصية محورية في عالم الطب والفلسفة في بلاد الإغريق القديمة. فعندما نبذ المعتقدات السائدة وقتئذ؛ أن المرض يحدث نتيجة لعدم رضا الآلهة أو تدخلها، فإن أبقراط أعد المسرح للطب الغربي العلمي المكتوب. صنف أبقراط أول مكتبة طبية مكتوبة في القرن الخامس ق.م.، واسمه يرتبط بقسم أبقراط، وهو تعهد يحدد معالم مسئولية الطبيب الأخلاقية. وكطبيب ممارس للمهنة طبقت شهرته الأفاق بطريقة تناوله للأمراض. وفي اعتباره أن المرض أمر يصيب الشخص كله فإنه بذلك أحل الملاحظات في التشخيص والعلاج محل الخرافات. وانتشر تأثير تعاليم أبقراط انتشاراً واسعاً في العالم الغربي لما يربو على ألف عام - بدءاً من التلاميذ الذين دربهم أبقراط بنفسه، منتهياً بأعمال جالينوس (١٢٩- ح ٢١٦ م) الطبيب الروماني ذائع الصيت، الذي حاول أن يصل بتراث أبقراط إلى حد الكمال.

الخلفية

لا يعرف إلا النزر اليسير عن الطب الإغريقي قبل ظهور النصوص في القرن الخامس ق.م. وكان العلاج الشعبي شائعاً، ويدوره كان المعالج ينشد المساعدة من الآلهة. وكانت هناك بعض العقاقير العلاجية العشبية. وتصف حكايات هوميروس جراح المعارك وقد عولجت بالمرهم. ويظهر أبوللو إله الشفاء في أعمال هوميروس،

سواء كمسبب لأويئة الطاعون أو كمعالج لها. وارتبط العديد من الآلهة الآخرين بالأمراض والإصابات. فقد قيل، على سبيل المثال، إن كبد بروميثيوس (Prometheus) قد انتزع منه بواسطة نسر. وكان أسكليبيوس (Asclepius) ابن أبولو من أم من البشر الفنانين أشهر إله للطب. وتحدث هوميروس عن أسكليبيوس بوصفه معالماً ماهراً وأباً لأبناء صاروا هم أيضاً أطباء، وأطلقوا على أنفسهم اسم 'الأسكليبياديين' (Asclepiads). وعادة ما يُرسم أسكليبيوس حاملاً عصا يلتف عليها ثعبانان، وهي أصل الصولجان شعار أطباء اليوم. وكان تغيير جلد الثعبان رمزاً لتجدد الحياة. وكانت كل من هيغيا إلهة الصحة (Hygeia) وپاناسيا (Panacea) إلهة الشفاء ابنتي أسكليبيوس. ويحلول زمن ولادة أبقراط، حوالي ٤٦٠-٤٥٠ ق.م. كانت غالبية المدن الإغريقية قد أقامت معبداً للإله أسكليبيوس. وكان المرضى يحجون إلى المعابد ويقضون الليل فيها في انتظار الشفاء عن طريق حلم أو يتولى العلاج أسكليبيوس بنفسه مباشرة.

وكثيراً ما كان الكهنة وغيرهم من الزعماء الدينيين يساهمون في تفسير أحلام الشفاء، وبهذا كانت الفلسفة الدينية والطب متلاحمين. وكان الفضول الفكرى تجاه كيفية عمل الجسد الإنسانى، وما يعنيه ذلك من الناحية الطبية، قد وجد طريقه إلى مناقشات العلماء والفلاسفة الإغريق فى القرن الخامس ق.م. الذين كانوا جزءاً من ذروة الحقبة الكلاسيكية. فبالنسبة إلى الرياضى الإغريقى فيثاغورس (Pythagoras) (ح. ٥٢٠ ق.م.)، كانت مكانة البشر فى الكون تتفق مع النظام والتناسق الذى توفره الهندسة. فقد أوحى تناسق الجسم والأحاسيس التى يحس بها- السخونة والبرودة، والنوم واليقظة، والرطوبة والجفاف - أوحى إلى فيثاغورس بمفاهيم الصحة والمرض بوصفها جزءاً من ذلك التناسق المنظم.

ونادى الفلاسفة أمثال ديموكريتوس (Democritus) (ح ٤٦٠ ق.م.) وإمبيدوكليس (Empedocles) (ح ٥٤٠ ق.م.) كلٌ بتفسيره الخاص لطبيعة الجنس البشرى. ويرى بعض العلماء أن إمبيدوكليس كان أول من قدم للطب الإغريقى مبادئ فسيولوجية

رئيسية، وهى حرارة الجسم الداخلية بوصفها مصدرًا للعمليات الحيوية وكذلك التبريد الناتج عن عملية التنفس. وعلى الرغم من ذلك فإن أبقراط تحدى تخمينات الفلاسفة، وأعلن أن الإنسان بصفته كائنًا طبيعيًا لا يمكن فهمه إلا من خلال الملاحظات الدقيقة للطبيعة.

ولد أبقراط فى زمن (القرن الخامس ق.م.) لم يكن قد وُجد فيه بعدُ تمييزٌ بين العلم والفلسفة. وكان منزل طفولته يقع فى جزيرة كوس الإغريقية، وهى موقع أشهر أسكليبيون وهو المعبد المكرس لأسكليبيوس إله الشفاء. ونظرًا لقلة التاريخ المكتوب عن أبقراط فإن المعلومات الموثوق بها عن حياته نادرة. وكما كان الحال مع الاسكيبين كان أبقراط ابنًا لطبيب. وفى كتابه 'بروتاجوراس' (Protagoras) وصف الفيلسوف أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)، وهو معاصر لأبقراط وإن كان أصغر منه سنًا، وصف أبقراط بأنه "أسكليبياد جزيرة كوس" الذى كان يتكسب قوته من تعليم الطب للتلاميذ وكان يتمتع بمكانة رفيعة مشهورة طوال حياته المديدة. ومات أبقراط سنة ٣٧٧ ق.م. فى لاريسا بمقاطعة تساليا. وكان ألكمايون (Alcmaeon) الكروتونى (ح ٤٧٠ ق.م.) معاصرًا آخر لأبقراط، وترك مذهبه عن الصحة، بوصفها توازنًا بين قوى الجسم، أثرًا عميقًا فى الطب الأبقراطى.

التأثير

وضع أبقراط تفسيرات مادية وعقلانية للمرض، وبهذا فصل الدين عن عالم الطب. ونأى أبقراط بنفسه عن الكهنة والسحرة والمشتغلين بالرقى والتعاويذ والعرافين وغيرهم من المعالجين التقليديين. وكان أتباع الطب الأبقراطى يتعاطفون مع المريض ولم يعودوا مجرد وسطاء بينه وبين الآلهة. وخلت كتابات أبقراط من أى ذكر للآلهة. واعتمد النظام العقلانى للطب بشدة على الملاحظات الدقيقة للمريض والأعراض. وعلى الرغم من أن تعاليم أبقراط كانت مبنية على الطبيعة فإنها بدأت بأن

منحت الطبيب مكانة مستقلة. ولم يقتصر الأمر على انفصال الطبيب عن الآلهة أو المعالجين التقليديين، بل انفصل أيضاً عن فلاسفة الطبيعة. وساهم أبقرات في جعل الطبيب مقتصرًا في عمله على الطب، وساهم أيضاً في جعل الطب يتطور إلى فن يمارس وفقاً لمنطق العلم.

كان الأطباء الأبقراطيون يؤمنون بأن الجسم يجب النظر إليه وعلاجه ككل، وكل جزء منه يسهم في الصورة العامة للصحة أو المرض. وكان أبقرات أول من وصف بدقة أعراض العديد من الأمراض، بما في ذلك الالتهاب الرئوي والصرع في الأطفال. وكان يسجل الأعراض كحقائق، ثم يرجع إلى السجلات الإضافية لأعماله وإلى خبراته، كي تساعده في تشخيص المرض. ولما كان أبقرات يعلم تلاميذه أن الجسم يملك قدرات قوية لإشفاء نفسه بطريقة طبيعية، فإنه كان أحياناً يصف علاجات مكونة من الراحة والهواء النقي والنظافة بدلاً من العلاجات الروحية السائدة آنذاك. وتضمن الكثير من علاجاته نظماً غذائية. وكان لا ينصح باللجوء إلى الفصد أو العقاقير العشبية والجراحة في أحوال أقل إلا بعد فشل تلك العلاجات الطبيعية. ولاحظ أبقرات أن القدرة على التعامل مع المرض تختلف من شخص إلى شخص، كما يحدث ذلك أيضاً مع شدة أعراضها المرضية واستجابتها للعلاج. وطور أبقرات أيضاً مفاهيم التنبؤ بسير المرض، حيث يستطيع الطبيب أن يتنبأ بتطور المرض ونتيجته مبنياً على ملاحظاته من حالات مشابهة. وكان لمهارة التنبؤ بسير المرض أهمية في المجتمع. فبواسطة قدراتهم على التنبؤ بمستقبل العملية المرضية اكتسب الأطباء ثقة مرضاهم وارتفعت بذلك مكانتهم فوق مكانة المعالجين التقليديين. ولا يزال التنبؤ بسير المرض يشكل ركيزة جوهرية في الفكر الطبي الحديث.

وقد جمع أبقرات مجموعة من الأعمال الأدبية الطبية في أول مكتبة طبية معروفة. وتباينت محتويات تلك المجموعة، وتسمى المجموعة الأبقراطية (Hippocratic corpus)، تبايناً كبيراً. فبعضها جمع حالات من التاريخ المرضي، وأخرى كانت نصوصاً تعليمية أو فلسفات. وكان الخيط الذي جمع بينها هو الإيمان بأن الصحة والمرض يمكن

تفسيرهما بإعمال الفكر فى الطبيعة وقوانينها الكونية، مستقلة عن تأثير القوى الخارقة للطبيعة. وكانت الصياغة الأدبية المستخدمة فى المجموعة، وهى المقالة النثرية، حدثاً أدبياً مهماً. فقد كانت الكتابات الإغريقية السابقة، مثل: حكايات هوميروس، تُروى فى صورة شعرية. وسرعان ما نالت المقالة النثرية، كما اعتنقها أبقرات، تقبلاً كوسيلة للتعبير عن الفكر العقلانى.

وشكلت «المجموعة الأبقراطية» أساس أعمال الطبيب الرومانى جالينوس بعدها بما يقرب من خمسمئة عام. وعزز طب جالينوس من عقلانية أبقرات، باعتماده على المنطق والفيزياء والأخلاقيات والفلسفة والتجريب المحدود. ويعود الفضل فى المقام الأول فى بقاء المعرفة بطب أبقرات حية إلى كتابات جالينوس الغزيرة (كما أن هناك أيضاً إشارات إليها فى أعمال أفلاطون وأرسطو ومينون). واستمر تأثير جالينوس ألف عام، وأعيد اكتشافه فى عصر النهضة بما فيه من إشارات إلى طب أبقرات الكلاسيكى.

وكان المبدأ الأساسى فى «المجموعة الأبقراطية» هو أن الصحة كان يُنظر إليها بوصفها توازناً، وأن المرض هو اختلال فى هذا التوازن. وكان الجسم يُعتبر مستقراً حتى يحدث خلل فى توازن تركيز سوائل الجسم فى منطقة معينة منه.

استعار أبقرات من الفيلسوف الإغريقى إمبيدوكليس (Empedocles) (٤٩٠-٤٣٠ ق.م.) مبدأ عناصر الطبيعة الأربعة: التراب والهواء والنار والماء، وأضاف إليها السوائل (الأخلاق) الأربعة فى الجسم: البلغم والدم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء، كى ينتج نمطاً كان يُعتقد أنه يستطيع تفسير حدوث المرض. وعلى سبيل المثال، تنتج نزلات البرد فى الشتاء من زيادة البلغم، ويحدث الجنون بسبب كثرة الصفراء فى الدماغ. ورُسم رسم بيانى يبين الأخلاق الأربعة وعناصرها المتفقة. كما أن الفصول الأربعة للإنسان أو أطواره كانت تُضاف أحياناً للرسم للمساعدة فى توضيح حدوث المرض. ويمكن رسم الرسوم، حيث تتفق مع أى مجموعة من الملاحظات والأعراض، حيث أصبحت ركناً أساسياً من الطب الأبقراطى.

ويتصارع العلماء حول من أَلَف «المجموعة الأبقراطية». ففي العصور القديمة نُسبت الستون أو السبعون مقالة التي تشملها المجموعة إلى أبقراط شخصياً. غير أن غالبية العلماء تتفق على أن المجموعة ربما تكون تجمعاً لأعمال طبية من وضع مؤلفين مختلفين على مدى فترة تبلغ قرناً من الزمان. وقَسَمُ أبقراط هو من بين أهم الأعمال التي تضمها المجموعة وتُنسب إلى أبقراط. والقسم يبشر مسبقاً بأفكار عن حِرْفَى (وهو الشخص الذى يقسم القسم) لديه تعهدات تجاه كل من زبائنه والمهنة التي يمتهنها. ويتمهده الطريق لأخلاقيات الطب، فإن القسم يشهد على اهتمام الطبيب بمرضاه وفنه وأنه يضعهم قبل نجاحه ورفع شأن ذاته.

والقسم مكون من قسمين. يتحدث أولهما عن مسئوليات الطبيب تجاه معلميه وتلامذته. والثانى يوجز قواعد السلوك الشخصى والمهنى.

ولم يكن الطبيب القديم الذى يتقبل القواعد التي جاءت فى القسم يتفق مع كثير من أقرانه. وبسبب أن القسم كان يقيد الأطباء بقواعد أشد تقييداً، مما كان يمارس أيامها فإنه لم يلق تقبلاً عاماً. وعلى وجه الخصوص كان القسم يحرم وصف «التحميلات المهبلية القاتلة للأجنة» كى يحدث إجهاضاً فى وقت كان قتل الأطفال والإجهاض من الممارسات الشائعة. وكانت المتطلبات الأخلاقية للقسم تمثل إلى حد بعيد أخلاقيات فيثاغورى القرن الرابع الذين كانت تعاليمهم تؤمن بتقمص الأرواح. ونتيجة لذلك اعتقد كثير من العلماء أن القسم كتبه واحد من أتباع فيثاغورس أو حتى فيثاغورس نفسه. وعلى أية حال فإن قسم أبقراط بقى صامداً كمصدر لقواعد أخلاقيات الطب والممارس الطبى المثالى.

لم يقدم أبقراط ومتبعو الطب الأبقراطى كل الحلول. واستمر التأثير الواسع النطاق لنظرية الأخلاط على الفكر الطبى الأوروبى لما يربو على ألف عام (واعتنقه جالينوس)، وكبحت تفاسيره السانجة جماح سرعة تقدم الفكر العلمى. ولم يُعرف إلا النزr اليسير عن فسيولوجية الجسم، لأن توقير الجسم البشرى فى العصور الكلاسيكية امتد تأثيره إلى حد تحريم التشريح الإنسانى. وتقلصت الملاحظات

المباشرة للعمليات الفسيولوجية إلى ما يمكن استخلاصه من النظر العابر إلى التشريح السطحي أو إلى الجروح. وكثيراً ما كانت النظريات لا يتم اختبار صحتها ولا تخضع للتجربة. وكان إسهام أبقراط الذي بقى هو فصل الطب عن اللاهوت، ووضع بذلك أسساً لمهنة الطب تعتمد على العلم والأخلاقيات.

برندا ويلموث ليرنر (BRENDA WILMOTH LERNER)

لمزيد من القراءة

Jouanna, J. Hippocrates. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999.

Longrigg, James, ed. Greek Medicine: From the Heroic to the Hellenistic Age: A Sourcebook. New York: Routledge, 1998.

Porter, Roy. The Greatest Benefit to Mankind: A Medical History of Humanity. New York: W. W. Norton, 1998.

Smith, Wesley. The Hippocratic Tradition. Ithaca, New York: Cornell University Press, 1979.



أبقراط يفحص الجماجم

فلسفة الطب الإغريقي

نظرة شاملة

كان تطور الطب في بلاد اليونان القديمة تحكمه مجموعة من المعارف والمعتقدات والطقوس التي توارثوها من حضارات وثقافات سابقة، مجتمعة مع مبادئ فلسفية وُضعت حديثاً ودائمة التغيير. وتبنى الإغريق معتقدات العديد من الحضارات الأخرى وممارساتها. فقد استعاروا من المصريين فكرة شخصية شبيهة بالآلهة، تحمل كل الحكمة الطبية. وتطورت هذه الفكرة في النهاية إلى فكرة أن يكون لهم إلهم الخاص بالمعارف الطبية وهو أسكليبيوس. واستمدوا رمز الشفاء، وهو الثعبان الملتف حول صولجان من الحضارة المينوية، كما استعاروا منهم الكثير من ممارساتهم في المجالات الصحية. وزودتهم بلاد الرافدين القديمة بمعتقداتهم بأن أرواحاً شريرة تغزو الجسم وتسبب المرض، مما أدى إلى تثبيت فكرة أن الآلهة وحدها هي القادرة على الشفاء من الأمراض. غير أن الإغريق كانت لهم إسهاماتهم الخاصة أيضاً في المعارف الطبية والفكر الطبي .

ويُنظر إلى الإغريق القدامى على أنهم مجتمع فلسفى ومستنير. وساهم بحثهم الدؤوب عن الأسباب الحقيقية للعالم المحيط بهم فى إدخال العديد من التحسينات على الممارسات الطبية التي تبناها من مجتمعات أخرى. ويعتبر ذلك بداية العصر الذهبي لبلاد اليونان، الذى نشأت فيه أفكار جديدة بُنيت على الملاحظات والتفكير لا على الخرافات والطقوس. وعلى غرار غالبية منجزات العالم القديم، ضاع الجانب الأعظم من التقدم الذى أحرزه مجتمعهم أو تم تجاهله أثناء العصور الوسطى، ولم تتم إعادة

اكتشافه إلا في بدايات عصر النهضة. غير أنه من المؤكد أن ثمة استثناءات لهذا التعميم، وأهم أمثلة تلك الاستثناءات هما جالينوس (١٢٩-١٩٩) المشرح العظيم، وأبقراط (٤٦٠؟-٣٧٧ ق.م.) أبو الأطباء.

وبناء على ذلك، كانت هناك طائفتان طبيتان متميزتان في بلاد اليونان القديمة. إحداهما عقيدة متشابكة تشابكاً لصيقاً مع طقوس دينية ومعابدية وكانت تعبد أسكليبيوس. والأخرى، ومن المفارقات أنها كانت تسمى الأسكليبيادين، كانت مجموعة علمانية من الأطباء المبكرين كانوا يستخدمون المنطق وملاحظة الأعراض في علاج الأمراض والعلل. وهذه المجموعة انتهت بها المطاف إلى أنها تفرعت إلى مجموعات فرعية نتيجة لاختلافات الفلسفات التي أدت إلى نشأة فصائل جديدة.

الخلفية

كانت عبادة أسكليبيوس، إله المعارف الطبية، منتشرة في كل أرجاء بلاد اليونان. وكان أطباء تلك العقيدة هم كهنتها ومساعديهم الذين كانوا يؤمنون بأن كل الأمراض تنسب فيها أرواح شريرة. وكان على المريض الذي يطلب الشفاء أن يقضى ليلة واحدة على الأقل في المعبد، حيث يكشف له الإله شيئاً عن مرضه بواسطة حلم يتولى الكاهن تفسيره. ويعتمد العلاج على تفسير الحلم، مستخدماً فولكلوراً مستمداً من الحضارة المينوية. كما كانت تلك العلاجات تتضمن أيضاً طقوساً للنظافة وتقديم أضحيات للكهنة كوسيلة لدفع أتعابهم. وأصبحت تلك المعابد مراكز ضخمة للعلاج، تشبه كثيراً المنتجات الصحية في العصر الحديث. غير أن استخدامات هذا النمط من الممارسة الطبية بدأ يتلاشى أمام تنامي المعارف الطبية المستندة إلى الملاحظات والتشخيص لا على الفولكلور والطقوس.

اكتسب الأطباء العلمانيون شعبية متزايدة في بلاد اليونان بسبب أن علاجاتهم كانت أكثر فائدة لأن نظرياتهم كانت معتمدة اعتماداً راسخاً على المبادئ العلمية. ولا

ريب في أن الأطباء اليونان قد ارتكبوا العديد من الأخطاء والافتراضات، غير أن العديد من علاجاتهم حقق نجاحاً. فمثلاً، لا تختلف ملينات اليوم كثيراً عن الملينات التي كان قدامى الإغريق يستخدمونها. وكانت هناك مشكلة هي أن الأطباء وقتئذ كانوا يعتبرون من الحرفيين، حيث إن أى ذكر يود اتخاذ الطب مهنة فكل ما عليه أن يفعله هو أن يبحث عن طبيب يتدرب على يديه. ولما لم يكن هناك تدريب رسمي بديل فقد وضع أبقرات أفكاراً تصلح لكل الأطباء.

كان لأبقرات تأثير هائل على الأطباء سواء في العصور الحديثة أو القديمة. فقد كان قوى الإيمان بالأخلاقيات الطبية وكانت تعاليمه على درجة من التقدم وسابقة لأوانها حيث لا تزال مستخدمة على نطاق واسع حتى اليوم. فمثلاً، كل الأطباء الجدد يقسمون قسم أبقرات (وهو تعهد بالآلا يسببوا الأذى لمرضاهم) بمجرد الفراغ من تدريبهم. وعلى الرغم من تنوع المجالات التي ركز عليها أبقرات فإنه تعاليمه تركزت في مبادئ ثلاثة جوهرية. أولها: أنه كان يؤمن أن كل الأمراض سببها اختلال يصيب الجسم. وثانيها: أنه كان يعتقد بوجود دراسة المناخ المحيط بالمرضى لكي يتمكن من التوصل إلى تشخيص يشفى العليل. وأخيراً: أنه كان يفترض أن كل ما يستطيع الأطباء فعله هو تخفيف أعراض المرض وأن المريض سوف يتمكن وحده في النهاية من التخلص من المرض.

وعلى الرغم من أن طب أبقرات كان يستند إلى الإيمان بأن الأمراض تحدث نتيجة لأسباب طبيعية، فإن عوامل أخرى مهمة كانت تؤخذ في الاعتبار والحسبان. فقد كانت هناك نظرية الأخلاط التي كان لها تقبل واسع. وصارت تلك الفكرة تُلقن في الطب تلقيناً حتى باتت تُقبل دون نقاش طوال القرون الخمسة عشر التالية. وتنص هذه النظرية على أن هناك أربعة سوائل (أخلاط) في الجسم هي: الدم والبلغم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء. وفي الشخص الطبيعي نجد هذه الأخلاط ممتزجة في نسب مضبوطة، بينما في حالة المرض نجد انحرافاً عن المزيج الصحيح. وكان الطبيب يهدف إلى إعادة الأخلاط إلى نسبها الطبيعية، وبالتالي يسترد المريض صحته. وفي حين لم

يدفع أحد بخطئها، إلا أن الخطوات التي تتطلبها لفهم الأمراض وعلاجها كانت موضع نزاع لدرجة نشأة طوائف طبية متنازعة مختلفة.

كان الدوجماتيون (الجزميون) (dogmatists) طائفة طبية كان أعضاؤها يؤمنون بأن كل المعارف الطبية يمكن التوصل إليها من خلال النصوص القديمة السابقة وليس من التجربة الإكلينيكية. وكانوا يحسون بأنهم في حاجة إلى معرفة الأسباب الخفية للأمراض لكي يفهموها. وأراد الدوجماتيون أن يعززوا الممارسة الإكلينيكية بالمنطق والتخمينات. فكانوا يجرون عمليات التشريح والفصد وما إلى ذلك من تجارب كي تساعدهم على فهم أعمق للقواعد الكامنة وراء عمل أجزاء الجسم المختلفة. وكان الدوجماتيون يؤمنون إيماناً راسخاً بأنه لكي يعود التناسق بين الأخلاط الأربعة؛ فلا بد من أن يتعاطى المريض وصفة من نباتات وحيوانات تحوى النوع الناقص من الأخلاط.

اختلف التجريبيون (empiricists) مع الدوجماتيين. والتجريبية تُعرف أحياناً بأنها الاعتقاد بأن كل المعارف تأتي من التجريب ولهذا كانوا يؤمنون بأن على الأطباء أن يتعاملوا مع كل حالة مرضية على حدة. وبناء على ذلك فلا داعى لوجود معارف خاصة بالعمليات المرضية. بل كان التجريبيون يؤمنون بأن التجربة هي أهم عوامل التعليم الطبي. ولهذا لم يكن علاج اختلال الأخلاط منبنيًا على قواعد علمية معروفة وإنما يختلف باختلاف الحالات المرضية.

وقد أسهم جالينوس الطبيب الإغريقى فى التوفيق بين وجهتى النظر المتضادتين. فقد كان يؤمن بأهمية الخلفية التعليمية وبأن النصوص القديمة يجب دراستها. غير أنه حذر من اتباعها اتباعاً أعمى. وجادل بضرورة إثبات صحة النصوص القديمة عن طريق التجربة الإكلينيكية. كان جالينوس يملك أفكاراً عن الطب حديثة نوعاً ما. وابتكر نظاماً يدرس فيه المرء هذا الفكر الطبى المترسخ ثم يُعدّل فيه من خلال التجربة الإكلينيكية. وكان لهذه الأفكار تأثير بالغ لعدة قرون تلت.

وكان هناك دجالون ومشعرون وطوائف أخرى تمارس الطب أيضاً في تلك الأوقات. ومنها مجموعة جديرة بالذكر تُعرف باسم 'لاعبو الجمباز' (gymnasts). وهي جماعة من الرجال كانوا يؤمنون بقوة بأن الطريق إلى الصحة يمر من خلال اللياقة البدنية، وشغلوا الشباب بالتدريبات البدنية والرياضة. ومن خلال ممارستهم للتدليك وملاحظاتهم عليه اكتسبوا معارف هائلة عن الجسم البشري. ولما كانوا على أتم الاقتناع بفوائد التدريبات البدنية، فقد بنوا على هذه الأفكار وزعموا أن كل الأمراض يمكن علاجها بالتدريبات والغذاء فقط. ومن اللافت للنظر أن ادعاءات مماثلة تثار الآن بعد مضي ألفى عام.

التأثير

وعلى غرار ما حدث في غالبية منجزات العالم القديم، ضاع أغلب التقدم الإغريقي في الطب أو تم تجاهله في العصور الوسطى، ولم يعاد اكتشافه إلا في بداية عصر النهضة. غير أن ثمة استثناءات لا ريب فيها. فعلى سبيل المثال، فقد تجوهر بصورة عامة دمج جالينوس للدوجماتية والتجريبية في طب العصور الوسطى. وساد بدلاً عنه الاعتقاد بأن الأمراض تسببها أرواح شريرة. وهذا أمر مثير للحيرة لأن العديد من آراء جالينوس الطبية لم تكن موضع تشكيك إلا بعد أن بدأ عصر النهضة. وهذا المزيج من الأفكار أصبح اليوم يُعتمدُ عليه بثقلٍ كبير، وهو يشكل أساس نظامنا الطبي، الذي يتضمن أساساً نظرياً كبيراً وخبرات إكلينيكية واسعة.

ولا يمكن اعتبار مناقشة تأثيرات الطب الإغريقي مستكملةً دون مداخلة عن أبقراط. فعلى شاكلة جالينوس، كانت إسهاماته أشد تأثيراً في أولئك الذين عاشوا في أعقاب موته مباشرة ثم بعد قرونٍ من موته. وكانت أهم إسهاماته الفصل بين ما هو خارق للطبيعة وبين الطبيعي، وبذلك ترسخت فكرة أن الأمراض تسببها أسباب طبيعية يتعين معالجتها وفقاً لذلك. وترك هذا التوجه تأثيراً عميقاً. وترتب على هذه

النظرية نشأة أفكار عصرنا الحديث من فحص للمريض إلى أخذ تاريخه المرضى. وتبلغ أهمية هذه الأمور مبلغاً من الوضوح يجعل إهمال استخدامها في أعقاب موت أبقرات مباشرة أمراً غير مفهوم، ولم تُستخدم استخداماً عاماً إلا بعد مرور ألفى عام على موته.

أسهمت تلك الطوائف الطبية الإغريقية المبكرة في وضع أساس لكل الأنظمة والأفكار الفلسفية. وفي غالبية الأحوال لم تكن فلسفاتهم مقيدة إلا بتقنيات ومعارف عصرهم. غير أنه من اللافت للنظر أن تلك الأفكار القديمة لها تشعبات مهمة في مجتمعات اليوم. فحتى بعض من الطوائف الأقل أهمية، مثل لاعبي الجمباز، كانوا تنبؤيين في جدالهم بأهمية التدريبات واللياقة البدنية للصحة.

جيمس ج. هوفمان (JAMES J. HOFFMANN)

لمزيد من القراءة

Lloyd, G. E. R. Science & Morality in Graeco-Roman Antiquity. New York: Cambridge University Press, 1985.

Longrigg, James. Greek Medicine From the Heroic to the Hellenistic Age: A Source Book. New York: Routledge, 1998.

Longrigg, James. Greek Rational Medicine Philosophy & Medicine from Alcmaeon to the Alexandrians. New York: Routledge, 1993.

أسطورة أسكليبيوس

كان أسكليبيوس إله الطب عند الإغريق. وهو ابن أبولو، وقام على تنشئته السنطور تشيرون الذى علمه فنون الطب. كما أعطته الإلهة أثينا قارورة تحوى دم الجورجون مدوسا، وهى مادة تشفى كل الأمراض. ويبلغ من عظم مفعول علاجات أسكليبيوس أنه كان بمستطاعه إحياء الموتى. وهو الأمر الذى أغضب زيوس [كبير الآلهة] الذى تخوف من أن تؤدى مهارة أسكليبيوس إلى جعل كل البشر خالدين. فأرسل زيوس صاعقة قتلت الطبيب، ولكنه منحه الخلود فيما بعد.

وفى حقيقة الأمر، لعل أسكليبيوس كان شيخ قبيلة من تساليا جمع قدراً كبيراً من المعارف الطبية، واكتسب خبرة فى علاج الناس. ويمرور الوقت، ازدادت أسطوره زخرفةً، فظهر ابنه فى الإلياذة كعالمين مهرة. وصارت ابنته هيجيا ربة للصحة، وأصبحت ابنته الأخرى بانسيا قادرة على علاج أى مرض. وكان الأطباء البشريون الذين ساروا على خطى أسكليبيوس، يسمون الأسكليبياديين (Asclepiads). وبحلول القرن الثالث ق.م. أصبح بكل مدينة معبد للشفاء يسمى «أسكليبيون»، حيث يتوجه المرضى للعلاج.

أمى لورك سترومولو (AMY LOERCH STRUMOLO)



SWEAR

to Apollo the physician and
Esculapius & Health. All heal all the goods & remedies
that according to my ability & judgement

I WILL KEEP THIS OATH

By this stipulation to receive I have taken of me this day
truly demerit as my parents to share my substance
with him therefore his necessities & according to look upon
his obligations if he same things as my own brothers & to teach them this Art
if they shall wish to learn it

WITHOUT FEE OR STIPULATION

Quod et precare scilicet curam sicut more et instructione. I
will impart a liberality of my Art to my own sons & those of my
relatives & the other poster of a stipulation & fee

ACCORDING TO THE LAW OF MEDICINE

but to good others I will follow the system of regimen which
increasing to my ability to judgement I consider

FOR THE BENEFIT OF MY PATIENTS

Caliditate sive whatever is detractione & magister. I will give
no unwholesome to any one if casual we suggest any such
conjecture. On the manner I will not care to a woman necessary to procure
procreant

WITH PURITY & WITH KINDNESS I WILL PASS MY LIFE & PRACTICE MY ART

I will not cut persons living under the same, but will leave this to be
done of men who are practitioners of the same. In addition, because
I shall find to take down for the benefit of the same & will assist from
any to any act of respect & compassion. **AND I WILL**
them in resolution of doubts or matters of freedom & slaves.

Whatever I shall practice with my professional
practice or not in conversation with it. I see or hear
in the sight of men which ought not to be spoken
of certain. **I WILL NOT DIVULGE**

as necessary that all such should be kept secret
While I continue to keep this Oath unviolated
my it be granted me to pass life & the practice
of the Art respected by all men in all times!

But should I trespass & violate this Oath
may the reverse be my lot!



نظرية الأخلاط الأربعة

نظرة شاملة

هيمنت نظرية الأخلاط الأربعة على أفكار الصحة والمرض والخصائص الذاتية للفرد منذ أيام إمبيدوكليس (Empedocles) (٤٩٠-٤٣٠ ق.م.) وحتى القرن الثامن عشر الميلادي، عندما توقف فصد الدم أخيراً. وكانت النظرية تقول بأن المادة تتكون من أربعة عناصر أساسية: النار والتراب والماء والهواء. ولكل عنصر منها صفتان. فمثلاً: النار ساخنة وجافة، والتراب جاف وبارد، والماء بارد ورطب، والهواء رطب وساخن. وبناء على تلك التركيبة ساد الاعتقاد بأن الجسم البشرى به أربعة أخلاط تتفق مع تلك العناصر الطبيعية: الدم مع الهواء، والمرارة السوداء مع التراب، والمرارة الصفراء مع النار، والبلغم مع الماء. وفيما بعد أضاف جالينوس الطبيب الإغريقي أنماطاً للشخصية تتفق مع كل خلط من الأخلاط.

الخلفية

يمكن تتبع أصل النظرية إلى عدد من النظريات التي لا علاقة لها بها وإن كانت تشبهها، من أيام بلاد اليونان القديمة وروما. وكان الفيلسوف الإغريقي طاليس (Thales) (٦٤٠ - ٥٤٦ ق.م.) يؤمن بأن العنصر الأساسي لكل الحياة هو الماء، ومنه ظهر التراب والهواء. وأضاف فيلسوف إغريقي آخر هو أناكسيماندر (Anaximander) (٦١١-٥٤٧ ق.م.) إلى تلك الفكرة أن الكون يتكون من قوى متضادة في حالة توازن، وتحكمها قوانين كونية. واعتبر تلميذه أناكسيميس (Anaximenes) (اشتهر في ٥٤٦ ق.م.)،

ويعتبر ثالث المفكرين الثلاثة العظام من مدينة ميليتوس (Miletus) بالأناضول مع طاليس وأناكسيماندر، أن الهواء لا الماء هو العنصر الأولي وكتب أنه يمكن تحويله إلى مواد أخرى بواسطة تكثيفه وخلخته.

أما هيراكليتوس (Heraclitus) (اشتهر في ٥٠٠ ق.م.)، وهو فيلسوف إغريقي من مدينة إفيسوس (Ephesus)، فقد اختلف مع الميليتيين الثلاثة بإيمانه بأن النار هي العنصر الأولي وليس الماء أو الهواء، ولكنه اتفق معهم في اعتقادهم بأن التوترات بين القوى المتضادة كانت ضرورية للحياة. ولما كانت تلك المتضادات في حال من الصراع الدائم فيما بينها، فإن كل شيء كان في تغير سرمدى. ووفقاً لهيراكليتوس، فإن تلك التغيرات كان يحكمها مبدأ نظامي.

ويحلول زمن فيثاغورس (Pythagoras) (اشتهر في ٥٣٠ ق.م.)، الذي هاجر إلى جنوب إيطاليا من ساموس ببلاد اليونان، ظهرت نظرية مختلفة وبؤرة اهتمام أخرى عن تركيب الكون. وأكد هذا الفيلسوف والرياضياتي على الروحانيات أكثر من الماديات، وعلى علم يقوم على الأرقام لا على العناصر. وعلى الرغم من أن الجانب الأعظم من معتقداته تناول تناسخ الأرواح في أجساد متعاقبة، فإن جانباً آخر من فلسفته، ذا أهمية في تطور نظرية الأخلاط، شدد على أهمية الرقم أربعة. وكان فيثاغورس يعلم أن الطبيعة بأكملها مكونة من عناصر أربعة. وهي الهواء والتراب والماء والنار.

وكتب إمبيدوكليس (Empedocles) (حوالي ٤٩٠-٤٣٠ ق.م.) الفيلسوف الصقلي، عن كل من العناصر المتضادة والعناصر الأربعة. وقرر في كتابه «قصيدة عن الطبيعة» أن الشمس والأرض والسماء والبحر كلها متحدة في جميع أجزائها وأنه من الماء والتراب، والهواء والنار ممزوجة سوياً بزغت أشكال وألوان كل الأشياء الفانية. وهذا هو مفهوم 'العالم الكبير' (macrocosm) الذي شكل بذرة نظرية الأخلاط الأربعة. وكان إمبيدوكليس يؤمن بأن العناصر ثابتة ولا تتغير.

وأمن أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) بأن أبسط أشكال المادة يوجد على صورة أربعة عناصر. ويمكن تحليل تلك العناصر إلى زوجين من الصفات الأولية المتناقضة (مثل السخونة والبرودة أو الرطوبة والجفاف) أو مواد أولية تعمل عمل الأشكال. وهي تختلف في الطعم والرائحة واللون ولكنها كلها إما ساخنة أو باردة، ورطبة أو جافة. وكل اثنين من المواد الأولية تكون العناصر، وهكذا فإن الساخن الجاف = النار، والبارد الرطب = الماء، والساخن الرطب = الهواء، والبارد الجاف = التراب. واختلف أرسطو عن إمبيدوكليس في أنه آمن بأن العناصر متغيرة وأنها من الممكن أن تتحول من عنصر إلى آخر. وكان هناك نمطان من التغيير: أحدهما تتغير فيه صفة واحدة أو الاثنتان، والآخر يتقارب فيه العنصران ويتبادلان صفاتهما كي ينتجا العنصرين الآخرين. ومثال ذلك أن الماء والنار يمكن أن ينتجا التراب والهواء. وترتب على فكرة تحول المعادن أن بدأ السعى للبحث عن 'حجر الفلاسفة'، وهو حجر أسطوري يمكن تحويله إلى ذهب باستخدام المادة المحفزة المناسبة.

وبحلول زمن أبقرات من جزيرة كوس (٤٦٠-٣٧٠ ق.م.) وأتباعه في نظرياته وممارساته الطبية، صارت الأخلاط الأربعة تشير إلى تركيبية الجسم البشري. وكان ذلك هو العالم الصغير (microcosm) المقابل للعالم الكبير (macrocosm) وأنتجت صفات العناصر- السخونة والبرودة والرطوبة والجفاف- الدم والبلغم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء. وكان أبقرات يُعلم أنه عندما تتوازن كل العناصر وتمتزج بصورة صحيحة فإن البشر يصبحون في صحة ممتازة، ولكنها إن اختل توازنها يصاب الشخص بالمرض. وكننتيجة طبيعية لذلك آمن أبقرات بأن هناك فروقاً جوهرية بين الجنسين مبنية على صفات 'السخونة' و'البرودة'. فالنساء 'باردات ورطبات' والرجال 'ساخنون وجافون'.

وتقبل إراسيستراتوس (Erasistratus) (٣١٠-٢٥٠ ق.م.) ذلك الجزء من النظرية الذي يشمل تحول الغذاء إلى دم، على الرغم من عدم تقبله تقبلاً كاملاً لأفكار أبقرات. عن الأخلاط. وفي منهاجه عن وظائف الأعضاء كان يؤمن بأن المرض ينتج عن زيادة في

الدم من جراء غداء غير مهضوم. فإذا تجمع ذلك الدم فى الأوردة، فقد يتسرب منها إلى الشرايين مما قد يؤذى أنسجة الجسم. وللـعلاج كان يصف المقيئات ومدرات البول والحمامات الساخنة والحمية.

وحور جالينوس من مدينة برجاموم (٢٧٠-٢٠٠ ق.م.) نظرية أبقراط بتقريره أن العناصر الأربعة فى الدم ممتزجة بنسب متساوية، ولكن أجزاء الجسم الأخرى تحوى عنصراً واحداً فقط؛ وهكذا فإن البلغم يتكون فى غالبية من الماء، والمرارة الصفراء أغلبها مكون من النار، والمرارة السوداء غالبيتها من التراب. ومن ذلك الفكر نما الاعتقاد بأن البشر يمكن تصنيفهم إلى أربع فئات فسيولوجية ونفسية: دمويين وبلغميين وصفراويين وسوداويين. وكان جالينوس يُعلم أن التزود بالغذاء يؤثر فى كمية الأخلط الموجودة بالدم.

ويحلول ذلك الوقت بدأت نظرية فى علم الأمراض فى التطور مستمدة من الجوانب الأساسية للأخلط الأربعة. فأى خلل فى توازن كمية خلط بعينه فى الجسم يسبب المرض. ويكون العلاج هو نزح السوائل المختلفة، ومن ثم نشأ فصد الدم. كما استخدمت علاجات عنيفة مماثلة لغير ذلك من الإفراطات، مثل المقيئات والحقن الشرجية والاستخدامات المختلفة للحرارة والبرودة، أو الاستهلاك الجبرى للسوائل. وكانت الحمية، وهى نوع آخر من العلاج آنذاك، واحدة من العلاجات المبكرة لداء البول السكرى قبل اكتشاف الإنسولين.

ومن اللافت للنظر أن أسكليبياديس (Asclepiades) من بلدة بيثينيا (١٢٠-٧٠ ق.م.) كان يرفض نظرية الأخلط الأربعة رفضاً تاماً وبدلاً منها وضع تفسيراته الخاصة. وفى نظريته كان الجسم يتكون من عدد لا نهائى من الذرات فى حالة حركة. وتسرى سوائل الجسم بين تلك الذرات. ووفقاً لأسكليبياديس فإن الذرات إذا توقفت عن الحركة يحدث المرض. وطور تلميذه ثميسون (Themison) النظرية الذرية، وأسس المدرسة الفلسفية المسماة «المنهجية» (methodism) فوصف المرض بأنه نتيجة لانكماش أو تمدد (زيادة إفراز) الثقوب. غير أنه فى علاجه اعتمد على نظرية الأضداد،

مُعرِّقاً علاجه بأنه تمدد الثقوب التي اشتد انكماشها أو انكماش الثقوب التي تفاقم تمددها. وطبقاً لثميسون، فقد كان هناك سبعة أمور طبيعية وتسعة أمور غير طبيعية. فأما الطبيعية فيمكن تشبيهها بما نعتبره أعضاء ووظائف جوهرية داخلية وتشريحية وفسولوجية: وهى العناصر والأخلاق والأمزجة وأجزاء الجسم وملكاته وعملياته وأرواحه. وكانت الأمور غير الطبيعية هى الاحتياجات الخارجية مثل الغذاء والماء والحركة والراحة والنوم واليقظة، كما تشمل أيضاً تدفق العواطف وكتمانها وممارستها.

التأثير

كانت القواسم المشتركة بين كل تلك النظريات هو الاعتقاد بأن أخلاق الجسم تنتج عن تناول الغذاء، وتعريف العناصر والخواص الفطرية، ثم استخدام الأضداد فى العلاج. وعلى الرغم من الاختلافات العديدة مثل ما الذى يجرى فى الشرايين (الهواء أم الدم)، فقد هيمنت نظرية الأخلاق الأربعة على العلاج والمعتقدات الطبية الخاصة بكيفية عمل الجسم البشرى. وهى تفسر الاختلافات السيكلوجية فى ضوء سيطرة أحد الأخلاق على خِطِ آخر- ومن هنا يمكن تتبع تعبيرات 'صفراوى' و'سوداوى' و'بلغمى' و'دموى'، إلى عصور قديمة. فالشخص الصفراوى لديه إفراط فى المرارة الصفراء. ولما كان خِطِ الصفراء مرتبطاً بصفات السخونة والجفاف، فإن ذلك الشخص كان يقال إنه نحيل ونشيط وذكى وصعب الإرضاء فيما يتعلق بالطعام، ونو نبض سريع وقوى، ونزاع إلى المتع الجنسية، ونو أوعية دموية جيدة. والأشخاص الصفراويون من السهل استثارة غضبهم. أما الشخص البلغمى فكان بارداً ورطباً وسميماً وجلده مترهل ومتعجن وأبيض اللون. وكان بطيء التفكير والحركة ولا يملك شهية مفتوحة لا للطعام ولا للجنس. والشخص الدموى (ساخن ورطب) لديه فرط فى الدم. ويملكون بنية جسدية ثقيلة وإن كانوا نشطاء فى أسلوب حياتهم. وكانت عضلاتهم قوية وغليلة، ودوافعهم قوية فيما يتعلق برغباتهم الجنسية والطعامية. أما الشخص السوداوى فله

إفراط في المرارة السوداء. وهذا الشخص (بارد وجاف) فكان نحيلاً وداكن اللون وذا شعر كثيف ونبضه بطيء وأوعيته الدموية ضيقة وشهيته كبيرة.

وعلى الرغم من أن نظرية الأخلاط لم تعد نموذجاً للمسببات الفسيولوجية أو السيكولوجية للأمراض، فإن كلمات "صفراوى" و"بلغمى" و"سوداوى" و"دموى" لا تزال تستخدم لوصف الأشخاص. فالشخص السريع الغضب يوصف بأنه صفراوى، بينما الشخص غير العاطفى الكسول والبارد هو بلغمى، ويوصف الشخص المكتئب بأنه سوداوى، بينما يقال عن الشخص المتورد اللون الممتلئ نشاطاً والمتين الجسم أنه دموى الصفات.

لانا تومسون (LANA THOMPSON)

أرسطو ونشأة علم الأحياء (البيولوجيا)

نظرة شاملة

إضافة إلى شهرته العظيمة كفيلسوف، فإن أرسطو (Aristotle) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) يعتبر أيضاً أبو علم الأحياء وأول من درس البيئة. وعلى الرغم من أن ملاحظاته في علم الأحياء والفلك والفيزياء تشغل الجانب الأكبر من كتاباته فإن أرسطو ينال احتراماً أكثر بكثير لمساهماته في الأخلاقيات والسياسة والفلسفة الأخلاقية.

وقد وضع أرسطو نظاماً شاملاً جامعاً للتوصل إلى معنى الواقع بواسطة الحواس. وكان فضوله عن عالم الأشياء الحية ومحاولاته لوضعها في إطار شامل منقطع النظير. وفي الحق، أرسى أرسطو البنية الأساسية لوضع صيغة للمنهج العلمي.

الخلفية

كان تأثير أرسطو على نشأة علم الأحياء مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتوحيد عدة عوامل. أولها، أنه بوصفه ابناً لطبيب من طائفة أتباع أسكليبيوس الطبية، كانت له ميزة التواجد في بلاط ملك مقدونيه في بيلا (Pella). وشجعه والده على دراسة علم الأحياء وعلى تنمية وسائل بحثية، كانت ذات فائدة للعلم. وثانيها، أنه في سن ١٧ توجه إلى أثينا والتحق بأكاديمية أفلاطون كي يدرس فلسفة المثاليات. وعلى الرغم من أن أرسطو كان يبجل أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) أعظم تبجيل فإنه انفصل عنه

فى فترة لاحقة من حياته كى يؤسس مدرسته الخاصة المبنية على الواقعية والملاحظات بواسطة الحواس. وثالث تلك العوامل أن وضع أرسطو بوصفه معلماً للإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٢ ق.م.) منحه مزايا البلاط الملكى. وفيما بعد وهب الإسكندر هبات لمتحف أرسطو فى أثينا وساهم فى مجموعته من الحيوان والنبات بإهدائه نماذج نادرة من شرق البحر المتوسط. كما أن أرسطو أيضاً حث الإسكندر على بدء مشاريع بحثية بما فى ذلك دراسة فيضان نهر النيل.

ومنطق أرسطو هو منطق مستقل وقائم بذاته. ففى حين كان أفلاطون يركز على الحقيقة بوصفها أفكاراً، نأى أرسطو بنفسه عن تلك المثالية الصوفية واعتمد على الوقائع التى يمكن ملاحظتها. فكان يشجع نظرة الإنسان التجريبي الهادئة والموضوعية - وهو الشخص الذى ينظر إلى العالم بطريقة منطقية عاقلة. وتدين بنية العلم الحديث بالكثير لاستكشافاته التى لا تكل للحقيقة. ويُعتقد أنه ألف ما يربو على ٤٠٠ عمل بحثى عن التعليم والملاحظات العلمية، بقى منها خمسون.

التأثير

لو قدر لأرسطو أن يحضر اليوم حلقة دراسية عن الأخلاقيات أو الفلسفة أو التعاليم الأخلاقية اللاهوتية لما أحس بالغبية. أما إذا حضر حلقة دراسية عن الدنا (DNA) أو تحليل الخلايا الجذعية العصبية لأحس بالضياع مثل غالبية الناس. غير أن تناوله للعالم هو الذى أدى إلى ابتكار نظام شامل جامع للفكر العلمى.

ويسقط بعض علماء الأحياء المحدثين علم أحياء أرسطو من حساباتهم لأنه أخطأ فى العديد من الأمور. ووفقاً لأرسطو فإن الكون هو نظام ينشد الكمال، محاكياً «المحرك الذى لا يتحرك» الذى ينظم السماء فى نظام محكم يدور حول الأرض. وأصبحت رؤيته للكون ركييزة أساسية للفكر الغربى حتى تحداها نيكولاوس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) (١٤٧٣-١٥٤٢) فى القرن السادس عشر.

وباستخدامه معلومات متاحة من حوله، رأى أرسطو أن مادة العالم مكونة من أربعة عناصر يمكن ملاحظتها: التراب والرياح والنار والماء. وكان يعتقد أن مزيجات مختلفة من تلك العناصر هي المسؤولة عن اختلاف الأخلاط والأمزجة. وبقيت تلك الأفكار حية لما يقرب من ٢٠٠٠ سنة، وشكلت أساس نظرة الكيميائي للعناصر وتمسك الطبيب بنظرية الأخلاط. غير أن العلماء اللاحقين باكتشافهم لأخطاء أرسطو تمكنوا من استغلالها كنقطة انطلاق للاكتشافات التالية.

ويجب عدم الخلط بين المنطق العلمي كما كان أرسطو يراه وبين المنهج العلمي الموجود اليوم من خلال التجريب ووضع الافتراضات على محك الاختبار. ولقد استعان أرسطو بالتجارب لتحديد إطار منطقي للتأكيد على صحة الأفكار. وكان يلجأ إلى افتراض معطيات منطقية كى يكتسب منها معارف علمية ووضعاً رسمياً كى يثبت صحة جدلية ما. وكان لذلك المفهوم المثالي عن العلم بوصفه نظاماً استنتاجياً مبنياً على فرضيات تأثير هائل على تطور النظرية العلمية.

كان أرسطو رائداً للمنهج الذى لخصه فرانسيس بيكون (Francis Bacon) (١٦٢٦-١٥٦١) فى: الملاحظة والقياسات والشروحات والبراهين. وتمثل تلك العمليات الأربعة قواعد أرسطو، وهى لا تزال المنهج الذى يتبعه علماء الأحياء الميدانيين. بل إن تشارلز داروين (Charles Darwin) (١٨٠٩-١٨٨٢) اعتبر أرسطو عالم أحياء متميز، وهى شهادة قيمة بتأثيره الكبير.

كانت غالبية أعمال أرسطو فى مجال علم الأحياء. وشكلت مقالاته فى علم الحيوان حوالى ربع مجموع إنتاجه. وتوجد المجموعة الرئيسية من المعلومات فى كتابه «تاريخ الحيوان» (Historia animalium)، وهو مرجع قصد به أن يكون للدراسة فى متناول اليد. والكتاب يناقش ٥٠٠ حيوان وهى ليست مُعَرَّفَةً لذاتها وإنما بمكانتها فى العالم، وتعكس محاولات أرسطو لتكوين كون عقلانى. وفكرة العلاقة التبادلية تلك هى أيضاً أساس علم البيئة، وهى دراسة العلاقة التبادلية بين كل الكائنات الحية.

وكتاب «تاريخ الحيوان»، ولعل من الأوفق أن يُطلق عليه «أبحاث فى علم الحيوان»، هو كتاب مدهش فى أن فرداً واحداً تمكن من حشد مثل ذلك الكم الهائل من المعرفة، وغالبيتها لم يسبق لأسلافه أن درسوها. وبعد فترة وجيزة من موت أفلاطون أمضى أرسطو سنتين فى جزيرة لسبوس (Lesbos)، حيث طور كثيراً من مبادئه هناك.

تعرف أرسطو على ٤٩٥ نوعاً - أكثر بواحد مما فعل بلىنى (Pliny) (٧٩-٢٣)، وهو باحث بيولوجى آخر، بعد ٤٠٠ سنة. ويفتح الكتاب بعبارة: "الاختلافات بين الحيوانات لها علاقة بطرائقهم فى الحياة وأنشطتهم وعاداتهم وأجزائهم". وذكر الاختلافات بين الحيوانات ذات الدم وتلك عديمة الدم. كما ميز أيضاً بين الحيوانات البياضة، أى التى تضع بيضاً، والحيوانات الولادة التى تلد أحياءً. وأبقى الإنسان مستقلاً ونوعاً متفرداً بذاته دون تمييز.

ويتناول الكتاب الأول وظائف أعضاء الإنسان، وملاحظاته عنه عديدة وقاصرة. فمثلاً: قال: إن القلب به ثلاث حجرات وذكر أنه لا توجد فروق بين الشرايين والأوردة. وكان التوصل إلى معارف عن الإنسان يتم عن طريق تشريح الحيوانات.

أما الكتاب الثانى فيختص كليةً بالحيوانات. وكانت معارف أرسطو منقوصة وغير تامة، ولكن ملاحظاته كانت بارعة. فقد وصف وصفاً دقيقاً الغرف الأربعة فى معدة الحيوانات المجتررة مثل البقرة. وفى أحوال أخرى كان يكرر التصنيف عندما يجد أن حيواناً يتوافق مع أكثر من طبقة واحدة. فمثلاً وضع القردة فى مكان بين الإنسان والحيوانات ذوات الأربع، وشقائق النعمان بين النباتات والحيوانات.

واحتوى الكتاب الثالث على رسم به كتابات وتفصيل عن خصى الثدييات وفقاً لتشريح حيوان. إلا أنه فى القلب والأوعية أخطأ الهدف تماماً. وتضمنت موضوعات أخرى ناقشها الكتاب: العظام والغضاريف والشعر والجلد، وبعض الملاحظات الممتازة عن التغيرات الموسمية فى ريش الطيور.

وحل الكتاب التالى الحيوانات عديمة الدم مثل رأسيات الأرجل (cephalopods) والقشريات (crustacea) والصدفيات (testacea) والحشرات، التى وصفها بتفصيل مستفيض. وجمع الكتاب أيضاً معلومات عن أصوات الحيوانات. فوصف مثلاً سبب الصوت الطنان لبعض الحشرات، والذى تسببه الحركة السريعة للأجنحة، وكيف أن الجندب يصدر صوته الغريب بحك أرجله سويًا. وفرق بين النداءات المختلفة للطيور بوصفها لها علاقة بالتزاوج والعدوان. وينتهى الكتاب بحديث عن النوم والتزاوج عند الحيوانات المختلفة.

واستهدف الكتاب الخامس والسادس والسابع موضوع التكاثر. وعمله عن الحشرات عمل جيد جداً ويشى بمهارته وقوة ملاحظته. وشملت الموضوعات التى تناولتها الكتب الأخرى الغذاء والبيئة والهجرات والبيات الشتوى والحركة وأمراض الحيوان وصحته.

«تاريخ الحيوان» ليس معالجة تصنيفية وبالقطع ليس تصنيفاً دقيقاً. غير أن أرسطو كان مصنفًا ويمكن اعتبار دراساته للأشكال والتراكيب مرحلة ما قبل التصنيف. وكان أرسطو يهدف إلى فهم التناسق وكان من أوائل من أدركوا وجود نوع من النظام فى الطبيعة التى تبدو فى حالة تشوش. وترتب على أعماله أن فلاسفة الطبيعة اللاحقين حاولوا أن ينظموا الطبيعة، بانين تصانيفهم على التشريح المقارن، الذى تغير من حقبة إلى أخرى. وكان أرسطو الملهم لكارل ليناوس (Carl Linnaeus) (1707-1778)، عالم الأحياء الدانمركى، فى وضعه لتصنيفه الثنائى (الجنس والنوع) وتصنيفه المنهاجى والمنطقى للحيوانات. وعلى الرغم من أن ليناوس أخطأ بدوره فى بعض التفاصيل فإن انتظام تصنيفه وقابليته للتعديل ضمنا له البقاء.

وعندما ننظر إلى أرسطو من منظور أيامه، يستطيع المرء أن يقدر ذكاه المتوقد وأفكاره الإبداعية. وكان العالم الذى يحيط به مبنياً على الأساطير والخزعبلات. وكان أفلاطون، أستاذه وراعيه، يؤمن بأن الحقيقة لا توجد إلا فى الأفكار وأن الإنسان لم يستوعبها إلا من خلال «ظلال باهتة». وكان أرسطو شجاعاً عندما ابتعد عن أفلاطونه

المبجل وأصر على الإنسان يكتسب المعارف بواسطة حواسه وأن كل شيء نعرفه يأتي من خلال الحواس الخمس.

وفى محاولاته لفهم التوازن والعلاقات المتشابكة للحيوانات والنباتات، يمكن اعتبار أرسطو بحق أنه أول بيئى. فقد علمنا أرسطو أن ننظر إلى الكون من منظور بيولوجى - بوصفه عالماً حياً ومثيراً وجميلاً. وشجعنا على أن ننظر إلى عالم الأنماط. وهؤلاء الذين لا يعطون أرسطو حقه من الثناء الذى يستحقه بفضل ملاحظاته البيولوجية، بدعوى أنها حافلة بالأخطاء، لا يدركون مدى ثورتها بالنسبة إلى عصرها. والبعض ينتقد خلفاء أرسطو لتمسكهم بالتقاليد ومقاومتهم للبحث العلمى. غير أنه فى ضوء روح البحث والتقصى العلمى، فإنه من المحتمل أن أرسطو كان يؤيد أية مكتشفات جديدة كانت تثبت بوضوح خطأ مكتشفاته. وفى الحق، إذا كانت قد قدرت له الحياة فى عصر النهضة فمن اليسير تخيل أنه كان يتخذ موقفاً مؤيداً لكوبرنيكوس وجاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢)، ويكفون ضد الأرسططالين المحافظين.

إيفيلين ب. كلى (EVELYN B. KELLY)

لمزيد من القراءة

Clendening, Logan. Source Book of Medical History. New York: Dover, 1942.

Ferguson, John. Aristotle. New York: Twayne Publishers, 1972.

Gribbin, John. A Brief History of Science. New York: Barnes & Noble, 1998.

Porter, Roy. A Medical History of Humanity: The Greatest Benefit to Mankind. New York: W.W. Norton, 1997.



أرسطو يراقب عالم الطبيعة

نشأة علم النبات

نظرة شاملة

نشأ علم النبات، وهو دراسة النباتات، في بلاد اليونان القديمة، ويعتبر ثيوفراستوس (Theophrastus) (ح ٢٧١-٢٨٧ ق.م.) أبو هذا العلم. غير أن الاهتمام العملي بالنباتات يرجع تاريخه إلى ما قبل زمن الوثائق المكتوبة، وذلك لأن النباتات لم تكن مجرد مصدر للطعام وإنما كانت مصدراً للعقاقير العلاجية أيضاً. ومع بزوغ فجر الزراعة، اشتد الاهتمام بنمو النباتات، مع تطور وسائل أفضل لزراعة المحاصيل وحمايتها من أضرار الجو والآفات. كما نشأت أيضاً في حضارات قديمة متعددة، مثل: الصين ومصر وبابل وبلاد اليونان، ممارسات طبية معقدة شغلت فيها المواد النباتية مكانة مهمة كعقاقير دوائية. والشئ الذي أضافه ثيوفراستوس لتلك الاهتمامات العملية بالنباتات كان دراسة أكثر تنظيراً. ويعد ثيوفراستوس لم يتقدم علم النبات إلا قليلاً حتى أعيد اكتشاف كتاباته في القرن الخامس عشر، في مستهل عصر النهضة.

الخلفية

تشكل الملاحظة الدقيقة عاملاً مهماً في التعرف على جوانب الطبيعة سواء من الناحية العملية أو النظرية، على الرغم من أن أقدم الاهتمامات بنمو النباتات كانت بجلاء اهتمامات عملية. وكانت تتعلق بالعثور على نباتات تصلح مصدراً جيداً للطعام والدواء ومواد البناء وغيرها من المنتجات، وتشجيع نموها. ويعتقد أن الزراعة، وهي نمو

النباتات بطريقة منهجية مقابل مجرد حصاد المواد النباتية التي يصادف توفرها، قد نشأت في غربي آسيا منذ ١٠.٠٠٠ سنة على الأقل.

ويحلول الوقت الذي اتضحت فيه أهمية الوثائق المكتوبة في الأزمنة القديمة، كانت عدة حضارات رفيعة قد نشأت في أنحاء مختلفة من العالم، وكلها تملك خبرات زراعية متقدمة بُنيت على الملاحظة الدقيقة للعوامل الجغرافية والطقسية والبيولوجية. فتعلم المصريون كيف يُسَخَّرُون مياه فيضان نهر النيل في الري، ومعها جاء الاهتمام بنباتات لا تصلح فقط للطعام وإنما للاستخدام كدواء، فضلاً عن أغراض الزينة في الحدائق. وفي بابل اكتشف الآشوريون التزاوج الجنسي لأشجار النخيل مما سمح لهم بزراعة تلك الأشجار، ومنذ زمن غابر زرع الصينيون أشجار الموالح مثل البرتقال والليمون. كما سجلت كل تلك الحضارات معلومات عن استخدام المواد النباتية في علاج الأمراض. وكانت النباتات هي المصدر الأول للعلاج في الأزمنة القديمة، وفي الوقت الذي صقلت فيه كل ثقافة خبراتها الطبية، هناك أيضاً دلائل على أن الإغريق فيما بعد استخدموا معارف المصريين والبابليين الطبية.

وتشمل الكتابات التي تُنسب إلى أبقراط (ح ٤٦٠-٣٧٧ ق.م.)، أعظم أطباء اليونان القدماء، على أوصاف لما يربو على ٢٥٠ نباتاً كانت تُستخدم إما لتقوية الصحة أو لعلاج الأمراض. وتضم تلك الوثائق أيضاً كمية كبيرة من المعلومات عن الغذاء الجيد ونباتات الطعام. ولهذا فإنه من الواضح أن الإغريق درسوا النباتات لأسباب عملية بحتة هي صحة البشر والتغذية. غير أنه حدث في القرن السادس ق.م. أن نشأت في بلاد اليونان حركة فكرية أدت إلى نشأة الفلسفة الغربية، التي كانت تلقى أسئلة جوهرية لا لأهميتها العملية وإنما بهدف بناء منهاج استكشافي لعالم الطبيعة.

جاء أوائل الفلاسفة اليونانيين من جزيرة إيونيا. ويحثوا في أمور مثل: نشأة العالم وتركيبته، وبهذا بدأ تقليد ترتب عليه بزوغ الطرائق العلمية للتفكير. وفي أعقاب انحطاط مدرسة إيونيا ظهر فلاسفة إغريق عظماء من أمثال سقراط

(٤٦٩-٣٩٩ ق.م.) وأفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.). ومن بين هؤلاء كان أرسطو أكثر من أبدى اهتماماً بدراسة عالم الأحياء بما فى ذلك النباتات. غير أنه مثلما حدث مع العديد من كُتّاب العالم القديم، فإن جانباً كبيراً مما كتبه أرسطو قد فُقد، بما فى ذلك غالبية أعماله فى النبات. ونستطيع أن نكون فكرة عن أفكاره عن النباتات من كتابات تلميذه ثيوفراستوس. وكتب ثيوفراستوس نفسه ما يزيد على ٢٠٠ بحث، فُقد أغلبها. ولكن اثنين من أبحاثه الطويلة فى علم النبات بقيا. ويتناول أولهما - وهو «تساؤلات حول النباتات» - أوصافاً وتصانيف لحوالى ٥٥٠ نوعاً من أنواع النبات، ويناقش الثانى وهو - «أسباب النباتات» - فسيولوجية النبات وتكاثره.

التأثير

يُطلق على ثيوفراستوس لقب أبو علم النبات لما تحويه كتاباته من غزارة المعلومات ودقة التحليل. وهو لا يكتفى فى «تساؤلات حول النباتات» بوصف النباتات الموجودة فى بلاد اليونان فقط، وإنما يصف أيضاً أنواعاً توجد على ساحل الأطلنطى وحول البحر المتوسط، بل حتى فى أماكن بعيدة مثل الهند. وفى كتابيه يعتمد على كتابات فلاسفة وعلماء مبكرين، مثل الإغريقين إمبيدوكليس (Empedocles) (ح٤٥٩-٤٢٥ ق.م.) ومنستور (Menestor) وديموكريتوس (Democritus) (ح٤٦٠-٣٧٠ ق.م.) الذين كتبوا جميعاً عن النباتات. وشملت أعمال ثيوفراستوس أيضاً تقارير من مزارعين وأطباء وغيرهم ممن لديهم معارف جوهريّة عن النباتات، وبهذا فإن كتاباته تحوى كمّاً كبيراً من المعلومات العملية والملاحظات الدقيقة.

وفى محاولاته لتصنيف النباتات حاول ثيوفراستوس أن يبرهن على أن تلك المهمة تختلف عن تصنيف الحيوانات لأن النباتات لديها مشتركات مع بعضها البعض أقل مما لدى الحيوانات. فمثلاً: لاحظ هو أن الحيوانات التى درسها تشترك كلها فى وجود

فم ومعدة، بينما ليست كل النباتات لها أوراق أو جنوع أو حتى جنور. ولهذا السبب ظن أنه بينما يمكن تصنيف الحيوانات وفقاً لأحكام عامة، إلا أن صفات محددة هي الأهم في حالة النباتات. وهذا يعنى أن الأمر الجوهرى ليس أعمال الفكر وفقاً للعموميات وإنما الملاحظة المباشرة. ولم يستخدم ثيوفراستوس العموميات إلا عندما كانت أمامه أمثلة محددة تدعمها. وهكذا فإنه حتى فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ علم النبات، كان ثمة اعتماد على الاهتمام الدقيق بالتفاصيل.

وليس بمستغرب أن بعض ملاحظات ثيوفراستوس غير كاملة أو تنقصها الدقة، إذا ما تذكرنا أنه لم يكن يملك حتى عدسة مكبرة يدوية يستطيع بواسطتها أن يشاهد تركيبية نباتية دقيقة. وعلى الرغم من ذلك فإنه قام بعدد من الإسهامات المهمة الدائمة فى علم النبات. فكان أول من ميز بين طبقتين رئيسيتين للنباتات المزهرة، الأحادية الفلقة (وبها مجموعة من الصفات المميزة منها أن أوراقها بها عروق متوازية) ونوات الفلقتين (أوراقها بها عروق متفرعة). كما فرق أيضاً بين النباتات المزهرة كأسية البذور (angiosperms) والنباتات العارية البذور (gymnosperms) الأكثر بدائية. وفى كتابه «أسباب النباتات» ذكر عدداً كبيراً من الملاحظات عن تكاثر النباتات، بما فى ذلك وصفه الدقيق لإنبات البذور، وهو وصف لم تدخل عليه أية تحسينات حتى القرن السابع عشر.

ويعتبر بعض مؤرخى العلوم أن ثيوفراستوس هو مبتكر علوم جغرافية النبات وبيئتها لأنه لم يكتف بوصف الصفات التركيبية للنباتات، وإنما كتب أيضاً عن العلاقة بين تركيبية النبات والبيئة. وأبدى اهتماماً بمجتمعات النبات ذاكراً أن مجموعات من أنواع معينة كثيراً ما تنمو معاً فى المنطقة الجغرافية ذاتها أو فى نفس أنماط المناخ. كما تحدث أيضاً عن تكيف النباتات مع أحوال مناخية معينة، موضحاً، على سبيل المثال، أن بعض الأنواع تتكيف بصورة أحسن مع أحوال الجفاف، بينما تنمو أنواع أخرى بطريقة أكثر نشاطاً فى المناطق الرطبة. وفى كتاباته عن أمراض النباتات فرق بين الأمراض التى تحدث نتيجة للمناخ أو التربة وبين تلك التى تكون نتيجة الآفات.

وتقف إسهامات ثيوفراستوس فى مكان متفرد بسبب أنها لم تتبعها أعمال على نفس المستوى. ولم يُضَف إلى المعلومات النباتية إلا النزر اليسير من الأعمال ذات القيمة العلمية حتى عصر النهضة الذى بدأ فى القرن الخامس عشر، أى بعد ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة من زمن ثيوفراستوس. وبعد زمانه انحدرت العلوم الإغريقية بصورة عامة. فقد عانت أثينا، التى كانت مركز التعلم، من اضطرابات سياسية وانتقل مركز العلوم الإغريقية إلى مدينة الإسكندرية فى مصر. وعلى الرغم من وجود عدد من الكتاب الذين أنتجوا أعمالاً فى علم النبات، فإن تلك الأعمال لم تحوِ إلا القليل من المعلومات الجديدة، وفى الوقت الذى استمر فيه نسخ أعمال ثيوفراستوس تسلكت إليها الأخطاء. وهكذا انحدر الحال بالعلوم النباتية بدلاً من أن تتقدم.

غير أن هناك شخصيات قليلة أسهمت إسهامات دائمة فى علم النبات، رغم أنه أقل بكثير من إسهامات ثيوفراستوس. وعاش أكثر اثنين جديرين بالذكر فى القرن الأول الميلادى. فوضع أولهما الرومانى بلىنى الأكبر (Pliny the Elder) (٢٣-٧٩م) كتاب 'التاريخ الطبيعى' (Natural History) خصص فيه ١٦ من أجزائه السبعة والثلاثين للنباتات. واعتمد الكثير مما ذكره بلىنى على أعمال كراتياس (Crateuas) الإغريقى (ح ١٢٠-٦٠ ق.م.) الذى وضع فى القرن الأول ق.م. كتاباً عن العشبيات، وهى النباتات المستخدمة فى الطب. وتشتمل كتب بلىنى الخاصة بالنبات على كمية كبيرة من المعلومات عن النباتات، بالرغم من أنها ليست على درجة من التنظيم يماثل أعمال ثيوفراستوس لأن بلىنى كان اهتمامه بالتصنيف قليلاً. وتكمن أهمية كتابات بلىنى بوجه خاص فى شدة الاهتمام بها فى العصور الوسطى، عندما نُسخت عدة مرات، مما أدى إلى امتلائها بأخطاء كثيرة. وعلى جانب آخر فقدت أعمال كراتياس وثيوفراستوس، ولكن أعمال الأخير أعيد اكتشافها فى القرن الخامس عشر.

والشخصية الأخرى التى تستحق الذكر من شخصيات القرن الأول الميلادى هو بدانيوس ديوسكوريديس (Pedanus Dioscorides) (ح ٤٠-٩٠م)، وهو إغريقى ولد فى صقلية. وكتب كتاباً عن العشبيات الطبية أعيد نسخه عدة مرات فى القرون

التالية، وصار المصدر الرئيسى للمعلومات المتعلقة بالاستخدامات الطبية للنباتات خلال العصور الوسطى. وفى وقت مبكر من تاريخه، ضُمت إلى نص ديوسكوريديس رسومات من كتاب كراتياس عن العشبيات، الذى وصفه بلينى بأنه أول استخدام للرسوم النباتية بين الإغريق. وصارت النسخة المصورة لأعمال ديوسكوريديس هدفًا للنسخ المتكرر، وأدى ذلك إلى أخطاء لا فى النص فقط وإنما فى الرسوم أيضاً، مما نتج عنه أنها صارت ساذجة لدرجة استحالة التعرف على الأنواع من الرسوم.

وتسبب اعتماد علماء العصور الوسطى على مثل تلك الوثائق المعيبة فى أن علم النبات عجز عن التقدم إلى ما بعد منجزات ثيوفراستوس. ولم يحدث إلا فى أخريات العصور الوسطى، بفضل أعمال علماء مثل: ألبرتوس ماجنوس (Albertus Magnus) (١١٩٣-١٢٨٠)، أن علم النبات بدأ فى التقدم مرة أخرى. ومع دخول آلة الطباعة فى القرن الخامس عشر، نجح إنتاج نسخ ورسوم دقيقة فى دفع عجلة التقدم بصورة كبيرة.

(MAURA C. FLANNERY) مورا س. فلانرى

لمزيد من القراءة

Blunt, Wilfred, and Sandra Raphael. *The Illustrated Herbal*. New York: Thames and Hudson, 1994.

Iseley, Duane. *One Hundred and One Botanists*. Ames, IA: Iowa State University Press, 1994.

Magner, Lois. *A History of the Life Sciences*. 2nd ed. New York: Marcel Dekker, 1994.

McDiarmid, J.B. "Theophrastus." In *Dictionary of Scientific Biography*. Vol. 13. Ed. by Charles Gillispie. New York: Scribner's, 1976: 328-334.

Morton, A.G. *History of Botanical Science*. New York: Academic Press, 1981.

Serafini, Anthony. *The Epic History of Biology*. New York: Plenum, 1993.

Singer, Charles, and E. Ashworth Underwood. *A Short History of Medicine*. 2nd ed. New York: Oxford University Press, 1962.

Stannard, Jerry. *Pristina Medicamenta: Ancient and Medieval Medical Botany*. Aldershot, Great Britain: Ashgate, 1999.

الطب الأيورفيدي

نظرة شاملة

ربما يكون الطب الأيورفيدي، وهو النظام الطبي التقليدي الذي يمارس في الهند اليوم، قد نشأ منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة. وليس معروفاً أصل «أيورفيدا»، أو «علم الحياة»، على وجه الدقة، ولكن العلاجات المستخدمة قد تكون قد تطورت من العلاجات المكتسبة من موروثات عقاقير ما قبل التاريخ. ونجد أن المفاهيم النظرية ومناهج الأيورفيدا موضحة بجلاء في النصوص الكلاسيكية التي تُنسب إلى شاراكّا (Charaka) وسوسروتا (Susruta) وفاجبهاتا (Vagbhata)، وهم الأطباء والمؤلفون والمؤسسون شبه الأسطوريين للنظام الأيورفيدي للشفاء.

الخلفية

بقيت الحكايات الأسطورية للهند القديمة على صورة أربع مجموعات تعرف باسم «الفيدات» (the Vedas)، وهي كتب معلومات مقدسة أوحى بها الآلهة. وتتلازم مع «الفيدات» تعليقات كُتبت في أزمنة لاحقة تعرف باسم «البرهمانيات» (Brahmanas) و«الأوبانيشادات» (Upanishads)، وهي تشرح النصوص وتتأمل في طبيعة الكون. وفي عشرينيات القرن العشرين أمكن الكشف عن المزيد من التاريخ السحيق القدم للحضارة الهندية عندما شرع الآثاريون في استكشاف أطلال مدينتي موهنجو-دارو (Mohenjo-daro) وهارابا (Harappa) اللتين كانتا جزءاً من حضارة نهر السند المفقودة التي ازدهرت حوالي ٢٧٠٠ إلى ١٥٠٠ ق.م.

والأيورفيدا، وهو النظام العلمى الذى يشكل أساس الطب التقليدى فى الهند، يسمى «علم الحياة». وتتسم نشأة النظرية الأيورفيدية بالغموض، ولكن أقرباؤها، أى مجموعة عقايرها، ربما يكون قد تطور من الخبرات الفيديّة أو حتى من خبرات شعبية ما-قبل-تاريخية. ولم يكن الطب الفيدي منفصلاً عن الديانة الفيديّة، التى ضمت عدداً من الآلهة والشياطين. وكان الشفاء يتطلب الاعتراف والتعاويد والرقى؛ لأن المرض كان يُعزى إلى الخطيئة أو الشياطين. وكانت العلاجات العشبية والسحر يستخدمان ضد الشياطين المسببة للمرض. وكان الجراحون يعالجون الجروح ولدغات الأفاعى ويزيلون العين المتهتكة ويستخرجون رؤوس السهام ويبترون الأطراف ويزوبون المرضى بأطراف صناعية. واكتُشفت جماجم من مواقع بمدينة هارابا القديمة تشير إلى أن الجراحين الهنود كانوا يجرون عملية التريئة أيضاً. إلا أنه كان لا بد أن تصاحب العلاجات والجراحة طقوس سحرية أو دينية.

ولم يبق إلا شذرات وفتات من «الأيورفيدا» الأصلية، وهو أقدم ما كُتب فى الطب الهندي. وطبقاً للمعتقدات الهندية فإن الإله براهما هو الذى أَلف الأيورفيدا ومن هنا جاءت قداسة الكتاب. ويعتقد العلماء أن النص ربما كتب ما بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. ويُحتفى بشاراكا وسوسروتا وفاجبهاتا، المؤلفون أشباه الأسطوريين للنصوص السنسكريتية للطب الأيورفيدى التقليدى، بوصفهم «ثالوث الأقدمين». وتسمى كتاباتهم سوسروتا سامهيتا وشاراكا سامهيتا وأستنجاهردايا سامهيتا.

التأثير

كان الهدف الرئيسى للطب الهندي هو المحافظة على الصحة، وكان ذلك أهم من علاج الأمراض. وكان يُنظر إلى الصحة بوصفها حالة لا يمكن الوصول إليها إلا باتباع برنامج مفصل وفقاً لحاجات كل فرد يصفه الطبيب الأيورفيدى. وطبقاً للمبادئ الأيورفيدية فإن الوصول إلى الصحة والسعادة والمحافظة عليها كان سعياً يستحق المكافأة، ويفيد منه البشر فى حياتهم الحالية والمستقبلية.

«شاراكا سامهيتا»، وهو مقال فى عموميات الطب، هو أكثر كلاسيكيات الطب الهندوكى اكتمالاً، غير أن الشكوك تكتنف وجود شاراكا نفسه، فبعض العلماء يقولون إنه عاش حوالى سنة ٨٠٠ ق.م. والبعض الآخر يدعى أنه عاش حوالى سنة ١٠٠ م. وقد يكون «شاراكا سامهيتا»، الذى يطلق عليه أحياناً «دليل الطبيب»، قد كُتب فى الفترة ما بين ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق.م. والكتاب هو دليل فى الفروع الثمانية للأيورفيدا: (١) مبادئ عامة فى الطب، (٢) الأمراض، (٣) التشخيص، (٤) وظائف الأعضاء والتشريح، (٥) التنبؤ بما سوف ينتهى إليه المرض، (٦) العلاجات، (٧) الأقرباذين، (٨) وسائل التأكد من نجاح العلاج. وتستخدم النصوص الأخرى قوائم مختلفة بعض الشيء وتشمل الجراحة والسموم. ويتحدث شاراكا عن أنماط ثلاثة للطب: (١) التعاويذ والطقوس الدينية؛ (٢) الغذاء والدواء؛ (٣) العلاج النفسى أو إخضاع العقل. ويحتوى النص على قوائم بالمواد النباتية والمعدنية والحيوانية اللازمة لتحضير الأدوية، كما يحوى وسائل تشخيص وعلاج مئات الأمراض.

وبالمثل، تحيط الشكوك بوجود سوسروتا أيضاً. فبعض العلماء يقولون إن «سوسروتا» لا تشير إلى شخص حقيقى، ولكنه ضرب من الألقاب يمكن ترجمته إلى «ذائع الصيت». وعلى أية حال فإن «سوسروتا سامهيتا»، مثله فى ذلك مثل «شاراكا سامهيتا»، هو دليل للأفرع الثمانية للأيورفيدا. غير أن التركيز الرئيسى للسوسروتا سامهيتا هو على الجراحة. وبصورة عامة ينبى النص الذى يُنسب إلى فاجبهاتا، الذى ربما عاش فى القرن السابع، على «شاراكا سامهيتا» و«سوسروتا سامهيتا». وترجم من السنسكريتية إلى التبتية وصار نصاً رئيسياً فى الطب التقليدى التبتى. وأحياناً يُطلق على مقال فاجبهاتا اسم مجموعة خلاصة الأفرع الثمانية للأيورفيدا.

وتكرس النصوص الأيورفيدية الكلاسيكية اهتماماً كبيراً بالصفات التى تميز الطبيب الحقيقى عن المشعوذين والدجالين. فالطبيب الجيد له أربع صفات أساسية: المعرفة النظرية، ووضوح المنطق، وخبرة عملية واسعة، والمهارة الشخصية. والجراح لا بد وأن يتصف بالشجاعة وثبات اليدين ويجيد استخدام الآلات الحادة

والسلوك الهادئ وثقة بالنفس لا تتزعزع وخدمات مساعدين من أصحاب الأعصاب القوية. ويوصفهم أعضاء في مجموعة حَرْفِيَّة أفلت الأطباء من بعض قيود النظام الطبقي الهندوكي. فلم يكن الأطباء مجبرين على الاقتصار على مخالطة أفراد طبقتهم الشخصية، وإنما كانوا أحراراً في قبول تلاميذ من الطبقات الثلاث العليا. وكان التلاميذ يقيمون مع معلمهم ويقومون على خدمته إلى أن يتيقن المعلم أن تدريبهم في الطب والجراحة قد اكتمل.

وطبقاً لوظائف الأعضاء حسبما يراها الطب الأيورفيدي فإنه يمكن تفسير وظائف الجسم في إطار الـ«دوسات» (dosas) الثلاث وهي: السوائل أو الأخلاط أو المبادئ الأولية- فاتا (vata)، وبيتا (pitta)، وكافا (kapha) وتترجم عادة إلى الرياح والمرارة والبلغم. وتتقترن الدوسات الثلاث أيضاً بالآلهة الثلاثة للحكمة الفيديّة: فيشنو وشيفا وإبراهما. وعلى الرغم من أن المبادئ الأولية لأمراض الأخلاط الهندية تشبه الطب الأبقراطي، فإن النظام الأيورفيدي حوى عوامل إضافية. فكان الأطباء الأيورفيديون يؤمنون بأن الجسم مكون من مزيج من العناصر الخمسة (التراب والماء والنار والرياح والفرغات) والأنسجة السبع الأساسية. وكانت وظائف الجسم تعتمد على الأخلاط الثلاثة ممزوجة مع الدم، وخمسة «رياح» منفصلة والروح الحيوية والروح الأشد عمقاً في أعماق الشخص. وعلى الطبيب أن يحدد أيّاً من تلك الدوسات أو العناصر هو السائد عند كل شخص لكي يرسخ التناسق والتوازن ويقود المريض إلى الصحة.

ويمكن لعوامل كثيرة أن تفسد التوازن الدقيق بين العناصر والأخلاط، مثل: الإجهاد والجروح والحوادث أو مس الشياطين. والسبب الرئيسي للأمراض هو اختلال التوازن بين الأخلاط الأولية. ويتسبب التنافر بين الأخلاط الثلاثة في اضطراب في الدم. ويمكن أن يكون المرض الناتج بسيطاً أو جسيماً أو غير قابل للشفاء حسب شدة اختلال التوازن. ويكاد يكون كل الناس قد ولدوا بشيء من عدم التناسق بين الأخلاط الثلاثة ويؤدي بهم ذلك إلى قابلية لأمراض بعينها. وكان التعرف على التوازن

الطبيعى لكل مريض أمراً ضرورياً كى يمكن وصف الغذاء والعلاج العشبي المناسبين، ولكى يتمكن الطبيب من إعادة التوازن فإنه قد يضطر إلى إزالة الدم الفاسد بالفصد أو دود العلق.

وكان يُنظر إلى الحمى بوصفها ملكة الأمراض، ولكن النصوص الكلاسيكية ذكرت ما يربو على ١٠٠٠ مرض مختلف. وكان التشخيص الدقيق هو مفتاح اختيار العلاج المناسب للأمراض القابلة للشفاء. واشتمل فن التشخيص على الإنصات لشكوى المريض عن مرضه وملاحظات الطبيب عن المظهر العام للمريض وتشوّهاته وضجيجهِ الداخلى ودمهِ وسوائل جسمهِ وإفرازاته. وكانت أشهر تجربة تشخيصية هي الخاصة بمرض «مرض البول العسلى» (البول السكرى).

وهناك ما يقرب من ١٠٠٠ عقار مستخرج من نباتات أُشير إليها فى كتب الطب الكلاسيكية الرئيسية، غير أن كثيراً منها هي من مواد لم يمكن التعرف عليها أو «عقاقير مقدسة» مثل السوما. وتقول الأساطير الفيدية إن براهما خلق السوما لمنع الشيخوخة والموت، ولكن التعرف على 'ملك النباتات' ذلك استعصى على الحكماء اللاحقين. وعلى الرغم من أن النباتات وفرت الغالبية الساحقة من المواد الطبية فإن المعادن والمنتجات الحيوانية، مثل العسل واللبن وجلود الثعابين وموادها البرازية، كان لها دور مهم أيضاً. وكان العلاج المناسب للأمراض التى بها اختلال لأخلط الجسم هو النظافة الداخلية والنظافة الخارجية والعلاج الجراحى.

ويبدو أن الجراحين الهنود كانوا يجرون عمليات جراحية رائعة، رغم عدم توفر تعاليم التشريح المنهاجى المنظم للإنسان والحيوان. ويقال إن الجراحين القدامى كانوا يجرون العملية القيصرية والكاتاراكتا واستئصال اللوز والبتر وجراحات التجميل. ويقرر 'سوسروتا سامهيتا' أن على الأطباء والجراحين أن يدرسوا تشريح الإنسان كى يصبحوا على دراية بكل أجزاء الجسم. وحتى يتجنبوا المحظورات الدينية التى تنهى عن التلامس مع الجثث أو استخدام السكين مع الموتى، اقترح سوسروتا طريقة فريدة للتشريح. فالشرح عليه تدبير جثة تكون صالحة للتشريح.

وتشمل الطريقة الرئيسية تغطية الجثة بالحشائش، ووضعها فى قفص من شبك دقيقة، وغمرها فى بركة هادئة. وبعد ذلك بحوالى أسبوع يمكن للمشرح أن يزيل الطبقات العليا من الجلد والعضلات بأن يحك الجلد بفرشاة ناعمة، حيث يمكنه مشاهدة الأجزاء الداخلية للجسم.

كان الممارسون الهنود يؤمنون بأن الجسم يحوى نظاماً معقداً «للقاط الحيوية» أو «المارمات» (marmas). ويبدو أنها تمثل مواضع اتصال الأوردة والشرايين والأربطة والمفاصل والعضلات الرئيسية، حيث تكون الإصابات أكثر تعجيزاً أو حتى مميتة. وكل نقطة اسم خاص بها والنظام التقليدى به ١٠٧ نقاط. وعندما يفحص الطبيب المريض المصاب تكون مهمته الأولى هى تحديد ما إذا كان الجرح يقابل واحدة من تلك المارمات. فإن اكتشف أن الإصابة قد تكون قاتلة لأنها تشمل واحدة من المارمات، فإن الجراح يقوم ببتتر الطرف فى نقطة مناسبة فوق المارما. وأثناء إجرائه لعملية فصد أو غيرها من العمليات الجراحية يتعين على الجراح أن يتجنب الإضرار بالمارمات.

وتوصف جميع العمليات بأنها تحويلات للتقنيات الأساسية، وهى الاستئصال والقطع وسبر الأغوار والكحت والشق والرتق والثقب واستخراج الأجسام الصلبة وتفريغ السوائل. وعندما يشرع طبيب فى الاستعداد لعملية ما، فعليه أن يتنبه بصورة خاصة للمريض، وحجرة العمليات، والألات المنة وواحد. وسبب الاحتياج لهذا العدد الكبير من الألات الجراحية هو تفضيل الألات التى تشبه الحيوانات المختلفة، مثل الجفت الشبيه بقم الأسد. وتحتاج بعض العمليات الخاصة لمناضد من أشكال وأحجام مختلفة. وكانت هناك منضدة خاصة بالكسور تستخدم لشد الأطراف المكسورة أو المخلوعة. وكانت نظافة الحجرة المستخدمة لإجراء الجراحات ذات أهمية خاصة. ويعتقد بعض المؤرخين أن القدماء اكتشفوا عقاقير تخديرية مهمة، ولكن ربما تكون تلك الدعوى مبالغ فيها، لأن «سوسروتا سامهيتا» ينصح بوضوح باستخدام النبيذ قبل وبعد العمليات الجراحية لمنع الإغماء وقتل الألم. ومن المحتمل أن تكون أبخرة القنب قد

استخدمت لتأثيراتها المنومة ولكن النصوص تعترف أيضاً بالحاجة إلى شد وثاق المريض شداً محكماً.

وكانت ممارسة الجراحين للفصد والكي من الأمور الشائعة. ويذكر «سوسروتا سامهيتا» أن الخصائص الالتئامية للكي الحقيقي (أى بالحديد المحمى) أفضل بكثير من تلك التى تعقب الكى الكامن (وهو الحرق الذى تسببه المواد الكيماوية). وكان الكى يُستخدم لعلاج النزف وكذلك عندما تقاوم الأمراض العقاقير العشبية. وكان الفصد يُعتبر علاجاً ناجحاً لكثير من الأمراض، ولكن العملية كانت محفوفة بالخطر لأن الدم كان مصدر القوة والحيوية وطول العمر. وكان نود العلق يوصى به بوصفه وسيلة حانية للفصد، فالنود يفرق بطريقة غريزية بين الدم الصحى والدم الفاسد.

ومن بين العمليات التى جاء ذكرها فى «سوسروتا سامهيتا» إزالة الكاتاراكت من العين، واستخراج الحصى من المثانة، وفتح الصدر لنزح الصديد، ورتق الأمعاء الممزقة. واستخدمت أنواع مختلفة من الإبر والخيوط لإغلاق الجروح. وفى حالة تمزق الأمعاء كان الجراح القديم يستخدم النمل الأسود الكبير كنوع من «مشابك الجروح». وفى جراحات التجميل كان استخدام رقع الجلد الكبيرة لإصلاح الأنوف المهشمة والأذان والشفاه الممزقة. وباستخدام ورقة شجر كقالب للأنف الجديدة كان الجراح يخلق رقعة من النسيج الحى من الخد أو الجبهة. ثم يخيطنها فى المكان الجديد ويضمد الجرح بعناية. ولا تُفصل الرقعة من مكانها الأسمى إلا بعد التئامها فى موقعها الجديد.

وعلى أن الرغم من أن علوم وطب الغرب قد اكتسب مكانة فى الهند الحديثة فإن العلاجات الأيورفيدية لا تزال يستخدمها ملايين الناس. ولا يزال الأطباء والعلماء الهنود يكتشفون أفكاراً ثمينة فى الكتابات القديمة ويستوحونها. ويعترف المجلس الطبى الهندى، الذى تأسس سنة ١٩٧١، بالأنماط المختلفة للطب الكلاسيكى، ويؤيد المحاولات لدمج الطب الهندى والطب الغربى سوياً.

لويز ن . ماجنر (LOIS N. MAGNER)

لمزيد من القراءة

Chatterjee, Asima, and Satyesh Chandra Pakrashi, eds. *The Treatise on Indian Medicinal Plants*. New Delhi: Publications & Information Directorate, 1991.

Gupta, N.N.S. *Ayurveda: The Ayurvedic System of Medicine*. 3 vols. Calcutta: K.R. Chatterjee, 1901-07.

Heyn, Birgit. *Ayurveda: The Ancient Indian Art of Natural Medicine & Life Extension*. Rochester, VT: Healing Arts Press, 1990.

Kapoor, L.D. *CRC Handbook of Ayurvedic Medicinal Plants*. Boca Raton, FL: CRC Press, 1990.

Lad, Vasant, and David Frawley. *The Yoga of Herbs: An Ayurvedic Guide to Herbal Medicine*. Santa Fe, NM: Lotus Press, 1986.

Leslie, Charles M., ed. *Asian Medical Systems: A Comparative Study*. Berkeley, CA: University of California Press, 1976.

Sivarajan, V.V., and Indira Balachandran. *Ayurvedic Drugs and Their Plant Sources*. New Delhi: Oxford & IBH, 1994.

Zimmermann, Francis. *The Jungle and the Aroma of Meats: An Ecological Theme in Hindu Medicine*. Delhi: Motilal Banarsidass, 1999.

Zimmer, Heinrich Robert and Ludwig Edelstein. *Hindu Medicine*. Baltimore, MD: Johns Hopkins Press, 1948.

Zysk, Kenneth G. *Asceticism and Healing in Ancient India: Medicine in the Buddhist Monastery*. New York: Oxford University Press, 1991.

علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء): تأثيرات جالينوس

نظرة شاملة

كانت بدايات الفسيولوجيا، وهو دراسة كيفية عمل الجسم، منذ ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة في أبحاث جالينوس (Galen)، وهو طبيب إغريقي. درس جالن (ويعرف أيضاً باسم كلوديوس جالينوس) (Claudius Galenus)، ما كتبه العلماء القدامى وتلقى العلم على يد بعض من أكبر علماء عصره، ولكنه وضع أيضاً أفكاره الخاصة مع بحث متحمس عن معارف جديدة. واكتسب غالبية مفاهيمه عن أعضاء الجسم وأجهزته من خلال العدد الكبير من عمليات التشريح التي أجراها، وبخاصة في أوائل تاريخه المهني. وعلى مدار سنوات قادته أبحاثه لأن يدرك أهمية النبض كوسيلة تشخيصية، وأن يفحص الدم ويقرر أنه يسرى في الأوردة والشرايين، وأن يضع فرضيات حول دور القلب والكبد والمخ. واليوم يُنظر إلى جالينوس بصفة عامة بوصفه أبو الفسيولوجيا التجريبية.

الخلفية

تعلم جالينوس (١٢٩-٢١٦) في طفولته على يد والده، الذي كان رياضياتياً وفلكياً ومعمارياً. وفي سن المراهقة استمر جالينوس يتعلم على يد أبيه، ولكنه درس أيضاً على فلاسفة عديدين في منزله في برجاموم بآسيا الصغرى، وهي تركيا

الحديثة. وكان ببرجاموم معبد لإله الطب الروماني، كان يؤمه العديد من علية القوم من الرومان يبتغون الشفاء. وتشرب عقل المراهق بالعلم، ولكنه اتبع نصيحة والده بالإحجام عن الانضمام إلى أى طائفة فلسفية. وبدلاً عن ذلك اختار أجزاءً من تعاليم الفلاسفة المعاصرين وبعضاً من كتابات العلماء القدامى ومزجها معاً ليشكل آراءه الخاصة.

وبالحاح من والده اختار جالينوس التخصص في الطب وأمضى السنوات التسع التالية في الدراسة في برجاموم وفي سميرنا وفي كورينث بشبه الجزيرة اليونانية وفي الإسكندرية بمصر. وترعرع وهو يعرف تشريح الحيوان معرفة وثيقة على يد ساتيروس (Satyrus) معلم التشريح في برجاموم. وفي تلك الأثناء تكونت عند جالينوس قناعة بأن التجريب، وبخاصة التشريح، هو شرط أساسى لفهم الجسم البشرى. وكان هذا الفهم بدوره ضرورياً لتحديد العلاج المناسب للأمراض أو الإصابات. واستمر جالينوس وفيماً لذلك الاقتناع وأجرى العديد من تشريح الحيوانات، بعضها أجزاها علانية، كوسيلة للاستزادة من العلم وتعليم الآخرين.

وفي أثناء ما كان يتابع دراسته شرع جالينوس فيما قدر له أن يصبح نمط حياة من الكتابة الغزيرة. وشملت أعماله الأولى قواميس مخصصة لمساعدة التلاميذ على فهم أعمق للطب والفلسفة، وكتاباً بعنوان «حول حركات القلب والرئة».

عاد جالينوس إلى برجاموم بعد انتهاء فترة الدراسة ومكث فيها أربعة أعوام كبير للأطباء لفصيل من المجالدين (gladiators) كان يتولاهم كبير كهنة آسيا، فكان يعالج جراهم التي كثيراً ما كانت بالغة واكتسب معارف جديدة فى عمل الجسم البشرى. وفيما بعد توجه إلى روما، حيث انتهى به الحال إلى أن أصبح طبيب البلاط الإمبراطورى لثلاثة أباطرة. وداوم على الكتابة فى الطب والفلسفة، فكتب ما يقرب من ٧٠٠ كتاب ومقال على مر السنين. ومن بين أكثر ما كتب تأثيراً كتابه نو السبعة عشر جزءاً المسمى «حول فوائد أجزاء الجسم» وكتاب آخر بعنوان «حول الملكات الطبيعية».

كان التشريح هو مفتاح غالبية منجزات جالينوس. وساعدته تشريحاته العديدة، وبخاصة تلك التي أجراها في مستهل حياته المهنية، على اكتساب معرفة هائلة بتركيبية الجسم البشري وظائفه. ومن خلال التشريح تعرف جالينوس على أعضاء جديدة، وبدأ يميز بين وظائف ما هو معروف من أعضاء الجسم وما هو مجهول منها، وضمن العلاقات بين أعضاء الجسم، وكون أفكاراً عن كل الأجهزة الداخلية. وبواسطة التشريح تمكن من التوصل إلى أدلة تكاد لا تقبل الدحض تؤيد آراءه في التشريح.

كان تشريح الجسم الإنساني يُنظر إليه باستهجان أيام جالينوس، ولهذا فقد أجرى غالبية تشريحاته على الحيوانات واستنتج أن البشر لهم نفس الأعضاء أو أعضاء مشابهة لها. كما افترض أيضاً أن الأعضاء البشرية لها نفس تركيبية ووظائف مثيلاتها في الحيوان. وعلى الرغم من أن تلك المقولة كانت دقيقة في معظم الأحوال فإن جالينوس خلَّصَ إلى استنتاج خاطئ بأن كبد الإنسان له خمسة فصوص، وأن الرحم البشري له قرون (بنى ذلك على رحم الكلاب)، وأن عظمة الفخذ مقوسة.

وإضافة إلى التعلم من خلال التشريح، اتجه اهتمام جالينوس إلى أعمال العلماء السابقين لتساعده على فهم أعمق لعمليات الحياة. وعلى الرغم من أن كثيراً من معاصريه فضلوا تقبل كتابات قدامى العلماء بوصفها حقائق وأمضوا وقتهم لإبراز حكمته، فإن جالينوس كان يؤمن بأن العلم يجب أن ينظر إلى الأفكار الصالحة من فكر الأقدمين كنقاط بداية ويبني عليها.

غير أن جالينوس أبدى تقديراً كبيراً لكثير من أفكار القدامى، بما في ذلك قناعة أبقراط بأن الصحة الجيدة تعتمد على التوازن بين سوائل الجسم الأربعة، أو الأخلاط، التي عرَّفها بأنها الدم والبلغم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء. ولكي يحافظ جالينوس على توازن سوائل الجسم تلك كانت لديه صيدلية ذات مخزون جيد من العقاقير، وكان يسجل بدقة تأثيرات الجرعات المختلفة للعقاقير المتنوعة على سير

العديد من الأمراض. ولفتت دراساته الأنظار إلى الفوائد الطبية للعلاجات النباتية والحيوانية والمعدنية والمركبة.

وتوسع جالينوس أيضاً في أفكار أبقراط بتأكيد أن مزاج الشخص مرتبط بصورة مباشرة بازدياد واحد من الأخلاط الأربعة؛ وبمعنى آخر فإن وظائف الأعضاء تؤثر على الحالة النفسية.

وسيطرت «النظرية الروحية» (pneumatic theory) على جالينوس، وهي التي تركز على أهمية الهواء (الروح الطاغية) (pneuma) وتأثيرها على وظائف الجسم، وقرر أن هناك ثلاثة أنواع من الروح - الطبيعية، والحيوية، والنفسية، ومكانها الدم والقلب، والأعصاب والمخ، والكبد، على التوالي. وأمن جالينوس بأن الأنماط الثلاثة للروح تجتمع لكي تسمح بالحياة. كما قرر أن اختلال واحد من تلك الأرواح يمكن أن يؤدي إلى اختلال توازن الأخلاط ويسبب الأمراض. غير أن نظرية الروح تلك سقطت من اهتمامات المجتمع الطبي بعد ذلك بسنين.

وساهمت أبحاث جالينوس في هذا المجال في الكشف عن القلب بوصفه مضخة ومكنته من إدراك أن تغيرات النبض يمكن أن تؤثر في الصحة. وأصبح أول شخص يستخدم النبض كوسيلة تشخيصية، وهو أمر لا يزال يمارس حتى اليوم. وانتهت به أبحاثه في الدم والهواء إلى اكتشاف أن الشرايين تحمل دمًا لا هواءً كما كان يعتقد العلماء والأطباء القدامى. وقرر أيضاً أن الكبد يزيل الفضلات من الدم كما أنه يحول الطعام إلى دم، ومن ثم يتنقل بين الأعضاء المختلفة. وكانت تلك الاكتشافات التي جمعت ما بين الدم والهواء والطعام، جوهرية في تمهيد الطريق للأبحاث المستقبلية الخاصة بالجهاز الدورى والتمثيل الغذائى، وبخاصة تلك التي أجراها وليم هارفى (William Harvey) الإنجليزى (١٦٥٧-١٥٧٨).

فقد أثبت هارفى أنه على الرغم من أن جالينوس كان محقاً في افتراضه أن الدم والهواء والطعام أمور أساسية للحياة، فإن افتراضه أن الكبد يحول الطعام إلى دم كان

فرضية خاطئة. كما أن هارفى أيضاً سلك مسلك جالينوس فى التاكيد على أهمية التشريح، ولكنه سار بها خطوة أخرى بتشريحه الحيوانات الحية. وتمكن هارفى بذلك من مشاهدة مسار الدم وأن يدرك أساسيات الجهاز الدورى. ويعود إلى هارفى الفضل فى أنه أول عالم يقرر أن صمامات القلب تساعد فى سريان الدم فى القلب بدلاً من أن تخفض من سرعته، كما كان الاعتقاد السائد، وأن الدم يتدفق من الوريدين الأجوفين إلى القلب ومن ثم إلى الأورطى. وأثبت أيضاً أن النبض سببه انقباضات القلب، وأن كل انقباضة تدفع دمًا إلى الأمام.

التأثير

طوال حياته، كان جالينوس يؤكد أن التجريب كان جوهرياً لتقدم الدراسات العلمية، وأثبت ذلك الرأى من خلال تشريحاته وافتراضاته وكتاباتة. ويوصفه مدرساً حتى النخاع أجرى تشريحات علنية، وكتب قواميس لمساعدة التلاميذ الآخرين على استيعاب المفاهيم الطبية والفلسفية، وديج مئات الكتب والمقالات يشرح فيها مكتشفاته ويقدم آراءه.

وهذا الإنجاز الأخير ثبت مكانة أبحاثه وآرائه وغرسها فى تاريخ الطب. وانتشرت كتاباته انتشاراً واسعاً أثناء حياته، وكانت أعماله تُدرّس وتُجمع فى مكتبة الإسكندرية بحلول سنة ٥٠٠ م. وفى القرن التاسع شرع الباحث العرب فى جمع المخطوطات الإغريقية، وفى حوالى سنة ٨٥٠، جمع طبيب عربى يدعى حنين بن اسحق قائمة من ١٢٩ كتاباً من أعمال جالينوس. وبهذه الطريقة أصبح الطب فى العالم العربى معتمداً اعتماداً شديداً على آراء جالينوس. ثم حدث، بدءاً من أخريات القرن الحادى عشر، أن تُرجمت إلى اللاتينية ترجمات حنين مذيلاً بتعليقات عليها من أطباء عرب آخرين. وصارت تلك الترجمات اللاتينية هى أساس التعليم الطبى فى جامعات العصور الوسطى فى أوروبا الغربية. وفيما بعد تركت ترجمات لاتينية تُرجمت عن الأصول

اليونانية مباشرة، تأثيراتها على جيل جديد من طلبة الطب، كانوا متلهفين على تكرار تجاربه. ولسوء الحظ، بالنسبة إلى سمعة جالينوس، كشفت تلك الفترة الجديدة من الاهتمام بالتشريح عن قصوره كمشرح. فعندما أثبت أندرياس فيزالْيوس (Andreas Vesalius) (١٥١٤-١٥٦٤) المشرح المولود في بروكسل أن كثيراً من افتراضات جالينوس، التي كانت مبنية على تشريحه للحيوانات، كانت خاطئة تزعت مكانة جالينوس. غير أن آراء جالينوس عن الفسيولوجيا بقيت صامدة حتى فسرت أعمال هارفي دورة الدم الصحيحة.

وعلى الرغم من أن كثيراً من أعمال جالينوس قد ثبت عدم صحتها فإن تأثيره ظل مسيطراً على النظريات والممارسة الطبية في أوروبا من العصور الوسطى حتى منتصف القرن السابع عشر، وكانت أعماله عنصراً مهماً في تقدم العلم الحديث.

لزلى أ. ميرتز (LESLIE A. MERTZ)

Byers, Paula K. Encyclopedia of World Biography, 2nd ed. Detroit: Gale Research, 1998.

Magner, L. A History of the Life Sciences. New York: Marcel Dekker Inc., 1994.

May, M. T., trans. Galen: On the Usefulness of the Parts of the Body. 2 vols. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1968.

Mayr, E. The Growth of Biological Thought: Diversity, Evolution and Inheritance. Cambridge, MA: The Belknap Press of Harvard University Press, 1982.

Simmons, J. The Scientific 100: A Ranking of the Most Influential Scientists, Past and Present. Secaucus, NJ: Citadel Press (Carol Publishing), 1996.

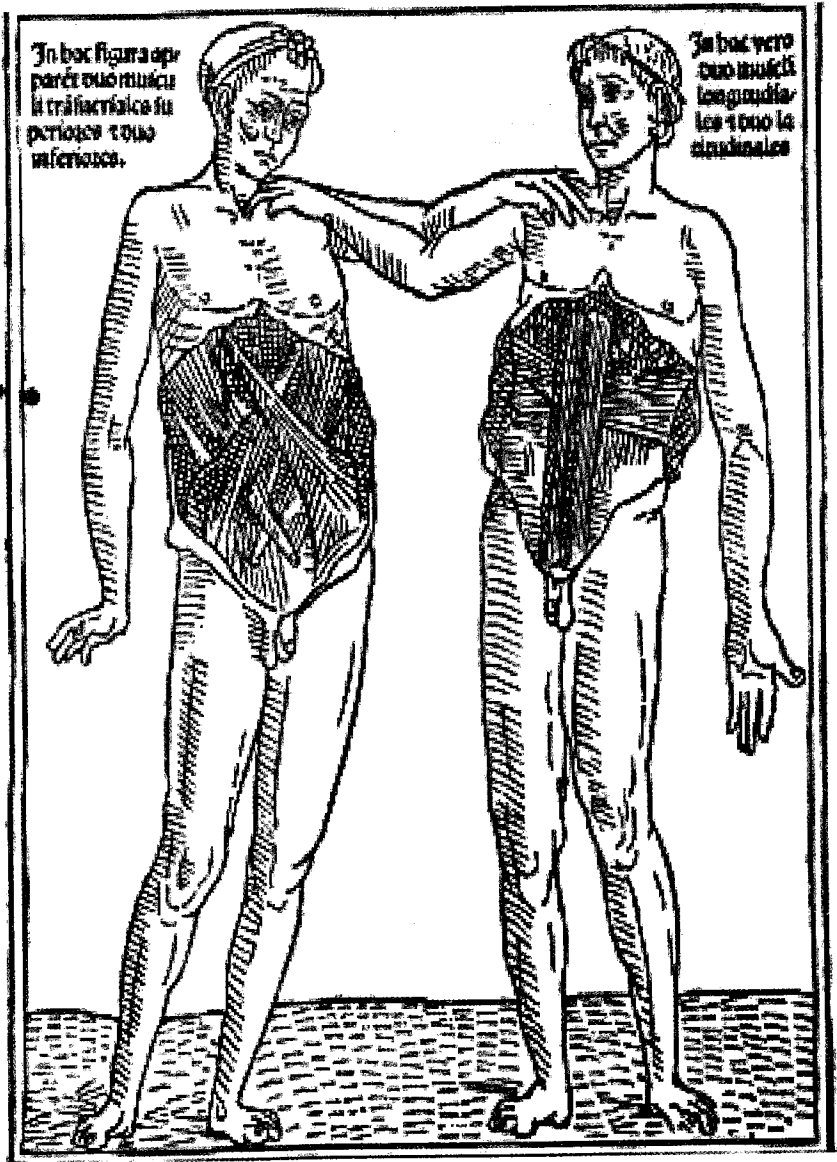
حقائق حول الصلب

إن الهدف من الصلب هو التوصل إلى موت بطيء ومؤلم. وربما يكون الفرس هم من اخترع تلك الوسيلة للإعدام، إلا أن الرومان هم من أتقنوها. ويبدأ التحضير للصلب بتعرية السجناء ثم جلدهم بسوط قصير من الجلد (flagrum) ذي أفرع متعددة تنتهي بكرات صغيرة من الرصاص مثبت بها قطع حادة من عظام الماعز كي تحفر في الجلد. وتتسبب الضربات التسعة والثلاثون في فقدان دم كثير وألم مبرح وصدمة عصبية، حيث يصير الشخص في حال من الضعف المتناهي. ووفقاً للتقاليد يُجبر الشخص على حمل الصليب (patibulum) إلى مكان تنفيذ الحكم.

وتتسبب المسامير الطويلة التي تُدق في العصب المتوسط لليد عند الرسغ، بهدف إحكام تثبيت الشخص على العارضة المستعرضة، في آلام مبرحة. ثم يتولى أربعة جنود رفع العارضة إلى وضع رأسي. وقد يتم تثبيت الأقدام أيضاً بالمسامير. وتؤدي إصابات الأعضاء إلى آلام شديدة تسرى في الذراع وتسبب تقلصات بالعضلات. وتحفر الحشرات طريقها في الجروح وتنهش الطيور الكاسرة الأعين والأذنين والأنف.

ويحدث شلل تنفسي كنتيجة رئيسية. وكنتيجة لتعليق الجسم تصاب العضلات بالإرهاق. فلا يتمكن السجن من التنفس بصورة جيدة ويتجمع غاز ثاني أكسيد الكربون في الدم. فيلهث طلباً للأكسجين. فإن كان السجن يمتلك مقدرة استثنائية على الاحتمال يقوم الجنود بكسر الساقين تحت الركبة. وعندها تفقد الضحية قدرتها على دفع الجسم إلى أعلى للمساعدة على التنفس فيختنق في النهاية.

إيفيلين ب. كيللي (EVELYN B. KELLY)



رسم تشريحي لعضلات جدار البطن من العصور الوسطى

الطب العسكرى فى روما القديمة

نظرة شاملة

يُنسب إلى الطبيب الإغريقى الأشهر أبقراط (ح ٤٦٠-٢٧٧ ق.م.) فى كتاباته عن الجراحة، أنه قال "من أراد أن يتمرس فى الجراحة فعليه بالمشاركة فى الحروب". وكان أبقراط يعنى أنه فى الحروب فقط يتعلم الطبيب كيف يخلق جرحاً، ويعرف شيئاً عن التلوث، وعن تشريح الجسم الإنسانى، ويكتسب مهارة فى استخدام الآلات الجراحية وغيرها من الآلات الطبية التى يحويها صندوق معداته. وعلى الرغم من أن العناية بالجنود الجرحى لم تكن دائماً محور اهتمام القواد العسكرىين القدامى، فإنها كانت سمة مميزة للجيش الإغريقى. ومنهم تعلمت الجيوش الأخرى. ولم يحدث إلا نتيجة للتأثير العميق للأفكار الإغريقية الخاصة بالطب العسكرى، أنه بحلول القرن الأول الميلادى، صارت فنون الطب العسكرى الرومانى تضارع فنون إدارتهم للمعارك التى دارت على ثلاث قارات على مدى أربعمئة عام.

الخلفية

لم تكن الفيالق الرومانية، قبل تغلغل التأثيرات الإغريقية، تحوى أى خدمات طبية احترافية منظمة. وكان الجرحى من الجنود يعتنى بهم زملائهم من الجنود. وقبل القرن الأول الميلادى كانت ثمة تفرقة واضحة بين الجنود الرومانيين المرضى والجنود الجرحى، وأحياناً كان الجنود المرضى يلقون شيئاً من العناية الطبية. ولم يحدث إلا فى عهد الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى أن أصبح المساعدون

الطبيون' (medici)) يعتنون بالجرحى من الجنود. ولم يكن المساعدون الطبيون' أطباء مدربين ولكنهم كانوا يستطيعون تضميد الجروح ويجرون بعض العمليات الجراحية البسيطة.

ويمكننا أن نفهم الكثير عن تاريخ الطب العسكرى من خلال الآثار التى اكتُشفت أثناء عمليات التنقيب فى مواقع القلاع والمعسكرات القديمة. وعُثر على العديد من الآلات والأدوات الطبية والجراحية التى كانت تستخدمها الجيوش الإغريقية والرومانية فى مواقع أثرية، ومن اللافت للنظر أن الكثير منها لا يختلف كثيراً عن الآلات المماثلة المستخدمة اليوم.

ويُعتقدُ أن الجيوش الرومانية بدأت تسير ومعها أطباء مدربون وتقيم مستشفيات ميدانية أيام جالينوس (ح ١٢٩-٢١٦م)، وهو طبيب إغريقى ذائع الصيت كتب بإسهاب فى الفنون الطبية والعناية بالجروح. ويبدو أن الأطباء الرومان، إضافة إلى علاجهم للجروح، كانوا على دراية واسعة بالأقرباذين: فقد كانوا على دراية بالنباتات الطبية ويقومون بتحضير دوى لمستحضرات طبية، كما كانوا ينصحون بأطعمة تساعد على الشفاء كى يسرعوا بعودة الجنود المرضى والمصابين إلى الصفوف.

ويأتى الجانب الأعظم من معارفنا عن الطب العسكرى الرومانى من مصادر متعددة، منها كتابات جالينوس، الذى كان يرعى المجالدين، ومن كتابات سلسوس (٢٥ ق.م. - ٥٠ م) ويول الإيجينى (بولس الإجناطى عند العرب) (ح ٦٢٥-٦٩٠م)؛ ومن التنقيبات الأثرية للقلاع الرومانية ومواقع المعارك الحربية.

التأثير

كانت الفيالق الرومانية منظمة أحسن تنظيم وذات كفاءة عالية المستوى. وفى الوقت الذى أصبحت فيه الخدمات الطبية العسكرية الرومانية جزءاً أساسياً من الفيالق، كانت قد صارت أيضاً فائقة التنظيم والكفاءة. وتعتقد غالبية المصادر أن

الخدمات الطبية الرومانية قد وسعت من نطاق الأهداف المتعددة للعسكرية الإغريقية وزادت عليها .

كتب المؤلف الروماني فيجيتيوس (Vegetius) يقول إن الجيش الروماني يجب المحافظة عليه بتزويده بمياه شرب جيدة ونظيفة، مع الأخذ في الاعتبار بتغيرات الفصول، وبالإستعانة بالطب، وممارسة الجنود للتدريبات. وكان فيجيتيوس يقصد أن يقول إن على القواد ألا يتركوا الجنود يسيرون تحت الشمس المحرقة أو في جو قارس البرودة، وأن عليهم تزويد القوات بمياه الشرب النظيفة في كل الأوقات. وهو يكرر القول بأن الجنود المرضى يجب أن يستردوا صحتهم بالغذاء المناسب وأن تشفى أمراضهم مهارة الأطباء. وبالمثل، كان من الأمور المعروفة أن الجنود قد يمرضون من كثرة الأكل بعد مرورهم بمجاعة. وأهم شيء، وهو الأمر الذي تدركه اليوم أحسن جيوش العالم، أن صفوف الجيوش الرومانية كان لا يدخلها إلا أفضل الجنود لياقة جسمانية، الذين كان عليهم أن ينجحوا في اختبار طبي قبل الدخول في الخدمة.

وفي الأيام الأولى للطب العسكري الروماني لم تكن هناك تفرقة كبيرة بين الخدمات الطبية والبيطرية، وكانت المستشفيات تقام للبشر جنباً إلى جنب مع مستشفيات الحيوانات. وفيما بعد، عندما أصبحت الخدمات الطبية الرسمية على درجة من التنظيم العالي المستوى مثل بقية أفرع الجيش الروماني، تعين قائد (praefectus castrorum) يتولى المسؤولية العامة للخدمات الطبية. وكان قواد المستشفيات (optio valentudinarii) مسئولين عن إدارة المستشفيات في قلاع الفيالق. وكان المصابون من الجنود يعتنى بهم مساعدون طبيون يُطلق عليهم «كابساري» (capsarii)، يحملون صناديق الضمادات.

أما الضابط الطبي الروماني (medicus) فكان طبيباً مكتمل التدريب وتحت إمرته أفراد الطاقم الطبي. وكان الكثير من هؤلاء الضباط إغريقاً أو مدربين تدريباً إغريقياً. وفيما بعد صار جراحو الجيش الروماني يُمنحون لقب «سيد» (magister) وتشير

الوثائق إلى أن المؤن الطبية والعربات حاملة الجرحى كانت توضع فى منتصف الطوابير السائرة.

كانت إزالة الشظايا من الجسم من أكثر العمليات الطبية شيوعاً، وكانت أغليبيتها سهاماً وبعضها كان خرزاً رصاصياً أو حصياً قُذفت من المقاليع (جمع مقلاع). وكثيراً ما كانت تخرق اللحم وتستقر فيه. والأدوات التى كان الأطباء العسكريون الرومان يستخدمونها لاستخراج الشظايا لا تعد ولا تحصى فى حد ذاتها.

عثر الأثريون على أدوات طبية فى القلاع ومواقع المعسكرات الرومانية يمكن تصنيفها إلى مسابر (جمع مسبر) وملاقق (لمزج المعجونات) وملاقق وملاقق ومباضع (جمع مبضع) ومشارط رمحية الشكل وإبر مستقيمة ومنحنية، وقوارير زجاجية طبية وأوانى صغيرة وعلب للمراهم. وفى بادن بألمانيا هناك موقع يعتبر أغزر موقع أثرى للخدمات الطبية، حيث تم الكشف عن بقايا مستشفى عسكري روماني. وعُثر فيه على مناظير للأذن وقساطر وملاقق وغير ذلك من الأدوات الطبية. ودلت العملات التى عُثر عليها بجوار الأدوات الطبية على أن القلعة كانت حافلة بالنشاط فيما بين ١٠٠م و٢٠٠م.

وهناك مستشفى عسكري آخر تم الكشف عنه فى فيترا (Vetera) (وهى الآن زانتن Xanten بألمانيا)، وكشف عن عنابر وحجرات مليئة بالأدوات الطبية والحقائب الجراحية وغرف للنقاهاة وربما مشرحة للموتى. ومن بين ما كُشف عنه من أدوات هناك روافع صغيرة وملاقق جراحية يعتقد أنها كانت تُستخدم فى استخراج الشظايا من الجسم ومسابر ذات ثلم (أى شق صغير) ربما كان تُستعمل فى استخراج رؤوس السهام بعد كسر جذع السهم. وعلى الرغم من أن الجراح بولس الإجناتى قد عاش بعد انقضاء أيام أوج الفيالق الرومانية، فإنه وصف كيفية استخراج الحصى وغيرها من مقذوفات المقاليع باستخدام منظار الأذن، بعد تحويله لهذه المهمة بإضافة ملعقة.

وتشير وثائق الجيش الروماني إلى أن سلسوس (Celsus) اقترح استخدام 'مقتلعات الأسلحة'. فقد لاحظ سلسوس أن المقذوفات التي تدخل الجسم وتلتصق بداخله 'عادة ما يكون من الصعب استخراجها' بسبب شكلها أو حجمها أو الطريقة التي اخترقت بها الجسم. وكتب يقول: 'فإذا كانت رأس السلاح قد التصقت باللحم، فيجب جذبها باليدين أو بجذب جذع السهم إذا لم يكن قد انكسر. فإذا كان قد سقط نجذب الرأس بواسطة جفت ذى أسنان'. ومضى سلسوس قائلاً إنه عندما يشاهد جرحاً قابلاً للشفاء فإنه يفكر في أمرين: أن يمنع حدوث نزيف وأن يتجنب حدوث التهاب. واقترح استخدام الخل كي يوقف سيلان الدماء ولكنه عاد فقال إنه لكي نمنع الالتهاب يجب أن نترك الدم يسيل. وذكر أن الالتهاب تشتد احتمالاته عندما تصاب العظام أو الأوتار أو الغضاريف أو العضلات. وقرر أنه 'لو كان الجرح في جزء لين فلا بد من خياطته'. ولكن إذا كان الجرح متسعاً فالخياطة لا تناسبه'. وكتب سلسوس أيضاً عن الضمادات، مفضلاً ضمادات من كتان عريض 'يبلغ عرضها مبلغاً تكفى معه لفة واحدة لتغطية لا الجرح فحسب وإنما مسافة بعد حافتي الجرح من الجهتين'.

كما ساهمت أيضاً فنون الصناعات الرومانية في موضوع علاج الجروح، فقد ظهرت سبائك جديدة من البرونز والفضة أتاحت صناعة آلات ذات حواف أكثر حدة وأقل تكلفة. ولم يكن الحديد يستخدم في الآلات الطبية بسبب قابليته للصدأ. وتصور الأعمال الفنية وكذلك الشعر قبل القرن الأول الميلادي مباشرة وبعده، تصور أطباء الجيش الروماني وهم يستخرجون السهام من الجنود.

كما كان الأطباء العسكريون الرومان يجرون عمليات البتر أيضاً. ولعل سلسوس كان واحداً من أوائل الجراحين العسكريين الذين ناقشوا فوائد البتر فوق الأنسجة التي أصيبت بأضرار أو من خلالها. وكان يؤيد البتر في أنسجة سليمة ثم نشر العظام بالمنشار أقرب ما يكون إلى الأنسجة السليمة، مع ترك جزء من الأنسجة السليمة يكفى لتكوين سديلة (أي غطاء) تغطي العظم.

ويتفق غالبية المؤرخين على أنه لم تكن ثمة حاجة إلى وجود حرفيين متخصصين في صناعة الآلات الطبية، ولكن الأطباء ربما كانوا يجدون حرفيين يستطيعون تنفيذ ما يصفونه لهم.

كما كان عند أطباء الجيش الروماني أيضاً دراية قوية بالأقرباذين. والكثير من العقاقير التي ذكرها سلسوس لا تختلف كثيراً عما نجده اليوم من عقاقير تُصنع لنفس الأغراض. وقد عثر الأثريون على بقايا خمسة نباتات طبية في تنقيباتهم في القلاع الرومانية. فقد عثروا على حشيشة «ورت سانت جون» (St. John's wort) المستخدمة في أمراض الدم؛ والحلبة المستخدمة في الكمادات؛ وثمر التين لعلاج الجروح؛ والموز الهندي لعلاج الدوسنتاريا. كما يُظن أن النبيذ الطبي كان مستخدماً أيضاً. ويعتقد بعض المؤرخين أن الساحة الموجودة أمام كل مستشفى روماني كانت مجهزة كحديقة لزراعة الأعشاب الطبية.

ومن الجائز أن نقول: "الجيش يسير على معدته" يعود تاريخها إلى العصور الرومانية. وتشير السجلات إلى أن الأطباء الرومان كانوا يدركون أن الغذاء المتوازن أمر ضروري لصحة القوات. وتعتقد المصادر أن الجنود الرومان كانوا يتناولون الذرة والخبز والنبيذ والفاكهة والخضروات الطازجة. وكان الخبز يُعتبر أكثر الأطعمة تغذية، وكان كل جندي يتلقى جارية من «الخبز العسكري» (panis militaris) وهو خبز مصنوع من الدقيق الأسمر. وكانت تُجهز وجبات خاصة بالمرضى والجنود المصابين. وكان البازلاء والعدس والتين من الوجبات الشائعة لعلاج المرضى.

كما كان أطباء الجيش الروماني يدركون أيضاً أن الجنود يجنحون إلى الإفراط في الطعام بعد الانتهاء من معركة أو بعد البقاء دون طعام لمدة طويلة. فقد كتب المؤرخ الروماني أبيان (Appian) بعد حصار موتينا (Mutina) في ٤٢ ق.م.، كتب يقول إن عدداً من الجنود سقطوا مرضى بسبب «الإفراط في الطعام». ولعل العلاج الروماني - وهو تناول مزيج من النبيذ وزيت الزيتون - قد عالج كثيراً منهم.

لم تكتف الآلات الطبية العسكرية الرومانية بالتأثير فى الأطباء العسكريين لمدة ألف عام تالية فحسب، وإنما تركت خبراتهم وسجلاتهم، وبخاصة ما تركه سلسوس وجالينوس، أثراً مباشراً على الجراحين العسكريين فى المستقبل، الذين أجروا تحسينات على فنون وعلوم الطب العسكرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

راندولف فيلمور (RANDOLPH FILLMORE)

لمزيد من القراءة

Campbell, Brian. The Roman Army, 31 B.C.-A.D 337: A Sourcebook. New York: Routledge, 1994.

Davies, Roy W. Service in the Roman Army. New York: Columbia University Press, 1989.

Milne, John Stewart. Surgical Instruments in Greek and Roman Times. New York: August M. Kelley, 1970.

Roth, Jonathan P. The Logistics of the Roman Army at War. Boston: Brill, 1999.

Zimmerman, Leo M., and Ilza Veith. Great Ideas in the History of Surgery. New York: Dover Publications, 1967.



رسم من مقبرة إغريقية قديمة يبين جندياً مصاباً بجرح في فخذه والدم يسيل منه

المستشفيات ومؤسسات العلاج فى العالم القديم

نظرة شاملة

يعود تاريخ مستشفيات اليوم ووسائل العلاج إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، عندما كانت المستشفيات العسكرية مجهزة لعلاج الجيش الرومانى ذى الأهمية القصوى. ولعل أكثر صور المستشفيات بدائيةً قبل ذلك كانت معابد الشفاء فى بلاد اليونان القديمة. وكانت معابد الشفاء أماكن مقدسة أقيمت لكى يتلقى المرضى المساعدة من الأرباب. وأحياناً كان ملحقاً بها حمامات عمومية وتجهيزات تماثل مراكز الاستشفاء، حيث يتولى الأطباء - الكهنة ممارسة طقوس العلاج والتدليك والعلاج بالأعشاب. وبصورة عامة، جمع الطب الإغريقى بين فلسفة العيش السليم والتدريبات الرياضية المنتظمة والغذاء الصحى والتدليك، مع تعزيز ذلك بالداواة بالعقاقير العشبية والزيارات المنتظمة لمعابد الشفاء للصلوات الطقوسية وتقديم الهبات. وكان المعتاد أن يقوم الأطباء والجراحون وغيرهم من التخصصات بإجراء العمليات الجراحية والبتير فى منزل المريض. وكانت كلتا الحضارتين الإغريقية والرومانية منغمستين فى حروب دموية طاحنة ووجدتا من الضرورى أن يتم تحسن فى العلاج الطبى للجروح والأمراض. وكانت الإمبراطورية الرومانية قد قامت على أكتاف قوتها العسكرية واعتمدت عليها، وعلى الرغم من أن المجتمع لم يكن ووداً مع الأطباء، فإنه قدم فكرة المستشفيات العسكرية وكذلك أفكار مياه الشرب النقية وأنظمة الصرف الصحى. وفيما بعد، ومع انتشار المسيحية فى أرجاء العالم الرومانى، نشأت مؤسسات خيرية للفقراء والمنبوذين اجتماعياً مثل المجذومين وضحايا الطاعون، وتحولت تدريجياً إلى مستشفيات خيرية تقدم العلاجات الطبية المختلفة للمرضى، وتتيح فرص التدريب

الطبي للأطباء فى مختلف المدن الرومانية. وعندما تدهورت الحضارة الرومانية وسقطت، تدهور معها التعليم والطب ومؤسسات الخدمات الطبية، ولم تتعاف، ولا حتى إلى المستويات التى وصلت إليها فى أخريات العصر الرومانى، إلا بعد عصر النهضة بفترة طويلة.

الخلفية

أنت معارفنا عن الفترة الزمنية التاريخية من ٢٠٠٠ ق.م. إلى القرون الأولى الميلادية من تنوع كبير من وثائق مكتوبة، وأعمال الفن والبناء، كما أنت أيضاً من العديد من المعتقدات الدينية والأسطورية. وقد بُنيت أقدم حضارات بلاد الرافدين ومصر وبلاد اليونان وروما على نجاحاتها العسكرية، وتفشت فيها الحروب بصورة دورية، وكانت معتمدة على العبودية والعبيد، وسيطرت عليها طقوس ديانات وثنية. وتحتوى وثائق الحضارتين المصرية القديمة والسومرية على تعليمات بشأن علاج الجروح الجسدية وتشمل عقاقير أساسها الأعشاب لعلاج مختلف الأمراض الداخلية. وكان طبهم ودياناتهم مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بل لا يمكن الفصل بينهما. وكانوا يتوسلون إلى الآلهة طلباً للمساعدة فى الحرب والشفاء، وكانت عقاقيرهم الطبية مزيجات عشبية ومن المرجح أن كانت محدودة الفاعلية. وكانوا يمارسون العرافة بتفصيح أحشاء الحيوانات، ويترنمون بالتعاون والرقى، ويقدمون التمانم، فى المعابد أو فى مذابح طقوسية. وكان الكهنة - الأطباء يمارسون علاجات طبية أكثر تفصيلاً فى منازل الأثرياء من المرضى، أو فى معبد يرتاده أبناء الطبقات الأدنى منزلة. وكانت هذه المعابد هى أقرب شبه بأى مؤسسة خدمات طبية فى حضارات البحر الأبيض والشرق الأوسط قبل القرن الأول ق.م.

ويدل قانون حمورابى على أن الطب السومرى كان يشمل وصفات طبية علاجية واستخدام الأدوات الطبية وتنظيمات مثل: تقاضى أتعاب وعقوبات على الأخطاء

العلاجية. وكان كلُّ من الطب المصرى والديانة المصرية منظمين فى مراتب هرمية تحت سيطرة الدولة، وشملت أفكارها عن الصحة الإيمان بأن الأمراض سببها الأرواح والتعفن المعوى أو الديدان. وكان الطب والدين على علاقة وثيقة: فكان الكهنة المعالجون يعالجون المرضى والمصابين، ويعطون العقاقير العشبية ومعها تعاويذ محددة وتمائم، وكانوا يحنطون أجساد الموتى. وكانت بعض الآلات الجراحية السومرية والمصرية تستخدم فى فتح الخراييج وكى التلوثات والجروح، بالمشاركة مع عقاقير متعددة ومضادات للتلوث من أصول نباتية ومعنوية. ولم تنشئ هذه الحضارات أية مؤسسات للعناية بالمرضى أو للعلاج.

ويطول القرن الخامس ق.م. أصبح الطب الإغريقى يمارس بواسطة رهنط من المعالجين الشعبيين والكهنة-الأطباء الذين كانوا يستخدمون مزيجاً من طقوس العرافة والرجم بالغيب واستخدام العقاقير العشبية. وفى حين تأثر الإغريق فى بادئ الأمر بالطب المصرى، إلا أنهم بدأوا يطورون أفكاراً فى الصحة والمرض أكثر انفتاحاً وعلمانيةً. وأكدت الثقافة الإغريقية فوائد التدريبات الرياضية العنيفة والغذاء المناسب لتنمية جسم سليم وعقل سوى، وتتضح مدى قدسية العلاج من اعتمادهم على آلهة الشفاء والمرض مثل أبوللو وابنه أسكليبيوس. وتدرجياً انتشرت عبادة أسكليبيوس واكتسبت أتباعاً فى كل أنحاء العالم الإغريقى، وبُنيت مئات المعابد الأسكليبية للشفاء يزورها المرضى والمصابون. وكانت تلك المعابد تقام فى أماكن صحية بالقرب من ينابيع المياه المعدنية، وكان كهنتها مدربين على استخدام حمامات المياه المعدنية والتدليك والغذاء والعقاقير العشبية. وكان المريض يقدم هبة ثم يتضرع إلى الآلهة ويسألها العون، ثم يقضى ليلته داخل المعبد، ولعله كان يستعين على ذلك بمركبات الأفيون، ثم يزوره الإله على هيئة حلم. ويستيقظ المريض فى الصباح ويقص حلمه على كاهن - طبيب الذى يتولى تفسيره، ثم يقدم الأضحية الحيوانية المناسبة ويعطيه عقاراً عشبياً بغرض الشفاء. وأصبحت معابد الشفاء مرتبطة بالحمامات أو المنتجعات، حيث تمارس الرياضة البدنية والتدليك وحمامات المياه المعدنية

وتُستخدَم مختلف العقاقير العشبية بغزارة مع الالتزام بالمعتقدات الإغريقية فى الغذاء المناسب والفلسفة الأخلاقية (بل قد يصل الأمر إلى العلاج النفسى). ومن غير المحتمل أن المزايا الوقائية والعلاجية لهذا التوجه العلاجى كان يمكن أن يتسبب فى أضرار وربما نتج عنها تحسن جوهرى فى الصحة فى أحوال كثيرة. وفى حين كان للمعالجين بأنواعهم المختلفة حوانيتهم وكان الأطباء والجراحون مرتبطين بعقود مع حوانيت الصيدلة، لم تكن ثمة مؤسسات يمكن اعتبارها مستشفيات عامة.

ويمكن اعتبار المدرسة الأبقراطية، التى كانت تنادى بدراسة المريض والمرض دراسة دقيقة، يمكن اعتبارها أول تقدم جوهرى فى الرعاية الطبية والعلاج، وكانت أول من فصل الطب عن الدين. طور أبقراط (٤٦٠-٣٧٧ ق.م.) وأتباعه نظرية فى الأمراض مبنية على الأسباب الطبيعية، وابتكروا نظاماً طبياً يهدف إلى إراحة المريض ومساعدته. وكان الطب الأبقراطى مبنياً على الزيارات السريرية والفحص الدقيق للمريض، مع علاج عقاقيرى حذر وأنظمة غذائية صارمة. وكان يرفض التدخل العنيف والإجراءات التى بها مخاطر، رغم أن الإخصائين المدربين على علاج الجروح والكسور وعمليات البتر كان مسموحاً لهم القيام بوظائفهم لو دعتهم الضرورة إلى ذلك. وكان أبقراط ينادى باتباع فلسفات أخلاقية مناسبة والاستحمام وممارسة الجنس والنوم باعتدال. غير أنه على الرغم من كل الاهتمام الذهنى بالطب، فإن الإغريق القدامى لم يبدون اهتماماً بالمستشفيات.

وتدريجياً تبنت الحضارة الرومانية نظام الطب الإغريقى، ولكن أكبر إسهامات روما فى الطب كان تنظيم مدارس للطب، والتعليم الطبى والأطباء العموميين وكذلك تطوير المستشفيات العسكرية والعامة. كما أنشأت المدن الرومانية أيضاً أنظمة للصرف الصحى وشيدت قنوات كبيرة للتزود بمياه الشرب النقية. وعندما سقطت روما، انهارت أنظمة الصرف الصحى، مما أدى إلى تفشى الأمراض المرتبطة به وعلى وجه الخصوص الملاريا. وبعد سقوط روما لم تشهد أوروبا حتى القرن السابع عشر وجود أى مستشفى عام أو أية مؤسسة طبية، ووقتها، أى فى القرن السابع

عشر، عاد مستوى الصحة العامة فى المدن إلى المستويات التى كانت روما تنعم بها أثناء ذروة مجدها.

التأثير

وفى الوقت الذى بدأت فيه جنود الطب الغربى تحفر لها مكاناً فى بلاد اليونان القديمة، بدأت تدريجياً عملية نزع الغموض عن الأمراض وانفصال المرض عن القوانين الدينية المقدسة. وكانت الحضارة اليونانية تسيطر عليها الحروب بين الدول-المدن المتجاورة، مما تطلب تحسیناً فى العلاج الطبى لجروح السهام والسيوف. وكان الأبطال الحربيون الإغريق يشتهرون أيضاً بمهارتهم فى العلاج، وكان هناك ارتباط أسطورى ودينى قوى بكل العلاجات الطبية.

كان الطب الذى يمارس فى القرن الثالث ق.م. طباً إغريقياً مع تأثيرات مصرية، وتوسعت المعرفة بتشريح الجسم البشرى وتحسن فهم وظائف الأعضاء تحسناً كبيراً بفضل التشريح البشرى الذى كان يجريه فى الإسكندرية كل من هيروفيلوس (Herophilus) (ح ٣٢٥-٢٨٠ ق.م.) وإيراستراتوس (Erasistratus) اشتهر ح ٢٥٠ ق.م.). وكان مستوى العلاج الطبى فى تلك الأوقات مماثلاً لمستواه فى القرن السابع عشر فى أوربا، غير أن كلا المجتمعين كان يفتقر إلى أى نوع من أنواع المستشفيات.

وكان الطب الذى يمارس فى روما طباً إغريقياً فى غالبية، مع وجود أطباء ذكور وإناث. وفى البدء، كان زعماء الرومان يتهمون الأطباء الإغريق الواقدين حديثاً بأنهم لا يزيدون إلا قليلاً عن كونهم قتلة مدفوعى الأجر. وكان الرومان يؤمنون بأن الأمراض والمجاعات والأوبئة هى عقاب من آلهة حانقة. ومع نمو الحاجة إلى تحسين الرعاية الصحية فى روما، ازداد انتشار الطب الإغريقى مع تزايد انتشار الطوائف الطبية

الإغريقية وعقائد العلاج. وكان سلسوس (٢٥ ق.م. - ٤٠م) يدعو إلى الاعتماد على النفس في الطب في كتابه «حول الطب»، وهو دليل لغير المتخصصين.

ومن الطبيعي أن الرومان أيضاً تبنوا نفس التوجهات الوقائية التي صادقت عليها الحضارة والطب الإغريقيين، وهى التدريبات الرياضية الملائمة والغذاء المناسب والحمامات، مع شيء من التوقير للآلهة وتقديم الهبات. ومع تحول المدن الصغيرة إلى مدن كبيرة بكثافة سكانية أكبر ومراكز تجارية، أدرك المسئولون العموميون الرومان الارتباط بين الأمراض والنظافة العامة. فكانت صوامع الغلال العامة تراعى فيها النظافة بصرامة؛ وفى مناطق رومانية عديدة أنشئت المراحيض العامة ومواسير المجارى للتحكم فى الصرف الصحي؛ وكذلك كانت مصادر مياه الشرب النقية من أهم أهداف مشاريع الأشغال العامة فى المدن الرومانية. وكتب فيتروفيوس (عاش فى القرن الأول ق.م.) منوهاً بأهمية مصادر المياه والقنوات التى بُنيت من أجل هذا الهدف، وهى لا تزال تعمل حتى اليوم فى بعض المناطق. وعلى الرغم من أن لا شيء من تلك الأبنية كان مستشفيات أو مؤسسات علاجية، فإنها كانت البشير بمؤسسات تُبنى لفوائدها الصحية للجمهور العام.

انتشرت قواعد النظام العسكرى والتحسينات التى طرأت عليه من ميادين المعارك إلى تطوير المستشفى العسكرى النمطى. فكان المرضى والجرحى يعالجون فى أبنية أقيمت لهذا الغرض، بها قاعات فسيحة وذات إضاءة جيدة بها حجيرات مستقلة وغرف أكبر تفتح على ممرات، وبها أيضاً حمامات ومراحيض وأماكن لتحضير الطعام. وكان الضباط والجنود الرومان يعاملون باحترام وتبجيل، ومن المؤكد أن ذلك انعكس على علاجهم الطبى. وعُثر على مستشفيات عسكرية رومانية على نهر الراين فى أقصى الشمال فى ألمانيا. وكانت الجروح تعالج بالجراحات والجبائر وأنايبب التصريف والمراهم. وانطبق ذلك أيضاً على المجالدين الرومان الذين كانوا يتلقون العناية من أفضل أطباء الرومان، ومنهم جالينوس (١٢٩ - ح ١٩٩م)، وكانوا يعالجون فى عيادات مخصصة لهم.

وعندما بدأت المسيحية تحل محل العقيدة الوثنية الرومانية، كان من بين أهم وسائل الإقناع وأقواها اهتمامها بالفقراء والمرضى والمعوقين، الذين كانوا يعدونهم بمعجزات المسيح الشفائية. وعلى الرغم من أن قوانين الكنيسة أخضعت الطب للاهوت والأطباء للكهننة، فإن الالتزام بالبر أصبح حافزاً بالغ القوة. وتحول الإحسان إلى المحتاجين فإن منازل للفقراء والمجنومين، مثل تلك التي أنشأتها كنيسة روما سنة ٢٥٠م. ووظفت المسيحية استخدام الآثار والزيت المقدسة والتعميد، وكذلك روايات القصص التوراتية عن معجزات الشفاء، ولكن كثيراً من المتحولين إلى المسيحية أرادوا أن يفعلوا ما هو أكثر من ذلك. فشرعت الكنائس والأديرة في المدن الرومانية في تولى عبء أعمال الخير والرعاية الطبية للفقراء والمعوزين. ويُعتقد أن القديس بازيل أسس في دير بانتوكراتور في مدينة قيصرية الإغريقية (٣٦٩م) في كابادوشيا التي كانت تحت السيطرة الرومانية أول مستشفى حقيقي (nosocomia). ويمكن اعتبار هذه المؤسسة البشير بمستشفيات اليوم الخيرية.

في روما، اشتهرت واحدة من تلميذات القديس جيروم بسبب أعمالها الخيرية التي لا تصدق. كانت فابيولا (ماتت ٣٩٩م) امرأة ثرية تحولت إلى المسيحية كرسبت وقتها وطاقاتها ومواردها للعناية بالمرضى والمعوزين في روما. ويقال إنها حملت بنفسها أقذر أشخاص وأشدهم بؤساً من الشوارع، وغسلتهم، ونُسب إليها أنها أنشأت عيادة طبية عامة للفقراء والمرضى في روما (٣٩٠م). وكذلك نشأت مستشفيات مهمة أسستها كنائس وأديرة في إديسا (٣٧٥) ومونت كاسينو (٥٢٩) وإيونا (٥٦٣) وإفيسوس (٦١٠) وسانت ألبانز (٧٩٤). وتحولت تلك المستشفيات إلى مجمعات ضخمة تعمل بها طبقات من الأطباء والإخصائيين، وبها مئات الأسرة وكذلك إماكنيات تعليمية ومنازل للفقراء والمسنين والمجنومين. وبحلول منتصف القرن السادس كان مستشفى أورشليم القدس يحوى ما يربو على ٢٠٠ سرير، وكانت مستشفى سانت سامسون بالقسطنطينية أكبر منه وبه غرف عمليات وإماكنيات لمختلف التخصصات الطبية.

وعندما اجتاحت الأريك القوطى روما فى ٤١٠م، عانت كل المدن الرومانية فى الجزء الغربى من الإمبراطورية من انهيار اقتصادى حاد. ومع تدهور أعداد السكان فى تلك المدن حل بالتعليم والطب مصير مماثل، وانزلت أوروبا إلى عدة قرون من التدهور والانحيار. واحتفظت الإمبراطورية الشرقية المتمركزة حول القسطنطينية بقوتها واستمرت فيها تعاليم الطب، مثلما حدث فى المجتمعات الإسلامية واليهودية البارعة. واستعاد الطب نشاطه فى تلك المناطق بإضافة أفكار جديدة إلى التعاليم الإغريقية والرومانية. غير أنه بدون ثروات الإمبراطورية الرومانية تدهورت أحوال المستشفيات فى منطقة البحر المتوسط وزالت من الوجود، ولم تعد إلا فى الفترة بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر، عندما نشأت مستشفيات المدن كمؤسسات خيرية بواسطة الأمراء الحاكمين والنبلاء فى أوروبا.

كينيث باربر (KENNETH E. BARBER)

لمزيد من القراءة

Clendening, Logan. Source Book of Medical History. New York: Dover Publications, Inc., 1942.

Porter, Roy. The Greatest Benefit to Mankind: A Medical History of Humanity. New York: W.W. Norton and Company, 1997.

Singer, Charles. A Short History of Anatomy and Physiology from the Greeks to Harvey. New York: Dover Publications, Inc., 1957.

سير حياة مختصرة

أبقراط من كوس (Hippocrates of Cos) طبيب وفيلسوف إغريقي

(ح ٤٦٠ - ح ٣٧٥ ق.م.)

يعتبر أبقراط بحق "أبو الطب". فكتابه والكتابات المنسوبة إليه، وكذلك الأساطير حوله والقسم المتعلق بأخلاقيات الطب الذي يحمل اسمه، كل ذلك لا يزال من المظاهر المهمة للطب الغربي حتى اليوم.

ووفقاً للأساطير الإغريقية أسكن أسكليبيوس إله الطب ابنه البشرى بوداريوس فى جزيرة كوس ببحر إيجه بعد حرب طروادة بقليل. ويقال إن أبقراط سليل مباشر لبوداريوس. وكل الذكور من ذلك النسل كانوا أطباء، ويطلق عليهم اسم الأسكليبياديين. وتعلم أبقراط الطب على يد كل من هيروديكوس من كنيديوس وهيراكليتوس. وربما يكون قد عاش وعلم فى كوس حياته كلها، ولكنه مات فى لاريسا بإقليم تساليا.

وكان أبقراط يوقر فى حياته كطبيب ومنظر وعالم. وكانت طرقه حانية وبسيطة وكثيراً ما كانت ذات أثر. وأدى به إيمانه بأن كثيراً من الأمراض الشائعة تسببها اضطرابات هضمية إلى أنه صار يصف أنظمة غذائية مبسطة أو علاجاً عشبياً خفيفاً للغالبية الساحقة من حالاته.

وكانت نظرية الأخلاط محورية فى تعاليم أبقراط حول وظائف الأعضاء. وهيمنت تلك النظرية، التى سجلها أرسطو ونقلها عنه جالينوس، على الفكر الطبى الغربى لمدة

٢٠٠٠ سنة. وطبقاً لتلك النظرية يكون الجسم صحيحاً عندما تتوازن السوائل الأربعة التي تحكمه، ولكن المرض ينتج عندما يختل توازنها. وتلك السوائل الأربعة، أو الأخلاط، هي: المرارة الصفراء وهي ساخنة وجافة؛ والمرارة السوداء وهي جافة وباردة؛ والبلغم وهو بارد ورطب؛ والدم وهو رطب وساخن. والأخلاط مستمدة من العناصر الأربعة: النار وهي ساخنة وجافة؛ والتراب وهو جاف وبارد؛ والماء وهو بارد ورطب؛ والهواء وهو رطب وساخن؛ وكذلك تتخذ الأخلاط صفات مستمدة من الصفات الأربعة الأساسية وهي الجفاف من مزيج من النار والتراب؛ والبرودة من مزيج التراب والماء؛ والرطوبة من مزيج الهواء والنار؛ والحرارة من مزيج الهواء والنار. وينتج عن الأخلاط الأمزجة الأربعة: المزاج الصفراوي، عندما تسود الصفراء؛ والسوداوي، عندما تسيطر السوداء؛ والبلغمي عندما يهيمن البلغم؛ والدموي، عندما يسيطر الدم. وتتوافق تلك التخطيطات مع الفصول الأربعة: فالصيف ساخن وجاف؛ والخريف جاف وبارد؛ والشتاء بارد ورطب؛ والربيع رطب وساخن. وعندما كان أبقرراط يعالج مريضاً كان يسعى إلى شفائه باستعادة التوازن بين الأخلاط.

أما قسم أبقرراط الذي لا يزال الطبيب الحديث يقسم به بأن يتمسك بأخلاقيات المهنة، فيكاد يكون في حكم المؤكد أنه ليس من تأليف أبقرراط. ويبدو أنه نتاج فلسفة طبية فيثاغورية تالية.

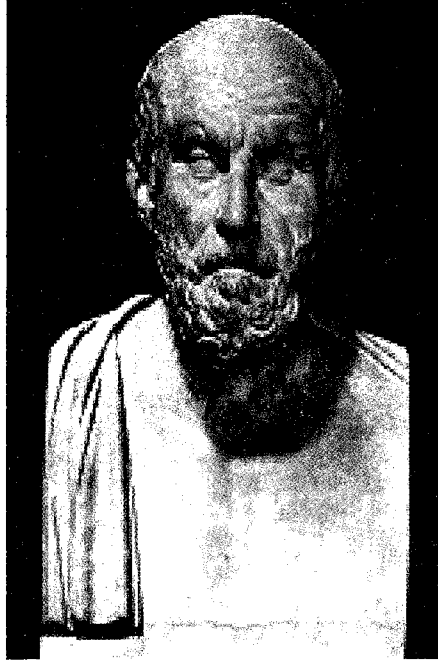
وهناك ما يقرب من ٦٠ عملاً تُنسب إلى أبقرراط، رغم أنه من المستحيل تحديد أيها كتبه هو فعلاً. وتقرر المصادر القديمة أنه كتب حوالي ٧٠ كتاباً. وتغطي موضوعاته كل مجالات الطب - التشريح والفسولوجيا وغيرها من العلوم الطبية؛ وأمور إكلينيكية تتناول الطب الباطني، وطرق تشخيص الأمراض الداخلية، وعلم الأمراض (الباثولوجيا)، وأمراض النساء، وأمراض الأطفال، والأقرباين والتغذية وأخلاقيات الطب وفلسفة الطب. ويتفق المؤرخون بصفة عامة على أن مجموعة الأعمال التي نسبت في وقت ما إلى أرسطو كانت تشكل مكتبة مدرسة للطب ربما كانت مكتبة مدرسة كوس. ثم جلبت الكتب إلى مكتبة الإسكندرية بمصر خلال القرن الثاني أو

الثالث ق.م.، حيث روجعت ثم جُعِلت متاحة للأوساط الطبية فى جميع أرجاء العالمين الهلينيستى والرومانى.

وتتسم أعمال أبقراط باهتمام متعمد وأبوى بمرضاه ويفنه، وبتقييم متنور ولكنه هادئ لطبيعة كل الأشياء. وفى كتابه "الأقوال الماثورة" كتب يقول إن الحياة قصيرة والفن طويل والفرص تتلاشى والتجربة خطيرة والحكم صعب. واستخدم كتاب متباينون تلك التعبيرات، مثل: سنيكا المسرحى الرومانى الرواقى (الفنون طويلة والحياة قصيرة) (*ars longa, vita brevis*)، وجيوفرى تشوسر شاعر القرون الوسطى الإنجليزى (*The lyfe so short, the craft so long to lerne*).

ويمكن تلخيص أفكار أبقراط عن العلاج الطبى فى النصيحة التى كتبها فى كتابه "الأوبئة". فقد قرر أن الأطباء إذا لم يستطيعوا معالجة المرض فعليهم أن يتأكدوا أنهم لن يتسببوا فى تفاقمه على أقل تقدير. وحدث خطأ فى ترجمة تلك النصيحة إلى اللاتينية وصارت (*Primum non nocere*) التى تترجم عادة بكلمات "أولاً لا تتسبب فى الضرر".

إريك ف. د. لوفت (ERIC V.D. LUFT)



أبقراط

أرسطو (Aristotle) فيلسوف إغريقي

(٣٨٤-٣٢٢ ق.م.)

بجميع المقاييس يحتل أرسطو مكانة رفيعة بوصفه واحداً من أكبر العبقريات التي عاشت على ظهر الأرض. فقد أعاد تشكيل فلسفة أفلاطون ووضعها على أساس منهجي صلب. وصاغ قواعد علم المنطق وعلم النفس وعلم الأجنة، وأسهم إسهامات مهمة في دراسات علم الحيوان والطب والتشريح والفسولوجيا وغيرها من علوم الحياة.

ولد أرسطو في ستاجيرا، وهي بلدة ساحلية في شمال بلاد اليونان. وكان أبوه نيكوماكوس طبيب القصر للملك أمينتاس الثالث ملك مقدونية. وكانت أمه فياستيس من عائلة شهيرة بمدينة تشالكيس في جزيرة إيوبوا اليونانية. ومات أبواه وهو صغير. فنشأ في كنف بروكسينوس عمه المثقف، الذي علم الصبي تعليماً متعدد الاتجاهات.

وفي سنة ١٧ التحق أرسطو بأكاديمية أفلاطون في أثينا. وأصبح تلميذاً ومساعداً لأفلاطون لمدة ٢٠ سنة، حتى مات أفلاطون سنة ٣٤٧ ق.م. ولما خاب أمله في سبوسيبوس (Speusippus)، الذي خلف أفلاطون في رئاسة الأكاديمية، قبل أرسطو دعوة هرمياس (Hermeias) ليُعلم في مدينة أسوس (Assos) بتركيا. ثم تزوج من بيثياس ابنة هرمياس وأنجبا ابنة، أسماها بيثياس أيضاً. وفي سنة ٣٤٥ ق.م. انتقل أرسطو إلى الجزيرة اليونانية لسبوس (Lesbos) حيث بدأ تعاوناً مع ثيوفراستوس (Theophrastus) (٣٧٢-٢٨٧ ق.م.)، الذي أصبح أُنبه مريديه.

وفي سنة ٣٤٣ ق.م. استأجر الملك فيليب الثاني ملك مقدونية أرسطو كي يقوم بتعليم ابنه الإسكندر ذي الثلاثة عشرة سنة، وهو الذي أطلق عليه فيما بعد اسم الإسكندر الأكبر. واستمر أرسطو يعلم الإسكندر حتى سنة ٣٤٠ ق.م.، عندما أصبح

الأمير ملكاً. وبقي الإسكندر صديقاً وحامياً لأرسطو، وابتداءً من سنة ٣٢٥ ق.م. كان يرسل إليه عينات بيولوجية من كل البلاد التي فتحها.

وفى وقت ما بين ٣٤٠ ق.م. و٣٢٦ ق.م. عاد أرسطو إلى ستاجيرا مسقط رأسه، ولكنه عاد إلى أثينا سنة ٣٢٥ ق.م. حيث أسس مدرسته الخاصة، الليسيوم (Lyceum) لينا فس بها الأكاديمية. وتُعرف مدرسة أرسطو الفلسفية باسم "المشائية" (Peripatetic)، إما لأنه كان معتاداً على التجول على مهل أثناء إلقائه لمحاضراته (الكلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية بريباتين [peripatein] ومعناها المشى ذهاباً وجيئةً)، أو لأن المحاضرة كانت تعطى في البريباتوس [peripatos] وهو المشى المغطى في المضمار الرياضى. ولما ماتت زوجته بيثياس أقام أرسطو علاقة من امرأة ستاجيرية تدعى هرپيليس (Herpyllis) وأطلقا على ابنيهما اسم نيكوماكوس على اسم والد أرسطو.

ولما مات الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٣ ق.م. قامت ثورة في أثينا ضد مقدونية. ولما كان أرسطو له علاقات مقدونية طويلة الأمد وكان صديقاً لحاكم أثينا المقدوني، فقد أحس بالخطر على حياته. فلجأ إلى منزل أسرة والدته في جزيرة إيوبوا، ويقال إنه ذكر أنه يغادر أثينا كي يجنب الإثينيين أن يرتكبوا نفس الخطأ ضد الفلسفة مرتين (فى إشارة منه إلى سقراط بوصفه الضحية الأولى). ومات بعد ذلك بعام من مرض فى المعدة.

وعلى الرغم من أن أرسطو كان يكتب باليونانية فإننا سنشير إلى عناوين كتبه ما باللاتينية أو الإنجليزية. وليس من الممكن عمل ترتيب زمنى لأعماله. فلم يتبق إلا أقل من نصف ما كتب، وربما كان كثير منها قد كتبه تلاميذه وهم ينسخون محاضراته.

وفى مجال العلوم الطبيعية وفلسفاتها، كتب أرسطو: "الفيزياء"، "حول النشوء والفاء"، "عن السماء"، "الأرصاد الجوية"، "عن التنفس"، وشملت أعماله فى دراسات

الحيوان "تاريخ الحيوانات"، "حول أجزاء الحيوانات"، "حول حركة الحيوانات"، "حول نشأة الحيوانات"، "حول مشية الحيوانات". وهناك ثمانية من أعماله القصار في علوم الحياة، هي (عن الإحساس والأشياء المحسوسة، حول الذاكرة والتذكر، عن النوم والاستيقاظ، عن الأحلام، حول التنبؤ بواسطة الأحلام، حول طول وقصر الحياة، عن الفتوة والكهولة، عن التنفس) وأطلق عليها جميعاً اسم "المجموعة الطبيعية" (Parva Naturalia).

وكتب أرسطو أربعة كتب عن الأخلاق هي: "الأخلاق النيكوماكية"، "الأخلاق الإيوديمية"، "الأخلاقيات الكبرى"، "السياسة"، وكتابين عن فلسفة الفنون هما "البلاغة" و"علم الجمال". أما كتبه الستة في علم المنطق، "المقولات"، "حول التفسير"، "التحليل المسبق"، "التحليل اللاحق"، "موضوعات"، "التفنيد السفسطائي"، فيطلق عليها مجموعة الأورجانون (Organon) ويعتبر كتابه "حول الروح" أول كتاب في علم النفس. وكان لكتابه "الميتافيزيقا"، وهو عمل من التخمين الفلسفي البحث على أسس من الملاحظات العملية، كان له تأثير هائل على الفلسفة واللاهوت الغربيين.

إريك ف. د. لوفت (ERIC V.D. LUFT)



أرسطو

أسكليبيادس من بيثينيا (Asclepiades of Bithynia) طبيب وفيلسوف إغريقي
(١٢٤٤-٤٠٩ ق.م.)

ولد أسكليبيادس في بروسا (Prusa)، في بيثينيا (في تركيا الحديثة)، في حوالي ١٢٤ ق.م. وكانت بيثينيا وقتئذ جزءاً من بلاد اليونان وأصبح أسكليبيادس واحداً من أعمق أطباء اليونان تأثيراً في التاريخ. وعلى غرار كثير من الأطباء الإغريق عمل أيضاً بفرارة في مجالات العلم والفلسفة. وسبق أسكليبيادس جالينوس (١٢٩-١٩٩٢م) في إحداث تأثير عميق على مرديه حتى بدأ جالينوس في الهيمنة على الطب الإغريقي سنة ١٦٤م.

كان أسكليبيادس من أتباع الفيلسوف ديموكريتوس (Democritus) (٤٦٠-٣٧٠ ق.م.)، الذي ابتدع النظرية الذرية أثناء القرن الخامس ق.م. وترمى النظرية الذرية إلى تفسير ظواهر مركبة، تشمل مظاهر عديدة في الطبيعة، عن طريق تجمع وحدات من الجزيئات الثابتة. وطبق أسكليبيادس تلك المفاهيم الأساسية على الفكر الطبي وأصبحت آراؤه مناقضة تماماً لأفكار أبقراط (٤٦٠-٣٧٧ ق.م.)، الذي ربما كان أهم طبيب في التاريخ. وكان أبقراط يؤمن إيماناً قوياً بالقوى الشفائية للطبيعة وأيد نظرية الأخلاط في الطب. وهذه النظرية تقول بأن هناك أربعة أخلاط في الجسم: الدم والبلغم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء. والشخص الطبيعي عنده تلك الأخلاط ممتزجة بالنسب الصحيحة، بينما تختل تلك النسب عند الشخص المريض. وكان هدف الأطباء هو إعادة الأخلاط إلى توازنها الطبيعي ومن ثم يسترد المريض صحته.

غير أن أسكليبيادس ربط تعاليمه الطبية بالمذهب الذري بروابط عميقة. وهذا النوع المحدد من الفلسفة يخضع لتطبيقات العلوم الطبيعية وهو في الحقيقة مكوّن أساسي من مكونات كوننا المادي المعروف. وتتحدى هذه الفلسفة بأن الكون المادي مصنوع من جزيئات دقيقة لا يمكن كشفها ولها أشكال متعددة وهي السبب في

الاختلافات المرئية. وبسبب ذلك، فإن المنطق يفرض أن أية تغيرات في المظهر المرئي لا بد وأن يكون سببها تغيرات في تلك الجزيئات الدقيقة. ولهذا كان أسكليبياس يؤمن بأن الأجزاء أكثر أهمية من الكائن المتكامل.

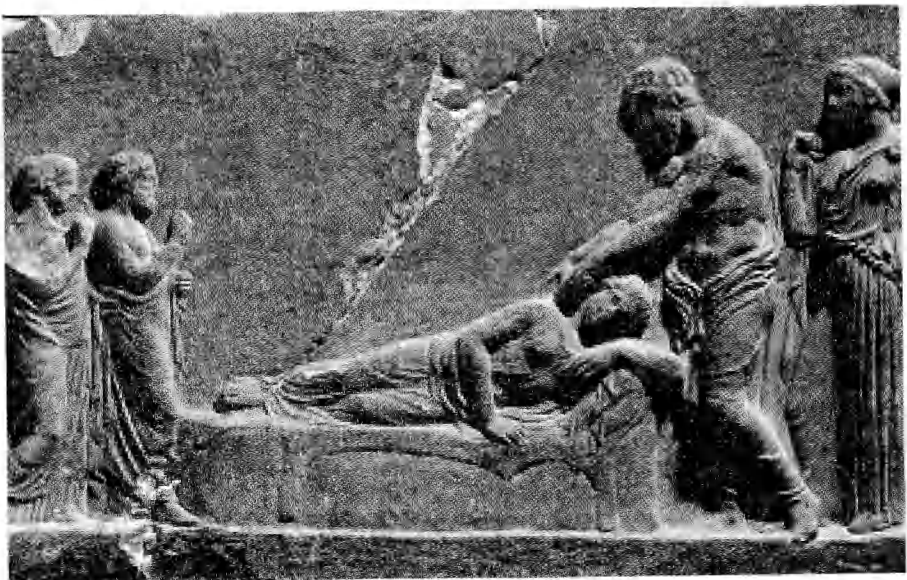
وبالتحديد كان أسكليبياس يؤمن بأن المرض ينتج إما من حالات انقباض الجزيئات الصلبة الدقيقة التي يتكون منها الجسم أو من انبساطها. ولهذا السبب كان يجادل بأنه لا وجود للقوى الشفائية للطبيعة، وأن العلاج يجب أن يبدأ بأسرع ما يكون. وهذا العلاج يجب أن يكون مقبولاً من المرضى وأمناً لهم. وكان يعتقد أن العلاج المناسب سوف يستعيد التوازن داخل الجزيئات الصلبة المعطوبة. وكانت أنماط العلاج تشمل الهواء النقي والغذاء المعالج والعلاج بالمياه والحمامات والتدليك والتمارين الرياضية.

وكان أسكليبياس يدافع عن المصابين بأمراض عقلية. وأجرى بحوثاً مستفيضة عن الأحوال العقلية وفهم بوضوح الفرق بين الهلوسة والأوهام. وأوضحت له نظريته عن الأمراض أن أولئك المرضى العقلين يعانون من المرض بسبب اختلال في الجزيئات. وحاول أن يعالج تلك العلال العقلية بأسلوب إنساني. وفي تلك الآونة كان المتعارف عليه أن من يُعتبرون مجانين يُحتجزون في أماكن مغلقة ومظلمة. وكان أسكليبياس مقتنعاً بأن ذلك لن يؤدي إلا إلى مزيد من اختلال الجزيئات، ولهذا نادى بإطلاق سراحهم من تلك الأماكن. ثم أخذ يعالجهم بأنظمة علاجية كان مقتنعاً بأنها ستعيد إليهم التوازن، مثل العلاج المهني والموسيقى والنبيذ والتمارين الرياضية. وهو يُعتبر رائداً في المعاملة الإنسانية الكريمة لأولئك المصابين بأمراض عقلية.

وهناك إسهام مهم آخر أسهم به أسكليبياس هو الدور المتكامل الذي لعبه في سبيل تقبل روما للطب الإغريقي. فقد اتخذ له سكناً في روما، حيث أخذ يمارس فنونه العلاجية. وبلغ من عظم تأثيره الإيجابي أن الطبيب الروماني أولوس كورنيليوس سلسوس (Aulus Cornelius Celsus) (القرن الأول م) كتب تقريراً كلاسيكياً عن الطب

الإغريقي في كتابه "الطب" (De medicina) واستمر أسكليبيادس يسهم إسهامات عميقة في مجاله حتى وفاته في روما حوالي سنة ٤٠ ق.م.

جيمس ج. هوفمان (JAMES J. HOFFMANN)



أسكليبيادس يعالج مريضاً

ألكمايون (Alcmaeon) منشرح إغريقي وطبيب وفيلسوف

(من القرن السادس ق.م.)

يوصف ألكمايون بصورة عامة بأنه من تلاميذ فيثاغورس (٥٨٠ق.م-٥٠٠ ق.م.)، وأنه عضو في المجتمع الفيثاغورسي، وطبيب ذو اهتمام خاص بالمسائل البيولوجية. غير أنه لا يُعرف إلا أقل القليل عن حياته وأعماله وكتاباتهِ. وشكك علماء مختلفون في الاكتشافات التي تُنسب إليه. وكتب أرسطو (٢٨٤-٢٢٢ ق.م.) مقالة بعنوان "ضد ألكمايون" غير أنه لم يتبق من ذلك النص سوى شذرات متناثرة. وينتسب ألكمايون إلى مدينة كروتون (هي الآن كروتونا) في جنوب إيطاليا، وهو ابن بيريثوس (Perithous)، وكان شاباً صغيراً أثناء شيخوخة فيثاغورس، حسبما ذكر أرسطو. وافترض أغلب الكتاب اللاحقين أنه كان فيثاغورسياً، ولكن أرسطو لم يذكر صراحة أنه كان عضواً بالجماعة الفيثاغورسية. إلا أن أرسطو ذكر أن ألكمايون إما أنه استوحى نظريته عن الأضداد من الفيثاغوريين وإما أنهم استقوا النظرية منه. ويبدو أن ألكمايون قرر أن الآلهة على يقين من الأمور الخفية والأخلاقية وهي أمور لا يملك البشر بشأنها إلا التخمين.

وعلى الرغم من أن ألكمايون كتب في شئون طبية أساساً فإن بعض العلماء يدفعون بعدم وجود دليل مباشر على كونه طبيباً. ويبدو أن ألكمايون كتب عن الأرصاد الجوية والفلك والفلسفة وطبيعة الروح إضافة إلى النظريات الطبية ووظائف الأعضاء والتشريح. وهناك شكوك كثيرة تكتنف مجالات أبحاثه التشريحية وفي وظائف الأعضاء. وفي الحق فإن بعض التعليقات تؤكد أنه كان أول من مارس التشريح العلمي للأجساد البشرية وأول من حاول تشريح الأحياء. وتعتقد أغلب المصادر أن ألكمايون كان أول فيلسوف طبيعى يجرى تشريحات وتشريحات حية للحيوانات بهدف تَكشُّف طبيعتها وليس لأغراض العرافة والرجم بالغيب. ويضاف إلى ذلك قد يكون هو من ابتكر فحص بيض الدجاج النامى كوسيلة لدراسة الأجنة. ومن أجل تلك الدراسات الرائدة لنموذج مهم يمكن اعتبار ألكمايون مؤسس علم الأجنة.

وفى شرحه لطبيعة الصحة والمرض، أكد ألكمايون أن الصحة تستلزم توازناً متناسقاً لصفات متضادة مثل الرطوبة والجفاف، والسخونة والبرودة. وعرف الصحة بأنها تحقيق التوازن والمساواة بين كل الصفات المتناقضة التي يتكون منها الجسم. وعلى هذا فالمرض يسببه إفراط أى من تلك الصفات. وكان لنظريته عن الصحة والمرض تأثير عميق على تطور الفلسفة فيما بعد ومن الواضح أنها استبقت تعاليم أبقراط (٤٦٠ق- ٣٧٧ق.م).

ومما لا ريب فيه أن ألكمايون قام بدراسات مهمة للتركيبية التشريحية لحيوانات مختلفة، مع الاهتمام بصفة خاصة بالتشريح بوصفه وسيلة لتفهم طبيعة الإدراك الحسى. ويقال إنه وصف الفروق بين الشرايين والأوردة، واكتشف العصب البصرى وقناة إستاكيوس، وتعرف على المخ بوصفه مركز الذكاء، ويرفض بعض العلماء تلك الافتراضات ويقولون بأن أرسطو وليس ألكمايون هو الذى كان أول من لاحظ القناة المارة من الأذن إلى الحلق والتي تُعرف الآن باسم قناة إستاكيوس (بعد أن أعاد إستاكيوس اكتشافها فى القرن السادس عشر).

وعلى الرغم من الانتقادات التي لقيتها نظريات ألكمايون لاحقاً، فإنه كُرم بوصفه واحداً من أوائل من عرّفوا بوضوح الفروق بين الإنسان والحيوان. فالإنسان وفقاً لما قرره ألكمايون هو الكائن الوحيد الذى يملك الفهم والذكاء، بينما الحيوانات الأخرى تعى عن طريق الحواس ولكنها لا تفهم. وهكذا ميز ألكمايون بين الإحساس والفهم. وعن طريق التشريح والاستدلال المنطقى توصل ألكمايون إلى استنتاج أن المخ هو مركز القدرات العقلية. ولم يتبق من نظرياته عن الحواس الخاصة إلا شذرات قليلة. ويبدو أنه حاول أن يبنى نظرية عن حاسة البصر تجمع بين المفاهيم القديمة عنها بوصفها أشعة تنبثق من العين وبين فكرة أنها تشمل صورة تنعكس داخل العين. وحاول أن يتعامل مع دراسة الحواس بطريقة منهجية وأدرك أهمية الهواء فى حاسة السمع. وتبنى أبقراط وأفلاطون (٤٢٧ق- ٣٤٧ق.م) نظرية ألكمايون عن المخ وأنه مركز الإحساسات، ولكن إمبيدوكليس (Empedocles) (٤٩٢ق- ٤٣٢ق.م)، وأرسطو

والرواقيون عادوا إلى الاعتقاد بأن القلب هو العضو المركزي للإحساس. ولم يدرك القدماء أن الأعصاب هي كيانات تشريحية وفسولوجية متخصصة، ولكن يبدو أن ألكمايون كان يعرف أن أنواعاً معينة من الإصابات يمكن أن تسبب انسداداً لنوع من "الممرات" المستخدمة في نقل الأحاسيس إلى المخ. ولهذا يمكن اعتبار ألكمايون مؤسس علم النفس التجريبي.

وكما هو متوقع من فيثاغوري، من الواضح أن ألكمايون كان يؤمن بأن الروح الخالدة هي مصدر الحياة، وهي دائماً في حالة حركة. وكانت مفاهيمه عن الأجرام السماوية وثيقة الصلة بقناعته بأن الروح خالدة لأنها تشبه الأشياء الخالدة وهي دائماً في حالة حركة مثل: الأجرام السماوية. ويعتقد بعض العلماء أن ألكمايون هو مصدر الاعتقاد الذي عزاه أفلاطون إلى تيمايوس (Timaeus) (عُرف حوالي ٤٠٠ ق.م.)، وهو فيثاغوري قال بأن الروح بها دوائر تدور مثلما تفعل الكواكب السماوية. ومدارات الأجرام السماوية دائماً ما تشكل دائرة تامة الاستدارة، ولكن المدارات في الرأس الإنسانية قد تعجز عن استكمال دوراتها. ولهذا يموت الإنسان لأنه لا يمكنه المشاركة حتى النهاية.

لويز ن. ماجنر (LOIS N. MAGNER)

أولوس كورنيليوس سلسوس (Aulus Cornelius Celsus) كاتب طبي روماني

(٢٥ ق.م. - ٥٠ م)

يعتبر أولوس كورنيليوس سلسوس أول مؤرخ طبي مهم وواحدًا من ألمع الكتاب الطبيين الرومان، كما أنه مبتكر اللغة اللاتينية العلمية. ويبدو أنه كتب موسوعة تتناول الزراعة وفنون الحرب وفن الخطابة والفلسفة والقانون والطب، غير أن مقالته المعنونة "حول الطب" (De medicina) هي التي بقيت. واليوم هناك إجماع عالمي على اعتبار "حول الطب" كتابًا كلاسيكيًا طبيًا لا يقدر بثمن.

غير أنه لا يكاد يُعرف شيء عن حياة سلسوس. وحتى منزلته كمؤلف لكتاب "حول الطب" تتناهبها الشكوك. ونظرًا لأن سلسوس كتب باللغة اللاتينية في زمن كانت اليونانية تُعتبر لغة الطب والعلم، فإن علماء الرومان وعلماء القرون الوسطى تجاهلوا ما كتبه. وفي القرن الخامس عشر الميلادي اكتشفت نسختان من "حول الطب". ويمثل سلسوس لعلماء عصر النهضة مصدرًا فريدًا من نوعه، لكتابات القرن الأول الميلادي في النحو اللاتيني وفلسفة الطب لم يفسدها نسخ نساخ عصر النهضة. وكان "حول الطب" من أوائل الأعمال الطبية التي انتشرت طباعتها بعد اختراع المطبعة.

والجانب التاريخي لكتاب "حول الطب" على جانب كبير من الأهمية لأنه المصدر الأول أو الوحيد لكثير مما يعرف اليوم عن الطب الهلينيستي والتشريح والجراحة الإسكندرانيين. وينقسم "حول الطب" إلى ثلاثة أجزاء، حسب نوع العلاج المناسب للأمراض المختلفة، أي غذائية وأقرباذينية وجراحية. ويحوى "حول الطب" بعضًا من أقدم ما كُتب عن أمراض القلب والجنون واستخدام الخيوط للسيطرة على النزيف. وقدم سلسوس أيضًا وصفًا ممتازًا للعلاج بالمياه والعمليات الجراحية لإزالة الحصى من المثانة.

وينقسم العلماء حول ما إذا كان سلسوس قد كتب فعلاً مواد "حول الطب" أو أنه اكتفى بانتحالها لنفسه. فبعض العلماء يقول إن سلسوس كان مجرد جامع أو مترجم،

ولكن غيرهم يجادل بأن جودة النص وطريقة عرض الأحكام النقدية فى الطب والجراحة تجعل ذلك أمراً بعيد الاحتمال. وفى الحق، فإن العديد من علماء عصر النهضة بجلوا سلسوس بوصفه أستاذاً فى التنظيم والوضوح والأسلوب. غير أنه من المعروف أن معاصرى سلسوس كانوا يعتبرونه رجلاً ذا مواهب متواضعة للغاية. وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا العادات والأعراف الرومانية فإنه من غير المحتمل أنه كان طبيباً محترفاً. فقد كان العرف السائد أن السادة الرومان كان مفترضاً فيهم أن يتحملوا مسئولية الرعاية الطبية للمرضى فى ضياعهم، وبصورة عامة كان ذلك يعنى ببساطة أن تكون لديهم دراية بالطب كى يشرفوا على الجوارى أو العبيد المنوط بهم القيام بالأعمال الوضيعة المتعلقة برعاية المرضى. ومثل غيره من الرومان كان سلسوس يصر على أن الأطباء لا ضرورة لهم فى روما القديمة. ولم يصبح فن الطب الإغريقى ضرورة إلا بعد أن تغلغت فى المجتمع الرومانى التأثيرات الإغريقية المسببة للأمراض مثل الكسل والترف وغيرها.

وبعد موت أبقرراط (٤٦٠؟-٣٧٧ ق.م.)، تشرذم الطب الإغريقى إلى طوائف متناحرة، مثل المنهجيين (methodists) والدوجماتيين (الجزميين) (dogmatists) والروحانيين (pneumatists) والتجريبيين (empiricists) ولولا التحليل الذى زدنا به سلسوس لظلت أصول وأفكار تلك الطوائف التى ازدهرت فى أيامه غامضة غموضاً تاماً. وانتهى سلسوس إلى أنه ما من طائفة محقة أو مخطئة كليةً. وعلى الرغم من أن الممارسة الطبية تشمل فى المقام الأول اختيار العقار المناسب فإن سلسوس أصر على وجوب أن يتقن الأطباء تشريح الجسم البشرى وفن الجراحة. وفى الوقت الذى رفض فيه المفاهيم الإغريقية التى ترى فى الطبيب دليلاً وهادياً إلى المنهاج الصحيح فى الحياة، فإن سلسوس قدم عدداً كبيراً من النصائح حول الحياة الصحية. وكان يؤكد أن أفضل وصفة لحياة صحية هى التنوع والتوازن، والراحة المناسبة والتمارين الرياضية وتجنب الانغماس الذاتى فى وساوس متسلطة عن ضرورة المشورة الطبية.

ووفقاً لسلسوس كانت الجراحة أكثر المجالات إرضاءً للذات للأطباء لأن الجراح كان يعلم أن الشفاء إنما تم نتيجة لمهارته، وليس بفضل قوى غامضة أو بالصدفة أو بالحظ الحسن. ولا بد أن يقى الجراح مريضه من النزيف والتلوث بالاعتناء بالنظافة. وحدد سلسوس أربعة علامات رئيسية للالتهاب: هي الحرارة والاحمرار والألم والورم (calor, rubor, dolor, tumor) ووصف آلات وطرائق وعمليات جراحية لم تكن معروفة لأسلافه من الأبقراطيين، مثل استخدام الخيوط لربط الأوعية الدموية الممزقة، وملاعق خاصة وموسعات لإزالة السهام من الجروح، وغير ذلك.

لويز ن. ماجنر (LOIS N. MAGNER)

إيراسيستراتوس من كيوس (Erasistratus of Ceos) طبيب ومشرح إغريقي

(٣٠٤ق-٢٥٠ق.م.)

إيراسيستراتوس هو طبيب ومشرح، وتعتبره بعض الدوائر مؤسس علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) لإسهاماته في التشريح وعلاقته بالمعارف الطبية في زمانه. فهو لم يكتف بدراسة تركيب الجسم، وإنما حاول أيضاً أن يفسره في ضوء وظائفه. ومن بين إسهاماته العديدة كانت أفكار أن الأعصاب الحسية والحركية تختلف من حيث الوظيفة، والتعرف على كيفية عمل اللهاة والوظائف الصحيحة لصمامات القلب. وكان إيراسيستراتوس أول نصير مهم لفلسفة تعرف باسم الفلسفة الروحانية (pneumatism) وهي فكرة مبنية على فرضية أن الحياة تعتمد على بخار رقيق يسمى الروح (pneuma) كما يعتبر إيراسيستراتوس أيضاً، ومعه هيروفيلوس (٢٣٥ق-٢٨٠ق.م.) مؤسس علم التشريح المرضي.

وعلى شاكلة كثير من أقرانه من المشاهير، لا يعرف عن حياة إيراسيستراتوس سوى بعض الأمور المحددة، رغم أنه من المعتقد أنه ولد سنة ٣٠٤ ق.م. في كيوس التي

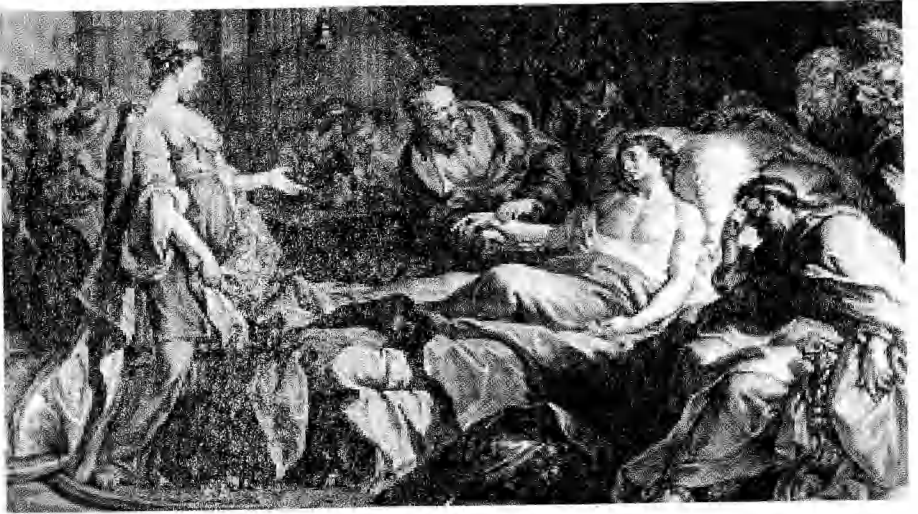
كانت جزءاً من بلاد اليونان، فالوثائق التاريخية التي تعود إلى تلك الفترة نادرة. وغالبية المعلومات التي لدينا عنه تتعلق بعمله ولا يكاد يُعرف شيء عن حياته الشخصية. إلا أننا نستطيع أن نرسم صورة سريعة عن حياته المهنية من خلال الوثائق التاريخية الموجودة.

انتقل مركز الثقل للحضارة الإغريقية إلى الإسكندرية في أعقاب زمن أرسطو مباشرة. وكان إيراسيستراتوس واحداً من أبرز سكانها الأوائل. وكان معلماً بمدرسة الطب، التي كسرت التقاليد والتعاليم الدينية الجامدة باستخدام تشريح الجسد الإنساني كوسيلة دراسية، فحتى ذلك الوقت، بل بعد ذلك مباشرة، لم تكن أي من حضارات العالم تشرح الجسد الإنساني لأنه كان يُنظر إليه باحترام وتقديس. وساهمت المعتقدات والمخاوف المتعلقة بالروح والحياة بعد الموت والبعث أيضاً في منع استخدام التشريح كوسيلة من وسائل الدرس. واكتسبت المعارف التشريحية والفسولوجية ببطء من خلال العلاج الطبى العادى، والولادة، والحيوانات الدنيا، ولكن مجال التشريح بقى غير مكتمل بصورة عامة. وقام إيراسيستراتوس وهيروفيلوس بتشريح الجثث البشرية وبذلك اكتسب التشريح أساساً علمياً لأول مرة فى التاريخ. وكان ذلك هو ميلاد التشريح بهدف التوصل إلى سبب الوفاة كعلم من علوم الطب، وكسر بكفاءة حاجزاً قديماً أمام تقدم الطب. ولسوء الحظ تدهور استخدام التشريح بهدف التوصل إلى سبب الوفاة، وبالتالي تدهورت أحوال التقدم فى التشريح الإنساني والفسولوجيا، لمدة ١٨٠٠ سنة تالية.

ومن خلال دراساته التشريحية تمكن إيراسيستراتوس من وصف الأجزاء الرئيسية للمخ. ومن دراساته للأعصاب، اعتقد أنها مجوفة ومملوءة بالسوائل. وتوصل إلى إدراك وظائف صمامات القلب وسمى الصمام الثلاثى الشرفات (tricuspid valve) بناء على مظهره. غير أنه لم يكن مؤيداً قوياً لنظام الأخلاط الثلاثى. وهذه النظرية كانت تنادى بوجود ثلاثة سوائل متميزة: الروح العصبية (وتحملها الأعصاب)، والروح الحيوانية (وتحملها الشرايين)، والدم (وتحملة الأوردة). وبناء على تلك النظرية وسع إيراسيستراتوس من مجالات الفلسفة الروحية.

كانت الفلسفة الروحية مدرسة فكرية قديمة مبنية على فكرة أن الحياة تعتمد على بخار رقيق أو سائل يسمى الروح (pneuma)، وكانت تلك محاولة لتفسير عملية التنفس بالاقتران مع ما كان يُعتقد عن وظيفة الدم والأوعية الدموية والأعصاب. وقرر إيراسيستراتوس أن الحياة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الروح الطاغية، التي هي الهواء الذي نتنفسه. كما أنه آمن بأن الصحة والمرض ينتجان من الروح الطاغية، وكان هناك تمييز بين نوعين، أولهما "الروح الحيوية" التي يكونها الهواء الذي يحويه القلب وتقله الشرايين. وثانيهما هي "الروح الحيوانية" المتكونة في المخ من الروح الحيوية وتقلها الأعصاب في أنحاء الجسم. وأمن إيراسيستراتوس أن أى إعاقة لعمل الروح سينتج عنها المرض. وعلى الرغم من أن آلاف السنين من العلوم الطبية قد أثبتت خطأ الكثير من آرائه، فإن إيراسيستراتوس يبقى معلماً بارزاً في الطب بسبب بصيرته وتأثيراته الهائلة.

جيمس ج. هوفمان



إيراسيستراتوس يقيس نبض الملك أنتيوخوس الأول

براكساجوراس الكوسى (Praxagoras of Cos) طبيب إغريقى

(اشتهر فى القرن الرابع ق.م.)

ولد براكساجوراس فى جزيرة كوس حوالى سنة ٢٤٠ ق.م. وكان أبوه نيكارخوس طبيباً وكذلك كان جده. ولا يعرف عن حياته الشخصية إلا النزر اليسير، ولم يتبق أى شىء من كتاباته. وفى الفترة ما بين وفاة أبقرات سنة ٢٧٥ ق.م. ونشأة مدرسة الإسكندرية بمصر، انحصر الطب الإغريقى فى التخمين والتأمل مع تقدم ضئيل فى المعرفة. وفى خلال تلك الفترة تصدى أربعة رجال لدراسة التشريح هم: ديوكليس الكارستوسى (Diocles of Carystus) (اشتهر فى القرن ٤ ق.م.)، وهيروفيلوس (ح ٢٢٥-٢٨٠ ق.م.)، وإيراسيستراتوس (ح ٢٠٤-٢٥٠ ق.م.)، وبراكساجوراس.

وتحدث جالينوس الطبيب الإغريقى الشهير عن براكساجوراس وذكر أنه شخصية بارزة فى تاريخ الطب، ومن أتباع المدرسة المنطقية أو الوجودية (الجزمية). ولعل جالينوس كان على دراية بأبحاث براكساجوراس المستفيضة، فقد كتب فى العلوم الطبيعية والتشريح وأسباب وعلاج الأمراض وفى الأمراض الحادة.

وتبنى براكساجوراس صورة محورة من نظرية الأخلاط، غير أنه بدلاً من الأخلاط الأربعة (الدم والبلغم والصفراء والسوداء) التى كان يؤمن بها أغلب الأطباء، أصر على أنهم أحد عشر. وكان يؤمن، على شاكلة غيره من أطباء الإغريق، بأن الصحة والمرض يتحكم فيهما توازن تلك الأخلاط أو اختلال توازنها. فمثلاً: لو كانت الحرارة موجودة بنسبة صحيحة فى الكائن تصبح عملية الهضم طبيعية. وانخفاض أو ارتفاع الحرارة سيسبب ارتفاعاً فى الأخلاط الأخرى، تنتج عنها أحوال مرضية معينة. وكان يعتبر أن الهضم هو نوع من التخمر أو التحلل، وهى أفكار ظلت سارية حتى القرن التاسع عشر.

درس براكساجوراس تشريح أرسطو وحَسَّن فيه بالتمييز بين الشرايين والأوردة. ورأى أن الشرايين هي أنابيب للهواء على غرار القصبة والشعب الهوائية، وهي تحمل الروح الطاغية وهي القوة الخفية للحياة. وتحمل الشرايين أنفاس الحياة من الرئة إلى الجانب الأيسر للقلب ومن ثمَّ خلال الشريان الأورطي إلى شرايين الجسم. وكان يؤمن بأن الشرايين تنشأ من القلب، ولكن الأوردة تبدأ من الكبد. وتحمل الأوردة الدم، الذي نشأ من الطعام المهضوم، إلى باقى أنحاء الجسم. والمزج بين الدم والروح يولد الحرارة. وإذا تجمع البلغم السميك البارد فى الشرايين، بوصفه واحداً من الأخلاط، فإن ذلك يسبب الشلل. وكذلك كان يؤمن بأن الشرايين هي قنوات تسرى فيها الحركات الإرادية إلى الجسم، وأن سبب الصرع هو انسداد الأورطي بتجمع البلغم.

وكان أرسطو وديوكليس وبراكساجوراس يصرون على أن القلب هو العضو الأساسى للذكاء ومركز الفكر. واختلف براكساجوراس عن آخرين فى إيمانه بأن الهدف من التنفس هو تغذية الروح النفسية وليس تبريد الحرارة الداخلية.

كانت آراؤه المتعلقة بالشرايين ذات أثر عميق على تطور علم وظائف الأعضاء. ولما لم تكن المفاهيم الخاصة بالأعصاب قد وجدت بعد، فإن براكساجوراس فسر الحركة بحقيقة أن الشرايين تتضاءل شيئاً فشيئاً ثم تختفى. وهذا الاختفاء يسبب الحركة، وهي حقيقة نعزوها اليوم إلى الأعصاب. غير أنه وضع تخمينات حول الحركة، وسر لما وجد أنه عثر على حل لغز مركز الحيوية والنشاط. وفى الحقيقة كان تلميذه هيروفيلوس هو الذى اكتشف الأعصاب الحسية والحركية.

وكان براكساجوراس مهتماً بالنبض وكان أول من نبه إلى أهمية نبض الشرايين فى التشخيص. وكان يصر على أن الشرايين تنبض ذاتياً وغير معتمدة على القلب. ودحض هيروفيلوس هذا الرأى فى مقالته "عن النبض". وفى مجال آخر انتقد جالينوس براكساجوراس لعدم إظهاره الاهتمام بالتشريح. وقرر أن براكساجوراس لم يتوصل إلى نظرياته بالتشريح.

كان تأثير براكساجوراس عظيماً على الطب الإغريقي بصفة عامة وعلى مدرسة الإسكندرية بوجه خاص. ففي أعقاب وفاة الإسكندر الأكبر وقعت مصر من نصيب بطليموس القائد العسكرى، الذى أسس جامعة حديثة بها أول مدرسة عظيمة للطب فى العالم القديم. وكان يمارس بها تشريح أجساد البشر، وعلى الرغم من أن الجامعة فى الإسكندرية ومكتبتها الهائلة قد دمرتها عصابات الغزاة، فإن الأطباء العرب اللاحقين بذلوا جهداً للحفاظ على بعض كتبها. وبعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية أعاد العلماء الإغريق الطب الإغريقي إلى المدارس الطبية لعصر النهضة الغربى.

ولقرون هيمنت وسادت أفكار براكساجوراس. فعلى سبيل المثال بعد وفاته بما يقرب من ٥٠٠ سنة استمر الكثيرون يعتقدون أن الشرايين لا تحوى دماً وإنما روح طاغية. وكان هيروفيلوس أشهر تلاميذه ذا أثر فعال فى نشأة المؤسسة الطبية الرائعة فى الإسكندرية.

إيفيلين ب. كيللى (EVELYN B. KELLY)

بول الإيجينى (بولس الإجناطى) (Paul of Aegina) طبيب وجراح إغريقى
(٦٢٥ - ٦٩٠ م)

كان بولس الإجناطى (بولس القوابلى كما اشتهر عند العرب) طبيباً وجراحاً إغريقياً احتوت كتاباته على كل ما كان معروفاً فى الطب الغربى فى زمانه. ولما كان لأعماله تأثيرات عميقة على الممارسات الطبية العربية، وكانت المراجع الطبية العربية قد صارت هى المصدر الرئيسى للطب فى أوروبا فى العصور الوسطى، فقد أصبحت لكتاباته تأثيرات ممتدة فى الطب الغربى القروسطى. وكان أعظم أعمال بولس هو كتاب "مختصر الطب فى سبعة كتب" (Epitomae medicae libri septem) واستعار أبو القاسم الزهرائى (ح ٩٣٦ - ح ١٠١٣م)، وهو واحد من أهم الجراحين المسلمين، بتوسع من الكتاب السادس من "المختصر" عندما كان يجمع مادة كتابه عن الجراحة.

ولد بولس بجزيرة إيجينا اليونانية، وعاش أثناء حكم الإمبراطور هرقل (٥٧٥-٦٤١، حكم ٦١٠-٦٤١). ولا يعرف عن حياته إلا الشيء القليل، ولكن أغلب المصادر تتفق على أنه تعلم في جامعة الإسكندرية. واشتهر بسبب أوصافه للعمليات الجراحية التي ضمنها في "المختصر". فقد وصف بتر الثدي، واستخراج حصى المثانة، والترينة (إزالة قرص من عظام الجمجمة)، واستئصال اللوز، وبزل السوائل من البطن. وفي علاجه للفتق الإربي أوصى باستئصال الخصية على ناحية الفتق. ورغم عنف ذلك العلاج إلا أنه كان مقبولاً أيامها.

كان بولس يعرف كيف يجرى عملية الشق الحنجري في الأحوال العاجلة كي يفتح مجرى الهواء وكيف يغلق ذلك الشق عندما يزول خطر الاختناق. ووصف ٦٢ نوعاً من النبض لها علاقة بأمراض، وعلاجات للسكتة الدماغية والصرع، وذكر واحداً من أوائل ما قيل في وصف التسمم بالرصاص. وشمل "المختصر" أيضاً وصفاً مطولاً لإزالة شوكة سمك من الطوق. وربما كان ذلك انعكاساً للمجتمع الذي كان يعيش فيه، ولا بد أن الغذاء أيامه كان يشمل كميات كبيرة من الأسماك وإلا ما كان الأمر يستحق كل ذلك الاهتمام بمثل ذلك النوع من الإصابات.

ويشتمل أول كتاب من كتب "المختصر" على معلومات عن شكاوى النساء الخوامل، بينما يصف الكتاب الثالث أمراض النساء. ولعل أشهر كتب بولس كتابه عن الولادات المتعسرة، وهو وصف مطول ربما يكون قد استمده من إيتيوس (Aëtius)، وهو طبيب إغريقي أقدم منه. وتوضح حقيقة أنه استطاع أن يتحدث عن نساء حوامل أن بولس كانت لديه خبرات في مجال كان عادة ما يكون مقتصرًا على القابلات. ولا بد أنه كان شخصاً موثوقاً به ومحترمًا لأنه كان من النادر وقتئذ أن يُسمح للرجال بفحص أجسام النسوة. ويقال إن القابلات كن يلجأن لبولس لمساعدتهن في الولادات المتعسرة، فصار يعرف باسم الرجل-القابلة. وكان مدركًا للخطورة التي تسببها السمنة للنساء أثناء الولادة. وكتب عن الأوضاع المختلفة للجنين داخل الرحم

وذكر تعليمات عن كيفية لف الوليد داخل الرحم. كما شرح أيضاً كيف يرفع من الحالة النفسية لامرأة "مغنوياتها في الحضيض" أو تلد لأول مرة.

كان بولس حسن الاطلاع على مشاكل الطمث، وكان ينصح بربط الساقين كوسيلة لإيقاف الطمث غير المنتظم أو الغزير (وهو علاج آخر يبدو عنيفاً في الأزمنة الحديثة). وكان يوصى بنفس ذلك العلاج للهستييريا، التي كانت تُعزى إلى "رحم جوال" يمكن التحكم فيه بالرباط. كما وصف أيضاً استخدام منظار كي يتمكن من رؤية عنق الرحم.

لانا تومسون (LANA THOMPSON)

بيدانيوس ديوسكوريديس (Pedanius Dioscorides) طبيب وأقرباذيني إغريقي

(٤٠٩ - ٩٠٩ م)

جمع ديوسكوريديس واحداً من أوائل وأهم كتب العشبيات في العالم الغربي، ويعتبر مؤسس علم الأقرباذين الغربي. وديوسكوريديس هو مثال على إطلاق الأحكام العامة الذي انساق إليه الطب الروماني بتأثير الأطباء الإغريق. ولا يعرف عن ديوسكوريديس إلا النزر اليسير، عدا أنه ربما يكون قد درس في الإسكندرية قبل أن يصبح "طبيباً" (medicus) في الجيش الروماني في آسيا تحت إمرة الإمبراطور نيرون. ولعل تعبير "طبيب عسكري" هي ترجمة أكثر تخصصية مما يحمله التعبير، لأنه من غير المحتمل أن الفيالق الرومانية وقتئذ كانت تصحبها أطقم منظمة من الأطباء أو الجراحين. وأعطت الخدمة العسكرية ديوسكوريديس الفرصة للسفر والترحال على نطاق واسع ولدراسة الكثير من النباتات وأنواع الحيوانات الغريبة.

وفى عمله الرئيسي، وهو كتاب يعرف اليوم باسم "المادة الطبية" (De materia medica)، يتحدث ديوسكوريديس عما يقرب من ٦٠٠ نوع من النباتات، شملت القنب

والسورنجان والنعناع. ولم يكن أبقراط يعرف من تلك الأنواع إلا حوالي ١٣٠. وشمل الحديث عن كل نبات مظهره ونموه وصفاته المميزة وموطنه الأول وبيئته واستخداماته الطبية، والطرق الصحيحة لتحضير الدواء منه. كما وصف أيضاً عقاقير مستخرجة من الحيوانات والمعادن. وفي مجموعها، يشير ديوسكوريديس إلى ما يقرب من ١٠٠٠ دواء بسيط. ويصف النص غالبية العقاقير المستخدمة في الطب حتى أوقات حديثة نسبياً.

كان ديوسكوريديس، وهو ملاحظ دقيق وعالم بالتاريخ الطبيعي، يحاول أن يبتكر تصنيفاً للنباتات والأعشاب الطبية أكثر تنظيماً مما فعله أسلافه. وعلى الرغم من وجود بعض المكونات الغريبة فإن ديوسكوريديس سَجَّلَ وصفات للعديد من العقاقير الفعالة، بما في ذلك المسهلات والمقيئات والمليينات والمسكنات والمطهرات وما إلى ذلك. وتدل الدراسات الحديثة لكتاب "المادة الطبية" على أن التنظيم الذي اتبعه ديوسكوريديس يعكس نظاماً ماهراً ودقيقاً للعقاقير المتقاربة في تأثيرها وليس حسب التنظيم التقليدي مثل أشكال النباتات أو بيئتها. ولا بد أن تصنيفه استلزم منه مراقبة تأثيرات العقاقير على عدد ملموس من المرضى. ووفقاً لما ذكره ديوسكوريديس، كان الأطباء في حاجة إلى معلومات عن كل النباتات ذات الفوائد الطبية، موطنها، وبيئتها، والصفات المميزة لنموها، واستخداماته المناسبة. والأطباء الذين يعجزون عن دراسة صفات المواد الطبية يصبحون عرضة لأن يخدعهم تجار العقاقير الذين يتاجرون في بدائل عديمة القيمة ورخيصة الثمن بل قد تكون ضارة. وعلى النقيض مع ثيوفراستوس (Theophrastus) (٢٧٢٤-٢٨٧٤ ق.م.) أهم من سبقوه، الذي صنف النباتات كأشجار وشجيرات وأعشاب، صنف ديوسكوريديس النباتات تحت عناوين ثلاثة: عطرية وطعامية وطبية. وطبقاً لما ذكره بليني الأكبر (٢٣-٧٩م)، كتب كراتيوس (Crateuas) الطبيب الإغريقي (القرن الأول ق.م.) كتاباً عن الأعشاب الطبية ضمنه صوراً ملونة، غير أن ذلك النص ضاع. ولهذا يعتبر كتاب العشبيات لديوسكوريديس بصفة عامة أول ما كتب بطريقة منهجية منظمة ومصورة عن النباتات الطبية.

وكثير من الأعشاب والتوابل والبندق والحبوب والمشروبات المتخمرة المستخدمة كمكونات للعلاجات التي يوصى بها ديوسكوريديس يمكن العثور عليها في أى حانوت حديث للخضروات. غير أن الفوائد الطبية التي تعزى إليها قد يندesh لها الطهارة المحدثون. فالقرفة والقرفة الصينية، على سبيل المثال، قيل إنها ذات فوائد في علاج الالتهابات الداخلية والسموم ولدغ الأفاعى والسعال وأمراض الكلى واضطرابات الطمث وغير ذلك. كما كان يقال إنها تسبب الإجهاض. وشرب خلاصة الهليون وارتداء ساقه كتميمة يُفترض أنه يسبب العقم. ونظراً للعدد الكبير من العقاقير التي يقال إنها تاتى بالطمث وتطرد الجنين، فإنه يبدو أن اضطرابات الطمث ومنع الحمل والإجهاض كانت كلها من بين الأسباب الشائعة التي تدفع المرضى إلى استشارة الطبيب.

وكانت العلاجات تصنع أيضاً من المعادن وأجزاء الحيوان ومنتجاته، مثل اللبن والعسل. وشملت العقاقير الكيماوية الزئبق والزرنيخ وخلات الرصاص وأكسيد النحاس. وهناك علاج للملاريا حوى بقعة الفراش ممزوجة باللحم والبقول. وذكر مزيج من سرطان الأنهار المحروق وجذور الجنشيانا والنبيد كعلاج لعقر الكلاب المسعورة؛ وتناول كبد ذلك الكلب وارتداء سنة من أسنانه يمنع أية مضاعفات بعد ذلك. وتوفر الحصى الموجودة فى أحشاء فرس النهر حماية من لدغات الأفاعى، وفى حال عدم توفر حصى فرس النهر فيمكن الاستعاضة عنها بالصفادع. ولتدفئة المفاصل وشفاء السحجات أوصى ديوسكوريديس باستخدام السخام المتجمع على حوائط الملاعب الرياضية. كما وصف أيضاً جرعات منومة تُحضّر من الأفيون والماندراجورا وتحدث عن استخدامها كمخدر فى العمليات الجراحية.

ويمثل كتاب "المادة الطبية" لديوسكوريديس أهم مصدر موثوق به للمعلومات المتعلقة بالمادة الطبية عند الأقدمين، وأهم مصدر كلاسيكى للمصطلحات الفنية الحديثة لعلم النبات. وبقى "المادة الطبية" فى طبعاته وترجماته المختلفة المرجع الرائد للأقربانين لما يقارب ستة عشر قرناً.

لويز ن. ماجنر



ديوسكوريديس

ثيوفراستوس الإريسوسى (Theophrastus of Eresus) عالم وفيلسوف إغريقى

(٣٧٢؟-٢٨٧؟ ق.م.)

كان ثيوفراستوس عالماً وفيلسوفاً أسهم إسهامات ملموسة ومؤثرة فى كل مجالات الفكر والعلم تقريباً، وعلى وجه الخصوص فى دراسة النبات وعلاقة الكائنات بالبيئة. وكان فى البدء يدعى تيرتاموس ثم خلع عليه أرسطو كنية ثيوفراستوس وتعنى "الحديث المقدس". كان ثيوفراستوس كاتباً غزير الإنتاج وتناول موضوعات متنوعة. وكانت مقالاته تتسم بالعمق والدقة. وفى مجال النبات وحده كتب ما يربو على ٢٠٠ بحث.

ولد ثيوفراستوس فى إيريسوس بجزيرة لسبوس، وكان فى البدء تلميذاً لأفلاطون، ثم ارتبط بأرسطو بعد وفاة أفلاطون. ولما اعتزل أرسطو العمل فى الليسيوم (وهى أكاديمية أسسها أرسطو فى أثينا) عين ثيوفراستوس خليفة له. وعلى الرغم من أن ثيوفراستوس بحث فى موضوعات شتى فإنه اشتهر بأعماله فى النبات. وكثيراً ما يوصف بأنه أول عالم نبات، وبقي كتابان من كتبه فى ذلك العلم، وعلى الرغم من أنها كانت كتباً عملية فإنها كانت ذات أثر كبير فى نفس الوقت، إلى الأزمنة الحديثة.

كتب ثيوفراستوس كتابين دسمين فى مجال علم النبات هما "أفكار عن النباتات" و"تاريخ النباتات". وفى تلك النصوص يوضح معالم المفاهيم الأساسية لأشكال وتصنيف النباتات وتاريخها الطبيعى. ويبدو أن البستانية كانوا هم المستهدفين من تلك الأعمال لأن النواحى العملية فيها غلبت على الجانب النظرى. وتُقْبَلُ أفكاره دون مناقشة لعدة قرون. وكان ثيوفراستوس أيضاً من أكبر دعاة العلم فى زمانه وكتب العديد من مقالاته واضعاً العلم نصب عينيه. وهناك مجال آخر وضع فيه تأثيره العميق وهو علاقة الكائنات بالبيئة.

وعلى الرغم من أنه من غير الممكن أن نعزو بدايات مجال علوم البيئة إلى حدث تاريخى بعينه فإن كثيراً من المصادر تعتبر ثيوفراستوس أبو علوم البيئة لأنه كان أول من وصف العلاقة المتشابكة بين الكائنات والبيئة. وفى الوقت الذى لا يمكن اعتبار كتاباته بيئية بالمفهوم الحديث، إلا أنه يتناول النباتات من منظور تجمعاتها البيئية. وعلم البيئة هو فرع من فروع التاريخ الطبيعى، وثيوفراستوس بالقطع لعب دوراً حاسماً فى تطوره. ولم يكتف ثيوفراستوس بالاهتمام بعالم الأحياء فحسب وإنما اهتم أيضاً بالعالم الفيزيائى.

فقد كتب ثيوفراستوس أقدم وثيقة معروفة عن تصنيف ما يربو على ٧٠ نوعاً مختلفاً من الصخور والمعادن. ولا يزال هذا العمل يعتبر ذا قيمة حتى بعد مرور ٢٠٠٠ سنة أو يزيد. ويعتبره الكثيرون أكثر نصوص كتبت فى هذا المجال تأثيراً.

وكان ثيوفراستوس واحداً من تلاميذ أرسطو القلائل الذين اعتنقوا فلسفاته فى كل المجالات. وكان أول شخص فى تاريخ علم المنطق يتفحص منطق الفرضيات بجدية. وكانت إسهاماته مهمة فى ذلك المجال وغيره من مجالات الفلسفة. وكما ذكرنا من قبل كتب ثيوفراستوس فى موضوعات متنوعة بل كتب صوراً وصفية لشخصيات تعد من بين أشهر ما كُتِبَ من أوصاف الشخصيات.

فكتابه "شخصيات" يتضمن ٣٠ وصفاً مختصراً لشخصيات حدد فيها الصفات الشخصية الموجودة ثم مضى ليصف سمات الرجال الذين يمثلونها. وكان ذلك مخطوطاً ذائع القراءة في عصر النهضة بل تحول إلى مسرحية رائجة.

وعلى الرغم من أن كثيراً من أعماله قد ضاعت على مر التاريخ فإن هناك أمراً واحداً مؤكداً هو أن ثيوفراستوس كان كاتباً ومفكراً مجدداً أسهم إسهامات ملحوظة في الفلسفة والعلم. ومات حوالي سنة ٢٨٧ ق.م. بعد أن ترأس الليسيوم لمدة ٢٥ سنة. ويُزعم أنه وهو على فراش الموت رثى نفسه بقوله إن الحياة جد قصيرة، لأنه كان على وشك إدراك مشاكلها.

جيمس ج. هوفمان (JAMES J. HOFFMANN)

جالينوس (Claudius Galenus) طبيب وكاتب وفيلسوف إغريقي

(ح ١٢٩ - ح ٢١٦ م)

إن أعمال جالينوس قد جعلت منه المرجعية الأولى في الفكر الطبي والممارسة الطبية طوال العصور الوسطى. وكثيراً ما يوصف بأنه العالم الرئيسي في زمانه، واشتهر بصفة خاصة لإسهاماته في الفسيولوجيا وكثيراً ما يشار إليه بوصفه أبو الفسيولوجيا التجريبية. ونشأت تلك الإسهامات أساساً من المعلومات التي جمعها من خلال العديد من تشريحات الحيوان التي أجراها ومن نفاذ بصيرته واستنتاجاته المتعلقة بوظائف أعضاء الجسم المختلفة وعلاقاتها بعضها ببعض. وتعززت شهرته في الأوساط الطبية للدور الذي قام به كطبيب لثلاثة أباطرة رومانين، وكذلك بسبب ما يربو على الخمسة كتاب ومقال التي كتبها عن مكتشفاته ونظرياته.

ولد جالينوس في برجاموم، قبالة الساحل الشرقي لبحر إيجه في آسيا الصغرى (وهي اليوم برجاما بتركيا) سنة ١٢٩. وفي سنواته المبكرة تعلم على يد أبيه، الذي

كان معمارياً ورياضياتياً وفيلسوفاً، وعندما أتم الرابعة عشرة بدأ جالينوس دراسته في برجاموم التي استمرت أربع سنوات.

ويعد برجاموم درس جالينوس في سميرنا في كورنث بشبه الجزيرة اليونانية، ثم في الإسكندرية بمصر. وفي تلك الأثناء شرع أيضاً في الكتابة وأكمل كتابه "حول حركات القلب والرئة" في سميرنا سنة ١٥١، ولما كان شاباً عنيداً ومتشبتاً برأيه فقد أدان معلمى يومه الذين أحس بعدم كفاءتهم، وأطلق عليهم "الجهال الذين يلقون محاضرات مطولة غير منطقية على جمهور من فتيان في الرابعة عشرة من العمر لم يسبق لهم الاقتراب من شخص مريض". وفي محاولة منه لتحسين تعليم زملائه من التلاميذ شرع جالينوس في تأليف قواميس في الطب والفلسفة.

وفي سنة ١٥٧، ارتحل عائداً إلى برجاموم، حيث استمر اهتمامه بالطب. وهناك أعلن عن علاج للأربطة الممزقة ابتكره بنفسه وقام بتجربة لإثباته. وجذبت تلك التجربة الأنظار إليه وساهمت في حصوله على وظيفة كبير للأطباء لفصيل من المجالدين (gladiators) كان يتولاهم كبير كهنة آسيا. وعلى مدى السنوات الثلاث التالية تولى جالينوس علاج جراهم التي كثيراً ما كانت جسيمة واكتسب معارف جديدة في كيفية عمل الجسم البشرى.

ترك جالينوس برجاموم متوجهاً إلى روما سنة ١٦٢، عندما نشبت الحرب مع الغلاطيين [أهل غلاطيا (Galatians) في الأناضول] مما تسبب في توقف مسابقات المجالدين، ومن ثم انقطاع عمله. وفي روما داوم على أبحاثه، وكان أحياناً يجرى تجارب علنية في التشريح ويتشارك مع الجمهور في أفكاره عن العلاج الطبى وعمل الجسم الإنسانى، وهو موضوع سوف يُطلق عليه في النهاية مجال الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء). وارتفع شأنه سريعاً في الأوساط الطبية من جراء تجاربه العلنية، ونجاحاته التي حققها مع مرضى من الأثرياء وذوى النفوذ، ولعلمه الغزير. كما أسهمت أيضاً في ذبوع صيته خلفيته الثرية واتصالاته الاجتماعية ورعاه من ذوى النفوذ.

ومن خلال أبحاثه الخاصة والعننية وفهمه للفسيولوجيا، أكد جالينوس إيمانه بنظرية أبقراط أن الصحة يحكمها توازن بين سوائل الجسم الأربعة، أو الأخلاط. وأصبح مهتماً بوجه خاص في خلط واحد هو الدم. فلم يكتف بإثبات أن الشرايين تحمل دمًا وليس هواءً، كما كان الاعتقاد من قبل، وإنما وصف كيف يوزع الدم الطعام، أو الغذاء، إلى أعضاء الجسم. وكذلك حدث في تلك الآونة أن جالينوس شرع في إجراء أبحاث أقرباذينية دقيقة عن تأثيرات العقاقير على الأمراض المختلفة، مسجلاً بدقة كيفية عمل كل عقار وجرعته المناسبة.

عاد جالينوس إلى برجاموم لمدة قصيرة سنة ١٦٦، ولكنه رجع إلى روما سنة ١٦٩، حيث عمل طبيباً للإمبراطور ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) وللإباطرة الذين خلفوه كومودوس (Commodus) وسبتيميوس سيفيروس (Septimius Severus) كان جالينوس كاتباً غزير الإنتاج كتب ما يقرب من ٥٠٠ كراسة في الطب والفلسفة والأخلاقيات، بقى الكثير منها في صورة مترجمات. وفي سنواته الأخيرة كتب مقالاتين عددٌ فيهما كل أعماله وأعطى نبذة عن حياته المهنية وتطوره كفيلسوف. وتمثل ملخصات حياته واحدة من أقدم السير الذاتية لعالم، وربما كانت أقدم سجل بمؤلفات كاتب في التاريخ (bibliography).

وليس معروفاً تاريخ وفاة جالينوس الصحيح. ويظن بعض العلماء أنه مات في وقت ما بعد سنة ٢١٠، ولكن كتاب سيرته من العرب ذكروا أنه مات في روما سنة ٢١٦ أو ٢١٧، وكان عمره ٨٧ سنة. وبعد وفاته، اعتبرت الكنيسة المسيحية أن جالينوس هو المرجعية القياسية في الطب طوال العصور الوسطى. وانكسر الجمود الناتج عن هذا الرأي بعد ذلك بما يربو على ألف عام، عندما شرع علماء مثل: أندرياس فيزالْيوس (Andreas Vesalius) (بلجيكي، ١٥١٤-١٥٦٤) ووليم هارفي (William Harvey) (إنجليزي، ١٥٧٨-١٦٥٧) في اتباع فرضية جالينوس بأن المعارف والأفكار الجديدة هي أمور جوهرية في سبيل تقدم العلوم الطبية.

لزلى أ. ميرتز (LESLIE A. MERTZ)

ديوكليس من كاريستوس (Diocles of Carystus) طبيب إغريقي

(عُرِف في القرن الرابع ق.م.)

كان ديوكليس من مدينة كاريستوس فيلسوفاً ورائداً من رواد الطب الإغريقي، قال عنه المؤرخ بلييني: إنه الثاني بعد أبقرات في السمعة والمقدرات.

ولد في أخريات القرن الرابع ق.م. في مدينة كاريستوس بجزيرة إيوبوا، وكان ابناً للطبيب أرخيداموس (Archidamus) وارتحل إلى أثينا وتلمذ على أرسطو. وعلى الرغم من أن أرسطو كان معروفاً بكونه فيلسوفاً فإنه أثر على العديد من أطباء عصره بسبب أبحاثه في وظائف أعضاء الجسم. وطور ديوكليس تشريح أرسطو كما طوره ثلاثة أطباء بارزين من المدرسة السكندرية هم هيروفيلوس (Herophilus) (ح ٣٢٥-٢٨٠ ق.م.)، وإيراسيستراتوس (Erasistratus) (ح ٣٠٤-٢٥٠ ق.م.)، وبراكساجوراس (Praxagoras) (عُرِف في القرن الرابع ق.م.). ورفع الأربعة الطب الإغريقي إلى أقصى ذراه. وهناك تلميذ آخر من تلاميذ أرسطو هو الإسكندر الأكبر الذي مات سنة ٣٢٣ ق.م. وهو يتساءل: "إني أموت بمساعدة عدد أكبر مما ينبغي من الأطباء" - مما يدل على أن بلاطه كان به عدد كبير من الأطباء.

وارتفع شأن الأطباء من أمثال ديوكليس في أخريات القرن الرابع ق.م.، ولما غزا الإسكندر مصر وأنشأ مدينة الإسكندرية، مهد الطريق لنشأة مدرسة الإسكندرية الشهيرة في الطب. وجمع خليفته بطليموس الأول مكتبة بها ٧٠.٠٠٠ مخطوط تحوي معارف في الطب والعقاقير.

كان ديوكليس من الزعماء البارزين للمدرسة الدوجماتية (الجزمية) أو المنطقية وحاول أن يجمع بين الفلسفة وأفكار أبقرات الطبية. وفي الوقت الذي كان فيه أطباء آخرون منهمكون في التخمين والخرافات كان ديوكليس يشكل الطب وينظمه.

كان ديوكليس كاتباً غزير الإنتاج، وكان أول من يستخدم اليونانية الأتيكية، وهى الإغريقية المنمقة الفصحى الخاصة بآثينا، ووضح عليه تأثير أسلوب أرسطو الأدبى فى الكتابة. (أغلب أطباء ذلك الوقت كانوا يكتبون بالإغريقية الإيونية، وهى لهجة خشنة عامية). وكانت المواضيع التى تناولها شاملة ومتعددة. ولم يتبق إلا شذرات قليلة من كتاباته. وجمع ديوكليس بدقة كتابات أبقراط. وذكر الطبيب الرومانى جالينوس أن ديوكليس كان أول من استخدم كلمة "تشريح" (anatomy) وعلى غرار أرسطو، لم يميز ديوكليس بين الأعصاب والأوردة وكان يعتقد أن القلب لا المخ هو مركز الذكاء.

ترك إمبيدوكليس (Empedocles) (ح ٤٩٢-٤٣٢ ق.م.) تأثيراً عميقاً على أطباء الإغريق بمن فيهم ديوكليس. فعلى سبيل المثال، كان مهتماً بالتكاثر وقرر أن كلا من الرجل والمرأة يتشاركان فى تقديم البذرة التى تصير جنيناً، والتى تصبح تامة النمو فى ٤٠ يوماً. وينمو الجنين الذكر فى الجانب الأذفاً من الرحم وهو الجانب الأيمن، وينمو أسرع من نمو الجنين الأنثى. ويحدث الحيض لكل الإناث - بادئاً فى سن الرابعة عشرة ومنتهاً فى سن الستين. وكذلك ترك إمبيدوكليس تأثيراً على وظائف الأعضاء عند ديوكليس، الذى آمن بوجود أربعة عناصر أساسية: الهواء والماء والنار والتراب. والصحة هى توازن النظام توازناً مناسباً. ويجب أن تكون الأخلاط الأربعة - الدم والبلغم والصفراء والسوداء - التى تقابل العناصر، فى توازن هى الأخرى.

كان ديوكليس مقرباً من الحكام السياسيين. وأهدى بحثاً فى النظافة إلى أمير مقدونى هو بليستارخوس (Pleistarchus)، ابن أنتيباتر (Antipater) القائد العسكرى الإغريقى الشهير. كما كتب أيضاً خطاباً عن النظافة إلى الملك أنتيجون أحد قواد الإسكندر. وهذا الخطاب الأخير حفظه بول الإجناطى (Paul of Aegina) (ح ٦٢٥-٦٩٠ م) الطبيب الإغريقى من القرن السابع. وهناك عمل يسمى "أرخيداموس" (Archidamus) أهداه إلى والده. وعندما أعيد اكتشاف الكلاسيكيات

الإغريقية في القرن السادس عشر، تُرجمت أعمال ديوكليس إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية. كما حفظ أوريباسوس (Oribasius) (٣٢٥-٤٠٣م)، وهو طبيب الإمبراطور جوليان، أجزاء كبيرة من أعمال ديوكليس عن التغذية.

ويتأثر من أرسطو ودراساته عن النباتات، كان ديوكليس أول عالم يكتب عن التغذية والاستخدامات الطبية للنباتات. ويعتبر ديوكليس أبو الأقرباذين. وهناك ابتكاران يُنسبان إلى ديوكليس: رباط للرأس وآلة تشبه الملعقة لاستخراج السهام من الجسم.

وفي حوليات الطب الإغريقي أتى ديوكليس ثانياً بعد أبقراط. وتركت أعماله آثاراً عميقة على العديد من الأطباء والعلماء الإغريق مثل: ثيوفراستوس (Theophrastus) (ح ٣٧٢-٢٨٧ ق.م.) وديوسكوريديس (Dioscorides) (ح ٤٠-٩٠ م).

إيفيلين ب. كيللي (EVELYN B. KELLY)

فابيولا (Fabiola) من نبيلات الرومان ومؤسسة للمستشفيات

(ماتت حوالي ٣٩٩ م)

كانت فابيولا سيدة رومانية من علية القوم تحولت إلى المسيحية، وأصبحت من مريدى القديس جيروم (ح ٢٤٧-٤١٩/٤٢٠م)، وكُرست ثروتها الضخمة وطاقاتها للعناية بالمرضى المعوزين. وأنشأت في روما أول مستشفى عام مدنى في أوربا الغربية، وشاركت أيضاً في تأسيس أول تكية للمسافرين والفقراء في مدينة بورتو، وكانت تستقبل الحجاج والمسافرين وتقدم لهم المرطبات ووسائل الراحة.

وعلى الرغم من إن تاريخ ميلادها في روما غير معلوم، فإن بعض الحقائق عن سنوات شبابها قد سجلت. فهي تنتمي إلى أسرة فابيا الأرستقراطية الرومانية، وفي شبابها تحولت إلى الديانة المسيحية. ويشاع أن زواجها الأول كان من

زوج عنيف وبذئء اللسان؛ فطلقتَه، طبقاً لحقوقها كمواطنة رومانية. وقبل أن يموت تزوجت مرة أخرى، مما يعتبر انتهاكاً لقوانين الكنيسة. وبعد موت زوجها الثاني، قامت بكفارة عامة، أي بعقوبة ذاتية للتكفير عن تلك الخطيئة وعادت إلى حظيرة الكنيسة.

وعند تلك اللحظة الفاصلة من حياتها، تخلت فابيولا عن كل ملذات الحياة وكرست نفسها للعناية بالفقراء والمرضى. وكانت خدمة المرضى، وبخاصة الذين ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية التي كان المجتمع الراقى ينظر إليها نظرة ازدراء واستهجان، قد نالت أهمية كبرى في التعاليم المسيحية. فلم تكن أقل من واجب ديني وأخلاقي بالنسبة إلى كل من المجتمع والفرد، بل كان البعض يعتبرها تكليفاً مقدساً. فلم يكن من قبيل الصدفة أن أول مستشفيات نشأت كانت وثيقة الصلة بالقسيسين والمعالجين وفاعلي الخير من المسيحيين.

وفي سنة ٢٩٤ م، مولت فابيولا في روما بناء أول مستشفى عام للمدنيين في أوروبا الغربية. ويضاف إلى ذلك أنها استخدمت فيللتها الريفية كدار نقاهة للمرضى الخارجين من المستشفى الذين كانوا محتاجين إلى المأوى والراحة، ووهبت مبالغ كبيرة للكنائس والمجتمعات الدينية. ولم تكن فابيولا مجرد راعٍ متباعد لأعمال الخير، وإنما كانت ترعى الجرحى والمرضى بنفسها بصورة يومية. وذكر القديس جيروم، معلمها وناصحها الروحي، أنه ما من مرض تأفقت منه فابيولا حيث رفضت تمرضه بنفسها. ويقال إنها كانت تسير في شوارع روما باحثة عن المرضى والمحتضرين، والمنبوذين، وأحياناً كانت تحملهم إلى المستشفى على كتفها. وصارت حياتها مثلاً للحب والخير المسيحي.

وفي سنة ٢٩٥ م، سافرت فابيولا، التي كانت على دراية باللغات العبرية واليونانية واللاتينية، إلى بيت لحم لدراسة الكتاب المقدس ولتساهم في ممارسات الزهد والتسكك تحت إشراف القديس جيروم. ثم عادت إلى روما بعد هجوم شنه الهون جعل الحياة غير آمنة في المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية. وهناك شاركت مع القديس

باماكيوس (توفى ٤٠٩ م)، وهو عضو سابق فى مجلس الشيوخ الرومانى ورفيق طفولة للقديس جيروم وصديق لفايبولا، فى مشروع خيرى آخر- وهو إنشاء تكية (هى الأولى من نوعها) للحجاج الوافدين إلى روما. فى العصور المسيحية الأولى كانت السفن القادمة من إسبانيا وإفريقيا ترسو فى ميناء بورتو، وهى مدينة بالقرب من مدينة أوستيا على مصب نهر التيبر. وفى أعقاب اكتشاف خرائب تكية كبيرة فى بورتو فى القرن التاسع عشر، أظهرت الاستكشافات الأثرية مبنى مصمماً بذكاء لاستقبال المسافرين والعناية بالمرضى. وعُثر بالتكية على خمسة عنابر كبيرة، تصل بينها ممرات طويلة، وساحة داخلية فسيحة تتسع لأربعمئة سرير.

وداومت فايبولا بقية حياتها على خدمتها الشخصية للفقراء والمرضى، وكذلك استمرت مراسلاتها مع القديس جيروم. وبعد وفاتها سنة ٣٩٩ أو ٤٠٠، أُنشئ القديس جيروم، ذاكراً أن الآلاف احتشدوا لحضور جنازتها، ومصوراً إياها نصيراً مخلصاً وغير أنانى لأقل الناس حظاً فى مجتمعها.

ديانا ك. هوكينز (DIANE K. HAWKINS)

هيروفيلوس الكالسيدونى (Herophilus of Chalcedon) طبيب ومشرح إغريقى

(٣٣٥-٢٨٠ ق.م.)

كان هيروفيلوس الكالسيدونى طبيباً ومشرحاً إغريقياً أجرى تشريحاً للأجساد البشرية فى متحف الإسكندرية الذائع الصيت على مستوى العالم. واشتهر هيروفيلوس كطبيب ومعلم للطب، وبسبب تشريحاته الدقيقة للأجساد البشرية أطلق عليه أبو التشريح. وكثيراً ما كان العملاق الطبى جالينوس يستشهد به، وأسهمت تشريحاته الدقيقة المفصلة للمخ والعين والأعصاب والكبد والشرابين فى تقدم الفهم فى كل من التشريح والفسىولوجيا تقدماً كبيراً.

وكانت مدينة الإسكندرية بمصر التي كان يسيطر عليها الإغريق، تتحول بسرعة إلى مركز للأنشطة العلمية عندما استقر بها هيروفيلوس بدعوة من الملك بطليموس (حكم ٢٢٢-٢٨٥ ق.م.)، وصار أبرز طبيب ومشرح في متحف الإسكندرية. ويعتقد أنه أنتج ما لا يقل عن تسعة أعمال علمية عُرف عنها أنها تركت في نفوس معاصريه والأجيال التالية من الأطباء أثراً عميقاً، من بينهم جالينوس أعظم الأطباء قاطبة تأثيراً، الذي هيمنت كتاباته على الطب البشري لقرون بعد وفاته. ولسوء الحظ، لم يتبق مباشرة أى شيء من أعمال هيروفيلوس، وكل ما بقى هو استشهاده كثير من آخرين بكتاباته، وبخاصة جالينوس وديوسكوريديس (ح ٤٠-٩٠م) وبليني (٢٣-٧٩م) وبلوتارك (٤٦- ما بعد ١١٩م). وعمل هيروفيلوس في الإسكندرية أثناء فترة وجيزة ووحيدة تراخت فيها القوانين الإغريقية الموجودة منذ القدم التي كانت تحرم تشريح الجسد الإنسانى. وسمح ذلك لهيروفيلوس بدراسة التشريح الداخلى الإنسانى بتفصيل شديد، وتمكن بذلك من الدفع بعجلة المعارف العامة بالتركيبية التشريحية والوظيفية للإنسان دفعا هائلاً. واكتسبت تلك المعارف بثمن باهظ هو وصمه بالوثنى المنتهك للحرمة وجزار البشر من قبل كثير من الفلاسفة والكتاب اليونان والرومان اللاحقين فى الأجيال التى تلت.

كان هيروفيلوس من أتباع النظام الأبقراطى فى الطب، الذى رأى أن الصحة والمرض هما توازن أو اختلال التوازن بين أخلاط الجسم الأربعة. وكان يؤمن بأن الغذاء المناسب والتمارين الرياضية هى مكونات ضرورية للصحة الحسنة، وعندما يختل توازن صحة مريض فإن، العلاجات المفيدة المتاحة أمام الأطباء هى تشكيلة متنوعة من عقاقير عشبية ومعدينية، إضافة إلى فصد الدم. وهذا النمط من الطب الشامل يؤكد أهمية التغذية الصحيحة، والتمارين الرياضية الأساسية، وتبنى فلسفة أخلاقية قوية، بوصفها مفاتيح الحياة الصحية. وكان الأطباء يطبقون تلك العقيدة بصرامة على أنفسهم وعلى مرضاهم، وعندما يمرض مريض، فإن الطبيب يهدف إلى راحة مريضه ويساعده، وبالقطع يعد له بعض الأشربة العشبية الشافية،

فى الوقت الذى لا يتسبب فى إحاق مزيد من الضرر بالمريض. وكان هيروفيلوس تلميذاً لبراكساجوراس (Praxagoras) (عُرف فى القرن الرابع ق.م.)، وأراد أن يدعم فهم نظام الشرايين والأوردة الذى وصفه براكساجوراس. وركز هيروفيلوس فى أبحاثه على تركيب ووظائف ثلاثة من الأعضاء المهمة كانت موضع جدل كبير لعدة أجيال، وهى: الكبد والقلب والمخ.

شرح هيروفيلوس جثثاً بشرية كى يتوصل إلى "طبيعة المرض القاتل"، وربما كان يجرى تشريحاته فى ساحة علنية كوسيلة لتعليم غيره من الأطباء. ووسع هيروفيلوس من آفاق المعرفة بتفاصيل القلب البشرى وشرايينه وأوردته، وركز على نبض القلب، وقاسه بساعة مائية ووصف مختلف الدلالات التشخيصية للنبض. كما وصف هيروفيلوس أيضاً الأوعية اللبنية الناقلة للمواد الدهنية، والكبد، وغدة البروستاتا، وسمى الاثنى عشر بذلك الاسم. وتكمن أعظم منجزاته وأكثرها تأثيراً فى التفاصيل التى توصل إليها فى المخ البشرى والأعصاب الكثيرة فى الجسم. وميز بين المخ والمخيخ، ووصف تجاويف المخ (ventricles)، وصنف جذوع الأعصاب إلى أعصاب حسية تنقل الإحساس إلى المخ وحركية تنقل الحركة من المخ إلى سائر الجسم. كما وصف أيضاً تركيب العين وتتبع تنظيم الأم الجافية، وهى الغشاء الواقى المغلف للمخ. وكان هيروفيلوس واحداً من أوائل من وصفوا المخ لا كأداة للتبريد، وإنما بوصفه مركز الذكاء البشرى والسيطرة على الأحاسيس. وكان جالينوس العملاق الطبى الرومانى، الذى أصبح أبرز طبيب فى زمانه وهيمن على الطب لأجيال تالية عديدة، يجل هيروفيلوس ويحترم آراءه.

كينيث إ. باربر (KENNETH E. BARBER)

شخصيات تستحق الذكر

إبيكوروس (أبيقور) (Epicurus) (٣٤١-٢٧١ ق.م.)

فيلسوف إغريقي قدم فلسفة للأخلاقيات تستند إلى الملذات البسيطة والصداقة وتجنب الأنشطة السياسية والحياة العامة. وهو مؤسس لمدارس في الفلسفة كانت تتنافس مع أكاديمية أفلاطون وليسيوم أرسطو. وبخلاف مدارس منافسيه الأكثر شهرة سمحت المدارس الإبيكورية بقبول النساء. وكان أبيقور يقول بأن النظرية الذرية لديموكريتوس يمكن أن تكون أساساً لنظام فلسفي في الأخلاقيات، مثلما هي أساس للفيزياء. وتناولت كتابات أبيقور الفيزياء والأرصاد الجوية والأخلاقيات واللاهوت.

أجنوديس (Agnodice) القرن الثالث الميلادي

طبيبة إغريقية تنكرت في صورة رجل كي تمارس الطب، وكانت مهنة محرمة على النساء. وهناك أسطورة تقول: إنها حاولت أن تساعد امرأة أثناء الولادة إلا أن المرأة رفضت لأنها ظنت أن أجنوديس رجل، فرفعت أجنوديس تنورتها وأرتها أنها أيضاً امرأة. واضطهد الأطباء الذكور أجنوديس، ولكن حكايتها تشير إلى حقيقة مهنة يسيطر عليها الذكور.

أرتيميدوروس دالديانوس (Artemidorus Daldianus) القرن الثانى الميلادى

إغريقى من الصوفية عاش فى آسيا الصغرى (تركيا الآن) أثناء ما كانت تابعة لروما وألف كتاب "تفسير الأحلام" (Oneirocritica) والنص هو واحد من أكثر الأعمال المتعلقة بتفسير الأحلام اقتباساً، وهو مأخوذ من أعمال أقدم. وتتناول الكتب الثلاثة الأولى الأحلام والتنبؤ بالغيب؛ بينما يرد الكتاب الرابع على المنتقدين وبه ملحق.

أرتميسيا من كاريا (Artemisia of Caria) (اشتهر فى القرن الخامس ق.م.)

سيدة إغريقية من آسيا الصغرى درست العلوم الطبية وعلوم النبات. وكان يقال عن أرتميسيا، التى ربما كانت حكايتها شبه أسطورية، أنها كانت حجة فى الأعشاب الطبية وأن نوع النبات المسمى "أرتميسيا" قد سمي تكريماً لاسمها. ويحتمل أنها هى نفسها أرتميسيا ملكة كاريا (ماتت حوالى ٣٥٠ ق.م.)، التى تزوجت أخاها ماسولوس (Mausolus) (حكم ح ٣٧٧-٣٥٢ ق.م.) وبعد وفاته أقامت له ضريح الماوسوليوم الشهير (Mausoleum) فى هاليكارناسوس، وهو واحد من عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم.

أريتايوس الكبادوشى (Aretaeus of Cappadocia) (٨١٢-؟ ١٣٨)

طبيب إغريقى كان يمارس الطب الأبقراطى فى روما والإسكندرية. وترك أوصافاً رائعة للأمراض، منها: "عن أسباب ودلالات الأمراض الحادة والمزمنة" وعن علاج الأمراض الحادة والمزمنة، وبها أوصاف للربو والصرع والدفتيريا والارتشاح البلورى والالتهاب الرئوى والتيتانوس. ويبدو أن أريتايوس كان أول من ميز بين الشلل الناتج عن مرض بالعمود الفقرى والشلل الناتج عن مرض بالمخ، كما كان أول من كتب وصفاً

واضحاً لداء السكرى. ولما كان المرض يتسم بالعطش الشديد والتبول المفرط، فقد أطلق عليه اسم "ديابيتيس" (diabetes) بمعنى "المعاناة".

إمبيدوكليس (Empedocles) (٤٩٢؟-٤٣٢ ق.م.)

فيلسوف إغريقى اكتسب شهرة كطبيب وسياسى وعالم لاهوت وصوفى ومصالح ديمقراطى. ولم يتبق إلا شذرات من قصيدته الطويلة: "حول الطبيعة". وكان جالينوس يطلق عليه مؤسس المدرسة الإيطالية فى الطب. وكان إمبيدوكليس يُعلّم أن العناصر الأربعة المطلقة - النار والهواء والماء والتراب - ترتبط بالسخونة والبرودة، والرطوبة والجفاف. وطبقاً لما كان يقوله نحن نتنفس من خلال ثقب فى الجسم، والتنفس وثيق الصلة بحركة الدم. وهو يعتبر واحداً من أوائل من اقترحوا استخدام التجريب فى وظائف الأعضاء والطب.

أوريباسيوس (Oribasius) (٣٢٥-٤٠٣ م.)

طبيب إغريقى كرس حياته لجمع أعمال أسلافه والحفاظ على المعارف الطبية الموجودة أيامه. كان أوريباسيوس كاتباً طبياً غزير الإنتاج وذا تأثير كبير، غير أنه لم يكن مفكراً مبتكراً. وتتسم تصانيفه بأهمية بالغة لأنها شملت أعمال مؤلفين قدامى كان من الممكن أن يطويها النسيان لولا أوريباسيوس. وحتوت تصانيفه على مؤلفات فى الطب والصحة العامة والأقرباذين والجراحة من أيام أبقراط حتى أيامه هو، وبها مختارات من مؤلفات طبية لا وجود لها الآن، وكان يمكن أن تضيع من ذاكرة التاريخ.

إيتيوس من أميدا (Aetius of Amida) (٥٢٧-٥٦٤)

طبيب فى البلاط البيزنطى وصف طريقة لإزالة الوشم. ونصح إيتيوس باستخدام الملح الصخرى (نترات البوتاسيوم) والترينتينه ثم كشط الجلد بالملح بعدها بأسبوع. ويمكن تكرار العملية إن دعت الحاجة إلى ذلك. واستخدمت تعديلات لطريقة إيتيوس لإزالة الوشم على مر القرون حتى تسعينيات القرن العشرين، عندما صار الليزر الوسيلة المثلى لإزالة الوشم.

إيزيدور من إشبيلية (Isidore of Seville) (٥٦٠-٦٣٦ م)

لاهوتى وموسوعى إسبانى ويعتبر آخر الآباء اللاتينيين الغربيين. ويعتبر كتابه "أصول الكلمات" (Etymologiae sive Originens)، وهو موسوعة عن أشخاص بشرية ومقدسة، من أهم المراجع طوال العصور الوسطى. والكتاب يتناول الفنون الحرة والطب والإنجيل والكنيسة والزراعة وشنون الحرب والنقل البحرى وغير ذلك. ويعتبر الجزء الخاص بالكلمات واحداً من أوائل الكتب المهمة الشاملة للكلمات الصعبة ومعانيها. وشملت كتاباته الأخرى دراسات لغوية وعلومًا طبيعية وعلوم الكون والتاريخ والسير واللاهوت. ورسمه البابا كلمنت الثامن قديساً فى ١٥٩٨.

إيميليو ماسر (Aemilius Macer) (٧٠-١٦ ق.م.)

شاعر لاتينى كتب عن الطيور والنباتات الطبية. وكان صديقاً لأوفيد وسافر معه إلى أسيا وصقلية، وتأثرت أشعاره المواعظية بأعمال الطبيب نيكاندر من كولوفون. وظهر إيميليو ماسر فى شخصية "موبسوس" فى قصيدة فيرجيل الخامسة، واستعار عشاب يدعى أدو ماجدونينوس من القرون الوسطى اسمه وألف كتاباً (Macer Floridus de Viribus Herbarum) يصف فيه شعراً ما يقرب من ٩٠ نوعاً من الأعشاب.

براكسيتيليس (Praxiteles) (٣٧٥-٣٤١ ق.م.)

نحات إغريقي اشتهر بمنحوتاته الرخامية للآلهة والربيات الأسطورية. وكانت الأوضاع التي اتخذها لأجساد تماثيله هي التي جعلته متفرداً. فبدلاً من أن يضعهم في أوضاع تقليدية جامدة والوجوه متجهة إلى الأمام والأذرع في أوضاع متماثلة على الجانبين، جعل تماثيله منحنية أو مائلة أو ملتوية قليلاً كي تبدو أكثر طبيعية. وأشهر أعماله هي: "هرمس يحمل ديونيسوس الطفل" و"أبوللو سوروكتونوس" و"أفروديت من كنيديوس".

بلييني الأكبر (Pliny the Elder) (٢٣-٧٩ م.)

عالم وكاتب روماني ألف موسوعة شاملة جامعة في الحيوان والنبات، والفلك والجغرافيا وغيرها من المواضيع. وفي موسوعته "التاريخ الطبيعي" (Historia Naturalis) جمع بلييني معلومات من حوالي ٢٠٠٠ مصدر مكتوب. وأصبحت موسوعة "التاريخ الطبيعي" في أحوال كثيرة المصدر الوحيد المتبقي لأعمال علماء أقدمين. وصارت الموسوعة ذات الـ ٣٧ جزءاً مرجعاً تعليمياً أساسياً واحتفظت بمكانة رفيعة حتى القرن الخامس عشر، عندما قرر النقاد أنها تموج بالأخطاء. وينظر إليها اليوم بوصفها عملاً أدبياً مهماً، ولكن فوائدها العلمية محدودة.

بوليكليتوس (Polyclitus) (اشتهر في القرن الخامس ق.م.)

نحات إغريقي ساهم في تقدم المعارف والفهم الخاص بتشريح الجسد الإنساني وهيئته. وعلى الرغم من أنه لم يبق شيء من أعماله الفنية فإن سمعته كمبدع لروائع نحتية يعززها العدد الكبير من النسخ التي صنعت لأعماله الشهيرة، مثل: "رامي القرص". وهناك مقالة مكتوبة عن الشكل الإنساني واتساقه تسمى "القانون" (Kanon)

وتُنسب إلى بوليكليتوس، عززت من شهرته كمتمرس في التعبير عن النسب الإنسانية الصحيحة والتشريح الخارجى فى منحوتاته. وأعماله هى أقدم مثال على العلاقة بين أنماط الفن التى تصور بدقة تفاصيل الجسم الإنسانى وتأثيراتها على دراسة التشريح الإنسانى والطب.

تشن تشوان (Chen Ch'uan) (مات حوالى ٦٤٣ م)

طبيب صينى عرف بأنه أول شخص يتعرف على أعراض البول السكرى. فقد لاحظ أن بعض المرضى يشكون من عطش شديد وأن بولهم حلو المذاق.

ثوسيديديس (Thucydides) (ح ٤٧١-٤٠١ ق.م.)

مؤرخ إغريقى يعرف بأنه كان شاهد عيان على وباء الطاعون الذى أصاب أثينا سنة ٤٢٩ ق.م. فى مستهل حرب البيلوبونيز (٤٣١-٤٠٤ ق.م.). كتب ثوسيديديس يقول: "إن أجساد الرجال المحتضرين لمقاة فوق بعضها، والكائنات أنصاف الموتى تهيم فى الشوارع، وسيطرت المأساة، حيث لم يعد الرجال يأنهون بأية قواعد الدين أو القانون". وأصيب ثوسيديديس نفسه بالمرض غير أنه تعافى منه، وذكر أن المتعافين كانوا يقومون بالعناية بالمرضى نون أن يصابوا بالمرض مرة أخرى. ومما لا شك فيه أن الوباء، الذى أودى بحياة أعظم زعماء المدينة وهو بركليس (ح ٤٩٥-٤٢٩ ق.م.) كان نتيجة سوء الأحوال الصحية وازدحام السكان الذى زادت الحرب من حدته. وأما عن طبيعة المرض ذاته، فالعلماء المحدثون قد عرفوه بأنه التيفود أو الإنفلونزا.

روفوس الإفيسوسي (Rufus of Ephesus) اشتهر في أخريات القرن الأول ق.م. إلى منتصف القرن الأول الميلادي)

طبيب إغريقي تحدث في كتاباته التشريحية عن النبض وعلاقته بضربات القلب. كان روفوس ماهراً في وظائف الأعضاء والملاحظات الإكلينيكية والجراحة وعلاج الأمراض. ووصف الطاعون الدملي والتقرس؛ ودرس تشريح العين والمخ والمشيمة. وكان أول من وصف الكبد رغم أن وصفه كان مبنيًا على كبد الخنزير. وأدخل روفوس عقاقير، مثل عقار هيرا وهو مسهل قوى يحتوى على نبات التفاح المر، وغيره من العقاقير. وكانت طرائقه الجراحية لإيقاف النزيف سابقة لعصره. وكانت مقالته المعنونة "حول استجواب المريض" ذات أهمية خاصة لأنها أبانت أهمية التاريخ المرضى والعائلي في التشخيص الدقيق للأمراض.

زينو السيتيومى (Zeno of Citium) (ح ٣٣٥-٢٦٣ ق.م.)

فيلسوف إغريقي أسس المدرسة الرواقية. وكانت الصحة من بين ما اهتم به الرواقيون، وكانوا نوى نظرة مستقبلية ثابتة عندما أصروا على وجود علاقة بين ما يطلق عليه المحدثون "الصحة النفسية" والصحة الجسدية. ولهذا أكد الرواقيون أنه لكي يكون المرء سعيداً فإنه يتعين عليه أن يتوافق مع الطبيعة. وعلى سعيد آخر، فإن تعاليمهم بأن على الناس أن يتقبلوا بصبر الظروف مثل: الفقر والمرض والموت، تخالف بالتأكيد الفكر الغربي الحديث.

سانت لوقا (Saint Luke) (اشتهر في القرن الأول م.)

طبيب سوري وأحد مؤلفي الأناجيل وواحد من الأطباء الذين جاء ذكرهم في الإنجيل. تحول لوقا إلى المسيحية بعد لقائه مع القديس بولس. ويعد ذلك، إضافة إلى

ترحاله مع القديس بولس، قام منفرداً بعدد من الرحلات التبشيرية. كان إغريقياً ولم يكن يهودياً، وولد في أنطاكية عاصمة سوريا. ويعتبر مؤلف سير الرسل والإنجيل الثالث.

ستراتو اللامبساكوسى (Strato of Lampsacus) (؟ - ٢٤٠ - ٢٧٠ ق.م.)

فيلسوف إغريقى من أتباع أرسطو خلف ثيوفراستوس كمدير لليسيوم ورئيس لمدرسة المشائين للفلسفة. كما درس ستراتو أيضاً الفيزياء وكان أول شخص يدرك تسارع الأجسام أثناء سقوطها. واشتهر بأبحاثه عن تكون الفراغ، أو العدم، التي أصبحت فيما بعد أساس التصاميم الإغريقية للآلات الهوائية والبخارية.

سورانوس الإفيوسى (Soranus of Ephesus) (اشتهر في القرن الثانى الميلادى)

طبيب إغريقى اعتبر لعدة قرون المرجعية الرائدة في أمراض النساء والتوليد وأمراض الأطفال. وكل الابتكارات التي ادعى أنها من مبتكرات القرن السادس عشر، مثل: كرسى الولادة وولادة الجنين من قدميه أولاً، كان سورانوس قد وصفها، وقد صنف أيضاً مؤلفات في علم الأجنة والصحة العامة والأمراض المزمنة والحادة، والجراحة، وتضميد الجروح. وينتمى سورانوس إلى المدرسة المنهجية في الطب التي كانت ترى في الصحة والمرض أنها نتيجة لأحوال ثلاثة محتملة للثقوب الدقيقة في الجسم: إفراط في الانقباض، أو إفراط في الارتخاء، أو مزيج بين الاثنين.

سوسروتا (Susruta) (؟ - ٣٨٠ - ٤٨٠ ق.م.)

طبيب هندي يعتبر أعظم جراح هندي في التاريخ. أكد سوسروتا أهمية تعقيم الجروح، كما أدخل العديد من أنواع العمليات الجراحية، بما في ذلك عمليات

تجميل الأنف وجراحات البطن والكتاراكتا. وكان سوسروتا يدرّب تلاميذه على إجراء العمليات الجراحية على الخضروات والحيوانات الميتة قبل أن يسمح لهم بإجرائها على المرضى. وترجمت مؤلفاته الطبية إلى العربية في أواخر القرن الثامن الميلادي.

شاراكا (Charaka) (اشتهر في القرن الثاني الميلادي)

طبيب هندي يقال إنه عمل كطبيب للقصر للملك كانيشكا (حكم حوالي ٧٨-١٠٣م)، أو على الأقل للأسرة الكوشانية الحاكمة. وكان من أتباع النظام الطبي الهندوكي المعروف باسم "الأيورفيدا"، ويقال إن شاراكا ذكر ما يقرب من ٥٠٠ دواء في كتابه الطبي الشهير "شاراكا سامهيتا".

فيثاغورس (Pythagoras) (ح ٥٥٠-٤٨٠ ق.م.)

فيلسوف ورياضي إغريقي أسس حركة فلسفية ودينية تعتمد على الاعتقاد بأن كل الأجهزة الطبيعية تحددها علاقات رقمية غامضة. وأنشأ هو وأتباعه علاقة وثيقة بين العلم والرياضيات وترك أثراً عميقاً على أفلاطون. وحاول الفيثاغوريون أن يطبقوا مبادئهم على كل مناحي العالم الطبيعي؛ وقيل إنه من المحتمل أن يكونوا هم من كتبوا القسم الأبقراطي.

فيدياس (Phidias) (٤٩٣-٤٣٠ ق.م.)

نحات إغريقي نحت تماثيل البارثنون والاكروبوليس، بما في ذلك تمثال زيوس أحد عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، وتمثال أثينا، وهو تمثال هائل الحجم من العاج والذهب. ولما نودي به كأعظم مثال في بلاد اليونان القديمة، كلفه بركليس (Pericles) بالإشراف على إقامة المنشآت العامة في أثينا. وبعد أن

اتهمه أعداؤه بسرقة الذهب من تمثال أثينا ونحت تماثيل لنفسه ولبركليس على درع أثينا، فر إلى المنفى.

فيليسستا (Phyllista) (٤٩٣؟ - ٤٣٠ ق. م.)

سيدة إغريقية كانت تلقى المحاضرات فى الطب. ويقال إنها كانت تتحدث من وراء ستار من فرط جمالها - وهى قصة قيلت أيضاً على عالمة يعرف عنها الكثير، وهى هيباشيا (Hypatia) السكندرية (٢٧٠-٤١٥ م.). ويحتمل أن فيليستا، على شاكلة معاصرتها أجنوديس، كانت شخصية أسطورية؛ وحتى لو كان الأمر كذلك فإن مثل تلك الأساطير تجسد حقيقة أن بعض النسوة كن يجاهدن للحصول على مكان فى عالم الطب الإغريقى الذى كان الرجال يسيطرون عليه.

كاسيودوروس، فلافيوس ماجنوس أوريليوس كاسيودوروس

(Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus) (٤٩٠؟ - ٥٨٣؟)

كاتب وسياسى وراهب رومانى أسس أديرة وشجع على نسخ نصوص قديمة بواسطة كتبة الأديرة، وبهذا ساهم فى الحفاظ على الحضارتين الرومانية والإغريقية والأعمال المسيحية والوثنية وإلا لكانت قد زالت من الوجود. له مؤلفات عديدة منها مقالة عن الموسيقى الكنسية المبكرة لا تزال تُدرس بواسطة علماء الموسيقى الكنسية والآلات الموسيقية القديمة.

لوكرينتيوس (نيتوس لوكرينتيوس كاروس) (Lucretius (Titus Lucretius Carus) (٩٩-٤٤ م.)

كاتب وفيلسوف رومانى اشتهر بقصيدته "حول طبائع الأشياء". (De rerum natura). وهى تتناول استعراضاً لنظريات إبيكوروس (Epicurus) الفيلسوف الإغريقى، وهو

فيلسوف نال احترام أبيقور وتوقيره. وتشمل القصيدة مبادئ النظرية الذرية، وتدحض النظريات المنافسة لغيره من الفلاسفة، وتطبق النظرية الذرية على تركيبه الروح وفنائها، وتشجب الخرافات، وتصف آليات الإدراك الحسى والفكر وبعض وظائف الجسم، وخلق الأرض والأجرام السماوية، وتطور الحياة والمجتمع الإنسانى، وفضائع الطاعون الذى أصاب أثينا.

هسى هان (Hsi Han)

كاتب صينى ذكر فى بحث له عن الزراعة ما يمكن اعتباره الآن أول مثال للسيطرة البيولوجية على آفات الحدائق. فكتابه "النباتات والأشجار فى المناطق الجنوبية" (٢٠٤م) يذكر أن بعض الأنواع المفتروسة من النمل يمكن أن تقى ثمار اليوسفى من الحشرات التى تصيب النباتات.

هوا تو (Hua T'o) (؟ ١٤٥ - ٢٠٨ م)

جراح صينى ينسب إليه فضل اختراع العقاقير المخدرة، والمراهم المطهرة، والحمامات الطبية، والعلاج بالماء، والتمرينات الرياضية الطبية، وجراحات البطن، وغير ذلك من العمليات الرائعة. ويدعى أيضاً أن هوا تو كان متمكناً من الوخز بالإبر ومشخصاً رائعاً. وعندما سجنه الإمبراطور تسوا أحرق هوا تو مخطوطاته فنُسيت كل مكتشفاته الجراحية فيما عدا طريقته للإخصاء. ولم يترك وراءه تلميذاً أو خليفة ليتابع فنه؛ وربما كان مجرد شخصية أسطورية وهمية.

سجل بالمراجع الرئيسية

أرسطو. "حول الروح" (De Anima) (القرن الرابع ق.م.). يعتبر أول كتاب فى العالم يتناول علم النفس الإنسانى.

أرسطو. "تاريخ الحيوان" (Historia animalium)، من القرن الرابع ق.م.، يتعرف على ٤٩٥ نوعاً تشمل رأسيات الأرجل (cephalopods)، والقشريات (crustacea)، والصدفيات (testacea)، والحشرات؛ ويناقش أصوات الحيوانات وبيئتها وغذاءها وهجراتها وبيئاتها الشتوى وحركتها؛ ويحلل أمراض الحيوانات وصحتها وتكاثرها، ويميز بين الحيوانات الواضعة للبيض وغيرها الولودة؛ ويقارن بين وظائف الأعضاء فى كل من الإنسان والحيوان. كان أرسطو تصنيفياً ويمكن اعتبار أبحاثه عن الشكل والتركيب نوعاً من "ما قبل التصنيف". وبناء على أبحاثه حاول فلاسفة الطبيعة التالون أن ينظموا الطبيعة وفقاً لتصانيف التشريح المقارن.

أرسطو. "بارفا ناتوراليا" (Parva naturalia). من القرن الرابع ق.م. تحوى ثمانية أبحاث قصيرة عن علوم الحياة: حول الإحساس والأشياء المحسوسة، عن الذاكرة والتذكر، عن النوم واليقظة، عن الأحلام، عن العرّافة بتأويل الأحلام، عن طول وقصر الحياة، عن الشباب والكهولة، عن التنفس.

أرتميدوروس دالديانوس (Artemidorus Daldianus). تفسير الأحلام (Oneirocritica)، القرن الثانى م. نص مهم وشائع الاقتباس عن تفسير الأحلام. وربما يكون تجميعاً لأعمال سابقة، وتتناول الكتب الثلاثة الأولى الأحلام وتفسيرها، بينما يخاطب الكتاب الرابع النقاد ويحوى ملحقات.

إيزيدور من إشبيلية (Isidore of Seville) الإتيمولوجيا (Etymologiae) أو دراسة أصل الكلمات. موسوعة من القرن السابع الميلادي تتناول شخصيات بشرية ومقدسة وكانت مرجعاً مهماً طوال العصور الوسطى. وتغطي "الإتيمولوجيا" الفنون الحرة والطب والإنجيل والكنيسة والزراعة وشنون الحروب والنقل بالسفن وغير ذلك من المواضيع. ويعتبر الجزء الخاص بدراسة أصول الكلمات واشتقاقها واحداً من أهم وأوائل علامات الطريق في تصنيف القواميس.

بردية إيوين سميث. حوالى ١٥٥٠ ق.م. بردية مصرية قديمة يُفترض أنها منسوخة من عمل أقدم من ذلك التاريخ، والجراحة هي موضوعها الرئيسي، وبخاصة الجروح والكسور. وتشمل كثير من الحالات التي ذكرت بها إغلاق الجروح ربما باستخدام الخيوط. وهناك أيضاً أدلة في البردية تدل على الأطباء المصريين كانوا يستخدمون أشرطة لاصقة لإغلاق الجروح. واشترى البردية سنة ١٨٧٢، عالم المصريات الأمريكى إيوين سميث. وحاول أن يترجمها، ولكن أهميتها لم تتضح إلا سنة ١٩٢٠، عندما ترجمها بالكامل جيمس برستد.

بردية إيبيرس. حوالى ١٥٠٠ ق.م. بردية مصرية قديمة تتكون من مجموعة من النصوص الطبية. وخصص جانب كبير منها للتنوع الكبير للأدوية التي كان الأطباء المصريون يستخدمونها لعلاج مرضاهم. وتشمل مصادر تلك الأدوية النباتات والحيوانات والمعادن. اشترى إيوين سميث عالم المصريات الأمريكى البردية سنة ١٨٦٩، ثم باعها سنة ١٨٧٢ إلى جورج إيبيرس .

بلينى الأكبر (Pliny the Elder) التاريخ الطبيعى (Historia naturalis) القرن الأول الميلادى. موسوعة شاملة لعلوم الحيوان والنبات وكذلك الفلك والجغرافيا وغيرها. جمع بلينى معلوماته من حوالى ٢٠٠٠ مصدر مكتوب. وفى أحوال كثيرة تشكل موسوعة "التاريخ الطبيعى" المصدر الوحيد المتبقى لأعمال علماء أقدمين. وأصبحت الموسوعة المكونة من ٢٧ جزءاً مرجعاً تعليمياً أساسياً ودامت أهميتها حتى

القرن الخامس عشر، عندما قرر النقاد أن الكتب مليئة بالأخطاء. ويُنظر إليها اليوم باعتبارها عملاً أدبياً مهماً، ولكن قيمتها العلمية ضئيلة.

بواس الإجناطى (Paul of Aegina) خلاصة الطب فى سبع كتب "Epitomae med- cae libri septem"، القرن السابع الميلادى. يحوى أوصافاً للعديد من العمليات الجراحية، بما فى ذلك بتر الثدي وإزالة حصى المثانة والترينة واستئصال اللوز وبزل استسقاء البطن، والعلاج المفضل لديه للفتق الإربى بما فى ذلك استئصال الخصية على الجانب المصاب.

بوليكليتوس (Polycritus) القانون " (Kanon) القرن الخامس ق.م. مقالة عن الأشكال والنسب البشرية وتمثيل التشريح الخارجى فى النحت. وعلى الرغم من أن أياً من أعماله الفنية لم يبق فإن سمعته كصانع لروائع فنية نحتية يعززها بقوة العدد الكبير من النسخ التى نُسخت لأعماله الشهيرة، مثل: "رامى القرص". وتوضح أعماله العلاقة التى تربط بين أنماط الفن التى تصور أدق تفاصيل الجسم البشرى وتأثيرها على دراسة التشريح البشرى والطب.

ثيوفراستوس. "عن شئون النباتات" و"عن تاريخ النباتات". القرن الرابع ق.م. فى تلك النصوص يوضح ثيوفراستوس المفاهيم الأساسية لأشكال النباتات وتصنيفها وتاريخها الطبيعى. ويبدو أنه كان موجهاً إلى البستانية، فالكتب عملية أكثر منها نظرية. وتُقبل أفكاره دون مناقشة لعدة قرون.

رؤوس من إفيسوس (Rufus of Ephesus) حول استجواب المريض". القرن الأول الميلادى. مقالة طبية مهمة تشرح كيف تسهم التواريخ المرضية للمريض والأسرة فى التوصل إلى تشخيص دقيق للمرض.

سوسروتا، سوسروتا سامهيتا. حوالى القرن السابع الميلادى، وهو واحد من الأعمال الطبية الرئيسية للأيورفيدا، وهى فرع من فروع الطب الهندوكى التقليدى، وتشكل نصاً هندياً مهماً عن الجراحة. ويتضمن أوصافاً لما يزيد على ١٠٠ آلة جراحية

مختلفة، غالبيتها مصنوعة من الحديد، ولكل منها وظيفة محددة. ويحوى "سوسروتا سامهيتا" أيضاً على أقدم تدريبات عملية لطلبة الطب، لتشجيع جراحي المستقبل على تطوير طرقهم الجراحية بالعمل على "مرضى" غير بشريين مثل الخضروات. ولا يُعرف تاريخ الكتاب على وجه التحديد، نظراً لانتقاله شفاهةً عبر القرون قبل أن يُكتب. والكتاب يُنسب إلى سوسروتا وهو جراح، غير أنه من المؤكد أن غيره من الأطباء قد أضافوا معارفهم للكتاب. وربما يكون الكتاب قد وصل إلى صورته الحالية في القرن السابع الميلادي.

شاراكا. شاراكا سامهيتا. حوالى القرن الأول م. وهو واحد من أهم النصوص الطبية للأيورفيدا التي هي فرع من فروع الطب الهندوكي التقليدي، وجاء به ذكر ما يقرب من ٥٠٠ دواء. وتاريخ الكتاب ليس معلوماً بدقة، لأنه كان ينتقل شفاهة لعدة قرون قبل أن يُدوّن كتاباً. وعلى الرغم من أن الكتاب يُنسب إلى شاراكا، وهو من أطباء القصر، فإنه يكاد يكون في حكم المؤكد أن أطباء آخرين أضافوا معارفهم إلى الكتاب. وربما يكون الكتاب قد اكتسب شكله الحالي في القرن الأول م.

جوش لاور (JOSH LAUER)

الباب الثالث

الرياضيات

سجل زمنى

- ح ٢٠٠٠ ق.م. الرياضياتيون فى بلاد الراقدين يتعلمون حل المعادلات التربيعية أو معادلات الدرجة الثانية.
- ح ١٣٥٠ ق.م. الصينيون يستخدمون الأعداد العشرية أى النظام العشرى المبني على رقم ١٠.
- ح ٨٧٦ ق.م. تاريخ أقدم وثيقة تذكر مفهوم ورمز الصفر، الذى نشأ فى الهند.
- ح ٥٠٠ ق.م. فيثاغورس الرياضى والفيلسوف الإغريقى يبتكر نظريته الشهيرة؛ ويدرس العلاقة بين الطبقة الموسيقية وطول الأوتار فى الآلات الموسيقية؛ ويقترح فكرة أصبحت ذات أثر عميق وهى إمكانية تفسير كل الظواهر الكونية من خلال الرياضيات.
- ح ٤٠٠ ق.م. أرخيتاس الرياضى والفيلسوف الإغريقى يميز بين المتواليات التوافقية والحسابية والهندسية، وهو أول من طبق الرياضيات فى الميكانيكا.
- ح ٢٠٠ ق.م. إقليدس يصنف كتاباً مرجعياً فى الهندسة يسميه "المبادئ" يجمع قوانين كل الرياضيات الموجودة أيامه وينظمها، وهو الكتاب الذى قُدِّر له أن يصبح مرجعاً فى الرياضيات لمدة ٢٢٠٠ سنة.
- ح ٢٥٠ ق.م. الإمبراطور الهندى أشوكا يقيم نُصباً حجرية تحوى أقدم مثال لنظام الأعداد المستخدم اليوم.

- ح ٢٢٠ ق.م. الفلكى الإغريقى إيراتوستينز يستتبط نظاماً للتوصل إلى الأرقام الأولية أصبح يعرف باسم "غريبال إيراتوستينز".
- ح ٢٢٥ ق.م. أرشميدس، الذى يعتبر أعظم عبقريّة رياضية فى العصر القديم، يتوصل إلى رقم موثوق به للقيمة التقريبية "ط" (π)؛ ويبتكر طريقة للتعبير عن الأعداد الكبيرة تماثل الدالة الأسية؛ وفى قياس المساحات المقوسة يستخدم نمطاً من الرياضيات يماثل حساب التفاضل والتكامل.
- ح ١٤٠ ق.م. هيبارخوس، وهو فلكى إغريقى، يؤسس حساب المثلثات. استخدام الأعداد السالبة فى الصين.
- ح ١٠٠ ق.م. ديوفانتوس يصنف كتابه "أريثماتيكا"، وهو أقدم مقالة عن الجبر ولا تزال موجودة لم تضع.
- ح ٢٥٠ م. ثيون السكندرى ينشر كتاب إقليدس "المبادئ" بعد أن يضيف إليه تعليقاته وشروحاته. وهو والد العالمة النابذة هيباتيا.
- ح ٤٠٠ م. هيباتيا السكندرية تكتب تعليقاتها على كتابات الرياضياتيين الإغريقين ديوفانتوس وأبولونيوس. وهيباتيا هى أول امرأة يأتى لها ذكر فى علوم الرياضيات، وقد قتلها جمهور من غوغاء المسيحيين المتعصبين سنة ٤١٥م. وأدى هذا الحادث إلى فرار العديد من العلماء من الإسكندرية ويمثل بداية انحدار الإسكندرية كمركز رئيسى من مراكز العلم والمعرفة.
- ٤٩٩ م. أريابهاتا، وهو رياضياتى وفلكى هندي، يؤلف كتابه "أريابهاتيا" الذى يحوى وصفه العميق لنظام الأعداد الهندى.

نظرة شاملة

الرياضيات من ٢٠٠٠ ق.م. إلى ١٩٩ م

يمكن مشاهدة الأعداد ومدى أهميتها فى العلامات المرسومة على جدران الكهوف وعلى الأدوات البدائية. غير أن الأمر استغرق ألفاً مؤلفة من السنين لى تتحول الاستخدامات الأولى للكميات إلى المفاهيم المجردة للأرقام كما نستخدمها اليوم.

وطورت حضارات منطقة بلاد الرافدين استخدام الأعداد المكتوبة بحلول حوالى ١٨٠٠ ق.م. وابتكر البابليون على وجه الخصوص نظاماً متطوراً للأرقام، وقدروا القيمة التقريبية "ط" بشيء من الدقة، واستخدموا الكسور، وحلوا معادلات تربيعية مركبة من الدرجة الثانية. وانتشرت الرياضيات الرافدية انتشاراً واسعاً بسبب الغزوات العديدة فى المنطقة. وتركت أفكارهم أثرها على حضارات أخرى من أوروبا إلى الصين.

كما تطورت الرياضيات الصينية فى أوقات مبكرة. ويعود تاريخ أقدم ما عُثر عليه من أعمال رياضياتية إلى حوالى ٢٠٠ ق.م.، ويحوى حسابات فلكية مفصلة وكذلك مسائل حسابية تتعلق بمسح الأراضى والزراعة وما إلى ذلك من معضلات رياضياتية عملية. واهتم الصينيون بأشكال الأعداد، وكان المربع السحري (magic square) من بين مخترعاتهم.

وبرديتا موسكو ورايند هما أقدم وثائق مصرية رياضياتية عُثر عليها. ويعود تاريخ بردية موسكو إلى حوالى ١٨٩٠ ق.م. وتحوى أمثلة للهندسة كانت لها أهمية كبيرة فى حساب المساحات والأحجام. أما بردية رايند (أو أحمس) فيعود تاريخها إلى

ما يقارب ١٦٥٠ ق.م. وتحتوي معلومات منسوخة من مصادر أقدم. وبها أمثلة عديدة للكسور، وهي مكتوبة على صورة مسائل حسابية تتصل بشئون عملية. ويناقد النص الجمع والطرح في غالبيته، لكنه يتعامل أيضاً مع اختصارات الضرب والنسبة والتناسب.

كما تحوى بردية رايند أيضاً أقدم مثال لمسألة جبر. استوعب الإغريق الرياضيات المصرية وبلغوا المصريين بوصفهم آباء الرياضيات. وكتب ديوفانتوس الإسكندري (القرن الثالث م) أول كتاب عن الجبر، وكان ديوفانتوس عالماً رومانياً يكتب وفقاً للأفكار الإغريقية. وكان الجبر فرعاً صغيراً حتى ظهرت أعمال العالم العربي محمد بن موسى (٨٠٠-٨٤٧) المعروف أيضاً بالخوارزمي. وتعبير "لوغارتومات" (algorithm) مشتق من اسمه.

وكثيراً ما كانت الأعداد تُدرّس لخواصها الباطنية الخفية إضافة إلى أهميتها الرياضية. وكان فيثاغورس (Pythagoras) (٥٨٠-٥٠٠ ق.م.) وأتباعه الكُثُر بوجه خاص مهتمين بالأرقام ذات الخواص الخاصة، مثل الأرقام الأولية. واكتشفوا أيضاً ما يسمى الأرقام المثالية والأعداد المتحابية (amicable numbers). وعلى الرغم من أن أفكار فيثاغورس الصوفية كان لها تأثير عميق على علماء الرياضيات من بعده فإن أشهر منجزاته التي اشتهر بها كانت نظريته المتعلقة بالمثلثات قائمة الزاوية، وهي النظرية التي تحمل اسمه. وفي الحق كانت الهندسة أهم ما يشغل بال علماء الرياضيات القدماء.

سافر رياضياتيون إغريق، مثل طاليس الميلىسى (Thales of Miletus) (٦٢٤-٥٤٨ ق.م.) وفيثاغورس، إلى مصر وبابل حيث تعلموا مبادئ الهندسة. وطور الإغريق الهندسة بإصرارهم على براهين استدلالية. ويعود إلى طاليس فضل ابتكار أقدم النظريات الهندسية التي طورها المفكرون التالون لتوسيع مجالات الهندسة. وقد جمع إقليدس (Euclid) (٢٢٠ ق.م.-٢٦٠ ق.م.) كل النظريات التي وضعها من سبقوه من الرياضياتيين في كتابه "المبادئ" (Elements) الذي قدر له أن يستمر المرجع الأساسي

لما يربو على ٢٠٠٠ سنة. وأضاف الهندسيون القالون، مثل أرشميدس (٢٨٧ ق.م. - ٢١٢ ق.م.) وأبولونيوس (Apollonius) (٢٦٢ ق.م. - ١٩٠ ق.م.) المزيد من النظريات الجديدة.

وكانت هناك ما يطلق عليها المسائل العظمى الثلاث التي سيطرت على الرياضياتيين الإغريق وشغلت أذهان العديد من الرياضياتيين لقرون تالية. وكانت أشهرها أنذاك مسألة مضاعفة المكعب التي تصدى لمحاولة حلها ليف من المفكرين الإغريق. وقام أبقراط من كيوس (Hippocrates of Chios) (اشتهر حوالي ٤٦٠ ق.م.) بخطوات مبكرة مهمة في سبيل حلها، كما كان ثمة حل رشيق، وإن كان معقداً بعض الشيء، اقترحه أرخيتاس (Archytas) (٤٢٨ ق.م. - ٣٥٠ ق.م.). غير أن جهود منيخموس (Menaechmus) (٣٨٠ ق.م. - ٣٢٠ ق.م.) في هذا الأمر هي التي بقيت في الذاكرة، فهو لم يكتف بوضع حلين اثنين للمسألة ولكن جهوده أسفرت عن وضع أسس التفكير في المقاطع المخروطية أيضاً.

غير أن المسالتين العظيمتين الأخرين، وهما تربيع الدائرة وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية هي مسائل غير قابلة للحل. ولأول وهلة يبدو الحل ممكناً بصورة مثيرة، وشغل تربيع الدائرة بوجه خاص فكر العديد من الرياضياتيين لما يقرب من أربع ألافيات. ومن المستحيل رسم دائرة ومربع بنفس المساحة لأن القيمة التقريبية "ط" عدد غير نسبي. ومحاولات حل هذه المسألة، على الرغم من أنها لا طائل منها، فإنها أدت إلى تقريبات بالغة الدقة لقيمة "ط".

وبالمثل يبدو تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية مسألة يسيرة، وهي كذلك فعلاً من زوايا معينة. غير أنه لا وجود لوسيلة لتقسيم زاوية اعتباطية بالمسطرة والمنقلة. وحتى اليوم لا يزال رياضياتيون هواة يحاولون حل تلك المسألة غير القابلة للحل.

ولقد أدت المشاكل العملية في الفلك إلى دراسة حساب المثلثات. وفي الحقيقة كان العديد من الرياضياتيين المبكرين مهتمين بالفلك اهتماماً كبيراً. وقدم عالم الرياضيات

الإغريقي هيبارخوس (Hipparchus) (١٨٠؟ ق.م. - ١٢٣؟ ق.م.) أول عمل كبير فى حساب المثلثات مستغلاً فيه العديد من الأفكار البابلية. ونجح إيراتوستينز (Eratosthenes) (٢٧٦؟ ق.م. - ١٩٤؟ ق.م.) فى أن يستخدم قواعد حساب المثلثات فى حساب طول محيط الأرض بدقة مثيرة للدهشة. وأدت أعمال متأخرة لمنيلاوس (Menelaus) (٧٠؟ - ١٤٠؟) وپتليموس (Ptolemy) (١٠٠؟ - ١٧٠؟) على الأخص إلى تطوير علم حساب المثلثات وتوسيع نطاق تطبيقاته العملية.

كما استخدمت الرياضيات أيضاً فى وضع أحجيات المنطق وحلها. ووضع المفكر الإغريقي بارمنيدس (Parmenides) (٥١٥؟ ق.م. - ٤٤٥؟ ق.م.) وتلميذه زينو الإيلوى (Zeno of Elea) (٤٩٠؟ ق.م. - ٤٢٥؟ ق.م.) عدداً من أحجيات المنطق المثيرة للاهتمام بما لها من مضامين رياضياتية. واهتمت "مفارقات زينو" بأفكار المالا نهائية، وهى التى شغلت بال العديد من الفلاسفة الإغريق. واستخدم زينو المنطق الرياضى لإثبات أن الحركة مستحيلة. ومن الجلى أن ذلك كان يجافى الحقيقة، لكن براهينه الرياضياتية كانت تبدو منيعة وصامدة، مما حدا بكثير من المفكرين الإغريق إلى إعادة النظر فى أفكارهم تجاه العالم.

ورث العالم الرومانى معظم المعارف الإغريقية والمصرية، غير أنهم لم يطوروا كثيراً فى المجالات الرياضياتية. وفى الأعداد الرومانية، التى تطورت من أنظمة الأعداد الإغريقية المبكرة والأنظمة المصرية، نجد أن كل رقم يُمثل بمجموعة مفردة من الرموز. واستمرت الأعداد الرومانية تشكل النظام الرقمى السائد فى أوروبا لئئات السنين، ولا تزال مستخدمة إلى اليوم فى بعض الأحوال. غير أن النظام الرومانى ينتج مجموعة شديدة الطول من الرموز لبعض الأعداد، مما جعل الحسابات المركبة بالغة الصعوبة.

وكان لوح العد من بين أقدم الأدوات الرياضياتية، وهو عبارة عن سطح مستو عليه خطوط تتحرك عليها وسائل عد تمثل الأعداد. وتطور لوح العد إلى الأباكوس (abacus) أو المعداد، وهو إطار عليه عصى وخرز منزلق. وجعلت هذه الأدوات من

إجراء الحسابات أمراً سريعاً وميسوراً، ولكنها حَجُمَت من تطور النظريات الرياضية، لأن مستخدمي هذه الأجهزة اهتموا بالنتائج أكثر من اهتمامهم بالعمليات التي أدت لتلك النتائج.

ويستخدم لوح العد والمعداد نظام الخانات للعدد الذي تتحدد فيه قيمة العدد حسب خانته، حيث يتكرر استخدام عدد محدود من الرموز في خانات مختلفة لتمثل كل الأعداد. وفي نظامنا العشري المبني على ١٠ يمثل أول عمود خانة الأحاد ويمثل العمود التالي خانة العشرات والثالث خانة المئات، وهكذا دواليك. وابتكرت بعض الحضارات نظاماً مكتوباً للأعداد يستخدم نظام الخانات، مثل البابليين الذين استخدموا العدد ٦٠ كأساس لنظامهم، والمايا في أمريكا الوسطى الذين بنوا نظامهم على العدد ٢٠. ويمتاز نظام الخانات بسهولة إجراء عمليات الضرب والقسمة.

كما كشف نظام الخانات أيضاً عن الحاجة إلى رمز يمثل اللاشيء وهو الصفر. فعندما يتم تسجيل عملية حسابية كثيراً ما يحدث ارتباك بسبب أن النتيجة هي لا شيء في إحدى الخانات، مثل العدد ٢٠٣، الذي لا يحتوي على عدد في خانة العشرات. وفي النظام الروماني ليست هناك مشكلة - فالرقم هو CCIII - ولهذا لم تنشأ الحاجة إلى الصفر في الغرب. ولكن نظام الخانات يتطلب وجود رمز يشغل المكان الخالي، ولهذا اخترع الصفر بصورة مستقلة عند البابليين والمايا والهنود.

وفي الهند صار الصفر أكثر من مجرد شاغل لمكان شاغر، فقد أصبح عدداً مستقلاً، وبهذا باتت كتابة الحسابات سهلة الفهم مثل: سهولة لوح الأعداد، مما أدى إلى إدراك جديد لقواعد الحساب. كما سمح الصفر الهندي بسهولة التعامل مع الأعداد الكبيرة. وقُدِّر لفكرة الصفر أن تسبب صداماً فلسفياً في أي مكان انتقلت إليه لأن فكرة اللاشيء كانت فكرة مخيفة وكانت مرتبطة بفكرة اللانهاية التي كانت أكثر تسبباً في القلق.

بعد انهيار روما ضاعت من أوروبا غالبية المعارف القديمة، ولكنها دُرست ونُسخت في العالم العربي وتطورت فيه. واستوعب علماء الرياضيات العرب المعرفة من الحضارات القريبة منهم بما في ذلك البابليين والهنديين. وقاموا باستيعاب هذا المزيح الثرى من المعارف الرياضياتية وتنقيتها وتحليلها، وفي النهاية نقلوها إلى أوروبا بدءاً من عصر الحروب الصليبية وما بعده. غير أن كسر مقاومة التغيير في أوروبا استغرق قرناً. وعندما تم تقبل المعارف الشرقية في نهاية الأمر أعادت ثورة الرياضيات التي نتجت تعريف المجال وأدت إلى رياضيات العصر الحديث.

دافيد تلوخ (DAVID TULLOCH)

الرياضيات فى بلاد الرافدين (بلاد ما بين النهرين - ميزوبوتاميا)

نظرة شاملة

نشأت الرياضيات والكتابة حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. فى بلاد الرافدين. وقد استُخدمت فى البداية كوسيلة للحسابات، ثم تطورت القيمة المجردة للأعداد، بصرف النظر عن نوعية الأشياء التى يجرى عدها، على مدى الألف سنة التالية. وفى القرن الأخير من الألفية الثالثة ابتكرت دولة أور ٣ القوية [من الدول-المدن السومرية] (ح ٢١٠٠-٢٠٠٠ ق.م.) نظاماً للموازين والمقاييس وكونت طبقة كبيرة من الموظفين الإداريين المدربين على منهاج مقنن. وبحلول ذلك الوقت كان النظام الستونى (المبنى على العدد ٦٠) قد ترسخ استخدامه كنظام لخانات الأرقام.

وعُثر على عدد كبير من النصوص التعليمية يعود تاريخها إلى الفترة التالية التى تسمى البابلية القديمة (ح ٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م.). ويشير ذلك إلى اهتمام بالرياضيات أكثر بكثير مما هو مطلوب للاستخدام اليومى. وأكدت المشاكل على أهمية الخطوات الرياضياتية مما ترتب عليه التوصل إلى عدد كحل. ولم يتبق إلا مصادر قليلة من فترة ما بعد الحقبة البابلية القديمة وحتى الحقبة السلجوقية (ح ٣٣٠ ق.م. إلى ٦٤ م) عندما أصبح الفلك مهماً. ونظراً لندرة المصادر فإن من الصعب التأكد من تأثير الرياضيات الراقية على الحضارات المجاورة.

الخلفية

بدأت الرياضيات فى بلاد الرافدين بالحاسبة، كما يتضح من أقدم الوثائق التى بقيت، وهى عبارة عن إيصالات وسجلات لجرد السلع. وفى النصف الثانى للألفية الرابعة (ح. ٢٥٠٠-٢٠٠٠ ق.م.) جرب الرافديون عدة أنظمة مختلفة لحفظ السجلات قبل أن يستقروا على الكتابة والأعداد.

وفى بادئ الأمر كان تدوين الأعداد مرتبطاً بنوعية الأشياء المعودة. فاستخدموا مجموعة من الرموز لقطيع من الأغنام، ومجموعة أخرى لمكايل من القمح، ورموزاً ثالثة لتمثل مساحات من الحقول. ويداخل كل نظام كانت الوحدات الأصغر تُحزَم سوياً حتى يصلوا إلى الوحدة الأكبر التالية، مثلما نقيس بالمليمترات ثم بالسنتيمترات ثم بالأمطار ثم بالكيلومترات، أو بالجرامات ثم بالكيلوجرامات ثم بالأطنان. وكان الاختلاف الوحيد أن الرافديين كان لديهم رمز خاص بالبوصة مثلاً، فإذا كتبوا ٤ بوصة كانوا يكتبون رمز البوصة أربع مرات.

وفى معظم أنظمة المقاييس والموازين الحديثة كثيراً ما تكون الوحدات الأكبر مضاعفات كبيرة للوحدات الأصغر. أما الأنظمة الرافدية فكانت موضوعة حيث لا يكون بها أكثر من عشرة وحدات صغيرة فى أى وحدة أكبر منها.

وفى البداية كان هناك حوالى عشر أنظمة مختلفة تستخدم ما يقرب من ٦٠ رمزاً مختلفة حسب "الكمية". غير أن هذا الترميز المعقد تم تبسيطه تدريجياً حتى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. عندما صارت معظم الأشياء تُسجَل بنظام موحد كان مخصصاً فى الأصل لعد الأشياء المختلفة التى لا تربطها رابطة. كان ذلك النظام بالغ الانتظام؛ وكل وحدة أكبر بست أو عشر مرات من حجم الوحدة السابقة.

ومن نفس تلك الفترة الزمنية (ح. ٢٥٠٠ ق.م.)، ومن المدينة القديمة شوروباك وصلت إلينا أقدم مسألة حسابية فى العالم. ونستطيع أن نترجمها بصورة تقريبية كما يلي:

صومعة غلال. وكل رجل يأخذ ٧ لترات من القمح. فكم عدد الرجال؟

ومن المثير أن نسختين من هذه المسألة قد بقيتا، واحدة منها بها الإجابة الصحيحة (١٦٤٥٧١ رجلاً ويتبقى ٣ لترات) والأخرى بها إجابة خاطئة.

وتخص اللوحة التي تحمل الإجابة الخاطئة تلميذاً يجاهد في سبيل تعلم الرياضيات، والأخطاء التي تركها على لوحة الصلصال تخبر المؤرخ الحديث عن الكيفية التي كانت تتم بها الحسابات منذ ٤٥٠٠ سنة. وكشفت الحفريات التي عُثر فيها على اللوحة في شورويك (وهي تل فرحة في العراق الحديثة) أيضاً عن أقدم جدول ضرب وأول تمرين هندسة.

وعلى مدى السنوات الأربعمئة التالية أو نحو ذلك تطورت الكتابة تدريجياً من نظام تصويرى إلى كتابة مسمارية (وتدية) استمر استخدامها للألفى سنة التالية. وكانت الكتابة المسمارية المبكرة تستلزم قلماً منفصلاً لتدوين الأعداد؛ غير أنه حدث فى أخريات الألفية الثالثة أن الرافديين بدأوا يرسمون رموز الأعداد بنفس القلم. وانتهى ذلك إلى إعادة تنظيم الرموز واستخدام عدد أقل منها. وكان رمز العدد "٦٠" بالذات يكتب بنفس رمز العدد "١" ولكن بحجم أكبر. وفى تلك اللحظة كان الميزوبوتاميون على شفا التوصل إلى نظام الخانات للأعداد.

وتوضح الخطوة التالية كيف أن تطور الرياضيات كان مرتبطاً بالتطورات الاجتماعية والسياسية. فطوال غالبية الألفية الثالثة كانت بلاد الرافدين منقسمة إلى دول مدنية تتفاوت فى أهميتها. وفى أثناء أسرة أور ٣ (ح ٢١٠٠-٢٠٠٠ ق.م.)، احتاجت تلك الدول-المدن إلى جهاز إدارى أكبر ليدير شئون اقتصاد الإمبراطورية المركزى الذى تسيطر عليه الدولة. ولتسهيل الإدارة تمت إصلاحات شاملة لأنظمة الموازين والمقاييس، كان الهدف منها تيسير إجراء الحسابات بربط وحدات الحساب ببعضها فى الأنظمة الحسابية المختلفة. وفى لحظة ما أثناء فترة أور ٣، يبدو أن غالبية الحسابات صارت تُجرى باستخدام النظام الستينى الجديد، على الرغم من أن النتائج

كانت دائماً تُحوَّل إلى النظام الحسابى المناسب. ومن سوء الحظ أننا لا نملك إلا عدداً محدوداً من الجداول الحسابية الحقيقية من تلك الفترة. وقد التقطنا معلوماتنا من عشرات آلاف الوثائق الاقتصادية التى تركها لنا الموظفون الإداريون.

لم يكن ثمة نقود فى بلاد الرافدين القديمة. وفى بدايات الألفية الثالثة كان القمح هو العملة الرئيسية، وكان يقاس بنظام المكايل. غير أنه حدث أثناء الألفية أن الفضة صارت أكثر شيوعاً فى الاستخدام. ونتج عن ذلك حتمية أن يحل نظام معيارى للموازن محل نظام المكايل القديم، ولما كانت حتى القطع الضئيلة من الفضة لها قيمتها فقد كان من الضرورى تقسيم وحدات الموازين إلى وحدات أصغر. وبهذا أصبح لزاماً على مواطنى بلاد الرافدين أن يتعاملوا مع وحدات أصغر من النصف والتكث التى كانت متاحة فى النظام القديم. ويبدو أن النظام الستينى للخانات الأعداد المتكامل وانتشاره إلى يمين ويسار "نقطة الستين" قد جاء نتيجة لتعميم نظام الموازين.

أسست دولة أور ٣ بيروقراطية مركزية ومنهجاً مقنناً فى كل بلاد الرافدين. وتعرف الفترة ما بعد سقوطها باسم الفترة البابلية القديمة (ح ٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م.). وفى تلك الفترة اشتد تشرذم القوة والسلطان ونمت الرياضيات إلى ما هو أكثر من الحساب البسيط والإمساك بالدفاتر. وعلى النقيض من ندرة الأدلة على الرياضيات فى أور ٣ تم العثور على مئات من الألواح الحسابية من بابل القديمة. وهى تعطينا صورة جيدة عن تلك الفترة رغم عدم اكتمالها.

وبحلول بدايات الفترة البابلية القديمة كان للكتابة إرث مكتوب يمتد ألف سنة، ونظام مدرسى ربما كان عمره ٥٠٠ سنة. وكان الرافديون يستخدمون قوائم لتنظيم المعرفة، وكانوا يتعلمون القوائم بنسخها. وعندما كان الكتبة يدرسون الرياضيات، التى كانت جزءاً أساسياً فى تدريب الكتبة، كانوا ينسخون جداول الضرب وجداول مقلوب الأعداد، وكثيراً ما كانوا ينسخونها عدة مرات فى اللوح الواحد. وكانوا يتعلمون حل المسائل بنسخ إجابات نموذجية، وهو المقابل الرافدى للأمثلة المحلولة التى نجدتها فى مرجع من المراجع.

وفى الدراسات الأكثر تقدماً كانوا ينسخون مقتطفات من الأدب السومرى. وكان للمدرسين قوائمهم أيضاً، وهى قوائم للمسائل التى يضعونها، ومعها إجاباتها أحياناً؛ وثمة عدد قليل من الألواح يحوى قوائم بالمعاملات التى توضع فى بعض المسائل.

كان النظام الستينى لخانات الأعداد المستخدم فى ذلك الوقت خالياً من أية إشارة إلى أنظمة الموازين والمكاييل. فالأرقام كانت مجردة ويمكن أن تشير إلى أى شىء. فكان النظام الستينى يستخدم فى الحسابات فقط؛ وتسجل النتائج النهائية بأنظمة مقاييس أيامها من موازين ومكاييل. وكان النظام الستينى يستخدم رمزين فقط، وتد رأسى يمثل العدد ١ وتقد نو زاوية يمثل العدد ١٠، وكانت الأعداد حتى ٥٩ تُرسم بوضع تلك الرموز فى حزم؛ ويعد ذلك كان العدد ٦٠ يُكتب مثل رمز العدد ١ ويوضع فى عمود الستينيات. وسمح ذلك لنظام الخانات أن يسجل الأعداد مهما كانت قيمتها. وأثناء الفترة البابلية القديمة لم يكن هناك رمز يرمز للخانة الخالية (رغم أن الاحتياج إليه قليل فى النظام الستينى)، ولم يكن ثمة مقابل للعلامة العشرية الموجودة فى نظامنا العشرى الحالى لتعطى القيمة المطلقة للعدد. وكانت قيمة العدد المطلقة تحدها المسألة ويتعين الاحتفاظ به فى الذهن عند الرجوع إلى وحدات أنظمة المكاييل والموازين.

ولا ندرى كيف كان الرافديون يجرون الحساب البسيط. ولعلمهم كانوا يملكون نوعاً من ألواح العد أو المعداد، غير أنه ليس ثمة من دليل أثرى أو نصى على ذلك. وربما كانوا يحتفظون بحقائق الجمع والطرح فى ذاكرتهم؛ فالنصوص التى لدينا لا تتحدث عن ذلك باعتبارها من البديهيات. وفيما يتعلق بالحسابات الأشد تعقيداً يبدو أنهم كانوا يكتبون حسابات على "ألواح للتسويد" ثم يمحوونها ويعيدون استخدام الألواح. ولم يتبق إلا ألواح نادرة من هذا النوع بسبب طبيعتها المؤقتة.

والمشكلة الرئيسية فى الحساب هى كيفية إجراء القسمة. وتعامل الرافديون مع هذه المشكلة بعدم إجرائها مطلقاً، فكانوا يجرونها بالضرب فى مقلوب الرقم. (مقلوب العدد س هو الكسر $\frac{1}{S}$ ، وبهذا فإن عدداً يضرب فى مقلوبه تكون النتيجة ١ دائماً).

وكان النظام الستيني لخانات الأعداد يعنى أن الكسور يمكن معاملتها كأرقام صحيحة، ولكن ذلك كان يعنى أيضاً أن كل الكسور يتعين التعبير عنها برموز ستينية. ومثلما أن بعض الكسور، مثل $\frac{2}{1}$ أو $\frac{7}{1}$ ، لا يمكن كتابتها ككسور عشرية محددة، فإن ذلك صحيح أيضاً فى النظام الستينى. ولما كان الكسر $\frac{2}{1}$ يساوى $\frac{60}{20}$ فإنه يمكن كتابته ككسر ستينى محدد، ولكن الكسر $\frac{7}{1}$ لا يمكن معه ذلك. والأعداد ٢ و٣ وه ومضاعفاتها فقط بخلاف الأرقام الأولية الأخرى لها مقلوب يمكن التعبير عنه فى النظام الستينى. وهذه الأعداد تسمى الآن الأعداد المنتظمة.

وضع الراقديون قوائم بكل الأعداد المنتظمة بين ٢ و٨١ مع مقلوباتها. وكانت هذه القوائم هى جداول الأعداد المقلوبة التى كان يتوجب على التلاميذ أن ينسخوها. كما وضعوا لكل عدد منتظم (وأيضاً لعدد قليل آخر من الأعداد مثل ٧)، قوائم لمضاعفاتها من ١ إلى ٢٠، ثم ٢٠ و٤٠ و٥٠ مرة. وكان التلاميذ يتعلمون جداول الضرب (أو القسمة) هذه بنسخها، رغم أنه مما لا شك فيه أن عديداً من الكتبة كانوا يبحثون عن نواتج معينة عندما كانوا يحتاجون إلى ذلك. كما وضعوا أيضاً جداول لتربيع الأرقام وجذورها التربيعية.

كانت الرياضيات الراقدية متمحورة حول المسائل. ولم يكن هناك نظريات مجردة وبراهينها، كما لم تكن هناك معادلات تُحل. و عوضاً عن ذلك كانت هناك خطوات تتبع. ولا ندرى من وضع تلك الخطوات، ولا كيف توصلوا إليها، ولا ندرى كيف كانوا يتأكدون أن خطواتهم سوف تصل دائماً إلى نتيجة.

كانت التمارين الرياضياتية التقليدية فى بابل القديمة مسألة مكونة من كلمات وتحتاج إلى حسابات لأعداد للتوصل إلى حلها. وكانت المسائل الكلامية تتناول موضوعات لها أهمية فى حياة الكتبة وعملهم بوصفهم مراقبين إداريين: بناء الأسوار، وحفر القنوات، وحساب أعداد قوالب الطوب، ودفع مرتبات العمال، وقياس كميات الحبوب. غير أن المدرسين لم يكونوا مهتمين بالواقعية بصورة مفردة. ففى مسألة من المسائل كان على التلاميذ أن يتوصلوا إلى مساحة حقل يمكن لصهريج ماء معين أن

يغمره بالماء بعمق مقداره عرض إصبع واحد. ومساحة الحقل تزيد على ٢٠٠٠ فدان (١٢١٤ هكتاراً). وفي مثال آخر كان على التلميذ أن يحسب حجم القمح فى كومة طولها ٦٠ متراً وارتفاعها ٢٤ متراً. وبدلاً من الاهتمام بمدى واقعية المسألة اختار المدرسون قِيماً لعناصر المسألة مقصود منها تسهيل حلها. فمثلاً حجم الصهريج فى المسألة الأولى كان مكعباً طول كل ضلع من أضلاعه ١٠ نيندان (كان النيندان هو المقياس المعيارى لقياس الأطوال، وهو حوالى ستة أمتار). ومن الواضح أن المدرسين أرادوا من التلاميذ أن يركزوا على فهم الخطوات العامة واتباعها دون إلهائهم فى عمليات حسابية معقدة.

وثمة دليل آخر يشير إلى التأكيد على الاهتمام بالخطوات وهو الجداول المحتوية على سلسلة من المسائل المرتبطة ببعضها، حيث إن التلميذ الذى يتوصل إلى حل المسألة الأولى يعرف إجابات باقى المسائل. فعلى سبيل المثال، نجد أول مسألة فى سلسلة من المسائل حول حفر قناة تعطى طول وعرض وعمق ما يستطيع عامل حفره فى يوم واحد، وكذلك الراتب اليومى من الشعير لكل عامل. ويطلب من التلميذ أن يتوصل إلى المساحة والحجم وعدد العمال وإجمالى المصروفات. وفى المسألة الثانية يعطى التلميذ المصروفات والعرض والعمق ومتوسط العمل والأجور، بنفس القيم التى وردت فى المسألة الأولى، ويطلب من التلميذ تحديد الطول. وفى المسألة الثالثة يُطلب منه تحديد العمق. وهذه الجداول منظمة بعناية، حيث تتدرج صعوبة المسائل بدءاً بأسهلها وانتهاءً بأصعبها، (على شاكلة ما نجده فى المراجع الحديثة). وهناك ٢٣ مسألة فى هذا الجدول بالذات.

كان التلاميذ الرافديون يفهمون الجمع والطرح ومقلوبات الأعداد واستخراج الجذور التربيعية. ومن ثم فإن هذه العمليات فقط هى التى يمكن استخدامها فى حل المسائل. وكثير من تلك المسائل مما يمكن أن نعتبرها بسيطة ومباشرة، ولكن هناك عدد كبير من النوع التربيعى أيضاً. والمسائل الخطية البسيطة (من الدرجة الأولى) يمكن أن تكون معقدة بدرجة اختبار مدى إتقان التلميذ للخطوات، مثل ما نجد فى هذا المثال:

وجدت حصة. ولم أزنها. وأضفت ثمانية أمثال الوزن و٢ جين. وأضفت ثلث واحد على ثلاثة عشر من ٢١، ووزنتها: ١ مانا. ماذا كان الوزن الأصلي للحصة؟

غير أن أقوى تعبير عن رياضيات بابل القديمة كان حل المسائل التربيعية، أو المستطيلة، التي كانوا يحلون بها دون معادلات ودون صيغ تربيعية. (وكذلك لم يكونوا يستخدمون الأعداد السالبة). وبدلاً من ذلك كانوا يستخدمون الصيغ التقليدية للمسائل التربيعية والخطوات التقليدية لحلها. وكانوا يحلون الأنواع الأخرى من المسائل إلى صيغ تقليدية، مثل:

يبلغ مجموع طول وعرض حقل ٥٠، ومساحته ٦٠٠. فما هو الطول والعرض؟

والخطوات التقليدية للحل هي أن تأخذ نصف مجموع الطول والعرض، وتسميه نصف المجموع. ثم تربعه (تضربه في نفسه). ثم تطرح المساحة وتحدد الجذر التربيعي. ويكون الطول هو نصف الطول مضافاً إليه الجذر التربيعي، والعرض هو نصف الطول مطروحاً منه الجذر التربيعي. وفي النوع التقليدي الآخر من المسائل يعطى التلميذ الفرق بين الطول والعرض بدلاً من مجموعهما. ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من وجود مئات المسائل من النوع المستطيل فإنه لم يعثر على أي مثال لأي من النوعين التقليديين. ولعلها كانت تعتبر أسهل من أن تحتاج أن تُكتب.

كانت المسائل المستطيلة العنصر الرئيسي في الرياضيات الرافدية، وكانت تشمل الحقول والقنوات والحفر والجدران والبوابات. وكان من المسائل الطبيعية في هذا المجال مسائل تشتمل على التوصل إلى قطر المستطيل، أو تحتوى على القطر كأحد المعطيات المعطاة للتلميذ. وبهذا كان لرياضيات بابل القديمة خطوات متعددة للتعامل مع المثلثات الفيثاغورية (ذات الزاوية القائمة). وهناك واحد من أشهر الجداول البابلية القديمة، وهي بليمبتون ٣٢٢ (Plimpton 322)، وهي قائمة بمعطيات المسائل الخاصة بالمثلثات. ولم يكن الرافديون يستخدمون أية وسيلة لقياس الزوايا، ولذلك كانت كل المثلثات إما قائمة الزاوية وإما مكونة من مثلثات قائمة الزاوية. فمثلاً كانوا يعتبرون أن المثلث متساوي الأضلاع مكون من مثلثين قائمي الزاوية متلاصقين جنباً إلى جنب.

ومتلما هو الحال فى رياضيات بابل القديمة الأخرى، نجد أن الهدف من المسائل الهندسية هو دائماً حساب عدد ما: مساحة شكل هندسى أو حجمه أو طول جوانبه. وبجانب المسائل المتعلقة بالدوائر والتمثّات والمستطيلات وشبه المنحرف، وضع علماء بابل القديمة سلسلة معقدة من مسائل المساحات بإدماج أشكال معينة داخل بعضها. واستخدمت معظم مسائل الحجم المكعبات والمنشور المستطيل أو الأهرامات. وعلى الرغم من أن رياضيات بابل القديمة كانت مبنية على الضروريات العملية فإن مجالاتها ومستوياتها كانت أبعد بكثير مما قد يواجهه أى كاتب فى الحياة اليومية. ويتمثل ذلك فى اهتمامها بالمسائل التربيعية، التى ليس لها إلا دور ضئيل فى حل المشاكل الواقعية، إن وجد مثل هذا الدور. كما أن تراكيب المسائل تشى بالاهتمام بالفصاحة وأصول التدريس وليس بالرغبة فى إعطاء أمثلة دقيقة. ويضاف إلى ذلك أن عناصر المسائل كانت تُختار، حيث تكون الحسابات سهلة لا أن تكون مرآة للعالم الحقيقى. ومن الواضح أن التركيز كان على أن يتعلم التلميذ خطوات حل مختلف أنواع المسائل.

وعلى النقيض من مئات الجداول الرياضياتية من الفترة البابلية القديمة لا نجد إلا النزر اليسير من الألف سنة التالية. ونحن على دراية بأن النظام الستينى قد بقي، رغم قلة الوثائق عن أحوال المعارف الرياضياتية حتى انتهاء الحضارتين الآشورية والبابلية. ويبدو من الأدلة الشحيحة التى لدينا أن الخطوط العامة للمعارف الرياضياتية بقيت كما هى تقريباً. وهناك اختلافات فى الجداول اللاحقة تثير فضول الخبراء، ولكن ليس ثمة من دليل على حدوث تغييرات مثيرة.

التأثير

يعود تاريخ المجموعة الكبيرة التالية من الجداول الرياضية إلى الفترة السلجوقية (من ح ٣٣٠ ق.م. إلى ٦٤ م) عندما كان الفلك الرياضياتى فى صعود. كان الفلك

الرافدى مهتماً فى المقام الأول بأحداث فلكية معينة أين ومتى حدثت. وكان ذلك أمراً حسابياً محضاً. ونشأت برامج حسابية مفصلة لدراسة عدد كبير من الظواهر، لكنها لم يصاحبها نماذج هندسية أو فيزيائية. وكانت العمليات الحسابية تجرى بمنتهى الدقة، لأن أخطاء التقريب تتجمع بسرعة.

وعند إجراء عمليات حسابية طويلة تشتمل على أعداد فى خانات عديدة، كانت الحاجة ملحة لإبقاء أعمدة الخانات مصطفة بطريقة صحيحة، وبهذا بدأ استخدام علامة للعمود الخالى. وأنشأوا كذلك جداول لمواقع مقلوبات الأعداد الكبيرة. وكانت تلك الجداول، وهى نصوص الخطوات، ومعها مئات السنين من الملاحظات التى سجلوها، كانت بالغة الأهمية فى التطور اللاحق للفلك. ونذكر على وجه الخصوص أن الفلكى بطليموس (ح ١٠٠-١٧٥م) تبنى الرموز الستينية للكسور مفضلاً إياها على الاستخدام التقليدى للإغريق والمصريين لوحدات الكسور، لأنها كانت أفضل كثيراً فى الحسابات التفصيلية. وهذا هو السبب فى استخدامنا للنظام الستينى لقياس أجزاء الزمن (تقسيم الساعات إلى دقائق وثوانى).

وعلى الرغم من معرفة الكثير عن ثقافة بلاد الرافدين فإنه من الصعب تقدير أثر الثقافة على تطور الرياضيات. وفى أثناء تاريخها البالغ طوله ٣٠٠٠ سنة من التاريخ المكتوب، كانت بلاد الرافدين جزءاً من شبكة كبيرة من الثقافات تربطها علاقات دبلوماسية وتجارية وثيقة. وكان عديد من الكتبة المتعلمين فى أجزاء أخرى من العالم يستطيعون قراءة وكتابة لغتها، الأكادية المسمارية. ومما لا شك فيه أن التجار كانوا على دراية بأنظمة الحساب الرافدى. غير أننا لا نملك دليلاً على أن تلك الأنظمة كان لها أى أثر على الثقافات الأخرى. وكانت الرياضيات المصرية كما تبينها برديات رايند وموسكو معاصرة تقريباً للحقبة البابلية القديمة، ولكنها نحت منحى آخر فى تطورها. أما الرياضيات الهندية والصينية المبكرة فيغلفها الغموض والإبهام. ونشأت الرياضيات الإغريقية فى المناطق الساحلية الإيونية أقرب ما يكون إلى الإمبراطورية الفارسية، لكنها اشتهرت باهتمامها بالهندسة المجردة وليس بالحسابات الرياضياتية.

والاستثناء الكبير هو ديوفانتوس الرياضياتى الإغريقى من القرن الثالث الميلادى. وتتطابق بعض خطواته لحل المعادلات التربيعية مع الخطوات البابلية القديمة التى كُتبت لأول مرة قبل ذلك بألفى سنة. ومن المستحيل الحكم على انتقال المعارف الرياضياتية من بلاد الرافدين إلى الثقافات الأخرى دون أدلة أثرية أكثر .

دنكان ج . ملفيل (DUNCAN J. MELVILLE)

لمزيد من القراءة

Aaboe, Asger. Episodes from the Early History of Mathematics. New York: Random House, 1964.

Melville, Duncan J. Mesopotamian Mathematics. <http://it.stlawu.edu/~dmelvill/mesomath/index.html>.

Neugebauer, Otto, and Abraham Sachs. Mathematical Cuneiform Texts. New Haven: American Oriental Society, 1945 (reprinted 1986).

Nissen, Hans; Peter Damerow, and Robert K. Englund. Archaic Bookkeeping. Chicago: University of Chicago Press, 1993.

Robson, Eleanor. Mesopotamian Mathematics, 2100-1600 B.C.. Oxford: Clarendon Press, 1999.

8/3/2010, 7 PM

رياضيات الهند القديمة

نظرة شاملة

يسود اعتقاد عام بأنه باستثناء منجزات الإغريق القدامى والبابليين والمصريين، ليس ثمة إلا القليل من التقدم في مجال الرياضيات المبكرة. وفي الحقيقة ردد كثير من المؤرخين البارزين هذه المقولة إما بالتهوين من شأن إسهامات الثقافات الأخرى أو تجاهلها. غير أن الهند وعلماء الرياضيات فيها كانوا على درجة كبيرة من الأهمية في تطور فكر الرياضيات في العصور القديمة، على الرغم من نفور بعض المصادر من بحث إسهاماتهم.

إن إسهامات رياضياتي الهند القدامى في الرياضيات المعاصرة لا تحتاج توكيداً. ومما لا ريب فيه أن أعظم إسهاماتهم هو النظام الذي نستخدمه نحن للأعداد. ولما كانت كل النظريات تقريباً والمبادئ وبنات أفكارهم في هذا الفرع من المعرفة تعتمد على نظام الأعداد، فإن نشأته كان لها تأثير هائل على الرياضيات المعاصرة. وفيما بعد تبني العرب الأرقام الهندية المبتكرة، التي صارت في النهاية تعرف في أوروبا باسم الأرقام العربية.

وإضافة لذلك كانت هناك إسهامات مهمة أخرى من جانب تلك الحضارة في مجال الرياضيات، فقد كان المنظرون الهنود من بين مجموعات عديدة يعزى إليهم فضل اختراع الصفر واستخدامه، رغم أن ذلك من الأمور المثيرة للجدل. وكان الهنود أول من استخدموا الصفر ليشغل خانة، ومن بين إسهاماتهم الأخرى تحديد قيمة "ط" وقياس طول السنة الشمسية، حتى أربعة أرقام عشرية لكل من القيمتين.

ولم يبق الكثير من النصوص المهمة من الفترة المبكرة للرياضيات الهندية أو بقيت فقط في صورة ترجمات. ولهذا هناك تساؤلات كثيرة بشأن العلاقة بين الرياضيات الإغريقية والهندية. والمراجع الأصلية بالغة الندرة، ولهذا فمن الصعب أن ننسب الفضل في أفكار معينة إلى مجموعة بعينها. وثمة العديد من الأسئلة التي لا إجابة لها تتعلق بالعلاقة بين الرياضياتيين المبكرين في الهند وبلاد اليونان. وزادت المشكلة صعوبة في القرون التالية أيضاً بعدما تشعبت المواد العلمية الأصلية، وأصبح من الصعب أن نفرق بين أفكار من أصول أوروبية أو أصول هندية.

الخلفية

نشأت أقدم رياضيات معروفة في المنطقة في وادي السند (الإنديوس) فيما هو اليوم باكستان. وكانت مرتبطة بالحضارة الهارابية (Harappan civilization) التي كانت تتكون من عدد قليل من المدن والعديد من القرى الصغيرة متناثرة في كل أنحاء الوادي. وقد نشأت تلك الحضارة حوالي ٢٥٠٠ ق.م. ودامت ٨٠٠ سنة على أقل تقدير. كان السكان متعلمين وتبنوا نظاماً موحداً للموازين والمقاييس. وكشفت دراسة نظامهم عن أنه كان مشابهاً بدرجة مثيرة للدهشة للنظام المعمول به حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية. فكانت "البوصة الإندوسية" تساوي ١,٢٢ بوصة من بوصات اليوم (٢,٣٥ سنتيمتر)، وكانت تُجمع سوياً في وحدات من ١٠ مكونة "القدم الإندوسية" أي ١٣,٢ بوصة (٣٣,٥ سنتيمتر). وقد اكتشفت آلة برونزية عليها علامات منفصلة كل ٠,٢٦٧ بوصة (٠,٩٣٢ سنتيمتر). وكل مئة منها تصنع مسافة ٢٦,٧ وهي قريبة من الياردة والمتر، وكذلك تكاد تساوي مسافة خطوة يخطوها الرجل البالغ. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن وحدات الطول هذه كانت تستخدم بدقة في البناء في الحضارة الهارابية.

ولعل السولباسوتراس (Sulbasutras) تحوى أشهر برهان على براعة الرياضيات فى الحضارات الهندية المبكرة. والسولباسوتراس هى نصوص دينية قديمة تحوى، من بين ما تحوى، معارف هندسية مفصلة على صورة تعليمات لبناء مذابح للمعابد. وعلى الرغم من أنها كانت إرشادات عملية قُصد بها أن تكون نصوصاً حسابية، فإنها تبين تَمَكُّنَ تلك الحضارات المبكرة من الرياضيات.

وقد نشأت الأعداد البراهمانية فى حوالى القرن الثالث ق.م.، وهو الوقت الذى يُعتقد أن نصوص السولباسوتراس كُتبت فيه. ويعد تعديلات متعددة، ظهرت تلك الأعداد فى الصورة التقليدية ١٢٣٤٥٦٧٨٩ التى لا تزال تستخدم فيها فى الأزمنة الحديثة. وعلى الرغم من أن الأعداد البراهمانية لم يكن بها خانات للأعداد، فإن نظام الأعداد الهندى أوجد فى النهاية نظام الخانات، الذى اتضح أنه نظام فى غاية البساطة وفى نفس الوقت رائع وممتاز. ويجدر بنا أن ننوه إلى أن نظام الأعداد الهندى يكاد يكون مبنياً بالكامل على النظام العشرى أى قاعدة ١٠، بالمقارنة بالأنظمة الأخرى التى نشأت فى نفس تلك الفترة وتستخدم قواعد أخرى مثل قاعدة ٢٠ أو ٦٠. وعلى الرغم من أن نشأة نظام الأعداد البراهمانى هى من الأمور الخلافية، فإن ثمة من الدلائل الكافية ما يشير إلى أن الحضارات التالية حورت هذا النظام لاستخدامها الشخصى.

ولقد كانت حضارة جوبتا هى الحضارة الهندية التالية التى تركت أثراً ملحوظاً على تطور الرياضيات فى الهند. وفترة جوبتا هى الفترة التى حكمت فيها أسرة جوبتا معظم أنحاء الهند من بدايات القرن الرابع وحتى وقت متأخر من القرن السادس الميلاديين. وتعتبر هذه الفترة الحقبة الكلاسيكية فى الهند، ويتميز بظهور أفكار جديدة وبالرخاء. وتطورت أرقام جوبتا من الأرقام البراهمانية، وصارت معروفة فى مناطق شاسعة أثناء توسعة أسرة جوبتا لإمبراطوريتها بغزو أراضٍ جديدة. ولكن التأثير الأعظم لحضارة جوبتا لم يكن فى الأرقام ذاتها وإنما فى استخدامها لنظام خانات الأعداد.

ونظام خانات الأعداد هو نظام يستخدم الأرقام بقيم مختلفة حسب موضعها بالنسبة إلى الأرقام الأخرى. وعلى الرغم من أن الفضل يُنسب إلى البابليين بوصفهم أول من ابتكر نظاماً لخانات الأعداد في حوالي القرن التاسع عشر ق.م.، فإن نظام الأرقام الهندي كان متفرداً في استخدامه لقاعدة ١٠، مما يجعل نظامنا الرقْمى المعاصر سليلاً مباشراً له. وثمة وثيقة تاريخية تشير إلى أن ذلك النظام قد استُخدم في الهند منذ ما قبل ٥٩٤ ق.م. وليس من المعروف ما إذا كان هذا النظام قد نشأ مستقلاً عن الحضارات الأخرى، أم أن بدايته كانت نتاج تأثير الإغريق أو البابليين أو ربما حتى الصينيين. غير أننا نعلم علم اليقين أن هذا النظام قد نُقل إلى حضارات أخرى، حيث كان له تأثير عميق على تطور الرياضيات.

كما أسهمت طائفة جاينز (Jains)، وهي طائفة دينية وفلسفية، في تشكيل رياضيات الهند. وقد نشأت جاينز في القرن السادس ق.م. ودرست موضوعات مثل: نظرية الأرقام ومعادلات التكعيب والتربيع والإحصائيات. كما كان لديهم أيضاً إدراك لأفكار متقدمة مثل تلك المتعلقة بالملا نهاية. وفيما بعد لخص أريابهاता (Aryabhata) (٤٦٧ - ٥٥٠٩) أعمالهم وتوسع فيها، وهو أهم رياضياتي قديم من تلك المنطقة.

وقد هيمن أريابهاता على الرياضيات الهندية في الحقبة الكلاسيكية. وساعد على استهلال عصر جديد في الرياضيات، استحث بدوره انتعاش علوم أخرى مثل الفلك. وأدرك أهمية البحث العلمي وأسس مراكز بحثية لتحقيق هذا الهدف. وكان من بين منجزاته الكثيرة إدخال مفاهيم حساب المثلثات، وأدق تقدير لقيمة "ط" حتى يومه، وأدق تقدير لطول السنة الشمسية.

التأثير

لعبت إسهامات الهند في تطور الرياضيات دوراً حيوياً في إنشاء نظامنا العددي، كما قدمت أيضاً العديد من المفاهيم الأخرى. وطوال العصور القديمة لم تتفوق أية

حضارة أخرى على ما حققته حضارة شبه القارة الهندية فيما يتعلق بتطوير علم الرياضيات وتطبيقاته.

والتأثير الهائل للرياضياتيين الهنود على تطور المفاهيم الرياضية كثيراً ما يُعْتَمَدُ عليه بسبب انعدام الأدلة الموثقة وإعطاء الفضل لحضارات أخرى دون وجه حق والتحيز وأخيراً لمجرد الجهل. غير أن البراهين تتنامى على أن الهند كانت فى طليعة فكر الرياضيات. وقد تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن جذور نظامنا العددي راسخة فى الهند. ولم نكتف بميراث الشكل المكتوب لأعدادنا من الهند القديمة، وإنما استعمرنا منهم أيضاً نظامهم العشري للقيمة الموضعية للعدد (الخانات) الذى ما زلنا نستخدمه حتى اليوم. وبدون ذلك لم تكن لتوجد الرياضيات كما نعرفها. فقد زودنا الهنود القدامى بنموذج مفيد ومرن وبديهي كى نضعه قيد الاستخدام.

ومن الصعب أن نتخيل ماذا كان سيكون حال الرياضيات دون نظامنا المعاصر للأرقام. وثمة أمور تعتمد على هذا النظام، مثل النقود، نعتبرها من مسلمات الحياة اليومية. وكذلك نأخذ تطبيقات نظام القيمة الموقعية للأرقام (الخانات)، هذا النظام الرائع العملى، بوصفها من البديهيات. وهو من أهم التطورات الرياضية فى التاريخ.

وهناك عنصر مهم آخر أسهمت به الهند فى عالم الرياضيات هو أعمال أريابهاتا، الذى مجّد البحث العلمى ورفع من شأنه. واستحث ذلك المزيد من الدراسات العلمية، التى كانت نموذجاً لأجيال العلماء المستقبلية. وبتأسيسه للمراكز البحثية أعطى أريابهاتا الدافع والرغبة للمزيد من المعرفة فى هذا المجال. ومع تنامى المعارف الرياضية نمت كذلك المعارف فى العلوم الفيزيائية بتطبيق المعارف الرياضية فيها. وكمثال على ذلك، حدث تقدم كبير فى الجغرافيا والفلك كنتيجة مباشرة لتوفر الرياضيات اللازمة لحل مشكلاتها.

ومن بين الإسهامات المهمة التى قام بها أشخاص قدم أريابهاتا نفسه إجابات للعديد من الأسئلة المهمة وساهم فى نشأة فرع الرياضيات المسمى حساب المثلثات.

وكثيراً ما يُنسب إليه فضل ابتكار الصفر كعدد له قيمة موضوعية (خانة)، رغم أن بعض المؤرخين ينسبون هذا الإنجاز إلى واحد من تلامذته. وكان لذلك تأثير عميق على الرياضيات وجعلها أسهل في التعبير عن بعض الأرقام. ومما لا ريب فيه أن المجتمع الحديث يدين بكثير من الفضل إلى هؤلاء العلماء والرياضياتيين القدامى.

جيمس ج. هوفمان (JAMES J. HOFFMANN)

لمزيد من القراءة

Murthy, T. S. Bhanu. A Modern Introduction to Ancient Indian Mathematics. New Delhi: Wiley Eastern, 1992.

Neugebauer, Otto. The Exact Sciences in Antiquity. New York: Dover Publications, 1969.

Thibaut, G. Mathematics in the Making in Ancient India. Calcutta: K.P. Bagchi, 1985.

رياضيات المايا

نظرة شاملة

ابتكر شعب المايا من أمريكا الوسطى واحداً من أعقد التقاويم التي عُرفت وأكثرها دقة. وكان هذا النظام التقويمي مبنياً بشدة على رياضيات المايا، بما فيها نظام الأرقام المبنى على رقم ٢٠. ولما كان المايا قد نشأوا بمعزل عن الأعراف الذهنية العظيمة الأخرى في العالم، فليس من الغريب أن تقويم المايا ونظام أعدادهم اختلف اختلافاً شاسعاً عن تلك الأنظمة التي نشأت في الصين والشرق الأوسط. ولكن الاختلاف لا يعنى أنه كان أقل شأنًا، فقد كان للمايا باع طويل وأعراف ثرية في الرياضيات والفلك.

الخلفية

من الجائز أن ثلاث حضارات فقط ابتكرت الرياضيات بصورة مستقلة: الحضارة الصينية وشعوب الشرق الأوسط وشعب المايا في أمريكا الوسطى. ومن بين هؤلاء، من المحتمل أن رياضياتي الصين والشرق الأوسط تركوا بعض الأثر على بعضهم البعض عن طريق الحضارة الهندية، غير أن ذلك ليس بالأمر المؤكد. والشيء المؤكد هو أن المعارف الرياضياتية في العالم الجديد نشأت منعزلة تماماً عن أى حضارات أخرى بسبب العزلة الجغرافية لحضارات أمريكا الوسطى.

نشأ المايا فى أمريكا الوسطى حوالى سنة ٨٠٠ ق.م. كمجموعة من المزارعين المرتبطين لغوياً. ومثل غيرهم من الإمبراطوريات القديمة أصبحوا أقوياء وبدأوا فى التوسع جغرافياً، غالباً بواسطة الحروب والدبلوماسية، حتى صاروا القوة السياسية المهيمنة فى جزء من أمريكا الوسطى متمركز حول شبه جزيرة يوكاتان والجبال والغابات المحيطة فيما هو الآن المكسيك وبليز وجواتيمالا. ويقسم العلماء تاريخ المايا إلى ثلاث فترات رئيسية: الفترة ما قبل الكلاسيكية (من ح ٨٠٠ ق.م. حتى ح ٢٠٠ م)، والفترة الكلاسيكية (من ح ٢٠٠ م إلى ٩٠٠ م) والفترة ما بعد الكلاسيكية (٩٠٠ م إلى ١٥٢٠ م). ويصل مجموع فترات حكم المايا لذلك الجزء من العالم الجديد إلى ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة.

وأثناء فترة هيمنتهم السياسية على أمريكا الوسطى طور شعب المايا اهتماماً كبيراً بالظواهر الفلكية (مثلما فعلت معظم الحضارات القديمة، وكذلك حضارتنا الحالية). وأدى ذلك بالضرورة إلى محاولات للتنبؤ بحدوث الظواهر الطبيعية مثل: كسوف الشمس وخسوف القمر، وشروق وغروب الكواكب، وحركة الشمس والقمر عبر السماء، وغير ذلك. ومثلما كان الحال فى أماكن أخرى من العالم، أدى هذا الاهتمام بالفلك بدوره إلى نشأة تقويم وتكوين البنية التحتية الرياضياتية التى تتيح تطويره.

والتقويم هو إلى حد ما محاولة لفهم الطبيعة بالبحث عن نمط يمكن تحديده رياضياتياً. فمثلاً تقويمنا الحالى يحدد طول الزمن الذى تستغرقه الأرض كى تدور حول الشمس - وهو أقل قليلاً من ٣٦٥ يوماً وربع يوم، مع تصحيحات مثل السنوات الكبيسة وغير ذلك من قواعد التقويم. ونحن نستخدم تقويمنا لكى نتنبأ بنهايات الفصول واكتمال الدورة حول الشمس، ونجد أن استخدام رياضيات مبسطة نسبياً يكفى للتوصل إلى ذلك. غير أن ذلك لم يكن كافياً للمايا، فطوروا تقويماً أكثر تفصيلاً يحتاج إلى رياضيات أكثر تعقيداً بكثير. وفى وقت ما أثناء فترتهم ما قبل الكلاسيكية ابتكر المايا نظاماً للرياضيات، ونظاماً للأعداد، وتقويماً يقى بأهدافهم وكانت فريدة من نوعها فى العالم القديم.

التأثير

نشأ المايا وازدهروا وبدأوا اضمحلالهم وهم بمعزل عن المعارف الذهنية والحضارية لأوروبا وآسيا. وكان أول اتصال لهم بالأوروبيين أثناء الغزو الإسباني، وهو تفاعل عدوانى لم يتح الفرصة لأى تبادل ثقافى أو ذهنى. ولهذا لم تترك رياضيات المايا إلا أقل تأثير عملى على باقى أنحاء العالم ولم تتعد الأثر ذهنى فى المقام الأول. غير أن رياضيات المايا وتقويمهم كان لها عميق الأثر على حياة المايا، وسناقشها من هذا المنطلق. ويضاف إلى ذلك أن المايا وبصورة مستقلة طوروا بعض المفاهيم الرياضياتية المهمة، وما يمكن أن نتعلمه من ذلك يستحق الدراسة.

والى حد بعيد نجد أنه من الصعب مناقشة تقويم المايا ونظامهم العددى مستقلين عن بعضهما، لأن ملاحظاتهم الفلكية هى التى أدت إلى نشأة كليهما. ولهذا فسوف نناقشهما سوياً.

فقد ابتكرت رياضيات المايا مفهومين على درجة كبيرة من الأهمية: وهما: التدوين الموضعى للأعداد (الخانات)، وفكرة الصفر. وكانت هاتان الفكرتان هما ما أتاح لأنظمة الأرقام الهندية-العربية أن تزيح الترقيم الرومانى وتحل محله؛ كما كانتا جوهريتين فى تطور رياضيات متقدمة. وحقيقة يعتبر البعض تلك الأفكار من بين أكثر الأفكار عبقريةً فى التاريخ البشرى لأن كليهما ليست أفكاراً واضحة وكتاهما أفكار أساسية لا غنى عنها للحسابات المعقدة كما نعرفها.

والتدوين الموضعى للأرقام هو ما نستخدمه فى كتابة أرقام مثل ١٩٥٠ فالرقم الموجود فى أقصى اليمين، ٥، يشغل خانة الآحاد، وتشغل "٩" خانة العشرات، و"١" خانة المئات. وهذه هى وسيلتنا للتعبير عن أننا نستخدم قاعدة العشرات، حيث إن كل "خانة" يمكن أن يشغلها أى من عشرة أعداد (٠، ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩). وإذا تحرك موقع رقم إلى اليسار تتضاعف قيمته عشر مرات، فالرقم ٩ فى خانة العشرات

قيمته عشرة أضعاف قيمته إذا وجد في خانة الأحاد وعُشر قيمته إن وُجد في خانة
المئات. وباختصار تتوقف القيمة الحقيقية للعدد على موقعه.

ولعل الفكرة الأخرى، وهي الخاصة بالصففر، قد تسببت بصورة أكبر في تغيرات
جذرية في الفكر. وإلى حد ما، قد تكون الفكرة الأخرى، وهي استخدام القاعدة
العشرية، أكثر تقبلاً لأننا نملك عشر أصابع. وإذا ما تأملناها نجدها تحمل بين
طياتها نوعاً من القيمة الموضوعية للعدد. ولكن ليس هناك من سبب بديهى
يدعونا لاستخدام رمز يحمل قيمة صففر. وفي تدويننا للرموز يسمى الصففر شاغل
موقع - فليست له قيمة في حد ذاته، لكنه يشير إلى وجود مكان. ولنتأمل هذا
المثال: إذا لم نستخدم الصففر فإن الرقم ١٩ قد يعنى ١٩ أو ١٩٠ أو ١٠٠٩، وأعداد
أخرى كثيرة. واستخدام الصففر يخبرنا عن قيمة ١٩ بالضبط، ويزيل كل لبس أو
غموض، وفي نفس الوقت يجعل إتمام الحسابات الرياضياتية ممكناً. وبهذه
المناسبة، يدور النقاش بأن التدوين الموقى يستلزم استخدام الصففر إن أُريد لهذا
التدوين أن تكون له فائدة حسابية، ولهذا فإنه من المحتمل أن هذين المفهومين قد نشأ
سويًا ومتزامنين.

وكون أن حضارة اكتشفت كلا المفهومين هو أمر رائع. وأكثر روعة أن تكون
حضارتان قد اكتشفتا كلا المفهومين كلٌ مستقل عن الأخرى، وبخاصة عندما نلاحظ أن
الحضارات العظيمة في العالم القديم، المصرية والرومانية والبابلية، قد فشلت جميعها
في ذلك، ويبرهن ذلك على عظمة رياضيات المايا وعلو شأنها.

ويبدو أن تقويم المايا قد بُنى على مجموع دورات الشمس والقمر والزهرة. وبلغت
دقة التقويم القمري للمايا أن الخطأ فيها لم يتجاوز خمس دقائق في السنة، (مقارنة
بالتقويم الجولياني الذى بلغ الخطأ فيه ١١ دقيقة). ولعل من الأوفى أن ننظر إلى تقويم
المايا باعتباره سلسلة من ثلاث عجالات متداخلة والعجلات مسننة مثل التروس
وأحجامها مختلفة. وتحوى العجلة الداخلية الثلاثة عشر يوماً التى تكون شهر المايا.

وكانت سنة المايا الدينية تتكون من ٢٠ شهراً، وبذلك تكون سنة المايا الدينية مكونة من ٢٦٠ يوماً. وكانت هذه هي "الدورة المقدسة". كما كان هناك تقويم منفصل عند المايا هو "الدورة الغامضة" مكونة من ١٨ شهراً كل منها من ٢٠ يوماً. ويضاف إليها خمسة "أيام غير مسماة" تمثل الحظ السيئ، مما يصل بالسنة إلى ٣٦٥ يوماً. وكانت الدورتان المقدسة والغامضة متداخلتين أيضاً، وحدد المايا "الحساب المطول" وهو مكون من ٥٢ سنة وهو الوقت اللازم كي تعود الدورتان إلى ترتيبهما الأصلي.

وبعد أن تحدد كل شيء وقيل كل ما يمكن أن يقال، ابتكر المايا تقويماً به تاريخ استهلالى (أى التاريخ الذى يبدأ فيه حساب كل شيء آخر، مثلما يبدأ الغربيون تاريخهم من سنة ١ ميلادية) هو حوالى ٣١١٤ ق.م. وليس من المحتمل أن ذلك التاريخ يشير إلى بداية حضارة المايا، لكن الأغلب أنه تاريخ مستمد من أساطير المايا. وبدأ تقويمهم من تلك النقطة وبدأ أنه أدق ما يكون فى التنبؤ بالأحداث الكونية المتعلقة بالشمس والقمر والزهرة.

وفى النهاية يجدر بنا أن نلاحظ أنه من المحتمل أن المايا اكتشفوا العديد من خواص العدد "ط"، على الرغم من أن تلك فرضية بُنيت على منجزاتهم الرياضياتية الأخرى. ونذكر على وجه الخصوص أن بتر بكمان (Petr Beckmann)، فى كتابه "تاريخ ط" (A History of π)، يلاحظ أن الدقة الرائعة لتقويم المايا تكاد تفرض أنهم فهموا "ط" واستخدموها فى عديد من حساباتهم. وبنى بكمان، وهو عالم رياضيات، فرضيته على حقيقتين: دقة حسابات المايا الفلكية، وحقيقة أن حضارات كثيرة أخرى أقل تعمقاً فى الرياضيات طورت إدراكاً لوجود "ط" واستخداماتها. وعلى الرغم من أن تلك الفرضية لم تتأكد أثارياً فإن بكمان يقرر أيضاً أنه، من وجهة النظر الرياضياتية، من الأيسر أن نعتقد أن المايا توصلوا إلى فهم لمغزى "ط" عن أن نظن أنهم ابتكروا طرقاً أكثر التواءً وأشد صعوبة لإجراء حساباتهم. غير أنه يعترف أيضاً بعدم وجود براهين مباشرة على ذلك، ولهذا قد يبقى هذا السؤال، مثل أسئلة كثيرة

غيره، نون إجابة محددة. وكل ما يمكن أن يقال هو أن المايا فى زمانهم ابتكروا نظاماً للأعداد بالغ الدقة والرقى، مما مكنهم من التوصل إلى واحد من أكثر تقاويم العالم القديم دقة وتعقيداً.

ب. أندرو كرم (P. ANDREW KARAM)

لمزيد من القراءة

Beckman, Petr. A History of π . New York: St. Martin's Press, 1976.

Sabloff, Jeremy. The New Archaeology and the Ancient Maya. New York: Scientific America Library, 1990.

رياضيات الصين القديمة

نظرة شاملة

تملك الصين تقاليد عتيقة في الرياضيات، وقد حققت بعضاً من أقدم الاكتشافات الرياضياتية في العالم، مما يمكن مقارنته بمنجزات مصر والشرق الأوسط. وليس معروفاً على وجه الدقة تاريخ أول نصوص رياضياتية صينية، ويعتقد البعض أن تاريخها يعود إلى سنة ١٢٠٠ ق.م. ويظن آخرون أنها بعد ذلك بألف عام، لكن الكل يجمع على أن أفكاراً رياضياتية متقدمة نسبياً قد اكتُشفت ومورست في الصين قبل ميلاد المسيح بزمان كبير. فقد كانت الصين في أغلب تاريخها على اتصال بالغرب، ولو أنها كانت بصورة متقطعة، وتبادل الرياضياتيون الصينيون والغربيون التأثير كل في الآخر لمدة قرون. وعلى الرغم من أننا أحياناً نجد صعوبة في تحديد من منهم ترك أثراً على الآخر، فإن بعض الإسهامات الصينية من الجلى أنها تسبق مثيلاتها الغربية، أو أنها واضحة الاختلاف عنها، حيث لا بد أنها نشأت مستقلة عنها. وعلى أية حال، فإن تاريخ الرياضيات الصينية تاريخ طويل ومتميز.

الخلفية

ليست ثمة من وسيلة نعرف بواسطتها متى ظهرت الرياضيات في الصين كفرع مستقل من فروع المعرفة. بل إن تحديد تاريخ بداية الحضارة الصينية هو أمر تكتنفه الصعوبات؛ فتقديرات ظهور أول إمبراطورية صينية تتراوح بين ٢٧٠٠ ق.م. و١٠٠٠ ق.م.، ولا يعتبر التاريخ الأقدم خارج نطاق المعقول. وتثبت هذه التواريخ بجلاء أن

الحضارة الصينية ليست أقدم كثيراً ولا أحدث كثيراً من حضارات الشرق الأوسط، رغم أن نواحي كثيرة في الحضارات الأخيرة موثقة بصورة أحسن مما يجعلها أسهل في التحقق منها.

وليس من المحتمل أن تنشأ أفكار رياضية في ظل عدم وجود نوع من الحضارة، وفي الحقيقة لم ينشأ ما هو أشد تعقيداً من الحساب في أى مكان في العالم إلا حيثما كانت ثمة حضارة موجودة بالفعل، وقد يكون ذلك بسبب قلة الاحتياج إلى ظهور تراكيب رياضية رفيعة المستوى في غياب مدن ونوع من الحكومة، فضلاً عن قصر الوقت المتاح لذلك. فنجد مثلاً أن العديد من الوثائق الرياضية المبكرة تتناول أموراً مثل القياس الدقيق للممتلكات وتخصيصها، وتشييد الأبنية، وحساب الضرائب والحسابات التجارية وما شابه ذلك. وليس من المحتمل أن تتم مثل تلك الإجراءات في المجتمعات القبلية البسيطة (والصغيرة) التي سبقت نشأة المدن الأولى والحكومات المدنية. ويضاف إلى ذلك أنه في ظل غياب تراكيب اجتماعية مدنية أكبر حجماً كان كل شخص تقريباً مسؤولاً عن نفسه وعن إعالة عائلته. ولم يحدث إلا بعد نشأة حكومات أكبر وأكثر مركزية أن تقدمت الزراعة بدرجة أن الأمور احتاجت لأن تخصص أعداد كبيرة نسبياً من الناس في الإدارة والأعمال والمهن أو في البحوث. وعلى هذا فلم يكن يُقدَّر للرياضيات أن تنشأ كعلم مستقل في غياب حضارة لسبب آخر، هو انعدام الحاجة إليها.

ومن المحتمل أيضاً، بناء على ما سبق، أن الرياضيات بدأت في التقدم السريع بمجرد نشأة الحضارات، ومن بين السمات المميزة للحضارة نشأة المدن والحكومة المركزية والتنسيق بين أنشطة أعداد من السكان أكبر كثيراً. وهذه، بدورها، تحث على الحاجة إلى الأعمال التجارية، والضرائب لموازنة الحكومة، وإيجاد قواعد رسمية لاستخدامات الأراضي، وغير ذلك. وكانت تلك العوامل هي ما دفعت بالرياضيات إلى الظهور في تتابع سريع في مصر والصين وبلاد الرافدين والهند وأمريكا اللاتينية. وبمجرد ترسخها كفروع من فروع المعرفة الرسمية، دخلت الرياضيات

فى مجالات مثل التقاويم وتفسير الظواهر الفلكية وغير ذلك من أمور، وتحولت إلى التجريد بمرور الوقت.

تلك كانت الأحوال فى الصين القديمة لا ريب فى ذلك. فالعديد من أوائل الكتب الصينية فى الرياضيات، بما فى ذلك الكتاب الأول، تسعة فصول فى فن الرياضيات، الذى تبعه كتاب عشرة كلاسيكات فى الرياضيات، تركز على وسائل حل مسائل عملية فى الرياضيات. غير أن تلك الكتب تثبت بجلاء أيضاً أن العديد من تلك المشاكل كانت موجودة (وتم حلها) منذ سنوات عديدة بل ربما منذ قرون. ومما يتضح أيضاً من تلك الكتب وغيرها من الكتب المعاصرة أن الرياضيات الصينية وصلت بالفعل إلى مستويات عالية من التجريد والرقى قبل قرون قليلة من ميلاد المسيح. وفى الحقيقة، كان الرياضياتيون الصينيون بطول ذلك الوقت قد بزوا الرياضياتيين الغربيين وتفوقوا عليهم فى مجالات عديدة. ومما هو مثير للأسى أن أغلب تلك المعارف قد ضاعت فى عدة مناسبات عندما كان الأباطرة الصينيون يأمرؤن بإحراق الكتب وتدمير المكتبات. ولم يكن تراجع الرياضيات الصينية، هو النتيجة الوحيدة لتلك الأفعال، وإنما منعت الكثير من العلماء والرياضياتيين الصينيين اللاحقين من معرفة ماذا فعل أسلافهم. ولم يحدث إلا مؤخراً أن كُشِفَت تلك المنجزات الصينية المبكرة؛ ومما يؤسف له أن ذلك حدث متأخراً حيث لم تتح لها فرص التأثير الذى كانت تستحقه.

التأثير

كما لاحظنا آنفاً، استمر لعدة قرون تبادل المعارف بين الرياضياتيين الصينيين والغربيين، على الرغم من المعدل البطيء للاتصال آنذاك. ويعنى ذلك صعوبة أن ننسب الفضل الصحيح إلى أهله فيما يتعلق بالمكتشفات الرياضياتية المختلفة، ولكنه لا يعنى أن ذلك أمر مستحيل.

إن قائمة المنجزات التي يمكن أن ننسبها إلى الرياضياتيين الصينيين مثيرة للإعجاب، وغالبية تلك المنجزات يبدو أنها نشأت في الصين أولاً أو على الأقل نشأت فيها بصورة مستقلة. وتشمل القائمة تقديراً لقيمة "ط" يثير الإعجاب، واستخدام الصفر، والعلامات العشرية والكسور العشرية في الحسابات، واستخدام الأرقام السالبة والمعالجة الجبرية للمسائل الهندسية، وطرقاً لحل المسائل ذات العوامل المتعددة، وطرقاً لتحديد الجذور التربيعية والتكعيبية. وهناك المزيد، ولكن حتى هذه القائمة المصغرة مثيرة للانبهار. وفي القرن الثالث الميلادي حدد الرياضياتيون الصينيون قيمة "ط" حتى عشر خانات عشرية، وهو إنجاز لم يتوصل إلى شبيه له لمدة ١٤٠٠ سنة أخرى.

وكتابة الأعداد، مثل ١٢٢، في أبسط صورها، هي تدوين عشري. والنظام العشري يعني أن كل خانة تمثل مضاعفاً للرقم أكبر بعشرة أمثال، فالعدد ٣ يمثل ١×١ ، و٢ يمثل ١٠×٢ ، و١ يمثل ١٠٠×١ . وهذا يماثل ما نعنيه بتعبير القيمة الموضعية للعدد، على الرغم من أن وجود خانة منها لا يعني حتمية وجود الخانات الأخرى. وكذلك توصلت حضارات أخرى، مثل المايا والهندية، إلى تلك الأفكار، رغم أن المايا استخدموا نظاماً آخر غير النظام العشري. ومن المثير أن نلاحظ أن بعض الحضارات المتقدمة لم تبتكر تلك الأفكار. فمثلاً استخدم الإغريق حروفاً أبجدية لتمثل أعدادهم ولم يتقدم الرومان مطلقاً عن أرقامهم الرومانية. ولكي نستوعب الفرق بين النظام العشري والأعداد الرومانية فلنتأمل في مدى صعوبة ضرب XXVIII في XIII مقارنة بضرب ٢٨×١٣ . وهي بالطبع مسألة هينة والنتيجة هو ٣٦٤، ولكن حساب هذه المسألة البسيطة مستخدمين الأرقام الرومانية ليس عملاً بسيطاً.

والكسور العشرية هي ببساطة استخدام ذلك في الأرقام الأقل من ١. فمثلاً العدد ٠,٥ هو كسر عشري (يمثل $\frac{٢}{٤}$) مثلما نجد في العدد ٣,٢٥ أو ٤,١٠. قد نشأت الكسور العشرية في الصين في القرن الأول الميلادي، ولكنها لم تستخدم على نطاق واسع في الغرب لما يزيد على ١٥٠٠ سنة.

وكان الرياضياتيون الصينيون متقدمين بفارق كبير عن نظرائهم الغربيين فى استخدام الأعداد السالبة. فحتى زمن متأخر مثل القرن الخامس عشر أحس الرياضياتيون الغربيون أن الأعداد السالبة لا وجود لها ورفض العديد منهم أن يناقشوها. واليوم، نحن بالطبع نعتزف بأنها موجودة، كما يعلم كل شخص تجاوز رصيده فى السحب من حسابه المصرفى. ولم يكن الأمر كذلك فيما مضى. ويعود الفضل إلى الرياضياتيين الصينيين فى أول ذكر للأعداد السالبة الذى يعود تاريخه إلى القرن الثانى ق.م. على الأقل، بينما لا تظهر فى الرياضيات الغربية لمدة ١٧٠٠ سنة أخرى. غير أن بعض النصوص تشير إلى أن الرياضياتيين الصينيين لم يكونوا يعتبرون أن الأعداد السالبة لها وجود مادى، رغم أنهم لم يجدوا غمضة فى استخدامها فى حساباتهم. ولهذا يتعين علينا أن نعطيهم حقهم فى التقدم الرياضياتى الذى حققوه، فى الوقت الذى ندرك فيه ما يبدو من عدم تقبلهم الكامل لمضمون ما حققوه من تقدم.

وإلى حد ما، نستطيع أن نضع التحسينات الصينية الأخرى فى إطار التطوير فى حل المسائل من خلال الجبر. وثمة كم كبير من الأدلة على أن العديد من طرق الجبر قد ابتكرت فى الصين، وانتشرت إلى الهند ومنها إلى العلماء المسلمين فى القرنين السابع والثامن. ولا يعنى ذلك إنكار فضل الرياضياتيين المسلمين، الذين أدوا دوراً ممتازاً فى إدراك فوائد تلك الطرق، وجمعها سوياً، مع إضافة إسهاماتهم الفريدة. والنتيجة هو أن ما نطلق عليه الجبر اليوم هو نتاج تعاون فكر الصينيين والهنود والرياضياتيين المسلمين وتحسيناتهم، جمعها جميعاً العلماء المسلمون وأوضحوا فوائدها.

ومن بين الطرق التى استنبطها الرياضياتيون الصينيون طرقاً لاستخراج جذور المعادلات أعيد اكتشافها فى أوروبا بعدها بألف عام. كما تعلموا أيضاً أن يحلوا أنظمة المعادلات الخطية، وطوروا قواعد الجبر الأساسى، ووصفوا مسائل هندسية مستخدمين معادلات بدلاً من صور. وهذا الإنجاز الأخير يناقض مناقضة مثيرة بعض الأفكار التقليدية للرياضياتيين الغربيين. فمثلاً: يبدو أن الرياضيات فى مصر وبلاد

الرافدين قد انبثقت من الهندسة، عندما حاول الرياضياتيون المبكرون أن يجدوا وسائل جديدة لحل بعض المسائل. وعلى سبيل المقارنة، يبدو وكأننا الهندسة فى الصين قد نشأت من الجبر عندما حاول الرياضياتيون الصينيون أن يجدوا وسائل توضيحية ليرسموا مكتشفاتهم الرياضية. ومما يجعل هذا التناقض لافتاً للنظر على وجه الخصوص أن كلا الفكرين الرياضياتيين قد توصلا إلى نفس النتائج بصورة جوهريّة، مما يعطى النتائج النهائية مصداقية كبيرة.

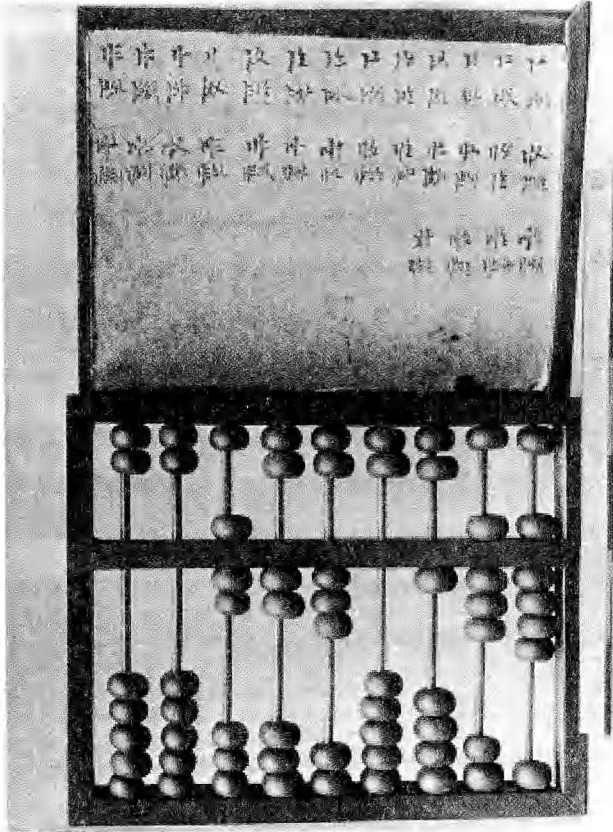
ومن المحتمل أن الكثير من المكتشفات الصينية قد وجدت طريقها إلى الغرب فى العصور القديمة وفى بواكير العصور الوسطى. فمن المعروف أن الصين كانت لها صلات واسعة النطاق مع الغرب أثناء أسرتى هان وتانج (من ح ٢٠٠ ق.م. إلى ٢٠٠م و٦١٨م إلى ٩٠٦م على التوالى). ومن المحتمل أن الصين صدرت إلى الغرب آنذاك بعض الرياضيات، وإن كان من غير المعلوم ماذا صدرت. ويعتقد البعض أن أفكار التدوين العشرى والصفر قد نشأت فى الصين، وانتشرت إلى الغرب فى تلك الأثناء، غير أن ذلك قد تستحيل معرفته على وجه التأكيد. والشئ المؤكد هو أن الصين نسيت منجزاتها الرياضياتية قرب نهاية الألفية الأولى بعد الميلاد، وبحلول عصر النهضة كانت أوروبا قد بزتها وغطت عليها. وفى واحدة من سخریات التاريخ تعلم الرياضياتيون الصينيون التالون الرياضيات من أوروبا وهى التى اكتشفت أصلاً فى الصين ثم صدرت إلى أوروبا أو ضاعت. وليست هناك من وسيلة لمعرفة ماذا كانت ستكون أحوال رياضيات العالم اليوم إن لم تحدث واقعة فقدان الذاكرة الرياضياتية تلك، لكن المؤكد أنها كانت ستكون جد مختلفة.

ب. أندرو كرم

لمزيد من القراءة

Boyer, Carl, and Uta Merzbach. A History of Mathematics. New York: John Wiley & Sons, 1991.

Temple, Robert. The Genius of China: 3000 Years of Science, Discovery, and Invention. New York: Simon & Schuster, 1986.



المعداد الصيني القديم

برديتا موسكو ورايند

نظرة شاملة

ألقت محتويات برديتى موسكو ورايند ضوءاً ساطعاً على طبيعة ومدى ما وصلت إليه الرياضيات المصرية القديمة. وتزودنا كلتا البرديتين بدليل وثائقي ناطق على المنطق الهندسى فى الأسرة الثانية عشرة وتمنحنا بصيرة متعمقة فى التطبيقات العملية للرياضيات قبل النشوء التقليدى للنظريات الرياضياتية فى بلاد اليونان القديمة. غير أن التحليلات الدقيقة للعروض الرياضياتية فى الوثيقتين ومحتوياتهما تقلل من شأن دعاوى التأثير المصرى على الظهور ألاحق للنظريات فى الرياضيات الإغريقية.

الخلفية

يوضح السجل الأثرى بجلاء مدى استخدام الرياضيات وتأثيرها على الحضارة المصرية القديمة. وتشير المعابد وغيرها من الآثار الثقافية إلى أدلة واسعة النطاق على وجود منطق رياضياتى يعود تاريخه إلى ما قبل سجل الوثائق الموجودة. وترتيب الأعمدة والأحجار فى المعابد الأثرية مثل: الكرنك هو تعبير عن التقدير المستمر للحسابات الدقيقة التى قام بها الكهنة والفلكيون القدامى فى محاولاتهم التوصل إلى تقاويم دقيقة مبنية على حركات الشمس.

ويعرف النظر عن الاحتياج الأولى للسجلات المكتوبة - سواء كان أول استخدام لها قُصد به أن يكون وسيلة محمولة لتسجيل ظواهر فلكية أو فك شفراتها،

أو أن النشأة العامة للحضارة أفرزت احتياجاً متعدد الأوجه لتسجيل المنطق الرياضياتي ووسائله - تكشف أقدم الوثائق المتاحة، ممثلة في برديتا موسكو ورايند، عن أن المصريين القدماء تمتعوا بمهارات عملية رائعة في استخدام الرياضيات وتطبيقها.

وبردية موسكو هي وثيقة ابتاعها ف. س. جولنيشيف (V.S. Golenishchev) وهي الآن محفوظة في متحف موسكو للفنون الرفيعة. وقد اكتُشفت البردية سنة ١٨٩٠، وترجمت سنة ١٩٢٠، ويعود تاريخها إلى حوالي ١٨٥٠ ق.م. ومؤلفها مجهول. ويصل طولها إلى ما يقرب من ٤,٦ متر وعرضها ٧,٦ سنتيمتر وتحتوي ٢٤ مسألة عملية مثل حسابات حجم مخروط ناقص (قاعدة هرم). وليست كل محتويات بردية موسكو قابلة للقراءة، فقد تمزقت أجزاء من بعض مسائلها أو ضاعت أو صارت متعذرة القراءة.

أما بردية رايند فقد أُطلق عليها هذا الاسم على اسم عالم المصريات الاسكتلندي أ. هنري رايند (A. Henry Rhind)، ويعود تاريخها إلى حوالي ١٦٥٠ ق.م. وتعرف البردية أيضاً بأسم بردية أحمس، وهو اسم الكاتب الذي ينسب إليه تأليفها. ولكن محتوياتها تأتي من وثيقة أقدم يرجع تاريخها إلى ما قبل ذلك بمئتي عام أي حوالي الوقت الذي كُتبت فيه بردية موسكو. وقد اشترى رايند البردية في مدينة الأقصر سنة ١٨٥٨، ثم تُرجمت ونُشرت سنة ١٩٢٧. ويبلغ طولها حوالي ٥,٥ متر وعرضها ٢٢ سنتيمتراً. وهي الآن في حوزة المتحف البريطاني وتحتوي ٨٥ مسألة، كلها قابلة للقراءة.

وتتناول التطبيقات الرياضياتية الموجودة في البرديتين مشاكل الحياة اليومية مثل التعامل مع خليط أعلاف الماشية والمسائل المتعلقة بتحديد أنصبة الأغذية وتخزينها. فمثلاً: تتناول المسألة رقم ٣ في بردية رايند تقسيم ستة أرغفة من الخبز على عشرة رجال. وتشمل موضوعات أخرى أسعار المقايضة والنسبة المعكوسة والوسائط التوافقية (harmonic means).

وتحوى بردية رايند أيضاً مسائل حسابية تستخدم الأس والدالة. وعلى سبيل المثال
تقرر المسألة ٧٩:

مزرعة تتكون من سبعة منازل؛ وكل منزل به سبع قطع؛ وكل
قطة تأكل سبعة فئران؛ وكل فأر يأكل سبعة رؤوس من القمح؛
وكل رأس من القمح تعطى سبع هيكات من الحبوب. منازل
وقمط وفئران ورؤوس قمح ومكايل هيكات من الحبوب، كم يبلغ
عدد كل منها فى المزرعة.

وهذا يتطلب حساب $7 \times 7 \times 7$ مرة (٧ منازل، و ٤٩ قطة، و ٣٤٣ فأراً، و ٢٤٠١
رأساً من القمح، و ١٦٨٠٧ هيكات من الحبوب) ثم جمعها جميعاً فيحصل المجموع
إلى ١٩٦٠٧. ويقيت إلى اليوم صورة من تلك المسألة فى أغنية المهد "بينما كنت ذاهباً
إلى القديس إيفز".

وتتناول كلتا البرديتين مسائل رياضياتية تتركز حول الحياة اليومية مع
أمثلة ترتبط بأمر شائعة، مثل: الزراعة والتشييد، وحساب مساحات الأراضى
وكميات الحبوب.

التأثير

إلى حد كبير، تأتى معارفنا الخاصة بتطور الرياضيات المصرية القديمة من كل
من السجل المعمارى ومن المسائل والطول التى تحويها عدة وثائق قديمة، وبخاصة
برديتى موسكو ورايند. ومن الجلى، إضافة إلى ذلك، أنه على الرغم من أن البرديتين
يعود تاريخهما إلى الدولة الوسطى فإن نشأة الرياضيات المستخدمة فى حل المسائل
ترجع إلى أصول أقدم، ولعلها تمثل رياضيات ذات أصول مشتركة مع الرياضيات التى
نشأت فى حضارات أخرى.

وتحوى بردية رايند براهين كثيرة على النزعة العملية المفرطة للرياضيات المصرية. وقد كُتبت بردية رايند بالخط الهيراطيقى (حروف متصلة) للدولة الوسطى المصرية. وتكشف ترجمة عن أن الوثيقة قُصد بها أن تكون مجموعة دراسية لأمثلة من المسائل الرياضية أُطلق عليها تعبير "أسرار غامضة" للتلاميذ. والمسائل الرياضية التي تحويها البردية مقدمة على صورة سلسلة من التمارين، تشبه مرجعاً تعليمياً، وقد صيغت بطريقة بلاغية ليست من علم الجبر مع شيء قليل من الرموز العديّة المجردة.

ويثير التنوع الرياضياتى الواضح فى البرديتين اهتمام العلماء. فالمسائل تستخدم الحساب الأساسى والقياسات والكسور ومنهجيات الجبر والهندسة. ويتضح من محتواها أن قدماء المصريين استطاعوا حل مسائل تعادل المعادلات الخطية الحديثة (linear equation) ذات المجهول الواحد باستخدام طريقة تعرف اليوم باسم "طريقة الموضع الخاطى". (the method of false position) ويضاف إلى ذلك أن الطرق الهندسية المعروضة تظهر اهتماماً قوياً بالقياسات، وتتضمن حلولاً (ليست كلها صحيحة) لمسائل تتناول تحديد مساحات دوائر، ومثلثات متساوية الساقين، وشبه المنحرف متساوى الساقين، والأشكال رباعية الأضلاع. وعلى الرغم من وجود تفسيرات مختلفة للرموز الهيروغليفية التي تحويها البرديتان، فإنه من الواضح أن المصريين شكلوا الأعداد بجمعها فى مجموعات، وأن عمليات الضرب والقسمة كانت فى الأساس ثنائية. كما تشير المسائل الهندسية أيضاً إلى فهم بدائى لمفاهيم التماثل.

ومن المهم أن نقرر أن البرديتين تشيران إلى محاولة لمعايرة الوحدات فى الرياضيات المصرية. فكانت وحدة قياس المساحات هى الـ "سيتات" (setat)، أو مربع "خت" (khet). وكانت وحدة قياس الأطوال هى الذراع الملكية، وهى مسافة يعتقد بعض العلماء أنها تعادل المسافة من الكوع إلى قمة إصبع الوسطى. وكانت الأحجام تقاس بوحدات "هن" (hin).

وأهم شيء أن البرديتان تشيران إلى مهارة في حل المسائل. فمثلاً كان المصريون يدركون أن حجم إسطوانة يماثل حجم إناء مستطيل (حجم الاثنين هو مساحة القاع مضروبة في الارتفاع). واستغلوا هذه الملاحظة في ابتكار طريقة لحساب المساحة التقريبية للدائرة (مثل أن يكون لديك قطر الدائرة فتنقص منه مقدار التوسع وتربع النتيجة). وباستخدام التربيع والجمع فقط استطاع المصريون أيضاً أن يكونوا أعمدة من الأرقام يمكن بواسطتها التوصل إلى حاصل ضرب أى رقمين بدقة كبيرة. وتحتوى بردية موسكو على المثال الرقعى الوحيد المعروف من العالم القديم للمعادلة الصحيحة لتحديد حجم مخروط ناقص لهرم مربع.

وعلى الرغم من أن العلماء الإغريق أثنوا على استخدام الكسور في حل المسائل الهندسية، فإن الرياضيات المصرية قد أعاقها عن المزيد من التطور معالجتهم للكسور. ويشير السجل إلى أن قدماء المصريين استخدموا الكسور مع جعل البسط واحداً صحيحاً. فمثلاً الكسر $\frac{10}{6}$ كانوا يقسمونه إلى مجموع الكسرين $\frac{2}{1}$ و $\frac{1}{6}$. ولما كان البسط فى كل الكسور واحداً صحيحاً، فقد كانت تكتب فى النصوص على صورة $10+2$ مع وضع رمز فوق الأرقام يرمز إلى أنه كسر.

وتؤكد أوجه التشابه بين البرديتين فى المسائل والحلول أن الرياضيات المصرية استمرت منتظمة بصورة رائعة طوال تاريخها المبكر. ولا تحوى النصوص إلا على تجريدات رياضياتية متواضعة، ومن الجلى أن المنهجية حسابية بحتة (بمعنى أنها مبنية على الجمع) مع تطابقات ابتدائية مستخدمة فيما يتعلق بالقياسات فقط.

ولا يعطينا التركيز على التطبيقات العملية، الذى يشير إلى أن النصوص فيما يبدو كانت مخصصة للتلاميذ دارسى الرياضيات، لا يعطينا إلا أدلة واهية على دور الإسهامات النظرية التى قام بها العلماء فيما بعد فى الرياضيات الإغريقية. وفى الحقيقة تكشف السجلات المتبقية عن قصور التركيز المصرى عن التمييز بين الحسابات الصحيحة والحسابات التقريبية التى كثيراً ما كانت الدافع وراء تطور النظريات.

ولا جدال فى أن ثمة براهين وافرة فى السجلات الوثائقية المتأخرة تشير إلى أن طرق المصريين فى حل المسائل قد تركت أثرها على العديد من العلماء الإغريق البارزين الذين درسوا فى مصر، منهم فيثاغورس (٥٨٠؟-٥٠٠ ق.م.)، ويوبوكسوس (٤٠٠؟-٣٥٠ ق.م.)، وطاليس (٦٢٤؟-٥٤٧ ق.م.). وعلى الرغم من أن أولئك الرياضياتيين الإغريق قد نسبوا إلى الرياضيات المصرية القديمة الفضل فى تطوير النظريات الرياضياتية، فإن محتويات برديتى موسكو ورايند ليس بها إلا أدلة على التطبيقات العملية الجوهرية والنفعية للرياضيات المصرية. وهناك أدلة ضئيلة على وجود أسس نظرية كانت تنتظر التوسع فيها على يد العلماء الإغريق. وعضاً عن ذلك فإن الانشغال بالرياضيات اليومية والعملية الموجود فى البرديتين يشكل تناقضاً صارخاً لتطور الفكر الرياضياتى التجريدى فى الحضارة اليونانية اللاحقة.

غير أنه من الخطأ أن نتجاهل نشأة الجانب النظرى فى مصر أو نرفضه تماماً. فمثلاً نجد أن حسابات مساحة الدائرة، التى نجدها واضحة فى بردية رايند، أو حسابات مساحة نصف الكرة، فى بردية موسكو، هى أقدم صيغ موثقة لتربيع الدائرة وتسوية الأسطح المنحنية. ويكمن بين طيات التطبيقات العملية للرياضيات المصرية جهد متقن لتكوين وسائل لوغارتمية ورقمية على درجة من الكفاءة، حيث تسمح بإيجاد حلول للمسائل المميزة وهى الحلول التى ألهمت نشأة نظريات أكثر شمولاً.

ك. لى لرنر (K. LEE LERNER)

لمزيد من القراءة

كتب

Chace, A.B., et al. The Rhind Mathematical Papyrus. Oberlin, Ohio: Mathematical Association of America, 1927-29.

Eves, Howard. An Introduction to the History of Mathematics. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1964.

Gillings, R.J. Mathematics in the Time of the Pharaohs. Cambridge, MA: MIT Press, 1982.

Katz, V.J. A History of Mathematics: An Introduction. New York: Addison-Wesley Educational Publishers, 1998.

Robins, G., and C. Shute. The Rhind Mathematical Papyrus: An Ancient Egyptian Text. London: British Museum Publications, 1987.

Toomer, G.J. "Mathematics and Astronomy." In The Legacy of Egypt. Edited by J.R. Harris, pp. 27-54. Oxford: Clarendon Press, 1971.

مقالات فى دوريات علمية

Gerdes, P. "Three Alternate Methods of Obtaining the Ancient Egyptian Formula for the Area of a Circle." *Historia Mathematica* 12, no. 3 (1985): 261-8.

17/03/2010

طرق العد وأدوات الحساب المبكرة

نظرة شاملة

ابتكرت الحضارات المبكرة طرقاً عديدة للتعبير عن الكميات العددية والتعامل معها إضافة إلى استخدام الرموز المكتوبة. وحل محل العد على أصابع اليدين وأحياناً أصابع القدمين علامات ورموز تحمل قيماً عددية مختلفة، وتلتها أجهزة لإجراء الحسابات الأولية تستخدم وسائل يدوية. وبقيت لوحات العد والمعداد (الأباكوس) (abacus) تستخدم على نطاق واسع طوال العصور الوسطى وعصر النهضة.

الخلفية

قبل زمن طويل من اختراع الكتابة، طور البشر نوعاً من الإحساس بالأرقام. وقد فُسِّرت نقوش نُحِتَت على عظام عُثِرَ عليها في إفريقيا يعود تاريخها إلى أوائل العصر الحجري القديم، على أنها وسائل بدائية لعد الأيام في كل أطوار القمر. كما كانت عصي العد قديمة أيضاً وتكاد تكون موجودة في كل مكان، وهي قطع خشبية يتم خدشها لعد الحيوانات وغيرها من الأشياء. وكانت العصي تُشَقُّ طولياً لأغراض التعاملات التجارية حيث يحتفظ كل طرف بسجل للعملية التجارية التي تمت.

وبدأت رموز وعلامات صغيرة من الصلصال في الظهور في الأماكن الأثرية أثناء الألفية الثامنة ق.م.، وأحياناً موضوعة داخل أواني مجوفة وربما تكون وُضِعَت أثناء

عملية عد لشيء ما. وشاع استخدام العلامات فى الحضارة البابلية ثم ابتكرت تلك الحضارة نظاماً للتدوين الودى (المسماري) للأعداد، باستخدام قلم يضغط فى صلصال مبلل، ويبدو أن العديد من الجداول المسمارية الرياضية التى بقيت كانت نصوصاً حسابية.

ومن الضرورى أن نسجل أصابع اليد والأقدام البشرية كواحدة من أوائل أدوات العد الفعالة. وتكاد تكون كل أنظمة العد المعروفة مبنية على الأعداد ١٠ أو ٥ أو ٢٠، وكثيراً ما تحوى اللغات الحديثة على آثار لفظية تعكس نشأتها. فمثلاً نجد أن كلمة ٨٠ فى الفرنسية الحديثة تعنى حرفياً "أربع عشرينيات".

وتشمل أقدم أدوات العد والحساب تشكيلة من ألواح العد وعدة أنواع من المعداد. ولعل أقدم لوحات العد كانت ألواحاً خشبية يمكن تغطيتها بطبقة رقيقة من التراب أو الرمال وتُحط عليها الأعداد بالإصبع أو بقلم. ويؤيد هذا الاستنتاج أن الأرقام الهندية-العربية كان يشار إليها بتعبير "الأعداد الترابية"، كما أن مصطلح "أباكوس" يبدو أنه مستمد من تعبير سامى بمعنى "يمسح التراب".

لم يتبق إلا عدد قليل من لوحات العد أو المعدادات من العصور قبل الرومانية، ولهذا فإن معرفتنا باستخداماتها تعتمد على السجلات المكتوبة. ويبدو أن الفكرة الأساسية قد اكتُشفت بواسطة البابليين. وكتب هيرودوت المؤرخ اليونانى (٤٨٤؟-٤٢٥؟) "عند العد يحرك المصريون يدهم من اليمين إلى اليسار، بينما يحركها اليونانيون من اليسار إلى اليمين". ومن المفترض أنه كان يشير إلى نوع من ألواح العد. وعُثر فى بلاد اليونان على لوحة عد من الرخام يرجع تاريخها إلى القرن الرابع ق.م،، بينما يُظهر معداد إغريقى - رومانى ينتمى إلى عصر بعد ذلك علامات تنزلق بين شقوق محفورة فى اللوح.

ولعل المعداد قد بدأ كتطور طبيعى للوح العد، مع تصفيف القطع المستخدمة فى العد فى أسلاك معدنية. وفى نهاية الأمر ظهر نوعان مختلفان على الأقل. فى واحد

منها، تبناه العرب فيما بعد، صُفّت عشر خرزات فى كل سلك. والنوع الآخر به عمود وسطى قاسم وعادة ما توضع خمس خرزات على جانب منه وخرزة واحدة أو خرزتان على الجانب الآخر.

ولقد تباينت الحضارات القديمة كثيراً فى أنظمة الأعداد المكتوبة التى ابتكرتها. فاستخدم البابليون تدويناً موضعياً للأعداد أساسه الرقم ٦٠، وابتدع المصريون نظامين، منفصلين، نظام هيروغليفى مبنى على تكرار الرموز ونظام هيراطيقى (حروف متصلة) فيما بعد يستخدم تسعة أرقام يشبه نظامنا إلى حد ما. وابتكر الإغريق نظامين، كلاهما يستخدم أحرف الأبجدية اليونانية وليس أى منهما مبنياً على خانة الرقم. وبالمثل ابتكر الرومان نظامهم المبنى على تكرار حروف تمثل قيماً مختلفة. وأغلب تلك الأنظمة لم تكن مناسبة للحساب العملى، وبخاصة الضرب والقسمة، ويعتقد غالبية مؤرخى الرياضيات أن الرياضيات العملية كانت بصورة عامة تستخدم المعداد أو لوحة العد فى تلك المجتمعات.

وفى حوالى سنة ٣٠٠ ق.م. ظهر فى الصين نظام "الأعداد العسوية". وكان نظاماً عشرياً، أو بالأدق مئوياً، به تسعة رموز منفصلة للأعداد الصحيحة من ١ إلى ٩ وتسعة رموز مختلفة لمضاعفات العشرة بين ١٠ و ٩٠. وكانت رموز الأعداد من ١ إلى ٥ تُكتب كسلسلة من خطوط رأسية، بينما من ٦ إلى ٩ تمثل بخط أفقى منفرد يمثل خمسة أحاد وبجانبه ١ إلى ٤ خطوط رأسية. ولمضاعفات ١٠ كانت وظائف العصى الرأسية والأفقية تنعكس. وكانت الأعداد الأكبر تُكتب بتبادل الخطوط الرأسية والأفقية من اليمين إلى اليسار. وكان الموظفون الصينيون يحملون حقائب مليئة بعصى الخيزران أو العاج أو الحديد، يستخدمونها ببراعة كبيرة فى إجراء الحسابات. وكانت الأرقام التى تظهرها الأعداد العسوية تُترجم بسهولة إلى مواقع الخرز فى المعداد ذى العمود القاسم، غير أن تاريخ بدء استخدام المعداد فى الصين غير معروف على وجه التحديد، لأن عصى الأعداد كانت أيضاً على درجة عالية من الكفاءة. ولا يستطيع

المؤرخون إلا أن يقرروا أن استخدام العداد فى الصين عمره ألف عام على الأقل. ولم يدخل العداد اليابان إلا فى القرن السادس عشر.

التأثير

انتشرت لوحة العد والعداد سريعاً فى كل أرجاء أوروبا وآسيا، وكان ذلك بدون شك من خلال الاتصالات التجارية بين التجار. وصمد العداد فى أوروبا، ولم يتم استبداله بالحسابات على الورق إلا بالتدريج. وفى الحقيقة ربما كان العداد قد ساهم فى تعزيز انتشار نظام الأعداد الهندية-العربية، لأنه كان من الطبيعى أن تنتسخ نتائج الحسابات على الورق بهذا النظام، بما يحويه من تدوين موعى للأرقام ووجود خانة للصفر فيه. وفى أوروبا لم تحل تماماً الحسابات على الورق محل العداد إلا فى القرن السابع عشر. ولا يزال العداد منتشرًا فى آسيا ولا يزال هناك أشخاص يعتبرون خبراء فى استخدامه.

وكان استخدام أجهزة ميكانيكية لإجراء الحسابات والعمليات الرياضياتية العامة فكرة متكررة منذ عصر النهضة. ومع اختراع اللوغاريتمات بواسطة الرياضى الاسكتلندى جون نابير (John Napier) (١٥٥٠-١٦١٧)، أصبح فى الإمكان إجراء عمليات الضرب بجمع اللوغاريتمات وتحديد الأس بضرب اللوغاريتمات فى الأرقام. وعلى الرغم من أن هذا الابتكار أدى إلى تبسيط كبير للعمليات الحسابية المطلوبة فى الفلك والملاحة، فإنه زاد من أهمية تجنب الأخطاء فى الحسابات وفى كتابة الجداول الرياضياتية. ولهذا السبب هدف نابير إلى جعل العملية آلية (أوتوماتيكية). فابتكر آلة حاسبة تستخدم مجموعة من العصى البيضاء المستديرة، صارت تعرف باسم "عظام نابير"، لإجراء الحسابات الدقيقة. وكان تشغيل "العظام" أعقد من يكون عملياً، فأصبحت المسطرة الحاسبة المنزلاقة (slide rule)، المبنية على جمع اللوغاريتمات، الأداة التقليدية للحسابات الهندسية حتى حلت محلها الآلة الحاسبة المحمولة يدوياً فى سبعينيات القرن العشرين.

وفي سنة ١٦٤٢، اخترع الرياضياتي الفرنسي الكبير بلايز باسكال (1623-1662) آلة لجمع الأرقام بها عدد من العجلات النوارة المسننة. وعلى الرغم من تعقدها بالنسبة إلى زمانها فإن تركيبها الميكانيكية الأساسية ستعود الظهور فيما بعد في الأجهزة المبكرة لعد النقود.

وهناك آلة رياضية مبكرة أخرى هي آلة التفاضل (difference engine) التي ابتكرها سنة ١٨٣٣، تشارلز باباج (Charles Babbage) (١٧٩٢-١٨٧١) عالم الرياضيات الإنجليزي. ونجح باباج في الحصول على تمويل أولى لمشروعه من الحكومة الإنجليزية، لكنه اضطر إلى طلب المعونة من المصادر الخاصة عندما توقف عنه الدعم الحكومي. وكانت أدا لفليس (Ada Lovelace) (١٨١٥-١٨٥٢)، ابنة اللورد بايرون، من بين من دعموه، وكانت جهودها في سبيل دعم المشروع هي أهم مصدر لمعلوماتنا حوله. ولو استُكملت تلك الآلة لكانت أشبه شيء بحاسوباتنا الحديثة القابلة للبرمجة والتي تستطيع تخزين الأرقام والتعليمات في ذاكرتها الخاصة. ولهذا يعتبر باباج "جد" الحاسوب الحديث.

أما العصر الحديث للحساب فقد بدأ بتحليل أقرب إلى أن يكون تجريبياً للعمليات العامة للتعامل مع الرموز والذي قام به عالم الرياضيات البريطاني ألان تيورينج (Alan Turing) (١٩١٢-١٩٥٤). أثبت تيورينج أن آلة ذاتية الحركة أو "أوتوماتون"، قادرة على قراءة وكتابة رمز واحد في المرة الواحدة، تستطيع تنفيذ أية عملية رياضية، حتى إثبات النظريات. ويتم تحديد الحسابات التي ستُجرى بواسطة مجموعة من القواعد التي تستطيع الآلة فهمها. ووجد تيورينج أن هناك آلة واحدة على الأقل تتقبل التعليمات التي تُزود بها على صورة سلسلة من الأرقام، فتجعلها تعمل وكأنها آلة أخرى. وهذه التعليمات تؤدي وظيفة "البرنامج" لهذه الآلة أو الحاسوب.

أقيمت أول حواسيب قرب نهاية الحرب العالمية الثانية. وكانت هائلة الحجم وباهظة التكاليف، وبصورة عامة لم يكن من الممكن استخدامها إلا لبضع ساعات على

الأكثر قبل أن تحترق الأنابيب المفرغة من الهواء. ومع اختراع الترانزيستور سنة ١٩٤٧، وعمليات النممة (التصغير) التي لا تزال تجرى حتى الزمن الحاضر، صَغُرَ حجمها وانخفضت تكاليفها واشتدت قوتها، وازدادت الثقة بها. وبحلول سبعينيات القرن العشرين صار فى الإمكان إدماج ما يكفى من المكونات فى رقاقة معالج ضئيل الحجم (microprocessor chip)، حيث شاعت الآلات الحاسبة الإلكترونية المحمولة يدوياً. وفى إجرائها للمعطيات الرقمية، واحداً واحداً، يمكننا أن نتعرف على شىء من القرابة العائلية للمعداد القديم.

دونالد ر. فرانشيتى (DONALD R. FRANCESCHETTI)

المعداد فى مواجهة الآلة الحاسبة الكهربية

أجريت فى طوكيو باليابان فى ١٢ نوفمبر ١٩٤٦، مسابقة بين السوروبان (soroban) وهو المعداد اليابانى وآلة إلكترونية أمريكية للجمع. وتولى تشغيل السوروبان السيد كيوشى ماتسوزاكي وهو عامل بارع على المعداد وبطل لا يبارى فيه ويعمل فى وزارة البريد اليابانية، فى مواجهة توماس ناثن وود الجندى فى قيادة الجنرال ماك آرثر، الذى كان يعتبر أبرع متعامل فى اليابان مع الحاسبة الكهربية. وسجلت النتائج جريدة جيش الاحتلال الأمريكى، وذكرت أن "بالأمس تراجع عصر الآلة حين كالمعداد، الذى يبلغ عمره قرونًا، هزيمة لأحدث ما أنتجه العلم من آلات حاسبة". وعلقت صحيفة يابانية قائلة: "ترنحت الحضارة وهى على أعتاب العصر النووى مساء الإثنين عندما هزم المعداد، وعمره ألفا عام، آلة الحساب الكهربية فى الجمع والطرح والقسمة، ولم تسجل الآلة الحاسبة الكهربية انتصاراً إلا فى عمليات الضرب". غير أنه على الرغم من ذلك الانتصار للتراث، فإن اليابانيين أصبحوا، ولا يزالون، أكبر مُصنِّع للآلات الحاسبة الكهربية فى العالم. وعلى الرغم من أن الآلات الحاسبة قد أصبحت أكثر تقدماً وأسرع بكثير، فإن سرعة أى آلة حاسبة ودقتها لا تزال حتى اليوم تحددها كفاءة مستخدمها.

دافيد تلوک (DAVID TULLOCH)

لمزيد من القراءة

Bell, Eric Temple. *Development of Mathematics*. New York: McGraw-Hill, 1945.

Boyer, Carl B. *A History of Mathematics*. New York: Wiley, 1968.

Cajori, Florian. *A History of Elementary Mathematics*. New York: Macmillan, 1930.

Grattan-Guinness, Ivor. *The Rainbow of Mathematics: A History of the Mathematical Sciences*. New York: Norton, 1997.

Kline, Morris. *Mathematical Thought from Ancient to Modern Times*. New York: Oxford University Press, 1972.

فلسفة الفيثاغوريين

نظرة شاملة

نشأت طريقة التفكير فى شئون العالم، التى صارت تُعرف باسم الفلسفة، فى القرن السادس ق.م. بين مجموعات من المفكرين الإغريق كانوا متناثرين حول حوض البحر المتوسط. وكان الفيثاغوريون من بين أكثر تلك المجموعات تأثيراً. وطوال ما يقرب من مئتى عام عاشوها كجماعة منظمة، نشر الفيثاغوريون أفكاراً عن الأعداد والطبيعة والإنسان كانت على درجة بالغة من الأهمية فى التطورات اللاحقة فى علوم الرياضيات والموسيقى والفلك.

الخلفية

مثلما هو الحال مع معظم شخصيات العالم القديم، نجد أن الأدلة الحقيقية حول فيثاغورس والطائفة التى أسسها بالغة الضآلة. ولكن المؤرخين يتفقون على أن فيثاغورس الساموسى (Pythagoras of Samos) (ح ٥٦٠-٤٨٠ ق.م.) أسس جماعة من بين نظرائه الذهنيين فى المستعمرة الإغريقية الواقعة على الساحل الجنوبى لإيطاليا حوالى سنة ٥٢٠ ق.م. وعلى الرغم من أنه من المغزى أن نصف تلك الجماعة وصفاً حديثاً بأنها "مدرسة" فإنها فى حقيقة الأمر بدأت كنوع من طائفة دينية أو عقيدية. وكان دافعهم الأول البحث الذهنى كوسيلة لتحقيق التطهر الروحى. وكان الفيثاغوريون يأملون، بتركيزهم على التأمل الروحى والبحث وبخاصة فى الأرقام والعلاقات الرقمية وممارسة الزهد والتقشف المادى، كانوا يأملون فى تحقيق التناسق بين أرواحهم

والكون الأعظم وبذلك يتجنبون دورة تناسخ الأرواح (التجسد بعد الموت). وعقيدة تناسخ الأرواح أو "عجلة الميلاد" تنص على أن الروح خالدة لا تموت ولكنها تُجبر على المرور في الحياة مرات تلو مرات في حيوانات مختلفة حتى تحقق درجة كافية من التطهر. وكان الفيثاغوريون يهدفون إلى الوصول إلى هذا التطهر مباشرة من خلال فلسفتهم وحياتهم التأملية.

كان الاعتقاد في تناسخ الأرواح وخلودها والإيمان بالقوى التطهيرية الكامنة في الفلسفة الركيزة الأساسية في عقيدة الفيثاغوريين. ويضاف إلى ذلك إيمانهم بالامتناع عن ممارسات مختلفة مادية وغذائية، والتدابير الصارمة في الإخلاص والسرية، وفي المغزى الباطنى لرموز بعينها. غير أن أكثر معتقداتهم تأثيراً كان بلا ريب جدالهم أن الحقيقة كلها رياضيات. وكان لرفعهم من شأن الأرقام والعلاقات الرقمية إلى مرتبة من الأهمية الفلسفية، مما دفع بهم إلى آفاق متفردة من الفكر في موضوعات تراوحت ما بين علم السمعيات والفلك.

والحق أن تاريخ الفيثاغوريين وأنشطتهم ليست من الأمور الواضحة تمام الوضوح. غير أنه يبدو أن جماعتهم ازدهرت في القرن الخامس ق.م. في أجزاء من جنوبي إيطاليا بالقرب من مدينة كروتونا. وكان لقوتهم ونفوذهم نتائج سلبية لأنه حدث في منتصف القرن الخامس ق.م. أنهم انغمسوا في نزاعات سياسية في الإقليم أسفرت في النهاية عن قمعهم بعنف. وتناثر من بقى من جماعة الفيثاغوريين في المناطق المتحدثة باليونانية خارج إيطاليا. وعلى الرغم من انتهاء زمنهم كجماعة دينية ذات نفوذ، فإن أفراداً ومجموعات صغيرة استمرت تنادى بالفلسفة الفيثاغورية حتى القرن التالي.

التأثير

ظهرت الأفكار الفيثاغورية عن الأخلاقيات والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة أو الغيبيات) في عديد من الكتابات اليونانية المهمة مثل: أعمال أفلاطون (ح ٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)

وأرسطو (٢٨٤-٢٢٢ ق.م.)، غير أن الأفكار الرياضية التي نادى بها الفيثاغوريون هي ما ترك أعمق أثر على تاريخ الفلسفة والعلوم التي تلتها. ولما كان الفيثاغوريون قد تركوا تعاليم شفاهية وليست مكتوبة فليس لدينا برهان مباشر على معتقداتهم أو مكتشفاتهم ويتعين علينا أن نعتمد على ما كتبه فلاسفة لاحقون استخدموا الأفكار الفيثاغورية أو علقوا عليها. فأرسطو مثلاً: جادل بأن الفيثاغوريين كانوا يعتقدون أن الكون كله موسيقى في مجمله، وبالتالي فهو رياضياتي. ولا ندري إن كان الفيثاغوريون قد آمنوا بذلك حرفياً أو كمثال من نوع ما. لكننا نعلم علم اليقين أن الأرقام والتناسق الموسيقي كانا أهم أفكار الفيثاغوريين في فهمهم للعالم. وأهم سمة مشتركة في رؤية الفيثاغوريين للعالم هي التعريف الكامل للحقيقة بالأرقام.

بحث الفيثاغوريون في خواص الأرقام، وانعكاس الخواص الرقمية على الأشكال الهندسية، ووجود علاقات رقمية في العالم الطبيعي. وكانوا أول من درس جمع منظومات الأرقام. ويتمثل هذه المنظومات من الأرقام هندسياً تمكنوا من التوصل إلى أنماط مختلفة نتجت عن جمع منظومات مختلفة من الأرقام. ونتيجة لتوصلهم إلى تلك العلاقات الهندسية أصبح الفيثاغوريين أشهر من درسوا الرياضيات الأولية. فقد لاحظوا أن مساحة المربع المرسوم على وتر المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مساحات المربعات المرسومة على أضلاع المثلث الأخرى. وتبقى "نظرية فيثاغورس" هذه معياراً في الهندسة الأولية، وهي مثال واضح على طريقة البحث والاكتشاف التي اشتهر بها الفيثاغوريون. وثمة إسهام مهم آخر للفيثاغوريين في الهندسة الأولية هو إدراكهم أنه ما من علاقة تربط قطر المربع وضلعه ولا نسبة أو تناسب بينهما (أي أن النسبة بينهما تنتج رقماً أصم أي لا يمكن وضعه على صورة نسبة).

وفي مقابل فهمنا الحديث لتلك الأفكار الرياضية، توصل الفيثاغوريون إلى كثير من اكتشافاتهم بواسطة استخدام الحصى لتمثل الأرقام. وتركت تلك الحصى آثارها في الرياضيات الحديثة؛ فالكلمة اليونانية للحصاة هي "كالكيولوس" (calculus) ومنها

أنت الكلمة الإنجليزية "calculate" بمعنى يحسب أو يجرى حسابات^(١) وكان الفيثاغوريون يمثلون الأرقام بمثلثات أو مربعات أو مستطيلات، حسب إمكانية ترتيب الحصى بصورة متناسقة في شكل من الأشكال. فمثلاً العدد ٣ عدد مثلث، بينما العدد ٤ عدد مربع.

ولم يحدث أن كانت مجموعة من الأفكار أكثر أهمية في نظرية الفيثاغوريين إلى العالم وفي فلسفتهم من علاقة الأرقام بالتناسق الموسيقى. فقد تعرف الفيثاغوريون على الفواصل الموسيقية الأساسية للأوكتاف (الثماني) والخمس والرُبع باستخدام النسبة والتناسب، وهو اكتشاف آخر نو علاقة بالمفاهيم، ونجحوا في إنتاج الهارمونية أى علم قواعد الألحان الموسيقية والإيقاع على ألتهم الوترية. ومعنى ذلك أن هارمونية الأوكتاف تنتج عند لمس الوتر في منتصف طوله، بينما ينتج الخمس عند ثلثي طوله. وتمكن الفيثاغوريون، بالبناء على تلك الأسس، من إنتاج نظام من سلالم ونغمات موسيقية.

طبق الفيثاغوريون فهمهم للفواصل الموسيقية على دراسة الأجرام السماوية. وكان فيلسوف سابق لهم هو أناكسيماندر (Anaximander) (ح. ٦١٠ - ح. ٥٤٦ ق.م.) قد اقترح أن الأجرام السماوية تتكون من ثلاث حلقات متحركة. وطور الفيثاغوريون هذه الفكرة بأن طابقوا الفواصل بين الحلقات الثلاث والفواصل الموسيقية للأوكتاف والخمس والرُبع. وكانوا أول من فرق بين الدوران النهاري للسماوات من الشرق إلى الغرب ودوران الشمس والقمر والكواكب من الغرب إلى الشرق. وينسب إلى الفيثاغوريين أيضاً فضل اكتشاف كروية الأرض. وبعد قرون أثنى نيكولاس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) (١٤٧٣-١٥٤٣) على الفيثاغوريين لأفكارهم الفلكية بوصفها السلف والبشير لفرضيته القائلة بأن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس لا أن الشمس تدور حول الأرض.

(١) وكذلك نجد في اللغة العربية كلمة «أحصى» بمعنى عدّ، من الحصى والحصى. ويبدو أن العرب الأقدمين كانوا يجرّون عمليات العد والحساب باستخدام الحصى (الترجم).

إن متابعة تأثير الفيثاغوريين لهو أمر مثير للإحباط إلى حد ما. ففلاسفة الإغريق اللاحقين مثل أفلاطون وأرسطو وإقليدس (ح. 330-ح. 260 ق.م.) أثبتوا ثناء صريحاً وكذلك ضمنى على الفيثاغوريين وأفكارهم العديدة ومعتقداتهم ومكتشفاتهم. غير أنه لما كانت تلك المصادر ذاتها هي وثائقنا الوحيدة فى أحوال كثيرة على أعمال الفيثاغوريين فإنه من المستحيل أن نفصل الأفكار الأصلية عما لحقها من تفاسير لاحقة. فإن كنا نريد أن نعطي الفيثاغوريين كل ما يمكننا من ثناء مستحق، فإن من الواجب أن نعتز لهم بفضل ميلاد الدراسات الرياضياتية المجردة لذاتها لا لمساندة التجارة أو أية أنشطة أخرى. كما أن الدراسة الرسمية للموسيقى وعلم قواعد الألحان الموسيقية والإيقاع وتطبيقات النظريات الموسيقية هي أيضاً من المنجزات التي نستطيع أن ننسبها إلى الفيثاغوريين باطمئنان.

وأكثر أفكار الفيثاغوريين جسارة - وهي آراؤهم الخاصة بأن الطبيعة مكونة من علاقات رقمية والتناسق الموسيقى الذى يتفق مع تلك العلاقات - قد عاودت الظهور فى أشكال مختلفة طوال تاريخ العلم. فمثلاً كان مفهوم "تناسق الأجرام السماوية" مبدأً اهتدى به يوهان كبلر (Johannes Kepler) (1571-1630). وكثيراً ما أسفرت الجهود فى سبيل تفسير الطبيعة بالرياضيات عن أن الطبيعة أصبحت توصف بأن الرياضيات متأصلة فى صلبها، وفى بعض الأحوال تحول ذلك تدريجياً إلى الحديث عن الظواهر الطبيعية بوصفها رياضيات بحتة. غير أن أكثر ما يثير الفضول قد يكون علم الاسترقام (digitization) أى تحويل المعطيات إلى شكل رقمى، وهو التمثيل الإلكتروني للأصوات والصور والمعلومات من كل نوع على صورة أرقام. ويمكن أن نعتبر عالم الاسترقام هو الصورة النهائية لتحقيق المثل الأعلى الفيثاغورى بأن الطبيعة هي أرقام. وعلى الرغم من انعدام وجود علاقة سببية بين الفيثاغوريين من القرن الخامس ق.م. والموسيقى الرقمية فى القرن الحادى والعشرين، فإن الأخيرة دون شك تحمل نوعاً من الدّينَ الذهنى لخيلات الفيثاغوريين.

لورين بتلر فِفر (LOREN BUTLER FEFFER)

لمزيد من القراءة

Dreyer, J.L.E. *A History of Astronomy from Thales to Kepler*. New York: Dover Press, 1953.

Furley, David. *The Greek Cosmologists*. Cambridge: Cambridge University Press, 1987.

Lindberg, David. *The Beginnings of Western Science*. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

Lloyd, G.E.R. *Early Greek Science: Thales to Aristotle*. Cambridge: Cambridge University Press, 1970.

Neugebauer, Otto. *The Exact Sciences in Antiquity*. Princeton: Princeton University Press, 1952.

O'Meara, Dominic. *Pythagoras Revived: Mathematics and Philosophy in Late Antiquity*. Oxford: Clarendon Press, 1989.



اكتشف فيثاغورس الساموسى أهمية الأعداد فى وصف العالم الواقعى

نشأة نظرية الأرقام

نظرة شاملة

نظرية الأرقام هي الدراسة الرياضياتية لخواص الأرقام والعلاقات بينها. فمثلاً تركز جانب كبير من نظرية الأرقام على الأعداد الأولية، والنظرية الأخيرة الشهيرة لفيرمات (Fermat) كانت، إلى عهد قريب، واحدة من أهم المسائل التي لم تُحل في نظرية الأرقام. وأجرى ديوفانتوس السكندري (القرن الثالث ق.م.) وهو عالم رياضيات إغريقي، بعضاً من أوائل الأبحاث في نظرية الأرقام، وبذلك مهد المسرح لألقى عام تالية من البحوث المستقبلية.

الخلفية

العدد الأولي (prime number) هو عدد لا يقبل القسمة إلا على نفسه أو على ١. وليس ثمة من وسيلة نعرف بها تأكيداً متى اكتشفت الأعداد الأولية أول مرة، لكن ذلك كان بدون شك قرب فجر الرياضيات. فكانت معروفة منذ ٢٥٠٠ سنة على الأقل، بل أقدم من ذلك بلا ريب. وقد درس الفيثاغوريون الأعداد الأولية في القرون القليلة الأولى قبل الميلاد، ولكنها لم تكن دراسة مقتصرة عليها في حد ذاتها.

ومن المؤكد أيضاً أن الرياضياتيين القدماء قد درسوا خواص الأعداد غير الأولية. وهنا لعب الفيثاغوريون أيضاً دوراً مهماً، فوصفوا خواص الأعداد الشفعية (الزوجية) والوترية (الفردية)، ووضعوا نظريات تتناول الأعداد الأولية، ودرسوا أنواعاً مختلفة من

المعادلات. وفي نفس الوقت، وفي سنوات تالية، بدأ رياضياتيون آخرون في الحديث عن الطرق التي يمكن بها حل معادلات معينة، بينما حاول رياضياتيون آخرون تطبيق تلك المعادلات في مسائل الهندسة.

ورغم كل ذلك التقدم لم تكن دراسة الأرقام فرعاً مستقلاً من فروع الرياضيات. فقد كانت تمثل اهتماماً تجريبياً، منتجةً بعض النتائج المفيدة، ولكن لم يحدث أن أحداً من علماء الرياضيات اقتصر تاريخه المهني على دراستها.

وبعد أن وصل علماء الرياضة الإغريق إلى الذروة في القرن الثالث ق.م. انحدر بهم الحال لعدة قرون. فقد استمر علماء الرياضيات الإغريق في إنتاج إسهامات مبتكرة في هذا المجال، ولكن ليس بنفس المعدل ولا درجة الابتكارية مثلما كان الحال من قبل. غير أنه بحلول القرن الثاني الميلادي بدأ الرياضياتيون الإغريق يستعيدون نشاطهم، ودخلوا في "عصر فضي". وفي تلك الفترة لم يعووا حقاً إلى سابق مجدهم، لكن بعضهم صار مرة أخرى، لفترة وجيزة، من الرياضياتيين المتفوقين في العالم. وفي تلك القرون، باتت مدينة الإسكندرية بوجه خاص قوة مهيمنة في الرياضيات، فأبرزت رياضيين عظماء مثل إقليدس (Euclid) (٢٣٠٠-٢٦٠٠ ق.م.)، وديوفانتوس (Diophantus)، وهيباشيا (Hypatia) (٣٧٠-٤١٥ م.).

وفي تلك الفترة وصل عالم الرياضيات الكبير ديوفانتوس السكندري إلى قمة منجزاته. كان ديوفانتوس عالماً ذائع الصيت في الجبر والهندسة، ومؤسساً لعلم نظرية الأرقام. وكان أهم منجزاته كتابه "الرياضيات" (Arithmetica) الذي ألفه حوالي سنة ٢٥٠ م. ويبدو أن هذا الكتاب كان يتكون من ١٣ جزءاً، لم يتبق منها إلا ستة، ويبدو أن الأجزاء الأخرى قد فقدت بعد وفاته بفترة وجيزة. ويصف ديوفانتوس في الأجزاء المتبقية مقترحاته الخاصة بنظرية الأرقام. وهو يقرر في إحداها أن الفرق بين تكعيب عددين جذريين يساوي مجموع تكعيب عددين جذريين منفصلين (رياضياتياً، $٢١-٢٢ = ٢٣+٢٤$). وأهم من ذلك بكثير كان نص آخر ترتب عليه، عندما دُرِس في قرون لاحقة، وضع النظرية الأخيرة لفيرمات. والخلاصة، لا يجب الاكتفاء باعتبار كتاب

"الرياضيات" لديوفانتوس واحداً من أعظم كتب الرياضيات فى عصره، وإنما أيضاً أول عمل مترابط ترابطاً منطقياً فى نظرية الأرقام فى تاريخ الرياضيات.

التأثير

على الرغم من أن الرياضياتيين الأقدم، من مصريين وبابليين، قد استكشفوا من قبل العديد من مسائل الأرقام التى طرحها ديوفانتوس، فإنها لم يحدث أن جُمعت من قبل فى عمل واحد. فكان هذا التجميع لمسائل خاصة بنظرية الأرقام هو ما أسهم فى تقديم النظرية كفرع مستقل من فروع الرياضيات. وكان لكتاب ديوفانتوس تأثيرات خاصة على الرياضيات هى:

١- أنها ألهمت الأبحاث التى أدت إلى "النظرية الأخيرة" الشهيرة لفيرمات، والتى أدت بدورها إلى تقدم كبير فى الرياضيات.

٢- أنها أدت إلى البحث المنهجى فى مجال نظرية الأرقام.

٣- أن ما نتج عنها فى مجال نظرية المعادلات أدى إلى استنباط طرق للحل مهدت الطريق لما صار يعرف بعلم الجبر.

ولعل أشمل مسألة أوردها ديوفانتوس فى كتابه "الرياضيات" كانت المسألة رقم ٨ فى الجزء الثانى. ففيها تسأل ديوفانتوس عن وسيلة يعبر بها عن أن تربيعاً لعدد معين يساوى مجموع مربعين آخرين. ولما قرأ بيير دى فيرمات (Pierre de Fermat) (١٦٠١-١٦٦٥) ترجمة لتلك المسألة ألهمه ذلك لأن يتساءل عما إذا كان فى الإمكان حل مثل تلك المسألة مع وجود أس أكبر. وأصبحت نظريته، التى جاء فيها أنه لا يمكن التوصل إلى حل إذا كان الأس أكبر من ٢، لغزاً رياضياً وكانت ملهمة للرياضياتيين لما يربو على ثلاثة قرون.

وهذه المسألة ليست جديدة بأى حال من الأحوال. فقد حلها البابليون بصورة مرضية قبل أكثر من ألف عام، وكذلك فعل المصريون واليونان الفيثاغوريون قبل زمن ديوفانتوس بقرون. غير أنه ليس ضرورياً أن تكون المسألة جديدة مثيرة الاهتمام. ولا يزال هذا النوع من المسائل يُدرّس في المدارس والجامعات حتى اليوم لأنها مهمة ومفيدة، وربما يكون ديوفانتوس قد ضمنها في كتابه لنفس السبب. والشئ الذى لم يكن بمقدور ديوفانتوس أن يعرفه هو ما حدث بعد ما يزيد على ألف عام، عندما قرأ بيير فيرمات ترجمة حديثة لهذا الكتاب فآلمه ذلك أن يدون فى عجلة ملاحظاته التى صارت الآن شهيرة عن "النظرية الأخيرة" على هامش كتاب ديوفانتوس.

شغلت محاولات إثبات صحة أو خطأ "النظرية الأخيرة" لفيرمات أذهان عدد من المنظرين لما يربو على ٣٠٠ سنة، وحفزت على المزيد من التقدم فى الرياضيات. ومن المغربى، مع أى حدث تاريخى، أن نتساءل "ماذا لو؟" وفى حالتنا هذه نستطيع أن نسأل أنفسنا "ماذا لو أن هذا الجزء من كتاب ديوفانتوس لم يُعثر عليه ويترجم إلا بعد موت فيرمات؟" "ماذا لو لم تتح لفيرمات فرصة قراءته؟" بل حتى "ماذا لو لم يفكر ديوفانتوس فى إدماج تلك المسألة بالذات فى كتابه، ظناً منه أنها بدائية أكثر مما ينبغى أو أنها ليست مهمة ولا تستحق أن يضمها؟" ومن الجائز أنه لو كان أحد تلك الاحتمالات قد تحقق لما خط فيرمات ملاحظته الشهيرة، تاركاً الرياضياتيين والعالم بدونها.

وإضافة إلى عمل فيرمات، أثرت نظرية الأرقام الرياضيات بصورة لا حد لها. ونظرية الأرقام، كما لاحظنا أنفاً، هى دراسة الأرقام وعلاقاتها ببعضها البعض. والبحث عن أنماط حدوث الأرقام الأولية هو أحد أمثلة نظرية الأرقام. وقد جاهد علماء الرياضة لقرون لإنشاء صيغة لإيجاد أعداد أولية أكبر وأكبر. وحتى اليوم نجد قصصاً إخبارية عارضة عن سوبر كمبيوتر جديد "يكتشف" أكبر عدد أولى حتى الآن. وعلى الرغم من أن هذا الأمر ليست له أهمية للغالبية فإنه تكون أهمية أكاديمية، وأنه يجب التنويه بأن لوغاريتمات التشفير فى أغلب الحاسبات وغالبية برامج التشفير تعتمد على أرقام أولية بالغة الكبر للتشفير الأمن لكل شئ من مشتروات الإنترنت والاتصالات العسكرية إلى

الاتصالات غير القانونية بين المجرمين. وهذا مجرد مثال واحد لما بلغت نظرية الأرقام من تأثير على الحياة اليومية في العالم.

ويتناول الجانب الأكبر من كتاب ديوفانتوس، بل هو أكبر جانب في نظرية الأرقام المبكرة، يتناول حل أنواع مختلفة من المعادلات. وثمة نوع خاص من المعادلات لا تزال تسمى "الديوفانتينية". وهي المعادلات التي لا تجرى فيها إلا عمليات الضرب والقسمة والجمع والطرح؛ وكل الثوابت فيها أعداد صحيحة؛ والإجابات الصحيحة إما أعداد صحيحة موجبة أو أعداد صحيحة سالبة. وهاكم المثال الشهير لمعادلة ديوفانتينية وهو $٢١ + ٢ = ج$ ، وهذا هو أساس نظرية فيثاغورس، وكذلك "النظرية الأخيرة" لفيرمات.

وأثبتت دراسة المعادلات على مر القرون فوائدها، وتنتج عنها فهم أعمق لطبيعة تلك المعادلات عندما استُعملت في وصف الظواهر المحيطة بنا. فمثلاً: إذا تأملنا المعادلة التي أوردناها آنفاً نجد أنها كانت معلومة لقدماء المصريين والبابليين ورياضياتيين قدماء آخرين، واستخدموها لحل مسائل أساسية وتطبيقية في الهندسة. كما أنهم أدركوا مبكراً عدم وجود حل سهل لبعض المسائل، وأن بعض المسائل ليست لها حلول مطلقاً. فلو أخذنا، على سبيل المثال، مثلثاً أطوال ضلعيه ثلاثة أمتار وأربعة أمتار. فباستخدام نظرية فيثاغورس نجد أن الحل يسير، وأن إجراء حساب سريع يؤدي إلى أن طول الضلع المتبقى يبلغ خمسة أمتار. وهذا يُكتب هكذا: $٢٤ + ٢٣ = ٢٥$ ، وإذن س لا بد وأن تساوى الجذر التربيعي لـ ٢٥، وهو ٥، والآن نأخذ مثلثاً طول كل ضلع من أضلاعه متر واحد. ففي هذه الحالة س ستكون مساوية للجذر التربيعي للعدد ٢، وهو عدد لا نهائى ولا يتكرر. وعلى هذا لا يحتاج المرء لأن يبحث بعيداً عن معادلة بسيطة جوابها لا يمكن التوصل إليه بدقة مثالية.

وإذا ما استطردها أكثر في استخدام هذا المثال ونتأمل المعادلة $٢ + ١ =$ صفر، وهي معادلة بسيطة أخرى. ففي هذه الحالة س تساوى الجذر التربيعي لـ -١، ولم يمكن التوصل إلى حل لهذه المسألة إلا بعد ألف عام من وفاة ديوفانتوس. غير أنها،

بمجرد حلها بعد "اختراع" الأعداد التخيلية، فإن قدرتنا على فهم عالمنا ووصفه أخذت دفعة هائلة إلى الأمام. ومنذ ذلك الحين أصبحت الأعداد التخيلية (ومعها الأعداد المركبة التي صاغها كاسبار فِسل Caspar Wessel (سنة ١٧٩٩) أداة جوهرية للمهندسين والعلماء ومصممي الأجهزة الإلكترونية في العالم أجمع.

وبالطبع لم تدر كل تلك التطورات في خلد ديوفانتوس. والحق أنه لم يكن بمقدوره هو أو معاصريه أن يتخيلوا استخدامات مكتشفاتهم في نظرية الأرقام التي سيتم التوصل إليها يوماً من الأيام. ومن حسن الطالع أن هذا المستوى من البصيرة ليس شرطاً ضرورياً للمكتشفات المبهرة، لأننا قد استفدنا جميعاً من مكتشفاتهم.

ب. أندرو كرم

لمزيد من القراءة

Aczel, Amic. *Fermat's Last Theorem: Unlocking the Secret of an Ancient Mathematical Problem*. New York: Four Walls Eight Windows, 1996.

Boyer, Carl, and Uta Merzbach. *A History of Mathematics*. New York: John Wiley & Sons, 1991.

Dunham, William. *Journey through Genius: The Great Theorems of Mathematics*. New York: Penguin Books, 1990.

نظم الأرقام

نظرة شاملة

تشمل أقدم نظم الأرقام التي نملك لها سجلاً مكتوباً أنظمة البابليين والمصريين والإغريق والرومان والصينيين والهنود والمايا. وتضمنت بعض النظم تكرار الرموز للتعبير عن الكميات الأكبر، بينما استخدمت نظم أخرى عمليات صريحة لضرب الكميات في أس وحدة قاعدية أو حددت مواصفات الأس وفقاً للموقع في سلسلة من الرموز. ولم يكن من الممكن أن يتم تطور كامل لنظام القيمة الموضعية للأرقام (الخانات)، وهو أساس حسابات الرياضيات الحديثة، قبل أن ينشأ رمز للصفر وقواعد لحساباته، وهو ما لم يتبلور بصورة كاملة في أوروبا إلا بعد عصر النهضة.

الخلفية

كل ما نعلمه عن نظم الأرقام في الحضارات المبكرة إنما نتج عن البحث الأثري في المنى عام الماضية وهو بالضرورة غير مكتمل. وقد بُذل جهد في سبيل فهم مجتمعات الشرق الأوسط القديمة والبحر المتوسط أكبر بكثير مما بُذل لفهم مجتمعات الأمريكتين وإفريقيا والجانب الأكبر من آسيا. ومن المحتمل اكتشاف أنظمة أكثر براعة وإفادة في تلك المناطق التي لم تُدرس جيداً.

وتظهر أول سجلات مفصلة للتدوين الحسابي في ألواح الصلصال في بابل، وهي المنطقة المحيطة بنهرى دجلة والفرات، وموطن مملكتي السومريين (٤٠٠٠-٢٥٠٠)

ق.م.) والأكاديين (٢٥٠٠-١٠٠٠ ق.م.). وتوفرت لدينا من الفترة الأكادية حصيلة ثرية من السجلات فى صورة مسمارية - وهى انطباع آلة وتدنية الشكل على ألواح الصلصال ثم يتم تحميمها بعد ذلك فى أفران.

وفى الحساب الأكادى كانت الأرقام من واحد إلى تسعة تُسجّل بوضع خطوط طولية بالقلم عددها يساوى الأعداد المطلوبة، بينما تُستخدم مكررات مستعرضة وتدنية الشكل لمضاعفات الأرقام من ١٠ إلى ٥٠، وتدوين الرقم ٦٠ كانوا يستخدمون خطأ طولياً مختلفاً، وكانت الأرقام الأكبر يُعبّر عنها بالجمع بين ٦٠ و١٠ والأحاد. فكان الرقم ١٤٤ يُكتب برمز ٦٠ مكرراً مرتين ورمز ١٠ مكرراً مرتين ثم مجموعة من أربعة خطوط طولية.

ويتجميع الرموز تطور البابليون واخترعوا ما يمكن أن يُطلق عليه أول تدوين للأعداد حسب الخانات، فبينما رمز العدد ٦٠ يتكرر ثلاث مرات متلاصقين بما يعنى ٦٠ مضروباً فى ٢ أى ١٢٠، إلا أن الرموز الثلاثة لو كتبت بمسافة بعد أولها تعنى تربيع ٦٠ مجموعة على مضاعف ٦٠، أى ٣٦٠. وللإقلال من احتمالات القراءة الخاطئة كانوا يضعون رمزاً خاصاً يمثل المسافة المطلوبة ويتكون من تدين قصيرين مائلين، وقد أدخل ذلك فى حوالى ٢٠٠ ق.م. غير أن ذلك الرمز، الذى يحقق وظيفة من وظائف الصفر فى الرياضيات الحديثة، لم يكن يفهم منه أن له قيمة عددية.

وليس من المعروف سبب أن الرقم ٦٠ كانت له تلك الأهمية فى الرياضيات البابلية. ولعل الاهتمامات الفلكية لعبت دوراً فى ذلك، لأن ما يقرب من نصف ٦٠ هو عدد أيام الشهر وأكثر من ستة أضعاف ٦٠ هو عدد أيام السنة. وكان للبابليين أيضاً رمز خاص للكسور الشائعة $\frac{2}{1}$ و $\frac{3}{1}$ وغيرها، وتوسعوا فى تدوينهم حسب الخانة للتعبير عن الكسور مثل جمع عدد من الـ $\frac{60}{1}$ إلى عدد من الـ $\frac{3600}{1}$ وهكذا دواليك.

وابتدع قدماء المصريين نظامين منفصلين للكتابة، وبالتالي نظامين منفصلين لتدوين الأرقام. وفى النظام الأقدم، وهو الهيروغليفى، استخدموا رموزاً منفصلة

للآحاد والعشرات والمئات والمضاعفات الأخرى للعدد ١٠. وكانت الأرقام تُكتَب من اليمين إلى اليسار، وتُدوّن مضاعفات ١٠ بالترار. وبهذا كان الرقم ١٤٤ يُكتَب برمز الآحاد مكرراً أربع مرات متبوعاً برمز ١٠ مكرراً أربع مرات متبوعاً برمز ١٠٠. أما كسور الآحاد، أى الكسور التى يشكّل فيها ١ البسط فكانت تُكتَب بوضع شكل بيضاوى فوق رمز العدد فى المقام.

وبدءاً من حوالى ٢٥٠٠ ق.م. تبنى المصريون حروف كتابة مبسطة يطلق عليها اليوم اسم "الخط الهيراطيقى" للكتابة على ورق البردي. وفى نظام الأعداد الهيراطيقى كانت ثمة رموز منفصلة للأعداد من ١ إلى ١٠، وكان ذلك أول ظهور للأرقام المنفصلة، وكانت مجموعة من الأعداد مثل أرقامنا من ١ إلى ٩. كما استخدمت أيضاً تدويناً موقعياً (حسب الخانات) يُقرأ من اليمين إلى اليسار للأرقام الأكبر من ١٠. وكانت كسور الآحاد يشار إليها بنقطة توضع فوق المقام. وبخلاف البابليين، لم يبتكر المصريون صيغة خاصة بالكسور بصورة عامة، ولكنهم عبروا عن الكسور مثل $\frac{5}{2}$ بمجموع كسور أحادية.

وابتكر الإغريق أيضاً نظامين رئيسيين لتدوين الأعداد. ويشبه أقدمهما، وهو النظام الأثينى (Attic system)، النظام الهيروغليفى المصرى فى أنه كان مبنياً على مضاعفات ١٠ واستخدموا التكرارية للإشارة إلى المضاعفات. وكان هذا النظام يستخدم مجموعات من خطوط طولية للأعداد من ١ إلى ٤، والحرف "باى" (π) للعدد ٥، والحرف "دلتا" (δ) لـ ١٠، و"إيتا" (η)، للعدد ١٠٠، والحرف "تشى" (χ) لـ ١٠٠٠، وبهذا يظهر الرقم ١٤٤ على هذا النحو "ηδδδδ|||". واستخدم النظام الأثينى رمزاً خاصاً للعددين ٥٠ و ٥٠٠ يجمع بين الحروف الخاصة بالأعداد ٥ و ١٠٠ أو ٥ و ١٠٠٠ على التوالى.

أما النظام الإيونى أو الأبجدي عند الإغريق فقد استخدم الحروف فى ترتيبها الأبجدي، بما فى ذلك الحروف العتيقة (المهجورة أيامها والآن): ديجاما لتمثل ٦ وكوبا لتمثل ٩٠ وسامبى لتمثل ٩٠٠. فهذا النظام كان يمثل ١ بحرف "ألفا" (α) و ٢ بحرف

"بيتا" (β) و٤ بحرف "دلتا" (δ) و٩ بحرف "ثيتا" (θ) و١٠ بحرف "يوتا" (I)، ثم يزيد بعشرات حيث يمثل حرف "كابا" (κ)، ٢٠، وحرف "لامدا" (λ)، ٣٠، وحرف "ميو" (μ) ٤٠، حتى يصل إلى حرف "رو" (ρ) الذي يمثل ١٠٠، ثم يزيد بمئات منتهياً بحرف "أوميغا" (ο) الذي يمثل ٨٠٠، ويمثل ٩٠٠ بحرف "سامبي". وفي هذا النظام يظهر العدد ١٤٤ على شكل δμρ وكانت وحدات ١٠٠٠ تُمثل برمز على شكل الفاصلة يسبق واحداً من الحروف التسعة الأولى، بينما يشار إلى مضاعفات ١٠٠٠٠ بحرف "ميو" استهلالى كبير (capital Mu).

أما النظام الروماني، الذي لا يزال يستخدم أحياناً لتسجيل التواريخ أو ليشير إلى أرقام مجلدات الكتب، فكان يستخدم الحروف ا و v و x و L و C و D و M ليمثل الأرقام ١ و ٥ و ١٠ و ٥٠ و ١٠٠ و ٥٠٠ و ١٠٠٠ على التوالي. وكانت الكسور الرومانية مبنية على مضاعفات ١٢، فكانت هناك رموز خاصة تمثل ١٢/١ و ١٢/٢ و ٢٤/١ وهكذا.

وفي حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. نشأ في الصين نظام "الأعداد العسوية"، يحوى مجموعات من ١ إلى ٥ خطوط طولية تشير إلى الأعداد من ١ إلى ٥، ومجموعات من ١ إلى ٤ خطوط تحت خط مستعرض واحد تمثل الأعداد من ٦ إلى ٩، وكانت مضاعفات ١٠، من ١٠ إلى ٥٠، تُكتب بعدد من الخطوط المستعرضة يبلغ عددها من ١ إلى خمسة، ومن ٦٠ إلى ٩٠ تُكتب بخطوط مستعرضة يبلغ عددها من ١ إلى ٤ تحت خط طولى واحد. وكانت الأعداد الأكبر قيمة تُكتب بتبادل بين رموز خطية طولية وعرضية من اليمين إلى اليسار. وعلى ذلك يُكتب العدد ١٤٤ كمجموعة من ٤ خطوط رأسية إلى يسار مجموعة من ٤ خطوط مستعرضة إلى يسار خط رأسى وحيد. وأمكن استخدام نظام الأعداد العسوية فى الحسابات باستخدام عصى حقيقية وكان ذلك فناً يجيده بعض الموظفين الحكوميين. وفى نفس الوقت، استخدم الصينيون أيضاً نظاماً مكتوباً مبنياً على الأرقام المنفصلة للأعداد من ١ إلى ١٠، وفى ذلك النظام الذى كان عشرياً وإن لم يكن موضعياً (خاناتياً)، يظهر كل عدد كمجموع لمضاعفات ١٠، ويشبه

فى ذلك نظامنا الحالى شبيهاً كبيراً، ولكن دون الاحتياج إلى رموز شاغلة للخانات لأن مضاعفات ١٠ كانت تظهر بصورة صريحة محددة.

وتظهر رموز الأعداد فى الهند أيضاً فى القرن الثالث ق.م. وهناك تباين كبير فى الرموز المستخدمة على مر العصور. فكانت الرموز البراهمانية تستخدم أرقاماً منفصلة للأعداد من ١ إلى ٩، والعديد منها يحمل تشابهاً مع الأرقام الحديثة. كما شملت الرموز البراهمانية أيضاً رموزاً مختلفة لمضاعفات الأعداد من ١٠ إلى ٦٠. وبعد ٦٠٠ ق.م. وحدث تغييرات متعددة، شملت التحول من رموز إلى كلمات أحياناً، عاد الرياضياتيون الهنود إلى الرموز البراهمانية، وعزوها برمز للصفر له خاتة خاصة به وخواصه الحسابية مثل الصفر الحديث. وسهل كثيراً مفهوم الصفر من إجراء الحسابات، حيث بات لا يمكن الاستغناء عنه. وتشير الأبحاث الأثرية الآن إلى أنه ربما كان المايا فى أمريكا الوسطى قد توصلوا إلى اكتشاف مماثل بصورة مستقلة وفى زمن أقدم بكثير.

التأثير

نستطيع أن نتعرف على أصداء نظام الأعداد البابلى فى قياساتنا التقليدية للزوايا، وتنقسم الدائرة الكاملة إلى ٣٦٠°، وكل درجة تنقسم إلى ٦٠ دقيقة وكل دقيقة تنقسم إلى ٦٠ ثانية. وينطبق نفس القول على قياسنا للزمن بالدقائق والثوانى.

ونظامنا العددي الحديث مستمد من النظام الهندى بعد إضافة رمز الصفر. وقد أدخل هذا النظام إلى أوروبا فى عصر النهضة من خلال الترجمة اللاتينية لكتب العلماء العرب، وبوجه خاص محمد بن موسى الخوارزمى (٧٨٠؟-٨٥٠)، الذى شرح فى كتابه "الكتاب المختصر فى حساب الجبر والمقابلة" والذى تُرجم إلى اللاتينية تحت اسم "الخوارزمى حول الطريقة الهندية فى الحسابات" (Algoritmi de numero Indor- um)، شرح النظام الهندى العددي وكيفية استخدامه فى الحسابات. ومن عنوان

الكتاب حصلنا على مصطلح "الأجوريزم، أو اللوغاريتمات كوصف لطريقة منهجية للحساب. وكان أول من روج لهذه الطريقة ليوناردو البيزاي (Leonardo of Pisa) (1140-1170) والمعروف أيضاً باسم ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci)، وهو ابن موظف حكومي سافر في أنحاء شمال إفريقيا وعلم من التجار بآباء النظام الهندي - العربي للحساب، والذي وصفه في كتابه عن الحساب.

ومما لا ريب فإني أن النظام الحديث المبني على العدد ١٠ إنما هو انعكاس لتشريح الجسم البشري بما فيه من ١٠ أصابع في اليد ومثلها في القدم. أما الحساب الإلكتروني، وهو نظام ثنائي تُمثل فيه الأرقام كمجموع مضاعفات ٢، فهو أكثر طبيعية لأنه يحتاج إلى رمزين مختلفين فقط، إما ١ أو صفر، يمكن تمثيلهما بحالتي الفتح والإغلاق للمفتاح الإلكتروني.

دونالد ر. فرانشيشتي

لمزيد من القراءة

Boyer, Carl B. A History of Mathematics. New York: Wiley, 1968.

Grattan-Guinness, Ivor. The Rainbow of Mathematics: A History of the Mathematical Sciences. New York: Norton, 1997.

Kline, Morris. Mathematical Thought from Ancient to Modern Times. New York: Oxford University Press, 1972.

العلاقة التاريخية بين علم المنطق والرياضيات

نظرة شاملة

فوق بوابة "أكاديمية" أفلاطون كُتب النقش التالي: "لا تسمحوا لأى شخص جاهل بالهندسة بالدخول إلى هنا". وكان أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) - وهو فيلسوف يونانى قديم يعتقد الكثيرون أنه أكثر الفلاسفة تأثيراً - كان يؤمن بأن فهم مبادئ الهندسة هو أمر جوهري فى تدريب الفلاسفة. وكان الفلاسفة قد بدأوا يدركون العلاقة التى تربط بين البراهين الرياضياتية، مثل ما تمثلها دراسة الهندسة، وبين علم المنطق، وهو علم التعرف على المبادئ المنهجية للتفكير الاستدلالي. غير أنه لم يحدث إلا على يد أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.)، وهو من تلاميذ أفلاطون، أن المنطق تمنهج فى صورة بقيت غالبيتها إلى اليوم دون تغيير.

الخلفية

منذ وقت مبكر فى التاريخ اتضحت الحاجة إلى البراهين الدامغة فى الفلسفة، وبخاصة فى الأحوال التى تتناقض فيها المواقف الفلسفية مع بعضها. ولعل أشهر جدل فى تلك الحقبة الذى فرض الحل عن طريق البرهان كان يتعلق بما إذا كانت الحقيقة ثابتة لا تتغير فى جوهرها (ومن ثم فإن التغير كان وهمًا) أو أن الحقيقة فى تغير دائم (ومن ثم فإن الثبات وهم). وجادل بارمينيدس (Parmenides) ولد ٥١٥ ق.م.) مؤيداً الرأى الأول، وحاول تلميذه زينو الإليوى (Zeno of Elea) (٤٩٥-٤٣٠ ق.م.)، أن يبرهن أن الموقف المعاكس هو السخف بعينه. غير أن الموقف المعاكس

كان هيراكليتوس (Heracitus) (٥٤٠ ق.م- ٤٨٠ ق.م) قد تبناه فى وقت سابق. وكان أرسطو يؤمن بأن دراسة الاستدلالات المستخدمة فى تلك الجدليات (أى بتحليل البراهين)، يمكن أن تؤدي إلى اكتشاف أوجه الخلل فى البراهين (إن كان لها وجود). فإن لم يُعثر على شيء فإنه يمكن اعتبار البرهان مقبولاً، أو صحيحاً.

وبهذا فإن المنطق، فى رأى أرسطو، هو أداة يستغلها الفلاسفة إما لتقوية حججهم وتأييدها أو لإضعاف حجج معارضيههم. فالمنطق، باختصار، هو وسيلة نستطيع بها الحصول على المعرفة، ومن خلال ذلك، نتأكد بها من استنتاجاتنا. واستخدم أرسطو هذه الأداة فى تطوير نظرياته المختلفة الخاصة بطبيعة العالم ومكانة الإنسان فيه.

التأثير

من الشائع أن الفضل يعود إلى أرسطو فى ابتكار نمط القياس المنطقى فى الجدول. وفى كتابه "التحليل المسبق" (Prior Analytics) ابتكر أرسطو القياس المنطقى التالى:

١- كل يونانى هو شخص.

٢- كل شخص فان.

٣- كل يونانى فان.

وطبقاً لأرسطو، كل من تلك الجمل الثلاث تكون وحدة نسبية، أى أن لها قيمة إزاء الحقيقة - إما أنها حقيقية أو زائفة. ويطلق على مثل تلك الجمل تعبير "إفادات". ويطلق على الجملتين الأولىين اسم "المقدمات المنطقية"، وهى تقدم الدليل على الإفادة الثالثة التى تسمى "الاستنتاج". وما أثبتته أرسطو من هذه المناقشة هو أن الاستنتاج ينبع بالضرورة من المقدمات المنطقية. وبمعنى آخر، إذا فرض أن المقدمات المنطقية صحيحة

فإن الاستنتاج لابد وأن يكون صحيحاً ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر. ويقال على مثل تلك المناقشات إنها "صحيحة بالاستنتاج المنطقي".

غير أنه من السهل أن نرى أن الاستنتاج للقياس المنطقي التالي ليس بالضرورة صحيحاً.

١- كل يوناني شخص.

٢- كل شخص فان.

٣- كل فان هو يوناني.

والاستنتاج في هذا المثال ليس منطقياً لأن هناك كثيرين فانيين وليسوا يونانيين. ويطلق على مثل ذلك النقاش "غير صحيح بالاستدلال المنطقي D": فعلى الرغم من أنها تسير حسب الاستدلال المنطقي فإن نتائجها لا تؤيدها المقدمات المنطقية.

وفي سلسلة من الكتب تعرف باسم "المعرفة" (Organon) حدد أرسطو القواعد التي يمكن بواسطتها تمييز الجدول من النوع الأول - أي "الصحيحة بالاستدلال المنطقي" - عن النوع الثاني أي "غير الصحيح بالاستدلال المنطقي". وفي الحقيقة، كما لاحظ أحد العلماء، كان أرسطو يؤمن بأنه أمر جوهري للعلم ذاته أن تُحدد تلك القواعد:

إن العلوم - على الأقل العلوم النظرية - لابد وأن تكون بديهية. فماذا تكون بديهياتها إذا؟ وما الشروط الواجب توفرها في فكرة كي نعتبرها بديهية؟ ومرة ثانية، ما هو النمط الذي سوف تتخذه الاشتقاقات داخل كل علم؟ وما القواعد التي سوف تُستنتجُ بها النظريات من البديهيات؟

كانت تلك بعضاً من الأسئلة التي طرحها أرسطو في كتاباته عن المنطق، وبالذات فيما يعرف باسم "التحليل المسبق والتحليل المتأخر" (Prior and Posterior Analytics) [الذان يشكلان جزءاً من "المعرفة"].

وليس من قبيل الصدفة أن كثيراً من الأمثلة التي ذكرها أرسطو للطريقة العلمية التي اقترحها كانت مستمدة من الرياضيات. ولا ننسى أن نتائج البراهين الرياضية تأتي بالضرورة، مثلها في ذلك مثل النتائج الصحيحة بالاستدلال المنطقي في الجدل. فمثلاً نستنتج بالضرورة أنه لو جُمع شيئان إلى شيئين آخرين، فالنتيجة ستكون أربعة بالضرورة؛ ومن المستحيل أن جمع $2 + 2$ يساوي 3، أو خمسة أو أى عدد آخر؛ أضف إلى ذلك أن 4 تساوي $2 + 2$ ليس مصادفة أو اعتباطاً وإنما لا بد أن تكون كذلك. ولهذا، فمتلماً أن العلم يهتم بالقواعد التي يمكن بها استخلاص النظريات (أو النتائج) من البديهيات (أو المقدمات المنطقية)، فذلك يحدث نفس الشيء في الرياضيات.

ومن بين الإسهامات الثورية لأرسطو في المنطق كان إدخاله للتوين الرمزي، وهو أمر عميق الجذور أيضاً في الرياضيات. ومكنت المتغيرات أرسطو من أن يعبر عن المبادئ المنطقية مباشرة، بدلاً من أن يصفها من خلال أمثلة، مثل التي أتينا على ذكرها آنفاً. ولهذا فبدلاً من أن يحاول التعبير عن المبادئ المنطقية للتحويل بمثال لغوي - "إن كان عدم السرور خيراً، فلا خير في السرور" - يعمد أرسطو إلى استخدام المتغيرات، وينجح في إثبات مبدأ التحويل على النحو التالي: "إن كانت أ لا تنتمي لأى من الباءات، فإن ب لا تنتمي لأى من الألفات" أو أبسط من ذلك مثل، "إذا لم يكن هناك ألفات فليست أى من الباءات ألفاً".

وبإدماج المتغيرات في المنطق أمكن لأرسطو أن يُعد المسرح لكل من الرياضيات والعلم. وبهذه الوسيلة بات استيعاب بديهيات التفكير الاستدلالي أكثر يسراً وأسهل في التطبيق في العلم والرياضيات، مما عزز كلا المجالين وأضاف إليهما. وبعدها بقرون كان مشروع أرسطو لا يزال حياً، كما أوضحه الفيلسوفان البريطانيان برتراند راسل ((Bertrand Russell) (1872-1970) وألفريد نورث وايتهد (Alfred North Whitehead) (1861-1947) في مؤلفهما الكلاسيكي من ثلاثة أجزاء:

تتعامل كل الرياضيات البحتة بصورة كلية مع مفاهيم قابلة للتعريف بعدد ضئيل من مصطلحات المنطق الرئيسية، وكل أفكارها قابلة للاستدلال بواسطة عدد ضئيل من المبادئ المنطقية.

واليوم يبقى المشروع الذي بدأه أرسطو لتحديد مبادئ التفكير ومنهجتها - وهو علم المنطق - ركيزة مهمة، كما كان دائماً، لاكتساب الإنسان للمعرفة وفهم العالم الطبيعي.

مارك هـ. أنبوخ (Mark H. Allenbaugh)

لمزيد من القراءة

Hurley, Patrick;, J. A Concise Introduction to Logic. 7th ed., Belmont, CA: Wadsworth, 2000.

Lejewski, Czeslaw. "History of Logic". In The Encyclopedia of Philosophy, Edited by Paul Edwards. Vol. 4 New York: Macmillan, 1967.

المسائل الثلاث التي لم تحل في بلاد اليونان القديمة

نظرة شاملة

شكلت هندسة بلاد اليونان القديمة، كما يمثلها كتاب إقليدس الشهير "المبادئ"، الركيزة الأساسية للفكر الرياضي الحديث. فإصرار الإغريق، مثلاً، على طرق صارمة للتوصل إلى البراهين لا تزال معنا إلى اليوم. واستمرت الطرق والنظريات الموجودة في "المبادئ" تُدرس لتلاميذ المدارس إلى القرن العشرين دون تغيير يذكر. وحتى اليوم نجد أن الهندسة المدرسية هي في جوهرها نفس الهندسة التي صنفها إقليدس (ح ٢٢٥-٢٦٥ ق.م.) منذ ما يربو على ألفى عام.

كان من قواعد الرياضيات اليونانية التقليدية ألا تقبل الأشكال الهندسية إلا إذا كانت مرسومة بالمسطرة المستقيمة (أي ذات جانب واحد مستقيم إلى حد دقيق) والفرجار. وقد أخذت هذه القاعدة من المُسَلِّمات الثلاث الأولى لإقليدس في كتابه "المبادئ". والمسَلِّمة هي نصوص تُعتبر صحيحة دون الحاجة إلى برهان. وفي "المبادئ" ذكر إقليدس خمس مُسَلِّمات كانت نقطة البداية للمقترحات أو النظريات التي جاءت في متن الكتاب. وتتناول أول ثلاث من تلك المسلمات رسم خط مستقيم ودائرة.

١- يمكن رسم خط مستقيم بين أي نقطتين.

٢- الخط المستقيم المحدود يمكن مده إلى ما لا نهاية.

٣- يمكن أن تُرسم دائرة حول أي نقطة مركزية ويأى خط يمثل نصف قطر الدائرة.

وعلى الرغم من أن أيًا من تلك المسلمات (أو أي مُسلّمة أخرى) لا تشير إشارة مباشرة إلى مسطرة مستقيمة ولا إلى فرجار، فإن هذا العرف، الذي يُنسب إلى أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)، قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من الهندسة اليونانية. وكان الإغريق يطلقون على رسم الأشكال الهندسية باستخدام المسطرة العدلة والفرجار اسم "الطريقة المستوية".

وعلى الرغم من أن الجانب الأكبر من الهندسة اليونانية رُسم باستخدام الطريقة المستوية، فإن ثلاث معضلات استعصت على الحل بهذه الوسائل لقرون عديدة. وأنتجت المسائل العتيقة وهي تربييع الدائرة وتثليث الزاوية، أي تقسيمها إلى ثلاث زوايا متساوية، ومضاعفة المكعب، أنتجت عدداً لا يُحصى من محاولات الحل. وصدرت هذه المحاولات من الرياضياتيين العظام في التاريخ، كما أتت من عديد من الهواة والمهاويس. وكان ثمة قاسم مشترك أعظم بين كل تلك المحاولات، وهي أنها فشلت جميعها.

وعلى الرغم من أن الإغريق كانوا عاجزين عن إثبات استحالة حل المسائل الثلاث بالطريقة المستوية وحدها، فإنهم بالقطع كانوا مدركين للصعوبات التي تكتنف حل كل مسألة. وبدلاً من أن يدركهم اليأس لمحاولاتهم التي لا طائل منها لحل المسائل بالاعتصار على استخدام المسطرة المستقيمة والفرجار، واجه الرياضياتيون الإغريق المسائل مستخدمين وسائل أقل تقليدية. وفي الحقيقة، نحن نعلم الآن أن أيًا من المسائل الثلاث لا يمكن حلها باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار فقط. غير أننا نجد في تلك المحاولات الفاشلة تقدماً مهماً أُحرز في مجالات عديدة في الرياضيات.

تربيع الدائرة

الخلفية

لكى "تربيع" شكلاً هندسياً (مثل مثلث أو دائرة) يعنى أن ترسم مربعاً مساحته تعادل مساحة الشكل المطلوب تربيعة. وقد نجح الهندسيون الإغريق فى تربيع أشكال تحدها خطوط مستقيمة، مثل المستطيلات والمثلثات. وكان تحديد المساحات الصحيحة لتلك الأشكال عملاً يسيراً نسبياً. وكانت الخطوة المنطقية التالية، وفقاً للكاتب الإغريقى بروكلوس (Proclus) (٤١١-٤٨٥م)، هى تربيع مساحات تحدها منحنيات غير مستقيمة، والدائرة هى أبسط تلك الأشكال. والمسألة المسماة "تربيع الدائرة" هى أن ترسم مربعاً مساوياً فى المساحة لدائرة معينة؛ وهو تفسير يبدو بسيطاً لمشكلة أعيت الرياضياتيين وحيرتهم لعدة ألوف من السنين. وعلى الرغم من أن البابليين والهنود والصينيين قد حاولوا حل مسألة تربيع الدائرة، فإن جهود الرياضياتيين الكلاسيكيين الإغريق كانت السبب فى اشتهاار المشكلة لعدة قرون.

وتتخذ مشكلة تربيع الدائرة معانى مختلفة وفقاً للطريقة التى تُتبع فى محاولة الحل. وإذا ما بدأنا بالإغريق، نجد أن طرقاً هندسية متعددة قد استُنبِطت وأمكن بواسطتها رسم مربع مساحته تساوى مساحة دائرة معينة. غير أن تلك الطرق عجزت جميعها عن تحقيق شرط الاقتصار على استخدام المسطرة المستقيمة والفرجار. وكل الطرق التى ربتت الدائرة على مر القرون، لم تنجح أى منها فى الاقتصار على استخدام المسطرة المستقيمة والفرجار. وكلها احتاجت طرقاً هندسية أشد تعقيداً مثل استخدام مقاطع مخروطية أو أجهزة ميكانيكية معقدة.

وعندما نقول إذاً إن مشكلة تربيع الدائرة لم تحل فإننا نعنى أنها لم تحل مطلقاً باستخدام "الطرق المستوية". وفى الحق، لم يحدث إلا فى أخريات القرن التاسع عشر أنه ثبت أن مشكلة تربيع الدائرة لا يمكن أن تحل بالطرق المستوية. وعلى الرغم من التاريخ العبثى للمشكلة، فإنها الجهد الذى بُذل فى سبيل تربيع الدائرة بوسائل

غير الطرق المستوية قد اتضح أنه كان مجالاً خصباً لنمو الرياضيات وتطورها. بل يضاف إلى ذلك، وكما يحدث كثيراً فى العلوم والرياضيات، أنه حتى الجهود الفاشلة لمحاولات تربيع الدائرة بالمسطرة المستقيمة والفرجار كانت لها فوائدها فى تطور الرياضيات.

ويعود إلى الإغريق فضل تبوؤ مشكلة تربيع الدائرة مكانة مهمة فى الرياضيات. فقد كان الرياضياتى الإغريقى أناكساجوراس (Anaxagoras) (٤٩٩-٤٢٨ ق.م.) من بين أوائل من حاولوا حل المشكلة (بينما كان فى السجن، ويا للغرابة)، غير أن جهوده فى هذا الشأن لم تبق إلى الأزمنة الحديثة. وأتى أول تقدم مسجل من رياضياتيين إغريقيين هما أنتيفون وبرايسون. فقد تناول أنتيفون (Antiphon) (٤٨٠-٤١١ ق.م.) مسألة تحديد مساحة الدائرة بأن بدأ برسم داخل الدائرة مربعاً ثم مئماً ثم مضلعاً ذا ستة عشر ضلعاً وهكذا. ورسم شكل داخل دائرة يتم بأن ترسم شكلاً، مثل مربع، حيث تلمس أركانه الدائرة من الداخل. وكلما تضاعف عدد جوانب المضلع؛ اقتربت مساحة ذلك المضلع من مساحة الدائرة. ومن الجلى أنه، بصرف النظر عن عدد الأضلاع فإن مساحة المضلع ستكون دائماً أصغر من مساحة الدائرة. وطور برايسون (Bryson) (اشتهر ٤٥٠ ق.م.) من تقريب أنتيفون بأن أحاط الدائرة بالمضلعات (بأن رسم الأشكال خارج الدائرة)، وبهذا ضمن أن الإجابة الصحيحة ستكون محصورة بين مساحتى المضلع المحيط بالدائرة والمضلع المرسوم داخلها.

أنجز أبقراط الكيوسى (Hippocrates of Chios) (ح ٤٧٠-٤١٠ ق.م.) ما بدا أنه تقدم مهم فى المسألة عندما نجح فى تكوين مربع مساو فى المساحة لمنطقة تسمى "الهلال"، وهى المنطقة المحصورة بين قوسين متقاطعين. وبدا أن أبقراط (وهو غير أبقراط الطبيب المسمى قسم الأطباء باسمه)، بدا أنه يسير على الطريق الصحيح. وفى الحقيقة تمكن أبقراط من حل معضلات تربيع ثلاثة أنواع من الأهلة فى حياته. ولكن عمله للأسف لم يؤد إلى حل ناجح لمسألة تربيع الدائرة. وفى الحقيقة، كان الرياضياتى السويسرى ليونارد يولر (Leonhard Euler) (١٧٠٧-١٧٨٣) (من القرن الثامن عشر

هو الشخص التالي الذى نجح فى تربيع نوع جديد من الأهلة، بل نوعان منها استعصيا على الرياضياتيين منذ زمن أبقراط. وهذا هو ما أنهى "تربيع الأهلة" عندما ثبت فى النهاية أن هذه الأنواع الخمسة فقط هى ما يمكن تربيعها، ثلاثة اكتشفها أبقراط ونوعان اكتشفهما يولر.

ومن الجدير بالذكر أن كلمة "لم تحل" التى التصقت بتربيع الدائرة قد جاءت من المحاولات التى لا يحصى عددها على مر التاريخ لحل المسألة باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار فقط. غير أن طرقاً فنية أخرى تتضمن أساليب هندسية مختلفة قد استُخدمت عبر التاريخ ونجحت فى حل مسألة تربيع الدائرة. فمثلاً استخدم رياضياتيون إغريق مثل دينوستراتوس (Dinostratus) (ح ٢٩٠ - ح ٢٢٠ ق.م.) ونيكوميدس (Nicomedes) (ح ٢٨٠ - ح ٢١٠ ق.م.)، استخدموا منحياً يسمى "القوس التربيعة" لتربيع الدائرة. غير أن هذا المنحنى التربيعة لا يمكن بناؤه باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار فقط.

حقق أرشميدس (٢٨٧-٢١٢ ق.م.)، الذى يعتبر أعظم رياضياتى فى العالم القديم، عدة تطورات فى مسألة تربيع الدائرة. ففى مقالته "حول قياس دائرة"، قدم أرشميدس نظرية ساوت بين مساحة دائرة ومساحة مثلث قائم الزاوية وأثبتها. وقد يبدو أن ذلك قد حل مسألتنا، لأن من البساطة أن ترسم مربعاً مساحته تساوى مساحة أى مثلث، غير أن الأمر ليس كذلك، لأن أرشميدس لم يحل مشكلة تربيع الدائرة، فطريقته لم تسمح فعلاً ببناء مثلث مساحته تساوى مساحة دائرة باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار فقط. وعلى الرغم من أن ذلك قد يبدو لنا شكلية غير ذات أهمية، فإنها كانت على جانب كبير من الأهمية للإغريق. فالأشكال لا بد أن تكون قابلة للبناء فعلاً حتى نستطيع القول بأن المسألة قد حُلت. كما أن أرشميدس استخدم قوساً من ابتكاره، يسمى الآن لولب أرشميدس، كى يربع الدائرة. ومن سوء الحظ أن لولب أرشميدس، مثل المنحنى التربيعة، لا يمكن بناؤه باستخدام

المسطرة المستقيمة والفرجار فقط. وعلى هذا، تبقى المسألة دون حل وفقاً لتعاليم الهندسة الإغريقية التقليدية.

التأثير

أصبح تربيع الدائرة مسألة شائعة في كل مكان وصلت إليه في العالم. وهناك أدلة على أنه كانت هناك محاولات لحلها في الهند والصين وفي الإمبراطوريات العربية في العصور الوسطى. كما أن علماء الرياضيات في عصر النهضة الأوربيين، بمن فيهم ليوناردو دا فينشي (١٤٥٢-١٥١٩)، اهتموا بمسألة تربيع الدائرة. وكان رياضياتيون شهيرون مثل كارل فرديريك جاوس (Carl Friedrich Gauss) (١٧٧٧-١٨٥٥) وجوتفريد لايبنتز (Gottfried Leibniz) (١٦٤٦-١٧١٦) (واسحق نيوتن (Isaac Newton) (١٦٤٢-١٧٢٧)، وكلهم بحثوا عن طرق أفضل وأدق لتحديد القيمة التقريبية "ط" (π)، كانوا في الأساس يبحثون في مشكلة تربيع الدائرة. ويعود سبب ارتباط حساب "ط" بتربيع الدائرة إلى أن المشكلة في جوهرها تكمن في رسم مربع تكون أضلعه الجذر التربيعي لـ "ط" مضروباً في نصف قطر الدائرة. وبهذا، فإن تربيع الدائرة يحتاج إلى رسم خط طوله طول "ط" باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار فقط.

وتُعرَّف النسبة التقريبية "ط" بأنها النسبة بين محيط الدائرة وقطرها. وكان من المفهوم أيضاً عند الرياضياتيين القدامى أنها وثيقة الصلة بمساحة الدائرة، ومن هنا جاءت أهميتها في مسألة تربيع دائرة. وقبل الأزمنة الكلاسيكية الإغريقية بزمن طويل اهتمت الحضارات القديمة بقيمة "ط". وتعطينا بردية رايند المصرية (ح ١٦٥٠ ق.م.) قيمة تقريبية لـ "ط" هو ١٦/٣. وهناك لوح مسماري بابلي من نفس الفترة تقريباً يعطى قيمة تقريبية هي ٢٨/١. وتوصل أرشميدس إلى تقدير ممتاز لـ "ط" (حوالي ٣٧/١) برسم مضلع له ٩٦ ضلعاً. وبعد ذلك بألفى عام توصل الرياضياتي الهندي

سرينافاسا رامانوجان (Srinavasa Ramanujan) (١٨٨٧-١٩٢٠) إلى قيم تقريبية لـ "ط" دقيقة دقة رائعة ولا تزال طرقه تثير اهتمام الباحث الرياضياتيين إلى اليوم. وقد حسب الرياضياتيون قيمة "ط" باستخدام الحواسيب الحديثة ووصلوا إلى ملايين الكسور العشرية بل بلايينها (تذكر أن "ط" رقم أصم، بمعنى أن الكسر العشري لا ينتهى أو يتكرر).

وفى الأزمنة الحديثة انهالت أعداد هائلة من الحلول المفترضة لمسألة تربيع الدائرة على الجمعيات العلمية المختلفة فى كل أرجاء أوروبا من هواة ومهاويس، مما حدا باكاديمية العلوم فى باريس والجمعية الملكية بلندن إلى التوقف عن دراسة الطول التى تصلهم من رياضياتيين هواة وباحثين عن الشهرة. غير أن ذلك لم يحدث قبل أن يجرب العديد من الرياضياتيين البارزين حظوظهم فى حل المسألة. فمثلاً حدث فى القرن السابع عشر أن السياسى والفيلسوف البريطانى توماس هوبز (Thomas Hobbes) (١٥٨٨-١٦٧٩) ادعى أنه نجح فى حل المسألة وأنه أحدث بذلك ثورة فى الهندسة. واحتاج الأمر إلى معركة كلامية مطولة مع الرياضياتى جون واليس (John Wallis) (١٦١٦-١٧٠٣) الذى نجح فى كشف زيف كل حجج هوبز وانتهت بأن صار هوبز منبوذاً من مجتمع الرياضيات. وفى وقت من الأوقات كان السعى إلى تربيع الدائرة قد صار هوساً حتى أن الرياضياتى البريطانى أوجستس دى مورجان (Augustus De Morgan) (١٨٠٦-١٨٧١) (نحت تعبير "مرض تربيع الدائرة" (morbus cyclometricus).

وفى النهاية، فى القرن التاسع عشر، أثبت الرياضياتى الألمانى فرديناند فون ليندمان (Ferdinand von Lindemann) (١٨٥٢-١٩٣٩) أن "ط" رقم مصمت (الرقم المصمت هو رقم لا يمكن أن يكون جذراً فى معادلة جبرية معاملاتها من الأعداد الصحيحة). وأثبت ذلك بدوره استحالة استخدام المسطرة المستقيمة والفرجار فى حل مشكلة تربيع الدائرة. غير أن الهواة غير المقتنعين بذلك داوموا على البحث عن حل.

نتج عن المحاولات العديدة لتربيع الدائرة، سواء بالطريقة المستوية أو باستخدام رسوم هندسية أخرى، تحسن كبير في الرياضيات. ومن بين النتائج المهمة الحديثة التي نبعت، ولو بصورة جزئية، من تربيع الدائرة كانت طريقة الحساب المعروفة باسم التكامل. وفي الحقيقة، كانت طريقة تقريب مساحة الدائرة برسم مضلعات داخل وخارج الدائرة، التي كان الإغريق القدامى أول من استخدموها، كانت واحدة من البشائر بعلم التكامل.

تثليث الزاوية

الخلفية

كان رسم مضلعات منتظمة، (وهي مضلعات ذات أضلاع وزوايا متساوية) ورسم المجسمات المنتظمة (أى ذات أوجه مكونة من مضلعات منتظمة متساوية)، من المسائل التقليدية في الهندسة اليونانية. وكان رسم بعض من المضلعات المنتظمة، مثل المثلثات متساوية الساقين والمربعات، وكذلك بعض المجسمات المنتظمة مثل المكعبات، من الأمور اليسيرة نسبياً. حقيقة، نجح الإغريق في رسم أى مضلعات منتظمة بها عدد زوجى من الأوجه، وكذلك مضلعات ذات عدد فردي من المضلعات (مثل المثلثات والخمسات) مستخدمين الطريقة المستوية فقط، أى المسطرة المستقيمة والفرجار. بل إنهم نجحوا في رسم مجسمات معقدة مثل: المسدسات المنتظمة (٦ أوجه)، والمثمنات (٨ أوجه) ومعشرات الأوجه (١٠ أوجه)، وذات اثني عشر وجهاً وخمسة عشر وجهاً. وفي ١٧٩٦؛ تمكن كارل فردريك جاوس من رسم مضلع منتظم له ١٧ ضلعاً باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار. غير أنه لكى نرسماً مضلعاً منتظماً له عدد اعتباطى من الأضلع، فقد كان المطلوب أن تُقسَم زاوية اعتباطية إلى عدد اعتباطى من الزوايا. فمثلاً: إذا أردنا تكوين مضلع منتظم ذي تسعة أضلاع، فالأمر يتطلب أن تُكَلِّث زاوية مقدارها 60° . وكان الإغريق يعرفون أن أية زاوية يمكن تثليثها، أى قسمتها إلى زاويتين متساويتين، باستخدام مسطرة مستقيمة وفرجار. أما تقسيم

الزاوية إلى ثلاثة أثلاث، أى تثليثها، فكان أمراً مختلفاً تمام الاختلاف. وكان ذلك مطلوباً لتكوين مضلعات منتظمة أخرى. ولهذا أصبح تثليث الزاوية مشكلة مهمة فى الهندسة الإغريقية.

وجد الإغريق أن ثمة زوايا معينة يمكن تثليثها بسهولة. فمشكلة تثليث زاوية قائمة هى من الأمور اليسيرة نسبياً. وهناك زوايا أخرى من السهل تثليثها. وفى الحقيقة، توصل أبقرات الكيوسى، الذى شاهدناه من قبل يجد حلاً لمسألة تربييع الدائرة، توصل إلى حل بسيط نسبياً لتثليث أية زاوية. ولسوء الحظ، (على الأقل بالنسبة إلى الهندسة الإقليدية التقليدية)، لم تكن طريقة أبقرات تقتصر فى إجرائها على استخدام مسطرة مستقيمة وفرجار. ونجح آخرون فى حل المسألة، ولكنهم لم يستخدموا الطريقة المستوية مطلقاً التى تقتصر على استخدام مسطرة مستقيمة وفرجار.

شملت الوسائل التى توصل إليها الإغريق لتثليث الزاوية منحنيات على شاكلة المقاطع المخروطية أو منحنيات أكثر تعقيداً تستلزم لبنائها وجود وسائل ميكانيكية. كما استخدم أيضاً المنحنى التربييعى، الذى شاهدناه يُستخدَم فى تربييع الدائرة، فى تثليث الزاوية. واستخدمت أيضاً فى تثليث الزاوية منحنيات مثل: منحنى نيكوميديس (Nicomedes) (ح ٢٨٠-٢١٠ ق.م)، الشبيه بالمحارة ومنحنى أرشميدس الحلزوني. وتوصل الإغريق إلى عدة طرق لتثليث الزاوية باستخدام منحنيات تسمى المقاطع المخروطية. وهو منحنى يتم التوصل إليه بتقاطع مخروط وسطح مستوى. ومن أمثلة المقاطع المخروطية الدوائر، والقطع الناقص أو الإهليلج، والقطع المكافئ، والقطع الزائد. وعاش حل مشكلة تثليث الزاوية بالمقاطع المخروطية لعدة قرون. بل إن الرياضياتى والفيلسوف الفرنسى الكبير رينيه ديكارت (René Descartes) (١٥٩٦-١٦٥٠) توصل إلى طريقة لتثليث الزوايا مستخدماً دائرة وقطعاً مكافئاً. غير أن أيّاً من تلك المنحنيات لم يمكن تكوينها دون الالتزام بالشروط التى فرضتها الهندسة الإغريقية التقليدية.

التأثير

لقرون عديدة استحوذت على الاهتمام مشكلة تثليث زاوية اعتباطية بالاختصار على استخدام مسطرة مستقيمة وفرجار مثلما كان الحال مع مشكلة تربيع الدائرة، وظن البعض أنه لما كان تثنية الزوايا وتثليث بعض زوايا معينة من الأمور اليسيرة فإن مشكلة تثليث زاوية عشوائية هي أمر قابل للحل. ووجد الرياضياتيون أنه من الممكن التوصل إلى تقريب شديد للتثليث بالاستمرار فى تثنية الزاوية. وفى الحقيقة، إذا تكررت هذه العملية إلى ما لا نهاية يمكن الوصول إلى تثليث صحيح للزاوية. غير أن الإغريق اشتراطوا، إضافة إلى المسطرة المستقيمة والفرجار، أن تتم العملية فى عدد محدد من الخطوات لكي يمكن اعتبار النتائج صحيحة. وإذًا، فالاستمرار فى التثنية لا يمكن أن يكون حلاً مقبولاً لمشكلة تثليث الزاوية.

ومتلما كان الوضع فى حالة تربيع الدائرة، كان من الواضح لغالبية الرياضياتيين المتمرسين فى القرن الثامن عشر أن مشكلة تثليث الزاوية لا حل لها. وحذر فرانسوا فييت (François Viète) (١٥٤٠-١٦٠٣)، وهو الرياضياتى الذى يُنسب إليه فضل إدخال التدوين المنهجي فى الجبر، حذر فى محاضراته من البراهين العديدة المعيبة من جانب الهواة المتحمسين. وفى الحقيقة، توقفت أكاديمية باريس للعلوم سنة ١٧٧٥، عن فحص طرق تثليث الزاوية التى يتقدم بها الجمهور إليها، على شاكلة ما حدث مع معضلة تربيع الدائرة. ولم يحدث إلا سنة ١٨٣٧، أن بيير فاننتزل (Pierre Wantzel) (١٨١٤-١٨٤٨) استكمل برهاناً على أن المسألة يستحيل حلها بالاختصار على استخدام مسطرة مستقيمة وفرجار. وأثبت فاننتزل بصورة أساسية أن تثليث الزاوية يمكن اختزاله إلى حل معادلة تكعيبية. ولما كانت غالبية المعادلات التكعيبية لا يمكن حلها بمسطرة مستقيمة وفرجار، فكذلك كان تثليث الزاوية. ووضع ذلك حداً لمحاولات الرياضياتيين الجادين لحل المسألة، لكن الهواة غير المقتنعين بذلك استمروا فى البحث عن الشهرة بالبحث عن طرق لتثليث الزاوية.

مضاعفة المكعب

الخلفية

هل يمكن أن ترسم مكعباً يبلغ حجمه ضعف حجم معلوم لمكعب آخر باستخدام مسطرة مستقيمة وفرجار فقط؟ تلك هي المشكلة الثالثة في الهندسة الإغريقية القديمة. ومثل مسألتى تربيع الدائرة وتثليث الزاوية، لا يعرف على وجه التحديد أصل هذه المسألة. وثمة قصتان وصلتا إلينا من الإغريق تتعلقان بجنور هذه المسألة. أولاهما: هي أن عراف مدينة ديلوس (Delos) قضى بأن المذبح الموجود في المعبد، الذي كان على شكل مكعب، يجب أن يضاعف حجمه لكي ينقذ الديلوسيين من الطاعون. وبعد أن عجز رجال ديلوس عن حل المشكلة، سألوا أفلاطون عن كيفية تنفيذ ذلك. وكان رده أن الأمر إنما هو توبيخ من الآلهة لإهمالهم دراسة الهندسة. وغنى عن القول أن الطاعون استمر في ديلوس. وكثيراً ما يشار إلى مسألة مضاعفة المكعب باسم "المعضلة الديلوسية" إشارة إلى مواطني ديلوس الذين عانوا من فرط جهلهم.

وهناك قصة أخرى تتعلق بأصل مشكلة مضاعفة المكعب تقول بأن الملك مينوس (Minos) أمر ببناء مقبرة لابنه جلوكوس (Glaucus) غير أن الملك، بعد انتهاء البناء، لم يرض عن الحجم، لأن طول جوانبه كان ١٠٠ قدم (٢٠,٥ متر) فقط. فأمر بمضاعفة حجم المقبرة عن طريق مضاعفة كل جانب من جوانبها. ولما كان حجم أى مكعب هو طوله مضروباً في عرضه مضروباً في ارتفاعه فإن حجم المكعب الأصلي كان:

$$\text{الحجم } ١ = \text{الطول} \times \text{العرض} \times \text{الارتفاع}$$

وبمضاعفة طول كل جانب يكون حجم المكعب الجديد هو:

$$\text{الحجم } ٢ = ٢ \times \text{طول} \times ٢ \times \text{عرض} \times ٢ \times \text{ارتفاع} = ٨ (\text{طول} \times \text{عرض} \times \text{ارتفاع})$$

ومع تضاعف مقاييس كل جانب فإن الحجم الناتج لا يكون ضعف الحجم الأصلي وإنما ثمانية أضعافه. وعلى غرار أهالي ديلوس، لم يتمكن رجال مينوس من حل مشكلة

مضاعفة المكعب. وعلى الرغم من أن كلتا القصتين بهما من الأساطير بقدر الحقائق، فإن مشكلة مضاعفة حجم المكعب باستخدام مسطرة مستقيمة وفرجار فقط؛ صارت لها أهمية في الهندسة اليونانية.

ويعزى إلى إيراتوستينيز (Eratosthenes) (٢٧٦-١٩٤ ق.م.) أنه كان أول من توصل إلى حل لمشكلة مضاعفة المكعب، واستخدم آلة ميكانيكية من ابتكاره لرسم المكعب المطلوب. ومن اللافت للنظر أن أفلاطون أيضاً كان ممن حلوا المشكلة حلاً ميكانيكياً، على الرغم من أنه يشاع أنه كان يمقت بشدة استخدام الآلات الميكانيكية في الهندسة. وتوصل أرخيتاس التارنتومي (Archytas of Tarentum) (ح ٤٢٨-٣٥٠ ق.م.) إلى حل رائع للمسألة، معتمداً على تقاطع عدة أجسام ثلاثية الأبعاد، منها إسطوانة ومخروط وسطح يسمى "تور" (tore). كما يقال أيضاً إن يودوكسوس (Eudoxus) (٤٠٨-٣٥٥ ق.م.)، وهو مبتكر طريقة رياضياتية شهيرة تسمى طريقة الإنهاك أو الاستنفاد، قد ابتكر حلاً للمسألة. ويضاف إلى ذلك أن نيكوميدس (Nicomedes) (ح ٢٨٠-٢١٠ ق.م.) استخدم نفس المنحنى (المحارى) لحل مسألة مضاعفة المكعب مثلما استخدمه لحل مسألة تثليث الزاوية.

ومثلما حُلت المسألتان الأخريان في الهندسة اليونانية، تم حل مسألة مضاعفة المكعب باستخدام المقاطع المخروطية. ونجح منيخموس (Menaechmus) ح ٣٨٠-٣٢٠ ق.م.) في التوصل إلى حلين مستخدماً تقاطع المقاطع المخروطية. وفي الحق، يقال إن منيخموس اكتشف المقاطع المخروطية أثناء محاولته حل المسألة. وأدلى العديد من مشاهير الرياضياتيين الإغريق بدلوهم في حل مشكلة مضاعفة المكعب مثل: أبولونيوس (Apollonius) وهيرون (Heron) وفيلون (Philon) وديوكليس (Diocles) وسبوريوس (Sporus) وبابوس (Pappus) غير أن أياً منهم لم ينجح في حل المسألة باستخدام مسطرة مستقيمة وفرجار وحدهما.

كما اشتغل أبقراط الكيوسى أيضاً بمسألة مضاعفة المكعب، وكان من بين الشخصيات المهمة في تاريخ تربيع الدائرة وتثليث الزاوية. وتوصل أبقراط إلى إمكانية

حل مسألة مضاعفة المكعب إذ أمكن حل المشكلة المرتبطة بها وهي تحديد متوسطين متناسبين بين خط وضعفه. وهذا يعنى، بالتدوين الحديث، تحديد مجهولين هما s و v ، بحيث أن $u/s = s/v = v/12$. ويؤدى بنا هذا إلى المعادلة $s^2 = 3v$ ، التى تعنى أن مكعباً ضلعه s له ضعف حجم مضلع ضلعه u . وعلى الرغم من أن الرياضياتيين اليونان كانوا قادرين على التوصل إلى وسائل لتنفيذ ذلك، فإنها لم تف بمطالبات اقتصار الاستخدام على مسطرة مستقيمة وفرجار.

التأثير

نتج عن محاولات حل مسألة مضاعفة المكعب العديد من الاكتشافات المهمة فى الرياضيات، مثلما حدث مع المشكلتين الأخرين فى الهندسة اليونانية. واحتلت المقاطع المخروطية التى اكتشفها منيخموس أثناء محاولته حل مسألة مضاعفة المكعب، احتلت مكانة مهمة فى الرياضيات على مر التاريخ. واستخدم الرياضياتى (والشاعر) الفارسى عمر الخيام (١٠٤٨-١١٢٦) تقاطع المقاطع المخروطية فى حل المعادلات التكعيبية من الدرجة الثالثة، وهى مسألة تشبه شبيهاً كبيراً مضاعفة المكعب.

وهناك سبب وجيه لعدم تمكن الإغريق أو غيرهم من التوصل إلى حل لمسألة مضاعفة المكعب باستخدام الطرق المستوية، وهو أن مثل هذا الحل لا وجود له. ونجح فرانسوا فيت فى إثبات وجود علاقة بين حلول معادلات الدرجة الثالثة ومسألة مضاعفة المكعب وتثليث الزاوية. وفيما بعد أثبت رينيه ديكارت أن أى معادلة من الدرجة الثالثة يمكن حلها باستخدام القطع المكافئ ودائرة، ولكن بدون خط ودائرة (وهى نقطة البداية فى الحلول التى تستخدم مسطرة مستقيمة وفرجاراً). وجاء المسمار الأخير فى نعش مضاعفى المكعب من بيبير فانترز سنة ١٨٢٧، فقد أثبت فانترز أن الرسم الهندسى لمضاعفة المكعب باستخدام مسطرة مستقيمة وفرجار فقط لا يمكن أن يتم، مثلما أثبت أن رسماً مماثلاً لتثليث زاوية هو أمر مستحيل.

ملخص

إن تاريخ المسائل غير المحلولة في الهندسة اليونانية مثير في حد ذاته، لكنه ازداد إثارة بالتأثير الذي تركته تلك المسائل على الرياضياتيات طوال القرون. وقد تعامل الرياضياتيون العرب في العصور الوسطى مع هذه المسائل والمسائل المرتبطة بها من أمثال عمر الخيام وكذلك اهتم بها كبار الرياضياتيين الأوروبيون في عصر النهضة وبواكير العصر الحديث مثل ليوناردو دا فينشى ورينيه ديكارت، ورياضياتيون محدثون مثل رامانوجان. وعادة ما كانت تنتج تطورات وتقدم في الرياضيات عند التعامل مع تلك المسائل. وقد استثير، ولو بصورة جزئية، الرياضياتى الألمانى الكبير كارل فريدريك جاوس عند تصديده لحل المعادلات الجبرية. وأكد جاوس وجود علاقة بين نوع معين من المعادلات يسمى المعادلة الدوارة (cyclotomic equation)، وبين بناء المضلعات المنتظمة. وكان هذا النوع من الرسم الهندسى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمسائلنا الإغريقية الثلاث. وفى الحقيقة، كان برهان فانتزل الذى أثبت استحالة تثليث زاوية أو مضاعفة مكعب باستخدام الطريقة المستوية، كان ذروة العمل الذى بدأه جاوس.

إن مسائل تربيع الدائرة وتثليث زاوية ومضاعفة المكعب هى ثلاث من أشهر المعضلات الرياضياتية فى التاريخ. فقد تحدث عقول أعظم الرياضياتيين من قدامى الإغريق وأثارت اهتمام الرياضياتيين حتى العصر الحديث. وكان تأثيرها على الرياضياتيات عبر العصور هو ما جعل منها جزءاً مهماً فى تاريخ بحث الإنسان عن إجابات لأسئلة فى العلم.

تود تيمسونز (TODD TIMMONS)

لمزيد من القراءة

كتب

- Beckmann, Petr. A History of π . New York: Barnes & Noble Books, 1971.
- Dunham, William. Journey Through Genius: The Great Theorems of Mathematics. New York: Wiley and Sons, 1990.
- Dunham, William. The Mathematical Universe. New York: Wiley and Sons, 1994.
- Heath, Thomas. A History of Greek Mathematics. New York: Dover Publications, Inc., 1981. (Republication of original 1921 edition.)
- Jesseph, Douglas M. Squaring the Circle. Chicago: University of Chicago Press, 1999.
- Katz, Victor J. A History of Mathematics. Reading, MA: Addison-Wesley, 1998.

مواقع على الإنترنت

- O'Connor, J. J. and Robertson, E. F. "Squaring the Circle." www-groups.dcs.stand.ac.uk/~history/HistTopics/Squaring_the_circle.html.
- O'Connor, J. J. and Robertson, E. F. "Trisecting an Angle," www-groups.dcs.stand.ac.uk/~history/HistTopics/Trisecting_an_angle.html.
- O'Connor, J. J. and Robertson, E. F. "Doubling the Cube," www-groups.dcs.stand.ac.uk/~history/HistTopics/Doubling_the_cube.html.

قواعد الهندسة من طاليس إلى إقليدس

نظرة شاملة

صنف الرياضياتيون الإغريق القدامى معارفهم عن الهندسة، وفقاً للملخص الذي كتبه إقليدس محتويًا التعريفات والمسلمات والنظريات والبراهين في صورتها النهائية. وفرض كتابه "المبادئ" معيار التشارك في النتائج الرياضية وأصبح أساس تدريس الرياضيات الأولية لقرون عديدة.

الخلفية

تقليدياً، يُنسب إلى طاليس المليطي (Thales of Miletus) (ح 624-547 ق.م.) فضل جلب الهندسة إلى بلاد اليونان من مصر. وتقول الحكايات التي تُحكى عنه أنه أثبت نظريات، مثل تساوى زوايا قاعدة المثلث متساوى الساقين، وتساوى الزوايا القائمة وقاعدة الزاوية-الضلع-الزاوية في تطابق المثلثات. وهذه الحكايات مهمة لأنها صحيحة لا لبس فيها ولا جدال، وهو أمر من المستحيل التثبت منه، وإنما لأنها تبرهن على أن الإغريق الذين وُجدوا بعد طاليس بمنات السنين رأوا أنفسهم يتناولون الهندسة بطريقة جديدة بفضل إسهامات طاليس.

فمثلاً: وجد الفيثاغوريون في القرن الخامس ق.م. أن ضلع المربع وقطره ليس بينهما قاسم مشترك. واكتشافهم للمقادير اللامشتركة (أى تعذر وجود قاسم

مشارك)، أجبرهم على إعادة التفكير فى الفلسفة الفيثاغورية التى كانت تتحدى بأن الأرقام هى وحدات الكون الأساسية، كما أنها عززت من النزعة اليونانية للجدل المنطقى فى تقييم حقائقهم الرياضياتية. وبنهاية القرن، بدأ أبقرات الكيوسى (ح ٤٦٠-٨٠ ق.م.) فى إثبات النظريات الرياضياتية الأولية التى تتناول الأشكال المسطحة، كما بدأ فى ترتيب تلك النظريات لتقديمها بطريقة منهجية.

استمر الرياضياتيون العاملون فى أكاديمية أفلاطون فى تعريف محتوى ذلك الفرع من العلوم ومكانة الهندسة بالنسبة إلى المجالات الأخرى للمعرفة. وذكر أفلاطون (٤٢٩-٣٤٧ ق.م.) فى كتابه "الجمهورية" أن الهندسة المستوية وهندسة الجوامد كانتا موضوعين من الموضوعات الخمسة الضرورية لتعليم الفيلسوف-الملك. وإتقان الهندسة يدرّب التلميذ على الجدل المنطقى ويعلمه أن يبحث عن الحقيقة ويعشقها، وهى الشىء الذى مثله أفلاطون بأشكال هندسية لانهائية ومثالية. وبمعنى آخر، أصبحت معارف الهندسة والمنطق من المتطلبات الأساسية لدراسة الفلسفة. كما سجل أفلاطون أيضاً أبحاث ثيوبورس (Theodorus) (اشتهر ٤٢٥ ق.م.) وثيايطتس (Theaetetus) (٤١٧-٣٦٩ ق.م.) للإثبات الهندسى لوجود الأعداد الصماء بين $\sqrt{2}$ و $\sqrt{17}$.

درس يودوكسوس (Eudoxus) (٤٠٨-٣٥٥ ق.م.) فى الأكاديمية وزار مصر قبل أن يفتح مدرسة خاصة به فى كنيديوس. كما أنه أضاف فوق ذلك تطويراً لنظرية تناسب المقادير التى كانت باتت الآن منفصلة عن الأرقام. وساعده أسلوبه فى الاستنفاد على قياس مساحة الدائرة بوضع الدائرة بين مضلعين ثم زيادة عدد أضلاعهما. كما أجرى تعديلات على منهاج الرياضيات الذى وضعه أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) فى كتابه "التحليلات التالية". وكذلك وضع يودوكسوس تعريفات تشرح المصطلحات الهندسية، ومسلمات لشرح الفرضيات المسبقة الخاصة بالهندسة بالذات، والبديهيات التى تقرّر حقائق واضحة بنفسها قبل أن يحاول إثبات صحة نتائج جديدة.

وعلى ذلك، فإنه فى الفترة التى عاش فيها إقليدس (ح ٢٣٠-٢٧٠ ق.م.) كان الجانب الأعظم من علوم الهندسة المستوية قد اكتُشف. كما أحدث الرياضياتيون تقدماً ملموساً فى هندسة الجوامد. كان إقليدس يُدرِّس فى متحف الإسكندرية ومكتبتها، وهى المدينة المصرية التى ازدهرت تحت حكم اليونانيين، حيث استطاع جمع نتائج كتابات أقدم فى الهندسة. جمع إقليدس "مبادئ الهندسة" فى ثلاثة عشر جزءاً، أو كتباً: ستة كتب تتناول الهندسة المستوية وتناسب المقادير، وثلاثة عن نظرية تناسب الأرقام، وواحد عن المقادير اللامشتركة، وثلاثة عن هندسة الجوامد، وواحد عن تكوين الجسومات الخمسة متعددة الأسطح المنتظمة. وعلى الرغم من أن إقليدس لم يدع تناوله لأية موضوعات جديدة، فإن البنية المنهجية لأعماله ذاع صيتها بين الرياضياتيين الآخرين، حيث إن كل ما سبقه من تليخيصات للهندسة ضاع من ذاكرة التاريخ.

بدأ منهج إقليدس أيضاً بالتعريفات والمسلمات والبديهيات (التي أطلق عليها مصطلح "انطباعات عامة"). واستلهم أعمال السابقين فى بعض الأفكار التمهيدية، غير أنه يبدو أنه كتب بنفسه المسلمة الخامسة أو المسلمة المتوازنة. كان إقليدس يؤمن بأن لا يستطيع أن يثبت فرضيات على شاكلة أن مجموع زوايا مثلث تساوى زاويتين قائمتين أو نظرية فيثاغورس دون أن يسلم مسبقاً بأن الخطوط التى تتلاقى فى النهاية لا يمكن أن تكون متوازنة. ثم حاول أن يرتب النظريات الأساسية والمسائل أو البنى الهندسية، فى نظام استدلالى. وكان على برهان كل نظرية ألا يعتمد سوى على مقولات سبق إثباتها.

التأثير

كان تناول الإغريق الأقدمين للهندسة، كما يقننها كتاب "المبادئ" لإقليدس، يعبر عن سمة شائعة للحضارة الغربية بأن دورها لا يمكن أن يُغالى فيه. فوظيفتها

الثقافية يمكن تصنيفها في أربع مناطق متداخلة على الأقل. فمن الجلى أن الكتاب قد ترك أثراً على تطور الرياضيات، لكنه استُخدم ككتاب مرجعي للهندسة لما يربو على ألفى عام. ولكي يبقى "المبادئ" كتاباً مرجعياً أو لاستخدام الطلبة، كان من الواجب توفر الكتاب عن طريق نُسخ أو طبعات جديدة. ويضاف إلى ذلك أن المثقفين، سواء في أوساط الرياضيات أو خارجها، كانوا يرون في "المبادئ" نموذجاً للفكر المنطقي المثالي.

وأول شيء، إذاً، أن "المبادئ" ألهم الجيل التالي من الباحثين الرياضياتيين في بلاد اليونان. ولعل أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.) وأبولونيوس (٢٥٠-١٧٥ ق.م.) قد تولى تدريبهما تلاميذ إقليدس. واستخدم أرشميدس، من بين منجزاته الهائلة، البراهين الهندسية وطريقة الاستنفاد لكي يثبت العديد من النظريات حول المقاطع المخروطية. وطور أبولونيوس هذا العمل لأبعد من ذلك. ويضاف إلى ذلك أن إيراتوستثيز (٢٧٦-١٩٤ ق.م.) استخدم الهندسة الإقليدية في حساب حجم الكرة الأرضية. وفي الوقت الذي استخدم بعض قدامى الرياضياتيين "المبادئ" كبنات بناء للحصول على نتائج جديدة، أرسى آخرون مبادئ النسخ والتعليق على "المبادئ". وأصبحت تعليقات بروكلوس (Proclus) (٤١٠م - ٤٨٥) وبابوس (Pappus) (اشتهر ٢٠٠م) وطبعة منه أصدرها ثيون (Theon) (اشتهر ٢٥٠م) أصبحت أكثر المخطوطات اقتباساً منها بواسطة الأجيال اللاحقة. وبصورة عامة، رسخ "المبادئ" نموذجاً لأي دراسة منهجية للطبيعة - فالبراهين المتكاملة تطلبت الجهر بالفرضيات موضع البحث، وفقاً لمبادئ الاستنتاج، واستنتاجاً نهائياً يعيد تأكيد ما كان يُبحث عنه وتحقق ويعطى التعبير بالمعادلات لما كان يحتاج لبراهين" (بالنسبة إلى النظريات) أو لما كان يجب رسمه (بالنسبة إلى المسائل).

واستمر العلماء العرب في العصور الوسطى في التمعن في "المبادئ" وترجموه إلى العربية. وعمد عديد من الكتاب إلى مناقشة الأنواع المختلفة من البراهين التي أتت في الكتاب وأكثرها إقناعاً. أما المؤلفون الأوربيون، من جانب آخر، فكان عليهم أن

يعيدوا من جديد بناء هندسة إقليدس بأنفسهم لأن كل ما حُفظ في الغرب كان قوائم بفرضياته. فكل ما وجدوه كان الهندسة العملية التي عثروا عليها عند مساحي الأراضي، حتى جاء جيرارد الكريموني (Gerard of Cremona) (ح ١١١٤-١١٨٧م) وغيره وترجموا أخيراً النسخ الكاملة العربية أولاً ثم اليونانية من "المبادئ" إلى اللاتينية.

ويعود السبب، ولو بصورة جزئية، في أن علماء مثل روجر بيكون (Roger Bacon) (١٢١٤-١٢٩٤) وجوردانوس نيموراريوس (Jordanus Nemorarius) (اشتهر ١٢٢٥) ونيكول أورسمى (Nicole Oresme) (ح ١٢٢٢-١٢٨٢) قد توصلوا إلى نتائج إبداعية مبتكرة في علم البصريات والهندسة، إلى أنهم أتقنوا "المبادئ" واستوعبوه. كما أن كتاب إقليدس كان حافزاً على تطوير رياضيات جديدة أثناء الثورة العلمية. وعلى الرغم من أن محتوى "المبادئ" لم يعد غريباً على أسماع الرياضياتيين المتمرسين، فإن الباحثين ساروا على نهج الكتاب عندما كانوا يعرضون نتائجهم هم. وأشهر مثال على ذلك كان كتاب اسحق نيوتن الصادر سنة ١٦٨٧ "مبادئ الرياضيات" (Principia Mathematica)، حيث قدم القوانين الرياضية التي تحكم الكون بلغة الهندسة التقليدية وليس عن طريق حساب التفاضل والتكامل الفرقى الجديد الذي ابتكره هو.

وطوال تاريخه الطويل عمل "المبادئ" أيضاً ككتاب مرجعي. وبالنسبة إلى كثير من قرائه كانت تركيبته الاستدلالية وسيلة تعليمية ناجعة في مساعدة التلاميذ في الانتقال من المفاهيم الأساسية إلى مفاهيم أشد تعقيداً. وهكذا حدث - كثيراً - أن الدارسين الشبان في العالم القديم كانوا يتجمعون حول معلم ليناقشوا "المبادئ". ومع حلول الجامعات محل مدارس الأديرة القديمة القروسطية عاد الأساتذة إلى القائمة التي أعدها أفلاطون للفنون المتحررة بحثاً عن مقرر دراسي. وكان "المبادئ" المصدر الواضح لتعليم الهندسة المستوية وهندسة الجوامد من خلال الإملاء ثم الكتب المطبوعة، عندما أصبحت متاحة وفي متناول مقدرة التلاميذ. ولم يقل منهج الاستدلال المنطقي

فى الأهمية عن المحتوى الرياضياتى للعمل. وجعل استذكار "المبادئ" عقول التلاميذ مرتبة ومنظمة.

وقد ساد الاعتقاد بأن هذا التنظيم الذهنى يفيد منه كل المتعلمين ولا تقتصر الفائدة على الرياضياتيين. وفى الحقيقة، كان منهاج "المبادئ" قد بات منذ زمن مثالياً للعلوم غير الرياضياتية. فمثلاً، كتب توماس الأكوينى (Thomas Aquinas) كتابه "اللاهوت المجمع" (Summa theologiae)، وهو كتاب نظرى مبنى على المنطق يضم كل المعارف الدنيوية والدينية، وعلى منهاج مقال هندسى. ونأى رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) بنفسه عن فلسفة الكلام القروسطية المتزمتة؛ لكنه استخدم الطرق الرياضياتية فى كتاباته الفلسفية والعلمية. بل إن احتفاء فلاسفة التنوير بالمذهب العقلانى كان مغلفاً بإطار الميراث التقليدى عامة وبكتاب "المبادئ" خاصة.

غير أنه حدث منذ أن كتب إقليدس فرضيته عن المتوازيات أن الرياضياتيين أحسوا بالقلق حول الموقف المنطقى لتلك المسلمة. فقد كانوا يعتقدون أنه لا يجب على المرء أن يتقبل نظرية المتوازيات دون برهان عليها، ولكن المحاولات المتكررة فشلت فى اعتبار مفاهيم الخطوط المتوازية بديهيةً أو إثبات فرضية المتوازيات كنظرية. ومن بين أواخر الرياضياتيين الذين هاجموا المشكلة كان جيرولامو ساكيرى (Girolamo Saccheri) (١٦٦٧-١٧٣٢) ويوهان لامبرت (Johann Lambert) (١٧٢٨-١٧٧٧) وجون بلايفير (John Playfair) (١٧٤٨-١٨١٩) وأدريان مارى لوجندر (Adrien-Marie Legendre) (١٧٥٢-١٨٣٢)، قبل أن يدرك كارل فردريك جاوس (Carl Friedrich Gauss) (١٧٢٨-١٧٧٧) ونيكولاى لوباشفسكى (Nicolai Lobachevsky) (١٧٩٣-١٨٥٦) ويانوس بولياى (Janos Bolyai) (١٨٠٢-١٨٦٠) مستقلين عن بعضهم أن نظاماً هندسياً مبنياً على المسلمات الأربع الأولى فقط كان صحيحاً من الناحية التركيبية مثل صحة "المبادئ" تماماً. غير أن الاعتراف بالهندسة غير الإقليدية كانت له توابعه - فقد كان العلماء والمعلمون يفترضون دائماً أن الهندسة الإقليدية

كانت تمثيلاً رائعاً للعالم المادي. ومن بين المجالات التي أصابها اضطراب بالغ كانت الرياضيات البريطانية. فقد تجاهل المعلمون هناك كتب الهندسة البديلة، وهي الهندسة المبسطة التي كُتبت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأصروا على "المبادئ" كمصدر وحيد لطلاب الجامعات وتلاميذ المدارس. وكان هناك صراع مطول بين التقليديين والإصلاحيين في تدريس الهندسة قبل أن يقرر المدرسون أخيراً في أوائل القرن العشرين أن يدعموا التطبيقات العملية للهندسة بدلاً من التركيز على الهندسة الذهنية.

وفي نفس الوقت طور الرياضياتيون المحترفون بديهيات حديثة في القرن التاسع عشر. وبعد أن وضعوا علوم الجبر مثل: التفاضل والتكامل على أسس مقبولة تحت قواعد جديدة للدقة والصرامة، عاد بعض الناس إلى الالتفات للهندسة الإقليدية. وفي الوقت الذي اشتغل فيه العديد من الناس على أسس الهندسة، فإن دافيد هيلبرت (David Hilbert) (1862-1943) هو أشهر اسم في هذا المجال. فقد حاول أن يتجنب الافتراضات الضمنية التي قدمها إقليدس بأن بدأ بثلاثة مصطلحات غير مُعرَّفة - وهي النقطة والخط المستقيم والمستوى - وأمكنه تعريف العلاقة بينها بالبديهيات وليس بمزيد من التعريفات. فقد أراد للهندسة أن تصبح علماً مجرداً تمام التجريد، وحدد التوافق والاستقلالية ويلوغه حد الكمال كمقاييس للنظام البديهي الذي ظهر سنة 1899، في كتابه "أسس الهندسة" (Grundlagen der Geometrie).

وفي النهاية، لا بد أن نذكر أن "المبادئ" كان واحداً من أكثر الوثائق التاريخية تأثيراً. وكثيراً ما يتكرر الزعم بأن الإنجيل هو الكتاب الوحيد الذي طُبِع أكثر من "المبادئ". وفي الحقيقة كان من بين أوائل الكتب التي طُبعت (1482)، ترجمة لاتينية لكتاب "المبادئ" قام بها يوهان كامبانوس (Johannes Campanus) (اشتهر 1260). وكان روبرت سيمسون (Robert Simson) (1687-1768) و ج. ل. هيبرج (J. L. Heiberg) (1804-1928) وتوماس هيث (Thomas Heath) (اشتهر 1861-1940) من بين الرياضياتيين واللغويين الذين بحثوا عن أقدم نسخة مخطوطة

من "المبادئ" وأكثرها دقة. واليوم، نجد بعضاً من أقدم الشذرات وأهم المخطوطات تشمل بقايا خزفية مصرية يعود تاريخها إلى عام ٢٢٥ ق.م.، ونسخة من مخطوط تاريخه يعود لسنة ٨٨٨ م في مكتبة بودليان بجامعة أكسفورد، ومخطوط من القرن العاشر الميلادي في مكتبة الفاتيكان. وأسهم "المبادئ" أيضاً في إشعال فتيل بعض من أشد مساجلات تاريخ الرياضيات سخونة، منها ما إذا كان اكتشاف المقادير اللامشتركة كان حدثاً "ثورياً" حقاً، وما إذا كان الرياضياتيون الإغريق وضعوا الجبر حقاً في وثائق مثل: الكتاب الثاني من "المبادئ".

وعلى الرغم من أن المؤرخين المعاصرين لا يتفقون على الوقت الذي تشكلت فيه الهندسة الإغريقية وإلى أي مدى تم ذلك، فإن استيعاب الرياضيات الإغريقية بوصفها نموذجاً للمنطق الاستدلالي ما زال يوجه مجرى الفكر الغربي. وأوحت أسس الهندسة التي توطدت في بلاد اليونان القديمة إلى قراء "المبادئ" أن يصبحوا رياضياتيين ويكتشفوا نتائج رياضياتية جديدة، مما وضع أسس البرهان العلمي، ونمذج التفكير المنطقي الصحيح في كل مناحي المعرفة. وعلى الرغم من اكتشاف الهندسة غير الإقليدية فإن الكتب المرجعية ما زالت مبنية بصورة كبيرة على كتاب "المبادئ". ويضاف إلى ذلك أن الشهرة التاريخية التي حظى بها البرهان الهندسي قد تمخضت عنها فكرة تنقيح "المبادئ" والتعقيب عليه. والخلاصة أن قراءة كتاب "المبادئ" هي أمر جوهري لكل مع يعتبرون أنفسهم ورثة الحضارة اليونانية القديمة.

أمى أكريرج - هاستينجز (AMY ACKERBERG-HASTINGS)

لمزيد من القراءة

كتب

Artmann, Benno. *Euclid: The Creation of Mathematics*. New York: Springer-Verlag, 1999.

Fowler, David. *The Mathematics of Plato's Academy: A New Reconstruction*. 2d ed. Oxford: Clarendon Press, 1999.

Gray, Jeremy. *Ideas of Space: Euclidean, Non-Euclidean, and Relativistic*. 2d ed. Oxford: Clarendon Press, 1989.

Heath, Thomas L., trans. and intro. *The Thirteen Books of the Elements, by Euclid*. 3 vols. 2d ed. New York: Dover Publications, Inc., 1956.

Heilbron, John L. *Geometry Civilized: History, Culture, and Technique*. Oxford: Clarendon Press, 1998.

Knorr, Wilbur Richard. *The Ancient Tradition of Geometric Problems*. New York: Dover Publications Inc., 1986.

Lindberg, David C., ed. *Science in the Middle Ages*. Chicago and London: The University of Chicago Press, 1978.

Richards, Joan L. *Mathematical Visions: The Pursuit of Geometry in Victorian England*. Boston: Academic Press, Inc., 1988.

مقالات فى دوريات علمية

Grattan-Guinness, Ivor. "Numbers, Magnitudes, Ratios, and Proportions in Euclid's Elements: How Did He Handle Them?" *Historia Mathematica* 23 (1996): 355-75.

Knorr, Wilbur Richard. "The Wrong Text of Euclid: On Heiberg's Text and Its Alternatives." *Centaurus* 38 (1996): 208-76.

تقدم علم الجبر

نظرة شاملة

أجرى الرياضياتيون البابليون العديد من حسابات الجبر حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. كما تصدى المصريون أيضاً لحل مسائل الجبر، لكنهم لم يتقدموا بقدر البابليين، ربما بسبب نظام أرقامهم المعرقل. واستخدم الإغريق طرق الجبر لتعزيز اهتماماتهم بالهندسة ونظرية الأرقام. وحافظ العرب على المخطوطات الرياضية اليونانية وأدمجوا الأفكار اليونانية والهندية في الجبر في كتب وصلت إيطاليا في عصر النهضة وحفزت على تطوير أفكار الجبر والتوصل إلى نتائج جديدة مهمة.

الخلفية

الجبر، في المفهوم الحديث والبسيط، هو فرع من الرياضيات يتناول تحديد قيمة مقادير مجهولة باستخدام علاقات رياضية. وكان البابليون أول أقوام تهتم بمسائل الجبر، أو على الأقل تركوا سجلات تشير إلى ذلك. والبابليون هم شعوب كانت تعيش في الوديان التي تحف نهري دجله والفرات وتشمل في الحقيقة عدة حضارات متعاقبة ذات لغات وكتابات مختلفة. وأقدم ممالكها هي مملكة سومر (٤٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م.) وغزاها الأكاديون، وحُفظت لنا من الملكة الأكادية المتأخرة (٢٥٠٠-١٠٠٠ ق.م.) العديد من المراجع الرياضية على صورة كتابات مسمارية على ألواح من الصلصال.

قدمت لنا المراجع البابلية مسألة تحديد العدد الذى إذا جُمع على مقلوبه يعطى عدداً محدداً. وهذه المسألة تفضى مباشرة إلى معادلة من الدرجة الثانية وتتناول النصوص وصفاً شفهياً للتوصل إلى حلين للمعادلة، كما تبينها الصيغة التربيعية التى تُدرّس الآن فى المدارس الثانوية فى مقرر الرياضيات.

وكثيراً ما عمد البابليون إلى عرض مسائلهم فى قالب هندسى، فيصفون ناتج ضرب أى مقدارين كمساحة وناتج ضرب ثلاثة مقادير كحجم. وكان بمقدورهم أن يحلوا عدداً محدوداً من المسائل التى تتضمن استخدام جذر تكعيبي. كما استطاعوا أيضاً حل مجموعات مبسطة من المعادلات الآتية بها أكثر من مجهول واحد. ونجحوا فى حل حالات خاصة من خمس معادلات آتية بها خمسة مجاهيل، بل فى حالة وحيدة ظهرت فى الفلك، نجحوا فى حل عشر معادلات بها عشرة مجاهيل.

أما الوثائق البابلية الأحدث والمكتوبة باللغة الأكادية، فقد ابتدعت رموزاً خاصة للمقادير المجهولة باستخدام رمزين من الرموز التصويرية السومرية القديمة لتمثيلها. وعلى الرغم من أن المنجزات البابلية تستحق الذكر والتنويه فإن الجبر البابلى كانت له محدودياته أيضاً. فلم يستخدم البابليون الأرقام السالبة واكتفوا باستبعاد النتائج الأقل من الصفر. وعلى الرغم من أن نظام أعدادهم شمل رمزاً خاصاً يشغل خانة، شبيه باستخدامنا للصفر، لتأكيد أن "١٧" تعنى "١٧" ولا تعنى ١٠٧، فإنهم لم يستوعبوا الخصائص الرياضياتية للصفر وبهذا اضطروا إلى استخدام طرق للحساب متدنية الكفاءة.

وقد استقيننا معارفنا عن الرياضيات المصرية القديمة من مخطوطتين على ورق البردى هما بردية موسكو وبردية رايند، وهى أطول من الأولى وأكثر شهرة منها، والتي اكتشفها الإنجليزي هنرى رايند سنة ١٨٥٨، وكلتا البرديتين مكتوبتة فى حوالى ١٧٠٠ ق.م.، ولكن المعتقد هو أن المعلومات الرياضياتية الواردة فيهما تعود إلى تاريخ سابق ربما كان حوالى ٢٥٠٠ ق.م.

وتتكون المسائل التي نوقشت في الوثائق المصرية في مجملها من معادلات منفردة بها مجهول واحد، من النوع الذي عادة ما يشغل الآن الأسابيع الأولى من مقرر الجبر. غير أن حل تلك المعادلات كان أكثر صعوبة في ظل نظام الأرقام المصرى، الذى لم يكن يتيح إجراء عمليات القسمة بسهولة ولا التعبير عن الكسور بصفة عامة. ولم تصف البرديات إلا أبسط معادلات الدرجة الثانية. ويظهر، على الأقل من الوثائق، أن المصريين كانوا متخلفين إلى حد ما عن البابليين فى رياضياتهم، ربما بسبب استقلاليتهم النسبية عن أية تأثيرات أجنبية.

وصلت الرياضيات إلى ذروتها فى العالم القديم فى الحضارة الإغريقية، وبخاصة أثناء الفترة الهلنستية أو السكندرية التى بدأت حوالى ٣٠٠ ق.م. حيث استخدم الإغريق اتجاهات مبتكرة واهتمامات جديدة فى الرياضيات. وكان المفكرون الإغريق يعتبرون أن الشئون العملية من أعمال العبيد والخدم والتجار، بينما ما يجب أن ينشغل به حقاً أبناء الطبقات العليا هو التأمل المجرى للحقيقة. واعتبر الفيلسوف أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) أن الأمور الرياضياتية هى النماذج الأولية للأشياء المثالية، وأن الأشياء المادية فى العالم الحقيقى هى انعكاس باهت لها. ووضع أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) تلميذ أفلاطون، قواعد المنطق الاستدلالي. أما إقليدس (٣٣٠-٢٦٠ ق.م.)، وهو رياضياتى إغريقى كان يعيش فى الإسكندرية، فقد وضع قواعد كل المعارف الهندسية المعروفة آنذاك فى كتابه "المبادئ"، وهو أول كتاب فى الهندسة يصل إلى كل استنتاجاته بطريقة منهجية من مجموعة صغيرة من البديهيات والفرضيات. كان التحليل الإقليدى عظيم الأثر حتى أن نسخاً من كتابه كانت لا تزال تُدرس فى أوائل القرن العشرين.

ولهذا اهتم الرياضياتيون الإغريق بالهندسة أكثر من اهتمامهم بالجبر، الذى لم يكتب صياغته المبنية على البديهيات إلا فى أخريات القرن التاسع عشر. وقد استفاد كتاب إقليدس "المبادئ" إلى حد ما من طرق الجبر، وبخاصة فى أجزائه الخاصة بالنسبة والتناسب وما شابهها. وطور الإغريق أيضاً فى نظرية الأرقام، بالنظر إلى

حماسهم للجدال النظرى، وهى التى تؤكد الخواص الرياضياتية للأعداد الصحيحة. وقدم فيثاغورس (٥٨٠؟-٥٠٠ ق.م.) العديد من موضوعات نظرية الأرقام، كما طور، مع تلاميذه، نظرية الموسيقى المبنية على النسب، وبحث فى العلاقات بين الأرقام التى يمكن أن تمثلها مجموعة من المربعات أو نقاط على صورة مثلثات. واشتهر فيثاغورس بوصفه صاحب النظرية التى تنص على أن مساحة المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية تساوى مجموع مساحات المربعين المقامين على الضلعين الآخرين. كما طور البابليون والمصريون أيضاً قائمة تضم "ثلاثيات فيثاغورس" - أى ثلاثة أضعاف الأرقام الصحيحة التى تفى بشروط العلاقات الفيثاغورية.

كان ديوفانتوس أهم رياضياتى إغريقى تعامل مع مسائل الجبر لذاتها، وكان نشطاً فى الإسكندرية حوالى ٢٥٠ م. ولا يعرف عن حياته إلا أقل القليل. ولعله وُلد فى بابل أو تعلم فيها. ولم يبق محفوظاً إلى العصر الحديث إلا أقل من نصف كتابه العظيم "الحساب" (Arithmetica) ولم يكن اهتمام الكتاب منصباً على الجبر الذى نعرفه، ولا على الحساب وإنما على نظرية الأرقام. وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكتاب مهماً فى تطور الجبر باستخدامه للحروف كى تمثل المقادير المجهولة وإدخاله التدوين المبسط للقوى المجهولة، حيث توقفت الإشارة إلى "مربعات" أو "مكعبات" هندسية. وبحث ديوفانتوس فى الشروط الواجب توفرها لكى يمكن لمجموعة من المعادلات تحوى أكثر من مجهول واحد أن تنتج حلولاً مكونة من أرقام صحيحة. وحتى اليوم لا يزال يُطلق على تلك المعادلات اسم المعادلات الديوفانتية. وبذلك عمم ديوفانتوس تطبيق ثلاثيات فيثاغورس على مجموعات أخرى من الأرقام تنطبق عليها شروط علاقات رياضياتية أخرى.

وبخلاف العالم الكلاسيكى والشرق الأدنى القديم، هناك من الدلائل ما يشير إلى وجود معارف رياضياتية متقدمة فى الصين والهند وعند المايا فى أمريكا الوسطى. ولقد حققت تلك الحضارات منجزات مهمة فى أنظمة الأرقام والحساب والهندسة، وكثيراً ما كانت تُستخدَم فى مجالات الفلك والدين. ولا يبدو أنه كانت هناك كتابات

خاصة بالجبر قبل أعمال الهندي براهماجويتا (٥٩٨-٦٦٠)، الذي تركت أعماله أثراً على اهتمام العلماء العرب بالجبر في العصور الوسطى.

التأثير

كلمة "جبر" (algebra) مستمدة من الكتاب العربي "كتاب الجبر والمقابلة"، وهو كتاب يصف فن تحويل معلومات عن قيمة مجهولة إلى واحد من عدد من الصيغ القياسية يمكن بعدها التوصل إلى تلك القيمة بخطوات محددة. والكتاب من تصنيف الرياضياتي والفلكي العربي محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠؟-٨٥٠؟)، والذي اشتقنا من اسمه أيضاً مصطلح "لوغاريتم"، الذي يصف أى عملية منهجية منظمة للحصول على نتيجة رياضية. كان الخوارزمي واحداً من العلماء العاملين في "بيت الحكمة" الذي أنشأه في بغداد الخليفة المأمون (٨٠٩-٨٣٣)، حيث كان بمستطاعه الاطلاع على النصوص الرياضية الإغريقية والهندية. وترجم روبرت الشستري (Robert of Chester) كتبه إلى اللاتينية، وهو عالم إنجليزي كان يعيش في الأندلس الإسلامية، سنة ١١٤٥.

عاودت أوروبا الاهتمام بالجبر في أعقاب سقوط الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٥٤٢، التي أتت بموجة من العلماء والمخطوطات الرياضية إلى إيطاليا في عصر النهضة. ففي سنة ١٥٤٥، نشر الطبيب والرياضياتي الإيطالي جيرولامو كاردانو (١٥١٠-١٥٧٦) كتاباً بعنوان "الفن العظيم" (Ars Magna) ضمَّه نتائج جديدة مهمة شملت حلاً للمعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة. وتمت الخطوة الرئيسية التالية في الجبر في أعمال المحامي والكاتب الفرنسي فرانسوا فييت (Francois Viète) (١٥٤٠-١٦٢٠)، الذي أعاد إدخال الطريقة الديوفانتية في استخدام حرف أبجدي يمثل المجهول. ومهد التدوين الجديد لفييت دراسة دالات المتغيرات والتحويلات في الدالات الناتجة عن إدخال متغيرات جديدة، وكلها أفكار كانت لها أهميتها طوال الرياضيات الحديثة.

أوحى وجود حلول من أرقام صحيحة للمعادلات الديوفانتينية بالكثير من البحوث الرياضياتية على مر القرون. ففي سنة ١٩٠٠ صنف الرياضياتي الألماني الكبير دافيد هيلبرت (David Hilbert) (١٨٦٢-١٩٤٣) جدولاً يضم أهم ٢٣ مسألة في الرياضيات لم يتم حلها لتحديد ما إذا كانت ثمة حلول بأرقام صحيحة لمعادلة ديوفانتينية معينة لها وجود. ومما لا شك فيه أن أهم معادلة ديوفانتينية في تاريخ الرياضيات هي تعميم للعلاقة الفيثاغورية مع أس أكبر:

$$أ^n + ب^n = ج^n$$

حيث ن تساوي ٢ أو ٤ أو عدداً صحيحاً أكبر. وذكر الرياضياتي الفرنسي بيير دي فيرمات (Pierre de Fermat) (١٦٠١-١٦٦٥) في هامش خطه على نسخته من كتاب ديوفانتوس "أريمتيكا" (Arimetica) أنه توصل إلى برهان على أن تلك المعادلات ليس لها حل يتضمن أعداداً صحيحة، لكنه لم يذكر دليله. وحاول العديد من الرياضياتيين أن يجدوا ما يثبت أو ما يدحض نظرية فيرمات الأخيرة إلى أن أتى الرياضياتي البريطاني أندرو وايلز (Andrew Wiles) (١٩٥٢-) ببرهان مرضٍ سنة ١٩٩٤.

دونالد ر. فرانشتي (DONALD R. FRANCESCHETTI)

لمزيد من القراءة

Bell, Eric Temple. *Development of Mathematics*. New York: McGraw-Hill, 1945.

Boyer, Carl B. *A History of Mathematics*. New York: Wiley, 1968.

Grattan-Guinness, Ivor. *The Rainbow of Mathematics: A History of the Mathematical Sciences*. New York: Norton, 1997.

Kline, Morris. *Mathematical Thought from Ancient to Modern Times*. New York: Oxford University Press, 1972.

نشأة حساب المثلثات

نظرة شاملة

كانت النظريات التي تتناول النسبة بين أضلاع المثلثات المتشابهة، حتى في زمن البابليين والمصريين القدماء، تُستخدم بتوسع في القياس وتشديد المباني وكمحاولة لفهم حركات الأجرام السماوية. وشرع الإغريق في دراسة الزوايا وأطوال الأضلاع المحيطة بتلك الزوايا دراسة منهجية، لأهداف فلكية أيضاً. ويرتبط تاريخ حساب المثلثات ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الفلك، لأنه كان أدواته الرياضياتية الأساسية. وفي النهاية سيصبح حساب المثلثات فرعاً مستقلاً من فروع الرياضيات، كما هو الحال مع علم حساب المثلثات الحديث.

الخلفية

كان الناس في الحضارات القديمة لمصر وبلاد الرافدين يمعنون النظر إلى السماء. فالسما كانت تخبر الناس متى يزرعون ومتى يحصدون. وكان الناس بحاجة إلى تقويم سنوي كي يتمكنوا من الاحتفال بالمناسبات المهمة. وتسجيل موقع الشمس هو أمر ضروري في صناعة التقويم. ولكي يحدد المرء ساعة النهار كان عليه أن ينظر في أطوال الظلال، التي كانت تقاس بزرع عصاة مستقيمة في الأرض وقياس طول ظلها. ونشأ حساب المثلثات من حسابات تلك القياسات. وفي الحق، يعود تاريخ القياس الحديث للمنحنيات والزوايا إلى القياسات البابلية.

ويعود تاريخ لوح الصلصال البابلى الشهير المعروف باسم "بليمتون ٣٢٢" إلى حوالي ١٧٠٠ ق.م. واشتهر هذا اللوح لما يحويه من قائمة للثلاثيات الفيثاغورية، وهى قائمة بالأضلاع وما يقابلها من أوتار فى المثلثات قائمة الزاوية. والحقيقة الأقل إدراكاً هى أن واحداً من أعمدة القائمة يحوى مربع النسبة بين طول الخط القطرى إلى طول أحد الأضلاع، وكلما نزلت فى العمود تجد أن تلك النسبة تتناقص بمعدل يكاد يكون ثابتاً. فإذا ما نظر المرء إلى تربيعات تلك النسب بوصفها مربع قاطع تمام (cosecant) الزاوية المجاورة، فإن تلك الزاوية تتزايد بصورة شبه ثابتة من حوالى 45° إلى 85° . فهل كان اللوح بليمتون ٣٢٢ يُستخدم جزئياً كقائمة لحساب المثلثات؟

تأتى أغلب معارفنا عن الرياضيات المصرية المبكرة من بردية رايند (أو أحمس). وقد اشترى البردية سنة ١٨٥٨ فى مدينة مطلة على النيل رجل اسكتلندى هو ألكساندر هنرى رايند (Alexander Henry Rhind) ومن هنا جاء اسمها. وأحياناً يُطلق عليها اسم بردية أحمس وهو اسم الكاتب الذى نسخها حوالى ١٦٥٠ ق.م. وتبين مسائل تلك البردية المرقمة من ٥٦ إلى ٦٠ منشأ حساب المثلثات فى مصر القديمة. وتتناول هذه المسائل موضوع الأهرام ذات القاعدة المربعة، ومن الطبيعى أنه موضوع على جانب كبير من الأهمية للمصريين. فعند تشييد هرم لا بد من ثبات درجة انحدار الجوانب. وتظهر كثيراً فى تلك المسائل كلمة "سِكت" أو "سِكِد"، وهى تعنى للقارئ الحديث النسبة بين المسافة المستعرضة من خط مائل عن الخط الرأسى إلى الارتفاع. ويستطيع المرء أيضاً أن يعتبر "سِكت" ظل تمام الزاوية بين قاعدة هرم وأوجهه. غير أن المصريين لم يقصدوا هذا المعنى فى "سِكت". فبالنسبة إليهم كانوا ببساطة يرونه طولاً من الأطوال. ولم تكن قد ظهرت بعدُ النظرة إلى دالات حساب المثلثات بوصفها نسباً (كما ننظر إليها اليوم).

كان استخدام الهندسة فى المثلثات قائمة الزاوية المتشابهة بدلاً من حساب المثلثات سمة أيضاً من سمات رياضيات بلاد اليونان فى بواكيرها. وفى الحقيقة، قد

تكون تلك الأفكار قد انتقلت إليهم من الحضارة البابلية مباشرة. ويقال أن طاليس المليطى (ح ٦٢٤-٥٤٧ ق.م.) قد حسب ارتفاع هرم بمقارنة طول ظله مع طول ظل عصا منتصبة. ويحوى الجزء الثانى من كتاب "المبادئ" لإقليدس (ح ٣٠٠ ق.م.) على فرضيات معادلة لقانون جيب تمام الزاوية، ولكن بلغة الهندسة. ويمكن إعادة صياغة نظرية أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.) الخاص بالوتر المنكسر كوصف لجيب الفرق بين زاويتين.

كان الفلكيون الإغريق يتعاملون أيضاً مع تلك الوسائل الهندسية. ولاحظ أريستارخوس الساموسى (Aristarchus of Samos) (٢١٠-٢٣٠ ق.م.) أنه عندما يكون القمر نصف بدر فإن الزاوية بين خطى الرؤية إلى الشمس والقمر تكاد تكون زاوية قائمة، ٨٧°. وباستغلال هذه الملاحظة قدر أريستارخوس أن المسافة بين الأرض والشمس تبلغ ١٨-٢٠ مرة قدر المسافة بين الأرض والقمر. ورغم أن هذه المسألة تبدو لنا اليوم مسألة حساب مثلثات (باستخدام مثلث قائم الزاوية زواياها ٩٠° و ٨٧° و ٣°)، إلا أنها بالنسبة لأريستارخوس كانت مسألة هندسية. واستخدم أريستارخوس هذه القياسات للمسافات فى تحديد نسبة أحجام الشمس والقمر والأرض. ولكى يحدد حجم الشمس والقمر كان لابد له من معرفة حجم الأرض. وهذا ما نجح إيراتوستينز السرىنى (Eratosthenes of Cyrene) (٢٧٦-١٩٥ ق.م.) فى التوصل إليه باستخدام العلاقة بين زوايا دائرة وأقواسها وزوايا وأوتار دائرة.

تلك العلاقات بين الزوايا والأقواس والأوتار هى أساس الفلك المعتمد على المشاهدة البصرية. فهى تمنح وسيلة لقياس مواقع النجوم والكواكب فى السماء، أو فى "الكرة السماوية"، وهى حدود الكون الكروى، الذى تقع الأرض فى مركزه، والذى يدور حول الأرض وحيث توجد الأجرام السماوية. كان البابليون هم من ابتدع نظام مسار الشمس الظاهرى بين النجوم لتحديد مواقع الأجرام السماوية، وكذلك استخدمه الفلكيون الإغريق. ولكى يتم التعامل مع هذا النظام يحتاج المرء إلى حساب المثلثات الكروية. ولكن لكى تفهمه يتعين أن تفهم أولاً حساب المثلثات المستوية. فمثلاً

تتحدث نظرية منيلاوس عن العلاقة بين أقواس الدوائر الكبيرة على سطح كرة ويمكن إثباتها أولاً بتحديد العلاقة مع أقسام على السطح المستوي.

بدأ علم حساب المثلثات الحق مع الفلكي هيبارخوس البثينيائي (Hipparchus of Bithynia) (١٩٠-١٢٠ ق.م). فقد بدأ هيبارخوس بأن عرّف الإغريق على النظام البابلي لقياس الزوايا وأقواس الدوائر بالدرجات. كما كان أيضاً أول من وضع جداول للأطوال المتعلقة بالزوايا، والتي تسمح بحل مسائل المثلثات المستوية. وضع هيبارخوس هذا الجدول لكي يتمكن من إجراء حساباته الفلكية. وقد ضاع جدول هيبارخوس للأسف، غير أن كتباً أخرى تشير إليه وإلى جدولهِ، ومنها نستطيع أن نعيد تكوين ما نظن أنه كان جدولهِ.

افترض هيبارخوس أن كل مثلث مرسوم داخل دائرة ذات نصف قطر ثابت. وكان معنى ذلك أن كل ضلع من أضلاع المثلث هو وتر في الدائرة. وكانت دالة الوتر هي الدالة المثلثية الوحيدة في حساب مثلثات هيبارخوس، التي تُختصر اليوم باسم θ ، حيث μ هي الزاوية المركزية أمام الوتر. قام هيبارخوس بحساب أطوال الأوتار في كل زاوية من $٥, ٧$ إلى ٨٠ في خطوات مقدار كل منها $٥, ٧$. وتختلف أطوال الأوتار أيضاً حسب نصف قطر الدائرة، ولهذا يجب أن يكون نصف القطر ثابتاً. واستخدم هيبارخوس نصف قطر ثابت عند $\text{نق} = ٥٧ + ٦٠/١٨$. وتم التوصل إلى نصف القطر هذا من العملية الحسابية $٢ \pi \text{ نق} = ٣٦٠ \times ٦٠$ ، وهو ما يعادل عدد الدقائق في محيط دائرة. وتقريب $٢ + ٦٠/٨ + ٦٠/٣٠ = ٣, ١٤١٦ \dots$ لأن π (ط) مستخدمة في الحسابات. وهذا يعني أن دالة الوتر لها ارتباط بدالة جيب الزاوية الحديثة طبقاً للعلاقة $\text{نق جيب } (\alpha/٢)$ ونلاحظ أن الوتر هو طول وليس نسبة الأطوال.

بدأ هيبارخوس جدول أوتاره بوتر الزاوية ٦٠ . وهي زاوية تكون مثلثاً متساوي الأضلاع مركزه في مركز الدائرة، حيث يكون طول الوتر مساوياً لطول نصف قطر الدائرة. ومن هذه النقطة استخدم هيبارخوس نتيجتين من الهندسة هما: α و $\alpha^٢$

($\alpha - 180$) = (2نق) - وت α^2 ، وهى مجرد إعادة صياغة لنظرية فيثاغورس؛ و
 وت α^2 = (2نق) - (2نق - $180 - \alpha$) ، التى تأتى من تكافؤ مثلث قائم
 الزاوية مرسوم داخل شبه دائرة مع مثلثات مرسومة بإسقاط خط عمودى من مركز
 الدائرة على وتر المثلث قائم الزاوية.

وبعد هيبارخوس، كانت الشخصية الرئيسية فى تطور حساب المثلثات هى الفلكى
 منيلاوس (Menelaus) السكندرى (ح ١٠٠ م)، الذى ألف كتاباً بعنوان "أوتار الدائرة"،
 الذى فُقد، وكتاب "الكرويات" (Sphaerica) وهو عمل يتناول حساب المثلثات الكروى.
 وفى الكتاب الأخير وضع منيلاوس فرضيات عديدة للمثلثات الكروية (التى تتكون من
 أقواس على دوائر كبيرة على سطح جسم كروى) وهى فرضيات مشابهة لفرضيات
 المثلثات المستوية. وظهرت نظرية منيلاوس فى هذا العمل وهى نظرية جوهريّة فى
 مجال حساب المثلثات الكروى.

وصل حساب المثلثات الإغريقي إلى ذروته فى عمل يعتبر أيضاً ذروة المنجزات
 الفلكية الإغريقية، وهو كتاب "المصنف الرياضياتى" (Syntaxis Mathematicos) الذى
 وضعه كلوديوس بتوليمايوس (Claudius Ptolemaeus) (ح ١٠٠م - ١٧٨) الذى اشتهر
 باسم بطليموس. وقد أشار إليه العلماء المسلمون بعد قرون وأسموه "المجسطى"،
 بمعنى "الأعظم"، وترجم الاسم إلى اللاتينية فصار "الماجست" (Almagest)، وهو
 الاسم الذى صار الكتاب يُعرف به منذ ذلك الحين. أدرك بطليموس أن الوتر فى دائرة
 له علاقة بأضلاع كل من المثلثات الكروية والمستوية، فتطلب منه عمله هذا أن يصنف
 جدولاً للأوتار.

كان جدول بطليموس أكثر تكاملاً من جدول هيبارخوس. فقد حسب بطليموس
 أوتار القوس من 0° إلى 180° فى خطوات مكونة من نصف درجة ($0^\circ, 5$). واستخدم
 بطليموس 6٠ كقيمة ثابتة لنصف القطر. بدأ بطليموس جدول حساب الأوتار
 باستخدام مضلعات منتظمة مرسومة داخل دائرة نصف قطرها 6٠. وضلع مثلث
 متساوى الأضلاع يعطى "وتر" مقداره 6٠، ووتر مربع هو 8٦، ووتر خماس متساوى

الأضلاع هو ٧٢، ومضلع عشاري الأضلاع له وت قدره ٢٦. ثم ابتكر بطليموس معادلات اللوت (١٨٠- α) وكذا وت (γ/α) وت ($\beta \pm \alpha$) المعادلة الأخيرة تستخدم نظرية بطليموس) واستخدمها بطليموس ليستكمل بها جدولته. ومكّن هذا الجدول بطليموس من حل مسائل المثلثات المستوية، مثلما تسهم اليوم جداول حساب المثلثات في حل مسائل المثلثات المستوية. كما نجح أيضاً في حساب القيم المطلوبة في النماذج اللامركزية في السماوات، حيث تدور الشمس حول الأرض لا في مدار دائري مركزه الأرض وإنما في مدار دائري مركزه بعيد عن الأرض. وبهذه الحسابات أمكن لبطليموس أن يتنبأ بموقع الشمس وغيرها من الأجرام السماوية في الأوقات المختلفة. وعلى الرغم من أن حساب مثلثات بطليموس سوف يتعدل على يد رياضياتيين في الشرق فإن أفكاره الفلكية صمدت لمدة ١٤٠٠ سنة أخرى، حتى زمن كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٢).

في زمن بطليموس غزت إمبراطورية كاشان شمال الهند وحكمتها وأنشأت طرق تجارة مع روما. ويعتقد المؤرخون أن الفلك الإغريقي قد انتقل إلى الهند عبر تلك الطرق. كما كان لحكام الهند من الجويتا أيضاً (القرن الرابع م إلى القرن السادس) اتصالات منتظمة مع ورثة الحضارة الإغريقية-الرومانية. وأقدم عمل هندي معروف في حساب المثلثات هو "بايتاماها سيدهانتا" (Paltammaha Siddhanta)، الذي كُتب في أوائل القرن الخامس. ويحتوي هذا العمل على جدول لأنصاف الأوتار أو كما يسمى بالسنسكريتية "جيا-أردها" (jya-ardha). ومن اللافت للنظر أن هذه الكلمة تحورت وصارت مصطلحنا الحديث sine. واختصرت كلمة "جيا-أردها" إلى جيا (jya) أو جيفا (jiva). ولما ترجمها العلماء المسلمون اللاحقون إلى اللغة العربية ترجموها بكلمة "جيبا" وكتبوها "جب" لأن الحروف المتحركة لم تكن تُكتب. وفيما بعد صارت تُكتب "جيب" وفُسرَت أنها تعني جيباً أو جوفاً أو ثنية. وتُرجمت بعد ذلك إلى اللاتينية بكلمة sinus التي تعني فجوة أو تجويفاً. ويبدو أن جدول أنصاف الأوتار هذا مستمد من جدول هيبارخوس للأوتار، لأنه يستخدم نفس قيمة نصف القطر التي استخدمها.

كان أول كتاب يذكر دالة الجيب (بوصفها طولاً في دائرة ذات نصف قطر محدد، وليست نسبة أطوال) هو كتاب "أريابهاتيا" (Aryabhatiya) الذي ألفه الفلكي الهندي أريابهاتا الأول (Aryabhata I) حوالي سنة ٤٠٠م وفي الحقيقة كان جدول الجيوب جدولاً لقيم نـق جيب (α)، ومما ساعد أريابهاتا على استكمال جدول تطويره للمكافئ الحديث للجيب. وتكونت الجداول الهندية باستخدام العلاقات الدائرية للجيب. كما أدخل أريابهاتا أيضاً دالات جيب التمام وفرق جيب الزاوية، كأطوال أيضاً لا كنسب؛ مستخدماً نـق جتا (α) لدالة جيب التمام. ويتسم هذا العمل باستخدام المثلثات في خدمة الفلك وإنشاء التقاويم.

ترجمت تلك الكتب الإغريقية والهندية إلى العربية في القرن الثامن. وتوسع الفلكيون المسلمون في دراسة حساب المثلثات واستخداماته في الفلك وفي الدين، لأن المسلمين يتوجب عليهم أن يحددوا اتجاه مكة من أى مكان يتواجدون فيه. وعادت كل تلك الكتب إلى الغرب، وتطور حساب المثلثات إلى فرع الرياضيات الذي يُدرّس اليوم.

الأثر

مع تطور حساب المثلثات، تحول الفلك من علم نوعي يعتمد على الرصد البصرى النوعي إلى علم تنبئى كمي. وأسهم هذا التحول في نشر فكرة إمكانية الوصف الرياضياتي للظواهر الطبيعية. ولأول مرة بات في الإمكان تحويل معطيات الرصد البصرى إلى نماذج رياضياتية. وكان كتاب بطليموس "المجسطي" حجر زاوية في هذا المجال، وأسهم في مجال الرياضيات التطبيقية ما أسهمه "المبادئ" كتاب إقليدس في مجال الرياضيات النظرية. فقد استُخدمت الرياضيات من قبل في حل المسائل، ولكن حساب المثلثات تطور من أجل الرياضيات التطبيقية، واستمر يفعل ذلك بوسائل ازدادت تعقداً أكثر فأكثر.

وعلى الرغم من أن الاتجاه إلى التطبيق تزامن مع تدهور الرياضيات الإغريقية، فإن تلك التطبيقات جذبت أنظار علماء الهنود والمسلمين لأهميتها فى العقيدة وإنشاء التقاويم. فحدثت نهضة فى الرياضيات فى هاتين الحضارتين، وبفضلهم عاد إلى الغرب الشئ الكثير من ميراث الإغريق الكلاسيكيين.

وفى الوقت الذى تطور فيه كل من حساب المثلثات والفلك إلى علوم تنبؤية فى كل من الشرق والغرب، ازدادت أهمية أن تكون جداول الحسابات أكثر دقة، وأن تصير الجداول أقل تشوشاً. وكنتيجة مباشرة شهدت القرون التالية تقدماً فى الترقيم الهندي-العربي، وظهور الكسور العشرية، واختراع اللوغاريتمات، وكلها أشياء مقصود منها تخفيف أعباء الحساب. وقال الفلكى والرياضياتى الفرنسى بيير سيمون دى لابلاس (Pierre-Simon de Laplace) (١٧٤٩-١٨٢٧) إن اختراع اللوغاريتمات بتخفيفه للأعباء قد ضاعف طول حياة الفلكى.

جارى س. ستودت (GARY S. STOUDT)

لمزيد من القراءة

Boyer, Carl and Uta Merzbach. A History of Mathematics. New York: John Wiley & Sons, 1991.

Evans, James. The History and Practice of Ancient Astronomy. New York: Oxford University Press, 1998.

Maor, Eli. Trigonometric Delights. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.

Neugebauer, Otto. A History of Ancient Mathematical Astronomy. New York: Springer-Verlag, 1975.

إيراتوستثنيز يقيس محيط الأرض

نظرة شاملة

تزايدت أهمية قياس المسافات في الحضارات القديمة والكلاسيكية مع توسع حدودها الإقليمية وامتداد أبقها الثقافى. وفى حوالى ٢٤٠ ق.م. نجح إيراتوستثنيز السىرىنى (Eratosthenes of Cyrene) (٢٧٦-١٩٤ ق.م.)، فى قياس محيط الأرض قياساً دقيقاً باستخدام منطق رياضى بارع وقياسات محدودة مبنية على الملاحظة والتجربة. وكان ذلك الحدث أكثر من مجرد إنجاز علمى، فقد أسهمت قياسات إيراتوستثنيز، وإسهامات مشابهة أخرى، فى علوم المساحة (geodesy) دراسة شكل الأرض وحجمها) وحفزت على مزيد من الاستكشافات والتوسعات لاحقاً. ومما هو مثير للسخرية أنه حدث بعد قرون أن كلودىوس بطليموس الرياضياتى والفلكى الإغريقى رفض الاعتماد بقياسات إيراتوستثنيز الرياضياتية، لأنها، إضافة إلى أخطاء رياضية أخرى ارتكبها، ينتج عنها قياس رياضياتى لأبعاد الأرض أقل من حقيقتها، ولكنها رغم خطئها جعلت إجراء الرحلات البحرية الطويلة والاستكشافات أمراً ممكناً أكثر.

الخلفية

كان إيراتوستثنيز، الذى خدم تحت إمرة بطليموس الثالث وتولى تعليم بطليموس الرابع، كان ثالث أمين لمكتبة الإسكندرية العظيمة. وكان هذا المنصب على درجة كبيرة من الأهمية لأن المكتبة كانت موطن التعليم والدراسة فى العالم القديم. فكانت السفن

الوافدة إلى ميناء الإسكندرية، على سبيل المثال، يتم نسخ وثائقها المكتوبة لحفظها في المكتبة. وعلى مر السنين نمت مجموعة محتويات المكتبة حتى شملت مئات الألوف من لفائف البردى التي حوت الكثير من الثروة الثقافية للعالم القديم.

وإضافة إلى إدارته لمحتويات المكتبة والقراءة ونسخ الوثائق، بحث إيراتوستينيز في عدد من الموضوعات وكتب فيها. وعلى الرغم من ضياع كل كتاباته وحساباته، فإننا نعرف من أعمال علماء إغريق آخرين أن إيراتوستينيز درس المفاهيم الأساسية للرياضيات والهندسة وتعريفها. ومن بين مكتشفاته كان 'غربال إيراتوستينيز' وهو طريقة لتحديد الأعداد الأولية لا تزال مستخدمة حتى اليوم. كما صنف أيضاً جدولاً للنجوم يضم المئات منها، وابتكر تقويماً يتسم بالحدثة المدهشة، وحاول أن يتوصل إلى تواريخ أحداث تاريخية، بدءاً من حصار طروادة. وكانت قدراته من التنوع، حيث إن معاصريه كانوا يطلقون عليه 'بيتا' - وهو الحرف الثاني من حروف الهجاء اليونانية - بمعنى أنه كان من الحدق والتمرس في عدد كبير من فروع المعرفة، حيث من الصعب أن يكون أفضل شخص في أي منها.

وأكثر ما تسبب في شهرة إيراتوستينيز كان قياسه البالغ الدقة والعبقرى لمحيط الأرض. وعلى الرغم من ضياع مذكراته عن طريقة القياس التي اتبعها، فإن ثمة إشارات إليها مثيرة للاهتمام في كتابات سترابون وغيره من العلماء، منها مجموعة بابوس (Pappus's Synagoge)، وهي جمع وتلخيص لكتابات في الرياضيات والفيزياء والفلك والجغرافيا طُبع في القرن الثالث الميلادي. وإضافة إلى القياس الدقيق لمحيط الأرض، المنبني على الاختلافات الرصدية في الموقع السمى للشمس، فإنه قام بقياس بالغ الدقة لدرجة ميل الأرض عن محورها.

الأثر

يبدو أن إيراتوستينيز بعد تأثيره بالأرصاد المذكورة في اللفائف التي كان يقرأها بوصفه أميناً للمكتبة قد أدرك وجود اختلافات مبهمة فيما كُتب عن الظلال التي تلقيها

شمس منتصف الصيف. وبالذات ما كُتِبَ عن أرصاد بالقرب من سين (بالقرب من أسوان الحديثة في مصر) تفيد بأن شمس الظهيرة يوم الانقلاب الشمسي الصيفي تضيء مباشرة بئراً عميقة، وأن الأعمدة المنتصبة لا تتكون لها ظلال. وفي المقابل، لاحظ إيراتوستينيز أن شمس الظهيرة في الإسكندرية في نفس اليوم تلقى ظلالاً للأعمدة القائمة والعصى المثبتة في الأرض.

وبناء على دراساته في الفلك والهندسة افترض إيراتوستينيز أن أشعة الشمس تسقط متوازية على الأرض بعد أن تصلها من البعد السحيق للشمس. وعلى الرغم من أن حسابات بُعد الشمس والقمر، والتي أيدتها القياسات والتقديرات التي تمت أثناء خسوفات القمر، كانت أقل من الحقيقة بكثير، فإن فرضية إيراتوستينيز أثبتت أنها صحيحة في مجملها. وبافتراض السقوط المتوازي لأشعة الشمس فإنه احتاج لأن يحدد الفروقات بين زوايا الظلال في أسوان والإسكندرية في نفس الوقت من نفس اليوم. ويضاف إلى ذلك أنه كان عليه أن يحسب المسافة بين المدينتين.

وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية العلوم الحديثة، لاعتقدنا أن محاولة إيراتوستينيز تحديد القيم الحقيقية للزوايا والمسافات التي احتاجها ليستكمل حساباته كانت وليدة الحدس والتخمين. غير أن هذا النمط من العلم الموضوعي الهادف في العالم القديم كان يختلف اختلافاً شاسعاً عن النظرة العلمية السائدة التي تنحو منحى أكثر فلسفية أو رياضياتية في تصديدها للمعضلات. ويضاف إلى ذلك أن إيمان إيراتوستينيز بكروية الأرض كان في حد ذاته أمراً خلافيًا.

ولكى يجرى حساباته توصل إيراتوستينيز إلى الفرق الزاوي بين الظلال في أسوان والإسكندرية يبلغ حوالي ٧°. وحدد المسافة بين المدينتين بأنها حوالي ٨٠٥ كيلومتراً، ولعله وفقاً لإحدى الروايات استأجر عداءً ليقيسها. وقدر إيراتوستينيز أن نسبة الفارق الزاوي في الظلال إلى عدد درجات الدائرة (٣٦٠) لابد وأن تكون مساوية لنسبة المسافة بين المدينتين إلى طول محيط الأرض. وكانت النتيجة هي ٤٠٢٣٤ كيلومتراً، وهو تقدير مذهل في دقته.

وفى حساباته قاس إيراتوستينيز المسافة بوحدة تسمى 'إستاديا' وهى وحدة القياس مبنية على سباق العدو اليونانى المسمى 'ستاد'. وكانت تلك الوحدة تختلف من مكان إلى آخر فى العالم القديم. ويكاد يكون فى حكم المؤكد أن إيراتوستينيز استخدم الاستاديا الأتيكية، وهى دورة واحدة فى مضمار أثينا (الاستاد) طولها ١٨٥ متراً. وباستخدام هذا المقياس توصل إيراتوستينيز إلى محيط طوله لا يختلف عن التقدير الحديث لمحيط الأرض عند خط الاستواء (٤٠٠٧٦ كيلومتراً) إلا ببضع أجزاء من مئة. ومن الضرورى أن نشدد على أن هذا هو محيط الأرض عند خط الاستواء لأن الكرة الأرضية فى حقيقتها كرة منبعجة عند القطبين ومنفتحة فى وسطها، مما يجعل المحيط عند خط الاستواء أكبر مما لو تم القياس عبر القطبين.

نشر إيراتوستينيز نظريته وحساباته فى كتابه 'الجغرافيا'، وهو عنوان يعكس أول استخدام معروف لهذا المصطلح الذى يعنى 'الكتابة عن الأرض'. وعلى الرغم من أن قياساته قد اعتُرض عليها فى زمانه، فإنها أتاحت الفرصة لرسم خرائط وصناعة كريات أرضية بقيت من أكثر ما أنتج دقة لألف سنة. وأشعل ذلك بدوره الحماس للجغرافيا ودراسات علم المساحة، وشجعت على الاستكشافات البحرية المحلية باستخدام أكثر وسائل الملاحة بدائيةً. ويضاف إلى ذلك أن عمل إيراتوستينيز أسهم فى ترسيخ التسليم بكروية الأرض، وحفز على ظهور نظرية مبكرة تقول بأن الدفء النسبى أو البرودة النسبية لمناخ موقع من المواقع يتوقف على مسافته من خط الاستواء كما أيدت الجغرافيا أيضاً مفاهيم 'المقابل' أى وجود أراض وشعوب غير مكتشفة على 'الجانب المقابل' من العالم.

وقد يكون عمل إيراتوستينيز هو الذى أوحى إلى كلوديوس بطليموس الفلكى والجغرافى الإغريقى لأن يقوم بقياسه الخاص لمحيط الأرض فى القرن الثانى الميلادى. ومن سوء الطالع أنه نبذ حسابات إيراتوستينيز واستبدل بها قياسات خاطئة، كان قد قام بها الجغرافى بوزيدونيوس (Posidonius) (١٣٠-٥٠ ق.م). ويمقتضى هذه القياسات تساوى 'الدرجة' ما يقارب ٨٠ كيلومتراً، بدلاً من تقدير إيراتوستينيز الأدق

وهو ١١٣ كيلومتراً لكل درجة عند خط الاستواء. وعلى الرغم من أن بطليموس توسع في حساباته أكثر مما فعل إيراتوستينز، فقام بقياس تحركات الظلال في أوقات مختلفة فإن افتراضاته وقياساته غير الدقيقة أفضت به إلى قيمة نهائية أقل دقة ومحيط للأرض أصغر بكثير (٢٥٧٥٠ كيلومتراً).

نشر بطليموس أرقامه غير الدقيقة في المجسطى الذي كُتب حوالي سنة ١٥٠ م وبقي أكثر الكتب في الفلك والجغرافيا تأثيراً طوال العصور الوسطى. جعل خطأ بطليموس، الذي ترسخ بأن الأرض أصغر حجماً من حقيقتها، جعل من وجود ممر غربي يقضى إلى الهند أمراً محتملاً. ويظن كثير من العلماء أن خطأ بطليموس قد يكون لعب دوراً في قرار كولبوس بالإبحار غرباً بحثاً عن طريق غربي إلى الهند، رغم أن هذا الأمر من الأمور الجدلية.

ك. لى ليرنر (K. LEE LERNER)

لمزيد من القراءة

Clagett, Marshall. Greek Science in Antiquity. Abelard-Schuman, New York, 1955.

Dutka, J. "Eratosthenes's Measurement of the Earth Reconsidered." Archive for History of Exact Sciences 46 (1), 1993:1. 55-66.

Fowler, D. H. The Mathematics of Plato's Academy: A New Reconstruction. Oxford: Clarendon Press; New York : Oxford University Press, 1987.

Goldstein, B.R. "Eratosthenes on the Measurement of the Earth." Historia Mathematica 11 (4), 1984: 411-416.

Heath, T. L. A History of Greek Mathematics. Oxford: The Clarendon Press, 1921.

الأرقام الرومانية : نشأتها وأثرها ونقاط الضعف فيها

نظرة شاملة

استمرت غالبية الأوربيين تستخدم نظام الأرقام الذي ابتكره الرومان لما يقرب من ١٨٠٠ سنة، أى أطول بكثير من مدة وجود النظام الهندى - العربى الحالى. وعلى الرغم من أن النظام الرومانى للأرقام سهل من عمليات الجمع والطرح، فإن العمليات الحسابية الأخرى كانت أكثر صعوبة. وإذا ما أضيف إليه عدم وجود وسائل لاستغلال الكسور وانعدام مفهوم الصفر، فقد نتج عن الطبيعة المزعجة لنظام الأرقام الرومانية أن تأخر التقدم فى العلوم الرياضياتية، رغم أنه أوفى بمعظم احتياجات الرومان.

الخلفية

نشأ النظام الرومانى للتعبير عن الأعداد حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. ومع غزو الرومان لغالبية العالم المعروف لهم انتشر نظام أرقامهم فى كل أرجاء أوروبا، وظل يمثل الأعداد لقرون. وفى حوالى سنة ١٣٠٠ م حل النظام الهندى - العربى الأكثر كفاءة محل النظام الرومانى فى غالبية أنحاء أوروبا ولا يزال مستخدماً حتى اليوم.

وقبل أن نتفحص نقاط الضعف التى تحيط باستخدام الأرقام الرومانية، يتعين أن نفهم طريقة استخدامها. فالرقم ١ هو رمز يمثل عدداً. وفى النظام الهندى - العربى يمثل الرقم ٢ العدد ثلاثة. فإذا ما وُضع بجانبه صفر أو عدد من الأصفار تتضاعف

قيمة العدد بمعدل معين، مثلاً ٢٠، و٣٠٠، و٢٠٠٠ وهكذا. أما في النظام الرقمي الروماني فتمثل الأرقام بأحرف مختلفة.

هذه الأرقام في مجموعات، وفي هذه الحالة تُجمع قيمتها سوياً لكي نتوصل إلى أعداد أكبر. فمثلاً الرقم ٧٢ يمثل بالحروف (LXXII) $(L + X + X + I + I)$ ، أو بالأرقام العربية $١٠٠ + ١٠ + ١٠ + ٥$.

ولكى يتجنب الرومان أن تكون الأرقام بالغة الطول والإزعاج سمحوا بالطرح عندما تكون الأرقام الصغيرة سابقة للأرقام الكبيرة. وبهذا فالرقم ١٤ يكتب XIV بدلاً من XIII. ووفقاً لهذا النظام لا يمكن لرقم أن يسبق رقماً آخر إلا إذا كانت قيمته تساوي عشرة أضعاف الرقم الصغير أو أقل من ذلك. وكمثال، الرقم ايمكن أن يسبق فقط IV أو X (أي خمسة أضعافه أو عشرة أضعافه) وبالتالي يمكن أن يُطرح منها. ووفقاً لهذه القاعدة لا يمكن أن يمثل الرقم ١٩٩٩ بالرمز MIM، لأن M تساوي ألف مرة قيمة I. وطبقاً للطريقة الرومانية يمثل الرقم ١٩٩٩ على النحو التالي MCMXCIX، أو $M + (١٠٠٠ - ١٠٠) + XC + (١٠٠ - ١٠) + IX$. وعلى الرغم من أن الرومان كانوا كثيراً ما يتبعون هذه القواعد فإنها لم تُقن إلا في العصور الوسطى. وبهذا نجد الرقم ٩ يُمثل في بعض الوثائق القديمة بالرمز VIII بدلاً من IX.

ولما كان أكبر رقم استخدمه الرومان هو M أي ١٠٠٠، فإنه كان أمراً غير عملي أن تُكتب الأرقام الكبيرة مثل ١٠٠٠٠٠٠ (مليون) كسلسلة متصلة من M. ولتفادي هذه المشكلة عمد الرومان إلى كتابة "المعلاة" (vinculum) وهي خط مستعرض يُكتب فوق الرقم للإفادة بأن الرقم أصبح يساوي ألف مرة قيمته الأصلية. فبدلاً من كتابة ٦٠٠٠ على صورة M MMMMM صارت تكتب VI وفوقها خط مستعرض، وتُكتب ١٠٠٠٠٠٠٠ وفوقها خط مستعرض. وباستخدام هذه الطريقة في التدوين نجح الرومان في كتابة الأرقام الكبيرة.

الأثر

أخذ الرومان الرموز التي استخدموها لأرقامهم من مصادر متنوعة، منها الأرقام الإغريقية. ومن اليسير التوصل إلى منشأ I الذي يمثل الرقم ١، فهو مأخوذ من العد على أصابع اليد، حيث يمثل إصبع واحد، الذي يشبه I، واحداً من أى شيء يتم عده. واستخدم الرمز V كى يمثل خمسة أشياء عندما يتم عدها على الأصابع لأنها تماثل الفرجة بين الإبهام وإصبع السبابة.

وفى البدء اختار الرومان الحرف الإغريقى X، أو تشى، ليمثل ٥٠. ومن خلال دراسة الكتابات على المعالم الأثرية توصل العلماء إلى حقيقة أن - قد حلت محل X لتمثيل ٥٠، وأصبحت X تمثل ١٠. وليس واضحاً تمام الوضوح كيف صارت X لتمثل ١٠. وهناك نظرية تقترح أن X أخذت من V، أى ٥، موضوعة مقلوبة فوق V أخرى. وبهذا تكونت X من اثنين V موضوعتين فوق بعضهما. وثمة نظرية أخرى تقول بأن الرومان عندما كانوا يعدون ١٠ كانوا يكتبونها كعشرة علامات قائمة ثم يخطون عليها خطأ مائلاً كى يسهلوا من عدها كعشرة. وهو أمر مماثل لما يفعله الأمريكيون عندما يسجلون مجموعات من خمسة على صورة أربعة خطوط قائمة عليها خط خامس مائل. وفى النهاية اتخذ الرومان من X رمزاً للعدد ١٠. واتخذوا حرف C ليمثل ١٠٠ لأنه الحرف الأول من الكلمة اللاتينية التى تعنى ١٠٠ وهى Centum. وكذلك أصبحت M تمثل ١٠٠٠، لأن الكلمة اللاتينية التى تعنى ١٠٠٠ هى mille .

وعلى النقيض من الإغريق، لم يبد الرومان اهتماماً بالرياضيات البحتة، مثل نظرية الأعداد، والبراهين الهندسية وغير ذلك من الأفكار التجريدية. وعموماً عن ذلك كان الرومان يفضلون الرياضيات النفعية. فقد كان استخدام الرومان للرياضيات فى المقام الأول لكتابة حساباتهم الشخصية والحسابات الحكومية والعسكرية، والمساعدة على تشييد قنوات مد المياه للمدن والمباني. وكان نظام الأرقام الرومانى يتيح الجمع والطرح البسيطين. فلأغراض الجمع، كان الرومان يصفون كل الأعداد المطلوب جمعها

ثم يبسطونها. فمثلاً، لكي يحلوا مسألة جمع $7 + 22$ أو $VII + XXII$ ، كانوا يبدأون بتنظيم الأعداد بجوار بعضها بطريقة تنازلية، أى $XXVIII$. ولما كانت $VIII$ ، أى ٩، صياغة غير مقبولة، فقد كانت تتغير إلى IX ، وهى الصيغة المتعارف عليها لرقم ٩. فتكون الإجابة الصحيحة هى $XXIX$ ، أى ٢٩. وكانت عمليات الطرح تتم بصورة مماثلة بشطب الأعداد المتماثلة من الرقمين المختلفين.

حفظت صعوبة إجراء عمليات الضرب والقسمة على تطوير ألواح العد للمساعدة على إجراء تلك العمليات. وألواح العد، التى تشبه "العداد" (abacus) المعروف، يمكن استخدامها أيضاً فى الجمع والطرح. وشاع استخدام ألواح العد المبنية على التصميم الرومانى فى كل أنحاء أوروبا حتى العصور الوسطى. وحتى مع استخدام تلك الألواح بقيت عمليات الضرب والقسمة أمراً شاقاً. ولهذا وضع الرومان جداول للضرب والقسمة يرجعون إليها لحل المسائل التى تتضمن أعداداً كبيرة.

ويضاف إلى صعوبة عمليات الضرب والقسمة وجود العديد من المشاكل الأخرى التى حَجَّمت بشدة من استخدام الأرقام الرومانية وتقليل فاعليتها. ومن بين نقاط الضعف فى الأرقام الرومانية عدم إمكانية التعبير عن الكسور. وكان الرومان يعرفون الكسور، لكن استخدامها كان أمراً صعباً، لأنه كان من الواجب وضعها فى تدوين كتابى. فكان الرومان مضطرين لتدوين "ثلاثة أثمان" كتابةً (tres octavae) وعادة ما كان الرومان يعبرون عن الكسور بوحدات تسمى "أنسيا" (uncia) وهى وحدة كانت تعنى فى الأصل $\frac{1}{12}$ من وحدة الموازين الرومانية (استمد الإنجليز كلمة أونس ounce، أى أوقية، من (uncia). غير أن أنسيا سرعان ما تطورت لتعنى $\frac{1}{12}$ من أى شىء. وعلى الرغم من أن الرومان باعتمادهم فى استخدامهم للكسور على $\frac{1}{12}$ ومضاعفاتها، فإنهم نجحوا فى التعبير عن سدس وثلث ونصف. وعلى الرغم من أن التعبير الحديث عن ربع هو $\frac{1}{4}$ ، فإن الرومان عبروا عن ربع بأنه $\frac{3}{12}$ أنسيات ($\frac{3}{12} = \frac{1}{4}$) وأتاح هذا النظام للرومان أن يقربوا الموازين، لكنهم لم يتمكنوا بسهولة من التعبير عن المقاييس بدقة.

وثمة نقطة ضعف أخرى حدثت من فاعلية الرياضيات الرومانية هي غياب مفهوم الصفر. ومثلما كان الحال مع أنظمة الأرقام السابقة عند السومريين والبابليين والمصريين، لم يكن لدى الرومان نظام للقيمة الموقعية (الخانات) للرقم يتضمن خانة للصفر كمشاغل لموقع بديل عن الأرقام. وكان ذلك مما أجبر الرومان على تبني نظام أعداد مزعج به أرقام تمثل ١ وه و ١٠ وه و ٥٠ وه و ١٠٠ وه و ٥٠٠ وه و ١٠٠٠، الذي تحدثنا عنه آنفاً. وبخلاف اليونان الأقدمين، لم يستوعب الرومان أيضاً فكرة الأعداد الصماء ولم يحاولوا الخوض في محاولة استكشافها. وأضعف ذلك كثيراً من الهندسة الرومانية، لأن جانباً كبيراً من الهندسة يعتمد على فهم π (ط)، وهي النسبة بين محيط الدائرة ونصف قطرها.

وعلى الرغم من أن نقاط الضعف هذه في الأنظمة الرياضياتية الرومانية لم تؤثر في الهندسة من جوانبها العلمية، فإنها حدثت من التقدم في الرياضيات النظرية في روما. وفي أعقاب الغزوات الرومانية تبنت غالبية أوروبا النظام الرقمي الروماني واستخدمته طوال العصور الوسطى. وتبعاً لذلك، توقفت الرياضيات النظرية بالمثل عن النمو والتقدم في أغلب أنحاء الحضارة الغربية لما يقرب من ألف عام. وترتب على غياب الصفر والأعداد الصماء والكسور غير الدقيقة وغير العملية وصعوبات عمليات الضرب والقسمة حرمان الرومان والأوروبيين الذين استخدموا النظام بعد ذلك من إحراز أى تقدم في نظرية الأرقام والهندسة على غرار ما فعل الإغريق في المدارس الفيثاغورية والإقليدية.

وفي أثناء تلك العصور المظلمة الرياضياتية، حدث تقدم في هذه المجالات في الحضارات الشرق أوسطية وحضارات شبه القارة الهندية. ومع ابتكار خانة لاستخدام الصفر في النظام الهندي - العربي للقيمة الموقعية للعدد تمت تحسينات ضخمة في تلك المناطق في مجالات الهندسة ونظرية الأرقام، كما ابتكر علم الجبر وحدث تقدم كبير فيه.

ويغض النظر عن محدودية النظام الرومانى للأرقام ونقاط ضعفه، يؤكد السجل الأثرى الحالى أن الرومان تمكنوا من التغلب على العديد من نقاط الضعف تلك فيما يتعلق بالنواحى العملية للتشييد والبناء. وتبقى الطرق الرومانية وقنوات مد المدن بالمياه شاهداً على المنجزات الهندسية التى نجح الرومان فى تحقيقها على الرغم من نظامهم المعيب. وعلى الرغم من أن الأرقام الرومانية لم تعد مكوناً ضرورياً للرياضيات، فإنها جزء مهم من تاريخ تطور الحضارة الغربية. وتبرز أهمية الأرقام الحديثة من الناحية الجمالية نظراً لانتشارها الواسع فى الفن والمعمار والطباعة.

جوزيف ب. هايدر (JOSEPH P. HYDER)

لمزيد من القراءة

Helfman, Elizabeth. Signs and Symbols around the World. New York: Lothrop, Lee & Shepard Co., 1967.

Lindberg, David C. The Beginnings of Western Science. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

نشأة الصفر

نظرة شاملة

اخترع الصفر ثلاث مرات فى تاريخ الرياضيات. فقد اخترع كل من البابليين والمايا والهنود رمزاً ليمثل لاشيء، غير أن الهنود انفردوا بإدراك أهمية ما يمثله الصفر. ونستخدم اليوم سلبلاً للصفر الهندى، الذى كانت له رحلة طويلة ولاقى مقاومة شرسة حتى تم تقبله أخيراً فى الغرب.

الخلفية

قبل أن يحدث أى اختراع فى مجتمع ما ويتم تقبله، لابد أن تكون ثمة حاجة إليه. ومن بين الأسباب التى أدت إلى عدم ابتكار الصفر فى نفس وقت ابتكار الأرقام الأخرى هى أن العديد من أنظمة الأرقام المبكرة لم يكن لديها احتياج حقيقى لوجود رمز يمثّل "لاشئ". وقد يبدو ذلك غريباً، ولكن حتى اليوم نادراً ما نستخدم مصطلح "صفر" فى حديثنا اليومي. فنحن نقول: "لا يوجد تفاح" ولا نقول "هناك صفر تفاح".

وقد رَمَزَت أنظمة الأرقام المصرية واليونانية والرومانية إلى كل رقم بمجموعة فريدة من الرموز. فنجد، على سبيل المثال، أن العدد ٢٣ تمثله الرموز - XXIII عشرتان وثلاثة أحاد - بينما نجد أن ٢٠٣ يمثله CCIII. وثمة عيبان كبيران مع نظام من هذا القبيل، أولهما، أن عدد الرموز المطلوبة لتمثيل بعض الأرقام قد يكون كبيراً. فمثلاً: الرقم ٢٢٨ تمثله الرموز CCCXXVIII. غير أن الأهم من ذلك هو أن مثل هذا النظام يجعل

الحسابات المعقدة بالغة الصعوبة. وتكفينا صعوبة الجمع والطرح فى النظام الرومانى، ولنحرب عمليات الضرب والقسمة كبرهان على ذلك.

كانت هناك أنواع أخرى من أنظمة الأرقام نشأت لديها فى نهاية الأمر الحاجة إلى رمز يمثل "لاشىء". ويستخدم نظام القيمة الموضعية للأرقام (الخانات) مجموعة صغيرة من الأرقام فى خانات مختلفة بهدف تحديد القيمة. والنظام العشرى الحديث الذى نستخدمه اليوم مثال لمثل هذا النظام، بما فيه من خانة للأحاد وأخرى للعشرات وثالثة للمئات، وهلم جراً. وبذلك يكتب العدد ستمئة وسبعة وعشرين هكذا ٦٢٧، أو ٦ مئات و٢ عشرات و٧ أحاد.

كانت الحسابات اليومية فى العالم القديم تتم باستخدام ألواح العد أو "المعداد"، الذى كان يتيح إجراء حسابات سريعة ومبسطة من الجمع والطرح. فكل عمود على "المعداد" يمثل موقعاً مختلفاً فى نظام الأرقام. وفى "معداد" عشرى يمثل العمود الأول الأحاد والعمود التالى يمثل العشرات، ويمثل العمود الثالث المئات، وهكذا. وكمية الخرز فى كل عمود تمثل العدد كما نراه.

غير أن نظام خانات الأعداد تنشأ به مشكلة عندما تدعو الحاجة إلى تمثيل رقم ليست له أية قيمة فى أى موقع. فمثلاً، إذا حصلت على نتيجة على معداد مقدارها ثلاثمئة واثنان، أو ثلاث خرزات فى عمود المئات، ولا شيء فى عمود العشرات، واثنان فى عمود الأحاد. ومن اليسير كتابة مثل هذا الرقم فى النظام الرومانى على النحو التالى IIII، ولكن المشكلة تظهر عند كتابته بنظام القيمة الموضعية للأرقام (الخانات)، دون وجود رمز يمثل "لاشىء".

التأثير

اخترع الصفر ثلاث مرات مستقلة عن بعضها. وفى كل مرة ظهرت الحاجة إليه ليشغل موقعاً فى نظام القيمة الموضعية للأرقام. واستخدم البابليون أعداداً منبثية على

الرقم "٦٠"، وهو النظام الستيني. وما زلنا نستخدم هذا النظام فى قياس الدقائق فى الساعة، والدرجات فى الدائرة ($360 = 60 \times 6$).

وبدون الصفر كان الكتابة البابليون يواجهون مشكلة تسجيل أرقام ليس لها قيمة فى موقع معين. وفى بادىء الأمر كانوا يتركون فراغاً بين الأرقام مثلما نكتب مئتين وأربعة على صورة ٢٤. غير أنه لم يحدث أن كل كاتب اتبع هذه القاعدة، وعندما كانت الوثائق تُنسخ كثيراً ما كان النساخ يهملون ترك الفراغات. وحتى عندما كانت القاعدة تُتبع كانت من الصعب أن تميز رقماً مثل ٢٠٤ من ٢٠٠٤، لأن كليهما كان يُكتب ٢٤.

ثم حدث فى وقت ما من القرن الثالث ق.م. أن كاتباً مجهولاً بدأ يستخدم رمزاً ليرمز إلى موقع ليست به قيمة عددية، وبهذا ظهر أول صفر إلى الوجود. ومع وجود رمز للصفر توقفت البلبلة حول أرقام مثل ٢٠٤ و ٢٠٠٤.

غير أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه البابليون أن يدعوا أنهم أول من استخدموا الصفر، إلا أنهم لم يفهموه وفقاً للمفاهيم الحديثة. فصفرهم لم يكن يمثل رقماً فى حد ذاته، بل مجرد شاغل لمكان. وكانت فكرة الصفر لا تزال غامضة.

كما تجنب البابليون أن ينهوا الأرقام بالأصفار. ويبدو ذلك فى نظامنا وكأنما نكتب ٢ عوضاً عن ٣٠٠٠. ولكنك قد تكتب ٣٠ على أنها ٣، و٢ على أنها ٢، مما يصعب التفرقة بينها. واعتمد القراء البابليون على السياق كى يحددوا قيمة مثل تلك الأعداد. ونحن نفعل ذلك أيضاً إلى حد ما. فنحن إذا أخبرنا أحد أن برتقالة تساوى ١٥ فنحن نفترض أنه يقصد ١٥ قرشاً، أما إذا أخبرنا أن كتاباً يساوى ١٥ فسوف نفترض أن المقصود ١٥ جنيهاً. ولم يكن الفلكيون البابليون يعتمدون على السياق فكانوا يستخدمون الصفر فى نهاية الأعداد مثلما نفعل نحن، لأن ذلك يمكنهم من تحديد درجات المنحنىات الفلكية ودقائقها بصورة أدق. غير أن ابتكارهم لم يكن مقبولاً على مستوى المجتمع العريض.

التقى العالم الإغريقي بالصفير البابلي بوصفه من غنائم غزوات الإسكندر الأكبر (٢٥٦-٢٢٢ ق.م). غير أن غالبية الإغريق لم يجدوا له فائدة، لأن نظام أعدادهم لم يكن نظاماً لخانات الأعداد. كما أن فكرة الصفير أثارت بعض الأفكار الفلسفية المقلقة، وتعارضت مع تعاليم أرسطو (٢٨٤-٢٢٢ ق.م). ومرة ثانية، وعلى شاكلة البابليين، اقتصر استخدام الصفير على الفلكيين الإغريق، لأن فوائده لهم فاقت المشاكل التي تسبب فيها.

وبعد اكتشاف البابليين للصفير بسبعة قرون، وعلى مبعده نصف عالم، ابتكرت حضارة أخرى تستخدم أيضاً نظام أرقام ذى قيمة موقعية للأعداد، ابتكرت أيضاً صفراً خاصاً بهم. فقد طور شعب المايا فى أمريكا الجنوبية نظاماً متطوراً ومعقداً لتسجيل الوقت. واستخدموا عدداً من التقاويم المختلفة لأغراض شتى، كان من بينها خوفهم الدينى من انتهاء العالم يوماً ما إذا ما نفذ الوقت من التقاويم.

استخدم المايا نظاماً للقيمة الموضعية للرقم يعتمد على "٢٠" كقاعدة، رغم أن الموقع الثانى لم يتجاوز ١٨. وفى وقت ما من القرن الرابع مع اشتداد الحاجة إلى شغل موقع ليست له قيمة عددية أدى ذلك إلى ابتكارهم للصفير. وكان لديهم عدة أشكال لرمز الصفير ما بين شيء يشبه الوعاء إلى ما يشبه وجهاً معقداً. غير أن المايا لم يستخدموا الصفير فى أى مجال أوسع، مثلهم فى ذلك مثل البابليين. فبقى مجرد شاغل لموقع، وبقى نظام أعدادهم محدوداً فى حساباته.

حدث الاختراع الثالث للصفير فى الهند، على الرغم من أن بعض الثقافة لا تزال تجادل بأن الصفير البابلى ربما هو الذى انتقل إلى الهند. ومرة ثانية، ابتكر الصفير فى الهند لحاجتهم إلى ما يشغل موقعاً.

كانت الأرقام فى الرياضيات الهندية تُكتب أيضاً ككلمات رمزية، مما جعل الرياضيات أشبه ما تكون بالشعر، وكان لذلك ميزة إضافية هو أن ذلك جعل النسخ أمراً بالغ الدقة. ويعود تاريخ أول استخدام لكلمة رياضياتية يؤدى معنى الصفير إلى

نص يتناول الكونيات يرجع تاريخه إلى ٤٥٨ م، وأقدم استخدام فى الهند لرقم يعبر عن الصفر يرجع تاريخه إلى ٦٢٨ م. وفيما بين التاريخين، يبدو أن فكرة الصفر قد تقبلتها الرياضيات الهندية تقبلاً حسناً.

غير أن الهنود، بخلاف المايا والبابليين من قبلهم، استوعبوا أن الصفر هو أكثر من مجرد شاغل لموقع. ولعلمهم بسبب تمثيلهم للأرقام بكلمات رموزية أدركوا أن الصفر يمثل غياب كمية ما. كانت تلك خطوة كبرى، لأنها مكنت الرياضيات من البدء فى استخدام الصفر فى الحسابات المدونة.

كانت كل الحسابات فى السابق تُجرى على ألواح العد والمعدادات. وباستخدام الصفر كشاغل لموقع فى أى خانة من الخانات بات من اليسير فهم الأرقام المكتوبة بمثل سهولة فهم الأرقام على لوحات العد. ومع القدرة على تدوين كل الأرقام بدقة فوق سطح من الأسطح، صار من الممكن تسجيل خطوات أية حسابات وليس مجرد تسجيل النتائج. وأفرخ ذلك اهتماماً بقواعد الحسابات، الأمر الذى نتج عنه ميلاد الجبر.

ومن الهند انتشر استخدام الصفر إلى كمبوديا فى القرن السابع، ووصل الصين بعد ذلك بقليل. وبحلول القرن الثامن كان الصفر الهندى قد وصل بلاد العرب، حيث تبناه هناك مع كل مجموعة الأرقام الهندية. وهذه هى الأرقام التى نستخدمها اليوم، وأحياناً يُطلق عليها اسم الأرقام العربية، رغم نشأتها فى الهند. وتسبب تقبل الصفر الهندى فى حدوث ثورة فى العلوم العربية، لا مجرد تسهيل إجراء الحسابات. استوعب العرب الكثير من الأفكار اليونانية، وكان عليهم أن يتعاملوا مع نفس المشاكل الفلسفية التى حدت بالإغريق إلى نبذ الصفر. وعلى وجه الخصوص، تعارض الصفر مع رفض أرسطو للخواء، ولهذا كان تقبل الصفر إنكاراً لأحد أركان الفلسفة اليونانية.

وفى النهاية وصل الصفر إلى أوروبا فى القرن الثانى عشر، ولكنه لم يُرحب به بأذرع مفتوحة. فقد كانت الكنيسة المسيحية قد ربطت بين الإنجيل وتعاليم أرسطو،

وأعدت تفسير الأفكار اليونانية الوثنية، حيث أصبح برهاناً على وجود الرب. غير أن التجار الأوربيين وجدوا فى الصفر أداة بالغة الأهمية فى التجارة وفى نهاية المطاف تم تقبله كجزء من الرياضيات الأوربية.

ولا يزال الصفر مثيراً للجدل حتى اليوم. فكثيراً ما تستثير الجدل إذا سألت أى شخص عن حصيلة قسمة أى عدد على صفر. أو إذا سألت كم صفراً يحويه العدد ٥؟ والإجابة البسيطة هى أنك لا تستطيع القسمة على صفر تحت أى ظرف من الظروف، ولكن ليس من الواضح سبب إثارة مثل هذه القضية. وكانت النشأة المتأخرة للصفر وبطء وصعوبة انتقاله عبر العالم مرتبطة بطريقة بالغة الغرابة بالمشاكل الفلسفية والثقافية المعقدة التى يثيرها الرقم.

دافيد تلوک (DAVID TULLOCH)

لمزيد من القراءة

Kaplan, Robert. The Nothing That Is: A Natural History of the Zero. Oxford: Oxford University Press, 1999.

Reid, Constance. From Zero to Infinity: What Makes Numbers Interesting 4th ed. Mathematical Association of America, 1992.

Seife, Charles. Zero: The Biography of a Dangerous Idea. New York: Viking, 2000.

سير حياة مختصرة

أبقراط الكيوسى (Hippocrates of Chios) رياضياتى إغريقى
(ح ٤٧٠ - ح ٤١٠ ق.م.)

أطلق عليه أبقراط الكيوسى للتمييز بينه وبين أبقراط الأشهر منه وهو أبقراط الطبيب، ويعتبر أعظم رياضياتى القرن الخامس ق.م. وألف أول كتاب فى الهندسة، ذكر فيه مسائل مثل تربيع الدائرة ومضاعفة المكعب.

كانت منجزات أبقراط بارزة على وجه الخصوص فى ضوء حقيقة أنه بدأ حياته كرياضياتى فى فترة متأخرة من حياته. ومن المؤكد أنه لم يستقر على هذا التخصص فى شبابه؛ بل على العكس من ذلك، كان انغماسه فى الرياضيات نتيجة غير مباشرة لسوء حظ أصابه. فمن الجلى أنه كان لديه عمل ناجح بوصفه تاجراً حتى هاجمه قراصنة أثينيون بالقرب من بيزنطة، رغم أن رواية أخرى تصور مهاجميه كموظفى جمارك خربى الذم استولوا على بضائعه وهددوه بالسجن إن هو شكاً.

ويبدو أن أبقراط توجه بعد ذلك إلى أثينا بحثاً عن تعويض قانونى، وبينما كان منتظراً عرض قضيته على المحكمة، حضر محاضرات عن الرياضيات والفلسفة. وفى ذلك الوقت وقع تحت تأثير المدرسة الرياضياتية التى كانت تقوم على مبادئ فيثاغورس (ح ٥٨٠ - ح ٥٠٠ ق.م.)، ويمرور الوقت كان قد وصل إلى درجة من الإتقان كرياضياتى، حيث افتتح مدرسته الفيثاغورية الخاصة. وكان فيثاغورس يحرم على تلاميذه تكسب المال من خلال معارفهم الرياضياتية، ولكن فيثاغورىي أثينا استثنوا أبقراط من هذه القاعدة نظراً لما مر به من مخنة مالية.

ومن بين الميراث الذى خلفه أبقراط كتاب مرجعى فى الرياضيات، ضاع منذ أمد طويل، بعنوان "مبادئ الهندسة". ويوصفه أول عمل من نوعه، كان له تأثير عميق على كتاب آخر بعنوان مماثل، وهو الكتاب العظيم الأثر "المبادئ" لإقليدس (ح ٣٢٥-٢٥٠ ق.م). وفى هذا الكتاب، الذى عُرف من خلال كتابات أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) وبيروكلوس (٤١٠؟-٤٨٥ م) وغيرهما، صار أبقراط أول رياضياتى يتبنى منهاجاً منطقياً ودقيقاً لتطوير نظريات هندسية من بديهيات وفرضيات. ومن المحتمل أيضاً أن "مبادئ الهندسة" كان يحتوى على أول تفسيرات مكتوبة للمبادئ الفيثاغورية، لأن الفيثاغوريين الذين سبقوه لم يكونوا مؤمنين بجذوى وضع أفكارهم كتابة.

ومن بين الموضوعات الأخرى التى احتوى عليها الكتاب المعضلة الديلوسية وهى مضاعفة المكعب. وفى محاولته لحلها، أصبح أبقراط أول رياضياتى يستخدم الاختزال: بمعنى تحويل مسألة صعبة إلى صورة أبسط، تسمح بعد حلها بتطبيق الحل على المسألة الأصلية. وفيما بعد، طبق دينوستراتوس (Dinostratus) (ح ٣٩٠-٣٢٠ ق.م.) تلك الفكرة فى بناء المنحنى التربيعى لتربيع الدائرة، وكذلك استخدم تارتاجليا (Tartaglia) (نيكولو فونتانا، ١٤٩٩-١٥٥٧) نفس الفكرة فى حل المعادلات التكعيبية بعد أبقراط بألفى عام. واكتشف أبقراط، باستخدامه للاختزال، أن التوصل إلى متوسط التناسيبات هو مفتاح مضاعفة حجم المكعب - وهو مبدأ أحدث ثورة فى تناول الرياضياتيين الإغريق للمسألة.

كان تربيعة أبقراط للشقة الهلالية، وهو شكل هلالى، يمثل محاولة لحل مسألة أخرى طال وجودها بين الرياضياتيين الإغريق، وهى تربيعة الدائرة. شرع أبقراط فى تربيعة الشقة الهلالية بادئاً من فكرة أن نسبة المساحة بين دائرتين تساوى نسبة المساحة بين مربعى أنصاف أقطارهما، بمعنى أنه كان يحاول التوصل إلى مربع مساحته تساوى مساحة شقة هلالية معينة. وكانت الطريقة التى اتبعها بالغة التعقيد، ولكنها فى جوهرها استغلت فكرته عن الاختزال بالتوصل إلى ارتباط بين خط مستقيم معين وخط منحن.

ومما له مغزى أيضاً استخدام أبقراط لمبدأ دليل الخُلف (reduction ad absurdum)، وهى طريقة يبدو أنه هو من استتبطنها. وهذه الطريقة نجدها اليوم فى الأسلوب العلمى، وتتلخص فى إثبات رأى ما، هو عكس الرأى المستهدف إثباته؛ وبذلك تثبت صحة الرأى الأول. وبصورة مماثلة، يبذل عالم قصارى جهده لكى يثبت خطأ فرضياته، فإذا ما نجحت فكرة فى اجتياز هذا الاختبار يتم الاعتراف بها رسمياً كمنظرية. (وعلى النقيض من ذلك، نجد أن العالم المزيف يبدأ باستنتاج ثم يبحث عن أدلة تدعمه، وفى نفس الوقت يتجاهل الحقائق التى لا تؤيده).

وإضافة إلى أعماله الرياضياتية أجرى أبقراط أيضاً أبحاثاً فلكية. غير أن ما أعاقه كان انحيازه للأفكار الفيثاغورية وتمسكه بها مثل الادعاء بأنه لا وجود إلا للمذنب واحد لا يفتأ يعاود الظهور كل حين.

جدسون نايت

أبولونيوس البرجاوى (Apollonius of Perga) رياضياتى إغريقى

(ح ٢٦٢-١٩٠ ق.م.).

على الرغم من أنه اشتهر باسم "الإختصاصى العظيم بعلم الهندسة" فإن ذلك اللقب لا يوفى أبولونيوس البرجاوى ولا تاريخه المهنى حقه، فقد وضع كتابه "هندسة المخروطات" الأسس للعلوم التى لعب فيها نيوتن دوراً وهى الفلك والمقذوفات والصواريخ وعلوم الفضاء - وكل ما جرى فى الألفى سنة التالية التى مرت منذ أن ألف كتابه - الذى يناقش فيه المقاطع المخروطية، ويصف الأشكال التى تكونها مسارات المقذوفات. ابتكر أبولونيوس نظاماً للعد خاصاً بالأعداد الكبيرة، وطرح نظرية رياضياتية جديدة مهدت الطريق لنشأة حساب التفاضل والتكامل متناهى الصغر بعد ذلك بقرون عديدة.

ولد أبولونيوس بمدينة برجا فى جنوبى آسيا الصغرى (تركيا الحالية)، وفيما بعد درس الهندسة الإقليدية فى الإسكندرية. كما زار برجاموم وإفيسوس، وهما مدينتان مهمتان فى آسيا الصغرى. وإضافة إلى كتابه "هندسة المخروطات" ألف عدداً من الكتب فى تخصصات أخرى ضاعت كلها، ولكن عناوينها تشمل "الحلول السريعة، والميول"، و"المواقع الهندسية المستوية"، و"اختصار النسبة" و"اختصار المساحات". وقام بابوس (Pappus) (اشتھر ٢٢٠ م)، وهو المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن تلك الأعمال الضائعة، قام بكتابة ملخصات لما جاء فيها. كما أشار كُتَّاب قدماء إلى كتابات ضائعة لبابوس مثل مناقشته "للمرايا الحارقة" واستخدامها فى الأغراض الحربية التى دحض فيها الادعاء بأن الأشعة المتوازية يمكن تركيزها فى بؤرة واحدة بإسقاطها على مرآة كروية.

غير أن أهم كتاب لأبولونيوس ترك أثراً كان كتاب "هندسة المخروطات" الذى كان يتكون من ثمانية كتب تحوى ما يقرب من ٤٠٠ نظرية. وفى هذه المقالة الرائعة وضع طريقة جديدة لتقسيم مخروط لينتج دوائر، وناقش القطوع الناقصة والقطوع المكافئة والقطوع الزائدة - وهى أشكال كان هو أول من وصفها وأطلق عليها أسماءها. وبدلاً من المجالات المتراكزة التى استخدمها يودوكسوس (Eudoxus) (ح ٤٠٠- ح ٢٥٠ ق.م.) اقترح أبولونيوس "ما حول الدائرة" و"الفلك الدوار" [دائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر منها]، واللامتراكزات [أى الدوائر غير المتحدة المركز]، وهى أفكار تركت أثرها على أفكار بطليموس (ح ١٠٠-١٧٠ م) الخاصة بالكون فيما بعد. بل والأهم من ذلك هو تأيه عن النزعة الفيثاغورية بتجنب المطلق والكميات متناهية الصغر: بأن فتح أذهان الرياضياتيين على تلك النهايات المتطرفة، فساعد على إمكانية نشأة التفاضل والتكامل بعد ألفى سنة.

فى الأجزاء الأربعة الأولى من "هندسة المخروطات" تفحص أبولونيوس أفكار الهندسة التى وصلت إليه من إقليدس (ح ٢٢٥-٢٥٠ ق.م.) وغيره، وداوم على القول بأنه جعل من الممكن ولأول مرة حل المسائل الإقليدية مثل: تحديد المحل

الهندسى بالنسبة إلى ثلاثة أو أربعة خطوط. وفى الجزء الثانى من "هندسة المخروطات" ناقش المقاطع المخروطية، وواجه مشاكل مثل تحديد النقطة "القياسية" على منحنى.

قدم "هندسة المخروطات" ما صار يعرف باسم "مسألة أبولونيوس"، بمعنى إنشاء دائرة متماسة مع ثلاث دوائر، وناقش وسيلة لتحديد النقطة التى عندها يبدأ فيها كوكب سيار فى اتخاذ مسار ارتجاعى ظاهرى. غير أن أهم ما جاء فى هذا العمل الهائل لم يكن أى مسألة من المسائل التى وردت به وإنما التناول الشامل لأبولونيوس للموضوعات الذى فتح أذهان الرياضياتيين على فكرة استنتاج المقاطع المخروطية بالنظر إلى المخروطات من زوايا متعددة. وباستخدام الأوتار البؤرية العمودية والمستعرضة استبق أبولونيوس نظام الإحداثيات الذى طُبّق فيما بعد فى الهندسة التحليلية.

استمرت أعمال أبولونيوس تلهم المفكرين والرياضياتيين طوال العصور، بدءاً من هيبارخوس (Hipparchus) (اشتهر ١٤٦-١٢٧ ق.م.) وهيباتشيا السكندرية (ح ٢٧٠-٤١٥ م). وقد ضاع آخر جزء من "هندسة المخروطات"، ومن بين من حاولوا إعادة كتابته كان ابن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩) وإدموند هالى (Edmond Halley) (١٦٥٦-١٧٤٢) وبيير دى فيرمات (Pierre de Fermat) (١٦٠١-١٦٦٥) وحتى اليوم لا يزال الرياضياتيون يتدارسون أعمال أبولونيوس ويجدون فيها تطبيقات لمسائل وأوضاع لم يكونوا يتخيلونها.

جدسون نايت (JUDSON KNIGHT)

أرخيتاس التارنتومى (Archytas of Tarentum) رياضياتى إغريقى

(ح ٤٢٨-٣٥٠ ق.م.)

إن منجزات أرخيتاس كرياضياتى فى حد ذاتها لتشهد له بالامتياز والتفوق: فهو لم يكتف بكونه أول من أدمج الرياضيات وعلوم الميكانيكا سوياً ولكنه صاغ المتوسط التوافقى كوسيلة لحل مسألة مضاعفة المكعب. غير أن منجزات أرخيتاس كانت خارج عالم الرياضيات: فلم يكن فيلسوفاً فحسب، وإنما كان سياسياً عظيماً وقائداً عسكرياً. وكانسان نال الإعجاب أيضاً لأعمال الخير التى كان يقوم بها، وواحدة منها كان مقدرًا لها أن تغير التاريخ بصورة حرفية.

ولعله ولد فى تارنتوم (تارانتو الحالية فى إيطاليا)، ونشأ فى الوقت الذى كانت فيه الدول الإغريقية لا تزال تسيطر على البحر المتوسط. وكانت سيراكوز فى صقلية من بين أقوى تلك الدول، وكان قائدها الطاغية ديونيسيوس الكبير (Dionysius the Elder) (ح ٤٣٠-٣٦٧ ق.م.) قد بدأ يغزو أجزاء من الأراضى الإيطالية. وكان بذلك قد طرد غالبية الفيثاغوريين من الجزء الجنوبى لشبه الجزيرة الإيطالية، وكانت المدرسة فى تارنتوم آخر المعاهد المحلية المخصصة لأفكار فيثاغورس (ح ٥٨٠-٥٠٠ ق.م.).

ومن المحتمل أن أرخيتاس أثناء ما كان يقوم بالتدريس فى مدرسة تارنتوم كان من بين تلاميذه رجل قُدر له أن يصبح واحداً من أهم المفكرين ذوى التأثير على مر العصور وهو أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)، الذى يكاد يكون معاصراً له. وعلى أية حال، لعب أرخيتاس دوراً فى تاريخ الفكر الغربى بإنقاذه الفيلسوف الكبير من الإعدام على يد ديونيسيوس الأصغر، الذى خلف أباه سنة ٣٦٧ ق.م.

ذهب أفلاطون إلى صقلية ليعمل معلماً للطاغية الصغير، غير أن الأخير أبدى اهتماماً أكبر بالسكر والعريضة أكثر من التعلم. ولكى يلتمس ديونيسيوس نريعة يتحجج بها لطرده معلمه فإنه صدق على الفور قصة ادعاها موظف حاقد بأن تعاليم

أفلاطون كانت جزءاً من مؤامرة أثينية للسيطرة على صقلية. ولم ينقذ حياته إلا خطاب من أرخيتاس فى الوقت الذى لم يكن فيه أفلاطون قد كتب أعظم أعماله بعد.

غير أن ذلك لم يكن إنجاز أرخيتاس الوحيد فى الفكر. فبتطبيق المبادئ الرياضياتية على استخدام البكرة والبراغى كان أرخيتاس أول من زواج بين الرياضيات والميكانيكا، وفيما بعد كتب مقالاً عن الجمع بين هذين الفرعين من العلوم. كما ناقش أيضاً نظرية المتوسطات، وفرق بين الوسائل الرياضياتية والهندسية والتناسقية. وعلى الرغم من أنه لم يطور الفكرة الأخيرة، فإن أرخيتاس كان هو من منح المتوسط التوافقى اسمه - وكان فى السابق يسمى "ما تحت الضدية".

وقد نشأ بحث الوسيلة التناسقية أثناء ما كان أرخيتاس يعمل على حل مسألة مضاعفة المكعب. وكان ذلك تحدياً أصعب مما بدا لأول وهلة، لأنه إذا ضاعف المرء كل جوانب المكعب فلن يكون حجم الشكل الناتج ضعف المكعب وإنما ثمانية أضعاف الحجم الأصلي. ولم يكن ابتكار أرخيتاس يقتصر على استخدامه متوسطى نسبتيّن للتعامل مع المسألة، وإنما فى استخدامه لنصف دائرة تدور فى فراغ ثلاثى الأبعاد كوسيلة لتحديد الوسيلة التناسقية. وبهذا كان أرخيتاس من بين أوائل من أدخلوا الحركة فى الهندسة.

كما يُنسب إليه أيضاً فضل إضافة الكثير إلى عدد نظريات الهندسة المعروفة، وكذلك غالبية الأفكار التى وردت فى الجزء الرابع من كتاب "المبادئ" لإقليدس (ح ٢٢٥ - ح ٢٥٠ ق.م.) صاحب التأثير العميق. واتساقاً مع الأفكار الفيثاغورية كان أرخيتاس مهتماً بتطبيق الرياضيات فى الموسيقى، وبحث فى النسب العددية بين النغمات الموسيقية. غير أن العلماء كثيراً ما انتقدوه، لعدم التزامه دائماً بتقديم شروح وتفسير واضحة للنتائج التى كان يتوصل إليها.

ولعل أحد التعليقات لذلك أن أرخيتاس كان مشغول الذهن بأمر آخرى. فقد كان شخصية بالغة التأثير فى "بلاد اليونان العظمى" (Magna Grecia)، كما كان يُطلق على المناطق فى إيطاليا التى يسيطر عليها اليونانيون، وانتخبه اتحاد كونفيدرالى من

الدول-المدن قائداً عاماً، واشتهر بأنه دخل سلسلة لا تنقطع من الانتصارات العسكرية، كما كتب في موضوعات فلسفية، لم يتبق منها إلا القليل - كما ضاعت أيضاً ثلاثة أعمال كتبها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) تتناول فلسفة أرخيتاس.

كما نال أرخيتاس أيضاً الإعجاب العام لنبل أخلاقه وطيبة قلبه، التي وضحت بوجه خاص في معاملته لعييده وشغفه بالأطفال الصغار والرضع. وأدى هذا السلوك الأخير إلى قيامه بتطبيق اهتماماته بالرياضيات والميكانيكا في ابتكار لعبتين للأطفال، هما: حمامة ميكانيكية طائرة، وخشخيشة، ووفقاً لما قرره الشاعر هوراشيو (Horace) (65-8 ق.م.) مات أرخيتاس نتيجة غرق سفينة كان يستقلها في بحر الأدرياتيكى.

جدسون نايت



أرخيتاس التارنتومى

أريستايوس الأكبر (Aristaeus the Elder) رياضياتي إغريقي

(ح ٣٧٠ - ح ٣٩٩ ق.م.)

لا يعرف عن تفاصيل حياة أريستايوس الأكبر إلا النذر اليسير، كما أن القائمة التي تضم كتاباته - التي ضاعت كلها - هي موضع شكوك. ولعل مرد بعض ذلك يعود إلى التضارب مع شخصية أقل شهرة وهو أريستايوس الأصغر. غير أن المؤرخين يعرفون عن أريستايوس الأكبر أنه كان من بين واضعي نظرية المخروطات والمقاطع المخروطية، وهو رجل قال عنه معاصره الشهير إقليدس (ح ٣٢٥-٢٥٠ ق.م.) أنه "كان رياضياتياً ذا قيمة رفيعة".

جاءت المعلومات القليلة المعروفة عن أريستايوس من كتابات بابوس (Pappus) (اشتهر ح ٣٢٠م) الذي عاش بعده بستة قرون. أشار بابوس في كتابه "خزانة التحليل" (Treasury of Analysis) إلى أريستايوس بوصفه "الأكبر"، مما استنتج منه أن هناك أريستايوس آخر ولد بعده؛ غير أن ذلك كان الإشارة الوحيدة إلى وجود أريستايوس آخر عاش على ظهر الأرض.

في زمن بابوس، كانت لا تزال هناك نسخ من كتاب "خمسة كتب تتناول المحل الهندسي للجوامد" (Five Books Concerning Solid Loci)، واستخدم الكتاب المتأخرون هذا الكتاب بوصفه مصدراً عند مناقشتهم لأفكار أريستايوس. كانت مادة الكتاب تتناول أقواس المخروطات وخطوطها ونقاطها، وأثنى عليه إقليدس فيما بعد ونسب إليه الفضل في أنه كان مصدر الكثير مما كتبه عن المخروطات في الكتاب الثامن من "المبادئ". (وفي الحق، يمكن اعتبار "المبادئ" نسخة معدلة لجزء واحد على الأقل من كتاب أريستايوس "خمسة كتب"، حررها وأضاف إليها إقليدس إضافات كثيرة).

ووفقاً لما كتبه هيبسيكليس (Hypsicles) (ح ١٩٠ - ح ١٢٠ ق.م.)، كتب أريستايوس كتاباً آخر عنوانه "مقارنة بين الجوامد الخمسة المنتظمة"

(Comparison of the Five Regular Solids)، ويُفترض أنه ابتكر نظرية طبقها أبولونيوس (ح ٢٦٢ - ح ١٩٠ ق.م.) فيما بعد عند عرضه لنظريته الخاصة المفصلة عن المقاطع المخروطية. غير أن بعض المؤرخين يعتقد أن "المقارنة" قد كتبها أريستايوس الأصغر المفترض وجوده.

ومما زاد في الارتباك والغموض الذي أحاط بأريستايوس الأكبر وجود كلمة "خمسة" في عنوان كتابه الثانى التى تسترجع إلى الأذهان اسم كتاب "خمسة كتب". بل إن الأمر الأكثر تذكيراً بعنوان كتاب أريستايوس الوحيد المؤكد نسبته إليه هو كتاب "خمسة كتب فى مبادئ المقاطع المخروطية" (Five Books of the Elements of Conic Sections). وهو كتاب آخر يُزعم أن أريستايوس ألفه، فإذا كان ذلك قد حدث حقاً فربما أنه ألفه للمزيد من توضيح المفاهيم التى تناولها فى كتابه "خمسة كتب تتناول المواقع الصلبة".

ويغض النظر عن تفاصيل حياة أريستايوس وتاريخه المهني وكتاباتة، فمن المؤكد أنه يتبوأ مكانة رفيعة فى تاريخ الهندسة الإغريقية قبيل إقليدس. وهو يعتبر، بالمشاركة مع إقليدس وأبولونيوس واحداً من الشخصيات الرائدة فى تطوير وتحليل المقاطع المخروطية.

جدسون نايت

أريابهاتا الأكبر رياضياتى وفلكى هندى

(٤٧٦-٤٥٥ م)

تبوأ كتابه "أريابهاتيا" مكانة رفيعة بين الرياضياتيين الهنود تقارن بالمكانة التي حازها كتاب "المبادئ" لإقليدس فى الغرب، ولكن أريابهاتا، مثله فى ذلك مثل كثيرين غيره من المفكرين الهنود، كان يعتبر الرياضيات فى مرتبة أدنى من الفلك. وفى الحقيقة، كانت غالبية منجزاته فى الرياضيات موجهة إلى خدمة دراساته عن الكواكب، إلا أن تأثيراته على تفكير العلماء فى الهند، وفيما بعد فى بلاد العرب، كانت بوصفه رياضياتياً. ويعود الفضل إلى أريابهاتا إلى حد كبير فى أن الرياضيات الهندية مرت بسلام من "الحقبة السولفاستراتية" (S'ulvastra period)، عندما وقعت الرياضيات تحت سيطرة الكهنة، وانتقلت إلى "الحقبة الفلكية" ذات التوجهات الأكثر علمية والتي استمرت حتى حوالى سنة ١٢٠٠.

فى القرن السادس، وهو الوقت الذى انحدرت فيه أوروبا إلى عصور الظلام، ولم تكن فيه بلاد العرب قد استيقظت بعد، كانت فى الهند بدايات مجتمع علمى مزدهر فى مدينة أوجاين فى وسط شبه القارة الهندية. غير أن أريابهاتا، وهو واحد من أعظم الرياضياتيين الذين أنجبته الهند، نشأ فى باتنا أو باتاليبوترا فى شرقى الهند. وهى مدينة كان عمرها وقتئذ ألف عام، وكانت قد تحولت منذ زمن إلى أطلال بعد أن كانت عاصمة الإمبراطورية الموريانية قبل قرون. والشاهد على الحالة المتردية التى آلت إليها المدينة أنها كانت مركزاً للخرافات والخزعبلات، حيث كان الكهنة لا يزالون يُعلّمون أن الأرض مسطحة وأن الفضاء يعج بأشكال خفية شيطانية تشبه الكواكب. وكان ترسخ تلك الأفكار مما زاد من قيمة منجزات أريابهاتا ورفع من شأنها.

وكان الشكل الذى كُتب فيه "أريابهاتيا" (٤٩٩ م)، وهو نفس القالب الشعري المستخدم فى الترفيه الاجتماعى، كان انعكاساً لمناخ التعليم فى الهند آنذاك: ففى جملة شهيرة من الكتاب العظيم، استخدم "أريابهاتيا" الفكرة الشعرية بإصدار أمر

"لعذراء جميلة" أن تجيب عن مسألة معكوسة. وكان موضوع التعاكس، في الحقيقة - وهو البدء بالحل ثم العمل بطريقة عكسية على التوصل إلى الخطوات التي أدت إليه - كان من بين الأفكار الجديدة العديدة التي أدخلها كتاب "أريابهاتيا".

ابتكر كتاب "أريابهاتيا" قواعد عديدة مختلفة في الرياضيات وحساب المثلثات بأن أتى بتعاليم قديمة للفلكيين اليونانيين والهنود، وأضاف إليها أريابهاتا من عندياته. كما احتوى أيضاً على عدد من "أوائل" الأفكار أو أشباه أوائلها، ومنها واحدة من أوائل ما سُجِّل من استخدامات الجبر. ويضاف إلى ذلك أنه كان من بين أوائل الكتب المرجعية التي اشتملت على فكرة القيمة الموضعية للأرقام (أى خانات العشرات والمئات والألوف ... إلخ). وكانت هذه الأفكار ذات تأثير بالغ عندما انتقلت غرباً، على غرار ما كان لفكرة أخرى استخدمها أريابهاتا في كتابه، وهى النظام الرقعى الهندى.

وإضافة لذلك، حسب أريابهاتا أكثر الأرقام دقة لـ "ط" حتى تلك الفترة من التاريخ، وفى قصيدته "جانيتا" - وهى قصيدة من ٣٢ مقطعاً - ذكر المعادلة الصحيحة لتحديد مساحة المثلث والدائرة. كما ابتكر حلاً للمعادلة الرباعية غير المحددة ($xy = ax + by + c$) وهو حل أعاد اكتشافه ليونارد يولر (Leonhard Euler) (١٧٠٧-١٧٨٣) بعد ما يربو على ١٢٠٠ سنة.

وكفلكى، أثبت أريابهاتا أنه ذو بصيرة فى فكرته بأن السبب فى أن النجوم والكواكب يبدو أنها تدور حول الأرض هو أن الأرض تدور حول محورها فى الوقت الذى تدور فيه حول الشمس. وسوف يمر ما يقارب الألف عام قبل أن يتوصل الفلكى الغربى نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) إلى نفس الفكرة.

جدسون نايت

إقليدس (Euclid) رياضياتي إغريقي

(٣٢٥؟ - ٢٥٠؟ ق.م.)

كتاب "المبادئ" لإقليدس هو إنجيل الهندسة لمدة ألفى عام، وهو أكثر الكتب تأثيراً على مر التاريخ، وواحد من الأعمال الرئيسية في الحضارة الإنسانية. ولهذا فمما هو مثير للسخرية أن الرجل الذي كتبه يشوبه غموض بلغ من شدته أن المؤرخين في أوقات مختلفة شككوا في وجوده أصلاً - أو أن كلمة "إقليدس" كانت في حقيقة أمرها اسماً لمجموعة من الرياضياتيين.

وفي الحق، فإن الوجود التاريخي لرجل يدعى إقليدس في الإسكندرية مؤلف كتاب "المبادئ"، يبدو حقيقياً بكل تأكيد. غير أن غالبية ما يعلمه العلماء عن حياته أتى من ملخص قصير قدمه بروكلوس (Proclus) (٤١٠-٤٨٥) في معرض تعليقاته على "المبادئ". أما مسقط رأسه فقد اختلفت الروايات ما بين صور (في لبنان الآن) أو بلاد اليونان أو مصر، مع ترجيح للبلدين الأخيرين. ومهما يكن الحال، فمما لا ريب فيه أنه ينتمي إلى العرق اليوناني، وبالتأكيد نشأ على اللغة اليونانية وثقافتها وحضارتها.

والأشد صعوبة هي علاقة إقليدس بالزمن. فبعض المصادر تشير إلى أنه ارتحل في شبابه إلى الإسكندرية سنة ٢٢٢ ق.م.، ولكن معلومات أخرى تؤكد أنه كان لا يزال طفلاً صغيراً في تلك السنة. ومن المحتمل أنه درس أولاً في أثينا في الأكاديمية التي أنشأها أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)، وإن كان ذلك بعد زمن طويل من وفاة أفلاطون، وأنه سرعان ما انتقل إلى الإسكندرية، حيث عمل ككبير مدرسي الرياضيات في مكتبتها. وهذا بدوره، يجعل تاريخ ميلاده متأخراً: ففي سنة ٢٢٢ ق.م. كان تأسيس مكتبة الإسكندرية لا يزال في علم الغيب بعد عدة عقود في المستقبل.

والجانب الوحيد المؤكد في حياة إقليدس - إذا نحينا جانباً الدعاوى بأنه كان إما أسطورة أو اسماً للجنة من العلماء - أنه ألف كتاب "المبادئ". وعلى الرغم من أن

الكتاب يحمل أفكاراً من وضعه، فإنه في المقام الأول تلخيص لمعارف رياضية انتقلت إليه من فيثاغورس (٥٨٠؟-٥٠٠ ق.م.) ومن أعقبه من علماء، وتكمن عبقريته في شرحه المقنع للمبادئ الأساسية، وفي تفسيره المتقن للبراهين الهندسية.

يتكون "المبادئ" من ١٣ كتاباً فصلٌ فيه إقليدس ٤٥٠ فرضية، ويبدأ "المبادئ" بتعريف النقط والخطوط والمستويات والزوايا والدوائر والمثلثات والأشكال رباعية الأضلاع والخطوط المتوازية. وفي الكتاب الثاني يتناول إقليدس المستطيلات والمربعات؛ وفي الكتاب الثالث الدوائر؛ وفي الكتاب الرابع المضلعات. ثم يناقش النسبة والتناسب والمساحات (الكتاب الخامس)، ويليه تطبيقات هذه النظرية في الهندسة المستوية (الكتاب السادس). ويغطي الكتاب السابع الحساب، والكتاب الثامن الأرقام الصماء، والكتاب التاسع الأرقام النسبية، بينما يخصص ما تبقى من الكتاب للهندسة ثلاثية الأبعاد أو هندسة الجوامد.

ومن بين إسهامات إقليدس المبتكرة برهان جديد لنظرية فيثاغورس، شملت برهاناً على وجود الأعداد الصماء. كما طور أيضاً وسيلة أثبت بها أن عدد الأرقام الأولية لا نهائي، وابتكر طريقة استنفادية لقياس المساحات والأحجام، استخدمها أرشميدس (٢٨٧؟-٢١٢ ق.م.) فيما بعد.

وكانت مسلماته الخمس من بين أهم جوانب عمله. وتركز الثلاث الأولى منها على الرسم الهندسي باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار، وكانت تلك هي الأدوات الوحيدة في هندسة إقليدس، بينما تنص الرابعة على أن كل الزوايا القائمة متساوية. وقد يبدو ذلك وكأنه استنتاج يسير، ولكن إقليدس لكي يتوصل إليه كان مضطراً إلى تبني وجهة نظر كانت أبعد ما تكون عن الوضوح، بأن يتعامل مع الفراغ على أنه وحدة متناسقة وبه شكل مستقل عن موقعه.

غير أن أكثر المسلمات إثارة للجدل كانت المسلمة الخامسة التي تتناول العلاقة بين خطين مستقيمين موضوعين بجوار بعضهما. فقد قرر إقليدس أنه إذا رُسم خط

بزواوية ٩٠ على الخط الأول، ولا يتقاطع مع الخط الثانى بزواوية قدرها ٩٠ × أيضاً فإن الخطين لا بد وأن يتلاقيا فى اتجاه الزاوية الأقل من ٩٠. وفيما بعد وضع بروكليوس صيغة شهيرة للمسلمة الخامسة: "عند نقطة معينة على مستوى، لا يمكن رسم إلا خط واحد وواحد فقط مواز لخط معين". وأدرك إقليدس وغيره من الرياضياتيين أن المسلمات الأربع الأولى لا تشكل برهاناً على صحة المسلمة الخامسة، وفى القرون التالية أصبحت المسلمة الخامسة مصدراً لتحديات متزايدة. وانتهى هذا الأمر بنشأة الهندسة غير الإقليدية فى القرن التاسع عشر.

ونظراً لما يتمتع به "المبادئ" من مكانة وأهمية، فقد يكون من المستغرب أن نعلم أن إقليدس يُنسب إليه تأليف كتب عديدة أخرى، تشمل أعمالاً فى الهندسة المستوية، والهندسة الكروية والمنظور. ويضاف إلى ذلك أنه كتب عدداً من الكتب التى ضاعت، منها كتاب يسمى "المخروطات" يبدو أنه ترك تأثيراً فى العمل الأكثر شهرة بنفس الاسم الذى ألفه أبولونيوس البرجاوى (٢٦٢٩-١٩٠٩ ق.م.).

جدسون نايت



إقليدس

أنيسيوس مانليوس سفريينوس بوثيوس (Anicius Manlius Severinus Boethius)

فيلسوف وعالم روماني (٤٨٠٩-٥٢٤ م)

على الرغم من أنه اشتهر في المقام الأول كفيلسوف إلا أن بوثيوس كان له تأثير قوى على تاريخ الرياضيات. وكان ذلك في غالبيته نتيجة أن التقدم في المعارف الرياضية بين الأوروبيين الغربيين كان قد توقف قبل زمنه بعدة قرون، ولم يُستأنف إلا بعد خمسمئة عام أو تزيد. ولهذا بقيت كتابات بوثيوس بين المراجع الرئيسية في الرياضيات في بواكير العصور الوسطى.

وقبل أربع سنوات من ميلاده سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية عندما خلع أوداسر (Odoacer) (٤٢٣-٤٩٣ م) زعيم القبائل الجرمانية آخر إمبراطور روماني عن العرش وأعلن نفسه "ملكاً على إيطاليا". وفي ذلك الوقت لم ينظر الرومان إلى سقوط الإمبراطورية الغربية على أنه حدث زلزل أركان العالم، وظن الكثيرون أن الأمور سوف تسير كالمعتاد. ومما لا ريب فيه أن هذا كان انطباع أسرة بوثيوس، وهي عائلة عريقة كانت تستطيع أن تعود بجذورها لأكثر من ستة قرون.

فقد بوثيوس والده قبل أن يصل سن العشرين، ومن ثم أصبح روماني مرموق آخر اسمه سيماكوس وصياً عليه. وفيما بعد تزوج بوثيوس من روستيكانا ابنة سيماكوس، وأنجب منها ولدين. وفي أثناء فترة تعليمه وقع بوثيوس تحت تأثير أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)، الذي شكلت "جمهوريته" نموذجاً لمشاركة الفلاسفة في الحكم، وترك ذلك أثره - إضافة إلى تقاليد أسرته - على اختياراته لمهنة في الحياة العامة. وسرعان ما شق طريقه بين الصفوف، ووصل إلى منصب قنصل سنة ٥١٠.

وفي تلك الأثناء، كانت إيطاليا قد وقعت تحت سيطرة ثيودوريك (Theodoric) (٤٥٤-٥٢٦ م) زعيم القوط الشرقيين، وكان لذلك الحدث تأثير مأساوي على تاريخ بوثيوس المهني. فبوصفه موظفاً عمومياً رومانياً شغل بوثيوس نفسه بأعبائه السياسية

- بما فى ذلك عمله فى مجلس الشيوخ - وأبحاثه وكتاباتة. وكانت تلك الكتابات تشمل امتحاناً فى المجموعة الرباعية (quadrivium)، وهى مجموعة من أربعة علوم (الحساب والموسيقى والهندسة والفلك) يدرسها الرومان منذ دهور.

فى كتاباته عن المجموعة الرباعية، تناول بوثيوس العلاقة بين الموسيقى والعلم، وبخاصة بين طبقة النغمة الموسيقية وتردد الصوت. وكان ذلك انعكاساً لتأثير الأفكار الفيثاغورية، وفى الحق، كان كتاب بوثيوس "الحساب" يشكل المصدر الرئيسى للعلماء القروسطيين عن النظرية الفيثاغورية للأرقام. كما ترجم بوثيوس أيضاً كتب أرسطو (٢٨٤-٢٢٢ ق.م.) "الفئات" (Categories) و"التفسير" (De interpretatione)، وكتاب "إيزاجوج" (Isagoge) لبورفيرى (Porphyry) (٢٢٤؟-٢٠٥ م)، كما كان يخطط لترجمة كل أعمال أفلاطون وأرسطو والتعليق عليها. غير أن الأحداث منعتة من تنفيذ تلك الأهداف الطموحة.

بدأت محنته سنة ٥٢٢، عندما اتبرى للدفاع عن عضو بمجلس الشيوخ يدعى ألبيونس اتهم بالخيانة. ويبدو أن ألبيونس كتب إلى جوستين الأول حاكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) يطلب عونه بوصفه من أتباع الاتجاه السائد فى المسيحية ضد ثيودوريك الذى كان من أتباع الهرطقة الأريوسية. ومن الواضح أن بوثيوس كان مؤمناً بأن ألبيونس مذب، لكنه أراد الحفاظ على سمعة مجلس الشيوخ، مما عرضه لتهمة إخفاء الأدلة. فأتهم بدوره بالخيانة وسُجن فى مدينة بافيا.

وقدر لبوثيوس أن يقضى العامين المتبقين من حياته فى السجن، حيث كتب أشهر أعماله وهو كتاب "عزاء الفلسفة" (The Consolation of Philosophy)، الذى حدد مسار التاريخ الأوروبى لألف عام. وعلى الرغم من أنه كان مسيحياً ورعاً فإن الكتاب لا يشير إشارات مباشرة إلى مبادئ المسيحية إلا قليلاً. وفى الحق، يبدو النص أقرب إلى الرواقية الوثنية (Stoicism) منه إلى المسيحية، بما يتضمنه من مبادئ الإرادة الحرة

والخلاص. وقد بُنى الكتاب على فكرة رسالة تخيلية وصلت بوثيوس في محبسه من شخصية مجازية هي "السيدة فلسفة"، ويحمل الكتاب رسالة أن العدالة الإلهية يمكن أن تراها حتى في أشد أحوال سوء الحظ عشوائية وتعسفية.

مات بوثيوس في السجن سنة ٥٢٤، إما نتيجة إعدامه أو من جراء التعذيب. وسرعان ما اعتبر قديساً ورُسم فيما بعد، واكتسب مزيداً من الخلود من خلال تأثيره على فكر العصور الوسطى.

جدسون نايت



أنيسيوس مانليوس سفرينوس بوثيوس

إيراتوستثنيز السيريني (Eratosthenes of Cyrene)

رياضياتي وفلكي وجغرافي إغريقي شمال إفريقي (ح ٢٨٥-٢٠٥ ق.م.)

هو أشهر أمناء مكتبة الإسكندرية، وقام بقياس محيط الكرة الأرضية بنسبة خطأ ١ بالمئة من الرقم الحقيقي. كما ابتكر أيضاً طريقة للتوصل إلى الأعداد الأولية، وأدلى بإسهاماته كفلكي وجغرافي وفيلسوف وشاعر.

ولد في سيرين، وهي الآن جزء من ليبيا، وكان اسم والده أجلاوس (Aglaus)، غير أن تلك هي الحقائق الوحيدة المعروفة عن أصوله. درس على يد النحوي ليزانياس (Lysanias) والفيلسوف أريستون الكيوسى (Ariston of Chios)، والشاعر كاليماخوس (Callimachus) (ح ٣٠٥-٢٤٠ ق.م.) ثانياً أمين مكتبة الإسكندرية. وسافر إلى أثينا في شبابه، حيث ربح درس في الأكاديمية التي أسسها أفلاطون (٤٢٧-٢٤٧ ق.م.) وفي الليسيوم الذي أسسه أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.).

ظهرت مواهب إيراتوستثنيز كشاعر، الذي كان من الممكن في عصر لاحق أن يعتبر من رجال عصر النهضة، في قصيدته "هرمز" و"إرجيون" اللتين لفتتا إليه أنظار بطليموس الثالث يورجيتيس (حكم ٢٤٦-٢٢١ ق.م.) الحاكم الإغريقي لمصر، فدعاه ليكون معلم ولى العهد. وبعدها بقليل عينه مديراً للمكتبة الشهيرة للمدينة.

وفي أثناء تاريخه المهني الحافل، أسهم إيراتوستثنيز في المعارف الرياضية بابتكار تقنية للتوصل إلى الأعداد الأولية صارت تُعرف بـ "غربال إيراتوستثنيز". وباستخدام هذه الصيغة، وهي نمط من الخوارزميات، كان بمقدوره أن يلتقط الأعداد الأولية من قائمة مرتبة من الأعداد الطبيعية. ولم تشعل هذه الطريقة شرارة البحث فيما بعد في نظرية الأرقام فحسب، وإنما يمكن اعتبارها مظهراً مبكراً لتقنيات الحوسبة.

ومن خلال عمله على المعضلة الديلوسية، التي تتضمن تحديد متوسط النسبيات كوسيلة لمضاعفة المكعب، قدم إيراتوستثنيز ما كان يسمى "مكتشف المتوسطات"

(mesolabe)، الذي مكّنه من تحديد عدد غير محدد من متوسطات النسبيات. كما ألف عدداً من النصوص الرياضية، ولكن كتاباته الوحيدة التي بقيت كان خطاباً أرسله إلى بطليموس الثالث يشرح له فيه "مكتشف المتوسطات".

وأشهر منجزاته العديدة، كان قياس محيط الأرض. وأنجزها بقياس المسافة بين الإسكندرية ومدينة سين (أسوان الحالية) في الجنوب، التي حددها بمسافة ٥٠٠٠ ستاديا (stadia) (٧٨٣ كيلومتراً). وبحساب موقع الشمس فوق المدينتين أثناء الانقلاب الشمسي الصيفي، قدر أن المسافة بينهما تمثل ٢ بالمئة من محيط الأرض، فتوصل إلى أن محيط الأرض يبلغ طوله ٢٥٢٠٠٠ ستاديا (أي ٣٩٤٥٩ كيلومتراً).

والرقم الحقيقي لمحيط الأرض عند خط الاستواء هو ٣٩٨٤٢ كيلومتراً، مما يدل على أن إيراتوستينز كان قريباً من الحقيقة بدرجة مذهلة. وفي عصره، من البديهي أنه لم يحدث أن بعثة استكشافية غامرت بالذهاب إلى ما هو جنوب خط عرض ١٠× شمالاً؛ ولم يكن أي من سكان العالم القديم يدري شيئاً عن وجود العالم الجديد (الأمريكتين). ولا شك في أن ذلك الرقم كشف بين ثناياه عن وجود مساحات شاسعة على الجانب الآخر من الأرض، ولو استخدم كريستوفر كولبوس (١٤٥١-١٥٠٦) الأرقام التي توصل إليها إيراتوستينز عندما قام برحلته التاريخية إلى جزر البحر الكاريبي بعد ١٧٠٠ سنة، لكان أدرك أنه لم يصل إلى آسيا. ومن سوء الحظ أن هيبارخوس (Hipparchus) (١٩٠-١٢٦ ق.م.) رفض قياسات إيراتوستينز مفضلاً عليها رقماً أقل، ونشر بطليموس (ح. ١٠٠-١٧٠ م.)، وهو من أتباع هيبارخوس، هذا الفهم الخاطئ الذي ظل الحكمة السائدة طوال العصور الوسطى.

وفيما يتعلق بإيراتوستينز، يعتبر مخطوطه المفقود "حول قياس الأرض" المؤسس لعلم المساحة (الجيوديسيا geodesy)، وهو فرع من الرياضيات يتناول تحديد حجم الأرض وشكلها، والمواقع المختلفة على سطحها. وتشمل موضوعات الدراسة في هذا

العلم خطوط الطول والعرض، والتي يبدو أن إيراتوستينز كان مبتدعها في خرائطه التي كانت في زمانه أكثر خرائط العالم دقة.

ويعتقد أنه ابتكر تقويماً بقي دون تغيير في أنحاء العالم اليوناني-الروماني حتى زمن يوليوس قيصر (١٠٢-٤٤ ق.م.)، كما ابتكر إيراتوستينز أيضاً أول طريقة موثوق بها لتحديد زمن الأحداث، بالاستناد إلى سنوات الاحتفالات الأولمبية. وفي سنواته المتأخرة، كُف بصره، ولما أصابه الإحباط لعدم استطاعته قراءة مخطوطات مكتبته المحببة إلى قلبه، امتنع عن الطعام والشراب حتى مات في العقد التاسع من عمره.

جدسون نايت

بروكولوس دياذوكوس (Proclus Diadochus) فيلسوف بيزنطي

(٤١٠-٤٨٥ م)

تمثل حياة بروكلوس وتاريخه المهني تلخيصاً للرياضيات الكلاسيكية الإغريقية، وعودة إلى الوراء إلى زمن - كان قد صار بالفعل قديماً في عصر بروكلوس - عندما كانت الدراسات الرياضية الإغريقية في ذروتها. ويعود الفضل إلى كتاباته، وبخاصة تعليقاته على "المبادئ" لإقليدس، في أن العلماء المحدثين أصبحوا يعرفون كثيراً من أعمال العصور القديمة التي كانت قد ضاعت.

كان بروكلوس ابناً لزوجين مرموقين يسميان باتريكيوس ومارسلا، ونشأ في مدينة زانتوس (anthus) على الساحل الجنوبي لليسيا في آسيا الصغرى (تركيا الحديثة). كان أبوه يريده أن يدرس القانون في الإسكندرية، ولكنه قرر، بعد زيارة لعاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية بيزنطة أو القسطنطينية (اسطنبول الآن)، قرر بدلاً من ذلك أن يصبح فيلسوفاً.

وفى تلك اللحظة كان بروكلوس يتابع بالفعل دراسته للقانون فى مصر، لكنه عاد إلى الإسكندرية بهدف جديد تمام الجودة. وعلى مدى سنوات درس مع ليوناس من إيساوريا (Leonas of Isauria)، وهو من السوفسطانيين؛ ومع النحوى المصرى أوريون (Orion)؛ ومع الفيلسوف أولمبيودوروس الأكبر (Olympiodorus the Elder)؛ ومع معلمين متنوعين فى اللاتينية والخطابة؛ ومع رياضياتى يدعى هيرون، وإن لم يكن هيرون الأشهر.

وفى نهاية المطاف قرر أن يتوجه إلى أثينا كى يتابع دراسة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فى الأكاديمية التى أنشأها أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) شخصياً. فى القرن السادس الميلادى أمر الإمبراطور البيزنطى جستنيان بإغلاق الأكاديمية، التى بلغ عمرها ٩٠٠ سنة يومئذ بوصفها مؤسسة وثنية). وفى أثينا درس على يد بلوتارك مؤسس المدرسة الأثينية للأفلاطونية الجديدة ومدير المدرسة، كما درس أيضاً على سيريانوس (Syrianus) خليفة بلوتارك. وعندما اعتزل سيريانوس عين بروكلوس رئيساً للأكاديمية، وفى حوالى تلك الأوقات أصبح الدارس يُطلق عليه "ديادوكوس" (Diadochus) وتعنى "الخليفة".

وفى السنوات التى تلت ذلك كتب بروكلوس تنوعاً من الأعمال، أهمها تعليقه على "المبادئ" لإقليدس (ح ٣٢٥- ح ٢٥٠ ق.م.). وأعمال إقليدس على درجة من الأهمية فى مناحٍ عديدة، ولكن لعل أهمها حقيقة أنها تشكل المصدر الرئيسى للمعلومات عن الرياضياتيين والأعمال التى لولا ذلك لُنُسيت. كما يبقى كتابه "هايبوتايبوزيس" (Hypotyposis) لافتاً للنظر فى تاريخ العلم، وهو استعراض شامل للنظريات الفلكية التى وضعها هيبارخوس (Hipparchus) (اشتهر ١٤٦-١٢٧ ق.م.) وبطليموس (ح ١٠٠-١٧٠ م.). كما وضع بروكلوس كتباً فى الفيزياء شملت "كتاب الأسباب" (Liber de causis) و"مبادئ الفيزياء" الذى يناقش أفكاراً وضعها أرسطو (٢٨٤-٣٢٢ ق.م.).

كما وضع بروكلوس أيضاً كتباً فى الشعر واللاهوت. وكان شجره جزلاً، وبقيت من قصائده سبع قصائد تعتبر مثلاً لنمط أعمال العصر الكلاسيكى المتأخر. ومعظم هذه القصائد ترانيم للآلهة، وهو أمر لافت للنظر، لأنه فى ذلك الوقت كانت المسيحية قد انتصرت فى كل أرجاء الإمبراطوريتين الشرقية والغربية. غير أن بروكلوس بقى وثنياً دون خجل، وكتاباتة فى الدين لم تتناول يسوع المسيح وإنما آلهة اليونان والمشرق.

وفى مناحٍ كثيرة يذكرنا بروكلوس بالسبل التى كان يتبعها أتباع مدرسة فيثاغورس (ح ٥٨٠ - ح ٥٠٠ ق.م). فعلى غرارهم كان نباتياً، ومزج مع دراساته العلمية جرعات مكثفة من الخرافات والمعتقدات الغربية التى لم تكن لها أية علاقة بالعلم. (فمثلاً: كان يردد أن الأرض هى مركز الكون لأن كاهناً كلدانياً فى القدم قرر ذلك).

كما كان يمارس السحر أيضاً، وعلى الرغم من أن تلك النزعات ربما كانت إرهاباً بفترة العصور الوسطى التى تلت زمانه، فإنه فى حالة بروكلوس يمكن بتوخى المزيد من الدقة أن نعتبرها إذعائاً للماضى الفيثاغورى. وعلى أية حال، لم تمر بلاد اليونان مطلقاً بعصور ظلام أوسطية؛ بل احتفظت بالمعارف المتقدمة للماضى، دون أن تضيف إليه الشئ الكثير، بوصفه أثراً من القدم قد غطته الأثرية. وينطبق هذا القول على بروكلوس، الذى نتذكره لا لإسهاماته الأصلية، وإنما للطريقة التى لخص بها المعارف الرياضياتية والعلمية التى اكتسبت خلال الألفية النشطة التى سبقت زمانه.

جدسون نايت

ثياتيتوس الأثيني (Theaetetus of Athens) رياضياتى إغريقى

(ح ٤١٧ - ح ٣٦٩ ق.م.)

يعتقد أنه ترك أثراً على كتاب إقليدس فى المجلدين العاشر والحادى عشر من "المبادئ"، وقد درس ثياتيتوس ما وصفه بابوس بأنه "الكميات المتقايسة (أى القابلة للقياس) وغير القابلة للقياس والصماء وغير الصماء المستديمة" - بمعنى الأعداد الصماء وغير الصماء. وتلمذ على ثيودور السيرينى (Theodorus of Cyrene)، وكان صديقاً ومساعداً لكل من سقراط وتلميذه أفلاطون.

وفى الحقيقة فإن أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.)، الذى كان يبدي إعجابه الصريح به، هو المصدر الرئيسى لكل ما نعرفه عن ثياتيتوس، الذى أصبح شخصية محورية فى اثنتين من حوارات أفلاطون، "ثياتيتوس" و"الصوفى". وفى أولاهما، سجل أفلاطون حواراً دار بين سقراط (ح ٤٧٠-٣٩٠ ق.م.) وثيودوروس (Theodorus) (٤٦٥-٣٩٨ ق.م.) وثياتيتوس يبدو أنه جرى سنة ٣٩٩ ق.م.

وقد ذكر أفلاطون أن والد ثياتيتوس كان رجلاً ثرياً يدعى يوفرونيوس السونيومى (Euphronius of Sunium) الذى خلف لابنه ثروة كبيرة. غير أن الأوصياء على الوصية خدعوا ثياتيتوس ونهبوا جانباً كبيراً من الثروة، لكنه استمر رجلاً كريماً، وقال عنه أفلاطون إنه رجل نبيل فى جوهره. كما وصف الفيلسوف الكبير عقل ثياتيتوس أيضاً بأنه عقل جميل، رغم أن مظهره الخارجى، بأنفه المفلطحة وأعينه المنتفخة، لم يكن يوحى بحقيقة داخلية.

ومتلما كان الحال مع كل المفكرين القدامى العديدين، ضاع كل أثر لأعمال ثياتيتوس، ولكن أصداؤها بقيت فى أهم عمل هندسى كُتب وأعمقها تأثيراً، وهو "المبادئ" لإقليدس (ح ٢٢٥-٢٥٠ ق.م.). ففى تقديمه للكتاب الأخير ذكر بابوس (اشتهر ح ٢٢٠ م) أن تناول إقليدس للأعداد غير الصماء - وهى التى تمضى إلى ما

لا نهاية دون نمط متكرر ولا يمكن التعبير عنها بالكسور - كانت له جنوره في تفسير ثياتيتوس للأفكار الفيثاغورية.

بدأ ثياتيتوس بأن أثبت أن الجذر التربيعي للأعداد غير المربعة من ٣ إلى ١٧ كانت أعداداً غير صماء، ولكن أفلاطون ذكر في "ثياتيتوس" أن التلميذ هو الذي نجح في التعميم المبكر لتلك النتائج. وفي تلك الصيغة استخدم ثياتيتوس وسقراط مصطلح "مربع" كما هو معروف اليوم، ووصفوا الأرقام ذات الجذور غير الصماء بأنها "أرقام مستطيلة". (ومن البديهي أن المصطلح الأخير لا معنى له من الناحية الهندسية، لأن رقماً جذره غير أصم لا يزال من الممكن التعبير عنه نظرياً بمربع - مع التنويه بأن جوانب المربع أطوالها لا نهائية أو تقريبية).

وأحياناً يُنسب إليه الكتاب العاشر لإقليدس بأكمله (على الرغم من أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أنه من بنات أفكار إقليدس، وأنه تطوير لأفكار قدمها ثياتيتوس وآخرون)، وأجرى ثياتيتوس دراسات على عدد آخر من المسائل الرياضية. منها نظرية في التناسب؛ ودراسات عن الجسم الثماني والجسم متعدد الأسطح والمتوسطات والحدين.

وفي سنة ٣٦٩ ق.م. شارك ثياتيتوس في معركة نشبت بين أثينا وكورينث. وناله التكريم في ساحة القتال، ولكنه جرح وأصيب بالدوستاريا. ومات في أثينا، بعد أن أعادوه إلى موطنه.

جدسون نايت

ثيودوروس السيريوني (Theodorus of Cyrene) رياضياتي إغريقي شمال إفريقي
(٤٦٥-٣٩٨ ق.م.)

اشتهر ثيودوروس السيريوني بتلاميذه مثلما اشتهر بأعماله، ودرس الجذر التربيعي للأعداد ٢ و ٥٠ وقاده ذلك إلى اكتشافات تتعلق بالأعداد الصماء، وهي الأعداد التي تستمر إلى ما لا نهاية دون أي نمط تكرارى.

ولد ثيودوروس فى سيرين، وهى الآن جزء من ليبيا، وكانت آنذاك مستعمرة إغريقية. وعلى الرغم من أنه كان فى سيرين عندما مات بعد ٦٧ سنة، فإنه بالقطع قد أمضى فترة من حياته فى أثينا، حيث تعلم على يد بروتاجوراس (Protagoras) (ح ٤٨٥-٤١٠ ق.م.) وتواصل مع سقراط (ح ٤٧٠-٣٩٠ ق.م.) وفيما بعد علم ثياتيتوس الأثينى (ح ٤١٧-٣٦٩ ق.م.) وأفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) وهو المصدر الرئيسى للمعلومات الخاصة بعمله.

كتب أفلاطون فيما بعد أن ثيودوروس أثبت لتلاميذه أن "ضلع مربع من وحدات مكونة من ثلاثة مربعات وخمسة مربعات غير قابلة لقياس طولها بوحدة القياس" - وبمعنى آخر فإن الجذور التربيعية لـ ٣ وه أعداد غير صماء. واليوم نستطيع أن نحسب أول مليون رقم عشري لكل منها (١,٧٣٢,٠٠٠... و ٢,٢٣٦,٠٠٠... على التوالى) فى موقع على الإنترنت هو http://antwrp.gsfc.nasa.gov/htmltest/rjn_dig.html، وهو موقع يحتوى على حسابات قام بها رياضياتيو وكالة ناسا روبرت نيميروف (Robert Nemiroff) وجيرى بونل (Jerry Bonnell) للجذور التربيعية لتلك الأعداد وكذلك للأعداد ٢ و ٣ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٠.

وفىما يتعلق بثيودوروس فالمعروف عنه جد قليل بجانب إشارة أفلاطون المختصرة إلى تعاليمه الخاصة بالجذور التربيعية غير الصماء المتعلقة بالأعداد ٣ و ٥. ومن الممكن أن نستنتج من كلمات أفلاطون التى وردت فى محاورته المعنونة "ثياتيتوس" أن السمة غير الصماء للجذر التربيعى للعدد ٢ كانت مثبتة من قبل ذلك. ويدعى البعض أن

فيثاغورس (ح ٥٨٠- ح ٥٠٠ ق.م.) قد أثبت أن الجذر التربيعي للعدد ٢ كان عدداً أصم، ومن المؤكد أن ثيودوروس لا بد وأنه استخدم نظرية فيثاغورس لرسم خطوط أطوال الجذور التربيعية للأعداد ٣ و ٥.

ولعل من الأمور اللافتة للنظر الدور الذي لعبه ثيودوروس في تعميم فكرة الأعداد غير الصماء. وذلك ما تبينه جملة وردت في حوارات أفلاطون: "الفكرة جاءتنا نحن الاثنين [ثياتيتوس وسقراط]، فبعد أن رأينا أن تلك الجذور التربيعية تظهر في أعداد لا نهائية، حاولنا أن نتوصل إلى مصطلح شامل جامع نخصصه لكل تلك الجذور ...". وباستخدام طريقة للاختزال كانت معروفة أيامه يبدو أنه أثبت أن جذور الأعداد غير المربعة من ٢ إلى ١٧ كانت كلها غير صماء، ومن ذلك توصل فيما يبدو إلى نظرية عامة بأن جذور كل الأرقام غير المربعة أعداد صماء.

جدسون نايت

ثيون السكندري (Theon of Alexandria) رياضياتي وفلكي إغريقي

(ح ٣٣٥- ح ٤٠٠م)

يمثل التاريخ المهني لثيون، وهو والد هيباتيا السكندرية، فترة انحطاط للعلم وأقول المعرفة في العصر القديم. فتعليقاته على أعمال إقليدس وبطليموس الموجهة إلى المجموعة من تلاميذه الأقل كفاءة، تشير إلى تدهور أحوال الأكاديميات القديمة. وكذلك كانت كتاباته خالية من التفكير الأصيل المبتكر، وكانت مجرد تلخيصات لما تم من تقدم في عصور أرقى فكرياً.

ويمكن تأريخ حياته بعدد من الأحداث، منها الكسوف الشمسي الذي شاهده يوم ١٦ يونيو سنة ٣٦٤، وكسوف القمر في ٢٥ نوفمبر من نفس السنة. كما أنه جمع

أيضاً قائمة بالقناصل الرومانيين، استمر يحدثها حتى سنة ٣٧٢، أقام ثيون فى الإسكندرية طوال حياته، ويبدو أنه كان عضواً فى المتحف، وهو جمعية علمية متخصصة فى البحوث العلمية. واختفى المتحف من الوجود فى زمن ثيون أو بعده بقليل، غير أنه فيما يبدو قد أنقذه الموت من الالم رؤية ابنته هيباتيا (٣٧٠-٤١٥م) تُقْتَل بواسطة الغوغاء المتعصبين كرد فعل لتعاليمها "الوثنية".

ومن الجلى أن هيباتيا ساعدته فى كتابة نسخة من كتاب المبادئ لإقليدس (ح ٢٢٥ - ح ٢٥٠ ق.م). وفى هذا المجال أثبت عمل ثيون أنه كان جوهرياً فى تطور الرياضيات - على الرغم من أن تفاسيره لإقليدس كشفت عن أنه كان أضعف بكثير من سابقيه من الرياضياتيين - فبسبب الدمار الشامل الذى صاحب سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، بقيت أعماله أقدم نسخة معروفة لكتاب "المبادئ" فى العصور الوسطى. (وفى الحقيقة، لم تُكتشف نسخة أقدم إلا فى القرن التاسع عشر). أصلح ثيون بعض الأخطاء التى رأى أن إقليدس قد وقع فيها، وأدخل تفصيلات فى مواضع رأى أن إقليدس كان فيها مختصراً أكثر مما يجب؛ لكنه فى مواضع أخرى أساء ببساطة فهم الأصل، وفى "تصححاته" لذلك أدخل معلومات خاطئة.

ويكاد يكون كل ما قدمه ثيون من إسهامات فى المعارف الرياضياتية تتلخص لا فى روعة أعماله هو وإنما فى أنه كان مؤرخاً إخبارياً لأعمال كتبها آخرون. وبجانب إسهامه فى المحافظة على "المبادئ" - الذى أصبح فى العصور الوسطى أكثر كتب الرياضيات تأثيراً - فإنه زودنا بتعليقات على كتب إقليدس الأخرى "البصريات" و"المعطيات". وثمة سمة مفيدة فى كتابات ثيون (وكثيرون غيره من الكتاب القدامى) وهى إشاراتهم إلى أعمال آخرين ضاعت منذ أزمنة طويلة. وفى أحوال عديدة كانت المعلومات التى زودونا بها هى كل ما نعرفه عن تلك الكتب. غير أنه من المحتمل أن كتاب "عن البصريات" (Catoptrica)، وهو كتاب مزعوم نسبته إلى إقليدس، كان فى حقيقة أمره تعليقاً كتبه ثيون على كتاب إقليدس.

كما كتب أيضاً تعليقات على كتب بطليموس (ح ١٠٠-١٧٠م)، وأشهرها "المجسطي" - الذي قُدر له أن يترك تأثيراً عميقاً على الفلك على غرار التأثير الذي تركه "المبادئ" على الهندسة - وأيضاً على كتابيه "الجدول المفيدة" و"النظم" (Syntaxis) والكتاب الأخير يتناول الكسور الستينية أو الكسور التي مقامها ٦٠، التي كان الإغريق يستخدمونها في تحديد الجنور التربيعية.

جدسون نايت

جمينوس (Geminus) فيلسوف وفلكي ورياضياتي إغريقي (ح ١٣٠-٧٠ ق.م.)

إن أهم منجزات جمينوس في الرياضيات هي تصنيفه لفروع علم الرياضيات، وجهوده لتعريف كل من الرياضيات والعلم. كما أنه وضع تصوره الخاص به عن فرضية إقليدس الخاصة بالمتوازيات، وكتب بحثاً عن الفلك الإغريقي. غير أن الجانب الأعظم من عمله كرياضياتي وفلكي كان موجهاً لخدمة مهنته الأولى كفيلسوف رواقى يعمل على الدفاع عن الرواقية في العالم ضد الهجمات على العلوم التي يقوم بها الأبيقوريون والمتشككون.

نشأ جمينوس، في غالب الظن، في جزيرة رودس، وكانت مركزاً للدراسات الفلكية. وعلى الرغم من أن اسمه لاتيني فإنه لم ينحدر من أصول إيطالية؛ ولكن العالم الذي كان يعيش فيه كان عالمًا تهيمن عليه روما. درس جمينوس على يد بوزيدونيوس (Posidonius) (ح ١٢٥-٥١ ق.م.)، وعلى الرغم من أن الأخير لم يكن أكبر منه إلا بسنوات قليلة، فإن بوزيدونيوس اشتهر بأنه إن لم يكن أحكم الحكماء في زمانه فهو أكثر الرواقيين علمًا. (من الجائز أن تواريخ جمينوس هي ١٠ ق.م.-٦٠ م، وفي هذه الحالة

يكون قد درس في مدرسة بوزيدونيوس ولكن بوزيدونيوس لم يقم بالتدريس له. وتواريخ حياته مبنية على التقويم الذي ورد في "إيزاجوج" (Isagoge) أو "مقدمة في الفلك"، غير أن تفاصيل ذلك التقويم تحتمل تفسيرين على الأقل).

قدم جمينوس في كتابه "نظرية الرياضيات" وهو مفقود الآن، نظرة شاملة عن الهندسة. وكانت الهندسة علماً راسخاً بين الإغريق منذ زمن بعيد، مما منح رؤية معينة لم تكن متاحة أمام من سبقوه. ولهذا تولى التعريف بالهندسة بشكل عام، وتصنيفها داخل إطار العلوم.

ومنذ زمن أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) على الأقل، كانت مدارس الفكر الإغريقي تنزع إلى النظر إلى الوجود بشكل تسلسل هرمي؛ وعلى ذلك كان الرواقيون يعتبرون الوجود متصللاً بدءاً من أدنى الأشياء الجمادية إلى الرب، أو الرشد المطلق. ومن الطبيعي أن مخططات جمينوس للتصنيف كان متسقاً مع هذا التصور الهرمي، مثلما كانت النظرية الأرسططالية تقرر أن العلم الخالص أسمى من العلم التطبيقي - الذي كان جمينوس يسميه علماً "مشوشاً" أو "علماً غير نقي".

فالعلم الخالص يتعامل مع ما كان جمينوس يقول عنه إنه العلم الواضح، بينما يتناول العلم التطبيقي ما كان جمينوس يطلق عليه العلم الملموس. فكتب يقول: "إن الهندسة والحساب هي علوم تتناول ... الأبدى وغير المتغير ... وقد توسع فيها الكتاب اللاحقون، حيث صارت تغطي ما نسميه العلم "المشوش" أو الحساب التطبيقي ... الذي يتعامل مع الأشياء الملموسة، مثل: الفلك أو البصريات". ولما كان اهتمامهم الأول هو بالعلم الواضح، فبناء على ذلك أصبحت الهندسة والحساب على قمة تصنيف جمينوس. أما رياضيات الملموس فقسّمها إلى ستة أقسام: الميكانيكا والفلك والبصريات والجيوديسيا والعلوم الدينية واللوجستية.

وريشى هذا النظام بالكثير عن العقلية الإغريقية - فمثلاً: التأكيد على تفوق المثاليات على الممارسات، وهي من ميراث أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) - مثل التأكيد

على الرياضيات ذاتها. وعلى الرغم من ذلك، فإنها تشكل محاولات مبكرة قيّمة لإعطاء الرياضيات شكلاً، ولوضعها داخل إطار الدراسات العلمية.

ونجد في مواضع أخرى من نصوص جمينوس الرياضية، والتي لم نعثر عليها سوى كاقْتباسات عند آخرين، دراسته لمسلمة المتوازيات لإقليدس (ح ٣٢٥ - ح ٢٥٠ ق.م). ويقتبس منه بروكلوس (٤١٠٩-٤٨٥ م) ما يلي: "... عندما تتناقص الزوايا القائمة [أى أن] تتقارب الخطوط المستقيمة [مثلما أشار إقليدس] وهو أمر صحيح وضروري؛ ولكن قول أنها عندما تتقارب فإنها أحياناً تتلاقى، هو قول معقول وإن لم يكن ضرورياً ...".

وفي كتابه "مقدمة فى الفلك"، وهو كتاب بقى وعاش، تعامل جمينوس مع علم "لموس". غير أن تناوله للفلك لم يكن أصيلاً وإنما بُنى على أعمال هيبارخوس (Hipparchus) (١٩٠-١٢٦ ق.م).

جدسون نايت

دينوستراتوس (Dinostratus) رياضياتى إغريقى

(٣٩٠٩ - ٣٢٠٩ ق.م.)

ظل المؤرخون لسنوات عديدة يستشهدون بدينوستراتوس كأول من حقق شيئاً قريباً من تربيع الدائرة - أى التوصل إلى مربع يساوى فى المساحة دائرة معينة، مستخدماً فقط فرجاراً ومسطرة مستقيمة. وفى الحقيقة فإنه من المستحيل إتمام ذلك، ولكن دينوستراتوس اقترب من ذلك كثيراً مستخدماً منحنى يسمى "التربيعى" (quadratrix).

وحياته لغز غامض، على الرغم من أن بروكلوس (Proclus) (٤١٠-٢٤٧ ق.م.) أصر على دينوستراتوس كان صديقاً حميماً لأفلاطون (٤٢٧-٢٤٧ ق.م.) فى أثينا. وفيما عدا ذلك فإن الشيء الوحيد المعروف عنه هو استخدامه للمنحنى التربيعى الذى اكتشفه هيباس (Hippias) فى القرن الخامس ق.م.

ولكى نصف المنحنى التربيعى لا بد أولاً أن نتخيل مربعاً أ ب ج د. وتشكل النقطة أ مركزاً لدائرة، نصف قطرها يسمى أ ه. حيث ه نقطة افتراضية على القوس ب ه د، الذى يشكل ربع دائرة تقع النقطة أ فى مركزها. فإذا تحرك الخط أ ه بانتظام من أ ب إلى أ د (وهى حركة تماثل عقرب ساعة ينتقل من الساعة ١٢ إلى الساعة ٢)، وينزل الخط ب ج عمودياً تجاه أ د، فسوف يتقاطع نصف القطر أ ه مع الخط ب ج فى النقطة و. ومع استمرار حركة هذين الخطين إلى أسفل، فسوف تشكل نقطة تقاطعهما منحنى هو ب ز.

وبتحديد النقطة ز حيث يتقابل المنحنى مع قاعدة المربع، يمكن إثبات أن طول المنحنى ب ه د يتناسب مع طول الخط أ ب بنفس نسبة تناسب الخط الأخير مع الخط أ ز. وهذه النسبة تمكننا من رسم المنحنى ب ه د على صورة خط مستقيم.

وفيما بعد أثبت بابوس (اشتهر ح ٣٢٠ م)، وهو المصدر الرئيسى حول استخدام دينوستراتوس للمنحنى التربيعى للتوصل إلى تربيع الدائرة، أثبت صحة تلك النسب بأن أثبت خطأ الفرضية الوحيدة الأخرى (ب ه د : أ ز = أ ب : أ ز). كما ذكر أيضاً أن سبوروس (Sporus) (٢٤٠-٢٠٠ م) انتقد طريقة دينوستراتوس لأسباب متعددة، من بينها حقيقة أن الخط النازل ب ج لا يمكن أن يكون فى نفس النقطة أ د، وهى حقيقة صحيحة وإن كانت فائدتها محدودة، وبهذا تكون ز حداً وليست نقطة.

وبغض النظر عما قرره بابوس، ليس ثمة دليل قاطع على أن دينوستراتوس استخدم المنحنى التربيعى ليربع الدائرة، وحتى لو كان فعل ذلك، فإن طريقته تحتاج لما هو أكثر من الفرجار والمسطرة المستقيمة؛ وبذلك لا تكون حلاً حقيقياً للمسألة التقليدية

الخاصة بتربيع الدائرة. وفي سنة ١٨٨٢، بعد زمن دينوستراتوس بما يقرب من ٢٢ قرناً، أثبت فرديناند فون ليندرمان (Ferdinand von Lindemann) (١٨٥٢-١٩٣٩) بصورة قاطعة أن القيمة التقريبية "ط" (π) رقم مصمت، بمعنى أنه في حكم المستحيل أن يتم تربيع الدائرة باستخدام الفرجار والمسطرة المستقيمة فقط.

جدسون نايت

ديوفانتوس الإسكندري (Diophantus of Alexandria) رياضياتي إغريقي

(٢١٠-٢٩٠)

تعتبر أعمال ديوفانتوس أعمالاً متميزة في ضوء الزمن الذي تمت فيه. ففي ذلك الوقت، القرن الثالث الميلادي، كانت الإمبراطورية الرومانية - التي كانت مدينة الإسكندرية مسقط رأسه جزءاً منها - قد دخلت منذ زمن في طور الانحدار البطيء. ولم يتم إلا القليل من الأعمال الرياضية المبتكرة أثناء تلك الفترة، ولكن ديوفانتوس في كتابه "الحساب" (Arithmetica) استكشف آفاق الرياضيات وحدودها. وشمل هذا الحساب الجديد مجرد استخدام رموز خاصة، وبعد قرون صارت تلك الرموز تُعرف باسم الجبر.

أنت هذه المجموعة من الأحجيات الذهنية من مجموعة إغريقية من القرن السادس، وهي تتحدث عن ديوفانتوس: "... كان شبابه $\frac{1}{6}$ من حياته؛ وتزوج بعد مدة $\frac{1}{7}$ أخرى من عمره؛ ونمت لحيته بعد $\frac{1}{12}$ ؛ وولد ابنه بعد خمس سنوات؛ وعاش الإبن نصف حياة أبيه، ومات الأب بعد ٤ سنوات من وفاة ابنه". ويكشف حل اللغز عن أن ديوفانتوس تزوج في سن ٢٦ وأصبح أباً في سن ٣١، وأن ابنه مات في سن ٤٢، أي قبل ٤ سنوات من وفاة ديوفانتوس في سن ٨٤.

وفيما يختص بكتابه "الحساب" فيتكون من ١٢٠ مسألة في ١٢ كتاباً، لم يبق منها إلا ستة. والكتاب يقدم حلولاً رقمية لمعادلات محددة، أي المعادلات ذات الحل الواحد، ويبدو أنه اهتم بالمعادلات التي تنتهي بأرقام نسبية صحيحة. ومن الجلى أن ديوفانتوس ربما كان يسير على هدى تأثير المدرسة الفيثاغورية القديمة، التي كانت تؤمن بأن الحلول غير المنطقية (أي الحلول التي تنتهي بأعداد صماء لا يمكن التعبير عنها بكسور) كانت حلولاً مستحيلة.

وأهم من آراء ديوفانتوس بشأن الأعداد الصماء كان استخدامه لأول تدوين رمزي، بما في ذلك الاختصارات الخاصة بالجهول وقوته. وقبل تلك الآونة، كان الرياضياتيون يقنعون بكتابة عناصر المسألة بكاملها. غير أن أهم شيء كان طبيعة المسائل ذاتها: فمثلاً، "... ستة أضعاف عدد مضافاً إلى ١٢، ثم يقسم على الفرق الذي يزيد به مربع العدد على ٣". ويصعب كثيراً حل مثل هذه المسألة بالتدوين المحدود الذي قدمه ديوفانتوس؛ وعلى النقيض من ذلك، قد يعمد رياضياتيو اليوم إلى كتابة $(12+6n)/(n^2-3)$. ومن الواضح أن ديوفانتوس قد خرج عن نطاق مجال الحساب، ولكن ذلك لم يتضح إلا عندما أوضحه الخوارزمي (ح ٧٨٠-٨٥٠) بجلاء، في كتابه "كتاب الجبر" الذي اشتقت من عنوانه كلمة "الجبر".

ومن الخطأ أن نطلق على ديوفانتوس لقب "أبو الجبر"، لأن بعضاً من الأفكار التي استخدمها يرجع تاريخها إلى البابليين؛ ولكن الواضح أنه أحدث تقدماً كبيراً في رياضيات المجاهيل، وكان أول من أعطى شكلاً واضحاً لتلك الدراسات. ويضاف إلى منجزاته الأخرى أنه كان أول رياضياتي يتعامل مع الكسور بوصفها أعداداً. وبعد مرور قرون، اجتذب عمله إعجاب مشاهير من أمثال ريجيومونتانوس (Regiomontanus) (١٤٣٦-١٤٧٦) وبير دي فيرمات (Pierre de Fermat) (١٦٠١-١٦٦٥).

جدسون نايت

ديوكليس (Diocles) رياضياتي إغريقي

(ح ٢٤٠ - ح ١٨٠ ق.م.)

إن تفاصيل حياته تكاد تكون مجهولة تماماً، والشئ الوحيد الذي يُتذكَّر به ديوكليس هو مخطوط ممزق عنوانه "عن المرايا الحارقة". وهو لا يكتفى فيه بمناقشة المشكلة الفيزيائية التي يشير إليها العنوان، بل يناقش موضوعات أخرى مثل قطع جسم كروي في مستوى، وكذلك مشكلة مضاعفة المكعب الشهيرة المعروفة باسم المعضلة الديلوسية (Delian problem) ولعل كتاب "عن المرايا الحارقة" كان في حقيقة أمره مجموعة من ثلاثة أبحاث قصيرة منفصلة، جُمعت تحت عنوان واحد لا يعبر عن الأبحاث جميعها. وعلى أية حال، يتكون الكتاب من ١٦ فرضية هندسية غالبيتها تتناول المخروطات.

في أول مسألة يتحدث ديوكليس عن الخاصية البؤرية للقطع المكافئ، ويقدم في الفرضيتين ٢ و ٣ خواص المرايا الكروية. وفي الفرضيتين التاليتين يتناول دليل بؤرة تكوين القطع المكافئ، وهي، ومعها ما ذكره عن الخاصية البؤرية للقطع المكافئ، من الابتكارات التي يعود لديوكليس الفضل فيها. وفي الفرضيتين ٧ و ٨ يتفحص ديوكليس مسألة وضعها أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.)، تتناول قطع جسم كروي بمستوى.

ويقدم ديوكليس في المسائل ١٠ إلى ١٢ الحلول التي يقترحها لمسألة مضاعفة المكعب (المعضلة الديلوسية). وهي أمر طالما حير الرياضياتيين الإغريق الذين حاولوا، باستخدام مسطرة مستقيمة وفرجار فقط، أن يضاعفوا المكعب. واليوم نجد أن هذه المسألة يمكن التعبير عنها بطريقة مبسطة: حدد الطول s لمكعب، حيث يكون $s^3 = 2^3$ ، حيث a هي طول المكعب المعلوم. غير أن الإغريق لم يكونوا يملكون مثل ذلك التدوين الجبري الرفيع، وحاولوا حل المسألة هندسياً. وتضمن حل ديوكليس للمسألة منحنى خاصاً يسمى "سيسويد" (cissoid)، استخدمه للتوصل إلى متوسطين

نسبيين. غير أن استخدام السيسويد يحتاج لأكثر من مسطرة مستقيمة وفرجار، وفي الحقيقة حدث بحلول القرن التاسع عشر الميلادي أن الرياضياتيين أدركوا استحالة حل المسألة بالاختصار على استخدام هاتين الآلتين.

وفي مقال نُشر سنة ١٩٧٦، في مجلة عن تاريخ الرياضيات والعلوم دافع ج. ج. تومر (G. J. Toomer) عن ديوكليس، وليس عن أبولونيوس البرجاوي، بوصفه مبتكر مصطلحات مثل: القطع الزائد والقطع المكافئ والقطع الناقص. وعلى أية حال، ناقش كتاب "عن المرايا الحارقة" عدداً من الموضوعات المثيرة للاهتمام، من بينها ما ورد بالعنوان. وفي هذا المجال ناقش ديوكليس مشكلة العثور على مرآة ينعكس منها الضوء مكوناً منحنيات معينة، وهي أمور قد تكون لها بعض الأثر في ابتكار الساعات الشمسية.

جدسون نايت

زينو الإليايوي (Zeno of Elea) فيلسوف إغريقي

(ح ٤٩٠ - ح ٤٣٠ ق.م.)

إن منجزات زينو الفيلسوف الإليايوي تثبت قانون التأثير غير المقصود. ففي أثناء محاولته إثبات الفرضيات التي وضعها معلمه بارمنيدس (Parmenides)، وهي استحالة التغيير، حقق زينو شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف. وسواء كانت بقصد أو دون قصد، فإن مفارقاته أثبتت كلاً من قوة المنطق وقيوده، وترتب على اهتمام الفلاسفة بالتحديات التي تشكلها هذه المشاكل إضفاء الطابع الرسمي على المنطق أو الجدلية كعلم.

ومثل بارمينيدس (ولد ح ٥١٥ ق.م.)، أتى زينو من إيليا، وهي مستعمرة إغريقية في جنوبي إيطاليا. وفي حوالي سن الأربعين صاحب زينو معلمه إلى أثينا؛ حيث تقابل مع سقراط (ح ٤٧٠-٣٩٠ ق.م.) وترك فيه أثراً حسناً. وفي الحقيقة، أتى معظم ما نعلمه عن تاريخ زينو المهني مما كتبه أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) تلميذ سقراط.

كان بارمينيدس يُعلم أن حالة العدم مستحيلة؛ وليس ثمة من وجود إلا للكائنات السرمدية التي لا تتغير وكلها من مادة واحدة. ومن البديهي أن هذا التعريف للحقيقة، وعلى الرغم من كونه مغريباً من بعض الوجوه، فإنه من الصعب الدفاع عنه في مواجهة المعطيات الحسية التي تجبر على الاعتراف لا بتنوع المادة في هذا العالم فحسب وإنما بطبيعتها المتغيرة.

حاول بارمينيدس أن يتعامل مع ذلك بالإصرار على أن المعرفة الحقيقية الوحيدة تكمن في العقل وحده وليس في عالم الخبرات؛ غير أنه تبين لجيل زينو أن المدرسة الإلياوية عليها أن تقدم نوعاً من البراهين. وحاول زينو ذلك بمفارقاته، التي بدلاً عن أن تثبت الموقف الإلياوي مباشرة، جنحت إلى تسفيه الموقف المعارض وفرضياته الخاصة بالتغيرات والحركة.

قيل إن زينو كتب مفارقاته - التي ادعى أفلاطون وجود أربعين منها أو أكثر - في كتاب يسمى "إبيخيريματα" (Epicheiremata). وقد اختفى هذا الكتاب، كما اختفت معظم المفارقات منذ زمن طويل، على الرغم من أنه من المحتمل أن المفارقات الأخرى مشابهة للأربع التي بقيت.

في إحدى المفارقات أشار زينو إلى سهم أُطلق من قوس. وفي كل لحظة من لحظات طيرانه، يمكن القول أن السهم كان في وضع السكون في مساحة تساوى طوله. وعلى الرغم من بأن حوالى ٢٥٠٠ سنة مرت قبل أن يُخترع التصوير الفوتوغرافى البطيء، فإنه في الحقيقة كان يطلب من المستمعين إليه أن يتخيلوا لقطة سريعة ثابتة (snapshot) للسهم أثناء طيرانه. فإن كان في حالة سكون أثناء تلك اللقطة، فمتى تحرك فعلاً؟

ومفارقة أخرى جاء فيها ذكر أخيل، بطل الإلياذة وأسرع البشر، في سباق مع سلحفاة. ولما كان أخيل أسرع من السلحفاة بكثير فقد سمح لها أن تبدأ السباق قرب خط النهاية - وهو خطأ بالغ، لأن أخيل لم يستطع مطلقاً أن يتخطى السلحفاة، وهو

ما حاول زينو أن يثبته. ففي الوقت الذي وصل فيه أخيل إلى النقطة التي بدأت منها السلحفاة كانت الأخيرة قد انتقلت إلى نقطة أخرى، عندما وصلها كانت قد انتقلت إلى نقطة ثالثة، وهكذا.

هاتان المفارقتان والمفارقتان الأخريان، اللتان كانتا مشابھتين في الفكرة، فشلتا في إثبات أن الحركة مستحيلة، ولكنها تركت أثراً في الفلاسفة يبين أهمية المنطق نفسه. ويبدو أن زينو، من خلال استخدام المنطق خلق سلسلة من الأقوال لا يمكن أن تكون صحيحة. ومن هنا وكّد البحث العلمي للجدلية، التي خلّبت ألباب الفلاسفة والرياضياتيين منذ ذلك الوقت.

وقد ساعد التقدم في دراسات التفاضل والتكامل التي أجراها كارل فايرشتراسه (Karl Weierstrasse) (١٨١٥-١٨٩٧)، وفي علوم المنطق واللغويات التي أجراها لودفيج فيتجنشتاين (Ludwig Wittgenstein) (١٨٨٩-١٩٥١) وصديقه برتراند رسل (١٨٧٢-١٩٧٠)، ساعد المفكرين على كشف لغز مفارقات زينو وفرضياتها الخفية. ففي كل مسألة تعامل زينو مع القضاء أو الزمن وكأتهما مكونان من عدد لا نهائي من النقاط - مثلاً، عدد لا نهائي من "لقطات صور" السهم. وهذا أمر صحيح في العالم المثالي للنظريات الهندسية، حيث يتكون الخط حقاً من عدد لا نهائي من النقاط؛ بينما "النقطة" في عالم الواقع لها طول محدد.

ومن البديهي أن زينو لم يتعمد أن يضع مفارقات داخل مفارقات، مثلما لم يقصد عمداً أن يسبب تلك الثورة في التفكير التي أفرخها عمله. غير أنه لا ريب في أنه كان يتمتع بروح "المشاكسة" (وهو التعبير الذي أطلقه أفلاطون) في الدفاع عن وجهة نظره. وفيما بعد وضعت هذه الروح القتالية في مواجهة الطاغية الإليايوى نيارخوس الذي قتله.

جدسون نايت

فيثاغورس فيلسوف ورياضياتي إغريقي

(٥٦٩ق-٤٧٥ق.م.)

على الرغم من أن فيثاغورس اشتهر بسبب اكتشافه للنظرية التي تحمل اسمه فإنه لم يكن يعتبر نفسه رياضياتياً في المقام الأول؛ وكذلك كان حال أعضاء الجمعية التي أسسها، والذين كانت مبادئهم تتناول موضوعات غير علمية مثل: تناسخ الأرواح، أو تقمصها. غير أن فيثاغورس وأتباعه نظروا إلى فكرة الأعداد بوصفها فكرة جوهرية للكون، وبتركيزهم على خواص الأعداد افتتحوا عملياً الدراسات الجادة للرياضيات في الغرب.

كان فيثاغورس ابناً لمينيسارخوس (Mnesarchus)، وهو تاجر من صور (في لبنان حالياً)، وزوجته بيثياس، ونشأ فيثاغورس في مدينة ساموس في إيونيا، وهي الآن في الجزء الغربي من تركيا. وكانت مهنة والده دافعاً له على السفر على نطاق واسع، ويبدو أن الصبي كان يصحبه في رحلاته التي وصلت بعيداً حتى إيطاليا. وفي شبابه وقع فيثاغورس تحت تأثير عدد من المعلمين العظام أهمهم طاليس (٦٢٥ق-٥٤٧ق.م.).

وفي حوالي سنة ٥٢٥ ق.م. زار فيثاغورس مصر، حيث اهتم بطقوس صوفية مختلفة أثناء دراسته في معبد ديوسبوليس [الاسم الإغريقي لمدينة طيبة المصرية]. ولما غزا الفرس مصر سنة ٥٢٥ ق.م. أخذوه معهم أسيراً إلى بابل، واستقر هناك بالقرب من العبرانيين أثناء أسره. ومثلما تأثر العبرانيون بالكتب المقدسة الزرادشتية واستعاروا منها فكرة الشيطان، فإن فيثاغورس وقع تحت تأثير الزرادشتية والديانة المجوسية الأقدم منها.

عاد فيثاغورس إلى ساموس سنة ٥٢٠ ق.م.، حيث أسس مدرسة بناها على نظرتة الصوفية البارغة. ويبدو أن تلاميذ ساموس لم يبدوا اهتماماً بأسلوبه في التعليم الذي كان متأثراً بالمصريين، وفي محاولة منه لتجنب إجباره على الانغماس في

الوظائف العامة فى بلدته، اتخذ فيثاغورس من عدم اهتمام التلاميذ بطريقته فى التعليم ذريعة للانتقال إلى إيطاليا. وفى سنة ٥١٨ ق.م. استقر به المقام فى بلدة كروتون، فى الطرف الشرقى لكعب حذاء شبه الجزيرة، حيث أسس المجتمع الفيثاغورى.

نمت مجموعة أتباعه باطراد بعد وصوله إلى كروتون، وأطلقوا على أنفسهم "الرياضياتيون" (mathematikoi). وكانوا يؤمنون بأن الرياضيات هى قلب الحقيقة، وأن الرموز لها مغزى صوفى وتقرب ما بين البشر والآلهة. كانت الفيثاغورية واحدة من أوائل الجمعيات السرية فى العالم، وكان أعضاؤها يعيشون بصورة جماعية وكلهم من النباتيين، ويقسمون على السرية والولاء. وبجانب كل سماتهم الغريبة انفردوا عن غالبية العالم القديم فى أنهم سمحوا للنساء بالمشاركة الكاملة فى جمعيتهم، بوصفهم متساوين ذهنياً مع الرجال.

ومن وجهة النظر الرياضياتية، كان من بين أهم إسهامات فيثاغورس تعامله مع الأعداد بوصفها كيانات مجردة منفصلة عن أية تفصيلات. وربما لأول مرة يُنظر إلى ٢ بوصفها مجرد ٢ وليست حصاتين أو حصانين أو سفينتين. أما نظريته الشهيرة - وهى أن مساحة المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية تساوى مجموع مساحات المربعين المقامين على الضلعين الآخرين - فيبدو أن البابليين قبله بألف عام كانوا يعرفون هذا المبدأ، وأن فيثاغورس كان مجرد أول من أثبت النظرية. كما أثبت هو وأتباعه أيضاً أن مجموع الزوايا فى أى مثلث يساوى زاويتين قائمتين.

ويعود إلى الفيثاغورين، وبخاصة هيباسوس الميتابونتامى (Hippasus of Metapontum) (اشتهر ح ٥٠٠ ق.م.)، فضل اكتشاف الأعداد الصماء، أى ذات الكسور العشرية اللانهائية، حيث لا تتكرر فيها الأرقام إلى ما لا نهاية. غير أن مفهوم الأعداد الصماء كان مخالفاً للتعاليم الفيثاغورية التى كانت تنادى بأن كل الأشياء يمكن التعبير عنها بأعداد صحيحة، أو بنسب من أعداد صحيحة. ونتج عنه منطوق مشابه؛ هو رفض الفيثاغورين لمفاهيم على شاكلة المالا نهاية وغير المحدودة. وتلقى هذه المواقف الضوء على حقيقة أنه وأتباعه قد قاموا بالعديد من الاكتشافات الرياضياتية، إلا

أن فيثاغورس - الذي كان يؤمن بأن كل عدد له "شخصية" - كان في قرارة نفسه صوفياً لا رياضياتياً.

وحدث سنة ٥٠٨ ق.م. أن رجلاً من علية القوم يدعى سايلون أراد أن يشترك في الجمعية قسراً، ورفضه فيثاغورس لأنه لم يظن أن اهتمام سايلون بالرياضيات كان اهتماماً خالصاً لوجه الرياضيات. فعزم سايلون عندئذ على تدمير الجمعية، ففر فيثاغورس إلى ميتابونتوم (Metapontum) المدينة الإيطالية، حيث فضل الانتحار، وفقاً لإحدى الروايات، على أن يسمح لسايون بأن يسيطر على الجمعية التي أنشأها. وفي سنوات لاحقة صار الفيثاغوريون قوة قوية في جنوبي إيطاليا، فهاجمهم أعداء لهم هجوماً ضارياً حتى اضطروا إلى الفرار إلى طيبة وغيرها من المدن في بلاد اليونان.

جدسون نايت



فيثاغورس

كونون الساموى (Conon of Samos) فلكى ورياضياتى إغريقى

(٢٨٠٩-٢٢٠٩ ق.م.)

عُرف كونون الساموى فى المقام الأول بكونه فلكياً، وبخاصة لاكتشافه للمجرة المعروفة باسم "نؤابة برنيسيز" (Coma Berenices). كما أسهم إسهامات مهمة فى الرياضيات بدراسته للمخروطات، التى تأثر بها أبولونيوس البرجاوى. كان كونون صديقاً لأرشميدس (٢٨٧-٢١٢ ق.م.)، ولعله ترك أثراً أيضاً على أعمال ذلك الرياضى والعالم العظيم.

ويوصفه فلكياً فى بلاط الحاكم المصرى بطليموس الثالث يوريجيتس (Ptolemy III Evergetes)، أطلق كونون اسم زوجة بطليموس الملكة برنيس الثانية على المجرة الشهيرة. (كانت تلك الأسماء، إضافة إلى اسم كليوباترا، من المظاهر الثابتة لأسرة البطالمة، واستمرت حتى آخر ملك بطلمى وهى كليوباترا السابعة - كليوباترا الشهيرة - بعد ذلك بقرنين). ويقال إن بطليموس بعد عودته من حملة عسكرية فى سوريا سنة ٢٤٦ ق.م.، قصت برنيس نؤابة من شعرها وقدمتها هدية إلى معبد أرسينوى زفيريتيس (Arsinoë Zephyritis). وكان لهذا العمل مغزاه لأن البطالمة الإغريق، اتباعاً لتقاليد مصرية يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة، كانوا يُعْتَبَرُونَ آلهة. ولهذا حدثت شبه كارثة عندما اختفت نؤابة شعر برنيس.

وحل كونون الأزمة بصورة ما، من وجهة نظر العلاقات العامة، عندما أطلق على المجرة المكتشفة حديثاً اسم "نؤابة برنيس". وتتكون المجرة من سبعة نجوم باهتة بالقرب من ذيل "الأسد" (Leo)، ويقع بين هذه المجرة ومجرتى فيرجو وبوتس. وبمرور الوقت أصبحت المجرة موضوعاً يتناوله الشعراء مثل: الشاعر الإغريقى كاليماخوس (Callimachus)، الذى قدمها فى قصيدته "خصلة برنيس". (Berenikes plokamos) وهجا ألكساندر بوب (Alexander Pope) فى سخرية هذا العمل فى "اغتصاب النؤابة"

(Rape of the Lock)، وهى ملحمة هزلية تتحول فيها نؤابة برنيس المسروقة إلى نجم جديد فى السماء.

وفى نفس الوقت أصبح كونون نفسه شخصية شهيرة يحتفى به شعراء روما فى عصرها الذهبى، الذين صوروه كنموذج للفلكى. ووفقاً لما قرره كاتولوس (Catullus) (٨٤-٥٤ ق.م.)، فإنه استطلع كل أضواء الكون المترامى، وكشف عن شروق النجوم وغروبها، وكيف يتم إظلام الضوء النارى الساطع للشمس، وكيف تتراجع النجوم فى أوقات محددة.

كتب سنيكا (Seneca) (٢٧ ق.م.-٦٥ م) يقول إن كونون "سجل كسوفات الشمس التى شاهدها المصريون"، وادعى بطليموس (١٠٠-١٧٠) أنه كشف عن ١٧ علامة للفصول فى كتابه "الفلك" (De astrologia). والأخير هو كتاب اختفى مثل كتب كونون الأخرى التى ضاعت كلها منذ زمن طويل. وفيما يتعلق بصداقته مع أرشميدس فمن المرجح أنهما التقيا فى الإسكندرية. وأصبح أرشميدس من كبار المعجبين بكونون، وأنه، وفقاً لما قاله بابوس (اشتهر ح ٣٢٠ م)، اعتمد فى بنائه للوالب أرشميدس الشهير على شكل توصل إليه كونون.

واستمر أبولونيوس فى الإصرار على أن كتاب كونون "رداً على ثراسيديون" (Pros Thrasysdaion)، وهو كتاب يتناول نقاط تقاطع المخروطات، بما فيها الدوائر، حوى أخطاء عديدة. غير أن أبولونيوس نفسه بنى الكثير من مناقشته للمقاطع المخروطية فى الجزء الرابع من كتابه "هندسة المخروطات" الكتاب الرابع، على أبحاث كونون.

جدسون نايت

ليو هيو (Liu Hui) رياضياتى صينى

(اشتهر ح ٢١٣ م)

ليو هيو هو أول رياضياتى متميز غير إغريقى، وتوصل إلى تقريب مبكر لـ "ط". كما اشتهر أيضاً بتعليقاته على كتاب رياضياتى صينى قديم وباستخدامه لعصى الحساب، وهى نوع من الحواسيب ابتكره الرياضياتيون فى الصين قبل زمنه بقرون.

عاش ليو هيو فى حقبة الممالك الثلاث (٢٢١-٢٦٥ م)، وهى فترة من الفوضى أعقبت مباشرة انهيار أسرة هان. وعلى الرغم من تشوش الأزمنة واضطرابها إلا أن العصر أنتج عدداً هائلاً من المنجزات الثقافية والعلمية؛ وفى القرن الرابع عشر صدر كتاب أصبح ذائع الصيت هو "رومانسية الممالك الثلاث" يحتفى بتلك الفترة من التاريخ الصينى.

والممالك الثلاث التى عمل ليو هيو موظفاً فى حكومتها هى وو وشو ووي. والتاريخ المؤكد الوحيد فى حياته هو سنة ٢٦٢، عندما كتب تعليقات على كتاب "تسعة فصول فى فن الرياضيات". وبعدها بعامين، سنة ٢٦٥، وقعت مملكة وي تحت سلطان أسرة تشين الغربية، والتى انتهت بامتصاص وو وشو. واستمر سلطان تشين الغربية حتى سنة ٣١٦، عندما وقعت الصين فريسة لغزو من الغزوات العديدة من القبائل الرحل من الشمال التى اتسم بها تاريخ الصين قبل الفترة الحديثة. ولم تتحد الصين مرة أخرى إلا بعد أربعة قرون من انهيار أسرة هان، أى سنة ٥٨٩.

وفيما يتعلق بكتاب "تسعة فصول فى فن الرياضيات" فهو نص مجهول المؤلف ويعود تاريخه إلى القرن الأول ق.م. ويعتبر أقدم نص رياضياتى صينى، ويحتوى على ٢٤٦، مسألة موزعة على تسعة فصول كما يدل العنوان. وأول تلك الفصول يتناول الحساب وأساسيات الهندسة، ويشمل حديثاً عن عصى الحساب.

والأخيرة، أى عصى الحساب، التى ربما تكون قد نشأت فى القرن الخامس ق.م.، هى عصى صغيرة من الخيزران مرتبة، حيث تعبر عن نظام القيمة العشرية

الموضعية للأرقام، أى الخانات. ويعبر موقع خال عن الصفر، وهى فكرة كان عليها أن تنتظر الرياضياتيين الهنود كى يضعوها فى إطارها الصحيح، وهم الذين يُنسب إليهم تقليدياً فضل التوصل إلى تلك الفكرة. وكان نظام عصى الحساب يرتب الأعداد من اليسار إلى اليمين - وهى حقيقة جديرة بالذكر فى بلد يكتب شعبه من اليمين إلى اليسار.

وأحياناً يعزى لليو هيو أنه كان يستخدم عصياً حمراء اللون للأعداد الموجبة وعصياً سوداء للأعداد السالبة - وهى فكرة، على غرار فكرة الصفر، كانت لا تزال تحتاج إلى تقنين. (تقليدياً، يعزى التعبير الصريح عن تلك الأفكار وغيرها من الأفكار الجوهريّة إلى الرياضياتيين الهنود فى عهد إمبراطورية جويتا، حوالى ٣٢٠-٥٤٠م). وفى الحقيقة يمكن أن نتبع استخدام العصى الحمراء والسوداء إلى الفصل الرابع من كتاب "تسعة فصول".

وتحتوى الفصول الثانى والثالث والسادس على تطبيقات للرياضيات فى سبيل أهداف الحكم - فمثلاً، ورد حساب الضرائب العادلة فى الفصل ٦ - واستكشف الفصل ٥ قياسات الأشكال المختلفة. وتفحص الفصل السابع المنطق الرياضياتى؛ والثامن المعادلات الخطية الأنية والأعداد السالبة؛ والتاسع تطبيقات ما سوف يطلق عليه الرياضياتيون فى الغرب نظرية فيثاغورس. (وربما تكون هذه النظرية قد اكتشفها البابليون قبل فيثاغورس [ح ٥٨٠ - ح ٥٠٠ ق.م.] بما يقرب من ألف عام، ومن المحتمل أن الاكتشاف الصينى للنظرية تم بصورة مستقلة).

ويحتوى الفصل الخامس أيضاً على الرقم ٢ كقيمة للقيمة التقريبية "ط" (π)، ولكن ليو هيو فى تعليقه على "تسعة فصول فى فن الرياضيات" حدد رقماً أدق بكثير. وقد توصل إليه باستخدام المضلعات فى تقريب النوائر، فبدأ من مضلع عدد أضلاعه ٩٦ وانتهى بمضلع له ١٩٢ ضلعاً، فتوصل إلى رقم ٣,١٤١,٠١٤ ومن البيدهى أن علماء اليوم قد وصلوا إلى رقم به مواقع عشرية يزيد عددها على المليون موقع، ولكن الرقم ٣,١٤٥٩٢ هو الرقم المختصر. وقبل زمن ليو هيو بقرن كان بطليموس

(ح ١٠٠-١٧٠ م) قد توصل إلى ١٤١٦، ٢، وبعد ليو هيو بقرنين توصل الرياضياتى الصينى تسو تشونج تشيه (زو تشونجزي، ٤٢٩-٥٠٠ م) إلى الرقم ١١٣/٢٥٥، وهو شديد القرب من الرقم المقبول اليوم.

وإضافة إلى تعليقاته على "تسعة فصول" صنف ليو هيو كتاب "كتيب جزيرة البحر فى الرياضيات". وقد بدأه كملحق لأعمال له أقدم، لكنه فى النهاية تطور ونما حتى شمل، من بين ما شمل، تسعة مسائل فى المساحات.

جدسون نايت

منيخموس (Menaechmus) رياضياتى إغريقى

(ح ٣٨٠-٣٢٠ ق.م.)

أثناء محاولته حل مسألة مضاعفة المكعب اكتشف منيخموس المقاطع المخروطية، التى كان مقدراً لها تأثير عميق على الرياضيات فى العصور الحديثة. كما أنه مسؤل أيضاً عن التمييز بين معنى كلمة "مبادئ"، التى كانت حتى تلك الأوقات تسبب ارتباكاً فى أوساط الهندسيين الإغريق.

وفى الوقت الذى يكاد فيه المؤرخون أن يجهلوا كل شىء عن حياة دينوستراتوس (ح ٣٩٠-٣٢٠ ق.م.)، الذى استخدم المنحنى التربيعى الذى توصل إليه هيبباس (ح ٤٦٠-٤٠٠ ق.م.) فى محاولاته لحل مسألة تربيع الدائرة، فإن المعلومات عن منيخموس متاحة بصورة أفضل - وهو أمر له أهميته لأنه كان الأخ الأصغر لدينوستراتوس. غير أن حياته العائلية فيما عدا ذلك تتسم بالغموض، وكذلك الحقائق حول مولده.

تناول عديد من الكتاب تفاصيل حياة منيخموس المهنية، مما أتاح للمؤرخين أن يكونوا صورة تقريبية. فهناك منيخموس، الذى ينتمى إما إلى إقليم أوبيكونيسوس

أو إلى إقليم بروكونيسوس، الذي كتب ثلاثة تعليقات على "الجمهورية". ويقع الإقليم الأول في تراقيا، والثاني على شواطئ بحر مرمرة، وكلا الإقليمين على مقربة من سيزيكوس في آسيا الصغرى، حيث تعلم منيخموس على يد يودوكسوس الكنيديوسي (ح ٤٠٨-٢٥٥ ق.م). وبعد أن انتهى منيخموس من دراسته يبدو أنه عمل معلماً للإسكندر الأكبر (٢٥٦-٢٢٢ ق.م).

وعلى غرار كثير من الرياضياتيين في زمانه ومكانه، اشتغل منيخموس بمحاولات حل المعضلة الديلوسية، أي مضاعفة المكعب. وهو اليوم أمر في غاية البساطة باستخدام المعادلة $س^3 = ٢١٢$ ، حيث $أ$ هي طول المكعب و $س$ هي طول المكعب بعد مضاعفته. غير أن الإغريق لم يكن ينقصهم هذا التدوين فحسب، وهو الذي يمكنهم من تصور المسألة في صورة جبرية؛ بل كان ينقصهم أيضاً الصيغة الجبرية ذاتها، وحاولوا مواجهة التحدي مستخدمين أدوات هندسية بسيطة هي الفرجار والمسطرة المستقيمة. واكتشف أبقراط الكيوسي (ح ٤٧٠-٤١٠ ق.م) أن الحل يكمن في التوصل إلى متوسط التناسيبات بين خطين معلومين؛ وحسّن أرخيتاس التارنتومي (ح ٤٢٨-٣٥٠ ق.م) هذه الطريقة؛ ثم تقدم منيخموس بهذا الحل خطوة أخرى بعمله الذي أصبح يُعرف باسم المقاطع المخروطية.

وفي النهاية، اقترح منيخموس وسيلتين للتوصل إلى الحل، شملتا قطع المخروطات في مستويات كوسيلة للتوصل إلى متوسط التناسيبات بين عددين. غير أن الأهمية الكبرى لعمله ليست في تطبيقه في حل المعضلة الديلوسية، وإنما في تقديمه للمقاطع المخروطية. وفيما بعد، طور أبولونيوس البرجاوي (ح ٢٦٢-١٩٠ ق.م) مصطلحات الأشكال التي يكونها قطع المخروطات - القطع الزائد والقطع المكافئ... إلخ - وفي الأزمنة الحديثة وجدت هذه الأشكال تطبيقات لها في كل شيء من حساب التفاضل والتكامل إلى علوم الصواريخ.

كما كان مفيداً أيضاً تمييز منيخموس بين المعنيين المتأصلين لمصطلح "مبادئ". فوفقاً لما ذكره لبروكوس (٤١٠-٤٨٥ م)، من أنه ناقش على سبيل المثال الفرق بين

المعنى الأشمل لكلمة مبادئ (وفيه أن أية فرضية تؤدي إلى أخرى يقال عنها إنها مبدأ من مبادئها أو عنصر من عناصرها) والمعنى الأكثر خصوصية الذي يشتمل عليه المصطلح الحديث "أولي" (فى سياق استخداماته اليومية غير الرياضياتية)، الذي ينطبق عليه تعريف بروكلوس بمعنى "الشيء البسيط والأساسى الذى يخضع لما يُستخلص منه من توابع مستمدة من علاقته بمبدأ من المبادئ، ويمكن تطبيقه عمومياً ويدخل فى صلب براهين كل أنواع الفرضيات". أما منيخموس فقد أكد المعنى الأول، الذى له علاقة أكثر وضوحاً مع تركيبية الرياضيات.

واعتراف منيخموس بأن بعضاً على الأقل من التحديات التى تواجه المفكرين يمكن تفسيرها لغوياً، يعيد إلى الأذهان مفكرين محدثين مثل لودفيج فيتجنشتاين (Ludwig Wittgenstein) (١٨٨٩-١٩٥١)، الذى رفض أيضاً التمييز السائد بين "مسائل" و"نظريات"، مقررأ أن كلا المصطلحين يصف مسائل، والفرق الوحيد يكمن فى هدف التحدى الذى يقدمانه وطبيعته.

جدسون نايت

نيكوماخوس الجيراسي (Nicomachus of Gerasa) رياضياتي وفيلسوف

روماني سوري

(ح ٦٠ - ح ١٠٠ م)

في مسرحية بقلم لوسيان شاعر الهجاء الساخر تقول شخصية لأخرى "أنت تجرى حسابات مثل نيكوماخوس". والأخير هو فيلسوف أشهر ما يُتذكر به هو "مقدمة في الحساب" (Arithmetike eisagoge)، الذي ترك أثراً عميقاً بل غير اعتيادي كمرجع رياضياتي.

جيراسا هي الآن مدينة جرش في الأردن، وكانت آنذاك جزءاً من سوريا الرومانية، ومن المحتمل أن نيكوماخوس كان ينتمي عرقياً إلى تلك المنطقة لكنه تمت رمننته تماماً في الثقافة واللغة. ويمكن الاستدلال على أنه درس في مدرسة كانت تعتنق أفكار فيثاغورس (ح. ٥٨٠-٥٠٠ ق.م.)، لأن تلك الأفكار تغلب على كتابه "مقدمة في الحساب".

وفي الكتاب الأخير درس نيكوماخوس الأعداد الفردية والزوجية والمركبة والكاملة. كما قدم أيضاً نظرية لافتة للنظر أثبت فيها أنه بجمع أعداد فردية متتالية يمكن التوصل إلى سلسلة من مجموع كل تكعيبات الأعداد. بمعنى أن $1^2 = 1$ ، وأن $2^2 = 1 + 3$ ، وأن $3^2 = 1 + 3 + 5$ ، وهكذا.

وعلى صعيد آخر، كان نيكوماخوس يدلي بروايات زائفة تبدو وكأنها صحيحة لأنه كان يأتي بمعلومات تؤيد تأكيدات الأصلية. ومن هذا المنطلق جاءت تأكيدات أن كل الأعداد الكاملة - وهي الأعداد التي إذا جمعنا الأعداد القاسمة والمقسومة تنتهي إلى العدد نفسه (مثل $1+2+3=6$) - كلها تنتهي بـ ٦ أو ٨ على التوالي. وهو خطأ لأن الأعداد الكاملة الوحيدة التي كان نيكوماخوس يعرفها كانت ٦ و ٢٨ و ٤٩٦ و ٨١٢٨.

كما يكشف الكتاب أيضاً عن الجانب الغريب وغير العلمى للرياضيات الفيتاغورية، التى تربط، على سبيل المثال، الشخصيات بالأعداد. ففى تناوله للأعداد الزائدة (وهى التى فيها مجموع مقسوماتها أكبر من العدد نفسه)، كتب نيكوماخوس أن هذه الأعداد تعيد للأذهان "حيواناً له عشرة أفواه أو تسع شفاه وله ثلاثة صفوف من الأسنان؛ أو له منة ذراع، أو يملك عدداً كبيراً من الأصابع فى يد من يديه ...". وعكس العدد الزائد هو العدد الناقص الذى مجموع مقسوماته أقل من العدد الأصلى، وهو يشبه كائناً له عين واحدة ... أو ذراع واحد، أو أقل من خمس أصابع فى إحدى يديه ...".

ازدرى بابوس (اشتهر ح ٢٢٠ م) وغيره من رياضياتى أخريات العالم القديم كتاب نيكوماخوس، وأثبت بوثيوس (ح ٤٨٠-٥٢٤ م) أنه قروسطى حق بإعجابة بالكتاب. وحوله إلى كتاب مدرسى، وعلى الرغم من الغرائب التى احتوى عليها، وربما بسببها، أصبح "مقدمة فى الحساب" المرجع المعيارى للحساب فى العصور الوسطى. ولم يتم استبداله إلا بعد الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١) عندما تعرف الأوربيون الغربيون على صورة عربية للأعمال القديمة أكثر أهمية.

وكتب نيكوماخوس، إضافة إلى "مقدمة فى الحساب" كتاباً فى النظريات الموسيقية هو "كتيب فى الهارمونية"، استخدم فيه أيضاً الأفكار الفيتاغورية، وفى هذه الحالة كان موقفه أشد صلابة لما بين الموسيقى والرياضيات من علاقات وثيقة.

جدسون نايت

نيكوميديس (Nicomedes) رياضياتى إغريقي

(ح ٢٨٠ - ح ٢١٠ ق.م.)

اشتهر نيكوميديس بابتكاره للمنحنى المحارى، وهو منحنى خاص استخدمه لحل مسألتين شهيرتين حيرتا قدامى الرياضياتيين الإغريق، وهما تثليث الزوايا ومضاعفة المكعب. كذلك اشتهر نيكوميديس بالنظرية التمهيدية "لأ" (lemma) وهى نظرية غير ذات أهمية اكتشفها أثناء محاولاته لحل المسألة الأخيرة.

ونستطيع أن نحدد تاريخ نيكوميديس بشئ من الدقة إن اعتمدنا على حقيقة معروفة هى أنه كان على علم بقياس إيراتوستينيز (ح ٢٨٥ - ح ٢٠٥ ق.م.) لمحيط الأرض (وانتقد منهاجيتها)، لكننا لا ندرى شيئاً آخر عن حياته، سوى أنه ربما جاء من برجاموم الدولة - المدينة الإغريقية فى آسيا الصغرى. أما كتابه الأكثر شهرة - ولعله الوحيد - "حول المنحنيات المحارية"، فقد ضاع.

غير أن أجزاءه التى بقيت فى كتابات آخرين؛ تزودنا بمعلومات عن المنحنى المحارى ونظرية "لأ". والمنحنى المحارى يبدو لشخص حديث ما يمكن أن يطلق عليه منحنى ناقوسياً مفلطحاً؛ ومن هنا جاء اشتقاق اسمها من konche أو المحارة. وهناك خط تحت هذا المنحنى، وتحت الخط هناك نقطة موازية لقمة المنحنى. وب تحديد طول الجزء من القمة إلى النقطة السفلية، صار من الممكن التوصل إلى أجزاء ذات طول مساوٍ - وكلاماً يقطعان المنحنى - على جانبي ذلك الجزء. وأنتج ذلك بدوره زاوية متثلثة، مما أسهم فى حل من نوع ما لواحدة من أعقد مسائل العالم القديم.

وقد ذكر نيكوميديس أيضاً أن المنحنى المحارى يمكن استخدامه للتوصل إلى متوسط التناسبات، وبهذا يمكن أن تسهم فى حل المعضلة الديلوسية الخاصة بمضاعفة المكعب. وفى أثناء محاولاته التوصل إلى حل لتلك المسألة ابتكر نيكوميديس نظريته التمهيدية "لأ". فباستخدام الأدوات التقليدية، أى الفرجار والمسطرة المستقيمة،

بدأ بخطين يقطعان عدداً من المثلثات ويشكلان أجزاء منها. وأنتجت هذه النظرية التمهيدية، التي كشفت عن أن ضلعين معينين متساويان، وهذا بدوره أتاح له طريقة لتحديد متوسط التناسبات. وبعد قرون، استخدم فرانسوا فييت (François Viète) (١٥٤٠-١٦٠٣) نظرية اللما التمهيدية لحل معادلات من الدرجة الثالثة والرابعة.

جدسون نايت

هيباتيا السكندرية رياضياتية وفلكية وفيلسوفة مصرية

(ح ٣٧٠ - ٤١٥ م)

كانت هيباتيا السكندرية، في أوجها، رياضياتية وفيلسوفة رئيسية في الحضارة الغربية. وعلى الرغم من أنه لم تُنسب إليها نظريات جديدة في الرياضيات، فإن أعمالها كانت حاسمة في الحفاظ على أعمال رياضياتيين وفلكيين سابقين لها وشرحها. وبالنسبة إلى امرأة في زمانها وصلت هيباتيا إلى شهرة ومكانة لم يسبق لها مثيل، وفي السنوات الحديثة أصبحت رمزاً عند أنصار المرأة والأنصار الدينيين والمهتمين بجنورها المصرية.

كانت هيباتيا ابنة لثيون (Theon)، آخر رئيس معروف لمتحف الإسكندرية، بمصر، الذي كان مركزاً قديماً لدراسة الكلاسيكيات. وفي أخريات القرن الرابع، كانت الإسكندرية المركز الفكري للعالم الغربي، ومركزاً للدراسات والعلوم الهلينية.

تلقت هيباتيا تعليمها على يد أبيها وعملت معه. ولا يعلم المؤرخون ما إذا كانت قد ارتحلت أم بقيت في الإسكندرية طوال حياتها، ولكن من المحتمل أنها درست في أثينا. وكانت هيباتيا تُعلّم الرياضيات والفلسفة في الإسكندرية، ربما من خلال المتحف وربما مستقلة عنه. وكان لها تلاميذ ومعاونون من نوى النفوذ، منهم الحاكم الروماني للإسكندرية وشخص آخر أصبح فيما بعد أسقفًا مسيحيًا. ومن المؤكد أنها لم تتزوج قط.

لا يُنسب لهيباتيا أو ثيون فضل ابتكار نظريات جديدة فى الرياضيات، ولكن عملهما كان حاسماً فى الحفاظ على أعمال من سبقوهما من رياضياتيين وفلكيين وشرح هذه الأعمال. كانت إعدادات ثيون لأعمال الآخرين وتعليقاته عليها المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن كثير من أعمال إقليدس (ح ٢٠٠ ق.م.) وبطليموس (القرن الثانى م). ويعلم العلماء أن هيباتيا جهزت واحدة على الأقل من تعليقات ثيون على "المجسطي" لبطليموس لأن ثيون يشكرها على ذلك فى مقدمته للكتاب. كان "المجسطي" أساس العلوم الفلكية فى العالمين الغربى والإسلامى حتى أعاد كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٢) كتابة الفلك فى القرن السادس عشر. كانت تعليقات ثيون نوعاً من شروحات المدرسين للنص، وكانت هيباتيا شهيرة بقدراتها التدريسية. فمن المنطقى إذاً أنها كانت توسع من نطاق تأثير تدرسيها من خلال توضيحاتها وشروحاتها للنصوص.

لم يتبق اليوم شىء من كتابات هيباتيا، ولكن التقارير القديمة تخبرنا أنها كتبت تعليقات على ديوفانتوس (القرن الثالث م)، وهو رياضياتى إغريقى كان ابتكاره الرئيسى إدخاله الرموز فى الجبر. وقد عُثر على بعض الفصول الضائعة من نص ديوفانتوس فى ترجمات عربية. ولما كانت تلك الفصول مكتوبة بعناية أكثر من تلك المكتوبة باليونانية ولها شروح واضحة، فقد تكون تعليقات هيباتيا جزءاً من تلك الترجمات. وأعمال ديوفانتوس فريدة من نوعها وفقاً للتقاليد اليونانية بسبب اهتمامها بالجبر أكثر من الهندسة، ولهذا أسدت إسهامات هيباتيا بالحفاظ عليها خدمة حقيقية تساعدنا على فهم الأساس التاريخى للجبر الذى نعرفه اليوم.

كتبت هيباتيا أيضاً تعليقات على كتاب "المخروطات" لأبولونيوس البرجائى (ح ٢٦٢-١٩٠ ق.م.)، وهو رياضياتى إغريقى آخر. وحوى كتاب أبولونيوس على بعض من أكثر أعمال الهندسة اليونانية تقدماً وصعوبة. وكان "المخروطات" ملهماً لبطليموس فى وصفه لمدارات الكواكب فى القرن الثانى الميلادى، كما ألهم فى القرن السابع عشر ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) وفيرمات (١٦٠١-١٦٦٥) أثناء تطويرهما للهندسة التحليلية. وتم تحليل النصوص المتاحة بحثاً عن علامات تشى بكتابات هيباتيا وقد يعطى ذلك بعض الدلائل على تحريرها لها.

وقد نشأت أساطير كثيرة حول هيباتيا، ولكن لدينا تقارير موثوق بها عن موتها سنة ٤١٥، على يد الغوغاء من المسيحيين، الذين أمسكوا بها فى الشارع، وضربوها ثم جروا جثتها إلى كنيسة، حيث أزالوا اللحم من عظامها مستخدمين أصدافاً بحرية. وفى تلك الأثناء كانت الإسكندرية تعاني من صراعات عنيفة بين المسيحيين وغير المسيحيين وكذلك بين الزعماء الدينيين والمدنيين. ولعل موتتها الرهيبة قد تسببت فيها مكانتها الرفيعة فى المجتمع، و صداقتها لأوريستيس (Orestes) كبير المسئولين الرومان فى الإسكندرية، وحقيقة أنها لم تكن مسيحية وسط مناخ تتزايد مسيحيته. كما أنها كانت تمثل المعرفة والعلم، اللذين كان المسيحيون الأوائل يربطون بينهما وبين الوثنية. وبعد تعيينه أسقفاً مسيحياً سنة ٤١٢، حاول كيرلس أن يفرض سيطرته على المدينة وعلى أوريستيس، منافسه. وبفرض أن كيرلس لم يأمر بقتل هيباتيا فإنه بالقطع خلق المناخ الذى يحط من قدر امرأة وثنية على علاقة بأوريستيس. ومن حسن الحظ أن كتابات هيباتيا لم تتعرض للدمار. وبدلاً من ذلك أسهمت فى الحفاظ على كتابات العلماء القدامى الرياضياتية والفلكية، ويستمر الرياضياتيون يتدارسون الوسائل التى عززت بها تعليقاتها تلك الكتابات القديمة.

إديث برنتيس منديز (EDITH PRENTICE MENDEZ)



هيباتيا

هيبياى الإليساوى (Hippias of Elis) رياضياتى إغريقى

(ح ٤٦٠ - ح ٤٠٠ ق.م.)

من النادر أن شخصية رياضياتى أو عالم تلعب دوراً مؤثراً فى سيرة حياته، ولكن هيبياى اشتهر بكونه متباهياً، حيث يندر أن يذكر دون التطرق إلى هذه الحقيقة. غير أنه يبدو أنه كان لديه سبب وجيه للتفاخر، لما كان عليه من علم غزير فى مناحٍ واسعة، شمل العديد منها تطبيقات رياضياتية. ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نذكر أنه ربما كان هو من ابتدع المنحنيات التربيعة كوسيلة لمضاعفة المكعب، وتثليث الزوايا وتربيع الدائرة قبل أن يستخدمها دينوستراتوس (Dinostratus) (ح ٣٩٠ - ح ٢٢٠ ق.م.) فى الأغراض السالفة بما يقرب من قرن.

نشأ هيبياى فى إليس (Elis) على الأراضى اليونانية وكان يكسب قوته كفيلسوف متجول، ولعله كان عضواً فى جماعة السفسطانيين. ومن بين الموضوعات التى كان يحاضر فيها الشعر والنحو والتاريخ والسياسة وعلم الآثار، وكذلك فى الرياضيات والمجالات المتعلقة بها، التى شملت الحسابات والهندسة والفلك واستخدامات الرياضيات فى الموسيقى التى كانت المدرسة الفيثاغورية من روادها الأوائل.

وطبقاً لما قرره أفلاطون (٤٢٧-٢٤٧ ق.م.) كان هيبياى رجلاً متباهياً. وذكر تى إل هيث (T. L. Heath) فى كتابه "تاريخ الرياضيات الإغريقية" (History of Greek Mathematics) الصادر سنة ١٩٢١، فى معرض حديثه عن هيبياى "ادعى ... أنه ذهب إلى الاحتفالات الأولبية [الألعاب الأولبية] وكان كل ما يرتديه من صنع يديه، الخاتم وصندل (منقوش) وزجاجة زيت ومكشطة وحذاء وملابس وحزام فارسى فاخر؛ كما أخذ معه أيضاً قصائد شعرية، وملاحم وتراجيديات وحماسيات وكل أنواع الأعمال النثرية". ومن الجلى أن هيبياى كان من النوع المتباهى، لكنه كان موهوباً، فقد ابتكر نظاماً للتذكر يجعله يكرر قائمة من ٥٠ اسماً بمجرد أن يسمعها مرة واحدة فقط.

ويبدو إسهامه الوحيد في الرياضيات، والذي كان من الممكن أن يكون إنجازاً عظيماً، هو المنحنى التربيعة. وهذا المنحنى، الذي استخدمه دينوستراتوس فيما بعد في تربيع الدائرة، يمكن استخدامه أيضاً في تثليث الزوايا، وهو الهدف الذي سعى إليه هيبياس. واستخدمه أرخيتاس (Archytas) (ح ٤٢٨-٣٥٠ ق.م.)، كما ذكر هيث، في مضاعفة المكعب.

ويمكن وصف المنحنى التربيعة بأنه مربع أ ب ج د. والنقطة أ هي مركز دائرة نصف قطرها هو أ ه ويشكل المنحنى ب ه د ربع قوس الدائرة وتقع أ في منتصفه. فإذا تحرك أ ه بصورة منتظمة من أ ب في اتجاه أ د (مثل مسأحة زجاج سيارة تتحرك في اتجاه عقارب الساعة من القمة إلى أسفل)، ونزل ب ج مباشرة إلى أ د، فإن نصف القطر أ ه والخط ب ج سيتقاطعان عند النقطة و. فيمكن عندئذ رسم خط من و نازلاً ليتقاطع مع أ د عند النقطة ز.

وباستخدام هذه المعطيات ابتكر هيبياس مجموعة من النسب أكدت وجود تكافؤ بين الزاوية ه أ د، والقوس ه د، و(ز س $\times \pi / 2$) فنجح عندئذ في إنشاء رسم بياني يمكنه من تقسيم الزاوية ه أ د بنسبة معينة. غير أن سبوروس (Sporus) (ح ٢٤٠-٢٠٠ م) انتقد طريقة هيبياس كطريقة ملتوية، وأن استخدامها، على أية حال، يشمل استخدام آلات أكثر من الآلتين الأساسيتين الفرجار والمسطرة المستقيمة.

جدسون نايت

يودوكسوس الكنيديوسى (Eudoxus of Cnidus) فلكى ورياضياتى إغريقى

(ح ٤٠٨-٣٥٥ ق.م.)

كان يودوكسوس أول من طبق الرياضيات بطريقة مناسبة فى دراسة الفلك، كما أسهم أيضاً إسهامات مباشرة فى الدراسات الرياضياتية بنظريته عن النسبة والتناسب وطريقته الاستفادية. ويضاف إلى ذلك أنه عمل طبيباً واكتسب شهرة كفيلسوف وككاتب سياسى. كما كتب أيضاً وصفاً لرحلاته فى كتاب من سبعة أجزاء عنوانه "الطواف حول الأرض".

ولد يودوكسوس فى كنيديوس المستعمرة الإغريقية فى آسيا الصغرى، وانحدر من نسل طويل من الأطباء، وتدرّب كى يصبح طبيباً. وفى سن ٢٢ انتقل إلى أثينا ليعمل منساعداً لطبيب، وأثناء وجوده فى المدينة العظيمة حضر محاضرات أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) فى أكاديميته. ثم عاد إلى كنيديوس، حيث استكمل دراسته قبل أن يرتحل إلى مصر بصحبة طبيب آخر.

وهناك، وفى مرصد فى هليوبوليس على النيل، اكتشف يودوكسوس مهنته الثانية. فقد كان، بوصفه طبيباً، معتاداً على كتابة ملاحظات مفصلة، وهى من السمات القليلة التى تميز فيها الطب القديم، وكانت المعطيات التى جمعها فى هليوبوليس فى غاية الإتقان. ثم قدمها فى كتاب بعنوان "الظواهر" (Phaenomena)، وهو دراسة فلكية صريحة تحوى قوائم للنجوم التى تشرق وتغرب على الأفق فى بداية كل شهر، وكذلك مواقع كل المجرات بالنسبة إلى بعضها البعض.

عاد يودوكسوس إلى آسيا الصغرى، وقد استقر على مسار جديد لحياته المهنية، وأسس مدرسة فى مدينة سيزيكوس (Cyzicus). وهناك كتب "حول السرعات"، وهو عمل أشد أهمية من "الظواهر" قدم فيه نظرية جديدة عن حركة الشمس والقمر والكواكب. ومع إدراكه لكروية الأرض، تخيل يودوكسوس سلسلة من المدارات الكرات

المتحدة المراكز حولها، وفي النهاية ابتكر ٢٧ جسماً كروياً كانت ضرورية لتصوير حركة كل الأجرام المعروفة.

واليوم، تبدو فكرة أجسام كروية متحدة المركز جلية وواضحة: ومن ثم يفكر الناس في مدار كوكب حول الشمس - على الرغم من أنه في الحقيقة يضاوى وليس دائرياً - وكأنه يحدث عند خط الاستواء لجسم كروي تخيلى. غير أن تلك الفكرة، التي انتهى الأمر بها إلى أن صارت تُمثَل مادياً فى تنوع من الآلات الفلكية، تلك الفكرة كانت أبعد ما يكون عن الوضوح فى زمن يودوكسوس.

وفيما بعد، وجدت نظريته عن النسبة والتناسب وطريقته الاستنفادية طريقها إلى كتاب 'المبادئ' الذى ألفه إقليدس (ح ٢٢٥-٢٥٠ ق.م.). وطبقاً لنظرية يودوكسوس، إذا كان جسم أكبر من جسم آخر فإن نسبته إلى جسم ثالث أكبر أيضاً من نسبة الجسم الثانى إلى الجسم الثالث - وهو أمر بديهى من وجهة نظر القرن الحادى والعشرين الميلادى، لكنه لم يكن كذلك فى القرن الرابع ق.م. وفيما يتعلق بطريقة يودوكسوس الاستنفادية، كتب أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.) يقول إنه توصل إلى أول براهين على صحة فرضيتين كانتا معروفتين أيامه: وهى أن حجم هرم يساوى ثلث حجم منشور له نفس القاعدة والارتفاع، وأن نفس هذه القاعدة تنطبق أيضاً على المخروط والاسطوانة.

انتقل يودوكسوس إلى أثينا، ولكن عندما أطاح أهالى كنيديوس بحكم الأقلية وأسسوا حكماً ديمقراطياً، دعوه للعودة ليكتب لهم دستوراً للدولة الجديدة. وعندئذ عاد إلى وطنه، حيث أنشأ مرصداً ومدرسة بعد أن أتم مهمته الحكومية. ووفقاً لما قرره أرسطو (٢٨٤-٣٢٢ ق.م.) اشتهر يودوكسوس أيضاً بأنه فيلسوف.

جدسون نايت

شخصيات تستحق الذكر

أحمس (ح ١٦٨٠ - ح ١٦٢٠ ق.م.)

كاتب مصري يُنسب إليه كتابة بردية رايند، التي أُسميت على اسم ألكساندر هنرى رايند المصروولوجى الاسكتلندى الذى اكتشفها سنة ١٨٥٨. كان أحمس مجرد كاتب ولم يكن هو مؤلفها، كما ذكر هو نفسه فى المخطوط، وقرر أنه كان ينقل معارف رياضياتية من مخطوط أقدم، ربما يعود تاريخه إلى ٢٠٠٠ ق.م. وتحوى بردية رايند ٨٧ مسألة فى الحساب الأولى، وبها كسور بسيطة.

أرشميدس (Archimedes) (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.)

رياضياتى وعالم إغريقى تمكن، عن طريق تحسين طرق من سبقوه فى الاستنفاد لتربيع الدائرة، تمكن من التوصل إلى أول قيمة موثوق بها لـ π (p) واشتهر أرشميدس بمكتشفاته العديدة، مثل مبدأ الطفو؛ وبابتكاراته أو تحسيناته، ومنها نظام البكرة [فى الروافع] والمنجنيق. كما اشتغل أيضاً بالفلك وبالفيزياء، وأجرى دراسات عن النظام الشمسى ومبادئ الجاذبية والتوازن. كان تلميذاً لإقليدس (ح ٣٢٥-٢٥٠ ق.م.) وكونون (اشتهر ح ٢٤٥ ق.م.)، وقام بأول توضيح رياضياتى لمبدأ الحركة المركبة، ونجح فى حساب الجذور التربيعية بطريقة التقريب. وبهذا، فعلى الرغم من شهرته لإسهاماته فى المقام الأول فى مجالات الفيزياء والتكنولوجيا، فإن أرشميدس كان يعتبر أيضاً واحداً من أعظم العباقرة فى الرياضيات فى العالم القديم.

ومهدت أعماله على الأسطح المنحنية لنشأة علم التفاضل والتكامل بعده بما يقرب من ألفى عام.

أريستارخوس الساموسى (Aristarchus of Samos) (ح ٣١٠ - ح ٢٣٠ ق م.)

فلكى ورياضياتى إغريقى استخدم النظريات الهندسية فى حساب النسبة بين حجمى الشمس، والقمر والمسافة بينهما. ولما كان أول عالم يقترح كوناً متمركزاً حول الشمس، فإنه كثيراً ما يعتبر مجرد فلكى، ولكن غالبية أعماله فى الحقيقة تدرج تحت باب الرياضيات البحتة. وفيما يتعلق بقياساته للمسافة بين الشمس والقمر، استخدم الزاوية بين القمر نصف البدر والشمس ليتوصل إلى أن حجم الشمس يبلغ ٢٠ ضعفاً حجم القمر، وأن المسافة بينهما تبلغ ٢٠ ضعفاً المسافة من الأرض. وكون كلا التقديرين أقل بكثير من الحقيقة كان نتيجة لخطأ الأدوات التى استخدمها فى القياس وليس نتيجة لخطأ فى طريقته.

أفلاطون (Plato) (ح ٤٢٨ - ح ٣٤٨ ق م.)

واحد من أكثر الفلاسفة الإغريق تأثيراً وأحد تلاميذ سقراط. أسس الأكاديمية، وهى مدرسة للتعليم العالى استمرت قائمة ما يقرب من ألف عام. وتعلم أرسطو بها لحوالى ٢٠ سنة. كتب أفلاطون العديد من المتون، أهمها "الجمهورية" (The Republic)، التى وصف فيها المجتمع المثالى الذى يحكمه ملوك-فلاسفة، ونبذ فيها الديمقراطية كنمط صالح للحكومة. جادل أفلاطون بأن الحقيقة تنقسم إلى عالم الأحاسيس، وهو عالم معارفنا عنه منقوصة، وعالم الأفكار، ومعارفنا عنه صادقة وكاملة. فمثلاً كل دائرة نراها بها بعض النقص - أى أنها مجرد تقريب للدائرة المثالية. ونحن نعلم ما هى الدائرة باستيعاب فكرة الدائرة أو "شكلها".

أمونيوس ساكوس (Ammonius Saccus) (١٧٥-٢٤٢):

فيلسوف سكندري إغريقي اشتهر بأنه مؤسس الأفلاطونية الحديثة، التي كانت ذروة الفلسفة الإغريقية الأصيلة وتجسيداً حقيقياً للفلسفات الإغريقية الغيبية السابقة. ويبدو أن كتاباته إما ضاعت أو أنه لم يكتب شيئاً من تعاليمه الشاملة التي اشتهر بها. كان بلوتينوس (Plotinus) أهم حواريه في نشر فكر الأفلاطونية الحديثة وهو المنظر المهيم على تلك الفلسفة ومعلم بورفيرى (Porphyry)، الذي قام بتبسيط أفكار بلوتينوس الخاصة بالأفلاطونية الحديثة التي أثرت بدورها على ماكروبيوس (Macrobius) وأوجستين (Augustine).

أمونيوس هرميا (Ammonius Hermiae) (اشتهر ح ٥٠٠ م) :

فيلسوف بيزنطى من شمال إفريقيا عمل كمدير لمدرسة الإسكندرية. كان تلميذاً لبروكلوس (٤١٠-٤٨٥ م)، وعلم يوتوشيسوس العسقلانى (Eutocius of Ascalon) (ح ٤٨٠- ح ٥٤٠ م)، الذى أهدى إليه تعليقاته على كتاب أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م) "حول الجسم الكروي والاسطوانى". وفى كتاباته الشخصية اهتم فى المقام الأول بالمنطق وعلوم الفيزياء، وبقي عدد من تلك الأعمال - منها عدة تعليقات على أرسطو (٢٨٤-٢٢٢ ق.م) - واسع الانتشار بين الدارسين الأوربيين طوال العصور الوسطى.

أناكساجوراس الكلازومينى (Anaxagoras of Clazomenae) (٤٩٩-٤٢٨ ق.م.)

فيلسوف إغريقي قام بأول محاولة معروفة لتربيع الدائرة، كما كتب دراسة علمية مبكرة فى علم الكونيات. ووفقاً لما قرره فيتروفيسوس (Vitruvius) المعمارى الرومانى (القرن الأول م) كتب أناكساجوراس أيضاً مقالاً عن كيف ترسم الأشياء، بحيث تبدو

الأشياء التي في الخلفية أصغر حجماً من الأشياء التي في المقدمة - وبمعنى آخر، كيف تستخدم المنظور. وسبق أناكساجوراس علماء التنوير بما يقارب الألفى عام عندما كتب عن النظام الشمسي ككيان ملموس وليس كأمر أخلاقي؛ وكان أول مفكر يقرر أن ضوء القمر هو انعكاس لضوء الشمس.

أنטיפون السفطائي (Antiphon the Sophist) (٤٨٠-٤١١ ق.م.)

خطيب وسياسي إغريقي كان أول من اقترح استخدام طريقة استنفاد الوسائل الأخرى واستبعادها في تربيح الدائرة. واقترح أنטיפون رسماً مضلعاً متساوي الأضلاع داخل الدائرة، ثم يضاعف عدد أضلاعه مرة تلو الأخرى حتى يستنفد الفرق بين المضلع والدائرة. ولقيت طريقته انتقاداً من أرسطو (٢٨٤-٢٢٢ ق.م.) وغيره، ومن المحتمل أن أنטיפون كان يؤمن بأن الدائرة هي مضلع له عدد لا نهائي من الأضلاع؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه قام بمجهود كبير في سبيل مساواة مساحة دائرة بمساحة مربع.

أوتوليكوس البيتاني (Autolycus of Pitane) (ح ٣٦٠ - ح ٢٩٠ ق.م.)

فلكي ورياضياتي إغريقي كتب أقدم عملين رياضياتيين بقيا. أولهما هو "حول الأجسام الكروية المتحركة" وهو دراسة للهندسة الكروية مع تطبيقات فلكية واضحة، والثاني "عن الشروق والغروب"، وهو عمل يتناول ملاحظات فلكية. ومن المحتمل أن أولهما كان منبئياً على كتاب هندسة، مفقود الآن، كتبه يودوكسوس الكنيديوسي (Eudoxus of Cnidus) (ح ٤٠٨-٣٥٥ ق.م.)، والذي أيد أوتوليكوس نظريته عن الأجسام الكروية المتمركزة حول مركز واحد.

بابوس الإسكندري (Pappus of Alexandria) (٢٩٠٢ - ٣٥٠٢ م)

رياضياتي وفلكي وجغرافي إغريقي، كان أشهر أعماله "المجموعة" (Synagoge). وفي الوقت الذي استخدمت فيه "المجموعة" كدليل هندسي، فإنها أدمجت أيضاً في أعمال رياضياتيين أقدم، وفي أحوال كثيرة كانت هي المصدر الوحيد الباقي لتلك الأفكار. كما احتوت أيضاً على عمل ترك تأثيراً على الهندسة الفلكية والإسقاطية، واستخدم كل من رينييه ديكار وواسحق نيوتن أعمال بابوس. كما كتب أيضاً كتاباً عن جغرافية العالم، وربما يكون كتب عن "المبادئ" لإقليدس، وعن الموسيقى والأجهزة المائية.

بارمينيديس الإلياي (Parmenides of Elea) (ح ٥١٥ - ٤٨٠ ق. م.)

هو أهم فيلسوف إغريقي قديم قبل سقراط. وكان أول من تناول موضوع طبيعة الكائنات ومشكلة التغيير. وجادل بأن كل الأشياء الموجودة لا تتغير بنفس فكرة أن كل الأشياء الموجودة كانت موجودة دائماً، ولا شيء يتحول إلى شيء آخر. وعلى الرغم من أن حواسنا تشير إلى عكس ذلك - أي أن الأشياء تتغير - فإن بارمينيديس جادل بأن تلك التغيرات المتصورة هي أوهام.

بانيني (Panini) (اشتهر في القرن الخامس ق. م.)

نحوي هندي وضع نظاماً لقواعد اللغة السنسكريتية، ويعتبر رائد النظرية الحديثة في اللغات الرسمية. وفي كتابه "أستادهايي" (Astadhyayi) قدم بانيني ما يقرب من ٤٠٠٠ قاعدة للغة صارت من الحكم الماثورة، وبقيت لم تتغير بصورة جوهرية طوال الألفي عام التالية - والفضل في ذلك يعود إلى النظام الذي وضعه. وكثيراً ما كانت صيغه اللغوية تُشَبَّه بالدالات الرياضية، وثمة أقوال تقترح وجود ارتباط بين نظام الأعداد الهندي والمنطق الرياضي وبين تركيبية اللغة السنسكريتية.

براهماجوبتا (Brahmagupta) (٥٩٨-٦٧٠ م)

فلكى ورياضياتى هندی كان تناوله لنظرية الأعداد سابقاً للآراء المقبولة حالياً فى الرياضيات. وعرف كتابه "افتتاح الكون" (Brahmasphutasiddhanta) (٦٢٨ م) الصفر بأنه النتيجة التى نحصل عليها عندما يُطرح عدد من نفسه - وكان ذلك هو أدق تعريف للصفر حتى ذلك الوقت. كما أعطى براهماجوبتا أيضاً قواعد "الثروات" و"الديون" (أى الأعداد الموجبة والسالبة)، واستخدم نظام القيمة الموقعية للأعداد (الخانات) فى صورة قريبة من استخدامها اليوم. وإضافة إلى ذلك، قدم "افتتاح الكون" طريقة حسابية لحل المعادلات التربيعية، وصورة بدائية للرموز الجبرية.

برايسون الهيراكلى (Bryson of Heraclea) (ولد حوالى ٤٥٠ ق.م.)

رياضياتى إغريقى أدخل تحسينات على طريقة استنفاد الوسائل الأخرى، التى أدخلها لأول مرة أنتيفون السفسطائى (٤٨٠-٤١١ ق.م.)، لتربيع الدائرة. تضمنت طريقة برايسون رسم مربع داخل الدائرة وتطوير الدائرة بمربع أكبر خارجها؛ ثم رسم مربع ثالث بين المربعين الداخلى والخارجى. ولا يبدو واضحاً كيفية استخدامه لتلك الأشكال، لكنه ذكر أن الدائرة أكبر من كل المضلعات التى تُرسم داخلها وأصغر من كل المضلعات التى تُرسم خارجها. ويبدو أنه بزيادة عدد أضلاع المضلعات قرر إمكانية تقليل الفارق بينها وبين الدائرة.

برسيوس (Perseus) (اشتهر فى القرن الثانى ق.م.)

رياضياتى إغريقى عرف أساساً من خلال تعليقات بروكلوس (٤١٠؟-٤٨٥ م) على الأسطح والمقاطع المحورية. والأسطح المحورية، كما عرّفها بروكلوس، هى التى فيها تدور دائرة حول خط مستقيم (هو محور الدوران) ولكنها تبقى دائماً

في نفس مستوى المحور. وهناك ثلاثة أنواع محتملة من الأسطح المحورية، وفقاً لما إذا كان المحور يقطع الدائرة، أو مماساً لها، أو خارجها. (وهي تشبه رقم ٨ بيضاوي أو رقم ٨ ذا خصر عريض أو رقم ٨ ذا خصر نحيل). أجرى بروكلوس مقارنة بين أعمال برسيوس على المقاطع المحورية - التي تنتج عندما يقطع مستوى مواز لمحور الدوران سطحاً محورياً - ودراسات أبولونيوس (ح ٢٦٢ - ح ١٩٠ ق.م.) حول المخروطات.

بطليموس (Ptolemy) (كلوديوس بطليموس) (Claudius Ptolemaeus) (١٠٠٤ - ١٧٠٤ م)

رياضياتي وفلكي إغريقي وجغرافي، كان عمله الرئيسي، وهو "المجسطى" (Almagest) متناً رياضياتياً ضخماً يصف حركات السماوات. كان مواطناً رومانياً من أصل إغريقي ويعيش في الإسكندرية بمصر، وكان صاحب التأثير الأكبر بين فلكيي العالم القديم. والرياضيات التي استخدمت في "المجسطى" هي هندسة إقليدس طبقت كي تفسر مشاهدات فلكية. وهيمنت أفكار بطليموس على الفلك لمدة ١٤ قرناً. كما كتب أيضاً في موضوعات رياضياتية أخرى وفي التنجيم والجغرافيا.

بورفيرى مالكوس (Porphyry Malchus) (٢٣٣ - ٣٠٩ م)

فيلسوف سوري اشتهر بتعليقاته الرياضياتية. كان تلميذاً لبلوتونيوس (Plotinus) (٢٠٥ - ٢٧٠ م)، مؤسس الأفلاطونية الحديثة، ومساعداً شديد القرب منه، وحاول بورفيرى أن يجمع بين أفكار أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م.) وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.). كان لتعليقاته على كتاب أرسطو "الفئات" (Categories) (تأثير على نشأة علم المنطق، بينما كانت كتاباته عن "المبادئ" لإقليدس (ح ٢٢٥ - ح ٢٥٠ ق.م.) مصدراً رئيسياً لبابوس (اشتهر ح ٣٢٠ م).

تسو تسونج - تشيه (زو تشونجزي) (Tsu Ch'ung-chih (Zu Chongzhi) (٤٢٩-٥٠٠ م)

رياضياتى وفلكى صينى توصل إلى تحديد بالغ الدقة لـ "ط" (π) كان الرقم الذى توصل إليه تسو هو $355/113$ أو 3.1415926 وهو رقم صحيح حتى ستة أرقام عشرية، وبقي أكثر الأرقام التقريبية دقة لعدة قرون. كتب كتاباً رياضياتياً، ضاع اليوم، بالاشتراك مع ابنه، وفى سنة ٤٦٣ ابتكر تقويماً لم يستخدم مطلقاً.

تشانج تسانج (مات ١٥٢ ق.م.)

رياضياتى صينى، يُنسب إليه أحياناً تأليف كتاب "تسعة فصول فى الفنون الرياضياتية" (Chiu-chang Suan-shu or Jiuzhang Suanshu) وهو أقدم نص رياضياتى صينى، ويحوى ٢٤٦ مسألة، قُدمت فى تسعة فصول، كما يشير العنوان. وبعد تشانج تسانج بأربعة قرون كتب ليو هيو (اشتهر ح ٢٦٣) تعليقاته الشهيرة على كتاب "تسعة فصول".

ثيماريداس الباروسى (Thymaridas of Paros) (ح ٤٠٠ - ح ٣٥٠ ق.م.)

رياضياتى إغريقى اشتهر بعمله الذى يتناول نظرية الأعداد الفيثاغورية. وصف ثيماريداس الأعداد الأولية بأنها "مستقيمة الخطوط" لأنها لا يمكن كتابتها إلا كمقطع ذى اتجاه واحد، بينما عدد مثل ٨ يساوى مستطيلاً أبعاده 4×2 وحدات. كما ابتكر طريقة لحل المعادلات الخطية الآتية وأسمى طريقته "زهرة ثيماريداس".

ثيودوسيوس البثيني (Theodosius of Bithynia) (ح ١٦٠ - ح ٩٠ ق.م.)

رياضياتى وفلكى إغريقى، هناك واحد من أعماله التى بقيت كتاب "الأجسام الكروية" (Sphaerics). وكان هدفه من الكتاب أن يطرح أساساً رياضياتياً للفلك، فتوسع عما ذكره "المبادئ" لإقليدس (ح ٢٢٥ - ح ٢٥٠ ق.م.) عن الأجسام الكروية. وفى كتابه "عن المساكن" (On Habitations)، يناقش ثيودوسيوس مشهد الكون نتيجة دوران الأرض، وفى "عن الأيام والليالي" يتحدث عن القواعد التى تتحكم فى طول الأيام والليالي كدالة على الموقع والفصل المناخى.

ثيون السكندرى (Theon of Alexandria) (٣٣٥؟ - ٤٠٥؟ م)

رياضياتى وفلكى إغريقى كتب تعليقات على "المجسطى" لبطليموس كما أتى بمعلومات عن كتب أقدم ضاعت. كان عضواً بمتحف الإسكندرية وأعاد كتابة متون كتبها مؤلفون أقدم منه. ونالت طبعته عن "المبادئ" لإقليدس انتشاراً أوسع مما ناله الأصل، ولكنه أضاف أخطاءً بقيت لقرون. وتشمل أعماله الضائعة نصوصاً عن آلات فلكية (الاسطرلاب)، ونبوءات ونُدُر، وفيضان النيل. وكان أباً لهيباتيا.

دارماكيرتى (Dharmakirti) (اشتهر فى القرن السابع م)

فيلسوف بوذى هندى وعالم بالمنطق ابتكر نظاماً للقياس المنطقى ترك تأثيراً عميقاً فى الشرق. وفى كتابه "المقالات السبع" وضع دارماكيرتى نمطاً دقيقاً للقياس المنطقى تكوّن، مثل نظيره الغربى، من ثلاثة أجزاء؛ غير أن الهدف من هذه الأجزاء الثلاثة - بل المنهجية التى تحكم استخدامها - كانت مختلفة اختلافاً جذرياً. ترك منطق دارماكيرتى تأثيراً بالغاً على الفكر فى الأقطار البوذية، وعلى الرغم من أن نفوذ البوذية

اضمحل فى موطنها الهند، فإن مبادئه أصبحت جزءاً من المنطق الهندى وإن لم يُعترف بذلك إلا نادراً.

دوسيثيوس اليلوزيومى (Dositheus of Pelusium) (اشتهر حوالى ٢٣٠ ق.م.)

رياضياتى إغريقى خلف كونون الساموزى (ح ٢٨٠-٢٢٠ ق.م.) كمدير لمدرسة الرياضيات فى الإسكندرية. ويبدو أن دوسيثيوس درس على كونون، وحل محله بعد وفاته كمدير للمدرسة. وكان أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.) فى السابق قد تراسل مع كونون، واستمر يتراسل مع دوسيثيوس، وأهدى إليه أربع مقالات على الأقل.

دومنينوس اللارىسى (Dominus of Larissa) (ح ٤٢٠- ح ٤٨٠ م)

فيلسوف سورى يهودى كتب عن نظرية الأعداد والهندسة. درس فى أكاديمية أثينا، حيث دخل فى تنافس مع بروكلوس (٤١٠-٤٨٥ م)، ثم عاد إلى وطنه سوريا وكتب عدة أعمال، منها اثنان معروفان. كتيب الحساب التمهيدى وكيف تستخرج نسبة من نسبة وكلاهما تُرجما وطُبعاً بعد ١٤٠٠ سنة من وفاة دومنينوس. ومن المحتمل أن كتيب الحساب التمهيدى كان رداً على المبادئ شبه الصوفية التى قدمها كاتب سورى آخر هو نيكوماخوس الجيراسى (Nicomachus of Gerasa) (ح ٦٠- ح ١٠٠ م)، فى عمل بنفس الاسم قبل ثلاثة قرون.

ديموكريتوس (Democritus) (ح ٤٦٠- ح ٣٧٠ ق.م.)

فيلسوف إغريقى، اشتهر بنظريته الذرية، وأسهم أيضاً فى دراسة الهندسة. كان ديموكريتوس أول من قرر أن حجم مخروط هو ثلث حجم إسطوانة مساوية للمخروط

فى مساحة القاعدة والارتفاع، وأن نفس القاعدة تنطبق على العلاقة بين الشكل الهرمى والمنشور. وبعده بقرن، أثبت يودوكسوس الكنيديوسى (ح ٤٠٨ - ح ٣٥٥ ق.م.) هذه الفرضية. وتشمل كتابات ديموكريتوس الرياضياتية "عن الأعداد" و"عن الهندسة، و"عن المماسات" و"عن الدالات" و"عن الأعداد الصماء».

ديونيسودوروس (Dionysodorus) (ح ٢٥٠ - ح ١٩٠ ق.م.)

رياضياتى إغريقى ابتكر، طبقاً لما قرره يوتوكيوس (Eutocius) (ح ٤٨٠ - ح ٥٤٠ ق.م.)، طريقة لحل المعادلات التكعيبية. فباستخدام قطع مكافئ وقطع زائد مستطيل بنى ديونيسودوروس نموذجاً رائعاً لقطع جسم كروى وفقاً لنسبة معينة. كما كتب أيضاً كتاباً ضاع، وقد يكون ابتكر مزولة شمسية مخروطية.

زانج هنج (Zhang Heng) (٧٨-١٣٩ م)

رياضياتى وفلكى صينى، ابتكر أول جهاز فى العالم لكشف الزلازل، كما صنع واحدة من أقدم الكرات الأرضية الدوارة. كان جهازه اختراعاً عبقرياً كشف عنه سنة ١٢٢، ويتكون من إسطوانة تحيط بها تنينات وتحتها ضفادع. وعندما تهتز الأرض تسقط كرة من فم تنين إلى فم ضفدعة محدثة جلبة. كما ابتكر زانج هنج أيضاً تقويماً معدلاً سنة ١٢٢، وتناول علوم الكون فى نصوص عديدة. وتوصل إلى رقم لـ "ط" (π) للجذر التربيعى لـ ١٠ التى كانت قيمتها ١.٦٢. ٣. صحيحة لرقم عشرى واحد فقط.

زينو الصيداوى (Zeno of Sidon) (ح ١٥٠ - ح ٧٠ ق.م.)

فيلسوف إغريقى من الشرق الأدنى اشتهر بانتقاداته اللاذعة لإقليدس (ح ٢٢٥-٢٥٠ ق.م.). كان زينو من مفكرى المدرسة الأبيقورية، وكان متحاملاً ضد الرياضيات والعلوم، ولكنه، على عكس أبيقور (Epicurus) (٣٤١-٢٧٠ ق.م.) نفسه، كان يهاجمها من منطلق المعرفة. وكان موقفه أن الهندسة بها فرضيات خفية، وعلى الرغم من أن عمله لم يلتفت إليه الكثيرون فى أيامه، فإن العلماء المحدثين يميلون إلى اعتباره ناقداً عبقرياً للمنطق الرياضياتى.

زينودوروس (Zenodorus) (٢٠٠؟-١٤٠؟ ق.م.)

رياضياتى إغريقى كتب عن الأشكال المستوية والجوامد ذات المحيط أو السطح المتساوى ولكن مساحاتها وأحجامها مختلفة (الأشكال الأيسومترية). وعلى الرغم من ضياع نصوصه فإن المعروف من كتابات الآخرين أنه أثبت أن الأجسام الكروية لها أكبر مساحة لسطحها عند تساوى الحجم. كما يقال أيضاً إنه ابتكر المرآة الحارقة، وهى آلة تعمل على تركيز أشعة الشمس.

زينوكراتيس الخلقدونى (Xenocrates of Chalcedon) (٣٩٦-٣١٤ ق.م.)

رياضياتى وفيلسوف إغريقى كتب ٧٠ عملاً، لم يبق منها إلا عناوينها. كان من تلاميذ أفلاطون، وترأس الأكاديمية من ٣٢٩ ق.م. حتى وفاته. وحاول أن ينظم أفكار أفلاطون وينشرها، لكنه فهمها بصورة مختلفة عن الآخرين فى الأكاديمية. كتب عملين رياضياتيين، هما "عن الأعداد" (On Numbers)، و"نظرية الأعداد" (The Theory of Numbers)، ويفترض أنه قام بحساب المقاطع التى يمكن أن تتكون من حروف الأبجدية اليونانية فبلغت ١,٠٠٢,٠٠٠,٠٠٠.

سبوروس النيقياوي (Sporus of Nicaea) (ح ٢٤٠ - ح ٣٠٠ م)

رياضياتي إغريقي ومعلم بابوس (اشتهر ح ٣٢٠م)، واشتهر بأعماله عن مسائل تقليدية بانتقاده لمناهج غيره من الرياضياتيين. ابتكر سبوروس حلولاً خاصة به لمضاعفة المكعب وتربيع الدائرة، وفي المسألة الأخيرة أنتج أشهر تعليقاته النقدية على أعمال الآخرين. وكان رأيه - الذي اتفق معه فيه عديد من المؤرخين بعد ذلك - أن المنحنى التربيعة الذي توصل إليها هيبياس (ح ٤٦٠ - ح ٤٠٠ ق.م.) يحتاج من مستخدمه أن يعرف نصف قطر الدائرة موضع البحث، وبذلك يفترض العلم بالإجابة التي وُضع المنحنى من أجل التوصل إليها. وإضافة إلى أعماله كرياضياتي كتب سبوروس عن الشمس والمذنبات.

سفيروس سيبوخت (Severus Sebokht) (اشتهر ح ٦٥٠ م)

رجل دين وعالم سورى كان أول من تحدث عن الأعداد الهندية خارج الهند. كما كتب سيبوخت أيضاً أقدم مقالة معروفة عن الاسطرلاب (astrolabe)، وكانت له أعمال في مناحٍ أخرى من الرياضيات إلى الفلك والجغرافيا والفلسفة واللاهوت. وكتب يقول عن الأعداد الهندية "إنها تتفوق على الكلمات المكتوبة ... وأنها تتم بواسطة تسعة رموز".

سمبليسيوس (Simplicius) (ح ٤٩٠ - ح ٥٦٠ م)

فيلسوف بيزنطي كتب تعليقات على العديد من النصوص الرياضياتية القديمة. كان تلميذاً لأمونوس هرميا (Ammonius Hermiae) (اشتهر ح ٥٠٠م)، ثم درس لاحقاً في أكاديمية أثينا على يد داماسكيوس (Damascius) (٤٨٠ - ح ٥٥٠م)، الذي كان لا يزال يعمل مديراً سنة ٥٢٩، عندما أمر الإمبراطور جستنيان الأول (حكم

٥٢٧-٥٦٥م) بإغلاق كل المدارس الوثنية. وبعد ذلك أمضى سمبليسيوس وداماسكيوس وغيرهما من العلماء فترة قصيرة من الوقت في بلاط ملك فارس خسرو الأول (حكم ٥٣١-٥٧٩م) قبل أن يعودوا إلى أثينا. شملت كتابات سمبليسيوس تعليقات على كتابي أرسطو "عن السماوات" (De caelo) و"الفيزياء"، كما علق أيضاً على "المبادئ" لإقليدس (ح ٣٢٥- ح ٢٥٠ ق.م). وكل تلك الأعمال حافلة بإشارات مستفيضة لأعمال رياضياتيين مختلفين، ويعتبر سمبليسيوس مصدراً لأعمال ضاعت منذ زمن بعيد، وللمعلومات عن كتب تلك الأعمال.

سيرينوس (Serenus) (ح ٣٠٠ - ح ٣٦٠م)

رياضياتي إغريقي اشتهر بأعماله في الهندسة وبتعليقاته على كتب الآخرين. ومن بين أعماله في الهندسة التي بقيت كتبه "حول المقاطع في إسطوانة" و"حول المقاطع في مخروط". ومن بين أهم تعليقاته تعليقه على "هندسة المخروطيات" لأبولونيوس (ح ٢٦٢- ح ١٩٠ ق.م)، الذي فقد لسوء الحظ.

شوتوكو تايشي (Shotoku Taishi) (٥٧٢-٦٢١م)

أمير ياباني ترك تأثيراً كبيراً على تطور بلاده، ويعتبر تقليدياً أبو الحساب الياباني. ألف شوتوكو "الدستور نو السبع عشرة مادة" (٦٠٤م)، الذي جمع المبادئ التي تحكم اليابان، ولعب دوراً مهماً في مؤازرة تقبل اليابانيين للديانة البوذية. كان حاضراً عندما قدم كانروكو الراهب البوذي الكوري حوالي سنة ٦٠٠، مجموعة من الأعمال عن التنجيم والتقويم إلى الإمبراطورة اليابانية. وتقول الأساطير إنه صار بعدها مولعاً بالرياضيات وأظهر نبوغاً في إجراء الحسابات.

طاليس الميلى (Thales of Miletus) (٦٢٥ق - ٥٤٧ق م.)

فيلسوف من فلاسفة الطبيعة الإغريق ومهندس ورياضياتى نسب إليه الرياضياتيون الإغريق اللاحقون فضل إحضار الرياضيات المصرية إلى بلاد اليونان، وبهذا أسس دراسة الهندسة اليونانية. ويعتبر أول فيلسوف يقترح أسباباً طبيعية لا فوق طبيعية لأحداث مثل الزلازل. وكان يؤمن بأن الماء هو العنصر الأساسى الذى خلق منه كل شيء آخر. كان مهندساً ثرياً وسياسياً، ويشاع أنه تنبأ بنجاح بكسوف شمسى سنة ٥٨٥ ق.م.، وربما كان معلم أناكسيماندر. ولم يبق شيء من كتاباته.

فيلون البيزنطى (Philon of Byzantium) (ح ٢٨٠ - ح ٢٢٠ ق م.)

فيزيائى ومخترع إغريقى اشتهر بمقالته عن الميكانيكا، ولدراساته عن مضاعفة المكعب. وفى كتابه "الميكانيكا" ناقش فيلون الروافع، والمنجنيق وخواص الهواء. وتناول المعضلة الديلوسية (أى مضاعفة المكعب) من زاوية ابتكار منجنيق يستطيع أن يقذف بقذيفة يبلغ وزنها ضعف وزن قذائف المنجنيقات الموجودة أيامها.

كالليوس السيزيكوسى (Callippus of Cyzicus) (ح ٣٧٠ - ح ٣١٠ ق م.)

فلكى ورياضياتى إغريقى كان يستخدم الفلك الرياضياتى فى أغراض متعددة، منها خلق دورة من ٧٦ سنة جمعت بين السنة الشمسية والسنة القمرية. وفيما بعد، استخدم الفلكيون تقويم كالليوس المكون من ٩٤٠ شهراً، الذى علل عدم تساوى أطوال الفصول بأن طور نموذجاً تسير فيه الشمس بسرعات متفاوتة فى أوقات مختلفة من السنة. وكان نظامه المكون من ٢٤ كرة تحسباً لنظام

الكرات المتمركزة حول الأرض الذي اقترحه أستاذه يوبوكسوس الكنيديوسي
(ح ٤٠٨ - ح ٢٥٥ ق.م).

كليوميديس (Cleomedes) (اشتهر في القرن الأول م)

رياضياتي إغريقي أتى في كتابه "حول الحركات الدائرية للأجرام السماوية" بمعلومات قيمة عن أعمال سابقيه ممن كانوا أكثر تميزاً منه. ويكاد الكتاب أن يكون مجرد تجميع لأفكار مأخوذة من آخرين، أهمهم بوزيدونيوس (Posidonius) (١٣٥-٥١ ق.م)، ويحوى خليطاً من معطيات دقيقة وأخرى تتسم بالانعدام المطلق للدقة. ومما له أهمية خاصة حقيقة أن النص يشكل المصدر الرئيسي للمنهاج الذي اتبعه إيراتوستينز (ح ٢٨٥-٢٠٥ ق.م) في قياسه الشهير لمحيط الأرض.

لوسيپوس (Leucippus) (٤٨٠٢-٤٢٠٢ ق.م)

فيلسوف إغريقي أكثر ما اشتهر به هو أنه مؤسس المذهب الذري، وهو القول بأن كل المادة مكونة من ذرات غير قابلة للتدمير؛ وأضافت كتابات تلميذه ديموكريتوس الأبديري (Democritus of Abderra) الكثير من التفاصيل لهذه الفكرة. ومن المرجح أن لوسيپوس تعلم على يد الفيلسوف زينو الإلياي، الذي حفزت مفارقاته عن الحركة كثيراً من التخمينات الفيزيائية الإغريقية. وثمة شذرة واحدة بقيت من أعماله المكتوبة وتعتبر عن نظرة قطعية للعالم لا مجال فيها للاحتتمالات والصدف.

لي تشون-فنج (اشتهر ح ٦٥٠ م)

رياضياتي صيني اشتهر بتعليقاته على الأعمال الرياضياتية القديمة. تزعم لى تشون - فنج مجموعة من العلماء كتبوا حوالى سنة ٦٥٠، تعليقاً على تسعة فصول

في الفنون الرياضية وعلى الكلاسيكيات الرياضية مثل متوازي أضلاع تشو وغيره من الأعمال. وصارت كلها تعرف بصورة جماعية باسم "الأعمال الكلاسيكية العشرة في الرياضيات"، واستمرت تشكل المتون الرياضية في الصين لما لا يقل عن أربعة قرون.

ليو هسين (Liu Hsin) (اشتهر ٦ ق.م - ٢٣ م)

عالم وفلكي صيني يُنسب إليه أنه أول من استخدم الكسور العشرية. كما يُعرف أيضاً بمقالة عن التقويم وحسابه لـ "ط" (π) بأنها تساوي ٣.١٥٤٧، وبعده بحوالي خمسة قرون اكتشف رياضياتي صيني آخر هو تسو تشونج - شيه (زو تشونجزي) (٤٢٩-٥٠٠ م)، الصيغة $355/113$ ، وهي شديدة القرب من العدد 3.141592 وبعده عدد لانهاى من الكسور - وهي الصيغة المقبولة اليوم.

مانافا (Manava) (اشتهر ح ٧٥٠ ق.م.)

كاهن هندي ومؤلف أحد السولباسوتراس (Sulbasutras)، وهو متن رياضياتي هندي مبكر. كانت الرياضيات في الهند القديمة تخدم أغراض الطقوس الكهنوتية في المقام الأول، واهتمت سولباسوترا مانافا بالأبعاد الدقيقة لمذابح الأضحيان. وقبل زمن طويل من محاولات الرياضياتيين الإغريق لتربيع الدائرة قدمت سولباسوترا مانافا معلومات عن تحويل المربعات أو متوازيات المستطيلات إلى دوائر. وورد بالمتن العدد $8/25$ أو 3.125 كقيمة لـ "ط".

مارينوس النيابوليسى (الناپلسى) (Marinus of Neapolis) (ح ٤٥٠ - ح ٥٠٠ م)

فيلسوف بيزنطى وأحد تلاميذ بروكلوس (٤١٠-٤٨٥ م)، كتب تعليقات فى الرياضيات والفلك. ومن المحتمل أن يكون مارينوس قد جاء من ساماريا بجوديا (فلسطين)، ودرس فى أثينا قبل أن يُعين فى مكان بروكلوس كمدير للاكاديمية. وتضمنت أعماله مقدمة لكتب إقليدس (ح ٣٢٥-٢٥٠ ق.م.) "المعطيات" و"حياة بروكلوس" ومنتين فلكيين، أحدهما عن درب اللبانة والآخر تصحيح لقواعد ثيون (ح ٢٢٥-٤٠٠ م) عن اتجاه الزيف المنظرى (parallax) فى خطوط الطول.

منيلاوس السكندرى (Menelaus of Alexandria) (٧٠٢-١٣٠٢ م)

رياضياتى وفلكى إغريقى يعتبر مؤسس حساب المثلثات الكروى، الذى استخدمه بطليموس فيما بعد فى كتابه "المجسطى". ونعلم من بطليموس أن منيلاوس كان يقوم بمشاهدات وحسابات فلكية فى روما سنة ٩٨ م، استخدمها فى حساب معدل حركة مبادرة الاعتدالين. وربما يكون كتب عن الفرضيات الكروية ووزن الأشياء وتوزيعها وعن الهندسة والمثلثات، وربما فى الميكانيكا، ولكن عمله الوحيد الذى بقى هو كتابه عن حساب المثلثات الكروى.

هيبارخوس الرودى (Hipparchus of Rhodes) (١٩٠-١٢٠ ق.م.)

فلكى إغريقى، يُنسب إليه أحياناً أنه أبو حساب المثلثات. اكتشف هيبارخوس مبادرة الاعتدالين، وهو انحراف اتجاه محور دوران الأرض، وابتكر حسابات لقياس طول السنة اقتربت من الرقم الحقيقى فى حدود ٦,٥ دقيقة. وعلى الرغم من أن دوره ككاتب لحساب المثلثات من الأمور المثيرة للجدل، فإنه يبدو أنه وضع أسس ذلك العلم

بجداوله عن أوتار الزوايا بغرض حل مسائل المثلثات، كما كان أيضاً أول رياضياتي إغريقي يقسم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة.

هيباسوس الميتابونتومي (Hippasus of Metapontum) (اشتهر حوالي سنة ٥٠٠ ق.م.)

فيلسوف فيثاغوري إغريقي يُعزى إليه اكتشاف الأعداد الصماء - أي الأعداد ذات الكسور العشرية اللانهائية دون تكرار للأرقام، ويبدو أن هيباسوس اكتشف أنه لا بد من اعتبار طول الضلع الأقصر في المثلث المتساوي الساقين رقماً أصم إذا كان طول الساقين المتساويين رقماً صحيحاً. وطبقاً لإحدى الروايات، أنه اكتشف اكتشافه هذا، بينما كان على متن سفينة مع مجموعة من الفيثاغوريين، وأن فكرة الأعداد الصماء بدت شديدة التناقض مع الآراء الفيثاغورية عن الكمال والتناسق حتى أنهم ألقوا به في البحر من السفينة. وتؤكد رواية مضادة أخرى أن فيثاغوريين غيره اكتشفوا سر الأعداد الصماء، ووفقاً لهذه الرواية، فإن هيباسوس بإفشائه هذه المعلومة لغرباء مقابل نقود قد انتهك قاعدتين من قواعد المجتمع الفيثاغوري، وهما قسم السرية وتحريم التريح من الحكمة الرياضياتية.

هيبسيكليسي السكندري (Hypsicles of Alexandria) (ح ١٩٠-١٢٠ ق.م.)

رياضياتي وفلكي إغريقي كتب عدداً من الأعمال، تضمنت ما أُطلق عليه "الكتاب التاسع" من "المبادئ". وفي هذا الكتاب، الذي كثيراً ما يُضم من قبيل الخطأ لكتابات إقليدس (ح ٣٢٥-٢٥٠ ق.م.)، أدخل هيبسيكليسي تحسينات على تناول أبولونيوس (ح ٢٦٢-١٩٠ ق.م.) لمسائل متعلقة بالمضلعات ذات الاثنى عشر ضلعاً وذات العشرين ضلعاً المرسومة داخل نفس الجسم الكروي. كما يُنسب إليه أيضاً دراسة الأعداد المضلعة، والمضلعات متعددة الوجوه المنتظمة، والمتواليات الحسابية. وظهرت

الأخيرة فى كتابه "حول صعود النجوم"، وهو أول متن فلكى يقسم دائرة البروج إلى ٣٦٠ درجة.

هيراكليس اليونانى (Heraclides of Pontus) (٣٨٧-٣١٢ ق.م.)

فيلسوف إغريقى، يُنسب إليه خطأ أنه وضع نموذجاً للكون يتمركز حول الشمس. ذكر هيراكليس، الذى تعلم على أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.)، أن كوكب الزهرة كان فى بعض الأوقات "فوق" أو "تحت" الشمس - وهى مصطلحات فهمها عدد من العلماء اللاحقين على أنها تعنى أن الكواكب كانت تدور حول الشمس. وفى الحقيقة يبدو أنه كان يقصد "أمام" أو "خلف" الشمس، ومن الواضح أنه كان يؤمن بأن الأرض هى مركز الكون. غير أنه كان أول مفكر يذكر أن الأرض تدور حول محورها مرة كل يوم.

هيرو السكندرى (Hero of Alexandria) (ح ١٠ - ح ٧٥ م)

فيزيائى إغريقى يعرف أيضاً باسم هيرون (Heron) كتب عدداً من النصوص الرياضياتية إضافة إلى أعماله الشهيرة فى الميكانيكا. ومن بين ما كتبه فى الرياضيات "حول الديوبترات" التى تتناول مسح الأراضى؛ و"الميكانيكا" وهو عمل مخصص للمعماريين؛ و"مترىكا" (Metrica) عن القياسات؛ و"ستيريومترىكا" (Stereometrica) الذى يناقش قياسات الأشياء ثلاثية الأبعاد. وكمثال على المعلومات الرياضياتية التى تضمنتها كتاباته معادلة لإيجاد الجذور التربيعية كان البابليون أول من توصلوا إليها قبل زمانه بما يقارب ألفى عام.

وانج هسياو-تونج (Wang Hs'iao-t'ung) (أشتهر ح ٦٢٥ م)

رياضياتى صينى تضمن كتابه تشى-كوسوانتشينج (Ch'i-ku Suanching) أول استخدام معروف للمعادلات من الدرجة الثالثة فى متن صينى. ويعرض العمل ٢٠ مسألة تتناول القياس، لكنه لا يقترح قاعدة لحل المعادلات التكعيبية. كان يعتبر الرياضياتى الأول فى الصين فى القرن السابع، وكان يُنظر إليه بوصفه خبيراً فى التقاويم.

ون-وانج (Won-wang) (١١٨٢-١١٣٥ ق.م.)

متصوف صينى ومؤلف كتاب "أى-كينج" أو "أيتشينج"، الذى تضمن بعض المعارف الرياضياتية. يناقش الكتاب المصفوفة، وهو قالب فيه مجموع كل الأرقام التى تجمع فى أى خط مستقيم هى نفسها. والمصفوفة، التى يعزوها المتن إلى الإمبراطور شبه الأسطورى يو (ح ٢٢٠٠ ق.م.)، له علاقة بأوجه النرد.

وينويديس الكيوسى (Oenopides of Chios) (٤٩٠؟-٤٢٠؟ ق.م.)

رياضياتى وفلكى إغريقى يُنسب إليه اكتشاف أن الشمس تتحرك فى دائرة مائلة من الشرق إلى الغرب (وهو ميل دائرة البروج). كما أنه حسب أيضاً طول السنة الكبيرة للشمس والقمر، والزمن الذى يستغرقه كل منهما كى يعود إلى نفس الموقع النسبى فى السماء. خمن وينويديس، خطأ، أن سبب فيضانات نهر النيل تغيرات فى درجات الحرارة تحت الأرض، وربما يكون قد كتب عن تراكيب الهندسة.

يامبليخوس (Iamblichus) (اشتهر ح ٣٢٠م)

فيلسوف سورى شددت أعماله على السمات الصوفية لنظرية الأعداد الفيثاغورية. وطبقاً لما قاله يامبليخوس، فإن فيثاغورس (ح ٥٨٠ - ح ٥٠٠ ق.م.) نفسه اكتشف أعداداً "متحابة"، وهى أزواج من الأعداد كل واحد منها يساوى مجموع عوامل الأعداد التى يقبل العدد الآخر القسمة عليها. ويتوسيع نطاق السمات غير العلمية للرياضيات الفيثاغورية - وهى سمات تعود من نواح كثيرة إلى فيثاغورس شخصياً - فإن يامبليخوس أسهم فى استمرار الاهتمام بالأعداد والسحر والتنجيم.

يوتوكيوس العسقلانى (Eutocius of Ascalon) (ح ٤٨٠ - ح ٥٤٠ م)

عالم بيزنطى شرق أوسطى شكلت كتاباته عن تاريخ الرياضيات مصدراً قيماً للمعلومات. كتب يوتوكيوس تعليقات على ما كتبه أرشميدس (ح ٢٨٧-٢١٢ ق.م.) عن قياس الدائرة، وحول الأجسام الكروية والاسطوانية، وحول توازن المستويات، كما كتب تعليقات عن الكتب الأربعة الأولى لأبولونيوس البرجاوى (ح ٢٦٢ - ح ١٩٠ ق.م.). ويعود الفضل إلى يوتوكيوس فى أن المؤرخين المحدثين صارت لديهم دراية بطول مشكلة مضاعفة المكعب التى قام بها عدد من المفكرين، وكذلك معارف خاصة بأشياء أخرى لولاه لكانت ضاعت.

يوديموس الرودى (Eudemus of Rhodes) (ح ٣٥٠ - ح ٢٩٠ ق.م.)

فيلسوف إغريقى وأول مؤرخ كبير للرياضيات. درس يوديموس على أرسطو (٢٨٤-٣٢٢ ق.م.) وأصبح من أصدقائه المقربين. وعاد فيما بعد إلى موطنه رودس، حيث كتب عدداً من الأعمال تضمنت "تاريخ الهندسة" و"تاريخ الفلك". وعلى الرغم من

أن هذين الكتابين قد ضاعا فإن أغلب محتوياتها قد انتقلت إلى كُتَّاب قدامى آخرين،
وهما يمثلان سوياً مصدراً رئيسياً للمعلومات عن مفكرين قداماء مختلفين ومنجزاتهم.
ومن اللافت للنظر كذلك أن يوديموس احتفظ بمذكرات عن دروس معلمه الكبير، وبذلك
حفظ كثيراً من تعاليم أرسطو.

سجل بالمراجع الأساسية

أبقراط الكيوسى (Hippocrates of Chios). مبادئ الهندسة" (ح ٤٦٠ ق.م.). كان ذلك العمل، المفقود الآن، كتاباً مرجعياً فى الرياضيات. وهو أول كتاب من نوعه، وقُدِّر له أن يكون ذا تأثير هائل على كتاب آخر بعنوان مشابه، وهو "المبادئ" لإقليدس ندى التأثير العميق. وفى هذا العمل، الذى عُرف من خلال كتابات أرسطو وبروكلوس وغيرهما، أصبح أبقراط أول رياضياتى يتبنى المنهج الدقيق والمنطقى لابتكار نظريات هندسية من المسلمات والفرضيات. ومن المحتمل أيضاً أن "مبادئ الهندسة" حوى أول تفسير مكتوب للمبادئ الفيثاغورية، لأن الفيثاغوريين الذين سبقوه لم يكونوا يؤمنون بكتابة أفكارهم.

أبولونيوس البرجاوى (Apollonius of Perga). "المخروطات" (ح ٢٠٠ ق.م.). يتكون هذا العمل من ٨ كتب تحوى حوالى ٤٠٠ نظرية. وفى هذا البحث العظيم وضع أبولونيوس طريقة جديدة لتقسيم مخروط لكى يحصل على دوائر، وناقش القطع الناقص (الإهليلج) والقطوع المكافئة والقطوع الزائدة - وهى أشكال كان هو أول من تعرف عليها وأعطاهما أسماء. وبدلاً من الأجسام الكروية المتراكزة (أى المتحدة المركز) التى استخدمها يودوكسوس، اقترح أبولونيوس مفاهيم الأفلاك الدائرية والتدويرية والأفلاك اللامتراكزة أى غير المتحدة المركز الهندسى، وهى أفكار أثرت فيما بعد على دراسات بطليموس للكون. بل كان الأمر الأكثر أهمية إبتعاده عن النزعة الفيثاغورية بتجنب اللانهائيات والأحجام متناهية الصغر: بأن فتح أذهان الرياضياتيين على هذه النهايات المتطرفة، وبذلك أسهم أبولونيوس فى نشأة حسابات

التفاضل والتكامل الخاصة بالأعداد متناهية الصغر بعد ألفى سنة. غير أن أهم عامل في هذا العمل الهائل لم يكن مسألة واحدة بعينها وإنما تناوله العام للموضوعات الذى نبه أذهان الرياضياتيين إلى فكرة التوصل إلى المقاطع المخروطية عن طريق معالجة المخروطات من زوايا مختلفة. وباستخدام نظام الخطوط المستعرضة (*latus transversum*) والخطوط القائمة (*latus erectum*)، وهى خطوط متعامدة ومتقاطعة، استبق أبولونيوس نظام الإحداثيات الذى استخدم فيما بعد فى الهندسة التحليلية.

أرسطو. "أورجانون" (ح ٣٤٠ ق.م.). سلسلة من الأعمال شملت "التحليل المسبق" والتحليل المتأخر، رسخ فيها أرسطو عدداً من القواعد الأساسية لعلم المنطق، استُخدمت فى البحوث الفلسفية والرياضيات وغيرها من فروع العلم. وحدد فيها على وجه الخصوص قواعد الجدل الاستنتاجى وابتكر التدوين الرمزي للتعبير عن تلك الجدليات.

أرشميدس. "حول توازن الكواكب" (ح ٢٤٠ ق.م.). يناقش أرشميدس هنا ميكانيكا الروافع وأهمية مركز الجاذبية فى توازن الأوزان المتساوية.

أرشميدس. "حول الكرويات والاسطوانات" (ح ٢٤٠ ق.م.). فى هذا العمل بنى أرشميدس أفكاره على أعمال سابقة لإقليدس لكى يتوصل إلى استنتاجات خاصة بالأجسام الكروية والمخروطية والاسطوانية. وكما ذكر سيمونز (١٩٩٦) فى مجلة "المئة العلميون" (Scientific 100) أثبت أرشميدس أنه لو رسمنا إسطوانة داخل نصف كرة والأخيرة داخل إسطوانة، وكلها متساوية فى القاعدة والارتفاع، فإن نسبة أحجامها تكون ١ : ٢ : ٣. ويضاف إلى ذلك أن مساحة سطح الكرة تساوى ثلثى مساحة الإسطوانة التى تضمها". وقد سر أرشميدس سروراً بالغاً من اكتشافه هذا حتى أنه طلب من أسرته أن تنقش كرة وإسطوانة على شاهد ضريحه.

أرشميدس. "عن الأجسام الطافية" (On Floating Bodies) (ح ٢٤٠ ق.م.). استخدم أرشميدس هذا الكتاب كى يطرح من خلاله نظريته الخاصة بإزاحة الماء وأسهم بذلك فى نشأة علم الهيدروستاتيكا (علم توازن الموائع). وفى هذا الكتاب أثبت أنه عندما يطفو أى جسم بأى شكل أو وزن على سطح الماء فإن قوة طفوه الرأسية تساوى وزن المياه التى أزاحها. وتقول إحدى الأساطير، إن أرشميدس استوعب لأول مرة العلاقة بين وزن الأجسام الطافية وما ينتج عن ذلك من زيادة فى مستوى المياه أثناء ما كان يراقب ارتفاع مستوى المياه أثناء غطسه فى حوض الاستحمام. وقيل إنه اشتد حماسه لهذه الفكرة لدرجة أنه قفز من الحوض وهو عار تماماً وجرى فى الشوارع يعلن عن اكتشافه.

أريابهاثا (Aryabhata) "أريابهاثيا" (Aryabhatiya) (٤٩٩م). طور هذا الكتاب قواعد مختلفة للحساب وحساب المثلثات، بعد أن جمع معارف من قدامى فلكيي الإغريق والهنود، كما أضاف إليها من أريابهاثا نفسه. كما احتوى الكتاب على عدد من "أوائل الأشياء" المهمة أو ما يقاربها على شاكلة واحد من أوائل الأمثلة المسجلة على استخدام الجبر. ويضاف إلى ذلك أن الكتاب كان من أوائل الكتب التى ورد بها نظام القيمة الموقعية للأعداد (أى خانات الآحاد والعشرات والمئات ... إلخ). وكان لتلك الأفكار تأثيرات بالغة الأهمية عندما انتقلت إلى الغرب، مثلها فى ذلك مثل فكرة أخرى استخدمها أريابهاثا فى كتابه وهى نظام الأعداد الهندية.

أريستاىوس الأكبر (Aristaeus the Elder). خمسة كتب تتعلق بالمحل الهندسى للجوامد" ، (ح ٢٩٠ ق.م.). تناول الكتاب منحنيات المخروطات وخطوطها ونقاطها، وفيما بعد أتى إقليدس على هذا الكتاب كمصدر للكثير مما كتبه عن المخروطات فى الكتاب الثالث عشر من "المبادئ".

أفلاطون (Plato) "الجمهورية" (ح ٢٨٠ ق.م). ذكر أفلاطون هنا أن الهندسة المسطحة وهندسة الجوامد هما اثنتان من العلوم الخمسة الضرورية لتثقيف الملك-الفيلسوف. وإتقان الهندسة يدرّب التلميذ على الجدل المنطقي ويعلمه أن يبحث عن الحقيقة ويعشقها، التي قدمها أفلاطون في أطر هندسية مثالية وخالدة. ومعنى ذلك أن معرفة الهندسة والمنطق أصبحتا من المتطلبات الأساسية لدراسة الفلسفة. كما سجل أفلاطون أيضاً الجهود البحثية لثيودوروس وثياتيتوس، كى يثبت هندسياً وجود الأعداد الصماء بين الجذور التربيعية للأعداد ٢ و ١٧.

إقليدس (Euclid). المبادئ (ح ٢٠٠ ق.م). يعتبر إنجيل الهندسة لألفى عام، ويبقى هذا الكتاب أعظم الكتب تأثيراً في التاريخ، وواحداً من الأعمال الأساسية في الحضارة الإنسانية. وهو فى مجمله تلخيص للمعارف الرياضياتية التى انتقلت من فيثاغورس وخلفائه، وتكمن عبقريته فى تفاسيره المقنعة للمبادئ الأساسية، وشروحه الواضحة والمتقنة للبراهين الهندسية. ويتكون النص من ١٣ كتاباً شرح فيه إقليدس ما يقرب من ٤٥٠ نظرية، ويبدأ الكتاب بتعريف النقاط والخطوط والمستويات والزوايا والدوائر والمثلثات والأشكال رباعية الأضلاع والخطوط المتوازية. وفى الكتاب الثانى يناقش إقليدس المستطيلات والمربعات؛ وفى الكتاب الثالث الدوائر؛ وفى الرابع الأشكال متعددة الأضلاع. ثم يتناول الكتاب النسب والمساحات (الكتاب الخامس)، ويتبعها تطبيقات لهذه النظرية على الهندسة المسطحة (الكتاب السادس). ويغضى الكتاب السابع الحساب، والثامن الأعداد الصماء، والكتاب التاسع الأعداد المنطقية النسبية، بينما يخصص باقى الكتاب لمناقشة الهندسة ثلاثية الأبعاد أو هندسة الجوامد. وتبقى فرضيات إقليدس الخمسة من بين أهم سمات العمل؛ وتركز أول ثلاثة منها على الرسم باستخدام المسطرة المستقيمة والفرجار، وهى الأدوات الوحيدة فى الهندسة الإقليدية، بينما تقرر الفرضية الرابعة أن كل الزوايا القائمة متساوية. غير أن أكثر الفرضيات إثارة للجدل هى الفرضية الخامسة التى تناقش العلاقة بين خطين مستقيمين موضوعين بجوار بعضهما.

أوتوليكوس البيتانى (Autolykus of Pitane) . حول الأجسام الكروية المتحركة
و"عن الشروق والغروب" (ح ٢١٠ ق.م.)، هما أقدم ما تبقى من الأعمال الرياضياتية.
ويحوى "حول الأجسام الكروية المتحركة" دراسة فى الهندسة الكروية مع تطبيقات
فلكية صريحة، أما "عن الشروق والغروب" فهو عمل عن المراقبات الفلكية البصرية.
ومن المحتمل أن أولهما مبنى على كتاب فى الهندسة ليودوكسوس الكنيديوسى مفقود
الآن، الذى كان أوتوليكوس يؤيده.

إيراتوستينز (Eratosthenes) . الجغرافيا". عمل مفقود نشر فيه إيراتوستينز
نظرياته وحساباته. والعنوان هو أول استخدام معروف لمصطلح "جغرافيا"، الذى يعنى
"الكتابة عن الأرض". وعلى الرغم من أن حساباته أثارت الجدل فى زمنه، فإنها
أسهمت فى نشأة الخرائط والكرات الأرضية التى بقيت أدق ما أنتج لما يربو على ألف
عام. وأثار ذلك بدوره الاهتمام بالجغرافيا والجيوديسيا (علوم المساحة)، وشجعت على
الاستكشافات البحرية الإقليمية باستخدام أكثر أجهزة الملاحة بدائية. ويضاف إلى ذلك
أن عمل إيراتوستينز أسهم فى ترسيخ الإيمان بكروية الأرض، وحفز على ظهور نظرية
مبكرة عن أن الحرارة أو البرودة النسبية لموقع ما تحددها المسافة بينه وبين خط
الاستواء. كما أسهم "الجغرافيا" أيضاً فى ترسيخ فكرة وجود أجزاء مقابلة على
"الجهة الأخرى" من الأرض بها أراض وشعوب.

إيراتوستينز. "حول قياس الأرض" (ح ٢٢٥ ق.م.). هذا الكتاب، وهو مفقود
الآن، هو علامة على نشأة علم الجيوديسيا (المساحة)، وهو الفرع من الرياضيات
الذى يتعامل مع تحديد حجم الأرض وشكلها ومواقع النقاط على سطحها.
ومن بين الموضوعات التى يتناولها هذا العلم خطوط العرض والطول، التى
كان إيراتوستينز رائدها فى خرائطه، وهى التى كانت أدق الخرائط فى العالم
فى زمانه.

بابوس الإسكندري (Pappus of Alexandria) . المجموعة (Synagoge) القرن الرابع م). هى دليل فى الهندسة، وفى نفس الوقت تضمنت أعمال رياضياتيين قدامى، وكانت، فى أحوال كثيرة، المصدر الوحيد الذى بقى لتلك الأفكار. كما حوت أيضاً أعمالاً مؤثرة فى الهندسة الفلكية والهندسة الإسقاطية، واستخدم كل من رينيه ديكارت وإيزاك نيوتن أعمال بابوس.

بانينى (Panini). "أستادهيايى" (Astadhyayi) (ح ٤٠٠ ق.م). يقدم بانينى فى هذا العمل حوالى ٤٠٠ قاعدة لغوية للسنسكريتية، التى - بفضل القواعد التى وضعها - بقيت إلى حد كبير دون تغيير للألفى عام التالية. وشبَّهت القواعد اللغوية التى وضعها بانينى بالدالات الرياضياتية، وقيل إن نظام الأعداد والمنطق الرياضياتى الهنديين مرتبطان بتركيبية اللغة السنسكريتية.

براهماجوپتا (Brahmagupta) "براهماسفوتاسيدهانتا" (Brahmasphutasiddhanta) (افتتاح الكون، ٦٢٨م). يُعرَّف هذا العمل الصفر بأنه النتيجة التى يتوصَّل إليها عندما يُطرح رقم من نفسه - وهو أدق تعريف للصفر حتى ذلك الوقت. كما قدم براهماجوپتا أيضاً قواعد "للثروات" و"الديون" (الأعداد الموجبة والسالبة)، واستخدم نظاماً للقيمة الموضعية للأعداد مماثلاً للنظام الموجود اليوم. وإضافة إلى ذلك، يقدم العمل حسابات للجذور التربيعية، وهى طريقة لحل المعادلات من الدرجة الثانية، وصورة بدائية لرموز الجبر.

بوثيروس (Boethius) (الحساب) (ح ٥٢٠م). هذا العمل سيصبح مستقبلاً مصدراً رئيسياً فى العصور الوسطى لنظرية فيثاغورس عن الأعداد.

تشانج تسانج. تشو-تشانج سوان-شو أو جيوزانج سوانشو (تسعة فصول فى فنون الرياضيات، ح ١٦٠ ق.م). وليس من المؤكد أن تشانج قد ألف ذلك العمل. وعلى

أية حال فهذا العمل، وهو أقدم نص صيني رياضياتي، يحتوى على ٢٤٦ مسألة، عرضها فى تسعة فصول كما يشير عنوان العمل. وبعد ما يقرب من أربعة قرون كتب ليو هيو تعليقاته الشهيرة على كتاب "تسعة فصول".

ثيودوسيوس البيثينياوى (Theodosius of Bithynia) "الأجسام الكروية" (Sphaerics)
(القرن الثانى ق.م.). قُصد بهذا الكتاب أن يكون أساساً رياضياتياً للفلك، وتوسع عن "المبادئ" لإقليدس فيما يتعلق بالأجسام الكروية.

جمينوس (Geminus) نظرية الرياضيات (ح ١٠٠ ق.م.). يغطى هذا العمل، وهو مفقود الآن، نظرة شاملة للهندسة. وكانت الهندسة وقتئذ قد ترسخ وضعها منذ زمن كعلم مستقل بين الإغريق، مما أتاح لجمينوس منظوراً معيناً لم يكن متاحاً أمام من سبقوه. ولذلك أخذ على عاتقه تعريف الرياضيات ككل، وأن يصنفها داخل إطار العلوم. وشكل ذلك محاولة مبكرة قيمة لإعطاء شكل لعلم الرياضيات، ووضعها فى إطار البحث العلمى.

دارماكيرتى (Dharmakirti). "الأبحاث السبعة" (القرن السابع م). اقترح فيه نظاماً للمنطق القياسى كان له تأثير عميق فى الشرق. فى هذا العمل حدد دارماكيرتى نمطاً دقيقاً من المنطق القياسى كان، مثل نظيره فى الغرب، يتكون من ثلاثة أجزاء؛ غير أن الهدف من تلك الأجزاء الثلاثة - والمنهجية التى حكمت استخدامها - كانت مختلفة اختلافاً جذرياً.

ديوفانتوس السكندرى (Diophantus of Alexandria) "الحساب" (Arithmetica)
(ح ٢٥٠م). يعتبر واحداً من أعظم الأعمال الرياضياتية فى زمانه وأول عمل مترابط منطقياً يتناول نظرية الأعداد فى تاريخ الرياضيات. ويبدو أنه كان يتكون من ١٣ جزءاً، لم يبق منها إلا ٦ أجزاء، وفيه يصف ديوفانتوس فرضيات عديدة عن نظرية

الأعداد، منها واحدة ألهمت بيير دي فيرمات كى يقدم "النظرية الأخيرة" الشهيرة. وعلى الرغم من أن رياضياتيين أقدم، منهم المصريون والبابليون، تناولوا عدداً من مسائل نظرية الأعداد التى قدمها ديوفانتوس، فإنه لم يحدث من قبل أنها جمعت بين دفتى عمل واحد. وأسهم هذا الجمع لمسائل نظرية الأعداد فى نشأة النظرية كفرع مستقل من الرياضيات.

ديوكليس (Diocles). "عن المرايا الحارقة" (ح القرن الأول ق.م.). يكاد هذا المخطوط الممزق أن يكون السبب الوحيد لمعرفةنا بديوكليس. ففيه لم يكتف بمناقشة المشكلة الفيزيائية التى ينم عنها العنوان، وإنما تطرق إلى أشياء أخرى مثل قطع جسم كروى فى مستوى مسطح، كما ناقش أيضاً المشكلة الديليانية الشهيرة وهى مضاعفة المكعب. ومن المحتمل أن "عن المرايا الحارقة" كان فى حقيقة الأمر تجميعاً لثلاثة أعمال منفصلة جمعها تحت عنوان واحد لا يعكس حقيقة جميع المواضيع. وعلى أية حال، يتكون الكتاب من ١٦ فرضية هندسية غالبيتها تتعلق بالمخروطات.

زينو الإليوى (Zeno of Elea) إبيشيريماتا (Epicheiremata) (ح ٤٥٠ ق.م.). يبدو أنه كان يحوى "مفارقات" المؤلف الشهيرة، التى ادعى أفلاطون وجود أربعين منها أو أكثر. وقد ضاع الكتاب وغالبية المفارقات منذ زمن بعيد، على الرغم من أنه من المرجح أن المسائل الأخرى كانت مماثلة فى جوهرها للأربعة التى بقيت. وقد فشلت هذه المفارقات الأربع فى محاولتها إثبات أن الحركة مستحيلة، لكنها تركت أثراً على الفلاسفة فى إثبات أهمية المنطق. ومن خلال استخدام المنطق، يبدو أن زينو ذكر مجموعة من الأقوال لا يمكن أن تكون صحيحة. ومن هنا ولدت الدراسة العلمية للجديلية، التى خلّبت ألباب الفلاسفة والرياضياتيين منذ ذلك الوقت.

كليوميديس (Cleomedes) عن الحركة الدائرية للأجرام السماوية" (القرن الأول م.). يحوى هذا العمل معلومات قيمة عن أعمال من سبقوا كليوميديس وكانوا أكثر شهرة

منه. ويكاد يكون الكتاب كله عبارة عن أفكار مأخوذة من آخرين، أهمهم بوزيدونيوس، ويحتوى على مزيج من معطيات دقيقة وأخرى بعيدة كل البعد عن الدقة. وأهم ما فى الكتاب أنه المصدر الرئيسى عن المنهاج الذى اتبعه إيراتوستثنيز فى قياسه الشهير لمحيط الكرة الأرضية.

لى تشونج-فنج. "عشرة كلاسيكيات فى الرياضيات" (ح ٦٥٠ م). كان لى تشونج-فنج يقود جماعة من العلماء وضعت تعليقات على كتاب "تسعة فصول فى فنون الرياضيات" و"ساعة تشو الشمسية، من كلاسيكيات الرياضيات" وغيرها من الأعمال. وعُرفت هذه التعليقات جميعها باسم "عشرة كلاسيكيات فى الرياضيات"، الذى أصبح المرجع النهائى للرياضيات فى الصين لأربعة قرون على الأقل.

ليو هيو. "تعليقات على تسعة فصول فى فنون الرياضيات" (ح ٢٦٣ م). كان كتاب "تسعة فصول" متناً مجهول المؤلف يعود تاريخه إلى القرن الأول ق.م. وهو أقدم متن صينى معروف فى الرياضيات، ويحتوى على ٢٤٦ مسألة، معروضة فى تسعة فصول، كما يشير العنوان. أولها يتناول الحساب وأساسيات الهندسة، وبه مناقشة لعصى العد.

مانافا (Manava) "سولباسوتراس" (Sulbasutras) (ح ٧٥٠ ق.م.). هذه هى متون هندية قديمة فى الرياضيات، كتب مانافا واحداً منها. كان الهدف الأول للرياضيات فى الهند القديمة أن تكون فى خدمة الطقوس الكهنوتية، ويتناول سولباسوترا مانافا التصميم الدقيق لمذابح الأضحيان. وقبل زمن طويل من محاولات الرياضياتيين الإغريق تربيع الدائرة قدم سولباسوترا مانافا معلومات عن تحويل المربعات أو المستطيلات إلى دوائر. ومن بين القيم المتعددة للقيمة التقريبية "ط" (π) التى وردت فى النص نجد الرقم ٨/٢٥ أو ٣,١٢٥ .

نيكوماخوس (Nicomachus) مقدمة فى الحساب (Arithmetike eisagoge) ح ١٠٠م). مرجع رياضياتى ترك تأثيراً عميقاً وإن كان غريباً، فيه يتفحص نيكوماخوس الأعداد الفردية والزوجية والأولية والمركبة والتامة. كما يقدم أيضاً نظرية لافتة للنظر يثبت بها أن جمع أعداد فردية متتالية منها عدد إضافى ينتج سلسلة من مجموع كل مكعبات الأعداد. كما يكشف الكتاب عن جانب غريب ولا يمت إلى العلم بصلة من جوانب الرياضيات الفيثاغورية، الذى يقرن الشخصيات بالأعداد. واستهجن بابوس وغيره من رياضياتى العالم القديم المتأخر كتاب نيكوماخوس، بينما كشف بوتيوس عن نفسه بوصفه قروسطى قح بإظهار إعجابه بالكتاب. فحواله إلى كتاب مدرسى، وعلى الرغم من غرابته، وربما بسببها، أصبح العمل الكتاب المعيارى للحساب فى العصور الوسطى. ولم يحدث إلا بعد الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١) أن تم استبداله، بعد أن اطلع الأوروبيون الغربيون بصورة متزايدة على الصورة العربية لأعمال قديمة أكثر أهمية.

نيكوميديس (Nicomedes) عن المنحنيات المحارية (ح ٢٥٠ ق.م). هذا العمل هو أهم ما كتبه المؤلف، ولعله عمله الوحيد المكتوب، وقد فقد الآن. غير أن أجزاء منه بقيت فى أعمال آخرين زودت المؤرخين بمعلومات عن المنحنيات المحارية والما (= التمهيدية وهى نظرية ابتدائية تستخدم فى إثبات نظرية أخرى). والأولى تبدو مثل ما يصفه شخص حديث بمنحنى ناقوسى شديد الفلطة، ولكنها كانت تبدو للإغريق مثل كائن بحرى؛ ومن هنا جاء اشتقاق الاسم من المحارة (konche) وهناك خط تحت هذا المنحنى وتحت نقطة موازية لأوج المنحنى. ويتحدد طول المسافة بين القمة إلى النقطة السفلية يمكن تحديد مسافتين مساويتين فى الطول - كلاهما يتقاطعان مع المنحنى - على جانبى النقطة. وأدى ذلك بدوره إلى وجود زاوية مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، مما وفر حلاً لواحدة من أكبر المسائل فى التاريخ القديم. أما «الما» فهى نظرية ثانوية اكتشفها هو أثناء عمله على مسألة مضاعفة المكعب.

هيبسيكليسي السكندري (Hypsicles of Alexandria) المبادئ، الكتاب الرابع عشر (ح ١٥٠ ق.م). فى هذا الكتاب الذى كثيراً ما ينسب خطأ إلى إقليدس، أدخل هيبسيكليسي تحسينات على تناول أبولونيوس للمشاكل المتعلقة بشكل ذى اثنى عشر وجهاً وعشرينى الأوجه المرسومين على نفس الجسم الكروي. ويُنسب إلى هيبسيكليسي أيضاً أعمال تتناول الأعداد المضلعة ومتعددات الوجوه المنتظمة والمتواليات الحسابية. والأخيرة تظهر فى كتابه "إشراق النجوم" وهو أول متن فلكى يقسم دائرة البروج إلى ٣٦٠ درجة.

هيرو السكندري (Hero of Alexandria) "مترىكا" (Metrica) (ح القرن الأول م). عمل مهم فى الهندسة فقد ولم يعاد اكتشافه إلا سنة ١٨٩٦، ويحتوى العمل على معادلات لحساب مساحات الأشياء مثل: المثلثات والمخروطات والأهرامات. وكثيراً ما يُنسب إلى هيرو حساب مساحة المثلث، غير أنه من المحتمل أنه أخذها من أرشميدس أو البابليين.

وانج هسياو-تونج. "تشيكو-سوان-تشينج" (ح ٦٢٥ م). يتضمن أول معادلات تكعيبية معروفة فى نصوص صينية. ويحتوى العمل على ٢٠ مسألة فى القياس، ولكنه لا يحتوى على أية قاعدة لحل المعادلات التكعيبية. ويعتبر وانج هسياو-تونج أبرز الرياضياتيين فى القرن السابع وواحداً من الخبراء فى التقويم.

وون-وانج. "آى-تشينج" (ح ١١٥٠ ق.م). يشمل هذا العمل بعض المعارف الرياضياتية. ويناقش الكتاب المربع السحري، وهو مصفوفة فيها يتساوى مجموع كل الأعداد المصفوفة فى اتجاه أى خط مستقيم. والمربع السحري، الذى يُنسب إلى الإمبراطور الأسطوري وو، له علاقة بأوجه حجر الترد.

يودوكسوس الكنيديوسى (Eudoxus of Cnidus) "عن السرعات" (ح ٢٧٥ ق.م.).
يقدم المؤلف هنا نظرية جديدة عن حركات الشمس والقمر والكواكب. وبناء على
الشكل الكروي للأرض تخيل يودوكسوس سلسلة من الكرات المتحدة في المركز، وفي
النهاية ابتكر وصفاً لسبعة وعشرين جسمًا كروياً ضرورية لتصوير حركة كل
الأجرام المعروفة.

يوديموس الروديسى (Eudemus of Rhodes) تاريخ الهندسة وتاريخ الفلك (القرن
الرابع ق.م.). رغم أن تلك الكتب قد فُقدت إلا أن الكثير مما كانت تحويه قد انتقل إلى
مؤلفين قدامى آخرين، وهى تشكل فى مجملها مصدراً رئيسياً للمعلومات عن عديد من
المفكرين القدماء ومنجزاتهم.

نيل شلاجر (NEIL SCHLAGER)

المساهمون في سطور :

- أمى أكبرج - هاستنجز (Amy Ackerberg - Hastings) باحثة مستقلة.
- مارك هـ. ألتيو (Mark H. Allenbaugh) محاضر بجامعة جورج واشنطن .
- جيمس أ. ألتينا (James A. Altina) جامعة شيكاغو .
- بيتر ج. أندروز (Peter J. Andrews) كاتب مستقل .
- كينيث إ. بارير (Kenneth E. Barber) أستاذ البيولوجيا بجامعة ولاية أوكلاهوما .
- بوب باتشلور (Bob Batchelar) عضو بالمؤسسة القانونية أرترو هادن .
- كاترين باتشلور (Hatherine Batchelor) باحثة وكاتبة مستقلة.
- شيرى تشاسين كالفو (Sherri Chasin Calva) كاتبة مستقلة .
- هـ.ج. إيزنمان (H.J. Eisenman) أستاذ التاريخ بجامعة ميسورى - رولا .
- إلين الفياشى (Ellen Eighobashi) كاتبة مستقلة .
- ليندساي إيفانز (Lindsay Evans) كاتب مستقل .
- لورين بتلر ففر (Loren Butler Feffer) باحث مستقل .
- راندولف فيلمور (Randoiph Fillmaore) كاتب علوم مستقل .
- ريتشارد فيتزجيرالد (Richard Fitzgerald) كاتب مستقل .
- موراس . فلانرى (Maura C. Flannery) أستاذ البيولوجيا بجامعة سانت جون بنيويورك .

دونالد ر. فرانزشتي (Donald R. Franceschetti) أستاذ متميز للفيزياء والكيمياء
بجامعة ممفيس .

ديان ك. هوكينز (Diane K. Hawkins) مدير العلوم بجامعة سانت جونز بنيويورك .

روبرت هندريك (Robert Hendrick) أستاذ التاريخ بجامعة سانت جونز بنيويورك.

جيمس ج. هوفمان (Hames J. Hoffmann) كلية وادي ديابلو .

لزلي هتشينسون (Leslie Hutchinson) كاتب مستقل .

جوزيف ب. هايدر (Joseph P. Hyder) مراسل علمي تاريخ الرياضيات والعلوم .

ب. أندرو كرم (P. Andrew Karam) قسم طب البيئة بجامعة روتشستر .

إيفلين ب. كيلي (Evylin B. Kelly) أستاذ التربية بجامعة سانت ليو بفلوريدا .

جيسون نايت (Judson Knight) كاتب مستقل .

ليندال لانداور (Lyndall Landaur) أستاذ التاريخ بكلية ليك تاهو كوميونيتي .

جوش لاور (Josh Lauer) محرر وكاتب . رئيس مؤسسة لاور للمعلومات .

أدريين ويلموث ليرنر (Adrienne Wilmoth Lemer) قسم التاريخ بجامعة فاندريلت.

برندا ويلموث ليرنر (Brenda Wiimoth Lener) مراسل علمي .

ك. لي ليرنر (K. Lee Lemer) أستاذ متفرغ للبحث بمعهد العلوم كلية شو .

إريك ف. دي لوفت (Eric V.d. Luft) أمين متحف التاريخ بجامعة ولاية نيويورك

العليا .

لويز ن. ماجنر (Lois N. Magnet) أستاذة متفرغة بجامعة بيردو .

آل ت. ماسدن (Ann T. Marsden) كاتبة مستقلة .

كيلا سلاانيتش (Kyla Masianiec) كاتبة مستقلة.

وايم مكبيك (William McPeak) باحث مستقل معهد الدراسات التاريخية سان
فرانسييسكو .

دنكان ج. ملفيل (Duncan J. Melville) أستاذ الرياضيات المشارك جامعة سانت
لورنس .

ساره س. ملفيل (Sarah C. Melville) أستاذة مساعدة زائرة جامعة سانت لورنس.

إديث برنتيس منديز (Edith Prentce Mendez) أستاذة مساعدة للرياضيات جامعة
سونوما الحكومية .

ليزلى ميرتز (Leslie Mertz) بيولوجى وكاتب علوم مستقل .

ج. وايم مونكراف (J. William Mchcrief) أستاذ الكيمياء بكلية ليون .

ستاسى ر. فرى (Stacey R. Murray) كاتب مستقل .

ليزا نوكس (Lisa Nocks) مؤرخة للعلوم والحضارات .

ستيفن د. نورتون (Stephen D. Norton) لجنة تاريخ وفلسفة العلوم جامعة ماريلاند .

نيل شلاجر (Neil Schiager) محرر وكاتب ورئيس مجموعة شلاجر .

جارى س. ستودت (Gary S. Stoudt) أستاذ الرياضيات جامعة إنديانا فى
بنسلفانيا .

دين سوينفورد (Dean Swinford) طالب دكتوراه بجامعة فلوريدا .

لانا تومبسون (Lana Thompson) كاتبة مستقلة .

تود تيمونز (Todd Timmons) قسم الرياضيات كلية وستارك .

فيليبيا تكر (Phillippa Tucker) طالبة دراسات عليا جامعة فيكتوريا فى ولنجتون بنيوزيلاندا .

دافيد تولوك (David Tulloch) خريج جامعة فيكتوريا فى ولنجتون بنيوزيلاندا .

ستيفاني واتسون (Stephanie Watson) كاتبة مستقلة

جيزل فايس (Giselle Weiss) كاتبة مستقلة

مايكل تانسي (Michael Tancey) كاتب مستقل

المترجم فى سطور:

أىمن توفىق

أستاذ متفرغ بكلية طب البنين - جامعة الأزهر .

ولد فى القاهرة سنة ١٩٣٧ .

من مؤلفاته وترجماته :

"تارىخ الجراحة منذ أقدم العصور" ، مؤلف إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب

فى ٢٠٠٩ .

"شبح الملك ليوبولد" ، مترجم ، إصدار المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩ .

"رومانسية العلم" ، مترجم ، إصدار دار سطور الجديدة ، ٢٠٠٩ .

"الأمراض المعدية وعلاجاتها" ، مترجم ، إصدار دار سطور الجديدة ، ٢٠١٠ .

"تارىخ الأحداث الكبرى" ، مترجم ، إصدار المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠ .

التصحيح اللغوى: محمد الشريينى

الإشراف الفنى: حسن كامل

